سلسلة الأنبياء

في ضوء القرآن الكريم

سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ المُصْطَفَى ﷺ

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م

إسطنبول: ١٤٤١/ ٢٠٢٠
اسم الكتاب باللغة التركية:

Hz. Muhammed Mustafa (ﷺ)
1. Cilt Mekke Devri
2. Cilt Medine Devri

اسم الكتاب بالعربية: سيِّدُنا محمَّدٌ المصطفى ﷺ

الترجمة للعربية: خليل أروت

مراجعةو تصحيح وتدقيق: د. أرسين إشجي أوغلو/ محمد بعاج/ إياد عمار.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٨٩٣١

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

Adres : İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

سلسلة الأنبياء

في ضوء القرآن الكريم

سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ الْمُصْطَفَى ﷺ

عثمان نوري طوپباش

دار الأرقم

يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم: ٤)

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(الأحزاب: ٢١)

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٥٦)

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(الحشر: ٧)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسول وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾

(محمد: ٣٣)

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾

(النساء: ٦٩)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

(التوبة: ٦٣)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٢٨)

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(آل عمران: ٣١)

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

(آل عمران: ٣٢)

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٤٠)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾

(محمد: ٢)

يقول سيدنا النبي ﷺ:

«إنَّما بُعِثت لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ»

(موطأ مالك: حسن الخلق، ٨)

«إنَّه ليسَ شيءٌ بينَ السَّماءِ والأرضِ إلا ويعلمُ أنَّي رسولُ الله إلا عاصيَ الجنِّ والأنسِ»

(أحمد، مسند: ٣، ٣١٠)

«تَركتُ فِيكُم أمرَينِ لَن تَضِلُّوا ما تَمسَّكتُم بهما؛ كِتابَ الله وسنةَ نَبيِّه»

(موطأ مالك: القدر، ٣)

«إني فرَط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»

(البخاري: الجنائز، ٧٣؛ مسلم: الفضائل، ٣١)

«ألا وإني فرَط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يَرِده عليَ غدًا فليكف يده ولسانه إلا فيما ينبغي»

(البخاري: الصلاة، ٨٠؛ ابن سعد: ٢، ٢٢٧)

ورد عن مولانا جلال الدين الرومي:

«إني عبدٌ للقرآن الكريم، وترابُ دربِ محمَّد المختار ﷺ ما دامت الروح في هذا الجسد...

وإنِّي بريء من كلِّ شخص ينقل عنِّي غيرَ هذه الكلمات...»

مُقَدِّمة

سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ

هو الحلقة الأولى والأخيرة من سلسلة الأنبياء، وهو سيِّد الكونين، ورسول الثقلين، وإمام الحرمين، وهو نور الكائنات، ورحمة للعالمين مهداة.

من غير الممكن على الإطلاق الإحاطةُ - من خلال هذه الأسطر البسيطة - بالحياة الاستثنائية التي عاشها المصطفى ﷺ، تلك الحياة التي كانت تجليا لخطاب الله تعالى له بـ «حبيبي» لأن النُّور المحمَّديَّ هو سبب وجود سائر الكائنات، إلا أنَّ هناك فوائد جليلة لا حصرَ لها لفهم ودراسة حياة النبيِّ ﷺ من خلال اتخاذ المرء لتلك الحياة قدوة ونبراساً له في سلوكه بقدر استطاعته وطاقته، وانطلاقاً مما ذكرناه فإنه لشرف كبير لنا أن نمتثَّلَ - بقدر ما نملكه من استطاعة في كتاباتنا - بمحمَّد ﷺ كمثل أعلى، وننال من الاقتداء بشخصيته الفريدة نصيباً ولو كان يسيراً، ونتخلق في سلوكنا بأخلاقه الكريمة الرفيعة، وفيما عدا ذلك ينبغي علينا التأدُّب في ادعائنا إمكانيةَ فهم وبيان حياة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام بالشكل الذي يليق به، فكلامنا عن الحقيقة المتألقة للنبيِّ ﷺ ينبغي أن يكون مثل حزمة الإشعاعات المضيئة التي تنبعث كالسِّهام من من مصباح غُلِّف بغطاء أسود مثقَّب يخرج منه بعض نوره، وذلك لأنه ليس بالإمكان الإحاطة بكمال وفضل النبي ﷺ الذي رفع الخالقُ ﷻ من قدره ومقامه إلى أعلى درجات الكمال والرفعة بقوله تعالى:

﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [1]

وبقسمه سبحانه وتعالى بحياته في قوله: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ**...﴾ [2]

لا يمكن الإحاطة بالشكل اللائق والأمثل بكمال وفضل سلطان الرسل والأنبياء، حيث يصلِّي عليه الخالقُ ﷻ وعددٌ لا حصرَ له من الملائكة.

---

١ الأحزاب: ٥٦.

٢ الحجر: ٧٢.

وإن الشاعر الشيخ غالب الذي يُعدُّ أحد كبار الشعراء وأصحاب الدواوين يصف بشكل متألِّق وبأحاسيس عاطفية جيَّاشة محبة النبيِّ ﷺ وقدره في بعض أبياته، ويبيِّن بشكل رائع تلك الحقائق التي ذكرناها عن المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام حيث يقولُ:

يا سيدي! أنت سلطان الرسل، أنت الملك الـمُمجَّد

يا سيدي! أنت ملجأ المحتاجين، ودواء المشرَّدين

يا سيدي! أنت شفيع الأمة يوم المحشر في حضرة الإله القدير

يا سيدي! أنت المؤَيَّد من ربِّ العزَّة الذي أقسم بحياتك بقوله: «لعمرك»...

يا سيدي! أنت أحمد ومحمود ومحمَّد

يا سيدي! أنت السلطان المبعوث إلينا المؤيدُ من الحقِّ سبحانه وتعالى...

وإن من مظاهر علو شأن النبي ﷺ ومنزلته الرفيعة لدى الحق سبحانه وتعالى أن الله ﷻ جعل طاعة حبيبه المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام من طاعته، وجعل الإساءة إليه – ولو بشطر كلمة – محبطة للأعمال الصالحة، واعتبر تبجيله ومحبته امتحاناً لتقوى قلوب المؤمنين، حيث تُعدُّ مخاطبة الرَّسول ﷺ بأسلوب فظٍّ أثراً أو علامة من علامات الجاهلية.

وقد بيَّن الله ﷻ وجوبَ كثرةِ الصَّلاة على نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام، والمحافظةِ على ذكره في القلوب والعقول بشكل دائم، وقد أوجب الله تعالى علينا في صلواتنا توجيه التحية والسلام إلى رسوله الكريم ﷺ، فإننا في كل جلسة نقرأ فيها التشهد نقول:

«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

فعلى الرغم من أن إلقاء السلام على أحد من البشر خلال الصَّلاة يُعدُّ من مفسداتها، فقد جعل الله تعالى السلام على رسوله الكريم واجبا من واجباتها.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

«حافظ على حضور النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بصورته وهيئته في قلبك خلال التشهد! وقل: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، وكن على يقين بأنَّ سلامك يصل إلى النبي ﷺ ويُعرَض عليه، وأنه يردُّ سلامَك بأفضلَ منه» [٣]

٣ الغزالي: الإحياء، ١، ٢٢٤.

وينقل لنا حضرة خالد البغدادي في المكتوب الرابع من مكتوباته عن العلامة شهاب الدين بن حجر المكي قوله:

«إن جملة «السلام عليك» التي تُقرَأُ في التحيَّات هي خطاب موجَّهٌ إلى النبيِّ ﷺ، وكأنَّ في ذلك إشارةً إلى إعلام الله تعالى لنبيه الكريم بالمقيمين للصلاة من أمته، وبذلك يكون النبي ﷺ حاضراً بجانب الذين يقيمون الصَّلاة في الدُّنيا، ويكون يوم القيامة شاهداً على أدائهم لأفضل الأعمال الصالحة، ومن جهة أخرى فإن تذكُّر المصلي حضورَ النبي ﷺ المعنويَّ بجانبه يكون وسيلةً تزيد من خشوعه وهدوئه خلال الصَّلاة» [٤]

إنَّ صعوبةَ إدراك شخصية سيِّد الخلق المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام وإعطائه حقَّه من الشرح والإحاطة واضحةٌ للعيان من خلال قدره العالي ومنزلته الجليلة لدى ربِّ العزَّة جَلَّ جَلَالُهُ. وغاية مطلبنا وجهدنا من وراء هذه الكلمات التي يتضمَّنها بحثنا والتي يمكن أن تخرق صمت الحقيقة، غاية مطلبنا أن تكتسب هذه الكلمات قيمتها وقدرها بذكرها لاسم المصطفى المبارك عليه الصَّلاة والسَّلام، ولذلك نرجو من قرائنا الأعزاء أن يتقبَّلوا كلماتنا هذه ويقيّموها من خلال هذا الاعتراف الممزوج بالعجز والضعف.

وكما أنه من الثابت أن الإدراك البشري عاجز عن الإحاطة بشخصية النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بما يليق به، فإن الألسنَ كذلك عاجزةٌ عن تصويره وبيان وصفه، فالنبيُّ ﷺ عالمٌ من النور والأسرار يمكن للمرء أن يقتبس منه بقدر إخلاصه في محبته واحترامه له، وإنَّنا نتضرَّع إلى الله اللطيف الكريم ونطلب منه العون والمدد أن يحقق غايتنا فيما نبيِّنه ونشرحه، ألا وهي تصوُّر حالِ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام وسلوكِه المبارَكين.

وقد كان من دعاءِ السلف الصالح وتضرُّعِهم:

«يا رب! إن كنت ستعفو عن عبادك الطائعين، فإلى من يلجأ العصاة؟ يا رب! إن كنت سترحم عبادك المتقين، فمن فمن للمخطئين سواك؟» [٥]

وإنَّنا إذ نتجرَّأُ على الخوض في الحياة المباركة لفخر الكائنات - سيِّدنا محمَّدٍ المصطفى ﷺ - وبيانِها للناس بكلماتنا المتواضعة، فإنَّنا نتضرَّع إلى ربنا سبحانه وتعالى

٤ مولانا خالد البغدادي: بغية الواجد، المكتوب ٤.

٥ البيهقي: شعب الأيمان، ٢، ٢٦؛ الغزالي: الإحياء، ١، ٣٣٨.

ونلجأ إلى واسع مغفرته؛ ليغفر لنا ما يظهر منَّا من تقصير أو سوء أدب بحق نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما ذاك إلا سهوٌ، أو مظهر من مظاهر العجز البشريِّ الذي نتَّصف به.

يا رب، اعفُ عنا واغفر لنا بجاه فخر الكائنات سيِّدنا محمَّد المصطفى ﷺ، آمين.

أعزاءنا القراء!

لقد تمَّ تحضير كتابنا سلسلة الأنبياء الذي ألَّفناه ونشرناه من قبلُ في أربعة مجلدات، تمَّ تحضيره من جديد للنشر مع التوسُّع فيه، وقد جرى نشر ثلاثة مجلدات تتضمَّن حياة الأنبياء الذين سبقوا رسولَنا الأكرمَ محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام، وأما المجلد الرابع الذي كان يتضمَّن في النسخة القديمة حياةَ وسيرةَ نبينا الكريم سيِّدنا محمَّد المصطفى ﷺ فقد تمَّ التوسُّع فيه وتقسيمه على مجلدين مستقلين؛ أما الأوَّل فيتناول حياة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في مكَّة المكرَّمة، وأما الثاني فيتناول فترة حياته في المدينة المنورة.

وفيما يخصُّ المجلدين الأخيرين والتوسع والمراجعة التي جرت عليهما فإنني أتوجَّه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ مراد كايا والمختصين الآخرين للجهود التي بذلوها بإخلاص وعناية فائقة في مجال التدقيق والتحقيق بمصادر الأحاديث والسير التي وردت في الكتاب، وإني أتضرَّع إلى الحق سبحانه وتعالى أن يتقبَّلَ خدماتهم صدقةً جارية لهم، ويجعلَها في سجلِّ أعمالهم الصالحة، ومن جهة أخرى فإني أدعو الله تعالى أن يتغمَّدَ برحمته الواسعة مؤلفي الكتب والمصادر التي اعتمدت عليها في إعداد كتابي، وأن يغفر لهم ويرزقهم المقامات الرفيعة لديه.

ومن الله التوفيق!

عثمان نوري طوبّاش

كانون الثاني/ ٢٠٠٥

أُسكودار– إسطنبول

تمهيد

أهمِّيةُ السيرةِ النَّبويةِ في فهمِ الإسلامِ وتطبيقِه العمليِّ

هناك عوامل متعدِّدة تؤثِّر على تربية وتعليم الفرد منذ أن يفتح عينيه على الحياة، ومن أهمِّ ما يحتاجه الإنسان شخصٌ يتَّخذه قدوةً ومثلاً أعلى له في كلِّ مجال من مجالات الحياة، وذلك لأن الإنسان – في الأعم الأغلب – يكوِّن شخصيَّتَه بكلِّ جوانبها من اللُّغة والدين والصفات الأخلاقية والعادات، ومُجمَل الأفكار التي تشكِّل حياتَه وعقيدتَه ونشاطاتِه، يكوِّنها متأثِّراً بالنماذج التي تُقدَّم له أو يصادفها خلال مسيرة حياته، وبالانطباعات التي يأخذها عنهم، وإن ظهرت بعضُ الاستثناءاتِ القليلة هنا أو هناك.

فأوَّل ما يتعلَّمه أيُّ طفل في العالم من اللغات لغةُ أمِّه وأبيه، ويمكن فيما بعدُ لهذا الطِّفل أن يتعلَّم لغة ثانية وثالثة وحتى لغة رابعة، وذلك حسب ما يتخذه قدوة ومثلاً له من الأشخاص في هذا المجال.

وإنَّ الميلَ إلى التقليد من أهمِّ العوامل الفطرية الموجودة في الإنسان والتي تشكِّل شخصيَّتَه، ولهذا لا شيء يؤثر في تربية الإنسان مثل حمله على تقليد النماذج الإيجابية أو السلبية، وهكذا فإنَّ الإنسان يتأثَّر أوَّلاً بالشخص الذي تربَّى على يديه من أمٍّ وأبٍ، ثمَّ العائلة التي يعيش معها، وفي نهاية الأمر يخضع للمؤثِّرات المختلفة للمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيها، وينضم إلى المجتمع كشخصية إيجابية أو سلبية بحسب تأثير عامل التقليد المركوز فيه.

وإذا كان تعلُّم الإنسان للغة التي يتكلَّم بها وبعض الخصوصيات الظاهرية المشابهة لها لا يشكِّلُ مسائلَ مفصلية في حياته ولا تعترضه مشاكلُ كبيرة، إلا أنه ثمة مخاطر جدية وموانع كبيرة تظهر في تعلم الإنسان للدين والقيم الأخلاقية والصفات المعنوية؛ وذلك لأن الإرادة الإلهيَّة التي قضت بإخضاع الإنسان للامتحان في الحياة الدُّنيا قد أوجدت في الإنسان عواملَ مانعة تقتضيها طبيعة هذا الامتحان الرباني وهي ملازمةٌ له على الدوام ولا

تفارقه، ومن أهمِّها مانعان هما «النفس» و «إبليس»، وهذه العوامل المانعة تدفع الإنسان إلى عكس ما يأمر به الدينُ والقيمُ الأخلاقية والمعنوية، وتميل به إلى مخالفتها والابتعاد عن تقليد مَن يلتزم بها، وبناءً على ذلك ينبغي أن يكون تشكيل شخصية الإنسان من حيثُ القيمُ المعنوية من قِبَلِ شخصيات تتمتَّع بصفات الرِّفعة والكمال من أمثال الأنبياء والأولياء الصالحين، وإلا فإن ابن آدم لا يمكنه بسهولة حماية نفسه من الانزلاق نحو الغفلة والضلالات، والوقوع في المعاصي بالاعتماد على على العقل وحده، ولا يمكنه بالتالي الحيلولة دون انقلاب سعادته الأبدية إلى خسران مبين.

وبناءً على ما تقدَّم فإن ابن آدم يحتاج بشكل دائم إلى هُداة من أصحاب الروح الطيبة والقلوب الرقيقة، فالناس يُفتتَنون بالأشخاص الذين اتخذوهم مثلاً أعلى في حياتهم؛ سواء كان مثلهم الأعلى هذا حسناً أو سيئاً، وهم يعملون على تقليد هؤلاء كلٌّ حسب نسبة محبَّته وتعلُّقه بتلك بهم. وإنَّ مما يثير الدهشة والاستغراب في أيامنا هذه تلك الحالات التي نراها، والتي تشكِّل إسرافاً وإفلاساً إنسانياً، حيث يتَّخذ فريقٌ من الناس بعض الشخصيات التي انزلقت إلى السفاهة النفسية والسفالة المعنوية قدوةً ومثلاً أعلى لهم في حياتهم، ويبذلون جهوداً للتشبُّه بهم معرِّضين بذلك سعادتَهم الأبدية للخطر والخسران! إن هذا الخداع المثير للدهشة، الذي يدعو إليه بعض الناس بدعوى ملء القلوب الفارغة بما يشغلها ليس إلا تحطيماً وسحقاً لتلك القلوب.

يوضِّح مولانا جلال الدين الروميُّ -رحمه الله- الحالَ العجيب والغريب لمثل هؤلاء الناس عن طريق المثال الآتي:

«ليس من الـمُستغرَب هروبُ الحمل من الذئب؛ لأنَّ الذئب عدو الحمل ومُفترِسه، ولكن ما يثير الاستغراب والدهشة تعلُّقُ قلب الحمل بالذئب!.»..

ومن أجل إنقاذ أنفسنا في عالم الامتحان الزائل هذا، وعدم تعريضها للخسران الأبدي بتعلق القلب بالذئب، ينبغي علينا اتباع أفضل الخلق وسيِّد المرسلين سيِّدنا محمَّد ﷺ، الذي أرسله الله تعالى «قدوة حسنة» لعباده ليتبعوه بعشق ومحبة، وينبغي اعتباره السلطان الوحيد على عرش قلوبنا والقائد الوحيد لحياتنا، وذلك لأن محبته مفروضة علينا من الله تعالى،[٦] حيث يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

٦ انظر: التوبة، ٢٤.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[٧]

فالنبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أولى وأقرب إلينا من أنفسنا.

وقد جاء في الحديث الشريف أنَّ محبة النبي ﷺ من الشروط الأساسية للإيمان، حيث يقول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناسِ أجمعين»[٨]

وقد جاء في حديث شريف آخر أنَّ ثلاثاً من كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان، وورد على رأس هذه الخصائص الثلاثة:

«... أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[٩]

وإن في الرواية الآتية التي يرويها عبد الله بن هشام دلالةً وبياناً لمستوى محبة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام الذي ينبغي أن يكون في قلب الإنسان المؤمن، حيث يقول:

كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذٌ بيد عمرَ بنِ الخطاب ﷺ، فقال له عمر:

يا رسول الله، لأنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ:

«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك»

فقال له عمر ﷺ: فإنه الآن، والله لأنتَ أحبُّ إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ:

«الآن يا عمر»[١٠]

إن شرطَ المحبة وأولى ثمارها عدمُ نسيان المحبوب؛ واتباعه بالكلام والعمل والسلوك والفكر، وحتى يكونَ المرءُ صاحبَ قلب ممتلئ بمحبة النبي المصطفى ﷺ عليه أوَّلاً تعلُّم السنة النبوية السَّنيَّةِ بكل تفاصيلها ودقائقها، وأنْ ينعكس كلُّ ما تعلمه على حاله وسلوكه بمشاعر من التعظيم والوقار والاحترام.

٧ الأحزاب: ٦.

٨ البخاري: الإيمان، ٨/ ١٥.

٩ البخاري: الإيمان، ٩/ ١٤-١٦؛ مسلم: الإيمان، ٦٧/ ٤٣.

١٠ البخاري: الأيمان، ٣/ ٦٦٣٢.

وذلك لأنه من غير الممكن أن يعيش المسلم على النحو الذي يرضاه الإسلام دون الاطلاع عن كثب على حياة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وتزيين القلب بمحبته، وإن تطبيق هذا الأمر مرتبطٌ باكتساب مشاعر الاحترام العميقة نتيجة الوقوف على السيرة النبوية الشريفة وتأمُّلها، فلا تتأتى محبة النبي ﷺ محبةً حقيقيةً دون معرفته، ولا يتحقق الإيمان دون محبَّته، ولا يمكن الفوز بمحبة الله تعالى دون اتباعه ﷺ.[11]

ولهذا السبب فقد كان النبي عليه الصَّلاة والسَّلام يتوقَّف بحرص شديد عند موضوع المحبة، ويُشعِرُ بجدِّية حاجة المرء إلى ملامسة دقائق الأمور التي تدور حول المحبَّة.

إن سيرة سيِّد المرسلين سيِّدنا محمَّد المصطفى ﷺ تُعتبَر بمثابة بحر عميق لنا، فقد بلغ عليه السلام قمَّة الفضائل والأخلاق الحميدة، واجتمعت في شخصه عليه الصَّلاة والسَّلام - حسب الروايات- أوصافُ جميع الأنبياء الذين سبقوه، والبالغ عددهم أكثر من مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، لقد أُرسل النبي عليه الصَّلاة والسَّلام رسولاً لآخر الزمان لكي يكون قدوة يُحتذَى به فيٍ عصره حيث يلبِّي كلَّ الاحتياجات والمتطلبات الفكرية والحياتية التي وصل إليها الناس حتى ذلك العصر، إضافة إلى تلبية كلِّ الاحتياجات التي سوف تظهر بعده حتى يوم القيامة، فهو «خاتم النبيين».

إن النبيَّ الوحيد بل حتى الإنسان الوحيد على مرِّ تاريخ البشرية الذي جرى تدوين حياته كاملة بكلِّ تفاصيلها ودقائقها هو سيِّدنا محمَّد ﷺ، فسلوكُ وتصرُّفاتُ سلسلة الأنبياء التي شكَّلت في العصور السابقة أمثلة ونماذج في مجال دعوة الناس إلى الله ﷻوإلى الخير لم ينتقل منها إلينا ولم يبقَ في الذاكرة إلا النزر اليسير، بينما نجد أن كلَّ ما صدر عن نبي آخر الزمان سيِّدنا محمَّد ﷺ من أدق الأمور إلى أجلها من أقوال وأفعال، وما يُعبَّر عنه من عوالم القلب والوجدان قد جرى تعقبُه لحظة بلحظة، ودوِّن ليشكِّلَ لوحة فسيفسائية تُشرِّفُ تاريخ البشرية، وإضافة إلى ذلك فقد تمَّ بلطف الله تعالى وكرمه حفظُ هذا الميراث النبوي خلال القرون الغابرة، وتأمينُ وصوله إلى كلِّ الأجيال الإنسانية القادمة حتى يوم القيامة.

وهكذا فإن الأمر الذي نقل الأخلاقَ الإسلامية من الجانب النظريِّ إلى الواقع العمليِّ ورفعَها فوق مستوى الأنظمة الأخلاقية الأخرى هو الوقائعُ التي جرت في حياة نبيِّنا عليه

---

١١ انظر: آل عمران: ٣١.

الصَّلاة والسَّلام؛ أي: تصرفاته وحالته التي كانت مثلاً أعلى في الالتزام وحسن الأخلاق حيث جرى تثبيت كلِّ ذلك بعناية فائقة تحت اسم «**أفعال النبي**»، وبذلك حفظ هذا الميراث النبوي بشكل آمن على مرِّ العصور، ووصل إلينا نقياً من التحريف والخطأ.

إنَّنا كبشر - ولكي نحافظَ على أنفسنا ونحميَها من التأثُّر بالفتن التي نتعرَّض لها نتيجةَ الابتلاءات المختلفة في الحياة، والمصائب، والمفاجآت التي تقابلنا - مضطرون إلى جانب التحلي بالأخلاق الرفيعة مثل الشكر والتوكل والرضا بالقدر، والصبر على المصائب، والعزيمة، والتمتع بالشجاعة، والتضحية، والقناعة، وغنى النفس، والأثرة، والكرم، والتواضع، مضطرون إلى جانب ذلك كله إلى المحافظة على رباطة الجأش، وعدم فقدان التوازن تجاه مدٍّ وجزرِ أهوال الحوادث والعواصف التي تصيبنا، وإن الهدية الثمينة التي قدَّمها الله ﷻ للبشرية جمعاء لكي تكون مثلاً أعلى يُقتدَى به في مثل هذه الأحوال هي سيِّدنا محمَّد ﷺ؛ فهو المرشد الكامل، وصاحب الطهارة والعفة والنزاهة الذي كان قدوة ومثلاً أعلى بكلِّ تفاصيل حياته.

لقد قضت إرادة الحقِّ ﷻ أن يبتدئ نشأة نبيِّه محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام من المرحلة الأضعف والأدنى في المجتمع الإنسانيِّ وَفقَ وجهة النظر البشرية، وهي مرحلة «**الطفولة اليتيمة**»، ومرَّ به بعد ذلك بكلِّ مراحل الحياة حتى وصل إلى أعلى نقطة من حيثُ القدرةُ والصلاحيةُ؛ أي: وصولُه إلى مرتبة النُّبوَّة ورئاسة الدولة. إن العهود التي عاشها نبيُّنا الكريمُ عليه الصَّلاة والسَّلام تتضمَّن كثيراً من النماذج السلوكية التي تدلُّ على رفعة الأخلاق وحسن التصرُّف، وذلك من أجل إعانة الناس على مواجهة مختلف تجلِّيات المدِّ والجزر التي تعترضُ الإنسانَ في حياته. ولهذا السبب فقد شكَّلت حياته أنموذجاً عملياً ومتكاملاً يمكن لأيِّ شخص - مهما كان الموقف أو المرحلة التي يمر بها - بحسب قدرته واستعداده الاقتداءُ به والسيرُ على خطاه؛ أي: أن رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام وُضِعَ خلال حياته المباركة في ساحة التطبيقِ العمليِّ، وذلك من أجل فهم الإسلام بسهولة ويُسرٍ من قِبَلِ الناس مهما كان مستواهم العلمي والفكري.

إن الواجب المنوط بنا تجاه هذا الكرم الرباني اللامتناهي هو التعرف على الحياة الطاهرة والمباركة لفخر الكائنات الأبديِّ بقلب مليءٍ بالروحانية؛ أي: تعلم السيرة النبوية بحب وشغف، وبذل الجهد من أجل العيش وَفقَها وتعليمِها للغير.

وينبغي أن نبيِّنَ هنا بأنه بقدر أهمِّية معرفتنا بكون النبيِّ ﷺ هو قدوتنا ومثلنا الأعلى الوحيد، فمن المهمِّ والضروريِّ أيضاً أن نعلم المعيار الذي نستند إليه عندما نتَّخذه قدوةً لنا في أمر ما، وذلك لأنَّ حالَه وتصرُّفاتِه عليه الصَّلاة والسَّلام تشكِّلُ صنفين:

١- **أمور مخصوصة بشخصه ﷺ «خصائص النبوة»:**

مثال ذلك؛ قيامُ الليل بشكل دائم حتى تتورَّم قدماه الشريفتان، صوم الوصال، إنفاق كلِّ المال – ما عدا ما يلزم لسداد الدين – ولو كان قدر جبل أُحُدٍ ذهباً، عدم التوريث، عدم قَبول الزكاة والصدقات لنفسه وآل بيته إلى يوم القيامة.

ولهذا السبب فإن النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام على الرغم من أنه قال:

«...**إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم**...» [١٢]

قال أيضاً:

«**لست كأحدٍ منكم، إنِّي أُطعَم وأُسقَى**» [١٣]

فلا طاقةَ للمؤمنين بمتابعة النبي ﷺ في هذه الأمور، وليس بإمكانهم أن يأتوا بما يفعله من أعمال مادية أو معنوية، ولا التحلي بأحواله، فقد جعل الله تعالى بعضَ الأمور المخصوصة برسوله الكريم خارجَ نطاق الاقتداء والتكليف بالنسبة للأمة، مع أنَّ الأصل في الأنبياء أنَّهم قدوةٌ لأمتهم، ومُثُلٌ عُليا يجب على الأمَّة الاقتداء بهم.

٢- **الأمور العامة لكل الناس:**

نحن لسنا مكلَّفين باتخاذِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام قدوةً واتباعِه في خصائصه التي خصه بها المولى الكريم سبحانه، وإنَّ مثل هذه الأحوال والسلوكيات في الأساس من خصائص أشخاص متميِّزين كالنجوم، ولا طاقةَ لنا بالإحاطة بهذا النوع من التصرُّفات، أما ما يدخل ضمن نطاق القسم الثاني من الأحوال والتصرُّفات والأقوال فإنَّنا مكلَّفون في حدود طاقتنا بتقليده واتباعه فيها، ومأمورون بالسير على أثره المنير.

---

١٢ البخاري: الصلاة، ١٣، الأحكام، ٢٠/ ٤٠١.

١٣ البخاري: الصوم، ٤٩/ ١٩٦١، الاعتصام، ٥؛ مسلم: الصيام، ٥٥-٦١.

إذاً، فالنبيُّ ﷺ مثلٌ أعلى لكل الناس - في الأعمال التي قام بها وفقاً لقدرته عليها ووجوبها عليه من جهة طبيعته البشرية - وفي كلِّ نقطة من طبقات المجتمع، وحتى في هذا القسم يجب الانتباه والتمييز بين التصرُّفات والأعمال، حيث إنَّ بعضَها يُعد سُنةً، وبعضَها الآخر رخصة، وقد أطلق على كلِّ من أبدى درايةً كبيرةً في تصوُّر المعنى الكامل لهذه الحكمة اسم «المحمَّدي» ، ورغب في توجيه كلِّ شخص حسب قدرته واستعداده لبذل الجهد حتى يكونَ نموذجاً مصغَّراً عنه.

ومن جهة أخرى فإنَّ للسيرة النبوية أهمِّية كبيرة في فهم القرآن الكريم وإدراكِ مقاصده والتآلفِ مع روحه، وذلك لأنَّ الله تعالى يقول في الآيات الكريمة:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [١٤]

ومن جهة أخرى فإن القرآن الكريم قد نزل على سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام خلال ثلاثة وعشرين عاماً، وفُسِّر بصورة عملية متكاملة خلال هذه الفترة الطويلة، حيث تقول أمُّنا السيدة عائشة رضي الله عنها في وصف النبي ﷺ:

«كان خلقُ نبيِّ الله ﷺ القرآن» [١٥]

ولهذا السبب ليس بإمكان المسلم فهمُ القرآن بشكل تامٍّ دون التعمُّق في دراسة واستيعاب أحاديث النبيِّ ﷺ وحياته الشريفة. [١٦]

ومن ناحية أخرى فإن وقوفَ المسلم على الثقافة الإسلامية واطِّلاعَه عليها بالشكل الصحيح مرتبطٌ بمدى استلهامه من حياة النُّبوَّة التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً، والعيشِ

---

١٤ الشعراء: ١٩٣- ١٩٥.

١٥ النسائي: السنن الكبرى، ١٠، ١٩٣/ ١١٢٨٧.

١٦ إن الحقائق التي يُعبَّر عنها بالقول إن لم تُؤيَّد بالأمثلة العملية لا تخلو من الأخطاء خلال تطبيقها على أرض الواقع، وذلك لأن كل شخص يفهم ويستوعب الأشياء المجردة وفق تجاربه الشخصية ومستوى إدراكه، فالأمثلة العملية تقدِّم الشكل الذي يجب أن تأخذه تلك الحقيقة المجردة في التطبيق العملي وبشكل بعيد عن النقاش، ولهذا السبب فإن كل وجهات النظر التي يُوعظ بها الناسُ بقصد دعوتهم إلى الخير والحقِّ تتخالف فيما بينها وتفترق كثيراً في التطبيق العملي؛ لأنَّها لم تُؤيد بمعايير عملية ومشخصة، وإن الفكر الإسلامي يُعتبر صاحب غنى وكمال من هذه الناحية لدرجة لا يمكن مقارنته بغيره من الأفكار، وقد جسَّد النبي عليه الصلاة والسلام بحياته وسلوكه هذه الحقائق المجرَّدة وحوَّلها إلى التطبيق العملي، ومن ثَمَّ تلقاها منه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ونقلوها إلينا بكل أمانة وصدق.

وفقها، والوصولِ نتيجةَ ذلك إلى عمق المشاعر والكمال القلبي، وإن المرء يصل إلى الكمال بالفيوضات الآتية من النبيِّ ﷺ؛ أي: الامتلاء بالطاقة الإيجابية الصادرة عنه، وذلك لأن الذي يشكِّل المثال الحي والوحيد للإسلام ويقدِّمه لنا ابتداءً من مبادئه وأحكامه الكلية وصولاً إلى أدقِّ تفرُّعاته هو نور الكائنات سيّدنا محمَّد ﷺ.

فلا يُتصوَّر استغناء الدعاة والمعلِّمين الذين يدعون الناس إلى نظام الحياة الإسلامي المملوء بالسعادة والطمأنينة عن علم السيرة الذي يحقِّق الانسجام الذهني والعقلي؛ لأنَّ سيِّدنا الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يُعتبر المثال المشخَّص والمتكامل في مجال التربية والتعليم والتبليغ أيضاً.

حاصل القول: أنَّه من الواضح أنَّ كل شابٍّ يودُّ الالتزام بالصدق والأمانة، وكلَّ مبلغٍ وداعية اتخذ لنفسه طريق الدعوة إلى الله ﷻ وطلب الحكمة و الموعظة الحسنة في سبيل القيام بواجبه، وكلَّ رئيس دولة أراد إدارة دولته بما يحقِّق العدالة والفضيلة، وكلَّ ربِّ عائلة يشكِّل نموذجاً مميزاً في المعاملة الحسنة، وكلَّ أب لا ينزع عن قلبه الرحمة والشفقة في سلوكه تجاه أطفاله وزوجته، وكلَّ ضابط متمتع بالقوة والرصانة له دراية عالية في الإدارة والتنظيم، وباختصار، إنَّ كلَّ مسلم مهما كان عمره ومستواه العلمي والاجتماعي يجد ضالَّته من الخصال والنماذج الحسنة في شتى مجالات الحياة في السيرة النبوية الشريفة؛[١٧] لهذا السبب فإنه من الضروري جداً دراسةَ وتعلُّمَ حياة النبيِّ ﷺ وذلك من أجل التمكن من فهم الإسلام بكل جوانبه وتطبيقه على أرض الواقع.

إن مما لا شك فيه أن تعلم سيرة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام بشكل لائق به، وتعليمها والعيش وفقها سوف يُهدي البشرية أنموذجاً حياتياً يتمتع بالرفعة والكمال.

---

١٧ لقد اضطر أحد المفكرين الغربيين إلى الاعتراف بهذه الحقيقة الساطعة حين قال:
«ليس باستطاعة أحد من البشر وضع مبادئ تتفوق على مبادئ النبي محمد ﷺ، وإن كل القوانين والأنظمة التي وُضعت من قبل الأوروبيين تظل ناقصة بمقارنتها مع الثقافة الإسلامية، وذلك على الرغم من النجاحات التي تحققت في أوربا في شتى مناحي الحياة، إننا نحن الشعوب الأوروبية على الرغم من التطور الحضاري الذي نتمتع به إلا أننا لم نتمكن بعد من وضع قدمنا على الدرج الأول في السلم الذي وصل النبي محمد ﷺ إلى قمته، فليست هناك شبهة قط في عدم قدرة أحد على تجاوز أو التغلب على النبي في هذا السباق، وإن هذا الكتاب (القرآن الكريم) لن يفقد تأثيره إلى الأبد ولسوف يجمع من حوله الأمم الأخرى وذلك لأنه عملي لدرجة كبيرة لا يمكن تصورها» (جوهان ولفغانغ فون غوته)

حكمة اختيار شبه الجزيرة العربية مهداً للإسلام

إن إدراك الحكمة الكامنة وراء اختيار شبه الجزيرة العربية كحِضنٍ لولادة الإسلام، وأول مكان لظهوره ، يتطلَّب معرفةَ أحوال العرب وطباعهم، والمنطقة الجغرافية التي عاشوا فيها، والخصائص الاجتماعية والسياسية لحياتهم ما قبل الإسلام.

لقد كان ثمة امبراطوريتان عظيمتان تجاوران العرب في ذلك العصر، هما الدولة البيزنطية والدولة الفارسية، كانت الدولة البيزنطية تتخبَّطُ في مشاكلَ كثيرةٍ بسبب ظهور الاختلافات الدينية في البلدان التي تقع تحت حكمها الاستعماري، فقد جعل حكام بيزنطة الديانةَ المسيحية أداة وألعوبة بين أيديهم وفقاً لأهوائهم ورغباتهم، حيث كان القناصلة يعلنون للناس الكتاب الذي يريدونه كتاباً مقدساً، ويلغون الأحكام التي لا يرغبون بها، وكانوا بذلك يؤسِّسون العقيدة الدينية حسب رغباتهم وأهوائهم، وقد كان الحكَّام الجددُ يلغون ما أقرَّه أسلافهم، ويغيرون الأسس الدينية بما يتطابق مع إرادتهم، وإن فرض الضرائب بصورة مفرطة على رعايا الدولة والانتشار الواسع للرشوة بين الطبقات الحاكمة أدَّى إلى الفوضى والفساد الأخلاقي في الدولة، وجعل دعائم الدولة البيزنطية تتآكل من داخلها، وينذر بانهيار مستقبلها.

أما الدولةُ الفارسية فقد كانت تمرُّ بحالة من الاضطراب الكبير من الناحيتين السياسية والأخلاقية معاً، وقد سادت الحياةَ في هذه الدولة مفاهيم مناقضة للطبيعة الإنسانية، ووصل الأمر بالمجتمع أن سُمح للشخص بالزواج من ابنته وأخته وحتى من أمه، وقد أعلنَتِ الديانةُ المزدكية المتضمِّنة للكثير من الأفكار الباطلة والمنحرفة، أعلنت أنَّ الناس مشتركون بكلِّ شيء في الوجود، فكما أنَّهم يتشاركون في الهواء والنار والماء، فإنَّهم مشتركون أيضاً في النِّساء والأموال، وبذلك أُحلَّت النِّساء لجميع الناس بغضِّ النظر عن صلة القُربى فيما بينهم.

وبينما كانت الحضارة اليونانية غارقةً في المناقشات الفلسفية والخرافات الفاسدة، كانت الحضارة الهندية تعيش أسوأ أدوارها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية.

وأما العرب فقد كانوا يعيشون في هدوء وأمان في منطقة منعزلة محاطة بالصحراء، بعيدة عن التدخلات العسكرية، وتأثير الثقافات والحضارات عليها، ومعصومة من كلِّ تلك الفتن والمفاسد التي أصابت الأمم الأخرى، ولم يذوقوا يوماً مذلَّة الاستعباد، فقد

كانت طبيعة العرب وأمزجتهم مثلَ المادة الخام التي لم يجرِ عليها أيُّ تدخل بشري، ولم يكونوا قد فقدوا نقاء الفطرة الإنسانية بعدُ، و إنَّهم بالإضافة إلى ذلك كانوا أصحاب الصفات الحميدة التي يُمتدح بها الإنسان، مثل العفة والكرم والوفاء والصدقة والصبر والمروءة، غير أنَّ تلك الصفاتِ كانت في حالة من التحوُّل والانزلاق عن أرضيتها الفطرية بسبب الإفراط والتفريط، ولذلك كانوا يعيشون في ظلمات الجاهلية بسبب افتقادهم القائد والموجّه الذي يدلُّهم على الحقيقة الملتبسة عليهم.

لكنَّ الجهالة واتباع أهواء النفس جعلت كلَّ تلك الصفات والخصائص الجميلة المخزنة في فطرتهم الإنسانية تخرج عن مجراها الأصلي، فكانوا يمزقون قلوب الأمهات ألماً وقهراً بإقدامهم على أشنع الأفعال ألا وهو دفن الفتيات الصغيرات أحياءً في التراب باسم حماية العفة والشرف، ويعرضون أنفسهم للفاقة والبؤس بالإسراف الشديد في الإنفاق والعطاء من أموالهم الضرورية خشية أن يوصموا بالبخل أمام القبائل، وكانوا يشعلون نيران الحروب الطاحنة فيما بينهم والتي تستمر لسنوات طويلة حاصدةً آلاف الأرواح البريئة بدافع الإحساس بالشجاعة والمروءة، ومع ظهور الإسلام مرَّت الصفات الأخلاقية التي كانت سائدة أيام الجاهلية بتغييرات كبيرة، فتحوَّلت إلى طبيعتها المناسبة، وبدأت تترقى في سلم الكمال الأخلاقي، فمع بعثة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام تمت تنقية مفهوم المروءة القديم من كلِّ ما علق به من الإفراطات المضرة، وانتقل إلى حالة حضارية.

إن الحكمة الأخرى من اختيار شبه الجزيرة العربية كمكان لظهور الإسلام هي إبعاد الشُّبهة عن قلوب الناس تجاه رسالة النبي ﷺ ونبوته، حيث كان العرب أمةً أُميةً لا تعرف القراءة والكتابة، ولهذا السبب فإنَّهم لم يتأثَّروا بالفساد والانحلال الخلقي والثقافة المنحرفة والفلسفات الضالة للأمم المجاورة لهم.

فلو لم يكن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام رجلاً أمياً، وخرج على الناس بدعوى النُّبوَّة كشخص مطلع على تاريخ وثقافة الحضارات والدول المجاورة، وملمّ بمحتويات الكتب السماوية القديمة وتعاليمها، فلا شك أن الناس ما كانت لتقبل رسالته بتلك السهولة التي جرت عليها، وتصدق بأن ما جاء به وحي إلهي، ولو ظهرت الدعوة الإسلامية على يد رجل من تلك الأمم التي وصلت إلى مستويات معينة من الحضارة والثقافة مثل الدولة البيزنطية أو الفارسية لكان من الصعوبة بمكان قَبول الناس لأسس الإسلام ومبادئه، وذلك

لأن الناس كانت ستشكِّك بالرسالة وتدَّعي أن هذا النظام الإسلامي الذي جاء به النبي عليه الصَّلاة والسَّلام ليس من الوحي الإلهي وإنما هو من تراكم تلك الثقافات والحضارات، وانطلاقاً من هذا الأمر - وحتى لا يخطر على بال أحد أن الإسلام ليس إلهي المصدر - فقد قضت إرادة الله ﷻ إرسالَ نبيٍّ أمِّيٍ إلى مجتمع أمي.

ثم إن لشبه الجزيرة العربية ميزة في اختيارها كمكان لظهور الإسلام لما تتمتع به من موقع جغرافي متميِّزٍ بين القارات الثلاث؛ آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ حيث تتوسَّطها وتشكِّل نقطة التقاء دول عديدة مما يسهِّل أمر انتشار الإسلام بين سائر المجتمعات البشرية.[١٨]

لقد عرَّف القرآنُ الكريمُ مكَّة المكرَّمة - التي اختيرت كبلد حاضن لظهور الإسلام - بأنها مكان لا زرع فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿... **بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**...﴾[١٩]

ولذلك فقد انشغل الناس في تلك البلاد بالعمل في مجال التجارة فقط، إذ إنَّ الناس الذين ينشغلون بالعمل الزراعي يكونون أكثر ارتباطاً بالأرض التي يعملون فيها، وبالتالي يعتادون على الإقامة في ذلك المكان، ولا يبتعدون عنه كثيراً، والأمر نفسه ينطبق على أصحاب الحرف والصناعات، حيث ينفر أهل المهن والصنعة من التنقل والترحال نظراً لطبيعة المهنة التي يعملون بها، وأما أرباب التجارة فإن هناك احتمالات وفرص كبيرة لخروجهم في أسفار طويلة وبعيدة عن أوطانهم، وبالتالي بإمكانهم الالتقاء بأناس آخرين وفي مناسبات مختلفة، ولأن الفتوحات من أجل تبليغ الإسلام للناس تحتاج إلى حياة مليئة بالحركة والتنقل، فقد اختير أهل مكَّة ليكونوا أوَّل المخاطبين بدعوة الإسلام؛ لكونهم دائمي الحركة والتنقل.

ولقد اقتضت الإرادة الإلهيَّة أن تكونَ اللغة العربية لغة الدعوة الإسلامية، وتنالَ شرف تبليغ كلام الله تعالى، فإذا ما تمت مقارنة اللغة العربية بغيرها من لغات الأمم الأخرى فسنجد تفوق اللغة العربية عليها في كثير من الخصائص المتميزة، مثل ترابط الجمل، ومصادر الكلمات وتراكيبها، واشتقاق الأفعال، وقواعد القراءة، وغيرها من الخصائص، فاللغة العربية تتميز بالقدرة على التعبير بها عن المواضيع بصورة موجزة ومختصرة دون فقدان أيٍّ من الجوانب الصغيرة لتلك المواضيع، وفي مجال غنى اللغات فإن هذه اللغة

---

١٨ انظر: محمد إلياس عبد الغني، تاريخ مكة، ص، ١٢ - ١٣.

١٩ إبراهيم: ٣٧.

يمكن التعبير بها عن مختلف الأفكار بطريقة فائقة الدقة والسلاسة، وإن محافظة اللغة العربية على قواعدها الأصلية منذ خمسة عشر قرناً دون أدنى تغيير لدليلٌ على استقرارها واكتسابها درجة النضج والكمال منذ ذلك الوقت، وبهذه الحال فإن اللغة العربية كانت في ذلك الحين هي اللغة الوحيدة التي تمتلك السعة والكمال من بين كلِّ اللغات الموجودة ليصاغَ بها كلام الله تعالى، وتُعبِّرَ عن الإرادة الإلهية.

إن شبه الجزيرة العربية لم تكن مكاناً لظهور الإسلام وحده، وإنما كانت مكاناً مباركاً لظهور كثير من الديانات السماوية الحقة، فجدُّ نبينا محمَّدٍ ﷺ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السلام عاش في هذا المكان وبنى الكعبة فيه، وحتَّى إنَّ أهل مكَّة كانوا يشعرون ببركة هذا المكان ويعتبرون أنفسهم ورثةً معنويين لسيِّدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولذلك ولذلك كان ظهور الإسلام في مثل هذا المكان من شأنه تسهيلُ قَبوله واستيعابه وفهمه.

وإضافة إلى ذلك، فإن من بين الأسباب المهمة لاختيار هذا المكان وجود الكعبة فيه، والتي شكَّلت خلال تاريخ الإنسانية مركزاً دينياً مهماً.

ومن المؤكَّد أن هناك حِكَماً أخرى نجهلها غير تلك التي ذكرناها لا يعلمها إلا الله تعالى، إذ إنَّه ليس من الممكن تعيين وتحديد الإرادة الإلهيَّة بطائفة معينة من الحِكَم، ونظراً لذلك، فإنَّنا خيرَ ما ننهي كلامنا به في هذا الموضوع أن نقول: والله أعلم بمراده.

أم القرى: مكَّة المكرَّمة

لقد ورد ذكر مكَّة في القرآن الكريم تحت اسم «أم القرى»، و«بكة»، و «البلد الأمين»، وقد أُطلق اسمُ مكَّة وبكَّة على هذا المكان من قبل العمالقة، وتعني في اللغة البابلية «البيت».

إن مكَّة المكرَّمة تحتل موقعاً اقتصادياً في غاية الأهمِّية إذ إنَّها تجاور جدَّة، حيث يحدُّها من الجهة الجنوبية اليمنُ، ويقع على شمالها البحر الأبيض المتوسط، وفي الجهة الشرقية يحدُّها خليجُ البصرة، ويقع في غربها ميناء البحر الأحمر، فهي تقع على نقطة تقاطع الطرق المتجهة إلى القارة الإفريقية.

ويُطلَق على القسم الذي يشكّل المدينة اسم «بطن مكَّة»، وأما القسم الذي يقع فيه المسجد الحرام فيطلق عليه اسم «البطحاء».

لم يُرزَق إبراهيمُ عليه السلام من أمِّنا سارة بولدٍ، فأعتقت السيِّدةُ سارة جاريتَها هاجر، وزوَّجتها بإبراهيم عليه السلام، وكان من ثمار هذا الزواج أن وُلد إسماعيلُ عليه السلام، وانتقل النور المحمَّدي إلى إسماعيل عليه السلام، ولم يكن يخطر ببال أُمِّنا سارة أن هذا النور ينتقل منها، ولذلك فقد أصابها حزن شديد، وطلبت من زوجها إبراهيم عليه السلام أن ينقل أمَّنا هاجرَ إلى بلدة أخرى، وقام سيِّدنا إبراهيم عليه السلام بناءً على أمر الله عز وجل له باصطحاب أمِّنا هاجرَ وولدِها إسماعيلَ إلى مكَّة المكرَّمة التي كانت مقفرةً في تلك الفترة، وعندما وصل إلى مكان مكَّة جاءه صوت يناديه:

– يا إبراهيمُ! أسكِنْ أهلك في هذا المكان!

وعندما قال سيِّدنا إبراهيم عليه السلام:

ولكن لا يصلح هذا المكان للزراعة ولا لتربية الماشية! أجابه جبريل عليه السلام:

– بلى، إن الأمر كما تقول، ولكن سيخرج من نسل ولدك إسماعيل النبيُّ الأميُّ، وسوف تكتمل على يديه الكلمة العليا «**كلمة التَّوحيد**» [٢٠]

وقد روى سيِّدُنا عبد الله بن عباس[٢١] رضي الله عنهما:

جاء إبراهيم عليه السلام بهاجرَ وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى مكان المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، فتبعته أمُّ إسماعيل، فقالت:

– يا إبراهيمُ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟

---

٢٠ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٦٤.

٢١ عبد الله بن عباس: هو ابن سيِّدنا العباس عمِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأمه هي لبابة أم الفضل، والتي أسلمت مباشرة بعد أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، وُلد ابن عباس رضي الله عنه في مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقد جاءت به أمه فورَ ولادته إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث قام النبي صلى الله عليه وسلم بتحنيكه، وبذلك أصبح ابن عباس صاحب منزلة رفيعة ومتميزة بين الصحابة الكرام، وفيما بعد دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس مرتين، وجاء في أحد هذين الدعاءين: «**اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل**»، ولهذا السبب فقد أصبح أعلم الصحابة بالقرآن الكريم ولُقب بـ «**ترجمان القرآن**»، ولُقب أيضاً بــ «**حبر الأمة**» لأنه كان أعلم الناس في الدين، وقد روى ابن عباس ١٦٦٠ حديثاً شريفاً، فقدَ بصرَه في أواخر عمره، وتوفي في الطائف سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧م، عن عمر يناهز ٧١ عاماً.

قال إبراهيم ﷺ نعم.

قالت بكلِّ توكُّل وتسليم لأمر الله تعالى: إذن لا يضيِّعُنا، ثم رجعت إلى إسماعيل ﷺ.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [٢٢]

ودعا إبراهيم ﷺ – بعد أن أودع ابنه الرضيعَ وزوجته في صحراء مقفرةٍ – ربه قائلاً:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [٢٣]

وقد استجاب الله تعالى دعاء سيِّدنا إبراهيمَ ﷺ بحقِّ المؤمنين، وتوجَّه من بعده بتهديد شديد للذين كفروا، حيث قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٢٤]

وبسبب هذه الأدعية وفضلِها يملأُ الله ﷻ قلوب المؤمنين من الحجَّاج والمعتمرين بالمحبَّة تجاه مكَّة المكرَّمة، ويوصل أرواحَهم إلى درجة عالية من السكينة والصفاء.

ولم يمضِ وقت طويل حتى نفد الماء من القِربة التي تركها سيِّدُنا إبراهيمُ ﷺ بجانب أمِّنا هاجرَ وولدها إسماعيل، وانطلقت أمُّنا هاجرُ تسعى بين الصَّفا والمروة علَّها تجد ماء تروي به عطش وليدها الصغير، واستغرق سعيها جيئة وذهاباً سبع مرات، وإن المسافة التي تفصل بين هاتين التلتين تبلغ قرابة أربعمائة متر، وكانت أمنا هاجر وهي تجري تتلفت متفقدة ولدها إسماعيل، كان ذلك المكان خالياً فلا إنسان، ولا حتى طائر يطير في السماء، ولم تكن هناك أية علامة تشير إلى الحياة في ذلك المكان على مدِّ البصر، وعندما خرجت السيِّدة هاجر إلى المروة سمعت صوتاً، فقالت لنفسها: اصمتي! واستمعي! وبعد ذلك أصغت بسمعها بانتباه شديد، فسمعت الصوت ذاته مرة أخرى.

---

٢٢ إبراهيم: ٣٧. البخاري: الأنبياء، ١١/ ٣٣٦٤.

٢٣ البقرة: ١٢٦.

٢٤ البقرة: ١٢٦.

فنادت:

حسنٌ، قَد أُسمِعتُ إن كانَ عندَكَ غَواثٌ، وفجأة أبصرت عند مكان بئر زمزم مَلَكاً يحفر الأرض بجناحه.

وما لبث أن ظهر الماء، وتوجَّهت إلى ربِّها بالشكر والثناء، وهرعت السيِّدة هاجرُ إلى مكان نبع الماء، وبدأت تجمع التراب حول نبع زمزم؛ لكي لا يُهدر الماء، وأخذت تغرف الماء بكفها لتملأ قربتها، وقالت للماء: «زم، زم!» بمعنى «توقفْ، توقفْ!» وحسب الروايات فإن الماء كان ينبع من الأرض بقدر ما تأخذه السيِّدة هاجر بكفها منه.

وقال النبي ﷺ:

«يرحم الله أمَّ إسماعيل، لو كانت تركت زمزم – أو قال: لو لم تغرف من الماء – لكانت زمزم عيناً معيناً» [٢٥]

لقد تابعت الأمُّ والابنُ حياتهما في هذه الصحراء الخالية والمقفرة بماء زمزم فقط، وذات يوم بينما كانت تمرُّ قبيلة جُرهم – وهي إحدى القبائل العربية – قريباً من مكان إقامتهما لاحظ أفرادها نزولَ الطيور وتحليقَها من جديد في المكان الذي تسكن فيه هاجرُ وابنها إسماعيل، فاستدلوا بذلك على وجود ماء وحياة في ذلك المكان، وأرسلوا شخصين منهم إلى هناك، ولما رأى القادمون ماء زمزم، قالوا لأمِّنا هاجرَ مستأذنين:

هل يمكننا الاستقرار بجانبكم؟

فأذنت أمنا هاجرُ لهم بالسكن بشرط «عدم ادعاء ملكية الماء»، وبذلك أصبحت قبيلةُ جرهم أوَّل من يستقر في مكَّة.

ومع مرور الزمن تطوَّرت مكَّة وأصبحت مدينةً أشبهَ بدولة، وقدمت قبيلة خزاعة من اليمن طالبةً الإذن من الجُرهميين بغيةَ السكن معهم في مكَّة، وعندما رفضت قبيلة جرهم طلبَهم أعلنوا الحرب عليهم وانتزعوا منهم السيطرة على المدينة في عام /٢٠٧/، ولم يمسَّ الخزاعيون أولادَ إسماعيل بأذى؛ لأنهم وقفوا على الحياد في هذه الحرب، وحكم بنو خزاعة مكَّة لمدة طويلة، ولم يمضِ وقت طويل حتى انحرفوا كثيراً عن ديانة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام، وأضلوا الناس عن طريق الحقِّ بنشر عبادة الأصنام بينهم، فنصبوا صنماً

---

٢٥ البخاري: المساقاة، ١٠/ ٢٣٦٨.

باسم «هُبل» وعكفوا على عبادته، ولما اكتسبَت قبيلة قريش - وهم الذين ينحدرون من نسل إسماعيل عليه السلام - منعةً وقوةً أخذوا بالتحرُّك تحت قيادة قصيٍّ، وطردوا بني خزاعة من البلاد في عام / ٤٤٠/ .

عمل قصيٌّ على تكوين مجلس حكم لمكة الدولة الجديدة تحت اسم «دار الندوة»، وقامت الإدارة الجماعية بإحداث مؤسسات تشرف على القيام بالواجبات والمراسم الدينية، وكان قصي يباشر معظم الأعمال والواجبات بنفسه أو يشرف عليها مثل: رئاسة دار الندوة، والمحافظة على راية الحرب «القيادة العسكرية»، وخدمة الكعبة «السدانة، والحجابة»، وخدمة الحجيج «السقاية»، وإطعام الحجيج من الأموال التي تُجمع من الناس «الرفادة»، وحين وفاة قصي أوصى بهذه الوظائف لولديه عبد الدار و عبد مناف من بين أولاده الأربعة، وبذلك انتقلت هذه الأعمال والواجبات من الأب إلى الأولاد. [٢٦]

لقد كان بإمكان كلِّ من أتمَّ الأربعين من عمره من سكان مكَّة الاشتراكُ في اجتماعات المجلس، ولكن من الناحية الفعلية لم يكن يُشاهَد في هذه الاجتماعات سوى رؤساء عائلات وزعماء قبائل معينة في المدينة، ومن غرائب الأمور أنَّ دار الندوة هذه أصبحت بعد زمن طويل ساحة للاجتماعات والمشاورات التي كانت تُعقَد لمنع دعوة الرَّسول ﷺ من الانتشار.

وقد كانت دور ومقرات الاجتماعات المحلية الأخرى «الأندية» مكاناً لتنفيذ النشاطات الاجتماعية إلى جانب كونها مركزاً تُتَّخَذ فيه القرارات السياسية والعسكرية.

لقد كان مشركو مكَّة يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى في كثير من الأمور مع أنَّهم كانوا يقرُّون بأن الله ﷻ هو خالق كلِّ شيء.

وإن أهل مكَّة كانوا يعتمدون في تأمين مصادر عيشهم على الأنشطة والأعمال التجارية بسبب عدم صلاحية أراضيها للاستثمار الزراعي، ولذلك اكتسبت مكَّةُ أهمِّية مركزية وكبيرة في شبه الجزيرة العربية سواء من الناحية الدينية أو التجارية، وكانت الأعمال التجارية في مكَّة مستمرة صيفاً وشتاءً، حيث تتوجَّهُ القوافل التجارية إلى الشام «سوريا»

٢٦ انظر: ابن هشام، ١، ١٣٥- ١٤٢.

في فصل الصيف، وفي الشتاء تسير إلى اليمن، وتُنقَلُ أموال القوافل على ظهور الجمال، فكانت أعداد الجمال المسيَّرة تبلغ في بعض الأحيان ألفين وخمسمائة جمل، ولأن هذه القوافل التجارية كانت تشكّل أهمِّيةً بالغة لأهل مكَّة فقد ذكَّرَ الله تعالى القرشيين بهذه النعمة الاستثنائية التي أكرمهم بها عندما دعاهم إلى الإيمان والعبادة، حيث يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [٢٧]

ومع أن ممارسة هذا النوع من التجارة بشكل آمن في شبه الجزيرة العربية المضطربة والمحرومة من السيادة السياسية كان في غاية الصعوبة، إلا أنه كان يتمُّ تُوفِّير الأمن بصورة تامّة في الأشهر الحرم، وحتى من هذه الناحية تظهر المكانةُ المتميِّزة لمكة، وذلك لأن الشهر الحرام في سائر أنحاء البلاد كان شهرَ رجب فقط، بينما في مكَّةَ المكرَّمةِ الأشهرُ الحرمُ هي أربعةٌ بتمامها، وبالإضافة إلى ذلك فقد تمَّ إنشاء مؤسسة لتقوم بمهمَّة حماية أموال بعض العائلات في مكَّة من خطر النهب والسلب طوال الثمانية أشهر الأخرى.[٢٨]

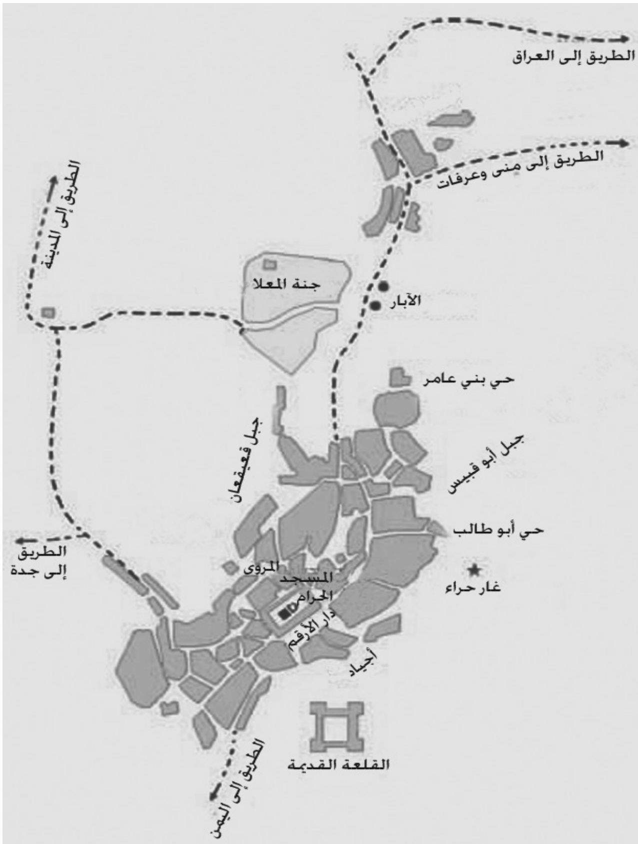
لقد أُنشِئت عدّة أسواق على أطراف مكَّة، وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز، وكانت هذه الأسواقُ التي تقام في أيام عبادة الحج شديدةَ الازدحام، وبهذه الطريقة تزداد بركة الحياة التجارية، ويكسب تجّارُ مكَّة أرباحاً طائلة.

إن موقع مكَّة الجغرافيَّ كان منذ القديم محطَّ أنظار ومطامع الدَّول المحيطة بها، حيث إنَّها تكتسب أهمِّيةً فائقة بسبب تواجد بيت الله الحرام فيها، وإن مكَّة لم يجر احتلالها من الدول المجاورة لها على الرغم من المحاولات العديدة، وبقيت محافظةً على استقلالها على مرِّ التاريخ، وقد بذل البيزنطيون جهوداً كبيرة من أجل من أجل بسط سيرتهم أو إيجاد نفوذ لهم على مكَّة، إلا أنَّ جهودَهم ومحاولاتِهم لم تُكلَّل بالنجاح أبداً.

---

٢٧ قريش: ١– ٤.

٢٨ انظر: محمد حميد الله، نبي الإسلام، ١، ٢٤– ٢٥.



تاريخ الكعبة وقدسيتُها

إن كلمة كعبة تأتي بمعنى «الشيء المكعب»، وقد ذُكرت في القرآن الكريم بهذا اللفظ مرتين، وورد ذكر الكعبة بأسماء أخرى في آيات القرآن الكريم مثل، «بيت، بيت الله، البيت العتيق، البيت الحرام، البيت المحرم، المسجد الحرام»، وتُعرف بين الناس بـ «الكعبة المعظمة» [٢٩]

---

٢٩ الكعبة مبنية على أساسات باتساع ١،٥م. وإن جدران الكعبة المبنية بالحجر البازلت المجلوب من أطراف مكة تحتوي على / ١٦١٤/ حجراً بأبعاد وقياسات مختلفة، ويوجد في الركن الشرقي الحجر الأسود على ارتفاع ١،١ متر محاطا بالفضة، ويشير الحجر الأسود إلى نقطة بداية الطواف وانتهائه، يُقال للركن الشرقي للكعبة «ركن الحجر الأسود، أو الركن الشرقي»، وللركن الشمالي «الركن العراقي»، وللركن الغربي «الركن الشامي»، وللركن الجنوبي «الركن اليماني»، ويُعرف المجرى الذي تصرف منه مياه الأمطار التي تتساقط على الكعبة باسم «ميزاب الكعبة»، «الميزاب الذهبي»، ويُطلق اسم «الحطيم» على الأرض المحاطة بجدار نصف دائري

عندما أُهبِط آدمُ عليه السلام إلى الأرض كُلِّف ببناء معبدٍ في مكَّة، وقد كان هذا البناء في المكان الذي بنى فيه إبراهيمُ بيت الله الحرام. [٣٠]

حيث يقول الله عز وجل في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [٣١]

وقد أجاب رسول الله ﷺ عن سؤال أبي ذر[٣٢] رضي الله عنه حول أوَّلِ مسجد بُنِيَ على وجه الأرض بأنه «المسجد الحرام»، وأما المسجد الثاني الذي بُنِيَ فهو «المسجد الأقصى» [٣٣]

بارتفاع ١،٢٣ متر وعرض ١،٥٥متر، والواقعة في مواجهة الجدار الشمالي الشرقي للكعبة «الركن العراقي والركن الشامي»، ويبلغ طول هذه الأرض ثلاثة أمتار اعتباراً من القسم الأول للكعبة، وكان هذا الجزء داخلاً ضمن بناء الكعبة كما أقامه سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكن تم إبقاؤه خارج البناء الأساسي عندما قامت قريش بإصلاح الكعبة بسبب عدم كفاية مواد البناء، ويسمى القسم الباقي / ٥،٤٦ متر/ ب «حجر الكعبة» أو «حجر إسماعيل»، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بنى مظلة في هذا المكان لأمنا هاجر وابنها إسماعيل من شجر الأراك، ويروى أن أمنا هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام دفنا في مكان الحجر، واعتبر الطواف خارج الحجر واجباً، يقع باب الكعبة في الجهة الشمالية الشرقية للبناء، ويرتفع عن الأرض بمقدار / ٢,٥٢ متر/، ويسمى الجزء الباقي الواقع بين الباب والحجر الأسود «الملتزم»، ويبلغ ارتفاع الكعبة / ٤١ متراً/، ويبلغ طول جهة الملتزم / ٢١,١١ متراً/، ويبلغ طول جهة الحطيم / ١١,٨٢ متراً/، والمسافة بين الحطيم والركن اليماني / ٢١,١١ متر/، والمسافة الفاصلة بين الركن اليماني والحجر الأسود هي / ١١,٢٥متر/، هناك ثلاثة أعمدة داخل الكعبة تحمل سقفها، وتصطف هذه الأعمدة في الوسط من الحائط الجنوبي وباتجاه الحطيم، وعند دخول الكعبة من الباب يوجد على الجهة اليمنى مصعد يؤدي إلى سقفها، ويوجد على مدخل المصعد باب يُسمى «باب التوبة»، وتُغطى جدران الكعبة وسقفها من الداخل بغطاء أخضر منسوج من الحرير. (محمد إلياس عبد الغني: ص، ٣٣– ٦٦؛ كامل ميراث، ترجمة تجريد، ٤، ١٧– ٢٠)

٣٠ انظر: الطبري، التاريخ، ١، ١٢٤.

٣١ آل عمران: ٩٦.

٣٢ أبو ذر: هو جندب بن جنادة، وينتمي إلى قبيلة غفار، ولذلك فإنه اشتُهر بأبي ذر الغفاري، وهو خامس المسلمين، وكان صاحب تقوى وزهد وقناعة واستغناء عن الناس، ولهذا السبب لقَّبه الرَّسول عليه الصلاة والسلام بـ «مسيح، عيسى، الإسلام»، وقد بذل جهوداً جبارة في سبيل نشر الدين الإسلامي. وكان دائم الحضور في مجالس النبي ﷺ، ليأخذ منه الحديث ويستفيد منه، وكان رضي الله عنه صاحب رغبة وشوق شديد إلى التعلم، حيث يبادر إلى سؤال النبي عليه ﷺ عن كل أمر يجهله، ولذلك قال عنه علي رضي الله عنه بأنه «وعاء العلم». وروى / ٢٨١ / حديثاً شريفاً، وتوفي سنة ٣١ هجرية في مكان على أطراف مكة يقال له «الربذة»، وقد صادفته متوفياً جماعة قليلة من الناس كانت تمر بالمكان فصلت عليه ودفنته.

٣٣ انظر: البخاري، الأنبياء، ١٠/ ٣٣٦٦.

وكما تبيَّن لنا فإن وادي مكَّة اختير واعتُبر مكاناً مقدَّساً مع نزول الإنسان الأول إلى الأرض.

لقد بقيت الكعبة تحت الرمال لمدة طويلة بعد طوفان نوح عليه السلام، وحين عاد سيِّدنا إبراهيم عليه السلام بعد سنوات إلى مكَّة حيث ترك زوجته وابنه قال لإسماعيل عليه السلام:

إن الله يأمرني أن أبني بيتاً، وأنت سوف تعينني في بنائه!.

وأخذ إسماعيلُ عليه السلام يجلب الحجارة، وسيِّدنا إبراهيم عليه السلام يبني البيت، وكان ما يعرف اليوم بـ«مقام إبراهيم» – وهو الحجر الذي عليه أثر أقدام إبراهيم عليه السلام – بمثابة مصعد يقف عليه سيِّدنا إبراهيم أثناء بناء جدران الكعبة.[٣٤]

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٥]

لقد وضع إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود في زاوية من الكعبة، وذلك كعلامة يستدلُّ بها الناس على مكان بدء الطواف حول الكعبة.

ووفقاً لما رُوي عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال:

«نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم» [٣٦]

ويُروى أن الحجر الأسود قد ازداد سواداً بسبب الحرائق المتكررة التي تعرضت لها الكعبة عبر العصور، حيث يُقال بأن السواد موجود فقط في القسم الظاهر من الحجر الأسود، وأما القسم الذي بداخل جدار الكعبة فإنه ما يزال محافظاً على بياضه.

---

٣٤ سائد بكداش: فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام، ص، ٨٠١؛ محمد إلياس عبد الغني، ٧١– ٧٣. وورد في رواية أخرى أن إبراهيم عليه السلام صعد إلى المقام فيها بعد البناء ودعا الناس إلى الحج. (سائد بكداش، ١١١) ويبين الله عز وجل فضل مقام إبراهيم عليه السلام في قوله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...﴾ (البقرة: ١٢٥)

٣٥ البقرة: ١٢٧.

٣٦ الترمذي: الحج، ٤٩/ ٨٧٧؛ أحمد: مسند، ١، ٣٠٧.

يقول العلماء: إن كانت الذنوب والمعاصي تؤثِّر حتى على الحجر إلى هذه الدرجة، فما بالك بأثرها الذي تخلفه على القلوب!، ولذلك ينبغي علينا الاحتياط من الذنوب والمعاصي بكلِّ ما أوتينا من قوة.

يقول مجاهد نقلاً عن عبد الله بن الزُّبير قوله:

«لقد نظرت إلى الحجر الأسود عندما نُقِضَت الكعبة وأعيد بناؤها من جديد، فكان باطن الحجر الأسود أبيضَ»

وعندما أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه سنة / ٣٣٩ هجري / بعد أن كانوا قد أخرجوه من مكانه، تفحَّصه محمَّد بن نافع الخزاعي قبل وضعه في مكانه، وروى الوصف الآتي:

«لقد تفحَّصتُ الحجر الأسود حين رفع من مكانه، فكان السواد في ظاهره فقط، أما سائره فقد كانت أبيض ناصعا».

وتهدَّمت الكعبة مرة أخرى في عام / ١٠٣٩ هجرية / نتيجة سيل كبير أصابها، وخلال بنائها من جديد كان من بين الحاضرين الإمام ابن علان المكي، وتابع الإمام أعمال البناء، ودوَّنها بكلِّ تفاصيلها، ونقل لنا الوصف الآتي عن الحجر الأسود، حيث يقول:

«لقد كان لون الجزء المخفي من الحجر الأسود في الكعبة أبيضَ مثل مقام إبراهيم» [٣٧]

ولما اكتمل بناء الكعبة توجَّه سيِّدنا إبراهيمُ وسيِّدنا إسماعيلُ عليهما السلام إلى الله تعالى بالدعوات الآتية:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣٨]

وبعد انتهاء تشييد الكعبة أمر الله ﷻ إبراهيمَ عليه السلام بدعوة الناس إلى الحج، حيث قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [٣٩]

---

٣٧ انظر: سائد بكداش، ٣٦– ٣٨؛ الدكتور. محمد إلياس عبد الغني، ٤٣.

٣٨ البقرة: ١٢٨– ١٢٩.

٣٩ الحج: ٢٧.

واستجابة لهذه التعاليم الإلهيَّة صعد سيِّدنا إبراهيمُ عليه السلام إلى جبل أبي قُبَيس، أو اعتلى مقام إبراهيم، ونادى على الناس في الجهات الأربع مُعلِماً إياهم بأن الله عز وجل فرض على الناس الحج إلى الكعبة الشريفة.[٤٠]

وبعد أن قام إبراهيم عليه السلام بإعلان هذا النبأ جاءه جبريل عليه السلام، وأراه الصفا والمروة وحدود الحرم الشريف، وطلب إليه وضع حجر كعلامة يستدل بها على ما أخبره به، وبعدها علَّمه كلَّ فرائض الحج.

وبعد ذلك بدأ الزوار بالتوجُّه إلى الحجاز من سائر البلدان القريبة منها والبعيدة، وأخذوا يحجون إلى بيت الله، واكتسبت الكعبة أهمِّية بالغة باعتبارها مركزاً دينياً، وأصبحت وجهة يقصدها كلُّ الناس.

ومن جهة أخرى كانت الكعبةُ تتعرض أحياناً لاعتداءات من القبائل التي لم تعترف بقيمتها وقدسيَّتها، فقبل الاعتداء الأثيم لحاكم اليمن أبرهةَ على الكعبة بعصور أراد ثلاثةٌ من حكام اليمن الوثنيين هدم الكعبة الشريفة، ومن بين هذه الاعتداءات كان اعتداء التُّبَّع اليماني، الذي أراد هدمَ الكعبة واستخراجَ الكنز المدفون تحتها بناءً على إغراء جماعة من بني هذيل، وكان السبب أو الهدف الذي دفعهم إلى تحريض التبّع على هذا الاعتداء الآثم هو رغبتهم في التخلص منه، وذلك لأن بنو هذيلل كانوا يؤمنون بقدسية الكعبة، وكانوا يعلمون يقيناً استناداً إلى التجارب التاريخية بأن أية محاولة للإساءةِ إليها وتعمُّدِ الإضرار بها سوف تكون سبباً لهلاك صاحبها المؤكد.

وعندما تعرَّضَ التبَّعُ وجماعتُه للرمال المتحرِّكة وأوشكوا على الغرق فيها وهم في طريقهم إلى الكعبة من أجل هدمها، تخلَّى التبَّعُ عن تلك النِّية السيِّئة التي كان قد أضمرها تجاه الكعبة، وذلك بناءً على إرشاد ونصح ومواعظ الحكماء الذين كانوا ضمن حاشيته، وأبدى تعظيماً كبيراً لبيت الله، وتعهّد بتكريم أهل مكَّة والإحسان إليهم، وبذلك أنقذ نفسه من الهلاك المحقَّق.[٤١]

---

٤٠ انظر: كاميل ميراس، ترجمة التجريد، ٤، ٢٠- ٢١؛ سائد بكداش، ١١١.

٤١ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ١٩- ٢٠؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ١٥٣.

ولما ظهرت قيمة الكعبة وعلو مكانتها عند الحقِّ سبحانه وتعالى بناء على هذه الحادثة والحوادث المشابهة لها، ارتفع شأن الكعبة في نظر الناس أيضاً، وبذلك ساد اعتقادٌ لدى القبائل في شبه الجزيرة العربية بأن الكعبة خاصة، ومكة أهلها عامة تحت الحماية والرعاية الإلهيَّة.

وبعد سيِّدنا إبراهيم عليه السلام استمرَّت العبادة في بيت الله الحرام وفق الأسس المتوافقة مع عقيدة التَّوحيد حتى الزمن الذي بدأت فيه الوثنية وعبادة الأصنام، ولكن مع انتشار العبادة الوثنية نصب المشركون كثيراً من الأصنام داخل الكعبة وحولها، وعلى الرغم من ذلك لم تتمَّ إضافة الكعبة يوماً إلى الأصنام، وإنما كانت تُعرَف دائماً باسم «بيت الله» [٤٢]

وخلال فتح مكَّة تمَّ تحطيم كلِّ الأصنام التي بداخل الكعبة وحولها، وتمَّ غسل الكعبة وتنظيفها من الداخل والخارج بماء زمزم تحت أنظار وإشراف رسول الله ﷺ، ومنذ ذلك الحين تُغسَل الكعبة في يوم عرفة بماء زمزم وماء الورد، وتُعطَّر بالمسك والعنبر، ويُجدَّد ثوبُها.

لقد كان في العصر الجاهلي لتعليق الأشياء على جدار الكعبة أهمِّيةٌ كبيرة من كل الجهات لدى المشركين مثل الآثار الأدبية كالمعلقات السبعة التي يراها المشركون ذات قيمة عالية، ومتن القرارات التي تدعو إلى مقاطعة المسلمين وإنهاء العلاقات معهم، والقرارات السياسية المهمة.

كانت هناك بعض الأعمال والواجبات الخاصَّة المتعلقة بالكعبة وتمَّ الالتزامُ والوفاء بها اعتباراً من بناء الكعبة، وأوَّلُ من نفَّذها هو إسماعيل عليه السلام، وبعدها انتقلت هذه الوظائف المشرفة إلى أولاد إسماعيل، وبعدهم انتقلت إلى الجرهميين، ومن ثم إلى انتقلت إلى قبائل مختلفة إلى أن وصلت في النهاية إلى القرشيين، وإن هذه الوظائف التي كانت تنفَّذُ بعناية فائقة في دولة مكَّة هي:

٤٢ على الرغم من انحراف الناس في الشرك وعبادتهم لكثير من الحجارة والأشجار، إلا أنهم لم يعبدوا يوماً الكعبة، ولا الحجر الأسود ولا مقام إبراهيم عليه السلام، على الرغم من أن هذه الرموز ا لها مكانة وقدسية كبيرة في قلوبهم، وهذا الأمر حماية ورعاية خاصة من الله تعالى.

١. **السِّدانة والحِجابة**: وهي وظيفة إكساء الكعبة والحفاظ على مفتاحها. [٤٣]

٢. **السِّقاية**: وهي وظيفة سقاية الحجيج الماءَ العذب، والقيامِ بالأعمال المتعلِّقة ببئر زمزم.

٣. **الرِّفادة**: وهي وظيفة إطعام الحجَّاج الفقراء واستضافتهم.

إن التعهُّدَ بهذه الوظائف والقيامَ بها يُعتبَر شرفاً عظيماً، وهذه الخدمات قد جرى تقاسمها في عصر السعادة بين العائلات التي لها شأنٌ في مكَّة، ففي عهد عمر بن الخطاب ﵁ تمَّ رصد مخصصات معينة من أجل الخدمات المذكورة، واعتباراً من عهد معاوية ﵁ فقد جُعل لهذه الأعمال نظامٌ خاصٌّ بها، وأما في عهد الدولة العثمانية فقد كان يخصص في كل عام جزء من أموال الدولة من أجل خدمة الكعبة.

حادثة الفيل: من إحدى الوقائع التي تدعو إلى الاعتبار والتي تُظهِر مدى حفظِ الله للكعبة والعنايةِ الإلهية بها:

لقد كانت الكعبة التي بُنِيت بأمر الله تعالى تحت الرعاية والحفظ الإلهي على الدوام، وإن الحدث التاريخيَّ المعروف والمشهور بـ «حادثة الفيل» من الأمثلة التي تدعو إلى الاعتبار والتي تثبت هذا الأمر.

لما رأى أبرهةُ والي اليمن عدم رغبة الناس بالكنيسة التي أمر ببنائها في صنعاء – بمساعدة الامبراطورية الرومانية، وجهَّزها بالشكل الذي كان يتمناه ويهدف إليه – أصابه غضب وغيظ شديد، فقرَّر أن يهدم الكعبة التي يقدِّسها العرب منذ القدم، ويحافظون على زيارتها بصورة مستمرة، فجهَّز جيشاً عرمرماً يتضمن – فيما يتضمنه إلى جانب الجند وخيولهم – الفيلةَ التي تُعدُّ بمثابة العربات المدرعة والدبابات في عصرنا

---

٤٣ يُروى أن أول من كسى الكعبة هو إسماعيل ﵇، (عبد الرزاق، ٥، ١٥٤)، وخلال التاريخ الإسلامي كان يتم صناعة وتجهيز كسوة الكعبة بتكليف من الحاكم، أو والي مكة المكرمة، وقد استمر تجهيز الكساء الداخلي والخارجي للكعبة في مصر لمدة معينة بعد انتقال الخلافة إلى العثمانيين عام / ١٥١٧ / ، وفي عهد السلطان القانوني أصبح الكساء الداخلي يُجهز في اسطنبول، وفي عهد السلطان أحمد الثالث بدأ تجهيز الكساء الداخلي والخارجي معاً في اسطنبول، وتم إرسال آخر كسوة مجهزة من قبل الدولة العلية في عام / ١٩١٦ م/ ، وبعد هذا التاريخ لم يعد بالإمكان إرسال الكسوة إلى الكعبة بسبب حركة الشريف حسين، وبعد ذلك بقيت الكسوة لمدة من الزمن تُرسل من مصر، وأما في عصرنا هذا فيتم تجهيز كسوة الكعبة في مكة من قبل مصنع تمَّ تأسيسه خصيصاً لتنفيذ هذه المهمة.

الحاضر، واتجه بهذا الجيش الكبير إلى مكَّة، وقد أراد بهذه العملية أن يصرف وجوه الناس إلى الكنيسة التي بناها.

وقد اشتدَّ عجبُ أبرهةَ واندهاشه حين جاءه عبد المطَّلب يطلب منه إعادة الإبل التي سلبها جنوده، وقال له: أتيت أهدم دينك ودين آبائك، وأنت تحدثني عن إبلك! فأجابه عبد المطَّلب قائلاً: إن للكعبة ربٌّ يحميها!، فردَّ أبرهةُ على قوله وقد أزبد من الغيظ: ليس من أحد يحميها مني!.

وأصدر الأمر إلى جيشه القريب من الكعبة بالهجوم عليها، ولكن عندما وصل الجيش إلى وادي محصر الذي يقع بين منى والمزدلفة توقفت الفيلة ولم تعد قادرة على المسير، وامتلأت السماء بطيور الأبابيل، وبدأت تمطر جيش أبرهة بوابلٍ من الحجارة المتشكلة من الآجر القاسي التي كانت تحملها بأرجلها، حيث كانت الحجارة تهلك كل شخص تصيبه، وتحوَّلت الأرض أمام الكعبة في لحظات إلى مقبرة ممتلئة بجثث القتلى من جنود أبرهة، فقد سحقت الطيورُ الصغيرة التي لا يُؤبه لها الفيلةَ الضخمة التي تبلغ أوزانها الأطنان، وطرحتها أرضاً، وسمي العام الذي وقعت فيه هذه المعجزة الإلهيَّة بـ «عام الفيل».

ويبيِّن الله تعالى هذه الحادثةَ في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [٤٤]

وذلك لأن الكعبة التي شُيدت بالأمر الإلهي كانت «منزل البر»، وعدت مكانا مقدَّساً ومباركاً يؤدى فيه واجب العبودية لله تعالى، ولهذا فقد جُعلت الكعبة تحت الحفظ والرعاية الإلهيَّة.

وإن الجزاء الأليم الذي ناله أبرهة على إساءته وتحقيره لمكان العبادة يحمل في باطنه تهديداً شديداً لمن توسوس له نفسُه بالإساءة إلى ذلك المكان بأنه سوف يلقى المصير ذاته، وذلك إلى يوم القيامة.

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

---

٤٤ الفيل: ١ – ٥.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤٥]

إن أبرهة الذي اشتدَّ ظلمُه وتجبُّرُه كثيراً أصابه العجبُ بنفسه، ووصل به الوهمُ إلى درجة حسِب معها أنَّ قوَّته وعظمته لا نهايةَ لها، ولذلك لم يجعل الله ﷻ هلاكَه عن طريق الوحوش البرية التي تتمتع بالقوة والبأس الشديد مثل السباع والنمور، أو الأفاعي السامة، وإنما أهلكه بحجارة صغيرة لا تبلغ حجم الحمّصات، رمتها عليه وعلى جيشه طيورُ الأبابيل، تلك الطيور الصغيرة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة، وبذلك وضعه أمام الحقيقة التي تبين مدى ضعفه وعجزه، وتظهر تفاهة عجبه واستكباره.

وعاد أبرهةُ الذي خرج من اليمن منتشياً باستكباره وعظمته، عاد إليها زاحفاً ببدن ممزَّق، وبحالة يُرثى لها من الذلِّ والمهانة، إن في حالَ أبرهةَ الكثير من الدروس والعبر لما يصيب المستكبرين، فهي تشير إلى أنَّ المستكبرين في الأرض ينالون جزاءهم ويُهانون، وهم ما يزالون في هذه الدُّنيا.

واستُخدم عامُ الفيل بين القرشيين كبداية لتقويم تاريخي جديد ومميز، والرواية الآتية خير مثال على ذلك: قال قيس بن مخرمة:

«ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل»،

قال: وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث:

«أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟»

فقال: «رسول الله ﷺ أكبر[٤٦] مني وأنا أقدم منه في الميلاد!»

قال: «ورأيت خذق الفيل أخضر محيلاً»[٤٧]

٤٥ البقرة: ١١٤.

٤٦ لقد كان لدى الصحابة الكرام إحساس وشعور دائم بأن النبي ﷺ أعلى منهم مقاماً ومنزلة كما في هذه الرواية، حيث إنهم كانوا يبدون اهتماماً كبيراً في هذا المجال، وكانوا يفتخرون كثيراً إذا ما تمكن أحدهم من ملامسة بدن النبي ﷺ، حيث يقول الصحابي: «لقد بايعت رسول الله بيدي هاتين» ويظهر يديه للناس. (ابن سعد: الطبقات٤، ٣٠٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،٨ ، ٤٢)

٤٧ الترمذي: المناقب، ٢/ ٣٦١٩.

سيِّدنا إبراهيمُ عليه السلام والحنيفيةُ

مع أن عبادة الأصنام كانت مسيطرةً بشكل عام على مكَّة، إلا أن آثار التَّوحيد لم تختفي تماماً، فقد كان دين التَّوحيد الذي علَّمه سيِّدنا إبراهيمُ عليه السلام للناس منتشرا في المجتمع ولو بنسبة قليلة.

إن إبراهيم عليه السلام الذي يوصف بـ «خليل الرحمن» هو أحد أولي العزم من الأنبياء، ويُعتبر جدَّ كثير من الأنبياء، ومنهم رسولنا الكريم ﷺ، وقد أوحى الله تعالى إلى سيِّدنا إبراهيم عليه السلام عشرَ صحف.

لقد ورد ذكر سيِّدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم تسعاً وستين مرة في خمس وعشرين سورة، وقد أثنى الله تعالى عليه ومدحه كثيراً بإطلاق أسماء وصفات مميزة عليه مثل: «**أواه**»، «**حليم**»، «**منيب**»، «**قانت**»، «**شاكر**»، «**حنيف**».

ويُطلق على دين سيِّدنا إبراهيم عليه السلام وصف «**الحنيفية**»، لأن كلمة حنيف في اللغة تعني «**الموحِّد**» أي: الذي يترك الاعوجاج ويتَّبع الطريقَ السوي، ويلتزم بالاستقامة والإيمان بالله تعالى وحده ويبتعد عن الأديان المنحرفة، والعقائد الباطلة.

حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [48]

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [49]

وكان يطلق على الذين ارتبطوا بديانة سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام في العصر الجاهلي وابتعدوا عن مختلف الانحرافات وعبادة الأصنام، وآمنوا بالله تعالى كإله واحد، كان يُطلق عليهم اسم «الحنيفيين»، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن حويرث، وزيد بن عمرو، وقُس بن ساعدة، واعتبر الأحنافُ أن الركوعَ أمام الأصنام الضعيفة التي لا روحَ لها ولا لسان والتوسُّلَ إليها من التصرُّفات المستهجنة.

---

٤٨ البقرة: ١٣٥.

٤٩ آل عمران: ٦٧.

ويروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:[٥٠]

أنه لقي زيد بن عمرو بن نُفَيل بأسفل بَلْدَحَ، وذاك قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ، فقُدِّم لرسول الله ﷺ سفرةٌ فيها لحم، فأبى أن يأكل منها، وأبى زيد أن يأكل هو منها أيضاً، وبيَّن زيد سبب امتناعه عن أكل اللحم بقوله:

«إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذُكر اسم الله عليه»[٥١]

وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول:

«الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؛ إنكاراً لذلك وإعظاماً له!»[٥٢]

---

٥٠ عبد الله بن عمر رضي الله عنه وُلد في السنة الثالثة للبعثة، وهاجر مع أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانضمَّ إلى الجيش الذي توجه إلى اسطنبول، هذا الجيش الذي كان فيه الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ونال شرف ملازمة الرَّسول الكريم وفخر الكائنات ﷺ بسبب زواج أخته حفصة من النبي ﷺ، وروى ابن عمر ٢٦٣٠ حديثاً، وبذلك يأتي في المرتبة الثانية بعد أبي هريرة رضي الله عنه من بين الصحابة السبعة المكثرين من رواية الحديث الشريف، وكان ابن عمر رضي الله عنه أيضاً يُعد أحد الصحابة السبعة المكثرين في إصدار الفتاوي.

ولم يكن له مثيل في الاقتداء بسنن النبي ﷺ بكل تفاصيلها، وتنفيذ وصاياه حرفياً، وبعد وفاة الرَّسول ﷺ ولشدة محبته وتعلقه به كان ابن عمر رضي الله عنه يتحرى ويسأل عن الأماكن التي صلى فيها الرَّسول ﷺ ليصلي فيها، ويمشي على الطرق التي كان يمشي عليها، ويجلس تحت الأشجار التي كان النبي ﷺ يستظل بها، ويسقي تلك الأشجار لكي لا تذبل.

ذات يوم شُدت أعصاب قدمه وتشنجت، فقال عبد الرحمن بن سعد الذي كان جالساً بجانبه: اذكر اسم أحب الأشخاص إليك. فقال ابن عمر رضي الله عنه: يا محمد! فبرئت قدمه من فورها. (ابن سعد، ٤، ١٥٤)

لقد كان ابن عمر رضي الله عنه أحد أغنياءِ و وجهاءِ الصحابة الكرام، ولم يكن يدع مجالاً لنمو أمواله إلى درجة كبيرة، وإنما كان يوزع ما يستحصل عليه على الفقراء والمساكين، وكان يعزل أكثر الأشياء التي تعجبه من أمواله لتقديمها كأضاحي في سبيل الله، أو لتوزيعها صدقات على الفقراء، وكان يحرِّر كل عبد تحت يده إذا ما رأى تحسن أحواله، وخاصة إذا عرف بأنه تعلم الصلاة، وذات مرة نبهه أحد أصحابه على أن قسماً كبيراً من العبيد يذهبون إلى المسجد فقط من أجل تحريرهم، فأجابه عبد الله بن عمر رضي الله عنه بكلام يظهر مدى محبة الله تعالى في قلبه، حيث قال: «من خدعنا بالله.. انخدعنا له».

وحرَّر ما يربو عن ألف مملوكٍ بأسباب مختلفة. وتوفي رضي الله عنه في مكة سنة / ٧٣ هـ / ٦٩٢م/ وله من العمر خمس وثمانون سنة.

٥١ البخاري: الصلاة، ٩٨/ ٥٤٩٩؛ ابن حجر: الإصابة، ٢، ٣٤٩..

٥٢ البخاري: مناقب الأنصار، ٢٤؛ الذبائح: ١٦/ ٣٨٦٢.

وجاء في رواية أخرى:

«أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشآم، يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي حبرا من أحبار اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لَعَلِّي أن أدين دينكم فأخبرني. فقال الحَبْر: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنّى أستطيعه!؟ فهل تدلني على غيره؟ فقال الحَبْر: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد متسائلاً: وما الحنيف؟ قال الحَبْر: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال:لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال زيد: ما أفرُّ إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال النصراني: دين إبراهيم، فهو لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني اشهدْ أني على دين إبراهيم»[٥٣]

وتقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما:

«رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً، مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معاشرَ قريش! والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[٥٤]

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن ورقة بن نوفل رضي الله عنه -وكان أحد الحنيفيين-فقال:

«**أبصرته في بطنان الجنة عليه سندس**» .

وسُئل عن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال عليه الصلاة والسلام:

«**يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى** عليه السلام»[٥٥]

٥٣ البخاري: مناقب الأنصار، ٢٤/ ٣٨٢٧.

٥٤ البخاري: مناقب الأنصار: ٤٢ / ٣٨٢٨.

٥٥ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩، ٤١٦/ ١٦١٧٧.

إن الحنيفيين الذين مرَّ ذكرهم في بحثنا كانوا يعلمون بقرب زمن بعثة نبينا عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لاطلاعهم القليل أو الكثير على الكتب المقدسة السابقة، وكانوا ينتظرون بعثته بشوق كبير.

ووفقاً لرأي جمهور العلماء المسلمين فإن والد النبي عليه الصَّلاة والسَّلام وأمَّه كانا من أحناف مكَّة .

والحنيفيةُ ما هي إلا عقيدةُ التَّوحيد التي جاء بها الإسلام، وليست شيئاً آخر، ولهذا السبب فقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ باتباع دين إبراهيم عليه السلام الحنيف، حيث يقول الله عز وجل في القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٥٦]

ولذلك فقد استخدمت الحنيفية للدلالة على الدين الإسلامي، وأُطلق وصف «**الحنيف**» على كل مسلم صادق ومخلص في إسلامه، حيث يقول النبي ﷺ:

«...**بُعثت بالحنيفية السمحة**...» [٥٧]

ويقول أيضاً:

«**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**» [٥٨]

٥٦ النحل: ١٢٣.

٥٧ أحمد: مسند، ٥، ٢٦٦/ ٢٢٢٩١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٥، ٢٧٩/ ٩٤٤١.

٥٨ البخاري: الإيمان، ٢٩.

سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ المُصْطَفى

صلى الله عليه وسلم

قَبل النُّبوَّة



القسم الأول

ولادةُ النبيِّ ﷺ وطفولتُه

النورُ المحمَّدي

لا يمكن التفكير بالزمان والمكان بحق الله ﷻ، إذ هو منزَّه عن قيود وشروط الزمان والمكان،[٥٩] لقد خلق الحقُّ ﷻ – الموجودُ وحدَه في الأزل والذي لا يحتاج في وجوده إلى غيره – ما يُعرَف بـ «عالم الكثرة» أي: ما سوى الله،[٦٠] منذ تعلُّقِ إرادته بتكريم هذا العالم بمعرفته وبالعبادات التي تستوجبها هذه المعرفة، وأول ما ظهر للوجود في هذا الخلق «نور»، وذلك النور هو خلاصة «الحقيقة المحمَّدية» وأصلُها ولبُّها.

فكما أن الجوهرة الثمينة لا تُقدَّم عاريةً، وإنما تُزيَّن أطرافها بقطع من الزينة «الإكسسوارات»، فإن جميع الكائنات تُعتبَر بمثابة قطع الزينة حول «النور المحمَّدي».

وقد خُلقت تعزيزاً وتكريماً له، ووفقاً لذلك فالسببُ الأوَّل لوجود الكون بهذا الاعتبار هو ألوهيةُ ذات الحقِّ ﷻ، وأما السبب الثاني فهو لزوم تزيين وإحاطة «النور المحمَّدي» بسائر الكائنات لعلوِّ قدره وقيمته وشرفه الرفيع.

وبعبارة أخرى:

إن المبدأ الأوَّل في تسلسل الكائنات وفق علم الكلام الإسلامي هو الفاعل المختار «الذي يفعل ما يريد» وهو الحقُّ ﷻ؛ وأما الوسيلة أو السبب فهو «النور المحمَّدي»، أي: أن النور المحمَّدي هو الأوَّل في الخلق.

---

٥٩ أما العقل البشري فيتصف من جهة طبيعة خلقه بقابليته للتفكير ضمن شروط الزمان والمكان، فهو يتلقَّى انطباعات عن العالم المشخَّص أمامه ويستخدمها –وفق معايير معينة– ليصل إلى الحقيقة، وإن الإنسان المجبر على استخدام انطباعاته التي استحصلها من العالم المشاهد من أجل الحقائق المتعلقة بالعالم الغيبي الخارج عن نطاق المشاهدة محكوم باستخدام التعابير المجازية في تحديد حقائق ما وراء الطبيعة، سواء كانت أسماء هذه الحقائق أو مضامينها.

٦٠ ما سوى الله: تعبيرٌ يُستخدم للدلالة على كل شيء غير الله تعالى والممنوع منه.

فالكائنات – وفق النظرة الإسلامية – «حادثة» وليست «قديمة أو أزلية»، وذلك على عكس ما يقرره كثير من الفلاسفة، فهي وُجدت بعد العدم، والقديم الأزلي هو الحق سبحانه وتعالى وحده، والنور المحمَّدي يأتي في المقام الأوَّل في الوجود بالنسبة للمخلوقات التي أُوجِدت فيما بعد، ولهذا السبب عندما سُئل النبي ﷺ متى وجبت لك النبوة؟ قال:

«وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ» [٦١]

أي: أنَّ النبيَّ ﷺ قبل آدمَ عليه السلام باعتبار خلقه وتكليفه بمهمة الرسالة، وأما من حيث تحوُّلُه إلى جسد وظهوره إلى عالمنا الحسي فيُعتبر الصفحة الأخيرة في سجلِّ النُّبوَّة، وذلك لأن تاريخ الرسالة بدأ مع أوَّل الخلق، وهو «النور المحمَّدي»، واختتم هذا السجل الفاخر بالورقة الأخيرة وهي «الجسد المحمَّدي» الطاهر.

وأما «نور الكون» فيشير إلى «النور المحمَّدي»، المخلوقِ الأوَّلِ الذي خُلقت جميعُ الكائنات الأخرى بتشريفه، فليس لهذه الكائنات تشريف ذاتي، وإنما تكتسب تشريفها وقيمتها بانتسابها إلى «النور المحمَّدي».

وإنَّ الأحاديثَ الشَّريفة الآتية تؤكِّد هذه الحقيقةَ بجلاء:

«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك» [٦٢]

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

«أوحى الله إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن» [٦٣]

---

٦١ الترمذي: المناقب، ١/ ٣٦٠٩.

٦٢ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٧٢/ ٤٢٢٨.

٦٣ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٧١/ ٤٢٢٧.

جاء جابر بن عبد الله ﷺ إلى النبي ﷺ، وقال:

يا رسولَ الله! بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أوَّل شيءٍ خلقه الله تعالى قبلَ الأشياء. قال رسول الله ﷺ:

«**يا جابر! أن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نورَ نبيِّكَ من نوره**» [٦٤]

ويقول ابن عربي في هذا المجال:

«لما بشَّر الله تعالى محمَّداً ﷺ بالنُّبوَّة لم يكن آدم ﷺ موجوداً، وإنما كان ما يزال بين الطين والماء... وبذلك فحكم الأوَّل والباطن لكلِّ الشرائع السماوية التي أُنزِلت عن طريق الأنبياء والرُّسل قد أصبحت متحقِّقة في حقِّ الرَّسول ﷺ، فالنبي عليه الصَّلاة كان صاحب الشريعة منذ ذلك الوقت، حيث إنَّ النبي ﷺ قال عندما سُئل متى وجبت لك النبوة؟: «**وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ**»، [٦٥] ولم يقل: - كنت إنساناً -، أو - كنت موجوداً -، و لا يمكن الحديث عن النُّبوَّة إلا أن تكون هناك شريعة أُنزلت عليه وحياً من الله تعالى» [٦٦]

ويقول ابن عربي في موضع آخر:

«إن الرَّسول ﷺ من أكمل الخلق ضمن الجنس البشري، ولأجل ذلك بدأت النُّبوَّة به، وانتهت به» [٦٧]

ويقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في المثنوي:

«تعال أيها القلب! إن العيد الحقيقيَّ هو وصالُ سيِّدنا محمَّد ﷺ؛ لأنَّ ضياء العالم من نور جمال ذلك الكائنِ المبارك».

ويتناول حضرة سليمان شلبي النورَ المحمَّدي في المولد الشَّريف حيث يقول:

إن الله ﷻ خلق في البدء نور محمَّد المصطفى ﷺ، وأحبَّ ذلك النور.

والخلاصة، هي أن النور المحمَّدي والذي يُسمى أيضاً الحقيقة المحمَّدية هو نور، أو حقيقة، أو جوهر يمثِّلُ الشخصيةَ المعنوية للرسول ﷺ، وهو الأحبُّ عند الله والأكثر

---

٦٤ انظر: العجلوني، ١، ٢٦٥/ ٨٢٧.

٦٥ الترمذي: المناقب، ١/ ٣٦٠٩.

٦٦ ابن العربي: الفتوحات، ٢، ١٧١؛ ٤، ٦٦- ٦٧.

٦٧ ابن العربي: فصوص الحكم، ٤، ٣١٩.

قيمة والأعلى قدراً، وإن سبب إيجاد الموجودات هو التوجُّهُ بالمحبَّة إلى النور المحمَّدي الذي يُعدُّ أوَّل مخلوقات الله تعالى في الخلق، ولهذا السبب فقد أُوجدت جميع الكائنات لكي تشرف وتكرم النور المحمَّدي، وتكون بمثابة غلاف جميل له، كما تُغلف الجوهرة النفيسة، وخُلقت كل الموجودات من أجل تفصيل وبيان وشرح حقيقته، ولذلك فكما أنه من غير الممكن حصرُ المحيط في كأس ماء، كذلك ليس من الممكن إدراكُ النور المحمَّديِّ والإحاطةُ به بالشَّكلِ اللائق.

النسب النبوي الشَّريف

إن والد النبيِّ ﷺ هو عبد الله بن عبد المطلب، وأمه هي آمنة بنت وهب، ويصل نسبه المبارك إلى عدنان الذي يُعدُّ أشرف رجلٍ من سلالة قيذر بن إسماعيل عليه السلام.

إن عدنانَ الجدَّ الأكبر للنبيِّ ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام.[٦٨] ويُروى أن معد بن عدنان قد عاصر عيسى عليه السلام.

ينتسب الرَّسول ﷺ إلى أشرف وأطهر عائلةٍ من قبيلة قريش سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم، وقد قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام عن نسبه الطاهر والشَّريف:

«... فأُخرجتُ من بين أبوي فلم يصبني شيء من عُهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتّى انتهيت إلى أبي وأُمّي، فأنا خيرُكم نسباً وخيرُكم أباً»[٦٩]

من أحد أسماء النبي ﷺ الشَّريفة المصطفى، ويعني هذا الاسم الاصطفاء التاريخي الآتي:

كلما ينقسم المجتمع الذي ينتسبُ إليه النبيُّ ﷺ إلى قسمين فإن الله تعالى يجعل النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام في القسم الأكثر خيراً، وإن نورَه الذي أضاء الكون ظلَّ ينتقل متسلسلاً من خلال أطهر الأمهات والآباء منذ عهد آدم عليه السلام إلى أن وصل إليه.

يفسِّرُ ابنُ عباس رضي الله عنهما الآية / ٢١٩ / من سورة الشعراء بالمعنى الآتي:

«تقلبك في أصلاب الأنبياء، من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجك نبياً».

٦٨ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ١، ٥.

٦٩ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٦٢.

وفي المواهب اللدنية: «قيل معناه: أنه كان ينتقل نوره من ساجد إلى ساجد» [٧٠]

وقد ذكر فخرُ الكائنات ﷺ هذه الخصوصية في الأحاديث الشَّريفة، حيث قال:

«بُعثت من خير قرون بني آدم، قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه» [٧١]

«إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [٧٢]

ويقول العلامة ابن خلدون بشأن معرفة نسب النبي ﷺ بهذه الدرجة من الوضوح والتفصيل، والاستمرار بهذه الأصالة والرفعة:

«ليس لأحد من العباد غيرُ سيِّدنا محمَّد ﷺ مثل هذا النسب؛ لا من حيث درجة الضَّبط، ولا من حيث أصالة النسل واستمراره متصلاً من آدم عليه السلام وحتى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذا الأمر إكرام من الله تعالى للحبيب الأديب» [٧٣]

زواج والد النبي ﷺ عبدِ الله من أمِّه آمنةَ

لقد فسدت وانحرفت عقيدة التَّوحيد في العهد القريب من عصر البعثة، وامتلأت الكعبة بالأصنام التي كانت تعبدها قبائل العرب، وأهمل بئر زمزم حتى خرب وانطمس.

وبينما كان عبد المطَّلب جدُّ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام نائماً في الحجر جاءه نداء في الحلم بحفر بئر زمزم وإخراج الماء منه، وفيما بعد جاءته إشارة ترشده إلى المكان الذي يتوجَّب عليه حفره.

ولما بدأ عبد المطَّلب أعمال الحفر منعه القرشيون من ذلك قائلين:

- لا نسمح لأحد بالحفر قرب معبدنا.

ولم يكن عبد المطَّلب يمتلك القوة الكافية بعدُ لمواجهتهم، وجراء ذلك نذر عبد المطَّلب إن رزقه الله بعشرة من الأبناء، وبلَّغه اليومَ الذي يمتلك فيه هؤلاء الأبناء القدرةَ على حمايته، فسوف يضحِّي بأحدهم بجانب الكعبة.

---

٧٠ القرطبي: ٤، ١٤٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤، ٢١٤.

٧١ البخاري: المناقب، ٢٣/ ٣٥٥٧.

٧٢ مسلم: الفضائل، ١/ ٢٢٧٦؛ الترمذي: المناقب، ١/ ٣٦٠٥.

٧٣ ابن خلدون: ١، ١١٥.

وبعد مدة من الزمن لانَ جانب القرشيين تجاه عبد المطَّلب عندما رأوا فيه بعض الأحوال والإشارات الخارقة والغريبة، وأذنوا له بمتابعة أعمال الحفر، فحفر عبد المطَّلب البئر وأخرج ماء زمزم، وبمرور الزمن رُزق بعشرة من الأولاد، وبلغوا العمر الذي يمتلكون فيه القدرة على حمايته، فرأى في الرؤيا مناديا يناديه:

أوفِ بنذرك! مذكِّراً إياه بالنذر الذي قطعه على نفسه منذ سنوات خلت، ولجأ عبد المطَّلب إلى ذبح الماشية للإيفاء بنذره، وفي كل مرة يذبح فيها ماشية يُطلب منه في الرؤيا شيءٌ أكبر حتى ذبح كباشاً وعجولاً على التوالي، ولكن لم تفارقه الرؤيا في كل مرة، وعندما سأل ذات مرة: وما هو الأكبر بعد؟ قيل له: لقد نذرت ذبح أحد أولادك!.

وبناءً على هذا الأمر جمع عبد المطَّلب أولاده، ودعاهم إلى طاعته في سبيل تنفيذ النذر الذي قطعه على نفسه في سبيل الله تعالى، وأما الأبناء فلم يعترض أحد من أبنائه، وإنما قالوا له: – أوف بنذرك، وافعل ما تشاء!

وبينما عبد المطَّلب يجري القرعة بينهم دعا ربه قائلاً:

اللهم إني كنت قد نذرت لك ذبح أحد أبنائي، وإني سأقرع بينهم، فأصب منهم من تريده!

فخرجت القرعة على ولده عبد الله والد النبيِّ ﷺ، ولما اصطحب عبد المطَّلب ابنه إلى الكعبة من أجل الوفاء بنذره منعه أهل مكَّة من ذلك خشية أن يتحول نذر ذبح الأبناء إلى عادة بين الناس، فأقنعوا عبد المطَّلب بالتوقُّف عن الوفاء بنذره، واصطحبوه إلى أحد الكهان، فسألهم الكاهن: – كم دية الرجل لديكم؟ فأجابه أهل مكَّة: – عشرة من الإبل، فأوصاهم الكاهن قائلاً:

– إن كان الأمر كذلك، فأجرَوا القرعة بين عبد الله وعشرة من الإبل، فإن وقعت القرعة على عبد الله، فزيدوا الإبل عشرة أخرى وأجروا القرعة مرة أخرى بين عبد الله والعشرين من الإبل، وزيدوا عدد الإبل عشرة أخرى في كل مرة تقع القرعة على عبد الله إلى أن تقع القرعة على الإبل!

فلما أجرَوا القرعة بين عبد الله والإبل العشرة وقعت القرعة على عبد الله، فأضافوا عشرة إبل أخرى وأعادوا القرعة مرة ثانية، فوقعت على عبد الله من جديد، فاستمرُّوا

على هذا المنوال في زيادة الإبل إلى أن وصل عدد الإبل المائة، ولما أجروا القرعة بين عبد الله ومائة من الإبل وقعت القرعة هذه المرة على الإبل، ولكي يستوثق عبد المطَّلب من الأمر ويطمئن قلبه أعاد القرعة ثلاث مرات، ولما رأى الحاضرون وقوع القرعة في كل مرة على الإبل كبّروا من شدة الفرح والسرور، فقام عبد المطَّلب بذبح الإبل والتصدق بلحومها. [٧٤]

وإن دية المقتول المقرَّرة في الشريعة الإسلامية اليوم بمقدار مائة من الإبل أو ما يعادل قيمتها تستند إلى ما تعارف عليه العرب في تلك المرحلة استناداً إلى هذه الحادثة التاريخية.

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى اختيار جدِّه إسماعيل عليه السلام، وأبيه عبد الله من أجل التضحية بهما في قوله:

«أنا ابنُ الذَّبيحَينِ» [٧٥]

ولهذا السبب فقد كان النبي عليه الصَّلاة والسَّلام يُلَقَّبُ:

«ابن الذبيحين» [٧٦]

إن والد النبيِّ ﷺ عبد الله كان من ناحية المظهر وكرم الأخلاق من أجمل وأحسن شباب قريش، وكان من أرجحهم عقلا وأطهرهم سيرة،[٧٧] ولهذا السبب فقد خطبَته كلُّ بنات قريش من أجل الزواج به، وحتى رقيةُ أختُ ورقةَ بنِ نوفل لما رأت النور الذي على جبين عبد الله أدركت أن هذا نورَ النُّبوَّة المنتظرة، فطلبت عبد الله للزواج مقابلَ مائة ناقة تدفعها له، وذلك لتنال شرف أمومة خاتم الأنبياء والرسل.[٧٨]

ولقد طلب عبد المطَّلب يدَ آمنةَ بنتِ كبير قبيلة زُهرة وهبِ بن عبد مناف للزواج من ابنه عبد الله، ولما وافقت آمنة – التي كانت من أشرف بنات قريش نسبا وخلقا – على طلب عبد المطَّلب أُجرِي عقد النكاح، وتمَّ الزواج.

٧٤ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ١٦٣– ١٦٨؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٨٣– ٨٥؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٠٤/ ٤٠٣٦.

٧٥ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٠٩/ ٤٠٤٨.

٧٦ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٠٤/ ٤٠٣٦.

٧٧ انظر الحلبي: ١، ٥١– ٦٢.

٧٨ انظر ابن هشام، السيرة، ١، ١٦٨– ١٦٩.

إن نسب أمِّ النبي ﷺ هو على النحو الآتي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، ولأن زهرة يكون أخو قصي بن كلاب جد أولاد هاشم فإن عبد الله يلتقي في نسبه مع آمنة عند كلاب.[٧٩] وعندما استقرَّ النبيُّ ﷺ في رحم آمنة سرى نور النُّبوَّة الذي كان يتلألأ على جبين عبد الله إلى آمنة أيضاً.[٨٠]

وفاة عبد الله والد النبي ﷺ

لقد خرج عبد الله والد النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بعد الزواج بمدة قصيرة إلى الشام مع قافلة تجارية لقريش، وعندما أنهى أعمال تجارته، وفي طريق العودة، أصابه المرض، ولما وصل إلى المدينة قال لأصحابه:

- سوف أنزل هنا وأبقى لبعض الوقت لدى أخوالي من بني النجار، وأقام هناك مدة شهر.

لم يتعافَ عبد الله من مرضه رغمَ كلِّ الجهود التي بُذلَت لمعالجته، ووافته المنية هناك، ودُفن في المدينة، ولما تُوفِّي عبد الله كان له من العمر خمس وعشرون سنة.[٨١]

ولما بلغ خبرُ وفاة عبد الله مسامعَ زوجته آمنة بنت وهب أصابها حزن شديد، ولم تجفَّ الدموع من عينيها لأيام طويلة، وقالت في مدحه مرثيات كثيرة تصف فيها تميّزه عن أقرانه، ومحبَّة الناس له، وشدة رحمته وكرمه وجوده.[٨٢]

الأخبارُ والحوادث المبشِّرة بظهور النبيِّ ﷺ

لقد ظهرت تجلِّيات إلهيَّة كثيرة قبل ولادة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وكأنَّ الكائناتِ كلَّها كانت في تحرُّقٍ شوقاً لرؤيته واللقاء به؛ لأنَّه كان السببَ في خلقها وإيجادها.

في البدء أخذ الله تعالى العهدَ والميثاقَ من الأنبياء السابقين بشأن الإيمان بالنبيِّ ﷺ وتقديم العون له، وهذه واحدة من أكبر البشارات بين يدي بعثة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، حيثُ يَقولُ الله ﷻ:

٧٩ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٥٩- ٦٠.

٨٠ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ١٧٠.

٨١ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٩٩.

٨٢ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ١٠٠.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٣]

وبعد انتهاء سيِّدنا إبراهيمَ وابنِه إسماعيلَ عليهما السلام من إتمام بناء الكعبة رفعا يديهما إلى السماء متَّجهينَ بالدعاء إلى الله تعالى من أجل نبيِّنا الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم، وقالا:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٨٤]

وعندما أعلم سيِّدنا عيسى عليه السلام بني إسرائيل بأنه رسول الله إليهم، بشَّرهم أيضاً بظهور نور الكون سيِّدنا محمَّد ﷺ، حيثُ يقولُ لهم كما ورد في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [٨٥]

رأت السيِّدة آمنةُ في الأيام الأولى من حملها بنور الأكوان رؤيا في منامها، وهذه الرؤيا كانت صوت نداء يصل إلى مسامعها، حيثُ يقولُ لها:

«يا آمنة! إنك حامل بسيِّد الأمة وقائدها! وعندما يشرِّفُ الدُّنيا بولادته ادعي بهذا الدعاء: أعوذ بالله من شرِّ كلِّ حاسد!. وسمّيه محمَّداً» [٨٦]

ولهذا السبب كان النبيُّ ﷺ يقول:

«... **أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت**» [٨٧]

---

٨٣ آل عمران: ٨١.

٨٤ البقرة: ١٢٩.

٨٥ الصف ٦.

٨٦ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ١٧٠.

٨٧ الحاكم: المستدرك، ٢، ٤٥٣/ ٣٥٦٦؛ أحمد: مسند، ٤، ١٢٦- ١٢٨.

وإلى جانب ما سبق فإن اسمَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وصفاتِه وخصائصَه كانت مدوَّنة في التوراة والإنجيل، وكان علماء اليهود والنصارى على علم تامٍّ بهذا الأمر، حيث ورد في القرآن الكريم ذكرُ أهل الإنصاف من هؤلاء، إذ يقولُ الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ [٨٨]

حتَّى إنَّ أهل الكتاب كانوا يعرفون النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام أكثر من معرفتهم أبناءَهم، حيث يقول الله:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩]

وفي ذلك قال الصحابي عبد الله بن سلام ﷺ الذي كانَ من كبار أحبار اليهود قبل أن يسلم:

«لأنا أشد معرفة برسول الله ﷺ مني بابني!. فقال له عمر بن الخطاب ﷺ: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقا يقينا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام» [٩٠]

وقد ذكر القرآن الكريم بأنه ورد في التوراة والإنجيل بيانُ وصفِ النبيِّ ﷺ وأصحابِه، وأحوالِهم وشؤونِهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿محمَّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٩١]

---

٨٨ الأعراف: ١٥٧.

٨٩ البقرة: ١٤٦.

٩٠ الواحدي: أسباب النزول، ١، ٤٧؛ الرازي: التفسير، ٤، ١١٦.

٩١ الفتح: ٢٩.

سأل عبد الله بن عباس رضي الله عنه كعبَ الأحبار: [٩٢]

«كيف تجد نعتَ رسول الله ﷺ في التوراة؟

فقال كعب الأحبار: إن نعت الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في التوراة هو:

«محمَّد رسول الله، لا فظٌّ ولا غليظٌ، ولا صخَّابٌ في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمادون يكبِّرون الله على كلِّ نجد، ويحمدونه في كلِّ منزلة، يأتزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جوِّ السماء، صفُّهم في القتال وصفُّهم في الصَّلاة سواء، لهم دويٌّ كدوي النحل، مولده بمكة، ومهاجره بطابة «المدينة»، وملكه بالشام» [٩٣]

وعن عطاء بن يسار قال:

«لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص [٩٤] رضي الله عنهما: قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [٩٥]

وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا» [٩٦]

٩٢ كعب الأحبار: هو من التابعين واشتهر بالروايات المتعلقة ببني إسرائيل، أسلم في عهد الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وتوفي سنة ٣٢ للهجرة.

٩٣ الدارمي: المقدمة، ١، ١٥٦/ ٥.

٩٤ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: هاجر مع أبيه عمرو إلى المدينة المنورة في السنة السابعة للهجرة، وقد كان مطلعاً على الثقافات القديمة، ومجيداً القراءة والكتابة، ولذلك فقد كان يكتب الأحاديث التي يسمعها عن النبي ﷺ، حيث حصل في هذا الشأن على إذن خاص من الرَّسول ﷺ، وبسبب اطلاعه وعلمه الواسع في الحديث والفقه فقد اشتهر بين الصحابة بأنه أحد «العبادلة» الأربعة المشهورين أي الأربعة الذين يحملون اسم عبد الله. لقد حضر مع أبيه عمرو فتح الشام ومعركة اليرموك وتولى في هذه المعركة مهمة أبيه بحمل الراية، وبعد فتح مصر انتقل مع أبيه إلى هناك واستقر في مصر. وتوفي عبد الله الذي أسلم قبل أبيه في مصر عن عمر يناهز الاثنتين والسبعين سنة، ويوجد قبره في جامع عمرو بن العاص في القاهرة.

٩٥ الأحزاب: ٤٥.

٩٦ البخاري: البيوع، ٥٠/ ٢١٢٥.

لقد كان اليهود الذين يعرفون كلَّ صفات الرَّسول الكريم ﷺ بانتظار بعثته، حيث إنَّ اليهود كلما وقعوا في خصومة مع قبيلتي الأوس والخزرج الوثنيتين في المدينة، يتوعَّدونهم بقولهم:

«لقد تقارب زمان نبيٍّ يُبعَث الآن فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرم» [٩٧]

وتروي أم المؤمنين صفية بنت حُيي رضي الله عنها:

«لما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ، ونزل قباءَ في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيي بن الأخطب وعمي أبو ياسر بن الأخطب مُغلِسين «في ظلام الليل»، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالَين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغمّ، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن الأخطب:

« أهو هو؟» يقصد الرَّسول ﷺ هل ذلك الشخص هو النبي المنتظر؟

فقال أبي حيي: أي والله نعم!

فقال أبو ياسر: أتعرفه وتُثْبِتُه؟

قال حيي: نعم!

فقال له أبو ياسر: فما في نفسك منه؟

قال أبي حيي: عداوتُه والله ما بقيتُ» [٩٨]

لقد كان اليهود يتوقَّعون ويتمنَّون أن يكون النبيُّ الذي ينتظرونه من عرقهم؛ أي: من بني إسرائيل، ولأنَّ الرَّسول ﷺ بُعثَ من العرب من نسل سيِّدنا إسماعيلَ عليه السلام، أصابهم الحسدُ، ولم يؤمنوا به. [٩٩]

وقد بيَّن ابنُ عباس رضي الله عنهما هذه الحقيقةَ في الرواية الآتية، حيث يقول:

«كانت يهود خيبرَ تقاتل غطفانَ، فلما التقوا هُزِمَت يهودُ خيبر، فدعت اليهودُ بهذا الدعاء، وقالوا:

---

٩٧ ابن الأثير: الكامل، ٢، ٩٥- ٩٦.

٩٨ أبو نعيم: دلائل النبوة، ١، ٧٧- ٧٨.

٩٩ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ١٥٥.

اللهم! إنا نسألك بحقِّ النبيِّ الأميِّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا غطفان دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بُعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿... وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ - يسألون باسمك يا محمَّد - **عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا** - أي النبي - **كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ** [١٠٠] **اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [١٠١]

وإن الحادثة الآتية تشكِّل علامة ملفتة للانتباه في تبشيرها بظهور فخر الكائنات سيِّدنا محمد ﷺ:

قال: لما تمَّ تنصيبُ سيفِ بن ذي يزن ملكاً على اليمن أتته وفود العرب وشعراؤها تهنِّئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه، وأتاه فيمن أتاه وفدٌ من قريش متكوِّن من عشرة رجال، وعلى رأسهم عبد المطَّلب بن هاشم جدُّ النبي ﷺ، فدنا عبد المطَّلب فاستأذنه في الكلام، فقال له الملك:

إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنّا لك.

فقام عبد المطلب، فأثنى على الملك بكلام طيب جميل، وقال له:

نحن أيها الملك أهلُ حرم الله وسدنةُ بيته الحرام الذي حماه من كل سوء، أشخصَنا إليك الذي أبهجنا، لكشفك الكربَ الذي قد فدحنا، وفدُ التَّهنئةِ لا وفدُ الـمُـرزِئةِ.

وبعد أن قدَّموا التهنئة للملك استضافهم الملك عنده، حيث نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه الملك لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطَّلب فأدنى مجلسه وأخلاه، ثم قال:

يا عبد المطلب! إني مفضٍ إليك من سرّ علمي ما لو يكون غيرك لم أبحْ به.

١٠٠ إن اللعن الذي نراه في القرآن الكريم والذي سوف نجده لاحقاً في الأحاديث الشريفة موجَّه على وجه العموم لا التحديد إلى بعض العصاة بشكل جماعي، وقد لُعنت هنا المفاهيم والتصرفات، والممارسات المنحرفة والفاسدة كثيراً من ناحية الأخلاق، والاعتقاد، والاقتصاد. وإن لعن الرَّسول ﷺ لبعض الناس الذين يقومون بأعمال معينة على الرغم من قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف: «**إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة**» (مسلم: البر، ٧٨). يظهر مدى التأثير التدميري والسلبي لهذه الأعمال المنحرفة على المجتمع والحياة الإسلامية.

١٠١ البقرة: ٨٩؛ القرطبي: التفسير، ٢، ٢٧؛ الواحدي: أسباب النزول، ١، ٢٨.

ولكني رأيتك مَعْدِنَه فأطلعتُك طلعَه، فليكن عندك مطويّاً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال عبد المطلب:

أيها الملك مثلُك سرَّ وبرَّ، فما هو؟ فداؤك أهل الوبر، زمراً بعد زمر؟ قال:

إذا ولد بتهامة، غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة.

وتابع سيف بن ذي يزن كلامه:

هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد وُلد، واسمه محمَّد، يموت أبوه وأمُّه، ويكفلُه جدُّه وعمُّه.

ولدناه مراراً، واللهُ باعثه جهاراً، وجاعلٌ له منا أنصاراً، يعزُّ بهم أولياءه، ويذلُّ بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم أهل الأرض، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبطله.

فقال عبد المطلب:

أيها الملك، عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك.

فهذا نجارى، فهل الملك سار لي بإفصاح؛ فقد أوضح لي بعض الإيضاح، وهل هو من نسلي؟

فقال ابن ذي يزن: والبيتِ ذي الحجب، والعلامات على النقب، إنك يا عبد المطلب، لجدُّه غيرَ كذب، فخرَّ عبد المطَّلب ساجداً، فقال ابن ذي يزن:

ارفع رأسك، ثَلَجَ صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسستَ شيئاً مما ذكرت لك.

فقال عبد المطلب:

أيها الملك! كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوَّجته كريمةً من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمَّيته محمَّداً، فمات أبوه وأمُّه، وكفلته أنا وعمُّه.

قال ابن ذي يزن:

إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود؛ فإنَّهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإني لست آمنُ أن تدخل لهم النفاسة من أَن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أنَّ بيثربَ استحكامَ أمره، وأهلَ نُصرته، وموضعَ قبره، ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره، ولوطَّأت أسنانَ العرب عقبَه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

ولكن من المؤسف أن ابن ذي يزن مات قبل أن يحول الحول. [١٠٢]

ومن البشارات الأخرى لعبد المطَّلب عن مستقبل حفيدِه محمَّدٍ ﷺ هذه البشارةُ:

«ذات يوم خرج الرَّسول ﷺ للعب مع الأطفال، فذهبوا حتى وصلوا إلى حي «ردم»، وهناك ناداه جماعة من بني مُدلِج، ولدى اقترابه منهم نظروا إلى قدميه الشَّريفتين، وأخدوا

١٠٢ ابن كثير: البداية والنهاية، ٣، ٢٦- ٢٨؛ دياربكري:١، ٢٣٩- ٢٤١.

إن البشارة بظهور النبي عليه الصلاة والسلام وبيان صفاته ثابتة في التوراة والإنجيل اللذين يُعتبران في الأصل من الكتب السماوية، وعلى الرغم من تعرضهما للتحريف فإن محتوياتهما في النسخ المعاصرة دليل على وجود بعض نصوص البشارة في أصلهما، ولهذا السبب فإن المسلمين لا يمكن أن يستهزؤوا بالتوراة والإنجيل مع أنهم متفقون على أنهما قد نُسخا كقانون.

وكما في التوراة والإنجيل فإن البشارة بظهور النبي ﷺ وردت في الكتب المقدسة للأديان التي تعتنقها شعوب الشرق مثل الديانة الزردشتية، والهندوسية، والبوذية، ففي الكتاب المقدس للزردشتية المعروف باسم «زند أفستا» ورد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام باسم «سوسهيانت» والذي يأتي بمعنى «رحمة للعالمين»، وإلى جانب الإعلام بأنه سوف يكون رسولاً للناس كافة فقد ورد ذكر كثير من صفاته، ويرد في الكتب المقدسة للهندوسية كـ «فيدا»، و «بانيشلد»، و«بورانا» الكثير من صفات خاتم الأنبياء مثل تشريعه لإعفاء اللحى، وتحريم أكل لحم الخنزير، وأيضاً توجد أقسام كثيرة في الكتب المقدسة للبوذية المبشرة بظهور الرَّسول صلى الله عليه وسلم، والتي تذكر الكثير من خصاله وصفاته.

ينبغي أن لا نستغرب من وجود بعض الحقائق مثل التبشير ببعثة خاتم الأنبياء في الأديان الباطلة كالديانة الزردشتية، والهندوسية، والبوذية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بأن الدين الأول على وجه الأرض هو الدين الحق، وإرسال آلاف الأنبياء والرسل إلى الناس، وانحراف الناس مع مرور الزمن عن الطريق المستقيم.

بالتدقيق في آثارهما، وخلال ذلك جاء جدُّه عبد المطلب، فأخذه في حِضنِه، وسأله الجمعُ: هل الولد من نسلك؟ فقال عبد المطلب: إنه ابني. فقال بنو مدلج: خذه في رعايتك وحفظك جيداً! لأننا لم نر قطُّ أثراً يشبه أثر القدم الموجود في مقام إبراهيم أكثر من أثر قدم هذا الطفل. فقال عبد المطَّلب لابنه أبي طالب: انظر! واسمع ما يقوله هؤلاء القوم! ولذلك كان عم النبي ﷺ أبو طالب يحمي ابن أخيه بعناية فائقة» [١٠٣]

لقد كان يعيش العالم – قبل تشريف نبيِّنا ﷺ للدنيا – في ظلماتٍ مطبقة من الناحية المعنوية والروحية، وقد كان الناس غارقين في عوالم من الجهالة البائسة الكئيبة، وكانت الإنسانية قد فقدت شرفَها وكرامتَها، وحتى الحيواناتُ قد ضاقت ذرعاً من وحشية الإنسان وظُلمه، فقد أصاب الحزن العالم، ودخلت الكائنات في دائرة مغلقة من الهموم، وعمَّت الاضطراباتُ القلوب، ونسي الضِّعافُ والعاجزون حتى الابتسامة على شفاههم، إذ أصبحت الحياة من حقّ أصحاب القوة والسُّلطة فقط، وبعبارة موجزة يصف محمَّد عاكف هذه الحالة، فيقول:

لقد تجاوز البشر الضِّباعَ في وحشيتهم وافتراسهم؛ والإنسانُ الضعيفُ يأكله أخوه القوي.

ويبيِّن القرآن الكريم هذه الحقيقة بصورة بيانية رائعة، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...﴾ [١٠٤]

وعندما اقترب التشريفُ العُلويُّ أخذ كلُّ إنسان بل كلُّ شيء ينتظر – ببالغ الشوق والتوق – وصول ذلك النور السامي لنجدته، وتخليص نفسه من الظلمات، وتمنَّوا أن تكون حياة ذلك النُّور تكريماً وإحساناً لهم، فكلُّ الإنسانية كانت في انتظاره، فقد تلقَّوا البشارات والعلامات على قدومه، ومع الزمن ازداد بروز تلك البشارات.

وذكر سليمان شلبي في المولد النبوي بأنه حتى الشمس أصبحت عاشقة للنبيِّ ﷺ، وأخذت تطوف حوله مثل الفراشات التي تحوم حول السِّراج، ويصبُّ بشارة التشريفِ العلويِّ في الأبيات الآتية بلسان قلبِ آمنةَ أم النبي ﷺ، حيث تقول:

---

١٠٣ انظر: أبو نعيم، دلائل النبوة، ١، ١٦٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٨.

١٠٤ الروم: ٤١.

قالت: أنا أمُّ الحبيـــبْ وجاءني نور عجيـــبْ
فالشمسُ طافت حولَـه كفراشة الغصن الرطيبْ
وإذا الملائكُ قد غدت صفّاً ببابي لا تغيـــب
ورأيتُ بعدُ طوافَهـــم بالبيت كالحجِّ المهيـب
قالوا: لَطفلُكِ ما أتـى من قبلِه طفلٌ أريـــب
توحيدُه شمـــس الدُّنا وبهديه تحيا القلـــوب
هو عارفٌ هــــو سيِّدٌ وللقلوبِ هو الطبيـــب
فإذا وضعتِ محمَّـــداً فقدِ انتهى زمنُ النحيـب
فعوِّذيه بربِّـــــــــه من كلِّ ذي شرٍّ رهيـب

التشريفُ العلويُّ والأحوالُ الخارقةُ التي وقعَت خلالَهُ

وفي نهاية الأمر شرَّف النور المنتظر الذي كان في حِضنِ زواج عبد الله وآمنة، شرَّف الدُّنيا بقدومه، ونزل إلى العالم المشاهد وقت ابيضاض الشفق من الفجر، صبيحة يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والمصادف للعشرين من نيسان سنة ٥٧١م .

وبهذا التشريف كأنَّ لسان حال كلِّ الكائنات يقول وقد لفَّهم السرور والابتهاج: «جئت بالخير يا رسول الله».

ويصف سليمان جلبي هذه الفرحة التي انتشرت في كلِّ ذرة من هذا العالم تجاه هذا التشريف العلوي في أبيات من الشعر:

مرحباً يا أيها السلطان العالي مرحباً!
مرحباً يا دم العرفان مرحباً!
مرحباً يا سر الفرقان مرحباً!
مرحباً أيها العلاج للداء مرحباً!
مرحباً يا رحمة للعالمين!
مرحباً فأنت شفيع المذنبين!

وبظهوره تدفَّقت رحمة الله تعالى إلى هذا العالم وانتشرت فيه، وكأن الليالي والأيام قد تزيَّنت وغيَّرت ألوانها، وتعمَّقت المشاعر والأحاسيس. وتسامت الكلمات والجلسات والأذواق؛ فكلُّ شيء قد اكتسب معنى مختلفاً، ولطافة مختلفة، ارتجفت الأصنام وهوت إلى الأرض، وانهارت أعمدةُ وأبراجُ قصر كسرى في مدينة المدائن، وجفَّت بحيرة ساوه،[١٠٥] التي كانت مقدَّسة لدى الناس خلال تلك الفترة وغدت في حالة من الطين القاسي.[١٠٦]

إن هذا التجلي الذي تحقَّقَ في الدُّنيا في الزمان والمكان كان بمثابة البركة الأولى لظهور ذلك الكائن الأصيل، وأحاطت هذه البركة بكلِّ الكائنات، وأُطلِقَ على تلك السنة اسم «سنة الازدهار والسعة»، وهكذا فإن الليلة الأفضل والأكثر قيمة في نظر أرباب القلوب بعد ليلة القدر هي الليلةُ التي وُلِدَ فيها رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام.

إن العبارات المتدفِّقة من القلوب الـمَلأى بفيض وبركة سيِّد العالم الذي تتفتَّح مثل وردة تلك الليلة أكسبت قصائد الشعراء رقَّة وشاعرية مختلفة ومتميِّزة:

لا يرهقَنَّ البستانيُّ نفسَه بسقاية حديقة الزهور! لأنه حتى وإن سقى ألف بستان من الزهور فلن تتفتَّحَ يا رسول الله زهرةٌ مثلُ وجهك!

فتلك الزهور غيّرت بالتشريف العلوي للزهرة مجرى كلِّ شيء، وغطَّت تجلِّياتُ الرحمة الكائناتِ مثلَ حبَّاتِ اللؤلؤ وامتلأت القلوبُ المتحرِّقة شوقاً إلى النور بالسرور والبهجة.

وقد نُقلت عن ابن عباس رضي الله عنهما الروايةُ الآتية:

«ولد النبي عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين، واستنبئ يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكَّة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين، وتوفي عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين، وفتح بدراً يوم الإثنين، ونزلت آية: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[١٠٧] يوم الإثنين»[١٠٨]

---

١٠٥ ساوة: بحيرة تقع بين همدان وقم، على بعد ٥٢١ من طهران في الجهة الجنوبية الغربية منها. وعندما انحسرت مياهها أُسِّست مكانها مدينة ساوه.

١٠٦ انظر: ابن كثير، البداية، ٢، ٢٧٣.

١٠٧ المائدة: ٣.

١٠٨ أحمد: مسند، ١، ٢٧٧؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١، ١٩٦.

إن موافقةَ كلٍّ من ولادته ﷺ، ونبوته، وهجرته، وارتحاله عن الدُّنيا كتجلٍّ إلهيٍّ ليوم الإثنين، علامةٌ على أهمِّية هذا اليوم، وإن من تجلِّي الجمال والجلال التقاءَ دفء المحبَّة مع قسوة الحزن، وامتزاجَ نشوة العيد بآلام الفراق والارتحال.

لقد وقعت بعض الحوادث الخارقة للطبيعة في الليلة التي شرَّف النبيُّ ﷺ الكائناتِ بولادته، ونورد فيما يلي بعضاً منها:

– فوفقاً لما أخبرت به السيِّدة آمنةُ أنها لم تشعر بالألم والإجهاد قط، سواء خلال فترة الحمل بالنبيِّ ﷺ، أو عند مخاض الولادة، وقالت بأنه عندما جاء الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام إلى الدُّنيا رأت نوراً خرج منها، وأنار ما بين المشرق والمغرب. وأن النبيَّ ﷺ نزل من بطنها نظيفاً مسنداً يديه على الأرض ورافعاً رأسه إلى السماء.[١٠٩]

– وفي لحظة ولادته خرجت من الشيطان صرخة مدوِّية لم تقع منه مثلها في حياته كلِّها.[١١٠]

– رأى موبزان قاضي قضاة إيران ورجل الدين فيها، رأى في حلمه مجموعةً من الإبل المنفلتة من عقالها تتقدَّم قطيعاً من الخيل الماشية، وتقطع نهر دجلة، وتنتشر في أرض إيران.

– انهارت أربعة عشر عموداً من أعمدة قصر كسرى.

– انطفأت في أرض إيران النار التي كانت متَّقدةً منذ ألف سنة خلت ولم تخمد قط.

– تروي أم المؤمنين السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها:

«سكن يهودي بمكة وكان يبيع بها تجارات، فلما كان ليلةَ وُلِدَ رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مولود هذه الليلة؟ قالوا: لا نعلمه. قال اليهودي: أخطأت والله حيث كنت أكره، انظروا يا معشر قريش، واحصوا ما أقول لكم: وُلد الليلة نبيُّ هذه الأمة أحمد الآخر، فإن أخطأكم فبفلسطين، به شامة بين كتفيه سوداء صفراء، فيها شعرات متواترات. فتصدَّع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه، فلما صاروا في منازلهم ذكروا لأهاليهم، فقيل لبعضهم: وُلد لعبد

١٠٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٠٢، ١٥٠.

١١٠ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٧١.

الله بن عبد المطَّلب الليلة غلامٌ فسماه محمَّداً، فالتقوا بعدُ من يومهم فأتوا اليهوديَّ في منزله، فقالوا: أعلمت أنه وُلد فينا مولود؟ فقال اليهودي: أبعد خبري، أم قبله؟ قالوا: قبله، واسمه أحمد، قال اليهودي: فاذهبوا بنا إليه. فخرجوا معه حتى دخلوا على أمِّه، فأخرجته إليهم، فرأى الشامة في ظهره، فغُشي على اليهودي ثم أفاق. فقالوا له: ويلك ما لك؟ قال: ذهبت النُّبوَّة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوبٌ يقتلهم ويبزُّ أخبارهم، فازت العرب بالنُّبوَّة، أفرحتم يا معشر قريش؟ أما والله ليسطوَنَّ بكم سطوةً يخرج نبؤُها من المشرق إلى المغرب» ١١١

فرح أهل مكَّة كلُّهم بولادة النبي ﷺ، حتَّى إنَّ أبا لهب كافأ جاريته ثُويبةَ والتي نقلت إليه بشارةَ ولادة ابن أخيه المبارك بأن أعتقها من رقِّها. ١١٢

– وقد وردت راوية فيما بعدُ عن العباس ﵁ متعلقة بحادثة إعتاق الجارية، حيث يقول:

«لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شرِّ حال، فسألته: ماذا لقيت، أي: كيف المعاملة؟ فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلا أن العذاب يُخفَّف عني كلَّ يوم إثنين، وأني سقيت في هذه، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وذلك أني فرحت عندما ولد النبي ﷺ يوم الإثنين، وأعتقت ثويبة التي بشَّرت بولادته» ١١٣

أسماء النبيِّ ﷺ

للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام الكثير من الأسماء المباركة، ويأتي على رأس هذه الأسماء «**محمَّد**» و «**أحمد**» اللذين ذُكرا في القرآن الكريم، ومحمَّد يعني أنه يُحمد كثيراً؛ وأما أحمد فيعني بأنه أكثر الخلق حمداً.

لقد ذُكر اسم محمَّد في القرآن الكريم أربع مرات، وأما اسم أحمد فقد ذُكر في القرآن الكريم مرة واحدة، وقد استُخدِم في الإنجيل اسم «فراكليط» والذي يأتي بنفس معنى هذين الاسمين.

---

١١١ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٦٢ – ١٦٣؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٥٧/ ٤١٧٧.

١١٢ الحلبي: ١، ٣١٨.

١١٣ انظر: البخاري: النكاح، ٢٠/ ٥١٠١؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٧٧؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٠٨، ١٢٥.

وقد قال النبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف:

«**إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**» [١١٤] «العاقب» الذي ليس بعده أحدٌ من الأنبياء.

ولقد ورد ذكر أسماء النبي ﷺ وصفاته المباركة في كثير من الآثار؛ فمثلاً ذكر في كتاب «دلائل الخيرات» ما يقارب مئتي صفة واسم، ونورد فيما يأتي بعضاً من هذه الأسماء والصفات المباركة المنقوشة بخطٍّ بالغ الروعة والجمال على لوحة تزين الجدار القبلي للروضة النبوية الشَّريفة:

أحمد، محمود، محمَّد، حامد، حميد، بشير، نذير، برهان، أمين، ضحى، حبيب الله، هادي، خاتم، مختار، مصطفى، مطهَّر، مجتبى، نبي، نور، رؤوف، رحيم، رسول الله، رسول الثقلين، رحمةً للعالمين، سيِّد المرسلين، سيِّد الكونين، إمام الحرمين، إمام المتقين، شفيع المذنبين، شمس، طه، أمِّي، ياسين...

تسليمُه ﷺ إلى المرضعة

لقد فتح نورُ الكون عينيه على الدُّنيا يتيماً، ويبيِّنُ الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [١١٥]

رضع فخرُ الكائنات سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ في الأيام الأولى التي تلت ولادته من أمِّه آمنة، وبعدها أرضعته ثويبةُ مع ابنها مسروحٍ وبذلك أصبحت أمَّ سيِّد العالمين بالرضاعة. [١١٦]

وبقي النبيُّ ﷺ - الذي كان مثال الوفاء - على صلة مستمرة بمرضعته ثويبةَ في كل مراحل حياته المباركة اللاحقة، وقد لقيت ثويبةُ عندما كانت في مكَّة تكريماً وحفاوة منقطعة النظير، سواءٌ من النبي ﷺ أو من أمِّ المؤمنين السيِّدة خديجة رضي الله عنها، ولما هاجر الرَّسول

---

١١٤ البخاري: المناقب، ١٧/ ٤٨٩٦؛ مسلم: الفضائل، ١٢٥/ ٢٣٥٤.

١١٥ الضحى: ٦.

١١٦ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٠٨. وقد أرضعت ثويبة سيدنا حمزة، وأبو سلمة رضي الله عنه أيضاً، ولذلك فإن هؤلاء الصحابة كانوا إخوة الرَّسول عليه الصلاة والسلام من الرضاعة.

عليه الصَّلاة والسَّلام إلى المدينة المنورة بقي محافظاً على صلتها، إذ كان يرسل لها الطعام واللباس، ويلبِّي كلَّ احتياجاتِها المعيشية، وفي السنة السابعة للهجرة وبينما كان النبيُّ ﷺ عائداً من غزوة خيبر تلقى خبر وفاة ثويبة، فسأل أصحابه:

«ما فعل ابنها مسروح؟»

فقالوا: توفي قبل أمه!

فسأل النبي ﷺ عما بقي من أقربائها، وعلم أنه لم يبقَ منهم أحد.[117]

إن محافظةَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام على صلة ثويبة والحرصَ على احترامها والإحسانَ إليها يشكِّلُ نموذجاً منقطع النظير في الوفاء، وصلة القربى، وحفظ الإحسان.

وبعد ثويبةَ التي حظيت بشرف إرضاع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وأصبحت أمَّه من الرضاعة، نالت شرفَ إرضاع النبي ﷺ حليمةُ السَّعدية.

لقد كانت للعرب عادةٌ في تلك الفترة، وهي أنَّهم كانوا يسلِّمون حديثي الولادة من أبنائهم إلى القبائل التي تعيش في الصحراء من أجل الرضاعة، فإلى جانب أنَّ مناخ الصحراء يُكسب الناس مزيداً من الصِّحة والشجاعة، فقد كانت لغة سكان الصحراء أيضاً الأقوم والأفصح، وبذلك فإن الأطفال في الصحراء كانوا يكتسبون صحة في الجسد وفصاحة في اللسان.

ولذلك فقد سُلِّمَ هذا المولود الجديدُ «النبيُّ ﷺ» وفقاً للعادة السائدة لدى العرب إلى المرضعة حليمة السعدية تلك المرأة المحظوظة؛ لأنَّ قبيلة بني سعد كانت من أفصح قبائل العرب لساناً، وبهذه الوسيلة جرى تحضيرُ النبيِّ ﷺ الذي كان أبلغ وأفصح الناس لساناً منذ صغره للقيام بمهمة تبليغ وبيان كلام الله تعالى الذي يُعدّ قمة البلاغة.

ولما قال الصحابةرضي الله عنهم:

يا نبي الله مارأينا الذي هو أفصح منك، فقال النبيُّ ﷺ:

«وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وإني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر» [118]

---

١١٧ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٠٨، ١٠٩.

١١٨ علي المتقي: كنز العمال، ٦، ١٧٤/ ١٥٢٤٧.

ولنستمع إلى حليمةُ بنت حارث ﵂ وهي تروي لنا كيف نالت شرف رضاعتها لسلطان العالم سيِّدنا محمَّد ﷺ:

«قدمتُ مكَّة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمسُ بها الرُّضعاء في سنة شهباءَ، فقدمت على أتانٍ لي قمراءَ، كانت أذمَّت بالرَّكب - تأخَّرت - ومعي صبيٌّ لنا، وشارفٌ لنا والله ما تبضُّ بقطرة. وما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي ما يُغنيه، ولا في شارفنا ما يُغذِّيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً.فقدمنا مكَّةَ، فوالله ما علمتُ منا امرأةً إلا وقد عُرض عليها رسولُ الله ﷺ فتأباه إذا قيل: إنه يتيم، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمُّه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأةٌ إلا أخذت رضيعاً غيري.

فلمّا لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاقَ قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

فقال: لا عليكِ أن تفعلي؛ فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة.

فذهبت فأخذته، فواللهِ ما أخذته إلا أنَّي لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن.

فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافلٌ، فحلب ما شرب وشربتُ حتى روينا، فبتنا بخير ليلة.

فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليمةُ! والله إني لأراكِ قد أخذت نسمةً مباركةً.

ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟

فلم يزل الله ﷻ يزيدنا خيراً.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني بالرَّكب حتى ما يتعلَّقُ بها حمار، حتى إنَّ صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذُؤيبٍ! هذه أتانُك التي خرجتِ عليها معنا؟ فأقول:

نعم والله، إنها لهي، فقلن: والله إنَّ لها لشأناً.

حتى قدمنا أرض بني سعد. وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لُبَناً فتحلب ما شئنا، وما حوالينا - أو حولنا - أحدٌ تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإنَّ أغنامَهم لتروح جياعاً حتى إنَّهم ليقولون لرعائهم - أو لرعيانهم -: ويحكم انظروا حيث تسرحُ غنم بنت أبي ذُؤيبٍ فاسرحوا معهم.

فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لُبَناً نحلب ما شئنا.

فلم يزل الله يُرينا البركة نتعرَّفُها حتى بلغ سنتين، فكان يشبُّ شباباً لا تشبُّهُ الغلمان.

فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً، فقدمنا به على أمه ونحن أضنُّ شيء به مما رأينا فيه من البركة.

فلما رأته أمه قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى؛ فإنا نخشى عليه وباء مكَّة.

فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم» [١١٩]

قد كان نورُ الكون النبيُّ ﷺ خارجاً ذات يوم إلى الغنم مع أخته من الرضاعة شيماءَ، وذلك في حرِّ الظهيرة، فخرجت حليمةُ تطلب النبيَّ ﷺ وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته، فقالت:

في هذا الحرِّ؟

فقالت أخته واصفةً اللطفَ الإلهي:

يا أمَّه! ما وجد أخي حرّاً، رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.[١٢٠]

وتتابع السيِّدة حليمةُ الحديثَ عن أحوال النبيِّ ﷺ خلال إقامته لديهم، حيث تقول:

«فمكث النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لدينا مدة، وبسبب ما رأينا من الأحوال الغريبة والخوارق التي تحدث له خشينا أن يصيبَه مكروه، فأخذناه وانطلقنا به نحو مكَّة، ففقدناه لدى وصولنا إلى أعلى مكَّة»[١٢١]

---

١١٩ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٢٢٠-٢٢١؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٧٨- ٢٧٩.

١٢٠ ابن كثير: البداية والنهاية، ٢، ٢٧٩؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٢.

١٢١ ابن هشام: السيرة، ١، ١٧٩؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٢.

فأصاب أهلَ مكَّة هلعٌ شديد، وخرجوا في إثر ذلك الطفل البريء يبحثون عنه في كل مكان، ولكن لم يعثروا عليه، فقام عبد المطَّلب عند الكعبة يدعو الله أن يردَّه، وفي تلك الأثناء سُمع صوت من السماء يقول:

– يا معشر قريش، لا تقلقوا! إن لمحمَّد ربٌّ ولا شك. وهو لا يدعه من غير عون ولا يضيِّعُه!

فقال عبد المطلب:

– يا أيها المنادي! هل لك أن تخبرنا على مكانه!

فقال المنادي:

– إنه بجانب الشجرة التي على يمين وادي تهامة.

فهرع عبد المطَّلب مسرعاً إلى ذلك المكان، ووجد حفيده هناك.[١٢٢]

فاحتضنه عبد المطَّلب بعطف وحنان، وقال له: فداك روحي، إني جدك عبد المطلب!.[١٢٣]

ويُرى أن الآية الآتية من سورة الضحى تشير إلى هذه الحادثة:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [١٢٤]

وتتابع السيِّدة حليمةُ السعديةُ حديثها عن هذه الحادثة:

«فقدمنا به على أمه، ولما وصلنا إليها قالت: ما ردَّكما به يا ظئرُ؟ فقد كنتما عليه حريصين؟ فقلت: لا والله إلا أن الله قد أدَّى عنا، وقضينا الذي علينا، وقلنا: نخشى الإتلاف والأحداث، نردُّه إلى أهله؛ فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شأنكما؟.فلم تدعنا حتى أخبرناها خبرَه، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائنٌ لابني هذا شأنٌ! ألا أخبركما خبرَه؟ قلنا: بلى! قالت: حملت به، فما حملت حملاً قط أخفَّ علي منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصورُ الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما، وانصرفا إلى بلدكما مطمئنين»[١٢٥]

١٢٢ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٢٨.

١٢٣ الحلبي: ١، ١٥٤.

١٢٤ الضحى: ٧.

١٢٥ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٢٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٢، ٢٧٨– ٢٧٩.

وتقول السيِّدة حليمة:

«...جهزني عبد المطلب بأحسن الجهاز وصرفني، فانصرفت إلى منزلي وأنا بكل خير دنيا، لا أحسن وصف كنه خيري. وصار محمد عند جده. قالت حليمة: وحدثت عبد المطلب بحديثه كله، فضمه إلى صدره وبكى، وقال: يا حليمة، إن لابني شأنا، وددت أني أدرك ذلك الزمان»[١٢٦]

لقد كان النبيُّ ﷺ في غاية الوفاء مع أقربائه من الرضاعة طيلة فترة حياته، وكلما التقى بالسيِّدة حليمة كان يقول لها: «يا أمي! يا أمي!»، ويظهر لها محبَّة واحتراماً صادقين من صميم قلبه، وكان إذا ما زارته السيِّدة حليمة يفرش لها رداءه على الأرض ويُجلِسها عليه، ويقضي لها كلَّ حاجاتها.[١٢٧]

ذهبت السيِّدة حليمة ذات يوم إلى مكَّة تريد رؤية النبيِّ ﷺ، وكان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام متزوجاً في ذلك الوقت من السيِّدة خديجة ﵂، فاستضافا السيِّدة حليمة لديهما وأكرما ضيافتها، وكانت السيِّدة حليمة تتخطفها الهموم والأوجاع على هلاك ماشيتها بسبب القحط والجفاف الذي أصاب بلدها، فشكت ذلك لفخر الكائنات سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ولأمِّ المؤمنين خديجةَ ﵂، فأهدتها أمُّ المؤمنين خديجةُ أربعين رأساً من الغنم، وجملاً من أجل حمل أمتعتها.[١٢٨]

وخلال فتح مكَّة جاءت إلى زيارته أخت السيِّدة حليمة بينما كان قائماً في الأبطح، وجلبت معها بعض الأشياء مثل الجبن والزيت هدية للنبيِّ ﷺ، فسألها الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن أخبار أمه بالرضاعة، وعندما قيل له بأنها تُوفِّيت امتلأت عينا النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بالدموع، وسأل عما بقي من أهلها، وبعد ذلك أمر لتلك المرأة بثياب وناقة، ومائتي درهم من الفضة، ولما همَّت المرأةُ بالعودة فرحةً إلى بلدها قالت له:

- نِعمَ المكفُولُ كُنت صَغِيراً، وَنِعمَ الكفِيلُ كُنْت كَبِيرا.!

١٢٦ البيهقي: دلائل النبوة، ١، ١٤٥.

١٢٧ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٣- ١١٤.

١٢٨ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٤.

حادثةُ شقِّ الصدر الأولى

لقد شقَّ الله تعالى صدرَ النبيِّ ﷺ عدة مرات من أجل إيصاله إلى حالة تمكنه من تلقي الأسرار الإلهيَّة، حيث طهَّر قلبه وملأه بالخصال العلويِّة السامية مثل: السكينة، والطمأنينة، والرحمة، والشفقة، والإيمان، والحكمة. ووقعت حادثةُ شقِّ الصدر الأولى والنبيُّ ﷺ ما يزال صغيراً عند أمِّه بالرضاعة، ويروي لنا النبيُّ ﷺ بنفسه هذه الحادثة. حيث إنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: كيف كان أوَّلُ شأنِك يا رسول الله؟ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام:

«كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زادا، فقلت: يا أخي، اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني إلى القفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه، فحاصه، وختم عليه بخاتم النبوة ... ثم انطلقا وتركاني، وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيتُه...» [١٢٩]

وتذكر بعض المصادر أنَّ هذه الحادثة وقعت عندما كان نورُ الأكوان في السنة الرابعة من عمره.[١٣٠]

يقول أنس رضي الله عنه: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيطِ في صدره» [١٣١]

من الحِكَم التي تظهر لشقِّ صدر الرَّسول الأكرم ﷺ:

أن يبيِّن الله عز وجل للناس بهذه الطريقة حالَ الرَّسول ﷺ وشأنَه العظيم، ويحضِّره لتلقي الوحي اعتباراً من طفولته، فوقوع حادثة شق الصدر - التي هي عبارة عن عملية تطهير معنويٍّ بشكل يمكن مشاهدته من قبل الناس - يهدف إلى تأمين تصديق الناس وإيمانهم برسالة النبي ﷺ، إذ إنَّ مثل هذه الحالات الخارقة للعادة أو المعجزات تسهِّلُ إيمان الناس به.

١٢٩ أحمد: مسند، ٢٩، ١٩٤/ ١٧٦٤٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٢٢٢/ ١٣٨٤١؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٨٠.

١٣٠ انظر: ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٢.

١٣١ مسلم: الإيمان، ٢٦١/ ١٦٢.

رحلته إلى المدينة ووفاة أمِّه

اصطحبت السيِّدة آمنةُ ابنَها الذي كان في العام السادس من عمره، وجاريةَ أبيه أمَّ أيمن، وأخذتهما إلى المدينة من أجل زيارة قبر عبد الله والد النبي ﷺ، وأقاموا في المدينة في دار أخواله مدة شهر.

فكان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يلعب ويلهو في المدينة مع أولاد أخواله، وحتَّى إنَّه تعلم السباحة في هذه الزيارة.[١٣٢]

ويتحدث فخر الكائنات النبيُّ ﷺ عن ذكرياته في تلك الأيام ، فيقول:

«نظرت إلى رجل من اليهود يختلف إلي ينظر إلي ثم ينصرف عني فلقيني يوما خاليا فقال: يا غلام ما اسمك؟ قلت: أحمد ونظر إلى ظهري فأسمعه يقول: هذا نبي هذه الأمة ثم راح إلى أخوالي فخبرهم الخبر فأخبروا أمي فخافت علي فخرجنا من المدينة» [١٣٣]

وفي طريق العودة أُصيبَت السيِّدة آمنةُ بمرض وتُوفِّيت في مكان يقال له: الأبواء، ولها من العمر ثلاثون عاماً، ودُفنت هناك، وقبيل وفاتها نظرت إلى ولدها الصغير اليتيم بعين مليئة بالشفقة والرحمة، فوضعت يدها على عنقه وقالت لولدها المبارك:

«ليباركك الله! إن صحَّ ما رأيته في رؤياي فإنك سوف تُرسَل من الله ذي الجلال والإكرام؛ لتعلم الناس الحلال والحرام، وإن الله سوف يقيك من الأوثان والوثنيين، إن كلَّ حيٍّ ميِّتٌ، وكلَّ جديد قديمٌ، وكلَّ من يكبر يفنى وينتهي، وأنا أيضاً سوف أموت، ولكني سوف أذكر إلى الأبد؛ لأني جلبت إلى الدُّنيا ولداً طاهراً، وإني راحلة وتاركة ورائي ذكرى خيرة!»[١٣٤]

إن الشاعر عارف نهاد آسيا الذي نبض قلبه بهذه الحقائق، يقول مخاطباً السيِّدة آمنة:

يا أيتها النائمة في الأبواء!

لقد أزهرت في البستان أجمل ورود الدُّنيا!

وبذلك أصبح نورُ الكون يتيمَ الأمِّ أيضاً، وعاد إلى مكَّة مع أم أيمن.

---

١٣٢ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٦.

١٣٣ ابو نعيم: دلائل النبوة، ١، ١٦٣- ١٦٤/ ٩٩.

١٣٤ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٢٩- ٢٣٠؛ كاميل ميراس: ترجمة التجريد، ٤، ٥٤٩.

وبقي النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام طيلة حياته يزور حاضنته أم أيمن باستمرار، ويخاطبها بـ «أمي».

و كان النبيُّ ﷺ يظهر لها احتراماً ومحبَّة منقطعة النظير، ويقول عنها:

«أم أيمن أمي بعد أمي!»[١٣٥] ، **«هذه بقية أهل بيتي»** [١٣٦]

رعايةُ جدِّه عبد المطَّلب له

إن الله ﷻ لم يترك الحبيب الأديب الذي فقد في البداية أباه وبعده أمَّه، لم يتركه من دون رعاية وحماية، فقد أدخله عبد المطَّلب في رعايته وتحت حمايته، وأظهر له من الشفقة والمحبَّة ما لم يظهره لأحد من أولاده.

فلم يكن أحد يستطيع الدخول إلى غرفة عبد المطَّلب إذا كان نائماً أو مختلياً إلا شمس الوجود سيدنا محمد ﷺ، حيث لم يكن يفارق جده أبداً. [١٣٧]

لم يكن أحد من أبناء عبد المطَّلب يجلس على فراشه الموضوع في ظلِّ الكعبة احتراما لأبيهم وتبجيلا له، وبينما كانوا يقفون على أقدامهم خلال تواجدهم بجوار أبيهم كان فخر الكائنات سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ يأتي ويجلس على فراشه بكلِّ حرية، وكان عبد المطَّلب يقول لأعمامه الذين يريدون تحويله عن الفراش:

- دعوا ابني! والله سيكون له شأن وشرف عظيم، ويجلسه بجانبه ويربِّت بيده على ظهره، وكان عبد المطلب يحبُّ كلَّ ما يفعله حفيده، ويُعجَب به.[١٣٨]

ولم يكن عبد المطَّلب يتناول طعامَه إذا لم يحضر حفيدُه الصغيرُ الذي سيكون سيِّدَ العالمين، ويقول:

«أحضروا ابني إلى جانبي» [١٣٩]

---

١٣٥ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٧، ٣٠٣- ٣٠٤/ ٣٤٤١٧.

١٣٦ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٢٢٣.

١٣٧ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٨.

١٣٨ ابن هشام: السيرة، ١، ١٨٠.

١٣٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٨.

وعندما يحضر الطعام كان يأخذ حفيده إلى جانبه، وأحياناً يُجلسه على ركبته، ويطعمه من ألذِّ وأطيب أنواع الطعام على المائدة. [١٤٠]

وعندما أصاب مكَّةَ جفافٌ وقحط شديد، ووقع الناس في ضيق كبير لقلة الطعام، خرج أهل مكَّة إلى جبل أبي قُبيسٍ للدعاء والاستسقاء، وخرج معهم عبد المطَّلب أيضاً، وأخذ معه سيِّدنا محمَّداً ﷺ - وكان يبلغ من العمر سبع سنين - يحمله على كتفيه، وصعد إلى قمة الجبل، اصطفَّ جمع الناس بجانبه، فرفع عبد المطَّلب يديه إلى السماء وأخذ يدعو ونور الكائنات جالس على كتفه، ولم يكن الناس قد فارقوا مكانهم بعد حتى بدت السماء وكأنها انشقت، وبدأت بصبِّ مياهها بكرم وسخاء غامرة وادي مكَّة برحمة الله تعالى.[١٤١]

وعندما بلغ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ثمان سنوات تُوفِّي جدُّه عبد المطَّلب أيضاً.

وبذلك فقد وصلت كلُّ التأييدات الفانية والظاهرية إلى نهايتها.

وفيما بعد أصبح صاحبَه وحاميَه ومربِّيَه ربُّه سبحانه وتعالى وحده، وفي نفس الوقت فإن هذه المؤيِّدات الفانية والظاهرية التي تبدو في أضعف مراحل حياتها كانت مبنية على حكمة معينة، وهي أن يكون مثالاً متكاملاً للإنسانية، ويمكن تقليدُه في كل أصناف السلوك والتصرُّفات.

وهناك حكم كثيرة وراء حرمان النبيِّ ﷺ مع الزمن من حماية أبيه وأمِّه، ومن أهم هذه الحكم: إغلاق الباب أمام من سيدعي بأن الأسس الأولى للرسالة والدعوة الإسلامية إنما كانت بناءً على تعاليم تلقَّاها النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من أبيه وجدِّه.

وإضافة إلى ذلك، فمن خلال إبعاد النبيِّ ﷺ عن أمِّه وأبيه وجدِّه، تمَّ حفظه وصيانته من العادات والتقاليد السائدة في ذلك الزمن، والتي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وتمَّت تنشئته بتربية مباشرة من ربه سبحانه وتعالى دون أن تتدخَّل فيها يدُ البشر، حيثُ يقولُ النبيُّ ﷺ في حديث شريف:

«أدَّبَني ربِّي فَأحسَنَ تَأدِيبي» [١٤٢]

---

١٤٠ البلاذري: ١، ٨١.

١٤١ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٩٠؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٧، ١١٢؛ دياربكري: ١، ٢٣٩.

١٤٢ السيوطي: الجامع الصغير، ١، ١٢/ ١٢٦٢؛ علي المتقي: كنز العمال، ١١، ٤٠٦/ ٣١٨٩٥.

ومن جهة أخرى فإن نشأةَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وفق أخلاق علويّةٍ ساميةٍ بالرغم من حرمانه من التربية تحت كنفِ أمِّه وأبيه ما هي إلا دليلٌ على صدق نبوَّتِه ﷺ.

ومن الحكمِ الأخرى التي تقف خلف تنشئة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام يتيماً هي إيصالُ قلبه إلىَ حالةٍ في غاية الرِّقة والحساسية، وجعلُه متوكِّلاً على الله بصورة مطلقة، إذ إنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام - ولأنه ذاق مرارة اليُتم والضعف - أصبح طيلةَ سنوات حياته حامياً للضعفاء، ففي الحديث الشَّريف:

«**كافِلُ اليَتيمِ له أو لغيرِه، أنا وهوَ كهاتَينِ في الجنَّةِ**». وأشار بالسبَّابة والوُسطى.[١٤٣]

وثمَّة حكمة أخرى، وهي:

أن يجعلَ الله ﷻ الرَّسول ﷺ مثلاً للناس وقدوةً لهم في كلِّ حالة ومرحلة من مراحل الحياة، فقد شاء الله تعالى أن يكون ابتداؤه للحياة في أضعف حالاتها من الناحية الاجتماعية، وهي حالة اليتم، ومن ثم مرَّ بمختلف المراتب إلى أن رُفِعَ إلى مقام رئاسة الدولة وقيادتها.

رعايةُ عمِّه أبي طالب

جمع جدُّ الرَّسول ﷺ عبد المطَّلب كلَّ أولاده قُبيلَ وفاته بوقت قصير، وأوصاهم ببذل جهد كبير من أجل الاهتمام بحفيده الصغير اليتيم، وأُجرِيت القرعةُ بين الزُّبير وأبي طالب لأنَّهما الأخوان الشقيقان لوالد النبيِّ ﷺ، وذلك لتحديد من يقوم على رعايته وحمايته، فوقعت القرعةُ على أبي طالب.

لقد كان أبو طالب الأكثرَ شفقةً ورحمةً تجاه الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من بين جميع أعمامه.[١٤٤]

ولم يكن له من الأموال سوى عدد من الإبل، وله الكثير من الأولاد، وعلى الرغم من فقره كان أبو طالب سيِّدَ قريش، حيث يُسمَع كلامه، ولا يُخالَف له أمرٌ، ولم يكن أبو طالب يشرب الخمر مثل أبيه عبد المطلب.[١٤٥]

١٤٣ مسلم: الزهد، ٤٢/ ٢٩٨٣؛ البخاري: الأدب، ٢٤، الطلاق، ١٤.

١٤٤ ابن الأثير: أُسد الغابة، ١، ٢٢.

١٤٥ الحلبي: ١، ١٨٤.

لقد كان أبو طالب يهتمُّ كثيراً بابن أخيه، وكان يحبُّه أكثر من أولاده، ولم يكن يغمض له جفن في الليل من غير وجود ابن أخيه بجانبه، وكان يأخذه معه حيثما ذهب وفي أيِّ وقت كان.

عندما يتناول أفراد عائلة أبي طالب طعامَهم من غير وجود النبي ﷺ كانوا يبقَون جائعين، وعندما يأكلون معه يشبعون، فقد كان الطعام يزداد بوجوده، وكان الحليب الذي يكفي شخصاً واحداً يزداد فيرتوي منه كلُّ أفراد العائلة إذا ما شرب اليتيم المبارك في البداية منه، ولهذا كان أبو طالب يقول لأفراد عائلته قبل البدء بتناول الطعام: **توقفوا! ليحضرَ ابني!** [١٤٦]

وكانت زوجة أبي طالب السيِّدة فاطمة امرأة فاضلة صاحبة قلب رقيق، وقد كان فخرُ الكائنات سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ يواظب على زيارة هذه المرأة التي شرفها الله بالإسلام، وهاجرت إلى المدينة المنورة، وكان النبي ﷺ يقيل في بيتها وقت الضحى أحياناً.[١٤٧]

ولما تُوفِّيت السيِّدة فاطمة انهمرت الدموع كحبات اللؤلؤ من عيني رسول الله ﷺ المباركتين، وقال: «**اليوم ماتت أمي!**»، فكفَّنها بقميصه، وصلى عليها صلاة الجنازة، وتمدد في قبرها لبعض الوقت، قال له عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئا لم تفعله على أحد، فقال:

«**يا عمر، إن هذه المرأة كانت أمي التي ولدتني، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع، وتكون له المأدبة، وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبا فأعود فيه، وإن جبريل عليه السلام أخبرني عن ربي عز وجل أنها من أهل الجنة، وأخبرني جبريل عليه السلام أن الله تعالى أمر سبعين ألفا من الملائكة يصلون عليها**» [١٤٨]

وبعد ذلك دعا لها بالدعاء الآتي:

«**رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسونني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة**» [١٤٩]

---

١٤٦ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٩- ١٢٠، ١٦٨.

١٤٧ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٢٢٢.

١٤٨ الحاكم: المستدرك، ٣، ١١٦- ١١٧/ ٤٥٧٤.

١٤٩ الطبراني: المعجم الأوسط، ١، ٦٧/ ١٨٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٢٥٦- ٢٥٧/ ١٥٣٩٩.

حادثةُ شقِّ الصدر الثانية: وملءُ قلب النبيِّ بالرَّحمةِ والشَّفقةِ

إنَّ أبا هريرة[١٥٠] كان جريئاً، فكان يسألُ رسول الله ﷺ عن أشياءَ لا يسأل عنها غيره، فقال:

يا رسول الله، ما أوَّل ما رأيتَ في أمر النُّبوَّة؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال:

«لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأخذهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعاني بلا قصر ولا هصر. فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد واسلم فرجعت بها أغدو به رقة على الصغير ورحمة للكبير» [١٥١]

١٥٠ أبو هريرة ﷺ: كان اسمه قبل الإسلام عبد شمس، وبعد إسلامه تسمى باسم عبد الرحمن، ذات يوم كان يحمل في قميصه هرةً، فلما رآه النبي ﷺ سأله: ما ذاك؟ فقال أبو هريرة: إنها هرة، فمازحه النبي ﷺ وناداه: يا أبا هريرة، ومنذ ذلك اليوم صار يكنى بأبي هريرة، ونُسي اسمه الأصلي، وكان يريد أن يُخاطب باللقب الذي أطلقه عليه الرَّسول ﷺ أكثر من اسمه، وقدم أبو هريرة ﷺ إلى المدينة المنورة في السنة السابعة للهجرة، فكان يقيم في باحة المسجد النبوي، وهو واحد من فقراء المسلمين من أهل الصُّفة، وكان يلازم النبي ﷺ ليل نهار، ويحفظ كل ما يسمعه عن النبي ﷺ. وقد روى ٤٧٣٥ حديثاً، وبذلك فقد أصبح أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف، وانتقل إلى رحمة الله تعالى في المدينة المنورة سنة ٥٩ للهجرة عن عمر بلغ ٧٨ عاماً.

١٥١ أحمد: مسند، ٥، ١٣٩/ ٢١٢٦١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٢٢٢/ ١٣٨٤٣.

فترةُ شبابِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام

نشأة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام تحت الرعاية الإلهيَّة

لقد حفظ الله ﷻ النبيَّ ﷺ من المفاسد والانحرافات التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، وذلك من أجل تحضيره لحمل شرف النُّبوَّة، وقد تجاوز عليه الصَّلاة والسَّلام فترة اليُتمِ في الطفولة والشباب بحالة من السمو والنزاهة بما يبشِّر بمستقبل هام وبرَّاق، وقد اكتسب بحالته هذه صفة «**الصادق الأمين**» والتي لازمته على الدوام.

وقد كان النبيُّ ﷺ قبل البعثة من عِليةِ قومِه، فكان أعرقهم مروءة، وأشرفهم نسباً، وأحسنهم خلقاً، وكان النبيُّ ﷺ أحسنَ القوم في مراعاة حقِّ الجوار، والحلم والصداقة، والائتمان على العهود، والابتعاد عن الإساءة والأذى بحق الغير، ولم يُر قط أنَّه وبَّخ أحداً أو عابه، ولم يجادل أحداً، ولأن الله ﷻ جمع فيه كلَّ الخصال والمزايا الحسنة فقد سماه قومه «**الأمين**» [١٥٢]

سُئل النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام ذات يوم: يا رسول الله! هل عبدت قط غيرَ الله تعالى؟.فأجاب النبي ﷺ: «**لا**». فقيل له:هل شربت الخمر مرة؟.فقال النبي ﷺ:

«**لا، وما زلتُ أعرف أنَّ الذي همْ عليه كفرٌ، وما كنتُ أدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ**» [١٥٣]

ويروي لنا النبيُّ ﷺ كيفيةَ حماية الله ﷻ له في طفولته، حيث يقول:

«**لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ما أراه، لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي**» [١٥٤]

---

١٥٢ ابن هشام: السيرة، ١، ١٩١؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢١.

١٥٣ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٥٤– ٢٥٥؛ البوصري: تفسير روح البيان، ٨، ٤٣٢.

١٥٤ ابن هشام: السيرة، ١، ١٨٣.

وفي موضع آخر لما بُنِيَت الكعبةُ، ذهب فخر الكائنات النبيُّ ﷺ وعباس رضي الله عنه ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبيِّ ﷺ:

«اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، ففعلَ، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «**إزاري إزاري**». فشد عليه إزاره» [١٥٥]

على الرغم من أن التجول في ذلك المجتمع من غير ثياب كان يعدُّ أمراً طبيعياً، إلا أن النبيَّ ﷺ لم يُر قط فاعلاً ما يخدشُ الحياء، أو مرتدياً ثوباً يتجاوز حدوده، وكما يبدو من الحديث الشَّريف فعندما وجد بمثل هذه الحالة من تشجيع عمه العباس له على خلع إزاره فقد أدركه الحفظ والرعاية الإلهيَّة.

وعند التقى النبيِّ ﷺ بحيرا الراهب كان في الثانية عشرة من عمره، فسأله بحيرا: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى أن تجيبني! فقال النبي ﷺ:

«**لا تسلني باللات والعزى شيئاً، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما...**» [١٥٦]

وتروي أم أيمن رضي الله عنها حاضنة الرسول عن عدم سجوده لصنم قط، فتقول:

«كان ببوانة صنم تحضره قريش تعظمه تنسك له النسائك ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يوما إلى الليل، وذلك يوما في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا، قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا، فقالت له عماته: ما دهاك؟ قال: «**إني أخشى أن يكون بي لمم**» فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت قال:

«**إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه**» قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ» [١٥٧]

١٥٥ البخاري: الحج، ٢٤/ ٣٨٢٩.

١٥٦ ابن اسحاق: السير والمغازي، ١، ٧٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٥٤؛ أحمد: مسند، ٥، ٣٦٢.

١٥٧ ابن سعد:الطبقات،١، ١٥٨.

وفي رواية لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّ الرسول ﷺ قال:

«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله ﷻ فيهما: قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أتبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان؟ فقال بلى، قال: فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله عز وجل على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: فلان نكح فلانة فجلست أنظر، وضرب الله ﷻ على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت ولاعدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته» [١٥٨]

رعيُ النبيِّ ﷺ للغنم

لقد عمل النبيُّ ﷺ في رعي الغنم في حياة عمِّه أبي طالب وقبل أن يشتغلَ بالتجارة، ولم تكن هذه المهنة بسيطة أو عادية بين العرب، فهو عمل يمكن أن يقوم به أولاد الأشراف من العرب، وإضافة إلى ذلك كان الرعيُ عملَ أغلب الأنبياء والرسل، ومن خلال هذا العمل فقد زوَّدَ الله تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ ببعضٍ من الخصوصيات الضرورية للإدارة قبل تكليفه بمهمة التبليغ والرسالة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم»

فقال أصحابه: وأنت؟ فقال:

«نعم، كنت أرعاها على قراريط[١٥٩] لأهل مكة»[١٦٠]

١٥٨ ابن إسحاق: السير والمغازي، ١، ٧٩؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٩٢.

١٥٩ وفق أحد الآراء أن النبي ﷺ كان يأخذ يومياً مقابل رعي كل رأس من ماشية أهل مكة قيراطاً، وهو بما يساوي جزءً واحداً من عشرين جزءا من الدينار.

١٦٠ البخاري: الإجارة، ٢، الأنبياء، ٢٩؛ ابن ماجه: التجارة، ٥.

وفي حديث آخر يقول النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«بُعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد» [١٦١]

وفي هذه الأثناء كان عمرُ نبيِّ الرحمة عليه الصَّلاة والسَّلام عشرون عاماً.

ويقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام مبيِّناً أن الرعيَ واحدة من أفضل المهن:

«من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير» [١٦٢]

إن مَن يعمل في مهنة الرعي يتسع أفقُه في التفكير، وينمو لديه الوقار والرحمة، ويشير الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام إلى هذا الأمر في الحديث الشَّريف، حيث يقول:

«... السكينة والوقار في أصحاب الشاء» [١٦٣]

إن سَوقَ الأغنام وإدارتها وحمايتها من الحيوانات المفترسة تُنمِّي لدى الإنسان مشاعر الصبر والرحمة، حيث إنَّ من أهم الخصائص التي ينبغي توافرها في الأنبياء والرسل الرحمةَ بكلِّ المخلوقات، والصبرَ على أحوالهم الخاطئة واللامعقولة.

رحلاتُه مع عمِّه أبي طالب

عندما كان نورُ الكون عليه الصَّلاة والسَّلام في الثانية عشرة من عمره ذهبَ مع عمِّه إلى الشام «سورية» من أجل التجارة كأول رحلة له في هذا المجال، وكانت رحلته التجارية الثانية إلى اليمن عندما أصبح في السادسة عشرة.

«أجمعت قريش أن يجهزوا عيرا إلى الشام بتجارات وأموال عظام وأجمع أبو طالب المسير في تلك العير فلما تهيأ له المسير انتظر رسول الله ﷺ هل يشخص معه فرق عليه أبو

١٦١ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٦.

١٦٢ مسلم: إمارة، ١٢٥/ ١٨٨٩؛ ابن ماجه: الفتن، ١٣/ ٣٩٧٧.

١٦٣ مسلم: الإيمان، ٩١/ ٥٢؛ البخاري: المناقب، ١/ ٣٤٩٩.

طالب قال: أتخرج؟ فكلمه عمومته وعماته وقالوا لأبي طالب: مثل هذا الغلام لا يخرج به؛ تعرضه للأرياف والأوباء فهم أبو طالب بتخليفه فرآه يبكي قال: ما لك يا ابن أخي؟ لعل بكاءك من أجل أني أريد أن أخلفك؟ فقال رسول الله ﷺ: **نعم**. فقال أبو طالب: فإني لا أفارقك أبدا فاخرج معي..» [١٦٤]

وفيما بعد ذهب النبيُّ ﷺ في رحلته التجارية الثانية إلى اليمن مع عمِّه الزبيرِ وله من العمر ستة عشر عاماً، فقد أراد الزبير الاستفادة من بركة نور الكون عليه الصَّلاة والسَّلام، ولذا أخذ يرجو أبا طالب لكي يأذن له باصطحاب ابن أخيه المبارك.[١٦٥]

كان طريق القافلة يمرُّ من بطن أحد الأودية، فخرج أمامهم جمل هائج ومتوحِّش منعهم من المرور في ذلك الطريق، ولما قرَّر رجال القافلة الرجوع عن ذلك الطريق، قال لهم سيِّد العالمين:

- دعوا ذلك الجمل لي، وخرج يمشي على رأس القافلة.

فلما رأى الجملُ الهائجُ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام هدأ ورضخ له.

فنزل فخر الكائنات سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ عن ناقته، وامتطى ظهر ذلك الجمل الهائج، ولما قطعوا الوادي أطلقه.

وفي طريق العودة صادفوا وادياً قد فاض فيه الماء إلى درجة منعتهم من المرور فيه، فقال لهم النبي ﷺ:

- اتبعوني! فسارت القافلة خلفه وقطعوا الواديَ بسلام، وكأن الله تعالى قد جفَّف الماء الفائض في الوادي، وشقَّ لهم طريقاً ممهداً.[١٦٦]

التقاؤه ببحيرا الراهب، وإثباتات بحيرا

خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبيُّ ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الدير الذي يقطن فيه الراهبُ بحيرا نزلوا وحطوا رحالهم هناك، وكان بحيرا من أعلم رهبان النصارى في ذلك الزمان.

---

١٦٤ أبو نعيم: دلائل النبوة، ١، ١٦٨/ ١٠٨.

١٦٥ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٦٠.

١٦٦ ابن كثير: البداية، ٢. ٢٨٢.

ولما كانت القافلةُ قادمةً رأى بحيرا غيمةً تظلل شخصاً من بين رجال القافلة، ولما حطَّت القافلة رحلها عند شجرة رأى بحيرا أيضاً غصن الشجرة يميل نحو ذات الشخص ويظلِّله بظله، ولذلك قال: يا معشر قريش، لقد أعددت لكم طعاماً، وإني أدعوكم جميعاً صغاراً وشيوخاً، عبيدا وأحراراً إلى مائدتي، وأرسل الخبر إلى جميع من في القافلة.

وكان بحيرا قبل ذلك لا يخرج إليهم، ولا يخالطلهم، فحضر إلى مائدة الطعام كلُّ من في القافلة إلا فخرَ الكائنات سيِّدنا النبيَّ ﷺ، حيث كان جالساً قرب الأمتعة، فجعل بحيرا يتفحَّصهم واحداً واحداً ويدقِّق فيهم، ولكنه لم يلحظ في أيٍّ منهم الصفات التي قرأها في كتبه، فسألهم قائلاً: يا معشر قريش، هل بقي أحد من قافلتكم لم يحضر إلى مائدتي؟

فقال القرشيون: يا بحيرا! لم يبقَ وراءنا سوى غلام صغير، فقد تركناه بجانب الأمتعة لأنه أصغرُنا سناً.

فقال بحيرا: أرسلوا في طلبه، ليشاركنا الطعام هو أيضاً.

فأحضروا محمَّداً الأمينَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأجلسوه على المائدة، وما إن أبصره بحيرا حتى بدأ ينظر إليه بكلِّ انتباه، وأخذ يتأمله من مفرقه إلى قدمه، وبعد ذلك أمسكَ بيده، وقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ قريش: ما علمُك بذلك؟

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبيٍّ، وإني أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ولما سأل بحيرا النبيَّ ﷺ وعمَّه أبا طالب بعض الأسئلة ووافقت إجاباتهما على أسئلته المعلومات التي يعرفها من كتبه قطع الشك باليقين، وتأكد من أمر نبوته، فتوجَّه إلى أبي طالب، وقال له:

ارجع بابن أخيك إلى بلده! واحذر عليه من اليهود! فوالله لئن عرفوا منه ما أعرف ليعملون على قتله، إنَّ هذا الغلامَ من العرب، وإنَّ اليهود تودُّ أن يكون النبيُّ المنتظر من بني إسرائيل، وإنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم نجده في كتابنا.

فلما سمع أبو طالب كلام الراهب التزم بوصيته، وقفل راجعاً إلى مكَّة من فوره.[١٦٧]

١٦٧ ابن إسحاق: السير والمغازي، ١، ٧٤؛ ابن سعد: الطبقات، ١: ١٥٣ – ١٥٥؛ الترمذي: المناقب، ٣.

ويعمل المستشرقون المسيحيون على استغلال هذه الحادثة من أجل تشويه صورة الإسلام والتقليل من شأنه، بدعواهم أن النبيَّ ﷺ قد تلقَّى تعاليمَ الإسلام من بحيرا الراهب، ولم تنزل عليه وحياً من ربِّ العالمين، وهذا اتهامٌ باطل وبعيد كلَّ البعد عن الحقيقة والواقع، فهو عكس القرآن الكريم وعقيدة التَّوحيد التي جاء بها الإسلام، وذلك لأنه من المعروف أن بحيرا كان راهباً نصرانياً، وأن القرآن الكريم قد نزل تصحيحاً للتوراة والإنجيل المحرَّفين، فكيف يمكن التفكير بأنَّ النبيَّ ﷺ قد تلقى تعاليمه من أحد ممثلي الدين المحرَّف في نظره؟!

ومن جهة أخرى فقد ورد وصف الله تعالى في ديانة بحيرا والتي هي المسيحية بصفات بشرية، أما الدينُ الإسلامي الذي جاء به الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فهو الدينُ الـمُبينُ الذي أنزله الحقُّ سبحانه وتعالى وفق أصول التَّوحيد، ويَرِدُ فيه وصف الله تعالى بماهية مجرَّدة، وبأنه المتعالي المنزَّهُ عن كلِّ صفات النقص، ولا تدركه عقول البشر.

ولهذه الحقيقة فقد بيَّنَ القرآن الكريم بأن أهل الكتاب حتى قبل البعثة يمكن أن يكونوا من الناجين يوم القيامة إذا ما كانوا ملتزمين بسبيل الله تعالى، حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٦٨]

وإن جميع الأديان السابقة قد نسخت ببعثة النبيِّ ﷺ؛ لأنه خاتمُ الأنبياء والرسل، ومرسلٌ لجميع الناس إلى يوم القيامة، ولذلك اعتبرَ الإيمان بالله تعالى وحده دون الإيمان بالرَّسول عليه الصلاة والسلام كفراً بالإسلام، وبناءً على ذلك لم يكن المتدينون من أهل الكتاب اليوم مشمولين بالآية المذكورة آنفاً فضلاً عن غيرهم.

وكذلك فإن دين الإسلام له خصائص غير العقيدة تضمن له الدوام والاستمرارية، وتتجلَّى في العبادة والمعاملات، فالدين الإسلامي قد حقَّقَ حياةً متوازنة من العبادة، وأعاد تأسيس المعاملات الجارية بين الناس من جديد على مبادئ من الحق والعدالة والأخلاق، ووضع نظاماً حقوقياً يشتمل على الضمانات الجزائية التي تحكم علاقات الناس.

---

١٦٨ البقرة: ٦٢.

أما حياة العبادة التي في ديانة الراهب بحيرا «المسيحية» فقد تمَّ تحريفها، وأما المعاملات والعقوبات فهي غير موجودة على الإطلاق.

ومن الخصائص الأخرى: أنَّ النبيَّ ﷺ كان رجلاً أمياً كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وكما شهد على ذلك التاريخُ، فهو لم يكن يعرف القراءة والكتابة، حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ١٦٩

ومما يدحضُ هذا الافتراءَ أن عُمرَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام حين التقائه ببحيرا الراهب كان اثنا عشر عاماً، والتقاه لمدة قصيرة بحيث جرى حديث قصير بينهما، فإذا كان الحال على هذا النحو، فإنه من المحال أن يتأتَّى لطفل أميٍّ صغير حفظُ ما يزيد على ستة آلاف آية، والاحتفاظُ بها في ذاكرته لمدة ثمانية وعشرين عاماً، وأن يبدأ فجأة بعد بلوغ سنِّ الأربعين بإظهار هذه الآيات وإعلانها للناس، ومن ناحية أخرى، فإن كلَّ من يتمتع بعقل سويٍّ سليم يدرك بكلِّ سهولة استحالةَ تعلُّم المرءِ لدينٍ مثل الإسلام والذي يتمتع بالكمال، والشمول لكلِّ العالم، ومن ثم وضع نظم العبادات والمعاملات والعقوبات والأخلاق في ظل الظروف المذكورة عن لقاء النبي عليه الصَّلاة والسَّلام ببحيرا الراهب.

وإذا كان بحيرا يعلم بكلِّ هذه الحقائق، فلمَ لمْ يبلِّغها ويعلن نفسه نبيّاً بين الناس؟ ولمَ ترك شرفَ النُّبوَّة لطفل صغير لا يعرفه؟

ويُضاف إلى ذلك أنَّ اللغةَ التي كان يكتب ويقرأ بها بحيرا هي اللغة العبرية، وأما القرآن فهو بلسان عربي مبين، وقد قال الله تعالى بشأن مثل هذه الادعاءات:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ١٧٠

---

١٦٩ العنكبوت: ٤٨- ٤٩.

١٧٠ النحل: ١٠٣.

وفي الوقت نفسه إن القرآن الكريم يتفوَّق بلغته وبلاغته على كلِّ ما سواه، وقد وصل هذا التفوق إلى الحدِّ الذي تحدَّى فيه القرآن كل شعراء وفصحاء العرب، بل وحتى كلَّ العالم من إنس وجان على أن يأتوا بأفضل منه أو ما يماثله؛ حيثُ يقولُ الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [١٧١]

وإلى جانب ما ذكرنا فقد كان كثيرٌ من مشركي قريش حاضرين أثناء لقاء النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ببحيرا الراهب، ولو كان في هذا الادِّعاء شيءٌ قليل من الحقيقة لكان من الأولى أن يتمسَّك به المشركون الذين نذروا حياتهم كلَّها منذ الأيام الأولى للنُّبوَّة لإنكار النبوَّة، ومعاداة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وتكذيبِ دعوته، والواقع أن المشركين لم ينطقوا حتى بكلمة واحدة في هذا الخصوص؛ لأنهم كانوا يعلمون علمَ اليقين عدم وجود أصل أو سند لمثل هذا الادعاء الكاذب.

حِلفُ الفُضول

كان يُطلَقُ على الحروب التي تقع بين العرب في الأشهر الحرم اسم «حروب الفِجَارِ»، ووقعت حروب الفِجار أربع مرات بين العرب، وقد حضر النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام حرب الفِجار الرابعة التي حدثت بين قبائل قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى.

وكان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يقف دائماً بجانب الحقِّ والمظلومين، فاشترك في هذه إلى جانب عمه أبي طالب وهو في العشرين من عمره، ولكنَّه لم يصب دمَ أحد، وإنما كان يكتفي بجمع السِّهام التي تُرمى من الأعداء ويعطيها لعمِّه.[١٧٢]

وبعد انتهاء الحرب والعودة منها جاء إلى مكَّة رجل يمنيٌّ ينتسب إلى قبيلة زُبيدٍ يريد بيع ما لديه من بضائع، وذلك في ذي القعدة أحد الأشهر الحرم، واشترى هذه الأموال

١٧١ الإسراء: ٨٨.

١٧٢ ابن هشام: السيرة، ١، ١٩٨؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٦– ١٢٨.

العاص بن وائل أحد وجهاء قريش، ولكنه لم يدفع ثمنها، فالتجأ الرجل المسكين إلى وجهاء وكبار عائلات مكَّة من أمثال عبد الدار ومخزوم وجُمح وسهم وعدي وكعب، وطلب منهم العون والمساعدة لتحصيل ثمن بضاعته، ولكنهم بدلَ أن يدافعوا عن المظلوم ويعينوه، استحسنوا عمل العاص بن وائل ووبَّخوا الرجل.

فلما رأى الرجل الشرَّ خرج إلى جبل أبي قُبيس عند طلوع الشمس ووجهاء قريش في أنديتهم حول الكعبة، فجعل ينادي بأعلى صوته: «يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته!»، وأخذ يقول الشعر، فأعلن بذلك الظلم الذي لحقه من أحد وجهائهم طالباً العون والمساندة في إعادة حقه له، وكان أوَّل من تحرك لنصرة ذلك التاجر المسكين الزبير عمُّ النبي ﷺ، واجتمع بوجهاء قريش وأشياخها في دار عبد الله بن جدعان.

فاستضافهم عبد الله وقدَّم لهم واجب الضيافة من الطعام والشراب، وبعد ذلك تعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدَّى إليه حقُّه، ما بلَّ بحرٌ صوفة، وما رسا ثبيرٌ وحِراء مكانَهما.

وبدأ المتعاهدون في حلف الفضول باستعادة حقِّ الرجل الزُّبيدي من العاص بن وائل، وذلك كأوَّل إجراء يتخذونه من أجل تنفيذ بنود حلفهم، وبعد ذلك عملوا على نجدة كثير من الناس الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد في مكَّة، وبذلوا جهوداً كبيرة لتحقيق العدالة وإنصاف المظلومين.[١٧٣]

وقد كان العمل الاجتماعي الوحيد من أعمال الجاهلية الذي صوَّبه النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هو «**حلف الفضول**» الذي انضم إليه بنفسه؛ لأنه يُعتبَر بمثابة جمعية عدالة، إذ إنَّ الحلف أُقيم من أجل منع الظلم والجور، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام عن حلف الفضول بعد النُّبوَّة:

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت» [١٧٤]

١٧٣ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٩٥– ٢٩٦؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٨– ١٢٩.

١٧٤ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٩٣.

الحياةُ التجاريةُ للنبيِّ ﷺ

لقد كان أهل مكَّة يشتغلون بأعمال التجارة، إذ كانوا يجلبون البضائعَ من البلدان المجاورة عن طريق القوافل التجارية التي يسيِّرونها في الصيف والشتاء؛ ليبيعوها في الأسواق التي تُقام في مواسم الحج في مكَّة، ويأخذون البضائع التي تُنتج في مكَّة إلى تلك البلدان المجاورة.

وقد انضمَّ النبيُّ ﷺ في شبابه إلى تلك القوافل التجارية بجانب أعمامه، وقام برحلات إلى الشام واليمن، وفيما بعد خرج مرتين في الرحلات التجارية، وذلك بأموال السيِّدة خديجة ﵂ إلى سوق جرش في اليمن، وفي كل مرة كان يُدفَعُ له جملٌ كأجر مقابلَ عمله.[١٧٥]

وخرج نورُ الكائنات أيضاً بقافلة السيِّدة خديجة التجارية إلى سوق حُباشةَ في تِهامةَ، فخرج معه في هذه الرحلة ميسرةُ غلام خديجة ﵂، وجلب معه قماشَ تهامةَ حيث باعها لحكيم بن حِزام وحقَّقَ أرباحاً كبيرة.

وذات يومٍ قال أبو طالب للنبيِّ ﷺ:

«يا ابن أخي، أنا رجلٌ لا مالَ لي، وقد اشتدَّ الزمان؛ أي: القحط، وألحَّت علينا – أي: أقبلت ودامت – سنون منكرةٌ؛ أي: شديدة الجدب، وليس لنا مادَّة – أي: ما يمدُّنا وما يقوِّمنا – ولا تجارة، وهذه عيرُ قومِك قد حضر خروجُها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عِيراتها، فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضَّلتك على غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهودها، ولكن لا نجد لك من ذلك بُدّاً، فقال له رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**لعلها ترسل إلى في ذلك**»،

فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولِّي غيرَك، فتطلب أمراً مدبراً، فافترقا.

فلما بلغ الحديث الذي دار بين نور الكون عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم وعمه أبي طالب مسامع خديجة ﵂، قالت:

---

١٧٥ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٠٠/ ٤٨٣٤.

«ما كنت أعلم محمَّداً يريد هذا الأمر!»، فأرسلت على الفور في طلبه، وكلَّفته بالخروج بأموالها إلى الشام مقابل أجرة تفوق ما يأخذه غيره على مثل هذا العمل، وذلك لأن خديجة كانت تعلم جيداً أمانة النبيِّ ﷺ، وصدق كلامه، وجمال وكرم أخلاقه» [١٧٦]

فخرج نور الهداية عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم في طريقه من مكَّة بصحبة ميسرةَ غلامِ خديجةَ رضي الله عنها، وقالت السيِّدة خديجة لغلامها ميسرة:

«لا تخالف لمحمَّد أمراً! ولا تعترض عليه في شيء!»

وخلال مسير القافلة تخلفت ناقتان محمّلتان بالبضاعة عن الركب، قلِق ميسرةُ على حالة الناقتين، فهرع مسرعاً إلى النبي ﷺ وأخبره بالأمر، ولما وضع سيِّد العالمين يديه الشَّريفتين على أقدام الناقتين ومسحها انطلقتا تجريان وتتصدَّران القافلة، ولما رأى مَن في القافلة هذا الأمر أبدوا اهتماماً شديداً بخدمةِ النبيِّ ﷺ وحمايته.[١٧٧]

لقد كان النبيُّ ﷺ طيلة حياته التجارية يلتزم الصدق والصراحة تجاه من يتعاطى معهم أعمال التجارة وتجاه غيرهم من الناس، وإذا ما قطع وعداً لأحد من الناس فإنه يعمل على تنفيذ ذلك الوعد مهما كلَّفَه من ثمن.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما وهو العارف والمطلع على حياة النبي ﷺ بأدقِّ تفاصيلها:

«... إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل» [١٧٨]

ويقول السائب بن أبي السائب رضي الله عنه:

«أتيت النبي ﷺ فجعلوا –الصحابة الكرام– يُثنون عليّ ويذكروني، فقال رسول ﷺ: «**أنا أعلمكم**» يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي: كنت شريكي فنعم الشريك، كنت لا تداري، ولا تماري» [١٧٩]

ويروي لنا عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه حادثة من نماذج كثيرة أكسبت النبيَّ ﷺ لقب «**الصادق الأمين**»، حيث يقول:

---

١٧٦ ابن هشام: السيرة، ١، ١٨٩؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٩؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٩٧.

١٧٧ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٢٦٢.

١٧٨ البخاري: الشهادات، ٢٨/ ٢٦٨٤.

١٧٩ أبو داود: الأدب، ١٧/ ٤٨٣٦.

«بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال:

«**يا فتى لقد شققتَ عليَّ، أنا ههنا منذ ثلاثٍ أنتظرُكَ**» [١٨٠]

إن هذه الخصالَ الحميدة والسامية التي تحلَّى بها قبل البعثة وأشباهَها تحمل الكثيرَ من العِبر والحِكم، وبطبيعة الحال فإن هذه الخصال لا بدَّ أن تكون من تجلِّيات ودلائل النُّبوَّة.

لو أراد الله سبحانه وتعالى لجعل الحبيب الأديب مستغنياً عن البحث والسعي خلف رزقه منذ طفولته الأولى، ولأحياه حياة مرفَّهة لا ينقصه فيها شيء، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن ينال الرَّسول ﷺ رزقَه من خلال سعيه وجهد يده، ويتابع حياته بهذه الطريقة؛ ليكون مثلاً وقدوة لأمته، ويقول النبيُّ ﷺ أيضاً:

«**ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود** ؈**، كان يأكل من عمل يده**» [١٨١]

إضافة إلى ذلك، إنَّ الشخص الذي سيكون قدوةً وقائداً للناس إذا ما اعتمد في معيشته على عطاياهم وهداياهم فإن دعوتَه تفقدُ مع مرور الوقت قيمتَها في نظرهم، ولا يبقى لها من الثقل والتأثير الجدي عليهم، وهكذا فقد أمر الله تعالى جميع أنبيائه بعدم طلب الأجر من قومهم، حيثُ يقولُ الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [١٨٢]

ويعبِّر الشاعرُ عن دقَّة الأمر في هذا الموضوع، إذ يقول:

احتجْ إلى مَن شئتَه ... لكـــنْ تجهَّزْ للعقالْ
فإذا أخــذتَ عطيَّةً ... قيِّدتَ كفَّكَ بالحبالْ

ولذلك كان النبيُّ ﷺ من أكثر الناس حرية واستقلالاً؛ لأنه اعتمد في تأمين حاجاته ومستلزمات معيشته على كدِّ يده وعرق جبينه.

---

١٨٠ أبو داود: الأدب، ٨٢/ ٤٩٩٦.

١٨١ البخاري: البيوع، ١٥/ ٢٠٧٢؛ الأنبياء، ٣٧.

١٨٢ الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

تبشير الراهب نسطورا

لقد وصلت القافلةُ التي خرجِ فيها النبيُّ ﷺ من الشام إلى بصرى، فنزل عليه الصَّلاة والسَّلام في سوق بصرى في ظلٍّ شجرة زيتون قريبةٍ من صومعة راهب يقال له: نسطورا، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال:

«يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: أفي عينيه حُمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه. فقال الراهب:هو هو، وهو آخر الأنبياء! ويا ليت أني أدركه حين يُؤمَرُ بالخروج!»[١٨٣]

ولما خرجت القافلة من بصرى عائدة إلى مكَّة، شاهدَ ميسرةُ في أوقات الحرِّ الشديد ملكين يظللان النبيَّ ﷺ من أشعة الشمس، ورجعوا إلى مكَّة بربح وفير.[١٨٤]

زواجُه ﷺ من السيِّدة خديجة ﵂

وبعد العودة من رحلة الشام ذكر ميسرةُ لخديجةَ كلَّ الأحداث الغريبة والخارقة التي رآها خلال تلك الرحلة، ووصف لها بكلِّ تفصيل جمالَ سيرة النبي ﷺ وصورته وأحوالَه الاستثنائية، وكان من نتيجة ذلك أن رغبت السيِّدة خديجةُ ﵂ في الزواجَ بالنبيِّ ﷺ.

فعن نفيسة بنت منية، قالت:

«كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك قد طلبوها وبذلوا لها الأموال فأرسلتني دسيسا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تزوج؟ فقال: «**ما بيدي ما أتزوج به**» قلت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «**فمن هي؟**» قلت: خديجة. قال: «**وكيف لي بذلك؟**» قالت: قلت: عليَّ، قال: «**فأنا أفعل**» فذهبت، فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها»[١٨٥]

---

١٨٣ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٤– ١٥٦؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٩٧– ٢٩٨.

١٨٤ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٣٠، ١٥٦– ١٥٧.

١٨٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٣١.

وبناءً على بشارة نفيسة أرسلت السيِّدة خديجة إلى النبيِّ ﷺ تطلبه للزواج، فأخبر النبيُّ ﷺ عمَّه أبا طالب بالأمر، فتوجَّه أبو طالب إلى عم السيِّدة خديجة عمرو بن أسد، وخطبها منه لابن أخيه.

وتناوب أبو طالب وابن عم خديجة ورقة بن نوفل إلقاء خطب النكاح، ومن ثم نهض عمُّ السيِّدة خديجة عمر بن أسد واقفاً، وقال:

«يا معشر قريش! اشهدوا بأني زوَّجت خديجةَ بنت خويلد لمحمَّد بن عبد الله!» [١٨٦]

ودفع النبيُّ ﷺ مهر السيِّدة خديجة ﵂ عشرين جملاً «بكرة» [١٨٧]

كان عُمرُ النبيِّ ﷺ عندما تزوج السيِّدة خديجة خمساً وعشرين سنة، وأما خديجة ذات الأصل والحظ الطيب فكانت تكبر النبيَّ ﷺ بخمسة عشر عاماً، وهي أرملة ولها أولاد.

وقد أصبحت أمُّنا خديجة ﵂ مصدرَ قوةٍ وسنداً للنبيِّ ﷺ بمالها وروحها معاً.

وإن السيِّدة خديجة ذاتَ النسب الرفيع والشَّريف كانت تُدعى في الجاهلية بـ «الطاهرة» و «العفيفة» بسبب أخلاقها العالية، وبعد الإسلام سميت بـــ «خديجة الكبرى» [١٨٨]

ويقول النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**خير نسائها** -السماء- **مريم بنت عمران، وخير نسائها** -الأرض- **خديجة بنت خويلد**» [١٨٩]

وفسَّر ابن كثير ذلك بأنَّ كلاً منهما خَيْرُ زَمَانِهِمَا.

إن هذا الزواج يُظهر بشكل جليٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن ممن يميلون إلى شهواتهم ورغباتهم النفسية، ويظهر بأنه ممن لا يعطي أيةَ قيمة لمثل هذه الرغبات، وإلا لو كان الأمر خلاف ذلك لاستوجب أن يتزوج عليه الصَّلاة والسَّلام بفتاة بكر تصغره سناً، لا أن يتزوجَ بامرأة أكبر منه سناً، وأرملة ذات أولاد، ولكنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام بحث في المرأة التي سوف يتزوجها عن الخصال السامية مثل الشرف والفضيلة والأخلاق الكريمة، بدل البحث فيها عن الخصائص الفانية مثل الشباب والجمال.

١٨٦ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٦٤؛ اليعقوبي: ٢، ٢٠.

١٨٧ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٠٦؛ ابن أثير: أُسد الغابة، ١، ٢٣.

١٨٨ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٤- ١٥.

١٨٩ البخاري: مناقب الأنصار، ٢٠/ ٣٤٣٢؛ مسلم: فضائل الصحابة، ٦٩/ ٢٤٣٠.

زواجُ الرَّسول ﷺ بأكثرَ من امرأة والحكمةُ من ذلك

لم يتزوج النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بامرأة أخرى غيرَ السيِّدة خديجةَ ﵂ إلا بعد وفاة السيدة خديجة وتجاوز عمرُه الخامسة والخمسين سنة، وهناك حِكمٌ وأسباب كثيرة وراء زواج رسول الله ﷺ في كلِّ مرة.

قال الله تعالى في حقِّ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١٩٠]

إن سوءَ الظن أو الافتراءَ بحقِّ شخصية نموذجية ومثالية جعلها الله تعالى قدوةً للإنسانية جمعاء ما هو إلا غفلةٌ عن الحقائق الدينية، وعلامةٌ على نموٍّ سوء النية والعودةِ للجاهلية الأولى.

هذا وإن ربَّنا ﷻ جعل لنا النبيَّ ﷺ مثلاً أعلى وقدوة حسنة في كلِّ مجال من مجالات الحياة، وتأتي حياتُه العائلية على رأس هذه المجالات، ولسنا هنا بصدد شرح وتقليب كلِّ صفحات الحياة الزوجية للنبيِّ ﷺ وأمهات المؤمنين، فهذا الأمر فيه تجاوزٌ لحدودنا، كما أنه لا تكفيه أسطرنا القليلة، ولكن إذا ما قمنا بتعداد وبيان الأوصاف الرئيسية والبارزة لكلِّ زواج فيمكننا بكلِّ الأحوال الوصول إلى قناعة كافية وصحيحة عن الأمر.

إن الفترة التي تتَّقد فيها الشهوات والرغبات النفسية لدى الإنسان هي بلا أدنى شكٍّ فترةُ الشباب والفُتوَّة، وإذا ما أمعنا النظر في فترة شباب الرَّسول ﷺ، فلا يمكننا الخروج إلا بنتيجة واحدة، وهي أنَّ النبيَّ ﷺ كان مثال الحياء والعفة والشرف، وهذه النتيجة يمكن استنتاجها بسهولة من اسم «**الأمين**» الذي أطلقه أهل مكَّة على رسول الله ﷺ، وكما أن المشركين لم يأتوا في هذا الجانب بأية فِريةٍ بحقِّ الرَّسول ﷺ حتى بعد الفترة التي أعلن فيها النُّبوَّة، وحتى بعد وفاته.

لقد تزوج النبيُّ ﷺ مرتين طيلة الفترة التي قضاها في مكَّة، وعندما حصل زواج نبينا الكريم من **السيِّدة خديجة** ﵂ – وهو زواجه الأوَّل – كان عمره عليه الصَّلاة والسَّلام

١٩٠ الأحزاب: ١٢.

خمسة وعشرين عاماً، بينما كانت السيِّدة خديجةُ لها من العمر أربعون عاماً، وكانت أرملةً ولها أولاد، استمرَّ هذا الزواج حتى وفاة السيِّدة خديجةَ ﵂، ولم يتزوج النبي ﷺ خلال فترة زواجه هذا - والذي دام خمسة وعشرين عاماً - بأية امرأة أخرى، مع أن العاداتِ والأعرافَ السائدة في ذلك الوقت كانت تتيحُ له - بل وتشجِّعُه - على الزواج من نساء أخريات.

إلا أن النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام بعد وفاة خديجة ﵂ تزوج مرة أخرى بامرأة مُسنّةٍ وأرملة، وهي **السيِّدة سودةُ**، فقد تُوفِّي زوج السيِّدة سودة في الحبشة بعد هجرة الحبشة، وبقيت وحيدةً لا مُعيلَ لها، ولا من يتولى حمايتها، خاصة وأن أقاربها كانوا يضغطون ويتهجَّمون عليها بسبب إسلامها، فتزوج النبيُّ ﷺ بهذه السيِّدة الفاضلة والمحترمة بهدف حمايتها والتخفيف من مصابها، وقد حصل هذا الزواج في السنة العاشرة للنُّبوَّة، وفيما عدا أمَّنا خديجةَ وسودةَ فقد وقع زواج النبي ﷺ من سائر نسائه الأخريات خلال فترة النُّبوَّة في المدينة المنورة.

وكانت أم المؤمنين **السيِّدة عائشة** ﵂ هي البكر والفتاة الصغيرة الوحيدة من بين كلِّ النِّساء الأخريات اللائي تزوج بهن النبيُّ ﷺ، وحصل هذا الزواج في المدينة المنورة في السنة الأولى للهجرة، وعلى الرغم من صغر سنها قليلاً إلا أنها كانت تتمتع بذكاء وفهم منقطع النظير، فقد تعلَّمت كلَّ القواعد الفقهية المتعلِّقة بأمور النِّساء، وظلَّ الصحابة الكرام لمدة تقارب الستة والخمسين عاماً بعد وفاة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام يتلقَّون منها هذه المسائل الفقهية المهمة، وينقلونها إلى بيوتهم؛ ليعلموها لنسائهم وبناتهم، وحتى أحفادهم، وقد أشار الرَّسول ﷺ إلى هذه الحقيقة بقوله:

«خذوا ثلث دينكم من بيت عائشة» [١٩١]

إنَّ السيِّدة عائشة ﵂ من السبعة المكثرين لرواية الحديث عن النبي ﷺ، فقد روت عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام / ٢٢١٠/ أحاديث. منها / ١٩٤ / حديثاً متفقاً عليه رواها البخاري ومسلم صحيحيهما.

وفي الحقيقية كانت أمُّ المؤمنين عائشة ﵂ عالمةً متمكنة في القرآن الكريم، وفي الحلال والحرام، والفقه، والطب، والشعر، وتعلم جيداً قصص العرب وعلم الأنساب،

١٩١ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٢، ١٦٥/ ٢٨٢٨.

وكان الصحابة الكرام كلما اختلفوا في مسألةٍ ما أسرعوا إليها؛ ليأخذوا منها الجواب الشافي، وحتَّى إنَّ كبار الصحابة كانوا يستشيرونها في المسائل التي تستعصي عليهم.[١٩٢]

حيثُ يقولُ أبو موسى الأشعريُّ في هذا المجال:

«ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما» [١٩٣]

إضافة إلى ذلك، فإن النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام بزواجه من أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي هي ابنة أعزِّ وأقدم أصدقائه سيِّدِنا أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كان قد أسَّس لنوع من صلة القُربى بينهما، وعزَّز من قربهما.

وعلى نفس المنوال فإن زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين **السيِّدة حفصة** بنت سيِّدنا عمرَ رضي الله عنه في العام الثالث للهجرة كان بهدف تأسيس صلة القُربى بينهما.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أراد تزويج ابنته حفصة بعد استشهاد زوجها في معركة بدر، فأراد تزويجها من سيِّدنا أبي بكر ولكنه لم يجبه بشيء، ثم أراد سيدنا عمر تزويجها من سيِّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكنه اعتذر بلطف، فحزن سيِّدنا عمر رضي الله عنه كثيراً، وشكى ذلك للنبي ﷺ فقال له:

«**يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة**»[١٩٤]

وفي نهاية الأمر تزوج الرَّسول ﷺ من السيِّدة حفصة رضي الله عنها في السنة الثالثة للهجرة، فانعقد بذلك عقد المصاهرة بين النبي وصاحبة الفاروق رضي الله عنه.

وأما زواج النبيِّ ﷺ من **السيِّدة زينب** والذي تمَّ في السنة الخامسة للهجرة فقد أثار تساؤلات ونقاشات كثيرة، ولكن هذا الزواجَ يحمل من الحِكم والعِبر الشيءَ الكثير، وذلك لأن النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قد زوَّج زينبَ - وهي ابنة عمته - من متبناه زيد بن حارثة على الرغم من عدم رغبتها في هذا الزواج ولكنها أبت أن ترفض طلب رسول الله ﷺ، ولم يدم هذا الزواج طويلاً، ووصل الأمر بسبب تذمُّر السيِّدةِ زينبَ واعتراضِ أقربائها المستمر

---

١٩٢ انظر: ابن حجر، الإصابة، ٤، ٣٦٠.

١٩٣ الترمذي: المناقب، ٦٢/ ٣٨٨٣.

١٩٤ ابن حجر، الإصابة، ٨، ٨٥/ ١١٠٥٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢، ٢٢٨.

إلى مرحلة لا يمكن فيها الاستمرار بهذا الزواج، ووصل زوجها زيد إلى طريق مسدود في مراجعته للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام حول الطلاق الذي أوقعه عليها، وفي النهاية لم يعد زيد قادراً على التحمّل، فطلق زوجته زينب ؓ نهائياً.

وفي الأيام التالية أُمر النبيُّ ﷺ من الله تعالى بالزواج من ابنة عمته زينب، وذلك من خلال آية قرآنية.[١٩٥] نزلت بهذا الشأن، وبهذا الزواج أبطل النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام – بالتطبيق العملي– العادة الجاهلية التي كانت تمنع المرء من الزواج بامرأة متبنّاه، وأظهر بشكل واضح الفرق بين الابن بالنسب و الابن بالتبني.

إن من يعلّقون بكلِّ سفاهة ووقاحة على هذه الواقعة بقولهم:

«إنَّ النبيَّ ﷺ قد أُعجب بجمال زينب فتزوَّجها».، ينسون أو يتناسون الحقائق الآتية:

١. إن السيِّدة زينب هي ابنة عمةِ النبيِّ ﷺ، وقد رآها النبيُّ ﷺ مرات عدة منذ الصغر.

٢. لو طلب النبيُّ ﷺ الزواج من السيِّدة زينب قبل تزويجها لزيد لوافقت على طلبه عن طيب خاطر، خاصة أنه لم يكن هناك أيُّ مانع يعيق مثل هذا الزواج، إلا أن نور الكون قد زوَّجها بنفسه من شخص آخر، ورفض طلب زيد بالطلاق عدة مرات.

وباختصار، فإن كلَّ هذه الوقائع التي جرت إنما كانت تؤسِّس بعض القواعد في النظام الحقوقي للإسلام، وذلك عن طريق التطبيق العملي في حياة النبي ﷺ، وهي التي جعلت لهذه القواعد مسنداً شرعياً.

وأما زواجُه من أمِّ المؤمنين **السيِّدة صفيَّة** بنت سيِّد يهود خيبر، إنما كان بهدف تحسين وتصحيح العلاقات القائمة مع اليهود عن طريق المصاهرة، وإن هذا الزواج الذي تمَّ في السنة السابعة للهجرة كان يحمل غايات سياسية أيضاً.[١٩٦]

أما زواجُه عليه الصَّلاة والسَّلام من **السيِّدة جُويريةَ** ؓ التي كانت ابنة كبير إحدى القبائل في السنة الخامسة للهجرة، فقد كان سبباً في تحرير مئاتٍ من أسرى الحرب ووسيلةً لاهتدائهم إلى طريق الحقِّ.[١٩٧]

---

١٩٥ انظر: الأحزاب: ٣٧.

١٩٦ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٤٣٧.

١٩٧ أبو داود: الاعتقاد، ٢.

وأما زواجُ النبيِّ ﷺ من **السيِّدة أم حبيبة** بنت أبي سفيان في السنة السابعة للهجرة فكان من أجل التخفيف عن هذه المؤمنة التي عانت من الجفاء كثيراً، وذلك لأنها على الرغم من ارتداد زوجها في الحبشة وبقائها وحيدة في ظلِّ ظروف قاسية وبالغة الصعوبة، بقيت مدافعةً عن دينها، ولم تراجع أباها أبا سفيان الذي كان في ذلك الوقت زعيم مكَّة بسبب حساسيتها وخوفها على إيمانها، فأنقذها النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من الوضع الخطر الذي كانت فيه وحماها بزواجه منها، وفي الوقت نفسه أيضاً خفَّت بسبب هذا الزواج العداوة التي كانت متعمِّقةً بين مشركي مكَّة والمسلمين.[١٩٨]

فلو كان النبيُّ ﷺ يتزوج من أجل رغباته الشهوانية، فقد كانت في المدينة لدى المهاجرين والأنصار فتياتٌ كثيرات وعلى درجة عالية من الجمال، وكان كل مسلم يعتبر تزويج ابنته للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام شرفاً عظيماً له ولعائلته، وحتى الفتيات كن يطمحن أن يكنّ زوجاتٍ للنبيِّ ﷺ و «**أمهات للمؤمنين**»، ولكن النبيَّ عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم لم يكن بوارد هذا الأمر أبداً.

وهكذا، لهذه الأسباب وغيرها من الأسباب الدينية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية المشابهة، وبالأخصِّ بسبب حاجة المسلمين إلى أشخاصٍ من ذوي العلم والخبرة والتعليم الكافي في الأمور المتعلقة بمسائل النِّساء في التشريع الإسلامي فقد تزوَّجَ الرَّسول ﷺ بنساءٍ عديدات بناءً على إذن وأمرٍ من الله تعالى؛ لأنه في كثير من المسائل الفقهية قد لا يكفي فيها رأي امرأة واحدة، وكذلك إن كثيراً من المفاهيم والأحكام المتعلقة بالأسرة والمرأة في التشريع الإسلامي الذي جاء شاملاً لكلِّ زمان ومكان ربما ما كانت لتنتقل إلينا بمعانيها التامة لو نقلها شخص واحد بمفرده، وبالإضافة إلى ذلك، ليس هناك من يضمن عدم وفاة الزوجة الواحدة قبل الرَّسول ﷺ فيما لو كان متزوجاً بامرأة واحدة، ولأفاد ذلك - لو حصلت الوفاة فرضاً - أنَّ جانب التشريع الإسلامي المتعلق بالمرأة لم يكتمل بكلِّ معانيه وجوانبه.

فهناك مسائلُ كثيرةٌ يمنع الحياءُ النِّساءَ من السؤال والاستفسار عنها من الرجال، ولكن من السهولة بمكان لامرأة أن تفاتح امرأةً أخرى بشأن المسألة نفسها، ولذلك كانَ

---

١٩٨ انظر: الممتحنة: ٧؛ الواحدي: اسباب النزول، ٤٤٣.

المجتمعُ الإسلامي بحاجة إلى نساء مسلمات، ومتعلمات، ومثقفات، ومطلعات في شتى المجالات، وفي كل زمان ومكان، فهل يا ترى يمكن التفكير بأنَّ هناكَ من يطَّلع على هذه المسائل الخاصَّة بالنِّساء أكثر من تلك النسوة الأزواج اللائي عشن سويةً مع النبيِّ ﷺ، وتعلمن هذه المسائل منه بالذات، وخوطبن من قبله بكلِّ دقة وانتباه؟

وفيما عدا ذلك، فإنهن جميعاً صرن قدوةً لنا ولأفراد عائلاتنا بحياة الزهد والتقوى التي عشنها طيلة فترة حياتهن.

ولكن يُعتبَر تعدُّدُ أزواج النبي ﷺ بمثابة نموذج يُحتذى به من قبل الناس؟

إنّ طرح هذا السؤال بهذا الشكل يستوجب منا الجواب الآتي:

إن بعضَ التصرُّفات والأعمال الخاصَّة المتعلقة بشخص النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يشكِّلُ نموذجاً تقتدي به الأمة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ باعتباره الممثل الأوَّل للدين، وحاميه، والقائم بتطبيقه على أرض الواقع، وكرسولٍ لله تعالى، له موقعٌ خاصٌّ ومتميِّزٌ عن غيره من الناس، ولهذا السبب فقد كانت هناك أعمال وأمور خاصة بالنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام دون غيره من البشر، مثل فرض صلاة التهجد بحقِّه كلَّ ليلة، والترخيص له بالصيام لعدة أيام متواصلة «صوم الوصال»، وعدم قَبول أخذ الزكاة بحقه وبحق عائلته، فكما اتفق العلماء بأن الزواج المتعدد للنبيِّ كان لأسباب دينية واجتماعية وسياسية، فكذلك اتفق علماءُ المسلمين في الوقت ذاته على أنَّ زواجه بأكثر من أربعة أزواج لا يشكّل نموذجاً لأمته، وإنما هو أمر خاصٌّ به.

وعندما نتناول حكم تعدد الزوجات في ديننا الحنيف نقول:

أولاً: ينبغي الإشارة إلى أن الإسلام لم يأتِ بتعدُّدِ الزوجات، وإنما الذي فعله الإسلام هو تنظيمُ أمر موجود ومتأصِّل في المجتمع الذي نزل فيه، ووضعُ ضوابط وحدود معينة له، فقبل الإسلام لم يكن هناك حدٌّ أو عدد معين للزوجات، فعندما جاء الإسلام حدَّد العدد بأربع زوجات كقاعدة أصلية لا يمكن تجاوزها، واعتبر العدل بين الزوجات المتعددة أمراً مهماً، بحيث إن خاف الرجل من عدم التزامه به فمن الأفضل له الاكتفاء بزوجة واحدة.[١٩٩]

---

١٩٩ انظر: النساء: ٣.

ثانياً: إن الزواج بأربع نساء ليس أمراً لكلِّ المسلمين، وإنما هو إذن معلوم في بعض الحالات.[٢٠٠]

يُطبَّقُ تعدُّد الأزواج في بعض الظروف والحالات التي يُخشى بنتيجتها ضياع الأسرة، وبقاء المرأة دون مُعيلٍ وحماية، ومن هذه الحالات الحرب، والمرض، والإعاقة، والفراق الطويل، وغيرها من الحالات المشابهة، مثلاً يمكن للرجل المتزوج من امرأة عاقر لا تنجب أطفالاً، أو من امرأة تعاني من مشاكل جسدية تعيقها من القيام بواجباتها الزوجية تجاه زوجها، يمكن لهذا الرجل التزوج بامرأة أخرى دون أن يطلِّق زوجته الأولى، وفي حال استمرار هذه الضرورة فقد تمَّ تحديد العدد بأربع زوجات مع أهمِّية تكاثر العائلات، وهكذا تمّ تقليل الأضرار التي يمكن أن تحدث جراء تفكُّكِ العائلة إلى حدودها الدُّنيا.

وفي الحقيقة إن الحرب في بلدٍ ما يمكن أن تخلقَ حالة الضرورة التي تؤدِّي إلى التشجيع على الزواج بأكثر من امرأة واحدة من أجل تلافي النقص الحاصل في عدد السكَّانِ وسدِّ الباب أمام انتشار الفاحشة، وإن هذه الأمثلة والحالات كما أنها حدثت في الماضي فإنها يمكن أن تحدث في المستقبل أيضاً، إن الدين الإسلامي الذي يحتوي على الأسس التي تدور حول سلامة الإنسانية وسعادتها وضع أحكاماً عارضية عن طريق ما يعرف بـ «**الرُّخص**» لتُطبَّق في حالة ظهور أسباب عارضية، وإن هذه القاعدة التي تسهِّلُ الحياة وتجعلها سائرة ضمن نطاقها الطبيعي لا تطبق فقط على الزواج، وإنما يمكن أن تنطبق في شتى مجالات الحياة.

إذاً هذه الكيفية التي رأيناها تظهر وتثبت صلاحية الإسلام وقدرته على مواجهة كلِّ الظروف والحالات الضرورية والطارئة في كل زمان ومكان.

---

٢٠٠ يبين المُفسِّر محمد حمدي هذا الموضوع وفق الآتي: عندما نأتي إلى موضوع الزواج بأكثر من امرأة نقول: ليس هناك ما يقال أكثر من أن هذا الأمر في الأساس عبارة عن فعل مباح ومأذون به، وعندما يكون هناك خوف من عدم الالتزام بالعدل بين الزوجات فالأمر يتحول إلى كراهة، ومع ذلك فإنه يمكن الاستنتاج من الآية الكريمة بأن الزواج بأكثر من امرأة في بعض الحالات يكون مندوباً، وحتى أنه يتحول في بعض الأحيان إلى واجب، وهذا الأمر يتوجب بحثه في الحالات التي يُخشى فيها من الوقوع في خطر الزنا والفاحشة سواء بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة. (دين الحق لغة القرآن: ٢، ١٢٩٠)

لقد كُلِّفَ الرجل الذي يتزوَّج بأكثر من امرأة بتحقيق العدالة بينهن، وحُذِّر من العذاب الشديد إن أهمل ذلك، حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [٢٠١]

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٢٠٢]

وقد قال النبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف:

«**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل**» [٢٠٣]

ومع ذلك يمكنُ للمرأة أثناء عقد النكاح أن تُدرِجَ شرطاً في العقد يمنع الرجلَ من استخدام حقِّه في التزوُّج بأكثر من امرأة، وهذا أيضاً حقٌّ معلومٌ للنساء. [٢٠٤]

في حالة التفكير بطريقة متحرِّرةٍ عن أخذ الغاية الإلهيَّة وراء إيجاد المخلوقات بعين الاعتبار ربما يتوصَّلُ المرء إلى أنه من حقِّ المرأة أيضاً أن يكون لها أزواج متعدِّدون، ولكن هذا المنطق لا يصح أبداً؛ لأنه في هذه الحالة يختلط نسب الطفل الذي سوف يُولَد نتيجةَ مثل هذا الزواج، فلا يُعرَف إلى مَن يُنسَبُ هذا المولود، ولذلك لا يقبل أيُّ دين بهذا الزواج الذي رفضه الإسلام واعتبره من «الفجور»، ولا تجيزه أيٌّ من الأنظمة التشريعية الوضعية واللادينية، إضافة إلى سبب الأهمِّية والحساسية الكبيرة التي يبديها الإسلام في موضوع تحديد نسب الأولاد؛ إذ إنَّه حدَّد في حالة وقوع الطلاق مدَّةً معيَّنةً كحدٍّ أدنى يجب على المرأة قضاءها بعد الطلاق قبل أن تتزوج من رجل آخر، إن هذه الحقيقة التي لا تُراعى في القوانين السائدة اليوم دليلٌ على أن التشريع الإسلامي يقيِّمُ واقع الناس بالشَّكلِ الأمثل، ويربطه بالحكم المناسب.

---

٢٠١ النساء: ٣.

٢٠٢ النساء: ١٢٩.

٢٠٣ أبو داود، النكاح، ٣٩ / ٢١٣٣؛ ابن ماجه: النكاح، ٧٤/ ١٩٦٩.

٢٠٤ خير الدين كارامان: القانون الإسلامي المقارن، جـ ١، ص، ٢٩٠، اسطنبول، ١٩٩٦.

«Hayreddin Karaman: Mukayeseli İslam Hukuku c1. s 290. İst 1996»

عندما تُؤخَذ كلُّ هذه الظروف بعين الاعتبار يمكن فهمُ الحكمة الكامنة وراء إعطاءِ الإسلامِ - الذي يأخذ بعين النظر في أحكامه كلَّ تقلُّبات الحياة ومختلف الحالات التي يمرُّ بهاَ الإنسان والمجتمع- الترخيصَ بتعدُّدِ الزوجات، فالحقُّ أنه ليس دينَ الأصحاء فقط، وإنما هو دينُ المسنِّين والضُّعفاء أيضاً، وليس دينَ الأوقات الطبيعية والظروف العادية فقط، وإنما هو دينُ الظروف الحرجة والأحوال الاستثنائية، وإنه ليس دينَ الرجل فقط، وإنما هو دينُ المرأة أيضاً حيث يضعُها تحت حمايته ويحفظ لها حقوقها، ويلبِّي كلَّ احتياجاتها، إنه الدين الوحيد الذي يفكِّر بالفرد والمجتمع لدرجة لا يغضُّ معها النظرَ عن هدم العائلة بدون سببٍ وانزلاق الأطفال إلى الرذائل والأخطار، وهو الدين الوحيد الذي يحفظ عِفَّةَ الإنسانية وكرامتها.

تحرير النبي ﷺ لزيد بن حارثة وتبنّيه

لما كان عُمرُ زيدِ بن حارثة ثمانيةَ أعوام اختُطِفَ في غزوة قام بها فرسانُ بني قين، وأُتِيَ به إلى سوق عُكاظ ليباع فيها كرقيق، واشتراه حكيم بن حِزام لعمَّته السيِّدةِ خديجةَ بنت خويلد رضي الله عنها بأربعمائة درهم، ولما أبصره سيِّدُ العالمين قال:

«**لو كانَ هذا العبدُ لي لأعتقتُه!**»

فقالت السيِّدة خديجةُ رضي الله عنها: هو لك! فأخذه النبيُّ ﷺ وأعتقه.[٢٠٥]

لقد كان أبو زيد في غاية الحزن على فقد ابنه وخرج يبحث عنه، ولما علم من الحجَّاج أن زيداً في مكَّة خرج من فوره إلى مكَّة بصحبة أخيه، ولقي النبيَّ ﷺ، فعرض على النبي ﷺ ثمن زيد، وأرادوا منه الإنصافَ في تحديد الثمن، فقال سيِّدنا رسول الله ﷺ:

«**فهل لغير ذلك؟**» قالا: ما هو؟ ، قال:

«**دعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا**» .

قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت، قال: فدعاه فقال: «**هل تعرف هؤلاء؟**» قال: نعم، قال: «**من هما؟**»، قال: هذا أبي، وهذا عمي، قال:

«**فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما**»

---

٢٠٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٦٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٢٢٣.

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدا، أنت مني بمكان الأب والأم.

فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا،

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال:

«يا من حضر، اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني»

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.[٢٠٦]

يقول جبلة بن حارثة، أخو زيد رضي الله عنه:

قدمت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ابعث معي أخي زيدا قال ﷺ:

«هو ذا، فإن انطلق معك لم أمنعه»

قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك أحدا، قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي.[٢٠٧]

ضمُّ النبيِّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب إلى بيته

كان أبو طالب فقيرَ الحال كثيَر العيال، ولذلك كان يعاني من ضائقة معيشية شديدة، فذهب النبيُّ ﷺ إلى عمِّه العباس، وقال له:

«يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت رجلا، فنكلهما عنه»

فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما– قال ابن هشام: ويقال: عقيلا وطالبا .

فأخذ رسول الله ﷺ عليا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا.[٢٠٨]

٢٠٦ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٤٢؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٤٩. منذ ذلك اليوم بدأ الناس يدعون زيداً بـِ «زيد بن محمد» واستمر الأمر على ذلك، إلى أن تم تحريم التبني بنزول الآيتين ٥ و ٤٠ من سورة الأحزاب.

٢٠٧ الترمذي: المناقب، ٣٩/ ٣٨١٥.

٢٠٨ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٤٦؛ ابن كثير: البداية، ٤، ٦٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٢٠٤.

أولادُ النبيِّ ﷺ

وُلد لفخر الكائنات سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ من السيِّدة خديجة ﵂: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورُقية، وأمُّ كلثوم، وفاطمة، ولُقِّبَ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بـ «**أبي القاسم**» لأن القاسم كان ولدَه البكرَ.

ولأن ابن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام عبدَ الله وُلد في الإسلام فقد أُطلق عليه أيضاً اسم «**الطيب**» و «**الطاهر**»[٢٠٩]

ولما تُوفِّي عبد الله قال أحد مشركي قريش وهو العاص بن وائل:

«دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه».

فأنزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر، حيثُ يقولُ ﷻ:

﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [٢١٠]

ولما توفي القاسم–وله من العمر عامان– ابن رسول الله ﷺ قالت خديجة ﵂:

«يا رسول الله درت لبينة القاسم، فلو كان الله أبقاه حتى يستكمل رضاعه، فقال النبيِّ ﷺ:

«**إن تمام رضاعه في الجنة**»

قالت: لو أعلم ذلك يا رسول الله لهون علي أمره، فقال النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**إن شئت دعوت الله تعالى فأسمعك صوته**»

قالت: يا رسول الله بل أصدق الله ورسوله» [٢١١]

وكان للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أربع بنات أيضاً، وكانت أكبرُهن هي السيِّدة زينب ﵂، ولما وُلِدَت السيِّدة زينبُ كان عُمرُ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ثلاثون عاماً، وبعدها وُلدت السيِّدة رقية ﵂.[٢١٢] وبعدها وُلدت السيِّدة أمُّ كلثوم، وبعد ذلك وُلدت السيِّدة فاطمةُ رضي الله عنهن جميعاً.

---

٢٠٩ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٧.

٢١٠ الكوثر: ١ – ٣؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٩٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٧.

٢١١ ابن ماجه: الجنائز، ٢٧/ ١٥١٢.

٢١٢ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٧٣– ٢٧٤.

وقد بلغَ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في هذه الأثناء من العمر خمسة وثلاثين عاماً، وكانت الكعبة تُبنى من جديد. [٢١٣]

وفي السنة الثامنة للهجرة وُلد للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام الولدُ الأخير، وهو إبراهيمُ، وذلك من أمِّ المؤمنين السيِّدة ماريةَ القبطية ﵂، وكانت القابلة التي وُلد إبراهيم على يديها أمَّ رافع، وقام زوجها أبو رافع بتبشير النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بولادة إبراهيم، فأعطاه عليه الصَّلاة والسَّلام هديةً بسبب هذا الخبر الذي أفرحه كثيراً، وقال لمن حوله:

«**ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم**» [٢١٤]

ومرض إبراهيمُ في الشهر السابع عشر أو الثامن عشر من عمرِه، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى وافته المنية.

التَّحكيمُ في الكعبةِ

أصاب مكَّة سيلٌ عظيم، ولحقت بالكعبةِ أضرارٌ بليغة، فاجتمعت القبائل وتكاتفوا فيما بينهم من أجل إصلاح الأضرار التي لحقت بالكعبة، وقرَّروا فيما بينهم هدمَ الكعبة حتى أساسها وإنشاءَها من جديد. وفي هذه الأثناء سمع هؤلاء بأن سفينةً قد ساقتها الرياح الشديدةُ إلى ميناء شعيب القريب من مكَّة، فاصطدمت بالصخور وتحوَّلت إلى حُطام، وقد كانت تلك السفينة تنقل مواد البناء من حجارة ملساء، وحديد، وأخشاب، فتوجَّهَ القوم إلى مكان السفينة، واشتروا الأخشاب التي بداخلها، وتقاسموا أعمال هدم الكعبة وبنائها فيما بينهم عن طريق القرعة.

وخلال بدء القرشيين بأعمال الهدم والبناء من جديد في الأجزاء التي أصبحت من نصيبهم نتيجة القرعة، نهض أبو وهب بن عمرو على قدميه، وقال:

«يا معشرَ قريش، لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيِّباً، لا يدخل فيها مهرُ بغي، ولا بيعُ ربا، ولا مظلمةُ أحد من الناس» [٢١٥]

---

٢١٣ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٩ – ٢٦.

٢١٤ مسلم: الفضائل، ٦٢/ ٢٣١٥.

٢١٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢١٠؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٣٠٨.

ثم وقف القرشيون حائرين لا يجرؤون على اتخاذ قرار قطعيٍّ بشأن هدم الكعبة بسبب الخشية من تعرُّضهم إلى العذاب إن هم أقدموا على هدمها، إن الاحترام والتعظيم الذي كان سائداً بين العرب تجاه الكعبة كان واجباً مقدساً تمَّ الاحتفاظ به منذ شريعة إبراهيم عليه السلام، فسأل الوليد بن مغيرة الذي يُعدُّ أحدَ وجهاء قريش: ما هي الغايةُ التي تهدفون إليها من هدم الكعبة؟ هل هي بالأمر الحسن، أم السيء؟ فقالوا: إنه لأمرٌ حسنٌ بلا ريب. فقال الوليد: أيها القوم، ألا تريدون بهدم الكعبة إصلاحَها؟ فإن الله تعالى لا يُهلِكُ المصلحين. فأخذ المعولَ وبدأ بهدم الكعبة، ثم تبعه الآخرون. [٢١٦]

وهكذا رفعوا جدرانَ الكعبة، يجعلون الحجارة في صفٍّ والدعامات الخشبية في صفٍّ آخر، وقد اشترك نورُ الكون ﷺ في أعمال إصلاح الكعبة مع عمِّه العباس، ولما حان وقت وضع الحجر الأسود في مكانه أرادت كلُّ قبيلة أن تنال شرف القيام بهذه المهمة ونتج عن هذا الأمر خلاف واضطراب كبير، وبدؤوا بجدال ومشادّات عنيفة فيما بينهم، وتحوَّلت المسألة إلى حسدٍ وأهواءٍ نفسية، وكاد الأمر أن يؤدِّيَ إلى إراقة الدماء، حيث جلب أولاد عبد الدار جفنة مملوءةً دماً، وتعاهدوا مع أولاد عدي بن كعب على القتال حتى الموت، وبدأوا بالتحضير للحرب، وغمسوا أيديهم في الجفنة للتأكيد على البرِّ بأيمانهم، وبقي القرشيون على هذه الحال لمدة أربع أو خمس ليال.

وفي نهاية المطاف قام أبو أمية الذي كان أكبر قريش سنّاً، ونادى بأعلى صوته:

يا قوم! إنا نريد الخير، ولا نريد الشرَّ، فلا تتنافسوا فيما بينكم في هذا الأمر ولا تأخذنَّكم الغيرةُ فيه، ودعوا عنكم الخصام والجدال، ولئن استعصت المسألة على الحلِّ فيما بيننا فاجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينَكم فيه، ولنرضَ بحكمِه، وأشار بيده إلى باب بني شيبة.

فكان أوَّلُ داخل عليهم من ذاك الباب سيِّدُ الخلق رسولُ الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فلما رأوه علت الابتسامةُ وجوههم؛ لأنَّ القادم هو «**محمَّد الأمين**»، حيث كانت محبَّةُ قريش لمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، واحترامُهم له، واعتمادُهم عليه يزداد يوماً بعد يوم، حتى إنَّهم إذا ما أرادوا ذبح جمل كانوا يبحثون عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ليدعوَ لهم حتى تحلَّ البركة في عملهم.

---

٢١٦ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٣١٩.

ولهذا السبب فإن أهل قريش ما إن أبصروه داخلاً من الباب حتى قالوا:

«هذا الأمين، رضينا، هذا محمَّد».

فشرحوا له الأمرَ، وهو بدوره اختار من كلِّ قبيلة رجلاً، وخلع رداءه، ومدَّه على الأرض، ثم وضع الحجر الأسود فوق الرِّداء، وطلب من الرجال الذين اختارهم أن يمسك كلٌّ منهم بطرف الرداء، ففعلوا ورفعوا الحجر المبارك سوية، وقام نور الأكوان محمَّدٌ ﷺ بوضع الحجر في موضعه بيديه الشَّريفتين، وبذلك حال دون وقوع الحرب التي كانت وشيكةً بين القوم.[٢١٧]

إن مثل هذا السلوك الذي يُنبِئ عن فراسةٍ شديدة، وتحلٍّ بالأخلاق الكاملة التي لا نظيرَ لها، وغير ذلك من الخصال السامية ما كانت سوى علامات غير خفية في ذلك الوقت على النُّبوَّة التي سوف تعلو به إلى مقام «**سلطان الأنبياء**»، ربما لم يكن معروفاً بأن محمَّداً الذي وُلد ونشأ في مكَّة سوف يكون نبياً، ولكن كان معلوماً لدى بعض الأشخاص الخاصين الذين لم ينحرفوا عن عقيدة التَّوحيد بعدُ بأنه سوف يظهر نبيٌّ آخر الزمان، وكانوا أيضاً يشعرون باقتراب وقت بعثته، وقد كان قسُّ بن ساعدة واحداً من هؤلاء.

خطبة قُسِّ بن ساعدة

كان قس بن ساعدة زعيم قبيلة إياد، وكان شاعراً وموحِّداً على ديانة سيِّدنا عيسى ؑ، وإن الخطبة المشهورة التي ألقاها في سوق عُكاظ على مسامع جمع غفيرٍ من الناس، كان فيهم النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام، والتي كانت تدور حول البعثة النبوية، تحملُ الكثير من العِبر والحِكم، حيثُ يقولُ قُسُّ بن ساعدة في هذه الخطبة:

«يا أيها الناس، اسمعوا وعوا: كلُّ مَن عاش مات، وكلُّ من مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت، مطرٌ ونبات، وأرزاقٌ وأقوات، وآباءٌ وأمهات، وأحياءٌ وأموات.

أيها الناس! اسمعوا وعوا: إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً! مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، ليل داج، وسماء ذاتُ أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تُرِكُوا فناموا...

---

٢١٧ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٠٩– ٢١٤؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٣١٩.

أقسم قُسٌّ قسماً بالله لا إثمَ فيه، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه.ونبيّاً قد حان حينُه، وأظلَّكم أوانُه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويلٌ لمن خالفه وعصاه!

تباً لأرباب الغفلةِ من الأمم الخالية والقرون الماضية!

أين الآباء والأجداد؟ وأين ثمود وعاد؟ وأين الفراعنة الشِّداد؟ أين من بنى وشيَّد، وزخرفَ ونجَّد، وغرَّه المالُ والولد؟ أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثرَ منكم أموالاً؟ وأطولَ منكم آجالاً؟ وأبعدَ منكم آمالاً؟ طحنهم الثرى بكَلْكَلِه، ومزَّقَهم بتطاولِه، فتلك عظامُهم بالية، وبيوتُهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية، كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالدٍ ولا مولود.

في الذاهبين الأوليـــن من القرون لنا بصائرْ
لَمَّا رَأيتُ موارِداً لِلمَوتِ ليسَ لها مَصادِرْ
ورأيتُ قومي نحوَها تمضي الأصاغرُ والأكابرْ
لا يرجعُ الماضي إليَّ ولا من الباقين غابرْ
أيقنت أنِّي لا محالةَ حيثُ صارَ القوم صائرْ» [٢١٨]

عندما كان قُسُّ بن ساعدة الإيادي ينطق بهذه الكلمات الرائعة لم يمكن يعلم بأنَّ النبيَّ محمَّداً المصطفى حاضرٌ بين الجمع الذي يستمع إلى خطبته، وبعد فترة تُوفِّي قس بن ساعدة. ولكن عندما بُعث النبيُّ ﷺ جاءت قبيلته إليه وآمنت به.فقال:

«أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادي؟»

قالوا: كلنا يعرفه يا رسول الله. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. قال:

«فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت...»

ثم قال رسول الله ﷺ:

«أفيكم من يروي شعره-خطبته-؟»

---

٢١٨ البيهقي: السنن الكبرى، الزهد، ٢، ٢٦٤؛ ابن كثير: البداية، ٢، ٢٣٤- ٢٤١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ١٤٨.

فقال الوفدُ:

إنَ كل فرد منا يحفظ هذه الخطبة، فسُرَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بهذا الكلام كثيراً.

وقال أبو بكر الصِّدِّيق ﵁ وكان في المجلس:

«أنا شاهدٌ له في ذلك اليوم». وقرأ الخطبة من أوَّلها إلى آخرها.

وبعد ذلك قام رجل من قبيلة إياد وقرأ بعضاً من شعر قس بن ساعدة، وكان هذا الشعر يشير بشكل واضح إلى ظهور نبي عظيم يعود بنسبه إلى أولاد هاشم.وكان النبيُّ ﷺ يقول عن قس بن ساعدة:

«**رحم الله قسا أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة!**» [٢١٩]

الاختلاءُ في غارِ حراء

لما اقترب موعدُ ظهور النُّبوَّة المحمَّدية كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يكثر من الاختلاء بنفسه، ويغوص في أعماق بحار التفكُّر والتأمُّل لمدة طويلة. حيث يخرج من بيته بين الفَينةِ والأخرى، ويبتعد عن مكَّة؛ ليصلَ إلى مكان هادئ يلفُّه الصمت بشكل تام، وخلال مسيره كانت الأحجار والأشجار التي يصادفها في الطريق تلقي عليه الصَّلاة والسَّلام﵇ قائلة: «السلام عليك يا رسول الله». فكان سيِّد الكون محمَّدٌ ﷺ يلتفت حوله، ولكن لا يبصر سوى الحجارة والأشجار.[٢٢٠]

وكان النبيُّ ﷺ يقول:

«**إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**» [٢٢١]

ويقول علي بن أبي طالب ﵁:

«كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله» [٢٢٢]

---

٢١٩ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٠٠-٣١٠.

٢٢٠ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٥٧.

٢٢١ مسلم: الفضائل، ٢/ ٢٢٧٧.

٢٢٢ الترمذي: المناقب، ٦/ ٣٦٢٦.

لقد كان نور الكون عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم يعتكفُ خلال أشهر رمضان في غار حراء[٢٢٣] شهرا كاملاً، وخلال ذلك كان يطعمُ الفقراءَ والمساكينَ الذين يأتون إليه، ويلبِّي احتياجاتهم، وبعد الخروج من الاعتكاف كان يقصد الكعبة أولا يطوف بها ثم يذهب إلى بيته. [٢٢٤]

وكان النبيُّ ﷺ كلما رأى عبادةَ قومه للأصنام تزداد رغبته في الابتعاد عنهم، والاعتصام بالخلوة والعزلة، وكانت عبادته عليه السلام في لك الخلوات عبارة عن التفكُّرِ والتأمُّلِ في ملكوت السماوات والأرض مثل أبيه إبراهيم عليه السلام؛ لأخذ العِبر، ومشاهدةِ الكعبة.[٢٢٥]

وعند خروجه عليه الصَّلاة والسَّلام إلى غار حراء كان يأخذ معه بعض الزاد، وإذا نفد منه الزاد يعود إلى السيِّدة خديجة رضي الله عنها، ويأخذ معه بعض الطعام؛ ليعود مجدداً إلى الغار.[٢٢٦]

وفي بعض الأحيان كان يخرج إلى غار حراء مع خديجة رضي الله عنها.[٢٢٧]

وعندما يكون فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم في الخلوة يرى أنواراً، ويسمع أصواتاً، وكان يخاف من ذلك ظانّاً أنَّها أشياءُ من أعمال الجانِّ أو الكهانة، ويقول للسيدة خديجة:

---

٢٢٣ حِراء هو اسم للجبل الذي توجد فيه المغارة التي نزل فيها الوحي على النبي ﷺ أول مرة، يقع جبل حراء شمال شرق مكة على مسافة خمسة كيلو مترات منها تقريباً، ويُعرف أيضاً باسم جبل النور، وإن مغارة حراء التي تعتبر مكاناً مهماً في حياة النبي ﷺ تقع أسفل قمة الجبل بأمتار قليلة، وهذا المكان في الأساس عبارة عن مساحة فارغة تشبه النفق وتقع بين الكتل الصخرية المتراكمة فوق بعضها البعض، وتظهر الكعبة من خلال فتحتها الأمامية، يبلغ ارتفاعها طول رجل واقف على قدميه بحيث لا يلمس رأسه السقف، وأما عرضها فهو بمقدار ما يتمكن الرجل من التمدد فيها، إن وقوع هذه المغارة في مكان يمكن رؤية الكعبة منه ومشرف على الجوار جعلها مكاناً ملائماً ومساعداً على التفكر والتأمل، وقد كانت الأحناف قبل النبي ﷺ يخرجون إلى هذا المكان بين الحين والآخر للاختلاء بأنفسهم - وكان عبد المطلب جد النبي ﷺ واحداً من هؤلاء، فقد كان يؤمن بوجود الله تعالى وبوجود الآخرة - كمكان يتلقى فيه الإنسان الثواب أو العقاب، ويخرج من وقت لآخر إلى المغارة الواقعة في جبل حراء من أجل التفرغ للعبادة، (فؤاد غونل: موسوعة الشؤون الدينية، مادة "حراء" ١٨، ١٢١- ١٢٢// Fuat Günel.DİA. Hira.18 .121-122)

٢٢٤ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٥٢-٤٥٢.

٢٢٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٦١.

٢٢٦ مسلم: الإيمان، ٢٥٢.

٢٢٧ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٥٤.

«يا خديجة، والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهنا!»

فتقول له خديجة رضي الله عنها لتواسيه وتخفف عنه: يا ابن العمِّ! لم يكن الله ليفعلَ بك ذلك!. [٢٢٨]

إن الفترة التي قضاها الرَّسول ﷺ مُختلياً بربِّه ﷻ في غار حراء تشبه المرحلة التي تقضيها بذور النبات تحت التراب، وهذه المرحلة أو هذا المكان هو مكان التكوين الذي ستبقى كيفيته مجهولة للناس إلى الأبد، حيث إنَّ بذور الإيمان أُلقيت هنا، وهنا أُعطيت رايةُ السعادة الأبدية، وأيضاً بدأ هنا إهداء البشرية القرآن الكريم الذي يُعدُّ دليل الهداية.

إن العوامل الظاهرية التي دفعت النبيَّ ﷺ للتوجُّهِ إلى غار حراء والاختلاء فيه هي مشاعرُ القلق والاضطراب والرحمة الواسعة التي انعكست على قلبه من مظاهر الانحراف التي انزلق إليها قومه، ومن الظلم والرذائل التي كانت متفشِّية حوله، وأما العامل الحقيقي فهو تحضير الأرضية اللازمة لنزولِ القرآن الذي يُعدُّ دليلَ السعادة الأبدية للبشرية من عند الحقِّ سبحانه وتعالى وانتقالِه إلى مدارك الناس عن محمَّد ﷺ صاحب القلب الطاهر النقي، إن هذه الكيفية كانت وكأنها عبارة عن مشهد معنوي وروحي أشبه بالتيار الخفي الذي يسري بجهد عالي، حيث إنَّ السرَّ الخفيَّ بين المولى ﷻ وبين الحبيب المصطفى ﷺ اقتضى أن يكون تجلِّيه في الغار بعيداً عن الأنظار، وإن فترة غار حراء كانت مناسَبَةً لإظهار وصقل الاستعداد الفطريِّ لمن سيُخاطَب بالوحي الإلهي ليتحمَّلَ حملاً ثقيلاً يعجز عن حمله الناس العاديون، تماماً كما هو الحال في الحديد الخام عندما يتمُّ تحويله إلى الفولاذ من خلال خصائصه المركوزة فيه...

لا يمكن لإدراكٍ عاجز أو فكر أسيرٍ لمحيطه أن يعي هذا السرِّ أو يعبر عنه كما ينبغي.

ونستنتج من اعتزال الرَّسول ﷺ واختلائه في غار حراء، وكذلك من الاعتكافات المستمرة والمنتظمة التي ألزم نفسَه بها في الفترات اللاحقة، نستنتج أن المسلم مهما التزم بالعبادات لا يصل إلى مرحلة الكمال بمعناها التام إن لم يَختلِ بين الحين والآخر، ويعتزلِ الناس، ويحاسبْ نفسه، ولم يتفكَّر في تجلِّيات القدرة الإلهيَّة التي تبدو في الكائنات من حوله، إن هذا الأمر من الواجبات الصغرى التي يتوجَّبُ على المؤمن القيام بها، وأما

---

٢٢٨ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٩٥.

الأشخاصُ الذين يتولون قيادة البشر وهدايتهم فهم أكثر احتياجاً إلى التفكر والتأمل ومحاسبة النفس.

إن القرآن الكريم من أوَّل آية إلى آخر آية فيه يدعو الإنسان إلى التفكر السليم ويعلمه منهج التدبر الأمثل، ويجعل العبودية لله تعالى مركز العقيدة، وبهذه الطريقة يصل إلى حالة من الوجد الإيماني، بحيث يبذل العبد جهوداً حثيثة في كل مكان وزمان للبحث عن رضا الحق ﷻ، وفي النهاية فإن تدفُّقات القدرة والعظمة الإلهيَّة تقرِّبُ العبدَ مع مظاهر الحكمة التي في قلبه إلى الحق سبحانه وتعالى، وتجعله ممن ينالون الوصل.

وإن من إحدى أهم الخصائص بالنسبة للمؤمن هي محبَّة الله تعالى،[٢٢٩] إن العمل الوحيد الذي يمكن أن يُكسب المرء محبَّة الله تعالى بعد الإيمان هو التفكُّرُ المستمر في لطف الله تعالى وإحسانه، والتفكُّرُ في عظمته وقدرته، وبعد ذلك الإكثار من ذكره بالقلب واللسان،[٢٣٠] وهذا لا يمكن تحقيقه بمعناه التام إلا من خلال حفظ القلب عن مشاغل الدُّنيا وهمومها، مع الدخول في الخلوة والاعتزال.

ولا بدَّ أن نشيرَ هنا إلى أنَّ المقصود بالخلوة ليس الابتعادَ عن الناس، أو الهروبَ من المجتمع، والاعتصام في شعاب الجبال والكهوف، إن اللجوء إلى الخلوة بهذا الشكل هو عكس ما كان عليه النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام وأصحابه الكرام.

حيثُ يقولُ النبي ﷺ:

«المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [٢٣١]

---

٢٢٩ إن النبي ﷺ يتضرع إلى الله تعالى في دعائه ويطلب محبته، حيث يقول:
«اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد» (الترمذي: الدعوات، ٧٢/ ٣٤٩٠)

٢٣٠ لقد فسَّر ابن عباس ؓ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...**﴾. (الأحزاب: ٤١)، بقوله: «لقد وضع الله تعالى لكلِّ فرض فرضَه على عباده حداً معيناً، وقبل في هذا الشأن عُذرَ أصحاب الأعذار، ولكن هذا الأمر لا يشمل الذكر، فالله تعالى لم يعين حداً بيناً يمكن الوصول ببلوغه إلى نهاية واجب الذكر، ولم يقبل عذراً من أيِّ عبد من عباده بشأن ترك الذكر سوى من فقد عقلَه، وقد أمر الناس بالذكر في كل الأحوال والظروف» (الطبري: ٢٢، ٢٢؛ القرطبي: ١٤، ١٥٤/ ١٩٧)

٢٣١ الترمذي: القيامة، ٥٥/ ٢٥٠٧.

إن الأعمالَ التي قام بها النبيُّ ﷺ -وخاصة رعيَ الأغنام، واشتراكَه في حرب الفجار وحلف الفضول، وأمانه في رحلاته التجارته، وعمله في إعادة بناء الكعبة، وغيرها من الأنشطة المشابهة- تبيِّنُ أنه عليه الصَّلاة والسَّلام كان على الدوام في قلب الحياة بكلِّ جوانبها، فقد اشترك في كل الفضائل الاجتماعية، وابتعد عن كل مساوئها، ولم يقترب منها أبداً في يوم من الأيام.

إن الهدفَ من الاختلاء والاعتزال هو إصلاحُ الحال، فالدواء الذي يُرجى منه الشفاء ينبغي تناوله في وقته المحدَّدِ وبالمقدار المعيَّنِ، وأما إذا ما زاد عن حدِّه فمن المؤكد أنه سيحدث الضرر بدل النفع والفائدة.[٢٣٢]

تحليلُ فترةِ طفولتِه وشبابِه

لقد اصطفى الله تعالى حبيبَه الذي أراد أن يرسله رحمة للعالمين من أطهر الأنساب وأعرقها في كل صفحات التاريخ الإنساني قاطبة، ولقد جعل الله هذا النسب الاستثنائي متفوِّقاً على غيره من الأنساب من وجوه عدة، وجعل أجداد النبيِّ ﷺ أشخاصاً يتمتع كلٌّ منهم في عصره بالاحترام والتقدير من قبل مجتمعه، ويصف الشاعر هذا الأمر بشكل جميل، حيث يقول:

الزهرُ أصلٌ للزهورْ
والشمسُ أصلٌ للبدورْ
وكذاكَ نسلُ نبيِّنا
نَورٌ ونُورٌ في البدورْ

لقد آمن كلُّ الأنبياء والرسل بالنبيِّ ﷺ اعتباراً من الإنسان والنبيِّ الأوَّل سيِّدنا آدم عليه السلام ووصولاً إلى آخر نبيٍّ قبل الرَّسول ﷺ، وأخذ الله تعالى عليهم الميثاقَ والعهدَ على التبشير بظهوره، وقد حصلت حوادث كثيرة تنبئ بظهوره عليه الصَّلاة والسَّلام.

وهكذا فقد عرَّف اللهُ تعالى نبيَّه العزيز الذي سوف يرسله للناس كافة، عرَّفه لكلِّ الناس بمختلف العلامات والبشارات الدالة عليه، وسهَّلَ على أصحاب العقول السليمة من عباده الإيمانَ به.

---

٢٣٢ البوطي: ص ٧٩-٨٢.

فقد تولَّى الله تعالى بيد قدرتِه أمرَ تربيته بتركِه يتيمَ الأب والأم، وأدَّبه فأحسن تأديبه، وأراد الله تعالى بإذاقته ألوان الضعف والعجز الصعودَ به إلى أعلى مشاعر الشفقة والرحمة تجاه الذين سيؤمنون به ويتبعونه في المستقبل.

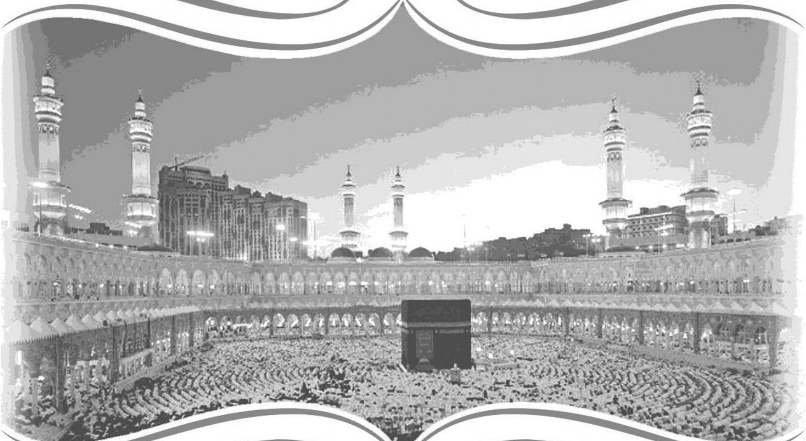
وقد حفظ الله تعالى حبيبَه من مختلف المفاسد والانحرافات الجاهلية ليُبقيَ صحيفة حياته نقية صافية لا يلطِّخُها أدنى شيء من المفاسد، وجمع فيه كلَّ مكارم الأخلاق.

وعرفه الناسُ بكلِّ الصفات الأخلاقية الكريمة مثل: الصدق، والأمانة، والإخلاص، والرحمة، والإنفاق، والاستغناء عن الناس، والعِفَّة، والوفاء بالعهد؛ وتفوُّقه على أقرانه بالخصال الشخصية مثل الذكاء، والفطنة وغيرها، فكانوا لذلك يثقون به ويأتمنونه في مختلف الأعمال والأمور، لقد جمع الله تعالى في شخصه عليه الصَّلاة والسَّلام كلَّ المزايا السامية لكلِّ شيء حسن وجميل، فحتى أعداؤه لم يستطيعوا إنكارَ كرم أخلاقه، وأطلقوا عليه اسم «**الأمين**» حتى قبل النُّبوَّة ونزولِ الوحي، وإنَّ حكمَه عند اختلاف الناس في بناء الكعبة وضعه بين وجهاء قريش وأشياخها، ونال في ذلك موقعاً بارزاً واستثنائياً. ولم يكن أحد من الناس يشكُّ أبداً في صدق قوله عندما يتكلم، ولا في كرم أخلاقه عند التعامل معه، ولا في سموِّ إخلاصه عندما يُطلَبُ منه العون ويُعتمَد عليه في أمر ما.

ومن الناحية الشكلية فقد خلقه الله تعالى إنساناً بأحسن صورة، وأجمل هيئة وأكملها، وذلك لأنه سيكون الأسوة الحسنة للخلق أجمعين، وسوف يقودهم إلى طريق الهداية، وإن الناس تُفتتَن وتُعجَب بالشخصية والهيئة أكثر من الموقع والمقام، فهم يقدِّرونَ ويحترمون العباقرةَ، ولكن يتَّبعونَ الأشخاصَ ذوي الهيئات والأشكال البارزة والمميزة.

فَترةُ النُّبوَّة

في مَكَّةَ المُكَرَّمَة



القسم الثاني

فترةُ النُّبوَّة في مكَّةَ

بدايةُ الوحي: الرُّؤيا الصادقةُ

لقد نال النبيُّ الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم – الذي كان سببَ وجود العالمين – نال شرفَ النُّبوَّةِ ومرتبتها عندما بلغ الأربعين عاماً، وذلك بعد أن جمعَ كلَّ الخصال الكاملة من خلال فترة الشباب النَّزيهة والنَّقيّة والحياة العائلية السامية التي عاشها، ففي عمر الأربعين عاماً إلا ستة أشهر افتتحت له القدرةُ الإلهيَّةُ غارَ حراء الذي يقع في مكَّة كمدرسة يتلقَّى فيها تعليمَه من مولاه ﷻ.

لقد جرى هذا التدريس الإلهيُّ بالاستغناء عن الكتاب، والدفتر، والقلم، وقد قرأ النبيُّ ﷺ في هذه المدرسةِ التعليميةِ الفيّاضةِ دروساً في ماهية سرٍّ أبديٍّ بينه وبين ربِّه ﷻ، وحُضِّرَ جيداً للوحي الإلهي.

تحقَّقت صفحةُ الستة أشهر الأولى لهذا التَّحضيرِ بما يمكن أن يتَّسع له نطاقُ عقولنا، وذلك على شكل «**الرُّؤيا الصادقة**»؛ أي: أن الأمور كانت تقع كما يراها النبيُّ ﷺ في رُؤياه، حيث تقول أمُّ المؤمنين السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها:

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[٢٣٣]

لأنَّ النُّبوَّةَ مهمَّةٌ خطيرة وأمانة ثقيلة فقد بدأ جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ أوَّلاً في الرُّؤيا؛ لكي يتآلف النبي ﷺ مع هذه الوظيفة الإلهيَّة المهمة. فعن علقمة بن قيس أنه قال:

«إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد»[٢٣٤]

---

٢٣٣ البخاري: بدء الوحي، ٣.

٢٣٤ ابن كثير: البداية، ٣، ٥٥.

ولهذا السبب كانت الرُّؤيا أحد طرق تلقِّي الأنبياء والرسل للوحي، وإن قول الله تعالى في القرآن الكريم على لسان إبراهيم ﵇ دليلٌ على ذلك، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿...يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى...﴾ [٢٣٥]

ويُضاف إلى ذلك أنَّ عيون الأنبياء تنام، ولكنَّ قلوبَهم يَقِظةٌ لا تنام،[٢٣٦] فليس هناك ما يمنع من تلقِّيهم للوحي خلال في النوم كما يتلقَّونه في اليقظة. وقال النبيُّ ﷺ فيما بعدُ عن الرُّؤيا الصادقة:

«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» [٢٣٧]

وفي الحقيقة فإن مدَّة الستَّة أشهرِ هذه إذا ما قِيسَت بمدّة النُّبوَّةِ التي استمرَّت ثلاثةً وعشرين عاماً فإنها تساوي جُزءاً من ستةٍ وأربعين جزءاً.

٢٣٥ الصافات: ١٠٢.

٢٣٦ انظر: البخاري: المناقب، ٢٤.

٢٣٧ البخاري: التعبير، ٢٦ / ٦٩٨٩/ ٦٩٨٣/ ٦٩٨٧؛ مسلم: الرؤيا، ٦.

السَّنواتُ الثَّلاثُ الأولى للبعثة

فترةُ الدَّعوةِ السرية

أوَّلُ الوحي، وانقطاعُه مدَّةً من الزَّمنِ

لقد كان النبيُّ ﷺ في تمام الأربعين من عمره، حين أشرفت الأشهر الستة – التي كانت بمثابة مرحلة تحضيرية له من الناحية المعنوية والروحية – على نهايتها، فبلغ المستوى الذي يؤهِّله لتلقي الوحي.

تروي السيد عائشة رضي الله عنها، عن النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام –حينما كان على عادته في غار حراء، وفي لحظات غير منتظرة بتاريخ السابع عشر من شهر رمضان–[٢٣٨] جاءه جبريل عليه السلام

فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢٣٩]

وبهذا الأمر الإلهي بدأ نزول القرآن الكريم على الرَّسول ﷺ حيث يُعدُّ أعظم لطف من الله تعالى لكلِّ البشرية. وقد كانت هذه الآيات الكريمة هي أوَّل ما يتلقاه النبيُّ ﷺ من القرآن المبين الذي ابتدأ نزوله من أبواب السماء؛ ليكونَ رحمة وشفاء للعالمين، ولما غادر جبريل عليه السلام صار فؤاد الرَّسول ﷺ يرجفُ من خشية الوحي وشدته.

فرجع رسول الله ﷺ بهذه الآيات يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «**زملوني زملوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر:

«لقد خشيت على نفسي»

---

٢٣٨ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٩٤.

٢٣٩ العلق: ١–٥.

فقالت خديجة ﵂: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»

إن لسان حال أمِّ المؤمنين ﵂ كأنه كان يقول: فما عسى أن يكون مقابلَ الخير والإحسان إلا خيرٌ وإحسانٌ مثلُه! حيث إنَّها قدرت بأن الماضيَ النقيَ والطاهر للنبيِّ ﷺ، لا بدَّ أن يكون تبشيراً له بمستقبل مشرق ومنير، ويقول الله تعالى بشأن هذه الحقيقة:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [٢٤٠]

وبعد ذلك انطلقت خديجة ﵂ بالرَّسول ﷺ حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك،فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. [٢٤١]

وبعد ذلك بدأت تنزل الآيات الكريمة تباعاً على النبيِّ ﷺ خطاباً من الله تعالى لرسوله الكريم وتثبيتا له، والتي منها:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢٤٢]

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ [٢٤٣]

---

٢٤٠ الرحمن: ٦٠.

٢٤١ البخاري: بدء الوحي، ١، الأنبياء، ٢١، التفسير، ٩٦؛ مسلم: الإيمان، ٢٥٢/ ١٦٠.

٢٤٢ الشورى: ٥٢.

٢٤٣ النساء: ١٦٣.

لقد فسَّرَ أرباب القلوب كلمة «**اقرأ**» – باعتبارها أوَّل ما نزل من الوحي على النبيِّ ﷺ – بما يلي:

«**اقرأ**، يعني اقرأ كلَّ شيء، أي: اقرأ كتابَ الله، اقرأ آياتِ الله، اقرأ كتاب الكائنات، اقرأ على الدوام، اقرأ لكي تبلغ الهداية، وتبتعد عن الضلالات، اقرأ من أجل أن يتكاملَ إيمانُك، اقرأ باسم الله، اقرأ باسم ربك الخالق، اقرأ باسم ربك الأعلى الذي خلق الإنسان من علق، ولكن أعطاه القدرة على قراءة كل شيء، وتوضيحه وشرحه وفهمه، اقرأ باسم الله الذي أحسن إلى الإنسان بنعمة القراءة ليريَه لطفَه الأعظم، اقرأ من أجل التعلم، اقرأ كل سَطر في هذا العالم الذي خطَّته يد القدرة، اقرأ باسم الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم**!**».

وقد وصف مولانا جلال الدين الرومي نفسَه حين كان في مراحل القراءة، حيث أطلق على نفسه في مرحلة قراءة الكتب الظاهرية تسمية «كنتُ مادة خام»، وفي مرحلة قراءة أسرار الكائنات يصف نفسه فيقول: «**نضجت**»، وأما في المرحلة التي يقرأ فيها الأسرار الإلهيَّة وكأنه يكتوي بلهيبها فيقول عن نفسه: «**احترقت**».

إنَّ الأمر «**اقرأ**» الوارد في الآية الكريمة في غاية الأهمِّية، ولكن ضرورة أن تكون هذه القراءة «باسم الله تعالى» تحملُ أهمِّيةً بالمستوى نفسِه؛ لأنها تبيِّنُ الصورةَ التي ينبغي أن تكون عليها القراءة عند تنفيذ أمر «القراءة»، فالقراءةُ والكيفيةُ متساويتان في الأهمِّية.

وإنَّ الأمر «**اقرأ**» ليس أمراً بقراءة ظاهرية فحسب، وإنما هو أمرٌ بتحوُّلِ القلب إلى حالة صالحة لتلقي الحكمة والكتاب نتيجةَ التزكية الروحية، ويُقصَد بهذا القدرةُ على قراءة كلِّ شيء بالقلب الذي أصبح محلَّ انعكاسٍ للتجلِّيات؛ أي: أن تتحوَّلَ الكائناتُ إلى كتاب، ويتمكَّن القلبُ من تقليب صفحات الكائنات؛ ليقرأ فيها الحِكمَ والأسرارَ الإلهيَّة، فهذه القراءة إذن هي قراءةُ الإنسان للكائنات، ولنفسه، وللقرآن الكريم، وإدراكُ ذلك ومعايشتهُ.

ويمكن أيضاً استخراج النتائج الآتية من هذه الآيات التي تُعدُّ أوَّلَ ما نزل من القرآن الكريم:

- وجوب بدء كلِّ عمل باسم الله تعالى.
- وجوب عدم نسيان الإنسان – الذي خُلق من علق ومن ثم رُكِّبَ في أحسن صورة – عجزَه وانعدامه أمام القدرة الإلهيَّة العظيمة.

إن الآيتين الآتيتين:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٢٤٤

تبيِّنان للإنسان الأهمِّيَةَ الكبيرة للعلم، وفي الوقت ذاته تبيِّنان أنَّ علمَ الإنسان بكلِّ شيء إنما تمَّ بتعليم من الحقِّ ﷻ مشيرتين بذلك إلى عظيم لطفِ الله ﷻ بالإنسان إذ علَّمه ما لم يعلم. ولذلك ينبغي على ابن آدم تذكُّر عظمة ربه وجلاله على الدوام، وعليه ألا يجحدَ واسعَ نعم الله عليه أبداً.

وبعد النزول الأوَّل انقطع الوحيُ عن النبي ﷺ مدَّةً من الزمن، وإنما كان هذا الانقطاع من أجل تحضير النبي ﷺ بالشَّكلِ الأمثل ليكون مستعدّاً لتلقي الوحي الذي سيتتابع في الفترة اللاحقة؛ لأنَّ تلقي الوحي مهمة خطيرة وعظيمة، ولذلك ليس من الممكن النهوض بها بسهولة، ويبيِّنُ الله تعالى هذه الحقيقة في قوله:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلا﴾ ٢٤٥

ولما رأى الرَّسول ﷺ ملكَ الوحي وجهاً لوجه بشكل مفاجئ بعد الرُّؤيا الصادقة أصابه الذهولُ والفزع من هَولِ ما رآه، واستعاد اطمئنان وهدوء قلبه من خلال العزاء الذي وجده عند خديجة ﵂، وتأييد وتسكين ورقة بن نوفل له، وأصبح في حالة رغبة شديدة وشوق لا يوصف للوحي من جديد، وكأنه بدأ ينفد صبره من انتظار عودته، وكان يخرج بين الحين والآخر إلى غار حراء حيث المكان الذي نزل فيه الوحي الأوَّل، وينتظر نزول الوحي الإلهي مرة ثانية.

وكانت أمَّ المؤمنين خديجة ﵂ هي أكثر من وقف بجانبه وسانده في فترة الانقطاع هذه، ولهذا السبب لم ينسَ النبيُّ ﷺ في يوم من الأيام عمقَ روحها ورقَّتها ولطفها معه، وبعد وفاة السيِّدة خديجة ﵂ لم يكن النبي ﷺ يذبح أضحية إلا ويرسل بجزءٍ من لحمها إلى أقربائها، إنها ذكرى عزيزة للرسول ﷺ من كلِّ الجوانب، ولا يمكن أن تُمحى من الذاكرة أبداً.

---

٢٤٤ العلق: ٤- ٥.

٢٤٥ المزمل: ٥.

إن حياة النبي ﷺ مليئةٌ بالتجلِّيات المشرِّفةِ التي تفوق الخيال والتي لم تكن من نصيب أيٍّ من الأنبياء والرسل السابقين، فقد خاطبه الله ﷻ وحدَه دون غيره باسمه الشريف دلالة على محبته وخلته له، وكان المعراج من نصيبه وحدَه دون غيره من الأنبياء.

وقد ثبت رجحانه وتفضيله على غيره بإمامته لكلِّ الأنبياء في المسجد الأقصى، وإن السرَّ الذي كان في موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾، تجلَّى في النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بقوله تعالى: ﴿ **قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ .[٢٤٦]

---

٢٤٦ إن قول الله تعالى: «**لَنْ تَرَانِي**» (الأعراف: ١٤٣) يُعدُّ إحدى الصفحات التحضيرية لموسى عليه السلام من التكلم مع الله تعالى في طور سيناء، حيث أُمر بصيام ثلاثين يوم وأضيفت إليها عشرة أيام أخرى لتصبح المدة أربعين يوماً، إن هذه الحال كانت عملية تحضيرية لتجهيزه من أجل التكلم مع الله تعالى عن طريق تجريده من الحياة والرغبات النفسية، لم يتكلم الله ﷻ مع موسى عليه السلام باللسان أو بالصوت ولا بأية وسيلة مادية مشابهة لهما، وإنما كلمه بصفة الكلام التي في الأزل، ولم يسمع الكلام لا الأشخاص الخمسون الذين جيء بهم لكي يكونوا شهداء على الحادثة ولا جبريل عليه السلام، وحتى لم يشعروا به، لقد غاب موسى عليه السلام عن نفسه تجاه هذه التجليات الإلهية، حيث نسي نفسه ؛ أهو في الدُّنيا أم في الآخرة، وخرج عن حدود الزمان والمكان، وقد استيقظت في نفسه رغبة شديدة نتيجة شوقه لرؤية الذات الإلهية، ووجده، وسموه، ومقابل ذلك فقد تجلى القرار الإلهي بقوله عز وجل: «**لَنْ تَرَانِي**»، ولما تابع موسى عليه السلام إصراره بشكل لا إرادي من أجل رؤية الذات الإلهية، أمره الله تعالى بالنظر إلى الجبل، فإن بقي الجبل مستقراً في مكانه عندها يمكنه مشاهدة الذات الإلهية، وحسب الروايات أنه عندما انعكس نورٌ من الله تعالى من وراء حجب كثيرة لا حصرَ لها على الجبل، انفلق الجبل ولم يتحمَّل قوة ذاك النور، وأغمي على موسى عليه السلام لما رأى هذا المشهد العجيب والمهيب، ولما استعاد وعيه علم أنه تجاوز حدوده مع الله تعالى، فأخذ يسبح ربه ويكثر من الاستغفار.

يمكن أن نستخلص من هذه القصة القرآنية النتائج الآتية: لا وجودَ لمكان في هذا الكون الفسيح يمكنه تحمل تجلي الذات الإلهية، وإن هذه الكيفية (الحقيقة) ثابتة بتصدع الجبل وعدم تحمله لتجلٍّ بسيط لم يبلغ مقدار جزء من الذرة، إن الحق سبحانه وتعالى الغائب من جهة الذات مشهود من حيث تجليات الصفات، ولهذا السبب فقد عدَّد البيان الإلهي صفات المؤمنين في مواضع عدة، وورد من ضمن هذه الصفات «**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**»، وأما الحقيقة الأخرى فهي عدم قدرة إدراك الإنسان على تحمل تلقي تجلي الذات الإلهية، وهذه الكيفية (الحقيقة) ثابتة بسقوط موسى عليه السلام وغيابه عن الوعي، ووفقاً لهذا فلا وجود لتجلي الذات الإلهية في عالمنا هذا، وهذه الحقيقة هي بسبب قصور إدراك الإنس والجن، إلى جانب شدة وقع ظهور تجلي الذات الإلهية.إن «**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**» (النجم: ٩) دلالةٌ على مرور النبيِّ ﷺ إلى ما بعد سدرة المنتهى في ليلة المعراج، هذا المكان الذي لم يتجاوز حدوده على الإطلاق أيٌّ من المخلوقات بما فيهم جبريل عليه السلام، إن آية «**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**» بيَّنت وقوع وصل سرّي ومحال على تصور العباد، وقرَّبت الأمر إلى إدراك البشر بطريقة تحديد المسافة.إن هذين التجليين العظيمين واللذين حصلا في حق موسى عليه السلام ونبينا الكريم ﷺ عبارة عن بيان منزلة حسب مستوى إدراكنا.

لقد أُكرِمت الأُمَّةُ بالصَّلاة التي هي لحظة الوصل مع الله تعالى لتكون كمعراج يستقرُّ في إقليم القَلوب، وأوَّلُ ما فُرضت الصَّلاة كانت خمسين صلاة، ولكنها خُفِّفت – نتيجةً لتضرُّعِ النبي ﷺ وتوسله إلى المولى ﷻ – إلى خمس صلوات.

إن النبيَّ اليتيمَ والأُميَّ عليه الصَّلاة والسَّلام جاء بالتعليم والتربية الإلهيَّة؛ ليكون إماماً للبشرية، ومترجماً لحقائق عالم الغيب، ومرشداً لمدرسة الحقيقة، كما يقول ضياء باشا:

حبيبُ الله تلميــــذٌ لمدرسةِ الهُداةِ يسيرْ
وربُّ العرش أستاذٌ يَمـــــدُّ فؤادَه بالنُّورْ

لقد جاء سيِّدنا موسى ﵇ بمجموعة من الأحكام التشريعية، وكان سيِّدنا داوود ﵇ لا يُعلى عليه في مجال الدُّعاء والتغني بالمناجاة، وأُرسل سيِّدنا عيسى ﵇ لكي يعلم الإنسان مكارم الأخلاق، والزهد بالدُّنيا والاستغناء عنها، وأما نبيُّ الإسلام محمَّدٌ ﷺ فقد جاء بكلِّ هذه الأمور مجتمعة، إذ إنَّه جاء بالأحكام التشريعية، وعلَّم الناس تزكية النفس، والدعاء إلى الله تعالى بقلب نقي سليم ومنيب، وعلَّم الناس مكارم الأخلاق، وجسَّد حسن الأخلاق بسلوكه العملي؛ ليكون بذلك مثلاً أعلى للبشرية جمعاء، ووصَّى الإنسان بعدمِ الانخداع ببريق الدُّنيا الخادعة، وباختصار لقد جمع في شخصه وسلوكه كلَّ صلاحياتِ ووظائف الأنبياء والرسل السابقين، حيث اجتمعت فيه كلٌّ من أصالة النسب والأدب، وسعادة الجمال والكمال.

لا ريب أنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ افتتحَ بدخوله سنَّ الأربعين عصراً جديداً من عصور التاريخ البشري، حيث عاش أربعين سنة في مجتمع غارق في ظلمات الجهل، وإن المحاسن التي جاء بها فيما بعد كانت في أغلبها مجهولةً من قبل المجتمع، حيث لم يكن يُعرَف في هذا المجتمع شيءٌ من أمور قيادات المجتمع مثل رجل الدولة، أو الواعظ، وعندما نريد أن نشبِّه النبيَّ بضابط كبير لابدَّ أن ننبِّه على أنَّ المجتمع العربي الذي عاش فيه النبي ﷺ لم يكن فيه جندي نظامي واحد.

لم يكن النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قد سمع شيئاً – مما ذكره لنا فيما بعد – عن الأمم السابقة، أو عن يوم القيامة، أو عن الجنة والنار، وإنما كان يتابع حياةً نزيهةً ونقيةً ملتزماً بالأخلاق الرفيعة المنحصرة في شخصه فقط، ولكنَّه تغيَّر تماماً عندما رجع بالتعليمات الإلهيَّة التي تلقَّاها في غار حراء.

حقيقةُ الوحي، وصُور مجيئِه

يأتي الوحيُ لغةً بمعاني كثيرة ومختلفة مثل: الإشارة الخاطفة، والكتابة، والرسالة، والإلهام والخطاب السِّرِّي... إلخ. واصطلاحاً هو: إعلامُ الله تعالى رسولاً من رسله أو نبياً من أنبيائه بالأشياء التي يريدها، وبالطريقة التي يشاؤها، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٢٤٧]

وتروي أمُّ المؤمنين السيِّدةُ عائشةُ ﵂، حيث تقول:

أن الحارث بن هشام ﵁ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»

قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.[٢٤٨]

وقد أثبت العلماء المسلمون أشكالاً لمجيء الوحي من خلال الروايات المختلفة، وهي:

١. يأتي الوحي أحياناً على شكل الرُّؤيا الصادقة، وهي تحقُقُ الأمور التي تُرى في المنام على أرض الواقع كما رُئِيت.

٢. الوحي بالكلام، وهو إلقاء الأمر في قلب النبي ﷺ من قبل الملك دون أن يبصره.

٣. عن طريق ملك الوحي، كما في «حديث جبريل ﵇» [٢٤٩]، حيث يأتي بصورة إنسان، ويُعلِمُه بالشيء الموحى به.

---

٢٤٧ الشورى: ٥١.

٢٤٨ البخاري: بدء الوحي، ١/ ٢؛ مسلم: فضائل، ٨٧/ ٢٣٣٣.

٢٤٩ حيث كان النبيُّ ﷺ ذات يوم في المسجد وجاءه جبريل ﵇ على صورة رجل وسأله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلامات يوم القيامة، وأراد بذلك أن يعلم الصحابة الكرام أمور دينهم، وأطلق على الحديث الذي بيَّنَ هذه الواقعة اسم (حديث جبريل ﵇). (البخاري: الإيمان، ٣٧؛ مسلم: الإيمان، ١، ٥).

وإن الرواية التي ينقلها لنا عبد الله بن عباس ﷺ تشكِّل خير مثال عن حدوث الوحي بالشَّكلِ الذي بيَّناه آنفاً، حيث يقول:

كنت مع أبي عند النبي ﷺ، وعنده رجل يناجيه -قال عفان: وهو كالمعرض عن العباس- فخرجنا من عنده، فقال:

ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟

فقلت: إنه كان عنده رجل يناجيه – قال عفان: فقال: أو كان عنده أحد؟ قلت: نعم –

قال: فرجع إليه فقال: يا رسول الله، هل كان عندك أحد؟ فإن عبد الله أخبرني أن عندك رجلا تناجيه. قال:

«**هل رأيته يا عبد الله**» قال: نعم. قال: «**ذاك جبريل، وهو الذي شغلني عنك**»[٢٥٠]

٤. كان الوحي يأتي أحياناً مثل صلصلة الجرس القوية، وعندما تنتهي حالة الوحي يكون النبيُّ ﷺ قد وعى تماماً كلَّ ما تكلَّم به الملك.

٥. لقد جاء جبريلُ ﵇ بالوحي مرتين على هيئته الأصلية، وقد حصلت المرة الأولى لدى نزول النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام من غار حراء عقب فترة انقطاع الوحي، وأما المرة الثانية فقد حدثت في ليلة المعراج عند سدرة المنتهى.

٦. أحياناً كان الله تعالى يوحي إلى النبي ﷺ مباشرة من غير ملك الوحي، وذلك تكريماً وتعظيماً لشأنه عند الله ﷻ.

٧. إتيان جبريل ﵇ بالوحي عندما يكون النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في حالة النوم، ويقول بعض المفسرين: إنَّ سورة الكوثر نزلت بهذا الشكل.

وحسب بعض الروايات الواردة عن بعض الصحابة الكرام أنَّ النبيَّ ﷺ كانت تعترضه حالات من الضيق والتأثر الشديد خلال نزول الوحي عليه، فكان وجهه يتورَّد، حتى يكون خداه مثل زهرة، ويغلق عينيه، ويميل برأسه إلى الأمام، وكان الصحابة يطرقون رؤوسهم، فلا يرفعون أبصارهم إلى جمال فخر الكائنات سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام حتى انتهاء حالة الوحي.

---

٢٥٠ أحمد: مسند، ٥، ٤٥/ ٢٨٤٧؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩، ٢٧٧/ ١٥٥٢٠.

وفي بعض الأحيان كان يُسمع صوت مثل دوي النحل قرب الوجه خلال نزول الوحي، وخلال ذلك كانت تزداد سرعة تنفُّس النبيِّ ﷺ، وكان في هذه الحالات يتصبب جبينه الشريف عرقاً حتى في أشد الأيام برداً.[٢٥١]

ووفقاً لما يرويه زيد بن ثابت [٢٥٢] وهو أحد كُتَّاب الوحي بأنَّ ثقل الوحي النازل على النبي ﷺ يكون متناسباً مع ثقل الأحكام التي يتضمَّنُها الوحي بمعنى: أنَّ الوحي الإلهي إذا كان يتضمَّنُ وعداً أو بُشرى فإنَّ جبريل عليه السلام يأتي بصورة بشرية، ولا يشكِّلُ على النبي ﷺ تأثيراً شديداً، وأما عندما يأتي الوحي الإلهي بوعيد أو تحذيرٍ من عذاب فإنه كان يأتي على شكل صلصلة جرس شديدة تصمُّ الآذان.

وعندما كان الوحيُ ينزل على النبي ﷺ وهو على ظهر الناقة لم تكن الناقة تتحمَّل ثقل الوحي، فكانت أرجلُها ترتعد وتبرك على الأرض، ولما نزلت الآية الثالثة من سورة النِّساء على الرَّسول ﷺ وهو على ظهر ناقته العضباء، كادت أرجل الناقة أن تنكسر من شدة ثقل الوحي، فنزل النبيُّ ﷺ عن ظهرها رحمةً بها أو إشفاقاً عليها. [٢٥٣]

يقول زيد ثابت رضي الله عنه:

«كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ [النساء: ٩٥]. قال: فجاء ابن أم مكتوم وأنا أكتبها، فقال: يا رسول الله، قد ترى ما بعيني من الضرر ولو أستطيع الجهاد لجاهدت. قال زيد بن ثابت: فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى همت أن ترضها» [٢٥٤]

---

٢٥١ انظر: البخاري: بدء الوحي، ١/ ٢، العمرة، ١٠؛ مسلم: الفضائل، ٨٧؛ الترمذي: التفسير، ٢٣/ ٣١٧٣؛ أحمد: مسند، ٥، ٣٢٧.

٢٥٢ زيد بن ثابت رضي الله عنه: هو أحد كُتّاب الوحي، وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان زيد غلاماً يتيماً في العام الحادي عشر من عمره، وحفظ في صغره سبع عشرة سورة من القرآن الكريم، وقد أمره النبي ﷺ بتعلم اللغة السريانية والعبرية، فلم يمض أربعون يوماً إلا وكان قد حفظ اللغتين وتولى كتابة مراسلات الرَّسول ﷺ باللغتين السريانية والعبرية، ومن أهم وأشرف الخدمات التي قدَّمها زيد بن ثابت رضي الله عنه هو جمع القرآن الكريم في مصحف واحد بالتعاون مع صحابيين آخرين، وتوفي رضي الله عنه في المدينة المنورة سنة / ٤٥/ للهجرة، وروى عن النبي ﷺ اثنين وتسعين حديثاً.

٢٥٣ أحمد: مسند، ٢، ١٧٦، ٦، ٤٤٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٩٧؛ الطبري: التفسير، ٦، ١٠٦.

٢٥٤ أحمد: مسند، ٥، ١٩٠– ١٩١.

لقد جاء المستشرقون المنكرون لكون القرآن الكريم كتاباً إلهياً بادعاءات باطلة عدة، وأوردوا حججاً واهيةً لإثبات دعواهم، وذلك من قبيل ادعائهم بأن القرآن الكريم ما هو إلى بعض الإلهامات التي تولَّدت في قلب النبي ﷺ نتيجة التأمل الطويل والمكاشفات النفسية، وفي الحقيقة لا يمكن تفسير مثل هذه الادعاءات سوى بالعصبية المقيتة التي تلف قلوب أصحابها، وبقصور إدراكهم، وبالخصومة العمياء التي يكنُّونها لهذا الدين الحنيف.

إن خوفَ النبيِّ ﷺ وفزعَه من رؤية الملك عند نزول الوحي أوَّلَ مرة يدحض بشكلٍ واضح ادعاء المستشرقين بأن الأمر مجرَّدُ هلوساتٍ حدثت مع النبي ﷺ، ويثبت أن الوحي ليس مسألة نفسية أو شخصية عابرة؛ لأنَّ تلقي النبي ﷺ للوحي ليس أمراً متعلِّقاً بالنفس والخيال، وإنما هو تلقٍ لحقيقة خارجية، وإن ضمَّ جبريل ﷺ للرسول ﷺ ثلاث مرات، وتركَه في كلِّ مرة، ثم توجيهَ الأمر له بقول «**اقرأ**»؛ ما هو إلا تأكيد وتأييد لنزول الوحي من جهة خارجية؛ أي: من عند الله ﷻ، وليس إحساساً أو تخيُّلاً داخلياً.

وكذلك كان انقطاع الوحي عن النبي ﷺ مدَّةً من الزمن ردّاً حاسماً على ادعاءات هؤلاء المستشرقين بأنَّ «الوحي ما هو إلا حادثة نابعة من عوالم الروح الداخلية نتيجة التفكر والتأمل العميق الذي كان يقوم به الرَّسول ﷺ»؛ لأن انقطاعَ الوحي مدة من الزمن وانتظارَ النبي ﷺ عودته بشوق لمدة طويلة يُظهرُ أنَّ الوحيَ أمرٌ خارجيٌّ يأتي دون إرادة الرَّسول ﷺ.

ويضاف إلى ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يعلم شيئاً عن نزول الوحي ومجيئه في أوَّل الأمر؛ حيثُ يقولُ الله تعالى في هذه الشأن:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾[٢٥٥]

ومن الأدلة القاطعة على أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزله بالوحي على قلب النبيِّ ﷺ ذلك الفرقُ الظاهر بجلاء ووضوح في الأسلوب بينه وبين الأحاديث الشَّريفة.

كان النبيُّ ﷺ يُسأل في أحيانَ كثيرةٍ عن مسائلَ لا يعلم عنها شيئاً، وعلى الرغم من حاجته الماسة إلى الإجابة عليها إلا أن الوحي كان يتأخَّر بالنزول، وأبرز مثال على ذلك «**حادثة الإفك**»، وبعض الأسئلة التي كان اليهود يوجِّهونها إليه، ولم يكن باستطاعة الرَّسول ﷺ الإجابةُ على مثل هذه الأسئلة إلا بما يُعلِمه به الوحي، وهذا الأمر ثابت في

---

٢٥٥ القصص: ٨٦.

التاريخ؛ فلو كان القرآن الكريم هو ثمرة لتفكر النبي ﷺ ومكاشفاته الروحية كما يُدَّعى، لاستوجبَ الأمر عدم تعرضُّه للحرج والضيق نتيجةَ وقوفه حائراً تجاه الأسئلة الموجَّهة إليه، ولأجابَ عنها فورَ توجيهها إليه دون انتظار شيء.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ الوحيَ في بعض الأحيان كان ينزل تصحيحاً لرأي النبيِّ ﷺ في مسألة ما، ويبيِّن له وجهَ الخطأ في الأمر، وكان يأمره أيضاً بأمور لا يرغب بها ولا يميل إليها، حتَّى إنَّه لو نسيَ تبليغ شيءٍ بسيط من الأوامر الإلهيَّة أو قصَّرَ فيه فإنه كان يتعرَّضُ لعتاب إلهي شديد؛ وكل هذه الأمور تثبت بصورة واضحة لا لبس فيها كذبَ الادعاءات القائلة بأنَّ «القرآن الكريم إنما هو ثمرةٌ لتفكُّرِ النبيِّ ﷺ ومكاشفاته الروحية»، وتؤكِّدُ عدم منطقيتها.

وقد كان النبيُّ ﷺ منهمكاً ذات يوم في دعوة بعض وجهاء قريش إلى الإسلام وببيان حقائقه ومبادئه لهم، وفي أثناء ذلك جاءه أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو الصحابي الأعمى عبد الله بن أمِّ مكتوم، وأراد عن يسأل عن شيء من أمر دينه؛ ولكن النبيَّ ﷺ لم يلتفت إليه، وبقيَ منشغلاً بمحاورة وجهاء قريش ومحاولة هدايتهم إلى الإسلام، ولكن ابن أم مكتوم ألحَّ على النبيِّ ﷺ، فعبس قليلاً، فتعرَّض بذلك إلى العتاب الإلهي، فقال الله تعالى:

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٢٥٦]

وبعد نزول هذه الآيات كان النبيُّ ﷺ يهتمُّ بابن أم مكتوم، ويكرمه كثيراً، وكان كلما صادفه في طريقه يقول له:

«مرحباً بمَن عاتبني فيه ربِّي»[٢٥٧]

كانت الأوامر الإلهيَّة في بعض الأحيان تنزل على النبيِّ ﷺ بصورة مُجمَلة،[٢٥٨] ولم يكن الرَّسول عليه الصلاة والسلام يبيِّن الآيات المجملة من تلقاء نفسه، وإنَّما ينتظر نزول بيان مقاصدها من الله ﷻ، ونورد الآية الآتية كمثال على هذا الأمر، حيثُ يقولُ الله تعالى:

---

٢٥٦ عبس: ٥– ١٢.

٢٥٧ الواحدي: أسباب النزول، ١، ٤٤٩.

٢٥٨ العبارت المجملة: هي العبارات التي لا يفهم معناها تماماً؛ لأنَّنها موجزة ومبهمة.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾ [٢٥٩]

عندما نزلت هذه الآية الكريمة، ظنَّ الصحابة الكرام أنَّهم سوف يُسألون ويُحاسبون على الأمور التي تخطر في بالهم دونما إرادة منهم، وقالوا للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ:

«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» [٢٦٠]

ولأن معنى الآية الكريمة جاء مجملاً توقَّف النبيُّ ﷺ فيها، ولم يكن عنده ما يزيل الإشكالَ، فطلب من الصحابة الكرام تسليمَ الأمر لله تعالى والتوكُّلَ عليه، وبعد فترة نزلت الآية الكريمة الآتية، وبيَّنتِ المعنى المبهمَ للآية السابقة، حيث قال الله ﷻ:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٦١]

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ فهم الصحابةُ الكرامُ أنَّهم لن يُسألوا عن الخواطر التي تعرضُ في قلوبهم بلا إرادة منهم، وأنَّهم إنما يُسألون عما لهم فيه يدٌ، أو عندهم عليه طاقة.

إذاً، إن توقُّفَ النبيِّ ﷺ عن بيان الآية المجملة وانتظارَه نزولَ آية مفسِّرةٍ وشارحة لها يشكّلُ دليلاً آخر على حقيقة النُّبوَّة، وحقيقةِ الوحي، وأنَّه ليس بشريَّ المصدر، وإنَّما هو من مصدر إلهي، ولو كان القرآنُ من كلامه ﷺ لما جاء فيه بمثل هذا الكلام المجمل، ولكان قادراً على إيضاحه من عنده دون انتظار بيان من غيره، وإن عدم حصول هذا الأمر هو مؤشِّرٌ آخرُ على إعجاز القرآن الكريم.

---

٢٥٩ البقرة: ٢٨٤.

٢٦٠ مسلم: الإيمان، ١٩٩/ ١٢٥، ٢٠٠/ ١٢٦؛ أحمد: مسند، ١، ٢٣٣/ ٩٣٤٤.

٢٦١ البقرة: ٢٨٦.

وممَّا يشكّلُ دليلاً واضحاً على المصدر الإلهي للقرآن الكريم ما أورده من الأخبار الغيبية.

إن القرآن الكريم يحتوي على المعلومات التاريخية المتعلقة بالأمم والأحداث الموغلة في القدم، حيث يوردها بشكل مطابق للحقيقة، ولم يكن في مكَّة خلال القرن السابع للميلاد أيَّةُ مؤسسة علمية أو حتى فرد واحد يمتلك شيئاً من الثقافة العامَّة ولا لديه تلك المعلومات التي تحدَّث عنها القرآن الكريم، وإن كلَّ المعلومات التاريخية المتداولة في ذلك الوقت لم تكن تتعدَّى بعض الحكايات المحلية المليئة بالتناقضات والخرافات التي تحوَّلت إلى نوع من الأساطير والتي كان يرويها التجار؛ في حين أن المعلومات المتعلقة بالأحداث الماضية التي أوردها القرآن الكريم كانت متناسقة وكلية، حيث لم تكن من قبيل المعلومات التي يمكن الإتيان بها من قبل أي شخص من البشر مهما كان يتمتع بمستوى عقلي متميز وفراسة قوية.

ثم ينبغي على الإنسان إمعان فكره في الأمر الآتي: هل يمكن لإنسان أميٍّ وُلِدَ وترعرعَ في مجتمع غارق في ظلمات الجهل أن يكون مصدراً لكلِّ الأخبار والمعلومات الواردة في القرآن، إلا إذا كانت تلك المعلومات منبثقة من مصدر إلهي؟ بالطبع لا يمكن.

وهذا يدلُّ على أن كل ما أخبر به النبيُّ ﷺ إنما كان بوحي من الله تعالى.

ويُضاف إلى ذلكَ أنَّ القرآن الكريم قد أورد أخباراً غيبيةً متعلقة بالمستقبل، وقد وقعت بعضُ هذه الإخبارات كما أخبر بها القرآن الكريم، ومازال بعضها يقع إلى يومنا هذا، وإن القرآن الكريم سبّاق دائماً في شتى مجالات العلوم والمعارف، وأما تلك العلوم والمعارف فإنما تتبع القرآن الكريم فيما أخبر به.

وإن الحادثة المذكورة في القرآن الكريم التي سوف نوردها فيما يأتي ما هي إلا واحدة من الأمثلة الكثيرة على ما ذكرنا: ألا وهي أن فرعون عندما أراد التمسُّكَ بحبل الإيمان من أجل إنقاذ نفسه لما أشرف على الغرق بين أمواج البحر الأحمر المتلاطمة، قال له المولى:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٢٦٢]

أي: يا فرعون، إنك كنت من المفسدين والمستكبرين عندما كنت سليماً في برِّ الأمان، ولما أحدقت بك الأخطارُ والبلايا أعلنت إيمانك لتنقذَ نفسك! ولكن هيهات أن ينفعك

---

٢٦٢ يونس: ٩١.

إيمانك وأنت في هذه الحال! فلم يقبل الله تعالى إيمانَه الذي أعلنه في حالة اليأس والغرغرة، وتابع خطابه له:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [٢٦٣]

يقول الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة:

سوف نلقيك في مكان على شاطئ هذا البحر، وسوف نجعل جسدَك عبرةً لمن يأتي بعدك من الأمم والشعوب، بأن نحفظَه كاملاً من غير نقص أو تلفٍ، وعارياً عن الثياب. [٢٦٤]

وخلال الأبحاث والتنقيبات التي أُجريت في السنوات الأخيرة عُثر على جسد فرعون وهو منحنٍ على شكل السجود في مكان على شاطئ البحر، وهذه الوضعية هي اللحظة الأخيرة التي سبقت موته، لقد أراد الإيمانَ في اللحظات الأخيرة لما رآه من هول المشاهد التي وقعت أمام عينيه، ولكن لم يُقبل منه إيمانُه؛ لحصوله في حالة اليأس والغرغرة؛ فالجسد الذي بقي على تلك الوضعية لمدة تقارب ثلاثة آلاف عام، محافظاً على شكله من غير تلفٍ كما أخبر القرآن الكريم قد عُثِرَ عليه في هذا العصر؛ ليكون عبرةً للإنسانية جمعاء، ويُعرَض هذا الجسدُ في الوقت الحاضر في متحف في بريطانيا، وهذه الحقيقة ما هي إلا إحدى المعجزات التي أعلمنا بها الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، والتي ستستمر إلى يوم القيامة.

إلا أنَّ غايةَ القرآن الكريم الأساسيةَ هي هداية الناس إلى التَّوحيد، وما هذا النوع من الحقائق المعجزة - أي: المعجزات العلمية، والتاريخية - إلا أشياء جانبية تأتي في الترتيب الأخير في كتاب الله، ويجب ألا ننسى: أنَّ كلَّ أنواع الحقائق مكتنزة في القرآن الكريم بحسب البيان الإلهي، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٢٦٥]

ووفقاً لهذا فإن القرآن الكريم يُعتبر منظومةً كاملةً لكلِّ الحقائق التي في الكائنات، وكلُّ الحقائق موجودةٌ فيه على شكل نواة منفردة، وبما أن طبيعة القرآن الكريم تستوجب

---

٢٦٣ يونس: ٩٢.

٢٦٤ انظر الزمخشري: ٣، ٢٤.

٢٦٥ الأنعام: ٥٩.

الإيجاز في مثل هذه الأمور، فيمكن فهم الأحداث والحقائق وتوضيحها وتطويرها حسب تقدُّمِ العلوم البشرية.

إذ لو أنَّ هذه المعلوماتِ والحقائقَ التي هي من سنة الله المكتنفة في الكائنات وردت في القرآن الكريم بتفاصيلها ودقائقها دون إجمال وإيجاز، لوصل القرآن الكريم إلى حجم ملأ المكتبات بأجزائه ومجلداته؛ إضافةً إلى أنَّ الإنسان لا يتقبَّلُ المعلومات أو الأشياءَ التي لم يكتشفها أو يتثبَّت منها بنفسه، ولو جاء بها القرآن دون أن يكتشفها الإنسان لما استمرَّ الإيمان به إلى يوم القيامة، ونورد على ذلك مثالاً؛ حقيقة التلفاز، فلو تحدَّث القرآن الكريم وقت نزوله عن التلفاز بالشَّكلِ الذي نعرفه اليوم لما عقله أولئك القوم الذين لم يكتشفوه بأنفسهم، ولم يروه بعيونهم، ولم يلمسوه بأيديهم، وبناءً على ذلك لكانوا ردُّوا القرآن الكريم ولم يؤمنوا به، وتُعدُّ هذه هي الحكمة من إجمال القرآن الكريم لكثير من الحقائق التي اشتمل عليها، واكتفى بإيرادها مجملة وموجزة.

فالقرآن الكريم يُقدِّم كلَّ المواضيع التي يشتمل عليها بهدف تحقيق التَّوحيد، وتناولُه للحقائق العلمية هو من جملة هذه المواضيع، وبهذه الكيفية يصبح القرآن الكريم قادراً على الاستمرار في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة، ويثبت قدسيَّتَه في كلِّ وقت يتمُّ فيه اكتشاف شيءٍ قد تناوله مسبقاً بصورة مجملة.

إن بعض المستشرقين الذين يحملون في قلوبهم حقداً دفيناً تجاه القرآن الكريم والنبيِّ ﷺ ولا يقبلون بجلالة شأنهما، يخرجون بادِّعاءات وتوصيفات بحقِّ النبي ﷺ لا أصلَ لها من الصحة، ولا يقبل بها العقل والمنطق، ومن تلك الادعاءات دعوى بأن الحالة التي كانت تنتابُ النبي ﷺ خلال نزول الوحي ما هي إلا «نوبةٌ من الصَّرَع» [٢٦٦]

٢٦٦ لقد اعتبر بعض المستشرقين الأحوال والمظاهر المختلفة التي فصَّلناها سابقاً والتي كانت تبدو على النبي ﷺ بسبب نزول الوحي عليه نوعاً من «نوبة الصرع»، وفتحوا بذلك في هذا المجال الطريق أمام ادعاءات مختلفة، ووصل بهم الأمر في نهاية المطاف إلى أن وصفوا الرَّسول ﷺ بأنه مصاب بالمرض العقلي -حاشى للرسول أن يكون كذلك- ولكي يحصلوا على تصديق لهذه الدعوى من (أكاديمية الطب الوطني الفرنسي) فتحوا بشأن المسألة ما يُفترض بأنها دعوى علمية، فشُكِّلت في هذه الأكاديمية هيئة للنظر في هذه الدعوى، وضمَّت الهيئة خيرة أطباء ذلك الوقت، والتي قامت في عام/ ١٨٤٢/ بالتدقيق في الادعاء المقدم، وخرجت الهيئة بتقرير علمي طويل مفاده: استحالة قَبول هذا الادعاء من أساسه على ضوء الحقائق الطبية الثابتة.

ويمكن إيجاز الردِّ على هذا الادعاء الذي لا أساسَ له من الصحة وفق ما يأتي:

١. إن من يصـــاب بمرض الصرع يشعر بعد انتهاء النوبة بإعياء وألم شديدين، ويتخبَّطُ من القلق والاضطراب بحيث تنقلب حالته النفسية والروحية رأساً على عقب، بينما إذا نظرنا إلى حالة النبيِّ ﷺ في الفترة التي انقطع فيها الوحي بعد أوَّل نزوله نجد بأنه لم يعانِ من مثل تلك الأعراض التي ذكرناها آنفاً، بل على العكس تماماً فقد كان ينتظر عودة الوحي من جديد بكلِّ شوق، ولما عاد الوحي إليه مرة أخرى انتابته مشاعرُ لا حد لها من البهجة والسرور.

٢. إن الحالات التي كانت تنتاب النبيِّ ﷺ أثناء نزول الوحي لـــم تكن تحدث في كل مرة ينزل فيها عليه الوحي، وإنما كان الرَّسول ﷺ في كثير من الأحيان بحالته الطبيعية.

٣. من المعلوم طبيّاً أن من يُصاب بنوبة الصرع تتلاشى لديه ملكة التفكير والإدراك، ولا يعي ما يدور حوله خلال حصول النوبة، فيصبح في حالة من الانعزال العقلي والشعوري التامِّ عن الواقع، أما النبيُّ ﷺ فقد كان يقوم بمهمة تبليغ القرآن الكريم الذي يحتوي على أتمِّ الـمُثُلِ والنماذج العليا في شتى مجالات الحياة مثل الحقوق البشرية، والأخلاق، والعبادات، والقصص، والمواعظ وغيرها من الأمور، وذلك على أكمل وجه.

٤. إن حالة الرَّجفةِ التي تنتاب المصاب بنوبة الصرع لـــم تكن تُلاحظ على النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أثناء نزول الوحي.

٥. إن مريضَ الصرع يتحدَّثُ أثناء النوبة بكلمات وعبارات حمقاء وخالية من المعنى، بينما لم يُشاهد النبيُّ ﷺ في هذه الحالة يتكلم على الإطلاق، وإنما كانت الكلمات التي تخرج من فمه الشَّريف من أفصح وأبلغ ما نطق به إنسان أو سمعه، ولم تحمل إلا المعاني الجليلة السامية.

وإلى جانب ذلك، فمن الثابت طبياً عدم قدرة أيِّ جسمٍ مصابٍ بالصرع على تحمُّلِ نزول ما يزيد عن ستة آلاف آية، وخلال مدة طويلة.

إن هذه الادعاءات المقصودة ما هي إلا نتيجةٌ لعدم القدرة على إدراك حقيقة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وهي لا تستند إلى شيءٍ من المنطق.

النُّبوَّةُ والرسالةُ

لقد تعلَّقت إرادةُ الله تعالى بأن يخاطبَ عباده من خلال أشخاص متميزين اختارهم من بينهم وحمَّلهم وظيفةَ النُّبوَّة، وقد بيَّنَ الله تعالى هذه السُّنة الإلهيَّة في كتابه العزيز، حيث قال:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ...﴾ [٢٦٧]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ [٢٦٨]

لقد كان الله تعالى – منذ فجر الخليقة – يرسل في كل عصر«نبياً» أو «رسولاً» إلى الناس رحمةً بهم.

النُّبوَّة: هي مهمةُ حملِ الرسالة من الله تعالى إلى عباده من أجل تنظيم أمور الدُّنيا والآخرة لذوي العقول من العباد.

الرسول: هو الشخصُ المكلَّفُ بتبليغ ما أُوحي إليه إلى غيره من العباد.

أما النبيُّ: فهو الشخصُ الذي لم يُؤمَر بتبليغ ما أُوحِي إليه، وقد بعث الأنبياء بشكل عام للقيام بمهمة تبليغ وتطبيق الشرائع التي أُنزلت على «الرسل» السابقين؛ وبالتالي فإن كلَّ رسول نبيٌّ، ولكن ليس كلُّ نبيٍّ برسول، وقد رُويت بعض الأحاديث التي تفيدُ بأن النبيَّ أعمُّ من الرسول، وبالتالي فإن النُّبوَّة أعمُّ من الرسالة، ومع ذلك فقد استخدم القرآن الكريم هاتين الكلمتين كمترادفتين، حيث تحلُّ إحداهما مكان الأخرى في عدة مواضع.

قد يرد في ذهن الإنسان السؤال الآتي: لماذا لم يخاطب الله تعالى عبادَه مباشرةً، ولماذا خاطبهم بواسطة الأنبياء؟ ويمكن الإجابة على هذا السؤال وفق ما يلي:

إن مخاطبة الله تعالى للإنسان بشكل مباشر – أي: إنزال الوحي عليه وإعلامه بالأوامر والنواهي الإلهيَّة – تتناقض مع «سر الامتحان» الذي خُلِقَت لأجله الدُّنيا؛ لأن قيمة الإيمان وتشريفه يفقدان معناهما في حال حدوث هذا الخطاب المباشر؛ لأنهما نابعان من كونهما متعلقين بالغيب، حيث إنَّ الأشخاص الذين يتلقَّون الأوامر والنواهي من الله ﷻ بالذات يضطرون إلى الرضوخ لها والعمل بها؛ لأنهم يدركون حقيقتها بشكل تام، وهذا

٢٦٧ النساء: ١٦٤.

٢٦٨ الروم: ٤٧.

الأمر بدوره يشكّلُ مانعاً أمام إرادة الإنسان لترجيح طريق الخير أو الشرِّ باختياره وجهده، وبالتالي يجعل من الثواب والعقاب أمراً غير منطقيٍّ.

ومن جهة أخرى، فإن مستويات إدراك الناس، وقدراتهم، ومواهبهم مختلفة عن بعضها البعض؛ لأن الوظائف التي سوف يؤدونها في الحياة مختلفة، فلو كان الناس كلُّهم بالسويَّة نفسِها من الإدراك والموهبة لتعطَّلت بعض الأعمال؛ لأن أحداً لم يكن ليرضى بالقيام بها، لذلك استوجبَ أداءُ كلِّ الأعمال والوظائف الدنيوية - الدونية والعلوية منها - خلقَ الإنسان بمستويات مختلفة من الإدراك والموهبة.

إن أعظم قادةِ التاريخ الإنساني ومعلِّميه ومربِّيه هم الأنبياء والرُّسل؛ لأنَّ النبيَّ هو مَن سيتولَّى أمر هدايةِ أتباعه، وتنويرِ عقولهم، وبيانِ السبيل القويم أمامهم، ويتحمَّلُ في سبيل ذلك الإساءات والإيذاءات التي قد يتعرض لها من قِبَلِ الناس خلال قيامه بمهمته السامية هذه، ولا بدَّ أن يكون مجهَّزاً بمواصفات فكرية عالية وبقدرة غير متناهية على تحمّلِ المشاق والصعوبات، فإذا لم يكن النبيُّ يمتلك الصفات والخصائص الشخصية العالية التي تحرِّك في قلوب أتباعِه مشاعر التعلُّقِ والمحبَّة تجاهه، فلن يكون بإمكانه التأثيرُ عليهم وتوجيهُهم نحو الدعوة التي جاء بها.

حتى القائد العادي الذي يكلَّفُ بوظيفة قيادة الناس في أمر ما، إذا لم يكن متمتعاً بمواصفات تفوق من يتولى قيادتهم فلن يتمكن من الوصول إلى هذا الموقع، أو الاستمرار فيه إن وصل إليه؛ لأنَّ أحداً من الناس لن يقبل بقيادة مَن ثبت عجزه وضعفه.

ولهذا السبب كان الأنبياء مجهَّزين بخصائص عالية ومتفوقة على غيرهم بالفطرة، ولكنهم مع ذلك لا يصبحون أنبياء باستخدام تلك المميزات الفطرية والمعارف الشخصية فقط، فالنُّبوَّة محصورة بمن يختارهم الله تعالى من بين أصحاب الخصائص الاستثنائية هؤلاء ويكلِّفُهم بمهمة الرسالة، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن النُّبوَّة والرسالة ليست أمراً كسبياً؛ أي: لا يحصل عليهما الإنسان بعمله وجهوده، وإنما يختار الله تعالى لهذه الوظيفة مَن يشاء مِن بين عباده. حيثُ يقولُ الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**...﴾ [٢٦٩]

---

٢٦٩ الأنعام: ١٢٤.

ومن جهة أخرى: ليس من المناسب إنزال الوحي الإلهي على إنسان عادي أو أيِّ شخص من الناس، وذلك لأن الناس ليسوا متساوين من حيث الدراية والكفاءة لتلقي التبليغ الإلهي وتطبيقه؛ ولهذا السبب اختيرَ الأنبياء من بين أناس متفوقين بصفاتهم وخصالهم من جميع الجهات؛ وكُلِّفوا بحمل أعباء الرسالة والنُّبوَّة الثقيلة بسبب ما يتمتعون به من الطاقات الفطرية أيضاً.

صفاتُ الأنبياءِ

هناك بعضُ الصفات المشتركة بين جميع الأنبياء، وهذه الصفات هي: الصدق، والأمانة، والفطنة، والعصمة، والتبليغ، حيث يكتمل الإيمان بالأنبياء من خلال هذه الخصال.

١. الصدقُ:

يجب أن يكون الأنبياء صادقين في تبليغ الناسِ الأحكامَ، والأوامرَ والنواهيَ الإلهيَّة، وفي كلِّ ما ينطقون به من الأخبار، فينبغي أن يكون كلامهم صادقاً، وأفعالهم صحيحة؛ لأنَّ أقوالَهم وأفعالَهم تعكس صورةَ كلٍّ منهم، فلا يمكن أن تُشوَّه هذه الصورة ولو بكلمة كذب واحدة، وقد امتدح الله تعالى أنبياءه عليهم السلام بصفة الصدق، إذ يقول الله ﷻ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [٢٧٠]

ويبيِّن الله ﷻ في موضع آخرَ أن من المحال أن يفارق الأنبياءَ الصدقُ ولو للحظة واحدة، أو في أيِّ موقف كانَ، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [٢٧١]

إن الاعتراف بصدقهم واستقامتهم حتى من قبل الذين لم يؤمنوا بهم لهو دليلٌ على سموِّهم وعلوِّ شأنهم، ونورد فيما يأتي بعضاً من الأمثلة التي لا حصرَ لها على هذا الأمر:

ففي الأيام الأولى لجهر الرَّسول ﷺ بدعوته صعد إلى جبل الصفا، وقف على صخرة عالية، ونادى في قريش قائلاً:

---

٢٧٠ مريم: ٤١. وانظر أيضاً مريم: ٥٤، ٦٥؛ يونس: ٤٦.

٢٧١ الحاقة: ٤٤- ٤٦.

«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟»

قالوا: نعم! ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً!... [٢٧٢]

ولما أراد هرقلُ إمبراطورُ بيزنطةَ الحصول على معلومات عن النبيِّ ﷺ بعث وراء رجال من قريش كانوا في تجارة في بلاده، ومن بينهم أبو سفيانَ الذي لم يكن قد دخل في الإسلام بعدُ، وكان من جملة الأسئلة التي وجَّهها هرقل إلى أبي سفيان:

- هل كنتم تتهمونَه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فأجاب أبو سفيان الذي لم يكن قد آمنَ بالنبيِّ ﷺ: لا، وما يرجعُ عن وعدٍ قطعَه على نفسِه!. [٢٧٣]

ومن الأمثلة أيضاً الحادثة الآتية:

لقد كان أُبَيُّ بنُ خلفٍ من أشدِّ مشركي مكَّة عداوةً وبغضاً للإسلام، وكان قبل الهجرة يقول للنبيِّ ﷺ:

- يا محمد إن عندي العوز أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه!

فأجابه الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

- بل أنا قاتلك إن شاء الله!.

ويوم معركة أُحُد خرج هذا المشرك الأحمق يبحث عن النبيِّ ﷺ، ويقول:

- يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ.

وبهذا التفكير اقترب من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بقصد الهجوم عليه وقتله، فأراد الصحابة الكرام قتله وهو بعيد، ولكنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم:

- دعوه، فليقترب.

ولما دنا أُبيُّ بن خلف من الرَّسول ﷺ، أخذ الرَّسول رمحاً من يد أحد الصحابة، ورماه به، فلامس الرمح عنق أبيٍّ وأصابه بجرح خفيف، فأصيب أبي بالخوف والهلع لهذا الجرح الذي أصابه، إلا أنه وقع عن ظهر جواده على الرغم من هذه الإصابة الخفيفة، وتقلَّب على الأرض عدة مرات، وبدأ بالهرب إلى جهة قومه وكأنه ينازع الروح، فمن جهة يهرب، ومن جهة أخرى يصرخ بشدة، وكأن عينيه قد خرجتا من حجرتهما، ويقول:

---

٢٧٢ البخاري: التفسير، ٢٦/ ٤٧٧٠.

٢٧٣ انظر: البخاري: بدء الوحي، ١، ٥- ٦؛ مسلم: الجهاد، ٧٤.

– أقسم أن محمَّداً قد قتلني!

فاجتمع المشركون من حوله، ولما ألقوا نظرة على جرحه قالوا له:

– ما هو إلا جرح بسيط!

ولكنه لم يطمئن من كلامهم، وقال:

– لقد قال لي محمَّد عندما كان في مكَّة: «إني قاتلك!»، أقسم أنه لو بصق عليَّ لقتلني!

وبعدها استمرَّ في صراخه، وكأن صوته خوار ثور هائج.

فسخر أبو سفيان منه وعاب عليه عمله بقوله:

– أيحتاج هذا الجرح الصغير إلى كل هذا الصراخ؟ فقال له أبي بن خلف:

– أتعلم من أحدث هذا الجرح؟ إنه الجرح الذي فتحه محمَّد، وإني لأقسم باللات والعزى لو وُزّع الألم الذي أشعر به جراء هذا الجرح على أهل الحجاز جميعهم لهلكوا كلُّهم، لقد قال لي محمَّد في مكَّة: «إني قاتلك»، ومنذ ذلك الوقت أدركت أن مقتلي على يديه، وأني لن أفلت منه.

ومات أبي بن خلف العدو اللدود للنبيِّ ﷺ في الطريق قبل وصوله إلى مكَّة بيوم واحد. [٢٧٤]

إن هذه الحادثة تبين أيضاً مدى معرفة هذا المشرك للنبيِّ ﷺ، ومدى إيمانه بصدق قوله على الرغم من عداوته الشديدة له.

يقول أبو ميسرة:

«مرَّ الرَّسول ﷺ ذات يوم بأبي جهل وأصحابه، ولما أبصروا النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قالوا له:

يا محمَّد، والله إنا لا نكذِّبُك أبداً؛ فأنت الصادقُ الأمينُ فينا، ولكننا نكذِّبُ ما جئتنا به، فنزلت في ذلك الآية الكريمة:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٢٧٥]

---

٢٧٤ ابن اسحاق: السير والمعازي، ١، ٣٣١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٤٦؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٣٥٧.

٢٧٥ الأنعام: ٣٣.

إن ملامح النبي ﷺ كانت وحدها كافية لتنبئ بصدقه واستقامته من غير أن ينطق بأية كلمة أو حرف، ولهذا قال عبد الله بن سلام – وهو من علماء اليهود المتميزين – عندما رأى وجهَ الرَّسول المزهرَ: إن هذا ليس بوجهِ كذَّاب! وأعلن إسلامه» [٢٧٦]

ثم إن الإنسان الذي لم يكذب على الناس طيلةَ حياته قبل النُّبوَّة ولو على سبيل المزاح، من المستحيل أن يكذب على الله تعالى وقد عدَّ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام الكذبَ من علامات نفاق المرء، وحذَّر أمته بشدة من الكذب؛ إذ اعتبره من الكبائر المهلكة. [٢٧٧]

وقد قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الحديث الشَّريف:

«لا يزال العبد يكذب، وتنكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه كله، فيكتب عند الله من الكاذبين» [٢٧٨]

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ، قال: قال النبي ﷺ:

«**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثاً.

قالوا: بلى يا رسول الله.

فقال:«**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»

وجلس وكان متكئا فقال –:

«**ألا وقولُ الزُّورِ**»

قال: فما زال يكرِّرُها حتى قلنا: ليته يسكتُ. [٢٧٩]

وقد بيَّن القرآنُ الكريم ما للصدق من أهمية عظيمة، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٢٨٠]

---

٢٧٦ الترمذي: القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ أحمد: مسند، ٣٩، ٢٠١/ ٢٣٧٨٤.

٢٧٧ انظر: البخاري: الإيمان، ٢٤؛ مسلم: الإيمان، ١٠٧/ ٥٩.

٢٧٨ مالك: الموطأ، الكلام، ٢، ٩٩٠/ ١٨.

٢٧٩ البخاري: الأدب، ٦/ ٢٦٥٤ ؛ مسلم: الإيمان، ١٤٣.

٢٨٠ المائدة: ١١٩.

٢. الأمانةُ:

إنَّ الأنبياء جميعهم شخصياتٌ متميِّزةٌ تتمتَّعُ بالأمانة، والثقة، والاستقامة، وهذا ما يجعل الناس يشعرون تجاههم بالأمن والأمان، وإن لم يكونوا من أهل الإيمان، وإن صفة الأمانة للأنبياء تعني الثقةَ بهم والاعتماد عليهم، وتعني أيضاً أمانتهم بشكل أكبر تجاه الوحي، وتبليغ الناس بالأوامر والنواهي الإلهيَّةِ من غير تبديل، ودون زيادة أو نقصان.

إن الله تعالى لا يسندُ وظيفةَ النُّبوَّة وشرفَها للخائنين، وإنما يسندها إلى الأمناء من عباده في كلِّ الأمور، حيثُ يقولُ الله تعالى على لسانِ بعض أنبيائه لأممهم:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [٢٨١]

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [٢٨٢]

وهكذا فإن عبارة «**محمَّد الأمين**» التي كانت تُقال بحق النبيِّ ﷺ لم تكن تفارقُ ألسنة المؤمنين أو المشركين، فقد كانوا يأتمنون الرَّسول ﷺ، ويثقون به أكثر من ثقتهم بأصحابهم، ويسلِّمونه أماناتِهم، وعندما أراد النبيُّ ﷺ أن يهاجر من مكَّة إلى المدينة المنورة كانت لديه أماناتٌ لبعض مشركي مكَّة، وقد أبقى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عليّاً بنَ أبي طالب على الرغم من وجود خطر على حياته، أبقاه وراءه لكي يسلِّمَ الأماناتِ إلى أصحابها.

إن وصف «**الأمين**» قد أصبح بمثابة الاسم الثاني للنبيِّ ﷺ، وعندما بلغ فخرُ الكائنات سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ الخامسةَ والعشرين من عمره لم يكن يُنادى في مكَّة إلا باسم «**الأمين**» [٢٨٣].

وقد استبشر القوم – أثناء التحكيم الذي جرى بشأن الحجر الأسود في الكعبة المشرفة – لما رأوا النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام يدخل من الباب الذي حدَّدوه، وقالوا جميعا بصوت واحد: «رضينا بالأمين»، فاستشاروه بالأمر، وقبلوا برأيه، وعملوا بمقتضاه، وإن الخصوم الذين كانوا يترصَّدون بالنبي ﷺ الدوائرَ، ويكنُّون له العداوة الشديدة، لم يكن باستطاعتهم الطعنُ بأمانته في شيء، وحالهم في ذلك حال الصحابة الكرام الذين كانوا يفتدونه بأرواحهم وأموالهم وبكل ما يملكون.

---

٢٨١ الأعراف: ٦٨.

٢٨٢ الشعراء: ١٠٧. وانظر أيضاً، الشعراء: ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨؛ الضحى: ١٨.

٢٨٣ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢١، ١٥٦.

وكما أن الأنبياء يتمتَّعون بالأمانة والثقة، فإن مَن يأتيهم بالوحي – وهو جبريل عليه السلام – يتصف بهذه الصفة أيضاً، حيثُ يقولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٢٨٤]

فالوحي إذن ينزل بواسطة الأمين الذي في السماء على الأمين الذي في الأرض.

٣. الفطنةُ:

يتميَّزُ الأنبياء عن سائر البشر ويتفوَّقونَ عليهم بصفات كثيرة، لا سيما راجحة العقل، وحدة الذكاء، وصدق الفراسة؛ فلديهم ملكات وقدرات عالية من حيث قوةُ الذاكرة، وعمق الإدراك، وصحة المحاكمة العقلية والمنطقية، والقدرةُ على الإقناع.

فالفطنة ليست عبارة عن العقل والمنطق الجافِّ، وإنما هي مستوى عالٍ من الإدراك يفوق الدهاء بكثير، إنها عبارة عن صدق البصيرة المتعلقة بالقلب، إن الذكاء الحاد الذي يتمتَّع به كلُّ نبي إنما هو من أجل قيامه بوظيفة النُّبوَّة على أكمل وجه، وإلا فالأنبياء إن لم يتمتَّعوا بذلك فلن يتمكَّنوا من إقامة الحجة والدليل على ما جاؤوا به تجاه من يبلغونهم الدعوة، ولن يتمكنوا من إقناعهم أو إلزامهم بها.

إن الأنبياء عليهم السلام لديهم القدرة على حلِّ أعقدِ المسائل وأكثرِها إشكالية بكلِّ سهولة ويسر، وعندما يشرحون المواضيع ويبينونها للناس يستخدمونَ أسلوباً ليِّناً في الكلام بما يسمى بالسهل الممتنع، بحيث يتمكن كلُّ المخاطبين من فهمه على اختلاف مستويات إدراكهم وفهمهم، ولا يجدون في ذلك أية مصاعب.

إن هذه الصفة ظهرت في كل الأنبياء وبدرجات مختلفة، وأما رسولنا الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام فقد تجلَّت فيه هذه الصفة على امتداد حياته المباركة، وكما بيَّنا سابقاً حادثة التحكيم بشأن الحجر الأسود، إذ وقعت خلافات كثيرة بين القبائل حول وضع الحجر الأسود في مكانه خلال بناء الكعبة، فقام النبيُّ ﷺ الذي كان أوَّل من يدخل من باب الكعبة بحلِّ هذه المعضلة بكلِّ سهولة؛ لما يتمتع به من فراسة وبصيرة منقطعة النظير، وحالَ بذلك دون وقوع الحرب التي كانت وشيكةً بين القبائل.

٢٨٤ التكوير: ١٩– ٢١.

وظهرت هذه الفطنة التي لا يبلغها أحدٌ من البشر لدى النبيِّ ﷺ في غزواته التي خاضها في سبيل الإسلام، وفي اتِّفاقيات الصُّلح التي عقدها مع المشركين؛ وقد ظهرت الفراسة وبُعدُ النظر في أجلى صورها في صلح الحديبية، حيث غدا هذا الصلح وسيلة لفتح مكَّة فيما بعد من غير إراقة نقطة دم واحدة، وكذلك الخوارق التي ظهرت في حنين، وفي الطائف ما هي إلا أثر من الآثار الدالة على هذه الفطنة العالية التي لا يبلغها أحد من البشر.

وإن من واجب كل مسلم أن يستلهمَ صفة الفطنة لدى الأنبياء، ويستخدمَ نعمة العقل بالشَّكلِ الأمثل في سبيل خير البشرية، وعليه تعلُّمُ كيفية التصرف والكلام بحيث يقدر الأمور حقَّ قدرها، ويعرف متى وأين وكيف يتحدث، أو يسكت.

وخير مثال على ذلك الأسلوب الدقيق الذي استخدمه جعفرٌ الطَّيَّارُ في الحبشة عندما عرض الإسلام على النجاشي، فهو يُعتبر نموذجاً وعبرة لكلِّ مسلم من ناحية التحلي بالفراسة وبُعدِ النظر، والواقعة كما ذكرت في الأحاديث هي:

«لـمَّا طلب النَّجاشيُّ النصرانيُّ من جعفرِ الطيارِ أن يقرأ له بعضَ الآيات من القرآن الكريم، لم يبدأ جعفر بقراءة سورة الكافرونَ التي تتحدَّى المنكرين، وإنما ابتدأ قراءته بآيات من سورة مريم التي تتضمَّن مدحاً وثناءً على سيِّدنا عيسى عليه السلام وأمِّه مريمَ العذراء، فبكى النجاشي الذي كان يستمع إلى تلاوة جعفر للآيات الجليلة بخشوع حتى اخضلَّت لحيته، وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدة! وبعد مدة من الزمن تشرَّفَ بدخوله الإسلام» [٢٨٥]

٤ . التبليغُ:

يقوم الأنبياءُ عليهم السلام بإعلام الناس الأوامرَ الإلهيَّة بالشَّكلِ الأمثلِ كما أُمروا، فلا يزيدون في التبليغ شيئاً من عند أنفسهم ولا ينقصون منه شيئاً، ويُعَدُّ التبليَغُ من الصفات المشتركة بين جميع الأنبياء، وهو من أهم وظائفهم، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [٢٨٦]

٢٨٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٥٨- ٣٦٠.

٢٨٦ المائدة: ٦٧.

وقد واجه الأنبياء العديدَ من المصاعب والمضايقات خلال قيامهم بمهمة التبليغ والدعوة، ولكنهم لم يتنازلوا يوماً عن دعوتهم، وإن حياتهم مليئة بالأحداث التي تدعو إلى الاعتبار والتأمل في هذا المجال.

لقد ابتدأ نبيُّنا الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام دعوته إلى الإسلام بأقرب الناس إليه، واتَّبعَ في دعوته للناس أساليبَ وطرقاً تجذبهم إلى الإسلام، حيث كان يتصرف حسب الظرف والمكان الذي يكونُ فيه، ويأخذُ بالاعتبار الحالة الروحية والمعنوية لمخاطبيه ومستوى أفهامهم، ويراعي في الدعوة مبدأ التدرج، ويستغل أية فرصة تتاح له لكي يبيِّنَ للناس دعوته، ولم يجبر الناس يوماً على قَبولِ دعوته، وكان من مبادئه أيضاً التيسيرُ على الناس وتبشيرُهم بالخير والثواب، ولم يكن يلجأ إلى التنفير أبداً.

وقد جعل النبي ﷺ حياتَه كلَّها وقفاً على تبليغ الإسلام للناس، وعندما ألقى خطبة الوداع كان يقول للصحابة بعد بيان كلِّ أمر: «**ألا هل بلغت؟**»، وعندما يأتيه الجواب من الحاضرين بالإيجاب كان يقول: «**اللهم فاشهد!**» ليشعرَ بمتعة قيامه بوظيفة التبليغ.

يجب على كلِّ المؤمنين الاقتداءُ بطرق التبليغ التي اتَّبعها الرَّسول ﷺ، وذلك حسب قدراتهم وإمكاناتهم؛ لأنَّ تبليغ الإسلام فرض على كل مسلم. [٢٨٧]

حيثُ يقولُ النبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف:

«**مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» [٢٨٨]

إن لم يكن في مجتمع من المجتمعات أناسٌ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإن الأعمال السيئة تتحوَّلُ مع مرور الوقت إلى عادة بين الناس، ويبدأ المجتمع بالنظر إليها على أنها من الأمور الطبيعية؛ وإن السيِّئات التي لا تلقى رفضاً أو منعاً في مجتمع ما تتحوَّلُ مع الزمن إلى حالة مستعصية يصعب منعُها حتى لو أراد المجتمع ذلك، فيختلط الحقُّ بالباطل، وتضيع الحقيقة، وينسى الناس ربهم سبحانه وتعالى، وإن النتيجة المحتومة لمثل هذا الواقع هي هلاك ذلك المجتمع بأكمله؛ إذاً من الضروري إيلاءُ أهمِّيةٍ بالغةٍ لمهمة التبليغ؛ لإنقاذ المجتمعات من هذه العاقبة الوخيمة.

---

٢٨٧ انظر: آل عمران: ١٠٤، ١١٠.

٢٨٨ مسلم: الإيمان، ٧٨/ ٤٩.

٥. العصمةُ:

إن الأنبياء جميعاً معصومون عن ارتكاب كلِّ أنواع المعاصي الظاهرة والآثام الباطنة، فقد حفظهم الله سبحانه وتعالى قبل النُّبوَّة وبعدها من الوقوع في مزالق الشرك والعصيان، وهم معصومون أيضاً عن الخطأ والنسيان عندما يقومون بتبليغ الناس ما أُوحِي إليهم من الله سبحانه وتعالى.

فلو لم يكن الأنبياء يتمتعون بالعصمة لما وثق الناس بصحة ما يخبرون به من أمور، وهذه الحالة تُلقي بظلِّها على خصوصية كونهم حجَّةَ الله وشهداءَه على وجه الأرض.

والأنبياء وفقاً لرأي أهل السنة والجماعة لا يرتكبون الكبائر مطلقاً، وإن وقعت منهم مخالفةٌ أو زلَّةٌ سهواً أو بحُكم طبيعتهم البشرية، فإنَّهم لا يُقَرُّون عليها، وإنما يأتي الوحي على الفور؛ ليصحح الخطأ وينبِّه عليه.

وإن مثل هذه الهفوات تعد من قبيل الأخطاء البشرية غير الإرادية، وتقع لحكمة إلهيَّة من أجل إحساس الأنبياء بعجزهم وتذكيرهم بطبيعتهم البشرية، وبالتالي يشكّلُ ذلك مانعاً من إضفاء صفة الألوهية عليهم من قبل الأتباع.

لقد كان الأنبياء يأتون بأفعال وتصرفات يمكن اتخاذها من قبل الناس نماذج يقتدون بها، وإلا لتذرَّعَ الإنسان بكثير من الأعذار من أجل التهرب من تطبيق أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه بحجة أن ما جاء به الأنبياء من الأوامر فوق الطاقات البشرية؛ وقد خرج بعض الغافلين بأفكار سطحية باطلة متجاهلين هذه الحقيقة، ومن هذه الأفكار قولهم بضرورة أن يكون الأنبياء من الملائكة، وقد ردَّ القرآن الكريم على زعمهم هذا بقوله:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا﴾ [٢٨٩]

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [٢٩٠]

ويضاف إلى ذلك أن الأنبياءَ ملزمون بأن يكونوا قدوة لأمتهم لعدم الوقوع في الأخطاء نفسها، وفي حال وقوعهم فيها عليهم تعلُّمُ كيفيّة التصرف لتلافي نتائج تلك الأخطاء.

---

٢٨٩ الإسراء: ٩٥.

٢٩٠ الأنبياء: ٨.

ونسوق هنا لبيان الأمر قصةَ سيِّدنا نوح عليه السلام، فقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى لمدة / ٩٥٠/ عاماً، وبلَّغَهم رسالة ربه، وجاهدهم فيها بكلِّ صبر وجلد، ولما لم يستجب القوم له، ولم يهتدوا إلى سبيل الله، دعا عليهم بقوله:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ ٢٩١

وكان من نتيجة هذا الدعاء هلاكُ قومه في المياه، ولكن خلال غرق قومه أبصر ولده المنكر يتعرَّضُ معهم للغرق والهلاك، فأخذته عاطفة الأبوة، ونادى ربه:

﴿...رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ ٢٩٢

فكان جواب الله تعالى لنوح عليه السلام الذي دعا لابنه بالنجاة وعلى قومه بالهلاك:

﴿...إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٢٩٣

إن هذه الزلة التي وقع فيها سيِّدنا نوح عليه السلام أصبحت عِبرةً ومثلاً لكلِّ الأمم اللاحقة إلى يوم القيامة.

إن الكمال المطلق صفة محصورة بالحقِّ عز وجل وحدَه دون غيره، حيث لا يمكن للعباد العيش دون اقتراف الأخطاء، ولكن ينبغي على المسلم بذل ما استطاع من الجهد لتقليل الأخطاء، ولقد أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على الذكر بشكل مستمر، بحيث يكون القلب حيّاً بذكر الله، وذلك لأن القلب الذاكر لله تعالى لا يمكنه ارتكاب المعاصي والأخطاء وهو على هذه الحال. يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ٢٩٤

ويقول الله تعالى في آية أخرى يحذر الغافلين عن ذكره:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٢٩٥

٢٩١ القمر: ١٠.

٢٩٢ هود: ٤٥.

٢٩٣ هود: ٤٦.

٢٩٤ الحشر: ١٩.

٢٩٥ الزمر: ٢٢.

وإضافة لصفات الأنبياء الخمس التي ذكرناها آنفاً، فثمة ثلاثُ صفات جليلة خاصّةٍ بنبينا الكريمِ محمَّدٍ ﷺ، وهي:

١. أنَّ الرَّسول المجتبى ﷺ هو حبيب الله، وأفضل الأنبياء جميعاً، وهو أشرف الخلق.

٢. أنَّ الرَّسول ﷺ مبعوث لكلِّ الأمم من الإنس والجنِّ، فهو رسول الثقلين، والدينُ الذي جاء به باقٍ إلى يوم القيامة، وأما غيرُه من الأنبياء والرُّسل فقد كانت رسالتهم محددة بفترة زمنيةٍ معينة ومنحصرة بأقوام معدودة، ومن هذا المنطلق كانت معجزات الأنبياء السابقين محصورة بالزمن الذي بُعثوا فيه، بينما معجزات النبي محمَّد ﷺ شاملة لكلِّ الأزمنة، وخاصة القرآن الكريم، إذ يُعدُّ من أكبر معجزات النبي عليه الصَّلاة والسَّلام الباقية إلى يوم القيامة دون أن يلحقها تحريف أو تبديل.

٣. أنَّ الرَّسول الكريم ﷺ خاتم الأنبياء؛ أي: أنه آخر الأنبياء، فلا نبيَ بعده.

وقد خُصَّ النبيُّ ﷺ يوم القيامة بالمقام المحمود، وبالشفاعة الكبرى؛ فنبيَّ الرحمة ﷺ سوف يشفع للعصاة من أمته يوم القيامة، وإن الله تعالى – منَّة منه وفضلاً – سوف يقبل تلك الشفاعة.[٢٩٦]

إن ميل الإنسان الفطري للعمل على تقليد واتباع الشخص الذي وقع في حبِّه وأُعجِب بشخصيَّته حقيقة بديهية لا يمكن إنكارها؛ وانطلاقاً من ذلك كان العثور على المثل الأعلى الذي يمكن للإنسان اتباعه في أفعاله وسلوكه من أهم الأمور في حياة ابن آدم، ولهذا السبب كان من لطف الله تعالى وكرمه أن تفضَّلَ على بني آدم ليس فقط بالكتب السماوية، وإنما أرسل إليهم فوق ذلك الأنبياءَ الذين جسَّدوا تلك الكتب واقعاً عملياً حياً في كل جنبات الحياة البشرية، واتصفوا بصفاتٍ وخصالٍ سامية ومتميِّزة عن سائر البشر، وبمعنى آخر فإن الله تعالى أرسل لبني آدم أفضلَ الشخصيات النموذجية التي يمكنهم الاقتداء بها والسير على هديها، وهذه الشخصيات النموذجية يظهر كمالها وتفوقها في جميع النواحي سواء الدينية، أو العلمية، أو الأخلاقية، وهكذا فإن كلَّ واحد من أولئك الأنبياء قد قدَّم خلال تاريخ البشرية خدمات جليلة واستثنائية عن طريق الأعمال السلوكية الراقية التي التزم بها، وأصبحت نماذجَ جديرةً بالاتباع.

٢٩٦ انظر البخاري: التَّوحيد، ٣٦.

ونقدِّم على ذلك بعض الأمثلة:

فمثلاً عند النظر إلى حياة **سيِّدنا نوح** عليه السلام نجد في البداية الدعوةَ إلى الإيمان، والتحمُّلَ، والصبرَ، وفي النتيجة يظهر بغضه الشديد للكفر وأهله.

وأما **سيِّدنا إبراهيمُ** عليه السلام فقد قضى حياته في صراعٍ قاسٍ ومُضْنٍ ضدَّ الشرك، ومحاولةِ القضاء على الوثنية، إضافة إلى تسليمه المطلقِ لأمرِ الحقِّ ﷻ الذي حوّل نار نمرود إلى بساتين من الورود، كلُّ ذلك غدا نموذجاً استثنائياً في التوكل والاعتماد على الله تعالى.

أما **سيِّدنا موسى** عليه السلام فقد قضى حياته في حالة صراع مع الظالم فرعون وأعوانه، وأسَّس فيما بعد نظاماً اجتماعياً للمؤمنين من خلال الشريعة التي جاء بها.

وأما الصفة المميزة **لسيِّدنا عيسى** عليه السلام في تبليغ الدعوة فهي رقة قلبه المليء بالشفقة والرحمة تجاه الناس، وإنَّ حالاتِه الساميةَ في التواضع والعفو والصفح عن الناس ملفتةٌ للأنظار ومثيرةٌ للاهتمام.

وأما **سيِّدنا سليمانُ** عليه السلام فإن محافظتَه على قلبه مليئاً بالتواضعِ والشُّكرِ وإخلاصِ العبودية لله تعالى مثيرةٌ للإعجاب على الرغم من عظمة تلك الامبراطورية التي أرساها وحكمها، والتي سحرت الألباب ولهجت بذكرها الأجيال.

وإن حياة **سيِّدنا أيوبَ** عليه السلام مليئةٌ بمظاهر الشكر لله تعالى في كل الأحوال من خلال الصبر الشديد على عظيم الابتلاءات التي تعرَّضَ لها.

وحياة **سيِّدنا يونسَ** عليه السلام تُعدُّ نموذجاً تاماً في الالتجاء إلى الله تعالى، والتمسك بحبله، وإظهار الندامة على الخطأ والتقصير في جنب الله تعالى، ثم التَّجلبُبُ بجلباب التوبةِ إليه.

وأما **سيِّدنا يوسف** عليه السلام فقد بقي في قمّة نشاطه في الدعوةِ إلى الله تعالى والتعلُّقِ به حتى وهو في ظلمات السجن، وقدَّم درساً عظيماً في الحفاظ على العفة والشرف على الرغم من تهيُّؤِ كلِّ أسباب الغواية والفتنة من قبل تلك المرأة ذات المنصف والثروة والجمال، والتي دعته إلى نفسها بقولها: «هيت لك»، إن قلبه المزيَّنَ بالتقوى منبعٌ عظيم لكمال السلوك والتصرف.

وإن حياة **سيِّدنا داوودَ** ﷺ مليئةٌ بالصفحات التي تدعو إلى الاعتبار تجاه العظمة الإلهيَّة، فحمدُه وشكرُه، وذكرُه لله تعالى بعينين دامعتين من الخشية والرهبة، وتوجُّهُه إلى الله تعالى بحالة من التضرع والتذلل على أعتابه؛ يحمل الكثيرَ من الدروس والعبر.

وأما سيرة **سيِّدنا يعقوبَ** ﷺ فهي نموذج بليغ في مواجهة اليأس والقنوط، والتمسك بحبل الله تعالى مع التحلِّي بالصبر الجميل، وعدم قطع الأمل من رحمته تعالى، حتى في أشد حالات بؤس الدُّنيا في عين الإنسان.

وأما خيرُ الأنبياء **سيِّدنا محمَّد المصطفى** ﷺ فقد جمع في شخصه المتميز كلَّ صفات الأنبياء السابقين؛ المعروفين منهم وغير المعروفين، والذين بلغ عددُهم حسب الروايات ما يزيد عن المائة وأربعة وعشرين نبياً، وشكَّلَ بذلك قمةَ الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة؛ وكأن سيرته العطرة المباركة محيطٌ مترامي الأطراف، وأما سيرُ الأنبياء الآخرين فهي بمثابة الأنهار والينابيع التي تصبُّ في هذا المحيط العظيم.

لقد أُقيمَ أوَّلُ بيت للعبادة في مكان الكعبة المشرفة الحالي من أجل أن تعيش العائلة البشرية التي بدأت مع أبينا آدمَ وأمِّنا حواءَ عليهما السلام في جوٍّ من السكينة والسعادة الدينية، وبسبب انتشار بني آدم في أنحاء الأرض المختلفة للضرورات الحياتية والاجتماعية فقد تمت متابعة حياتهم الدينية عن طريق الأنبياء الذين كانوا يُبعثون إليهم بين الحين والآخر، وبهذه الطريقة فقد كان الناس يبقون على حالة التصديق بالحقائق الإلهيَّة، وذلك لأن الحقائق الإلهيَّة كانت تتعرَّضُ اعتباراً من عهد سيِّدنا آدم ﷺ وما بعده إلى التشويه والتحريف على يد بعض المنحرفين والمضلِّلين، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى كان يبدِّدُ هذه الضلالات والتحريفات، ويجدِّدُ الدين مرة أخرى بإرسال سلسلة من الأنبياء والرُّسل إلى الأمم، وهكذا يتخلص العالم الإنسانيُّ من الأزمات الفردية والاجتماعية.

وفي النهاية جاء عصر السعادة الذي يُعتبر بالنسبة للدنيا من الناحية الزمنية بمثابة وقت العصر من اليوم، وبلغت الحياة الدينية قمة الكمال الأخير مع بعثة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في المكان الذي بدأ فيه الدين أوَّل مرة، وبالتالي لم يعد بالإمكان تصور كمال جديد بعد الكمال المحمَّدي الذي شكَّلَ القمةَ في ذلك؛ لأنَّ إحياء الدين من جديد عن طريق إرسال الأنبياء قد وصل إلى نهايته، وأصبح الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله ﷻ للناس.

الطَّبيعةُ البشريّةُ للنبيِّ ﷺ

لقد أرسل الله تعالى إلى الناس أنبياءَ من جنسهم البشريِّ، حيث عاشوا حياتهم بينهم بكلِّ تفاصيلها وتفرعاتها وتقلباتها، ولما طلب المشركون من النبي ﷺ إتيانهم بالمعجزات أوحى الله تعالى إليه أن يجيبهم بالجواب الآتي:

﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا﴾ [٢٩٧]

لقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يمكنه الإتيان بالمعجزات بإرادته الذاتية دون إذن من ربِّه؛ لأنَّه بشرٌ مثلُ بقية قومه الآخرين.

وقد بيَّنَ الله تعالى هذه الحقيقة في كثير من الآيات القرآنية، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ [٢٩٨]

وإنَّ النبيَّ ﷺ نفسَه يبيِّن لنا طبيعتَه البشريةَ في الحديث الشَّريف، حيث يقول:

«إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار» [٢٩٩]

لم يُبعث الأنبياءُ لتبليغ ما يأتيهم من الوحي فقط، وإنما أُرسِلوا من أجل أن يضعوا للناس منهجاً مميَّزاً للحياة، وليكونوا نموذجاً عمليّاً في كلِّ واقعة أو حادثة تعرض لهم في الحياة، وإن تطبيق هذا الأمر في أيِّ مجتمع إنساني لا يمكن أن يقوم به إلا بشر، فلو بعثَ الله إلى الناس ملكاً رسولاً لما تمكَّنَ من فعل أيِّ شيء تجاه البشر سوى تبليغ ما ينزل عليه من الوحي، وذلك لأن الملاك ما كان ليتمكَّنَ من الاشتراك مع الناس في أمورهم ومسائلهم الحياتية اليومية، وبالتالي لن يتمكَّنَ من العيش معهم، وتنظيم أعمالِـهم

---

٢٩٧ الإسراء: ٩٣– ٩٥.

٢٩٨ الكهف: ١١٠.

٢٩٩ البخاري: المظالم، ١٦/ ٦٩٦٧/ ٧١٦٨؛ مسلم: الأقضية، ٤/ ١٧١٣.

ومعاملاتِهم، وتصحيح أفكارهم، ومن جهة أخرى فلو كان الرَّسول ملكاً لتذرَّعَ الناس بحجج وأعذار شتى من أجل التهرب من تطبيق الأوامر والنواهي التي يأتيهم بها هذا الرَّسول الملك بدعوى أنها فوق طاقتهم البشرية.

وانطلاقاً من هذا الأمر لم يتابع الرَّسول ﷺ حياتَه على طرازٍ خاصٍّ متميِّز حسب القدرة التي يمتلكها بموجب طبيعة النُّبوَّة، وإنما نادراً ما عاش الحالات الخاصَّة التي هي فوق طاقة البشر وبشكل فردي، وذلك بسبب التزامه بأداء الوظيفة المكلَّفِ بها، ومن ضمنها أن يكون قدوة ونموذجاً يمكن لأمته الاقتداءُ به في ذلك، وقد قام بالأنشطة المختلفة التي ملأت حياته وفق ما تقتضيه الطبيعة والطاقة البشرية، ولهذا السبب فإن كلَّ من يود أن يكون تاجراً مثالياً، أو ربَّ عائلة كاملَ الأوصاف، أو قائداً متسامياً، أو إدارياً ناجحاً؛ يمكنه أن يستلهم لنفسه من حياة النبيِّ ﷺ المبادئَ والقيمَ التي ستكون دليلَه ومرشدَه في تحقيق أهدافه.

إن تلك القناعة الخاطئة المتمثلة بأن الرَّسول لا يمكن أن يكون من البشر كانت موجودة لدى الناس على مر التاريخ، وقد كانوا يعتبرون كون الأنبياء أناساً مثلَهم - يتناولون الطعام، ويتزوجون النِّساء، وينجبون الأطفال - نوعاً من النقص والقصور، فتجرؤوا على نسبة الخطأ إلى إرادة الله سبحانه وتعالى، وقد قُوبِلَ كثيرٌ من الأنبياء الذين بُعثوا إلى قومهم بالاعتراض والرفض من هذه الناحية.

وعلى طرف النقيض من ذلك، فقد بدأ أتباعُ بعض الرُّسل برفض الطبيعة البشرية لأنبيائهم نتيجة إفراطهم في مشاعر المحبَّة والتعلق بأولئك الأنبياء، وقد تجاوزوا في تعظيم وإجلال أنبيائهم حدود العقل والمنطق، فنسبوا إليهم الألوهية، وانزلقوا بذلك إلى دركات الشرك، فبعض هؤلاء الأتباع اعتبروا أنبياءَهم آلهة، وبعضهم اعتبروا نبيَّهم ابنَ الله، وأما البعض الآخر فقد اعتقد بأن الله ﷻ قد تجسَّد لهم على شكل البشر، وقادتهم هذه العقائد المنحرفة إلى الابتعاد عن عقيدة التَّوحيد، والانزلاق إلى عقيدة التجسيم، كما وقع في الديانة المسيحية...

إن الحكمة البارزة في وقوف القرآن الكريم والأحاديث الشَّريفة بأهمِّية بالغة على موضوع الطبيعة البشرية للنبي ﷺ هي حفظُ الأمة المحمَّدية من الوقوع في الأخطاء التي انزلقت إليها الأمم السابقة.

حيث يروي سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطاب ﷺ عن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام قوله:

«**لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله**» [٣٠٠]

وفي حديث آخرَ حذَّرَ النبيُّ ﷺ بشدة الذين أظهروا له التعظيمَ بشكل مفرط، حيث قال:

«**لا ترفعوني فوق حقي؛ فإن الله تعالى اتخذني عبدا قبل أن يتخذني رسولا**» [٣٠١]

وإن السبب الآخر في تذكير النبيِّ ﷺ أصحابَه الكرامَ، والناسَ من حوله بطبيعته البشرية، وأنه عبدٌ من عباد الله تعالى، إنما هو تواضعُه المنقطعُ النظير.

حيث إنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام كثيرا ما كان يقول بعد تعداد النعم الجمّة التي تفضَّلَ الله بها عليه: «**ولا فخرَ**» [٣٠٢]

يقول وعن عبد الله بن جبير الخزاعي ﷺ:

«كان النبيُّ ﷺ يمشي في أناس من أصحابه فتستر بثوب، فلما رأى ظله رفع رأسه فإذا هو بملاءة قد ستر بها، فقال له: مه!. وأخذ الثوب فوضعه، فقال: «**إنما أنا بشر مثلكم**» [٣٠٣]

وينبغي التذكرُ دائماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مع أنه بشر، إلا أنه ليس كغيره من البشر، وقد قال الشاعر:

محمَّد بشرٌ وليس كالبشرِ   بل هو ياقوتة والناس كالحجر

ويقول شاعرٌ آخرُ في أبياته متحدثاً عن هذه الحقيقة:

في الأرضِ ليسَ له مثالٌ   وجمـالُه فوق الخيالْ
ذاك النبـــــيُّ محمَّدٌ   يرقى بمعراج الكمالْ
حتـــــى ملائكةُ السَّما   قد هزَّها ذاك الجمال
ما شاهدت مــــن قبلِه   بشراً على هذا المثال
ففؤادُه مـــــن جوهرٍ   فوق الملائكِ ما يزال
وسبيلُه درب الهُـــدى   وبذكرِه يحلو المقالْ

٣٠٠ البخاري: الأنبياء، ٤٨/ ٣٤٤٥.

٣٠١ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩، ٢١/ ١٤٢٢٨؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ١٩٦/ ٤٨٢٥.

٣٠٢ الترمذي: المناقب، ١/ ٣٦١٥.

٣٠٣ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩، ٢١/ ١٤٢٢٥.

أُمِّيّةُ النبيِّ ﷺ والحكمةُ منها

يُقصد بكلمة الأُمِّي: الإنسانُ الذي يبقى على أصل الفطرة من النقاء والصفاء، ولا يعرف القراءة والكتابة، ولم يتلقَّ أيَّ نوع من التعليم، وتشمل الكلمة العرب من سكان مكَّة ما عدا أهلَ الكتاب.

ووفقاً لما جاء في القرآن الكريم فإن الرَّسول ﷺ كان أُمِّياً، لا يعرف القراءة ولا الكتابة. حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [٣٠٤]

وكان المشركون في زمن النبيِّ ﷺ يقرُّون بأميته، حيث إنَّهم كانوا يقولون كما أخبرنا القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ [٣٠٥]

ويمكن بيان أسباب وصف النبيِّ ﷺ بالأمّي وفق ما يأتي:

١- لقد بقي النبيُّ ﷺ على حالته التي وُلد عليها نقياً صافياً، ولم تفسد الأفكار القادمة من الخارج فطرتَه وصفاءَه الأصلي، وتمَّ تعليمه وتربيته من قبل الله تعالى. حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [٣٠٦]

وقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الحديث الشَّريف:

«أدَّبَني ربِّي فأحسنَ تَأدِيبي» [٣٠٧]

فقد شقَّ الله تعالى صدرَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ثلاث مرات، حيث أخرج من قلبه كلَّ الخصال السيئة والسلبية، ووضع فيه كلَّ الصفات الحميدة والمشاعر السامية مثل: الطمأنينة، والسكينة، والاتزان، والرحمة، والشفقة، والإيمان، والحكمة.

٢- لم يكن النبيُّ ﷺ من أهل الكتاب، وإنما كان يُنسَبُ إلى العرب.

---

٣٠٤ الأعراف: ١٥٧.

٣٠٥ الفرقان: ٥.

٣٠٦ الاعلى: ٦.

٣٠٧ السيوطي: الجامع الصغير ،١، ١٢/ ١٢٦٢.

٣- لقد وُلد الرَّسول ﷺ في مكَّة المكرَّمة؛ لأنَّ أحد أسماء مكَّة هو أم القرى، والقرية في اللغة العربية تعني أصغر وحدة أو تجمع سكني للبشر، وجمعها «القرى»؛ فأمُّ القرى تعني أوَّلَ الأماكن التي جرى فيها السكن والاستيطان من قبل الناس.

فالعرب بشكل عام كانوا أميين، فهم قوم بعيدون عن الثقافات، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة إلا قليلاً، وقد بعث الله فيهم نبياً ذا قلب وصل إلى قمة الصفاء والطهارة.

ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٣٠٨]

ويعبِّرُ النبيُّ ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله في الحديث الشَّريف:

«**إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب...**» [٣٠٩]

إن الأمية صفة تُطلَق في العادة على الناس الذين يعانون من قلة العلم والمعرفة، هذا في حقِّ البشر العاديين، وأما في حقِّ النبيِّ فإنها تُطلق للدلالة على عكس المعنى السابق، إذ تشيرُ إلى نضجِ الرَّسول ﷺ، وتفوُّقِه على غيره؛ وإن نضج النبي ﷺ من جهة العلم والخبرة في الحياة مع بقائه في الوقت نفسه أُمياً عاجزاً عن القراءة والكتابة ما هو إلا دليلٌ خارقٌ يثبت بأنه نبيٌّ مرسَلٌ من الله تعالى مباشرة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٣١٠]

إذ يستحيل على إنسان أميٍّ وفي مجتمع أميٍّ الإتيانُ بالقرآن الكريم المعجز في بيانه للإنس والجنِّ مجتمعين عن طريق المكاشفة القلبية، دون تأييد ووحي إلهي، وكذلك العلم بقصص الأمم والملوك الذين عاشوا في الماضي السحيق والاطلاع على الحقائق التاريخية، من أمثال قصة فرعون، وقصة موسى ﷺ وأمِّه، وقصة يوسف ﷺ.

---

٣٠٨ الجمعة: ٢.

٣٠٩ البخاري: الصوم، ١٣/ ١٩١٣؛ مسلم: الصيام، ١٥/ ١٠٨٠.

٣١٠ العنكبوت: ٤٨.

وإن القرآن الكريم يقدم للإنسانية الأحداث والوقائع المتعلقة بقصص الأمم السابقة بطريقة مليئة بالعبرة، ومطابقة لعلم وفلسفة التاريخ المعاصر.[٣١١]

ومن جهة أخرى فإن الأميةَ تُعتبَر الشرطَ الأدنى لإمكانية اكتساب أحكام القرآن الكريم الشمولية، ويمكن القول من خلال المثل المعروف «الضعيف أمير الركب» إنَّ القرآن الكريم قد اتَّخذ المستوى الأُمِّي أساساً من أجل إيصال الأحكام التكليفية التي جاء بها إلى كلِّ الناس، وإمكانية تطبيقها من قبلهم، بمعنى أن الإنسان يستطيع فهم الإسلام والسير وفق منهجه حتى لو كان إنساناً بسيطاً أو متوسط المعرفة، ولهذا السبب فإن الإسلام قد اتخذ حركة الشمس أساساً في تحديد أوقات العبادات اليومية، وجعل أطوار القمر أساساً في تحديد أوقات العبادات الشهرية والسنوية.

لكن القرآن الكريم الذي نزل على قوم أميين لم يطلب منهم يوماً ما البقاءَ على تلك الحالة من الأمية، وإنما جعل الهدفَ الرئيسيَّ له إخراج المجتمع من حالة الأمية وتحويلهم إلى أمة الكتاب والقراءة، حيث إنَّ الإسلام أسَّس حضارة مدنية حديثة من كلِّ النواحي، وشكَّل القرآنُ الكريم - الذي يُطلق عليه اسم «الكتاب» - بُنيةَ هذه الحضارة.

حِليتهُ الشريفة

الحِليةُ لغة تعني: الزينة، وجمال الوجه والروح، وأما اصطلاحاً فتعني: صورة النبيِّ ﷺ المرسومة بالكلمات بقدر ما لدى الكلام البشري من طاقات وإمكانات.

يقول نحيفي: «من المؤكد أن كلَّ شخص إذا ما كتب الحلية الشَّريفة، وأولاها العناية الفائقة، فإن الله تبارك وتعالى يحفظه من المرض والمحن، ومن موت الفجأة، وإذا أخذها معه في سفره، فإن الحقَّ ﷻ يكون حفيظَه في ذلك السفر».

لقد أجاد الكثير من المؤلفين الإسلاميين بأفكارهم وآرائهم حول الفضائل التي لا تُحصى للحلية الشَّريفة، حتَّى إنَّه ثمة عادة ما تزال موجودة في كثير من الدول الإسلامية، وهي حفظ الحلية الشَّريفة عن ظهر قلب بهدف رؤية النبيِّ ﷺ في المنام.

٣١١ في حين أن بعض الوقائع التاريخية المذكورة في التوراة والانجيل تأتي متعاكسة مع إثباتات العلم الحديث وعلم التاريخ، للاطلاع على خلق الكائنات ومراحلها، وتاريخ نزول الإنسان إلى الأرض، والأحداث الأخرى مثل طوفان نوح عليه السلام...الخ (انظر، موريس بوكاي، التوراة، والإنجيل، والقرآن في نظر العلم، ص، ٥٣- ٨٢، ١٥٧- ١٧٥)

وإلى جانب ذلك ينبغي ألا يغيبَ عن البال بأنَّ النبيَّ الأكرم – عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم الذي يوصف بأنه «**نور على نور**» – لا تكفي الكلمات لتصوير سيماه المبارك، إضافة إلى عجز البشرية عن مشاهدة وإدراك حقيقته، وذلك لأنه ليس من الممكن التعريف بالمعنى الكامل للكائن الذي لا مثيلَ له في الكائنات كلِّها، والذي جمع الله تعالى فيه كلَّ الفضائل والمحاسن التي تفضَّل بها على بني آدم؛ وهكذا فكما يقول حقاني:

«كلُّ الكائنات تعلم أنه نبيُّ الحق؛ لأنَّه لم يأتِ له مثيلٌ إلى الوجود بين كلِّ المخلوقات على الإطلاق».

إن كلَّ تعبير مجازي أو صورة بيانية ترسم أجمل الخَلق سيِّدنا محمَّداً ﷺ بكلمات وعبارات ما هي إلا زفرة لألم نبضةٍ واحدة من نبضات قلوب المحبين المحترقة شوقاً لرسول الله ﷺ، هؤلاء الذين لَم يحظوا بشرف الصُّحبة وحُرموا العيش في عصر السعادة، إن الذين نقلُوا لنا الرواياتِ القيمةَ في بيان وصف سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام لم يقدِّموا إلا قطرة من ذاك المحيط الشاسع، وإن المؤمنين الذين يعملون على رؤية المحيط في تلك القطرة بذلوا جهوداً كبيرة لزيادة محبتهم لسيِّد العالمين، والعمل على الاقتداء به كأسوة حسنة لهم، والتحلي بشمائله وأخلاقه الكريمة.

في الحقيقة إن فطرة الإنسان وقلبه دائماً ما يميل به نحو الجمال، ويطلب البقاء في كنفه كمحبوب له، وبسبب هذه الجاذبية فإن ذهنه يبقى مشغولاً به بشكل مستمر، وتتولَّدُ في قلبه رغبة عارمة في التشبه بأخلاق محبوبه والتمثُّل بجميل طباعه وسمو روحه، وفي النتيجة يتخذ الإنسانُ الشخصَ الذي وقع في أسر حبِّه مثلاً أعلى له، ويبدأ ببذل الجهد من أجل التحلي بأحواله، وبسبب هذا الميل الفطري لدى الإنسان فإنه من المؤكد أن تصبح الشمائل الشَّريفة وسيلةً لزيادة شوقه إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام ومحبته واتباعه.

ويبيِّنُ لنا الحسن رضي الله عنه الحالة الروحية التي انتابته حين سأل خاله هندَ بن أبي هالة عن حِلية الرَّسول ﷺ، حيث يقول:

«سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي – وكان وصافا – عن صفة(حلية) رسول الله ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به» [٣١٢]

٣١٢ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٢٧٣/ ١٤٠٢٦؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٧٤٢/ ٦٧٠٠.

وقد استمع الحسن والحسين ﷺ - اللذان لم يكونا يشبعان من سماع شمائل سيِّدنا محمَّد صاحب الوجه المزهر عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام - من أبيهما علي ﷺ إلى وصف شمائله وجماله المبارك مرات عديدة، ونقلا لنا كلَّ تلك الأوصاف والشمائل.

إن كلَّ ما وصلنا من وصف الحلية الشريفة لا يمكن أن يكون أكثر من انعكاس خافت للنور المحمدي، كانعكاس ضوء الشمس عن وجه القمر، فيا تُرى ما هي النسبة التي يمكن تحقيقها في بيان حقيقة النبيِّ ﷺ عن طريق الشمائل الشَّريفة المكتوبة!؟

لكن من المؤكد أنه يمكن إدراك الشمائل الشَّريفة بحسب نسبة المحبَّة في قلب كل شخص، وضمن الطاقات المحدودة للكلمات.

وإنَّنا مع اعترافنا بالضعف والعجز في هذا الشأن، رغبنا في نقل الحلية الشَّريفة تبرُّكاً بها بقدر ما وصلتنا من الروايات، والتي انعكست في قلبنا مثل قطرات الندى، ويمكن إيراد خلاصة مختلف الروايات وفق ما يأتي:

- كان الرَّسول الأكرم متوسِّطَ القامة وأقرب إلى الطول.
- وكان صاحب خِلقة متوازنة فوق التصور، يمتلك جسداً في غاية التناسب.
- لون جسده أبيضُ يميل إلى لون الزهر، ناعمٌ مثل الحرير، وله نور يشعُّ منه، كان جسمه المبارك دائم النظافة تفوح منه رائحة طيبة تبعث البهجة في القلوب، وتنبعث من جسده وعرقه رائحة عطرة أطيب من أجمل العطور؛ سواء وضع العطر أم لم يضعه، وإذا ما صافحه أحد من الناس يبقى ذلك الشخص متلذِّذاً بالرائحة اللطيفة طيلة اليوم، وكأن الورود قد اقتبست روائحها منه، وإذا مسح بيده المباركة على رأس طفل فإن ذلك الطفل يُميَّزُ من بين جميع الأطفال من خلال رائحته الجميلة.
- أما جلده الشَّريف المتعرِّقُ فيذكِّرُ الإنسانَ بقطرات الندى المتجمّعة على أوراق الزهور.
- وأما لحيته فكانت كثيفة الشعر، وإذا طالت فإنها لم تكن تزيد عن مقدار قبضة اليد، وعندما تُوفِّي عليه الصَّلاة والسَّلام لم يكن يزيد الشيب في رأسه ولحيته عن عشرين شعرة.
- وكانت حواجبه مثل الهلال، وتفصل بين الحاجب والآخر مسافة خالية من الشعرات.
- كان بين الحاجبين عِرْق ينتفخ عندما يغضب من أجل الحق.
- لديه عليه الصَّلاة والسَّلام أسنان مثل اللؤلؤ ينظِّفها على الدوام بالسواك، ويوصي أصحابه باستخدامه بشكل مستمر.

- وأما أجفانُه فطويلة وسوداء، وعيناه واسعتان، سوادهما شديد السواد، وبياضهما شديد البياض، وكأن على عينيه كحل خُطَّ بيد القدرة منذ الأزل.
- وأما بنيته الجسمية فقد بلغت جمالاً لا يوازيها أحد من الخلق، مثلما بلغت بنيته الروحية الاستثنائية مرحلة الكمال.[٣١٣]
- أما سيما وجهِه فكان يلمع في الليل مثل نور القمر البدر، حيث تقول أمُّ المؤمنين السيِّدة عائشة رضي الله عنها:

«كنتُ في حجرتي أخيط ثوباً لي، فانكفأ المصباح، وأظلمت الحجرةُ، وسقط المخيط؛ أي: الإبرة، فبينما كنتُ في حيرتي أتحسس مخيطي إذ أطلَّ عليَّ رسول الله ﷺ بوجهه من باب الحجرة، فرفع الشملة وأطل بوجهه، قالت: فوالله الذي لا إلهَ إلا هو، لقد أضاءت أرجاءُ الحجرة من نور وجهِه، حتى لقد التقطتُ المخيطَ من نور طلعتِه».

- كان بين كتفيه خاتم النُّبوَّة، وكان كثير من الصحابة يتحرَّقونَ شوقاً إلى تقبيل النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وإن ذهاب هذا الخاتم إلى عالم الغيب أثناء وفاة الرَّسول ﷺ أصبح بمثابة الدليل القطعي على ارتحاله عن الدُّنيا.[٣١٤]

إن جسد النبي عليه الصَّلاة والسَّلام المباركَ والنورانيَّ لم يتعرَّض لأي تغيير بعد وفاته، حيث نظر أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى نور الكون بعد الوفاة بقلب حزين ومهموم، وعين ممتلئة بالدمع، وقال:

«بأبي أنت وأمي! طِبتَ حيّاً وميتاً!» وانحنى إلى جبهته الشَّريفة ليطبع عليها بشفتيه قُبلةَ المحبَّة والوداع.

يعجز اللسان عن وصف عمق رقة القلب لدى رسول الله ﷺ.

ولم يكن النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يتكلَّمُ بالكلام اللغو الذي لا طائلَ منه، وإنما كلُّ أقواله كانت تحمل الحكمة والنصيحة للمؤمنين، فلم يرد على لسانه مطلقاً أيُّ كلام في الغيبة أو تناول الشائعات، وكان يخاطب كلَّ شخص بحسب مستوى إدراكه وفهمه.

٣١٣ انظر: الحاكم: المستدرك، ٣، ١٠؛ أحمد: مسند، ١، ٨٩، ٩٦، ١١٧، ١٢٧؛ ٤، ٣٠٩؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٣٧٦، ٤١٢، ٤٢٠- ٤٢٣؛ ٢، ٢٧٢؛ ابن كثير: البداية، ٦، ٣١-٣٣؛ الترمذي: الشمائل، ص، ١٥.

٣١٤ الترمذي: الشمائل، ص، ١٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٧٢.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام في غاية التواضع واللطف، وإذا ضحك لم يزد عن الابتسامة، فلا يتقهقه في الضحك. وكانت الابتسامةُ لا تفارق وجهه الشريف.

وإذا ما رآه الشخص فجأة أحاطت به هالة من الهيبة والجلال، وإذا ما خالطه الإنسان وعاشره وألفه، فإنه يقع في عشقه ومحبته من كلِّ روحه وقلبه.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يُظهر الاحترام لأهل الفضل كلاً حسب درجته، ويزيد في إكرام ذوي القربى، وكما أنه كان يحسن معاملة أهل بيته وأصحابه، فإنه في الوقت ذاته كان يعامل الآخرين بكلِّ لطف ورفق، ويقول:

«لا يُؤمِنُ أحدُكم حتَّى يُحبَّ لأخِيهِ ما يُحبُّ لنفسِهِ» [٣١٥]

كان يحسن إلى مَن في خدمته، حيث يكسوهم مما يلبس، ويطعمهم مما يأكل، ويتمتع عليه الصَّلاة والسَّلام بالكرم والمروءة والشفقة والرحمة، وليس من أحد أشجعَ منه في موارد الخطر، وكان في غاية الحلم مع مَن حوله.

كان الرَّسول الأكرم عليه الصَّلاة والسَّلام ثابتاً على عهوده ومواثيقه، صادقاً في وعوده، وأما في كرم أخلاقه، وحدة عقله وذكائه فلا يجاريه أحدٌ من البشر، فهو أهل لكلِّ مدح وثناء، إنه وجود مبارك لم يُخلق مثلُه في البشر، إذ جمع جمال الهيئة إلى كمال السيرة.

كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في حالة حزن وتفكُّر دائم، ولم يكن يتكلم في غير ضرورة، بحيث تطول لديه حالة الصمت، وعندما يبدأ بالكلام لا يدعه ناقصاً، وإنما يتمُّه إلى تمامه، ويعبِّر عن معانٍ كثيرة بأقوال موجزة ومقتضبة، وأما طريقته في نطق الكلام فهي الفصل بين الكلمات، بحيث لا يبطئ في الحديث، ولا يسرع فيخلط بين الكلمات.

وعلى الرغم من لطافة محياه من حيث الخَلق إلا أنه كان في غاية الصلابة والهيبة.

لا يقوم من مكانه حينما يُثار غضبه، لم يكن يغضب لشيء إلا للحقِّ إذا انتُهِكَ، وكان لا يقوم من مكانه إذا غضب، و لا يهدأُ حتى يُعيدَ الحقَّ إلى مكانه الطبيعي، ولكن بعد إعادة الأمور إلى نصابها يعود إلى هدوئه وسكينته، ولم يكن يغضب أبداً انتصاراً لذاته،

---

٣١٥ البخاري: الإيمان، ٧/ ١٣؛ مسلم: الإيمان، ٧١- ٧٢/ ٤٥.

ولم يكن يدافع عن نفسه في الحالات التي يتعرَّض فيها الناس لشخصه بالذات، ولا يدخل مع أحد في جدال وخصومة بشأن كتلك الحالات.

ولم يكن ﷺ يدخل بيتَ أحد دون إذنه، وإذا ما عاد إلى بيته يقسم وقت بقائه فيه إلى ثلاثة أقسام؛ فيخصص قسماً للعبادة، والقسم الآخر لعائلته، وأما القسم الثالث فيخصصه لنفسه، ويخصص القسم العائد إليه لعوام الناس وخواصهم على السواء، ولا يحرم أحداً منهم من ذلك، حيث كان يفتح قلبه للجميع.

وقد كان الرَّسول ﷺ ذاكرا لله تعالى على كل أحواله.

يجلس في كل مكان في المسجد حتى يتجنب تحول أمر الجلوس في مكان معيَّن إلى عادة متبعة، حيث لم يكن يودُّ أن تحاط الأماكن والمقامات بقدسيةٍ ما، وبالتالي يتحول الأمر في المجالس إلى نوع من التكبر والمفاخرة، وكان يجلس حيثما انتهى به المجلس، ويطلب من أصحابه اتباعه في هذا السلوك.

وإذا ما قصده أحدٌ من الناس في حاجة له فإنه لا يهدأ حتى يقضيَها له أيا كانت حاجته، وإن تعسر عليه قضاءها له فإنه لا يتوانى عن مواساة صاحب الحاجة وتطييب قلبه ولو بكلمة جميلة، فقد كان شريكاً في هموم الناس جميعاً، وقد كان يعامل الناس معاملة متساوية بغضِّ النظر عن حالتهم الاجتماعية، فمهما كان المقام أو المكانة الاجتماعية التي يشغلها الشخص، سواء كان عالماً أو جاهلاً، وسواء كان غنياً أو فقيراً فإنَّهم متساوون لديه من حيث الطبيعة الإنسانية؛ وأما مجالسه فمنبع للفضائل مثل العلم، والحلم، والحياء، والإخلاص، والصبر، والوقار، والتوكل، والأمانة، وغيرها.

ولم يكن يوبِّخُ أحداً من الناس أو يلومه بسبب عيوبه وتقصيره، وإن احتاج الأمر إلى تنبيه أو تحذير فكان يلجأ إلى اللِّين في الكلام والتعريض في النصح، بحيث لا يُشعر من يخاطبه بالحرج أو الإهانة، وكان يقول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**لا تُظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**» [٣١٦]

ولم يكن يبحث عن عيوب الناس أو يكشف زلاتهم، بل كان يحب الستر، ويأمر به، وذلك لأن الله تعالى قد حرَّم سوء الظن بالناس والتجسُّس عليهم.

٣١٦ الترمذي: القيامة، ٥٤/ ٢٥٠٦.

ولم يكن الرَّسول الأكرم ﷺ يتحدَّث إلا في سفساف الأمور، وكانت مجالس حديثه محفوفة بالوجد والروحانية، وعندما يبدأ الكلام فإنه يسحر بمنطقه وعذوبة حديثه مَن حوله، فيستمعون إليه بآذان أرواحهم، حيث يعبر أسامة بن شريك ﵁ عن ذلك بأنهم يكونون في حالة استماع وكأن على رؤوسهم الطير، [٣١٧] وإن حياءه وأدبه كان ينعكس على أصحابه الكرام إلى درجة أنَّهم كانوا كثيراً ما يترددون أو يستحيون من توجيه الأسئلة إليه، ويتمنون لو أن أعرابياً يأتي من البادية فيكون وسيلة لفتح حديث مع الرَّسول ﷺ؛ ليستفيدوا من فيض ذلك الحديث وروحانيته.[٣١٨]

وقد كان ثمة مَن ينتظر السنتين دون أن يوجِّه إليه سؤالاً من شدة هيبته وخجله منه، ولم يكونوا ينظرون إلى وجهه المبارك لما يبدو عليه من الهيبة والوقار.

ويقول عمرو بن العاص ﵁ في ذلك:

«وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة» [٣١٩]

إن من يريد أن يصف خصاله ومزاياه السامية لا يسعه إلا أن يقول:

«ما رأيتُ له مثيلاً لا من قبلُ ولا من بعدُ» [٣٢٠]

ذات يوم مرَّ خالد بن الوليد ﵁ بإحدى القبائل العربية، فقال له زعيم تلك القبيلة:

- يا خالد، صف لنا صورة الرسول ﷺ وسيرته.

وعندما قال خالد لزعيم القبيلة:

- ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه. قال له:

- إن كان التفصيل محالاً، فأجمل.

فأجابه خالد بن الوليد بهذا الجواب الرائع:

٣١٧ أبو داود: الطب، ١/ ٣٨٥٥ .

٣١٨ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢١، ٣٦٥، ٤٢٢– ٤٢٥؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠، ١٣ .

٣١٩ مسلم: الإيمان، ١٩٢/ ١٢١؛ أحمد: مسند، ٤، ١٩٩ .

٣٢٠ أحمد: مسند، ١، ٩٦ .

– إن الرسول على قدر المرسل. [٣٢١] فمكانة الرَّسول هي بقدر مكانة المرسِل، وإن كان المرسل هو خالق الكائنات فلك أن تتخيل وتتصور شأن الرَّسول الذي بعثه للناس!.

إن صفاتِ الجمال والهيبة والنورانية واللطف التي كان يتمتع بها النبيُّ ﷺ كانت على قدرٍ عالٍ من السمو لدرجة أنها كانت كافية وحدَها للدلالة على أنه رسول الله، دون الحاجة إلى معجزات أو أدلة وبراهين أخرى لإثبات ذلك.

والخلاصة هي أن خُلُقَه كان القرآن الكريم.ا

ويصف مولانا خالد البغدادي الأخلاقَ الحميدة للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام والتي تعشقها كلُّ الكائنات، فيقول:

«يا له من كريم! فبفضل وجوده الذي ينبع كرماً يخرج اللؤلؤ من البحر، والياقوت من الحجر الصلب، ويتفتح الورد من الشوك، وإن تحدثت عن جمال أخلاقه في البستان فلن ترَ في البستان وردة لا تفتح فمها ضاحكة من البهجة والسرور» [٣٢٢]

لقد اجتمعت كلُّ الشمائل الجميلة في شخص النبي ﷺ، فكأن النور يسطع من بدنه الشَّريف، ولكن مع ذلك لم يظهر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بكلِّ جماله لأحد من البشر، حيثُ يقولُ الإمام القرطبي:

«لم يظهر إلى العلن حسنُ الرَّسول ﷺ وجمالُه بتمام، إذ لو بدا وجوده بكلِّ جمائله وحقيقته لما أطاق الصحابة الكرام النظرَ إليه» [٣٢٣]

وقد وصف الشاعر الصحابي حسان بن ثابت الميزات الخلقية للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام – والتي لا نظيرَ لها – في الأبيات الآتية:

وأحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عينٌ
وأجملُ منكَ لم تلدِ النِّساءُ
خُلِقتَ مُبرَّأً من كلِّ عيبٍ
كأنَّكَ قد خُلِقتَ كما تشاءُ

---

٣٢١ المناوي: ٥، ٩٢؛ القسطلاني: ترجمة المواهب اللدنية، ص، ٤١٧.

٣٢٢ الديوان: ص، ٦٥– ٦٦.

٣٢٣ علي ياردم: شمائل نبينا، ص، ٤٩.

عودةُ الوحيِ

لقد استمرَّت فترةُ انقطاع الوحي ستةَ أشهر.

يقول الرَّسول ﷺ عن عودة الوحي من جديد:

«**بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [٣٢٤]

قال: «ثم تتابع الوحي» [٣٢٥]

ويقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣٢٦]

ويُعدُّ تتابع الوحي دون فاصل من إحدى معجزات القرآن الكريم؛ لأنَّ نزول الآيات القرآنية التي يعجز البشر جميعهم عن تأليف آية واحدة مثلها – ولو تداعوا كلهم للتعاون والتكاتف في سبيل ذلك – بشكل متواصل دون انقطاع على النبي ﷺ يثبت بشكل قطعي أنَّ القرآن الكريم إنما هو حصيلة الوحي من الله تعالى، ويُعدُّ دليلاً بارزاً على عدم تدخل البشر في تأليفه.

وإذا كان تأليف أصغر كتاب في الشعر يحتاج لجهود كبيرة ومحاولات حثيثة تُبذل لتحقيق ذلك، وليس بالإمكان الادعاء بأن مثل هذه الآثار التي هي حصيلة الجهود البشرية خاليةٌ من النقص والقصور، مهما بُذلت الجهود، وأُبدي الحرص الشديد في هذا المجال، وأما الوحيُ الإلهيُّ فإنه بعيد عن كلِّ هذه الأمور، إذ إنَّه كلامٌ منزَّل على الرَّسول ﷺ باقٍ على صورته الأولى، ومتضمِّنٌ لمعجزات لا حصرَ لها، ومنزهٌ عن النقص والقصور، وهذا كافٍ للدلالة على عظمة القرآن الكريم وكونه صواباً.

---

٣٢٤ المدثر: ١– ٥.

٣٢٥ البخاري: التفسير، ٧٤/ ٤، ٥/ ٤٩٥٤؛ مسلم: الإيمان، ٢٥٥– ٢٥٨.

٣٢٦ القصص: ٥١.

ومع نزول سورة المدثِّر نهض الرسول ﷺ على الفور من فراشه الذي كان ينام عليه لكي يستريح من هول ما أصابه من الفزع لرؤية جبريل عليه السلام على تلك الهيئة بين السماء والأرض، فأصابت الحيرةُ أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها التي لم تعرف ما هي المسألة، فقالت:لم نهضتَ ولم تسترح؟ فقال لها الرسول ﷺ فيما معناه: لقد انقضى وقت الراحة! وأعلمها بمجيء الوحي الجديد.

لقد علَّمَ جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ في الأيام الأولى لنزول الوحي كيفية الوضوء، وأداء الصَّلاة، وقد أدخل الله تعالى الفرح على قلب النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وجعل البِشْرَ في وجهه عن طريق أمره بعبادة تريحُ القلبَ والروحَ.

فعاد سيِّد العالمين محمَّد ﷺ إلى بيته تلفُّه البهجة والسرور، فأخبر زوجته بالـمَكرُمةِ العظيمة التي تفضَّل الله تعالى بها عليه، وعلَّمها هي أيضاً كيفية الوضوء وأداء الصَّلاة. [٣٢٧]

أوَّلُ المسلمينَ «السابقون الأولين»

إن أوَّل مَن آمن من الناس هو رسولُنا الكريم ﷺ، وهذا الأمر يبيِّنه الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، حيث يقول:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ [٣٢٨]

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٣٢٩]

وأوَّل مَن أسلم بعد فخر الكائنات محمَّدٍ ﷺ هي زوجتُه أمُّ المؤمنين **خديجة** رضي الله عنها.

فكان النبيُّ ﷺ عندما يعود إلى بيته محزوناً متكدِّراً مما يلقاه على يد قومه من سوء المعاملة، والسخرية، والإيذاء، والاحتقار، يجد المواساة والتشجيع والتخفيف عن معاناته من السيِّدة خديجةَ رضي الله عنها التي سخَّرها الله تعالى لتقديم العون لرسوله الكريم، وهكذا كان الله يهيِّئ لنبيِّه ﷺ أسبابَ العون على مهمته. [٣٣٠]

٣٢٧ انظر: ابن إسحاق: السير والمغازي، ص، ١١٧؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٦٢- ٢٦٣.

٣٢٨ البقرة: ٢٨٥.

٣٢٩ الزمر: ١١- ١٢.

٣٣٠ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٥٩.

ولما آمنت السيِّدة خديجةُ ﵂ آمنت بنات النبيِّ ﷺ أيضاً، وهن: **السيِّدة رقية، وأم كلثوم، وفاطمة** رضي الله عنهن جميعاً. [٣٣١]

ولما رأى سيِّدنا **علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام والسيِّدةَ خديجة يقيمان الصَّلاة، قال متسائلاً: ما هذا الأمر يا محمَّد؟ فقال رسول الله ﷺ:

«دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، وإلى عبادته، وكفر باللات والعزى»

فقال له علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب.

فكرهَ النبي ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له:

«يا علي إذا لم تسلم فاكتم»

فمكث علي تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب علي الآسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ:

«تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد»

ففعل عليٌّ وأسلم، ولبث عليٌّ يأتيه سرّاً خوفاً من أبي طالب، وكتم عليٌّ إسلامه، وكان عُمرُ عليٍّ ﵁ في هذه الفترة عشر سنوات.[٣٣٢]

وكان إذا حضرت الصَّلاةُ خرجَ النبيُّ ﷺ إلى شِعاب مكَّة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ولما رأى أبو طالب ابنه وابن أخيه يصليان سرّاً سُرَّ لعملهما، وقد دعا الرَّسول ﷺ أبا طالب إلى الإسلام، فكان جوابه لرسول الله ﷺ:

أي ابن أخي، إنِّي لا أستطيعُ أن أفارقَ دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن اِمضِ بما أنت عليه من أمر، والله لا يُخلَصُ إليك بشيء تكرهُه ما بقيتُ حيّاً.

وذكروا أنه قال لعليٍّ:

أما إنه لم يدعُكَ إلا إلى خيرٍ فالزمه، ولا تفارقه أبداً! [٣٣٣]

---

٣٣١ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٦٣.

٣٣٢ ابن اسحاق: السير والمغازي، ١، ١٣٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٢.

٣٣٣ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٦٥.

وقد روى عبد الله بن مسعود [٣٣٤] أنه لما قدمَ إلى مكَّة يوماً من أجل التجارة رأى النبيَّ ﷺ والسيِّدةَ خديجةَ وعليَّ بن أبي طالب ﵁ يطوفون حول الكعبة، وأن السيِّدة خديجة في هذه الأثناء كانت متسترة ومحتشمة في ثيابها إلى درجة كبيرة. [٣٣٥]

وجاء عفيف الكندي في الجاهلية إلى مكَّة من أجل التجارة، فنزل ضيفاً في بيت العباس ﵁، فرأى النبيَّ ﷺ، والسيِّدة خديجة، وعلي بن أبي طالب ﵁ يقيمون الصَّلاة عند الكعبة ، فسأل العباس ﵁ عنهم، وبعد أن أخبره العباس عنهم وعن أحوالهم قال:

هذا محمَّد بن عبد الله ابن أخي، وهذا الغلام عليٌّ ابن أخي، وهذه المرأة خديجة، وقد أخبرني أن رب السموات والأرض أمره بهذا الدين، لا والله ما أعلم على الأرض كلِّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة!

فكان عفيف ﵁ يقول بعد أن أسلم:

لو كان الله رزقني الإسلامَ يومئذ كنتُ ثاني المؤمنين من الرجال مع علي، وكم تمنَّيتُ أن أكون رابعَهم!.[٣٣٦]

وقد أسلم مولى رسول الله ﷺ **زيدُ بنُ حارثةَ** ﵁ بعد علي بن أبي طالب، فأقام الصَّلاة، وبقي في خدمة رسول الله ﷺ ولم يفارقه أبداً، وكان يفدي النبيَّ ﷺ بروحه وجسده من شدة محبته له وتعلقه به لدرجة أنه جعل من بدنه درعاً للنبيِّ ﷺ يقيه من الحجارة التي رماه به أهلُ الطائف حتى ملأ الدمُ جسده كله، وكان زيد أيضا محطَّ محبة الرَّسول ﷺ وعنايته الخاصَّة.

---

٣٣٤ عبد الله بن مسعود ﵁: هو من أوائل السابقين إلى الإسلام، ويُلقَّب بأبي عبد الرحمن، لم يفارقِ النبيَّ ﷺ منذ اليوم الذي أسلم فيه، وكان يستمتع بخدمة الرَّسول ﷺ، وكان ابن مسعود رجلاً ضعيفاً ونحيفاً، وله صوت عذب ووجه وسيم، ولما أسلم ابن مسعود كان عدد المسلمين قليلاً جداً، فلم يدعه المشركون يرتاح في مكة، فهاجر إلى المدينة المنورة ودخل على معاذ بن جبل، وبعد هجرة النبي ﷺ استقر في المدينة، وشارك في كل الغزوات والمعارك، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستمتع كثيراً بسماع قراءته للقرآن الكريم. لابن مسعود علم واسع في مجال التفسير والحديث والفقه، وقد تخرَّج على يديه الكثير من العلماء والفقهاء، وخاصة علماء الكوفة، حيث اعتمدوا على رواياته وآرائه وأسَّسوا آراءهم الفقهية عليها، ونُقِلت عنه /٨٤٨/ رواية، وفي عهد عثمان بن عفان ﵁ عاد من قضاء الكوفة إلى المدينة المنورة، وبعد مدة قصيرة تُوفِّي هناك وله من العمر ستون عاماً رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٣٣٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٤٦٣.

٣٣٦ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٨؛ ابن حجر: الإصابة، ٢، ٤٨٧.

وإن الشهادة التي يقدِّمُها لنا سيِّدنا عمر بن الخطاب ﷺ حول شدة محبَّة رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة تحمل معانٍ جليلة في هذا المجال، وذلك من خلال الحادثة الآتية:

لقد خصص سيِّدنا عمر بن الخطاب ﷺ لأسامة بن زيد ثلاثة آلاف وخمسمائة درهم، وأعطى ابنَه عبدَ الله أقلَّ منه بخمسمائة درهم، فسأل عبدُ الله أباه عمرَ ﷺ عن السبب قائلاً:

لِمَ تفضِّل أسامةَ عليَّ؟، فهو لم يشارك في المعارك أكثر مني!

فأجابه عمر ﷺ - وهو الذي لم يُعرَف له مثيلٌ في العدل - بجواب رائع مِلؤُه غنى القلب والتواضعُ قائلاً:

يا بني، إن رسول الله ﷺ كان يحبُّ أباه أكثر من أبيك، وكانت محبَّة أسامة أيضاً أكثر من محبتك، ولهذا السبب فإني فضَّلتُ الذي أحبَّه النبيُّ ﷺ على الذي أحببته أنا. [٣٣٧]

يتبين من هذا المثال وغيره من الأمثلة الكثيرة أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يقدمون الأمور التي يحبها الرَّسول ﷺ على تلك الأمور التي يحبونها هم. [٣٣٨]

وقد كان **سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق** ﷺ صاحبَ النبي ﷺ قبل النُّبوَّة، فهو شاهد على أخلاقه الكريمة، وصدقه، وأمانته منذ أيام الطفولة، وكانت لدى أبي بكر الصِّدِّيق قناعة تامة بأن من لا يتحدث بكلام كذب أبداً بسبب أخلاقه الحميدة، لا يمكن أن يكذب بحقِّ الله تعالى، ولهذا السبب لما دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام استجاب له دون تردُّدٍ. [٣٣٩]

يقول فخر الكائنات سيِّدنا محمَّد ﷺ حول هذا الأمر:

«**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي**»[٣٤٠]

لم يُسرَّ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لشيءٍ أكثرَ من سروره بإسلام أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ، ولم يتردد أبو بكر ﷺ في إظهار إسلامه منذ اللحظة التي أسلم فيها، إذ أشهر إسلامَه، وبدأ بدعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وبالرَّسول ﷺ.[٣٤١]

---

٣٣٧ الترمذي: المناقب، ٣٩.

٣٣٨ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٤٧١؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٣٠.

٣٣٩ ابن كثير: البداية، ٣، ٧٨.

٣٤٠ البخاري: أصحاب النبي، ٥/ ٣٦٦١.

٣٤١ ابن كثير: البداية، ٣، ٨٠- ٨١.

يشغل سيِّدنا أبو بكر ﷺ مكانة هامة واستثنائية في حياة النبي ﷺ، وذلك لأن تحقيقَ أية دعوة ونشرها بين الناس مرتبطٌ بثلاثة شروط:

١. فكرة حكيمة ومهيمنة.
٢. أشخاص يلتفون حول هذه الفكرة وفق تنظيم معيَّنٍ.
٣. القدرة المالية.

فالفكرةُ المهيمنة تتمثَّلُ في مضمون الإسلام الثابت بالوحي، وقد حُمّل أبو بكر الصِّدِّيق مع المكلفين الآخرين مهمَّةً في غاية الأهمِّية؛ أي: أن التنظيمَ بدأ بهم، ووُضِعَت الثروة الكبيرة لأولئك الصحابة الكرام في خدمة الإسلام، إلى جانب تخصيصها من أجل شراء العبيد المسلمين وتحريرهم، وبذلك تمَّ تأمين الجانب المالي للدعوة.

وإذا أردنا التوسعَ في الحديث عن الخاصيتين اللتين تميز بهما أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ نقول: إن الصحبة والصداقة التي كانت تربط أبا بكر ﷺ بالنبيِّ ﷺ -والتي تعود إلى فترة الشباب- تحوَّلَت إلى صحبة سامية بعد تكليف الرَّسول ﷺ بمهمة النُّبوَّة.

إلى جانب كون أبي بكر الصِّدِّيق من أوائل المؤمنين، فقد أصبحت صفة «**الصدِّيق**» سمة مميزة له، حيث لم يدخل إلى إيمانه مثقالُ ذرة من الريبة والشُّبهة، وفيما بعد لم يضنَّ أبداً بالتضحية المادية والمعنوية في سبيل رفع راية الإسلام ونشره بين الناس، حيث وضع كلَّ أمواله في سبيل الله تعالى.

إن شرطَ الحب وقانونَ العشق هو محبَّةُ العاشق للأشياء التي يحبها المحبوب، وتقديم رغبات محبوبه على رغباته، وافتداءُ المحبوب بكلِّ غال ونفيس، وهذا ما كان عليه حال أبي بكر، إذ إنَّ حياته مليئة بالأمثلة التي تشكّلُ قمة التفاني والارتباط بعشقِ الرَّسول ﷺ.

ذات يوم سمع أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ بأنَّ سلطان القلوب سيِّدَنا محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام يعاني من المرض، فوقع طريحَ الفراش من شدة حزنه عليه.

ونتيجةً لهذه المحبَّة السامية التي كانت بين هذين الصاحِبَيْنِ فقد توحَّدَ حالُهما، حتى قال النبيُّ ﷺ:

«أبو بكر مني وأنا منه وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة» [٣٤٢]

---

٣٤٢ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ١، ٤٣٧/ ١٧٨٠، السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ١٠٧٠.

وإن قولَ النبيِّ ﷺ هذا ما هو إلا انعكاسٌ لحالة الالتقاء القلبيِّ والصُّحبةِ التي تجمعُهما في عالم الروح.

وعندما كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام على فراش الموت قال:

«... **لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر**» [٣٤٣]

وهذا من أجمل العبارات الدالة على العلاقة القلبية التي كانت تربط بين النبي ﷺ وبين أبي بكر، والتقارب الاستثنائيِّ بينهما.

لقد أسلم **بلالٌ الحبشيُّ وأمُّه** رضي الله عنه في الأيام الأولى لبدء الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بالدعوة السرية، وقد كان بلال رضي الله عنه واحداً من السبعة الذين أظهروا إسلامهم، وكان يتعرَّضُ لأشدِّ أنواع العذاب ليرتد عن دينه إلا أنه كان يتحمَّلُها بكلِّ جلد وصبر، وعندما يُجبر على الإنكار ونطق كلمة الكفر كان يقول: «أحدٌ، أحدٌ».

وقد كان بلال الحبشي وأمه عبدين لأحد المشركين، فاشتراهما أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه من ماله وأعتقهما؛ ليصبحا حُرَّين. [٣٤٤]

وقد نال أبو بكر رضي الله عنه بهذا العمل إطراءً جميلاً منَ النَّبيِّ ﷺ، وأصبح مثلاً في الرحمة والكرم.

ويصوِّرُ مولانا جلال الدين الرومي هذه الحادثة بلسان قلبه، وينقلها لنا بالشَّكلِ الآتي:

«لقد سمع السيِّد الصدِّيقُ بتعرُّض بلال الحبشي إلى أشد ألوان العذاب بسبب دخوله الإسلام، فأسرع إلى حضرة المصطفى سيِّد الأكوان ﷺ يعرض عليه حال بلال الوفي»

«قال: إنَّ ذلك الكائن المبارك وقع في عشقك، وأصبح أسير محبَّتك، ولهذا السبب أسرف الظالمون في ظلم ذاك الإنسان الذي من طينة الملائكة، وعلى الرغم من براءته يمزِّقون جناحه، إنَّهم يريدون دفن ذلك الكنز الثمين في تراب الشرك والعصيان»

«يلقونه على الرمال الحارقة تحت أشعة الشمس اللاهبة، ويضربون بدنه العاري بأغصان الشوك القاسي»

«إلا أنه على الرغم من تدفق الدماء من جسده الرقيق يقول: أحدٌ، أحدٌ، ولا يفارق السجودَ لله تعالى»

---

٣٤٣ البخاري: أصحاب النبي، ٣/ ٣٦٥٤.

٣٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٣٢؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣١٩.

«وقد تحوَّلت كلُّ ذرة من جسد أبي بكر الصِّدِّيق بسبب الرحمة والشفقة إلى لسان حزين ومهموم، وبيَّنَ للنبيِّ ﷺ بشكل مطوَّل حالة بلال الغارق في حزن كبير»

«وفي نهاية الأمر أظهر النية التي عقدها في قلبه، وقال: يا رسول الله!، إني أودُّ أن أشتريَه، وإني مستعد للتضحية بكلِّ ثروتي في سبيل ذلك، لقد أعطى القلبَ لله تعالى، وصار عبداً له ولرسوله الكريم، وبسبب ذلك تعرَّضَ لغضب أعداء الله، وليست لروحي راحة في هذه الدُّنيا من دون إنقاذ ذلك الإنسان المبارك المتروك عرضة للتعذيب على أيدي المشركين»

«فسُرَّ المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام كثيراً لما رآه وسمعه من أبي بكر، وقال: «يا أيها الصاحب الرحيم لله ولرسوله! إني شريكُكَ في هذه التجارة»

«توجَّه أبو بكر الصِّدِّيق من ساعته إلى بيت مالكِ بلالٍ، كان بلالٌ فاقداً للوعي وفي حالة يُرثى لها من التعذيب الذي وقع عليه، فأسمع مالكُ بلالٍ ذلك الإنسانَ المحرومَ من الرحمة كلماتٍ قاسية».

«حيث قال له: أيُّها الخبيثُ، يا مَن اسودَّت عيناه من الغضب والغيظ، ويا عديمَ الرحمة، كيف تضرب أحبَّةَ الله؟ أيُّها المجحفُ! ما كلُّ هذا الحقد، ولم كل هذه الكراهية؟»

«يا عديمَ الرحمةِ! أتظنُّ نفسَك إنساناً؟ أيُّها المحروم من الإنسانية! أيها المكروهُ! إنك في هيئة إنسان، ولكنك وصمةُ عارٍ على جبين الإنسانية!»

«وعقب هذه الكلمات، سدَّ أبو بكر الصِّدِّيق عينَ الرجلِ الجشعِ بمال الدُّنيا، فاندهش الرجل كثيراً من هذا الموقف، وتابع حالة أبي بكر بكلِّ حيرة واستغراب»

«فقال أبو بكر الصِّدِّيق الذي لاحظ حيرته واستغرابه: أيُّها الأحمق! إنك مثل الطفلِ الصَّغيرِ أعطيتني مقابلَ جوزة واحدة لؤلؤةً غالية لا تُقدَّر بثمن، ولكنك لا تعلم ذلك! لا تعرف أنَّ بلالاً يساوي الدارين، إني أنظر إلى روحه، وأما أنت فتنظر إلى لون بشرته..»

«لو أنك أبطأت في بيعه قليلاً، لأعطيتُك أكثرَ من ذلك، ولو أبطأت أكثر، لأعطيتك كلَّ ما أملك، حتَّى إنِّي لكنت لجأت إلى الديون من أجل ذلك، ومع ذلك كنت سأخرج رابحاً من هذه التجارة، يا مَن لا نصيبَ له! اعلم بأن قيمة الجوهرة لا يعلمها إلا أهلُها»

إن مولانا جلال الدين الرومي يبيِّنُ لنا في هذه القصة - إلى جانب المظهر الكامل للرحمة والشفقة - أنَّ الإنسانَ الكاملَ لا يُقدَّر بثمنٍ؛ أي: أن القيم الدنيوية لا تساوي شيئاً مقابل البناء الروحي للإنسان، فينقش بذلك حقيقةً سامية في قلوبنا.

وبهذا العمل القيِّم يُظهر لنا أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ مرة أخرى محبَّتَه الكاملة لرسولِ الله ﷺ.

ومن علامات محبَّة أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ التي لا حدودَ لها للنبي ﷺ:

- محبَّتُه لما جاء به الرَّسول ﷺ من القرآن الكريم وأحكام الإسلام محبَّةً قلبيةً وروحيةً، والعملُ بموجبها.
- إظهارُ الرحمة والشفقة تجاه أمَّته عليه الصَّلاة والسَّلام، والاهتمامُ بالقضايا والمسائل التي تخصُّ مصلحتَهم.
- الزهد في الدُّنيا، والاستعدادُ للفقر، والرِّضا به إن لزم الأمر.
- رغبته الصادقة بالتقرُّب إليه.
- تذكُّرُه بشكل دائم.

خالد بن سعيد ﷺ: سببُ هدايته هو رؤيا مرعبة رآها في منامه، حيث رأى ذات ليلة في منامه أنَّه يقفُ على شفا حفرة من النار، وكان أبوه يدفعه ليسقط في تلك النار، فجاء الرَّسول ﷺ فاحتضنه على الفور، وأنقذه من السقوط في تلك الحفرة الملتهبة، فلما استيقظ من الخوف قال لنفسه:

«أقسم بالله إن هذه الرُّؤيا حق»

فتوجه برفقة أبي بكر الصِّدِّيق إلى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام وتشرَّفَ بشرف الإسلام.

ولما سمع الأب بإسلام ابنه خالد، آذاه، وقال:

«اذهب يا لكعُ حيثُ شئتَ، والله لأمنعَنَّكَ القوتَ»

فقال خالد: «إن منعتَي، فإن الله يرزقُني»

وبقي خالد ملازماً النبيَّ ﷺ، ولم يفارقه أبداً إلى حين هجرته إلى الحبشة. [٣٤٥]

وبعد ذلك تشرَّفَ بالإسلام كلٌّ من زوجة خالد أُمينة، وأخوه عمرو مع زوجته فاطمة.

---

٣٤٥ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٧٧- ٢٨٠.

وخلال فترة الدعوة سرّاً عمل أبو بكر الصِّدِّيق على دعوة مَن حوله إلى الإسلام، فكان ممن نال نعمة الإيمان نتيجةً لهذه الجهود كلٌّ من **أبي عبيدة بن الجراح، وعثمان بن عفان، والزُّبيرِ بن العوام، وعبدِ الرحمن بن عوف، وسعدِ بن أبي وقاص، وطلحةَ بنِ عبيد الله،** رضي الله عنهم أجمعين.[٣٤٦]

يتحدث عثمانُ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ عن الحادثة التي جرت معه، حيث يقول:

«يا رسول الله**!** بينا أنا نائمٌ عندما كنتُ في الشام، سمعت صوتاً يناديني: أيها النائم**!** استيقظ من نومك**!** لأنَّ أحمدَ ظهر في مكَّة. ولما عدنا إلى مكَّة أُخبرنا بأمر نبوَّتِك»[٣٤٧]

ويقول طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

«حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم: أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: فقلت: نعم، أنا، فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال: قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه. قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال فخرجت سريعا حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمين تنبأ وقد تبعه ابن أبي قحافة ، قال: فخرجت حتى دخلت على أبي بكر، فقلت: أتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق، فأخبره طلحة بما قال الراهب فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على النبي ﷺ فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله بما قال الراهب، فسر النبي ﷺ بذلك، فلما أسلم أبو بكر وطلحة بن عبيد الله أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدهما في حبل واحد، ولم يمنعهما بنو تيم، وكان نوفل بن خويلد يدعى أسد قريش، فلذلك سمي أبو بكر وطلحة القرينين » [٣٤٨]

ومن الصحابة السابقين إلى نيل شرف الإسلام أيضاً: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، وأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأسماء بنت أبي بكر، وخبَّاب بن الأرتِّ، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وزوجته أسماء بنت عُمَيسٍ، وأبو حذيفة، وعامر بن فهيرة، رضي الله عنهم أجمعين.

---

٣٤٦ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٦٨.

٣٤٧ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٥٥.

٣٤٨ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢١٤؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤١٦٥٧٥/ ٥٥٨٦ .

دارُ الأرقمِ: المركزُ التَّربويُّ والتَّعليميُّ الأوَّلُ للمسلمينَ

لقد استمرَّ النبيُّ ﷺ في التبليغ والدعوة إلى الإسلام سرّاً مدَّةَ ثلاث سنوات، فقد كره النَّبيُّ ﷺ أن يعرض دعوتَه على مَن لا يقبل بها.

وبدأ الصحابة الكرام يجتمعون في السنة الأولى للنُّبوَّة في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه بعد دخوله الإسلامَ.

وكانت دارُ الأرقم - التي عُرِفَتْ أيضاً باسم «دار الإسلام» - في مكَّة المكرَّمة بجانب جبل الصفا، حيث كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يتخفَّى عن أعين مشركي قريش، ويدخل إلى هذا البيت المبارك، فيبيِّنُ الإسلامَ للقادمين إليه، ويقرأُ عليهم القرآنَ الكريم، ويعلِّمُهم إياه، ويقيمُ الصَّلاة معهم، وقد عرف كثيرٌ من الناس الإسلامَ في هذا المكان.

ومن هؤلاء سيِّدنا عمر رضي الله عنه الذي أسلم في السنة السادسة للبعثة.

وقد قدَّم بيتُ الإسلام هذا خدمات جليلة في تبليغ الإسلام وتعليمه، وبعد فترة من الزمن أوقفَ أرقمُ رضي الله عنه دارَه على خدمة الإسلام، وجاء كتاب الوقف بالصيغة الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصفا، أنها صدقة بمكانها من الحرم لا تباع، ولا تورث شهد هشام بن العاص، وفلان مولى هشام بن العاص» [٣٤٩]

لقد قضى النبيُّ ﷺ السنوات الثلاث الأولى من نبوَّتِه بالدعوة إلى الإسلام سرّاً، وإنَّ الدعوةَ سرّاً لم تكن بسبب الخوف من تعرض نورِ الكون عليه الصَّلاة والسَّلام للأذى أو المشقة، وإنما كانت السِّرِّية من أجل حفظ مصلحة الدين؛ لأنَّه لم يكن قد جاء الأمرُ الإلهيُّ بعدُ بشأن القيام بالتبليغ بشكل معلن، فلو أُعلن الإسلام منذ فترته الأولى لتعرَّضَ المسلمون الأوائل الذين آمنوا حديثاً - والذين كان أغلبُهم من الضعفاء والفقراء - إلى المهالك، ولربما فتح هلاكهم البابَ أمام انتهاء الدين قبل بدئه.

٣٤٩ الحاكم: المستدرك، ٣، ٥٧٤- ٥٧٥/ ٦١٢٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٤٢- ٢٤٤.

ومن خلال واقعة دار الأرقم يمكن استخلاص النتائج الآتية المتعلقة بالأصولِ الإسلاميّةِ:

١. يجب أن تكون السِّرِّية – عند الحاجة – منهج الدعوة.

٢. إن التربيةَ والتَّعليمَ هما الخطوة الأولى والضرورية في تطبيق أيٍّ من الأنظمة سواء الاجتماعية، أو الدينية، أو السياسية، فلكي يكتسب الأفراد أرضيّةً مناسبةً لقَبولِ الدعوة يجب تحضيرهم بمنطقها وأخلاقها.

ووفقاً لذلك، كان على النبيِّ ﷺ تشكيلُ هذه الطرق والأصول التي سوف تُتَّبعُ في كلِّ الأنشطة الإسلامية حتى يوم القيامة على ضوء تلك التطبيقات العملية من التربية والتعليم، ويجب الانتباه بالدرجة الأولى إلى أنشطة التربية والتعليم هذه في الجهود التي تُبذل من أجل تجديد الإسلام أو نشره في الأماكن التي لم يصل إليها بعد.

السنة الرابعة للبعثة

فاصدعْ بما تُؤمَر:
وأنذرْ عشيرتَكَ الأقربين

بعد فترة الدعوة سرّاً والتي استمرت ثلاث سنوات – أي: في السنة الرابعة للبعثة – قال الله تعالى للرسول ﷺ:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [٣٥٠]

وبهذه الآية الكريمة أمر النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بالجهر بالدعوة والصدع بالتبليغ.

وفي آية كريمة أخرى يظهر هذا الأمر بشكل أوضح، حتَّى إنَّه يصل إلى درجة التحذير من المخالفة، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٣٥١]

وبناءً على ذلك فقد بيَّن الله تعالى للرسول ﷺ الخطابَ الذي يوجِّهُهُ إلى الناس تنفيذاً لأمر الجهر بالدعوة، إذ يقول الحقُّ سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٣٥٢]

ليبدأ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بدعوة الناس إلى الإسلام جهراً.

---

٣٥٠ الحجر: ٩٤- ٩٥.

٣٥١ المائدة: ٦٧.

٣٥٢ الأعراف: ١٥٨.

ولكن كان فكره مشغولاً بكيفية البدء بالدعوة، ومن أين يبدأ؟ فجاءه الوحيُ الإلهيُّ ليبيِّنَ له الأمرَ، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [٣٥٣]

بعد نزول هذه الآيات؛ يقول علي، ﵁:

«دعا رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة، ويشرب الفرق، قال: فصنع لهم مدا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس – أو لم يشرب – فقال:

«يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟»

قال: فلم يقم اليه أحد، قال: فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: «**اجلس**» قال: ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «**اجلس**» حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي» [٣٥٤]

إن عزم رسول الله ﷺ بقي قوياً، ولم ينحنِ أمامَ رفضِ أقربائه في اللحظة الأولى تقديمَ العون له من أجل القيام بأعباء الدعوة؛ لأنَّ الله تعالى خاطبه بقوله:

﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٣٥٥]

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [٣٥٦]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٥٧]

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣٥٨]

---

٣٥٣ الشعراء: ٢١٤–٢١٨ .

٣٥٤ أحمد: مسند، ٢، ٤٦٥/ ١٣٧١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٣٠٢/ ١٤١٠٩.

٣٥٥ يس: ١ – ٤.

٣٥٦ النساء: ٧٩.

٣٥٧ سبأ: ٢٨.

٣٥٨ الأعراف: ١٥٨.

تميَّزَ الرَّسول ﷺ – كما يتبيَّن من الآيات الكريمة – عن سائر الأنبياء والرُّسل بأنَّه ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافَّة، بينما بُعث الأنبياء والرُّسل الآخرون إلى قومهم خاصَّة، ويبيِّنُ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هذه الميِّزة الخاصَّة به في الحديثِ الشَّريف، حيث يقول:

«أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٣٥٩]

وفي رواية أخرى يشير النبي ﷺ إلى ثلاثة خصائص أخرى، حيث يقول:

«بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي»[٣٦٠]

إن ما يأتي به الإنسان يلقى القَبول من أقاربه المحيطين به بشكل أسرع بالمقارنة مما يلقاه من الأباعد، وأيضاً عندما يدخل الأقارب في عداد مَن يقبلون بالدعوة يمكن الوصول بهذه الطريقة إلى المجتمع الإسلامي بأقصرِ مدَّةٍ زمنيَّة، وهذا الأمر ظاهر للعيان، فإذا لم يلقَ الداعي من أقاربه التَّصديقَ والتَّأييدَ فمن الصعوبة بمكان أن يُؤمِنَ به المخاطبون الآخرون، ويقدِّموا له الدعمَ والعونَ، ولهذا لما بدأ فخرُ الكائنات سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ العمل بالأمر الإلهي، بدأ أعمال الدعوة والتبليغ بأقربِ الناس إليه.

ومن جهة أخرى، فقد أولى الانبياء أهمِّيةً كبيرةً للتأييد والعون الذي يلقونه من أقاربهم حتى يتمكَّنُوا من النجاح في مهمة التبليغ؛ فإنَّ للدعم والعون المقدَّم من أقرباءِ الأنبياءِ أهمِّيةً كبيرةً فيما يتعلَّقُ بتأديتهم لوظيفة التبليغ المكلَّفين بها، ويبين القرآن الكريم هذه الحقيقةَ من خلال عرض أمثلةٍ عن الأنبياء السابقين، ومن هذه الأمثلة:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٣٦١]

---

٣٥٩ البخاري: التيمم، ١/ ٣٣٥.

٣٦٠ مسلم: المساجد، ٦/ ٥٢٣.

٣٦١ هود: ٩١.

وأيضاً لما وقف سيدنا لوط عليه السلام عاجزاً أمام انحرافات قومه وفسقهم، أصابه حزن شديد؛ لأنَّه لم يلقَ المساندةَ والتَّأييدَ الذي كان يأملُه من أقاربه، وقال كما ينقله الله تعالى عن لسانه:

﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [٣٦٢]

لقد أولى الإسلام أهمِّية مختلفة لحماية الأقارب ورعايتهم، ولهذا السبب إذا رغب الإنسان أن يتشرَّف الناس بنعمة الإيمان فعليه أن يفكِّرَ أوَّلاً وقبلَ كلِّ شيء بعائلته وذوي قرباه.

حيثُ يقولُ الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز:

﴿**...وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ...**﴾ [٣٦٣]

دعوةُ النبيِّ ﷺ قريشاً إلى الإسلامِ على الصَّفا

لما نزلت: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ:

«**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**»

قالوا: نعم! ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً!.

فلما استوثقَ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من تصديق كلِّ من جاء إلى الصفا بلا استثناء بيَّنَ لهم الحقيقةَ الإلهيَّة، حيث قال:

«**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»

لم تلقَ خطبة الرَّسول ﷺ اعتراضاً عامّاً من الحاضرين هناك، إلا أن أبا لهب وحدَه قال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ وتكلَّمَ بكلام جارح وغير لائق، فأحسَّ النبي ﷺ بانكسار القلب لما لاقاه من السخرية والاحتقار من عمِّه أبي لهب. فنزلت سورة المسد:

---

٣٦٢ هود: ٨٠.

٣٦٣ الأحزاب: ٦.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ .[٣٦٤]

لقد ذُكرت في السورة امرأةُ أبي لهب أيضاً؛ لأنَّها كانت مثلَ زوجها تؤذي النبيَّ ﷺ كثيراً، وتضع الشوكَ في طريقِ الرَّسول ﷺ.

وفي الوقت ذاته تفيد هذه السورة ضمناً أنه لا قيمةَ على الإطلاق لقرابة العرق أو النسب، وأنَّ الشيءَ المهمَّ هو القربُ الرُّوحيُّ والتقوى، فليس للروح عرقٌ؛ إذ العرقُ شيءٌ خاصٌّ بالجسد، والجسدُ سوف يُدفَن يوماً في التراب، وبالتالي فإن قيمة الإنسان هي بمقدار اكتماله الروحي، وهذا هو الوصف المكرَّمُ للإنسان، وإنَّ الجانبَ الماديَّ للإنسان هو بمثابة الثوبِ الذي تدخلُ فيه الروح، وكما هو معلوم فإن الإنسان لا يكتسب القيمة بالأثواب التي يرتديها مهما بلغ جمالها. وقال عليه الصلاة والسلام:

«يا بني عبد منافاه إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف، يا صباحاه» [٣٦٥]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«...إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدا والنار أبدا» [٣٦٦]

---

٣٦٤ البخاري: التفسير، ٦٢/ ٤٧٧٠؛ مسلم: الإيمان، ٣٥٥ / ٢٠٨.
لقد كان النبيُّ ﷺ يهدفُ من هذا التصرُّف إلى تحقيق نوع من إثبات الشخصية؛ لأنَّ الناس يتعلَّقون كثيراً بالشخصية المميَّزة، ومن ثَمَّ يطيعون صاحبها في كلِّ شيءٍ. ومن الضروري في عصرنا الحالي لمن يقوم بمهمة التبليغ العملُ بالمنهج نفسِه في إثبات الشخصية من خلال الالتزام بالأمانة، والصدق، وأن يُؤكِّد على استقامته ونزاهته في نظر المجتمع، وإن حبيب النجار الذي مرَّ ذكره في القرآن الكريم كان يقوم بإثبات شخصية الإنسان الصالح من خلال ما نقله لنا القرآن الكريم من قوله: **﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾** (يس: ٢١)، وتفيد الآية الكريمة في الوقت نفسه ضرورةَ أن يكونَ القيام بالتبليغ في سبيل رضا الله تعالى فقط، وأن يلتزم المبلِّغُ نفسُه بطريق الاستقامة.

٣٦٥ مسلم: الإيمان، ٣٥٣/ ٢٠٧؛ أحمد: مسند، ٢٥، ٢٥٥/ ١٥٩١٤.

٣٦٦ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١، ٦٥٩.

ونتيجة للجهود التي بذلها الرَّسول ﷺ في الدعوة والتبليغ أسلم كلٌّ من عمَّاته: السيِّدة صفيَّة، والسيِّدة عاتكة، ومولى العباس أبو رافع، وأبو ذرٍّ، وعمرو بن عبسة، رضي الله عنهم أجمعين.

لم يكن أبو ذرٍّ ﷺ يعبدُ الأصنام حتى في أيام الجاهلية، وقد تحدَّث عن نيله للهداية، فقال:

لقد كنتُ رجلاً من قبيلةِ غفار، وقد انتشر خبرٌ بين الناس بأنه ظهر في مكَّة رجلٌ يدعي النُّبوَّة، فأوقع الله تعالى في قلبي حبَّ الإسلام منذ ذلك الوقت، فقلت لأخي أُنيسٍ:

اذهب إلى مكَّة، فانظر أمر ذلك الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، وأتني بخبر عنه.

فانطلق أخي أُنيسٌ إلى مكَّة، فلقيه وسمع حديثه، ثم رجع، فسألته: ماذا صنعتَ؟ وما وراءك؟

فقال أخي: لقد لقيتُ في مكَّة رجلاً على دينك، ويدعي بأن الله تعالى أرسلَه نبيّاً.

فقلت: وماذا يقول الناسُ عنه؟

فقال: يقولون عنه: ساحرٌ، وكاهنٌ، وشاعرٌ.

وقد كان أخي أُنيسٌ شاعراً، ويعرف شعر العرب ورجزه، فقال عن النبي ﷺ:

والله لقد سمعتُ قولَ الكهنةِ فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقراء الشِّعْرِ فلا يلتئِمُ على لسان أحدٍ أنَّه شعرٌ، والله إنَّه لصادق، وإنَّهم لكاذبون! وإنه والله يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويأمر بالخير وفضائل الأعمال، وينهى عن الشرِّ وسيء الأعمال.

فقلت لأخي: والله ما شفيتَ لي غليلاً، ولا قضيتَ لي حاجةً، فهل أنت كافٍ عيالي حتى انطلق فأنظر في أمره؟

قال: نعم.

فأخذت جِراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكَّة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشربُ من ماء زمزم؛ لأرويَ عطشي وأُسكِتَ جُوعي، وأكون في المسجد منتظراً، فمرَّ بي عليٌّ بن أبي طالب - ﷺ - فقال: كأن الرجلَ غريبٌ؟!

قلت: نعم.

قال علي: فانطلق معي إلى المنزل.

فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحتُ غدوتُ إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي عليٌّ، فقال: أما آنَ للرجلِ أن يعرفَ منزلَه؟

قلت: لا.

قال عليٌّ ﵁: انطلق معي إلى المنزل.

فانطلقنا ولما وصلنا إلى بيته سألني: ما أمرُك؟ وما أقدمَك هذه البلدةَ؟

قلت له: إن كتمتَ عليَّ أخبرتُك؟

قال: فإني أفعلُ.

قلت له: بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبيٌّ، فأرسلت أخي ليكلِّمَه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه، فقدمت مكَّة.

فقال: أما إنك قد رشدتَ، إنَّه رسولُ الله تعالى ونبيُّه الحقُّ، فإذا أصبحنا فاتبعني حيثما سرتُ، ادخلْ حيثُ أدخلُ، فإنِّي إن رأيتُ أحداً أخافُه عليك، قمتُ إلى الحائط كأنِّي أصلحُ نعلي، وامضِ أنت.

فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبيِّ ﷺ، فقلت: السلام عليك يا رسول الله! فكنت أوَّل من حياه بتحية الإسلام. يا محمَّدُ، إِلامَ تدعو الناس؟

فقال النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«أدعو إلى اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وخَلْعِ الأوثانِ، والشَّهادةِ بأنِّي رسولُ الله»

فلما عرض الإسلامَ عليَّ، أسلمتُ مكاني، فسُرَّ النبيُّ ﷺ بإسلامي، وقال لي:

«يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»

فقلت: يا رسول الله، إني أريد أن أظهر ديني.

فقال الرَّسول ﷺ:

«إني أخاف عليك أن تقتل»

قلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم، وإن علمت أنِّي مقتولٌ بعد ذلك، فسكت النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

فجئت إلى المسجد الحرام حيث يجتمع القرشيون، فوقفت هناك وناديت بأعلى صوتي، وقلت: يا معشرَ قُريشٍ، إني أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُه ورسولُه.

فقال المشركون: صبأ الرجل! صبأ الرجل! قوموا إلى هذا الصابئ[٣٦٧]، فقاموا إليَّ، وضُربت حتى كدت أن أموتَ، فأدركني عمُّ النبيِّ ﷺ العباسُ، فأكبَّ عليَّ، ثم أقبلَ عليهم، فقال:

ويلَكم يا معشرَ قريشٍ! تقتلونَ رجلاً من غفار، ومَتجرُكم ومَمرُّكم على غفار!؟ أم أنَّكم تودُّون قطعَ طريق تجارتكم؟، فأقلعوا عني وتفرَّقوا.

فلما أن أصبحتُ الغدَ رجعت إلى المسجد الحرام، فقلتُ مثل ما قلتُ بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصُنعَ بي مثل ما صُنعَ بالأمس، وأدركني العباس فأكبَّ عليَّ، وقال مثلَ مقالته بالأمس، ومن ثَمَّ قمتُ، فجئت إلى رسول الله ﷺ، فرأى ما بي من الحال فقال لي:

«ألم أنهك؟»

فقلت: يا رسول الله! كانت حاجة في نفسي فقضيتها.

وبقيت مدة بجوار النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وبعدها قلت:

يا رسول الله، بم تأمرني؟

فقال رسول الله ﷺ:

«الحق بقومك، فإذا بلغك ظهوري فائتني» [٣٦٨]

تابع فخرُ الكائنات سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ دعوةَ الناس إلى الإسلام، حيث كان يتجوَّلُ دائماً خلال مواسم الحج في أسواق مكَّة مثل سوق عكاظ والمجنّة وذي المجاز، ويقصد أماكن تجمُّعِ الناس ويبلِّغُ الإسلامَ إلى كلِّ مَن يصادفه، فلا يفرِّقُ بين الحرِّ والعبد، والقويِّ والضعيف، والغنيِّ والفقير، إذ كان يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى.[٣٦٩]

---

٣٦٧ لقد كان المشركون في مكة يطلقون هذا الاسم على المسلمين ويعني «الرجل الذي فارق دينه»

٣٦٨ البخاري: مناقب الأنصار، ٣٣، المناقب، ١٠؛ أحمد: مسند، ٥، ١٧٤؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣٨٢-٣٨٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٢٠ - ٢٢٥؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ٣٢٨؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٣، ٣١٥/ ٣٦٨٩٤.

٣٦٩ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٢١٦-٢١٧.

إن الآيات القرآنية التي كانت تنزل في هذه الفترة كانت تخبر عن الأحوال المهولة والمفزعة ليوم القيامة، مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ. يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا. فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ. يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٣٧٠]

وبعد إعلان الرَّسول الأكرم عليه الصَّلاة والسَّلام نبوَّتَه وجهره بالدعوة إلى الإسلام، بدأ نزولُ الآيات الكريمة التي تتضمَّنُ ذمَّ المشركين وأصنامِهم وتهديدَهم، مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [٣٧١]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٣٧٢]

لما بدأ النبيُّ ﷺ بذمِّ الأصنام التي عكفَ المشركون على عبادتها، وقال بأن أجدادَهم الذين ماتوا على الكفر والضلالة سوف يدخلون نارَ جهنم، ردَّ مشركو قريشٍ دعوتَه، وعمدوا إلى إنكارها، واتَّحدوا فيما بينهم على عداوة رسول عليه الصلاة والسلام والحقد عليه، ولكنهم لم ينالوا منه بسبب حماية عمِّه أبي طالب له.[٣٧٣]

لقد ذهب بعض المشركين المتجبِّرينَ بعيداً في عداوتِهم وبغضِهم الشديدِ للرَّسول الأكرم عليه الصَّلاة والسَّلام، فكانوا بذلك من الضالين الذين خسروا خُسراناً أبدياً، ومن هؤلاء المشركين: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، وأُميّةُ بن خلف، وعاص بن وائل، والنضر بن حارث، وعقبةُ بن أبي مُعَيطٍ، وعُتبةُ بن ربيعةَ.

---

٣٧٠ الطور: ٧- ١٤.

٣٧١ الانبياء: ٩٨.

٣٧٢ فصلت: ٦.

٣٧٣ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٩٩.

أهمِّيةُ التَّبليغِ وأسلوبُه

التبليغُ هو: إفهامُ الناسِ الدِّينَ الإسلاميَّ وأصولَه، والسَّير وفقَ أوامرِه في شتى مجالات الحياة، ومن أشهر العبارات التي يُعرَّف بها التبليغُ أنَّه هو «**الأمرُ بالمعروف، والنَّهيُ عن المنكر**». وقد بيَّنَ الله تعالى في القرآن الكريم بأن التبليغ من واجب كلِّ المؤمنين، وأمرَهم بذلك، حيث قال تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٣٧٤]

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [٣٧٥]

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أيضاً أهمِّيةَ التبليغِ في الأحاديث الشَّريفة، حيث قال:

«**نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»[٣٧٦]

«...**فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم**» [٣٧٧]

«**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**»[٣٧٨]

ويروي لنا الصحابي أنس رضي الله عنه حديثاً يبيِّنُ المرتبةَ العليا التي ينالها مَن يقومُ بمهمّةِ تبليغ الإسلامِ يومَ القيامة؛ حيث يقول أنس رضي الله عنه: إنّ الرسول ﷺ قال:

«**ألا أخبركم، عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله عز وجل على منابر من نور يكونون عليها ؟**»

قالوا: من هم؟ قال:

---

٣٧٤ آل عمران: ١٠٤.

٣٧٥ آل عمران: ١١٠.

٣٧٦ الترمذي: العلم، ٧/ ٢٦٥٦.

٣٧٧ البخاري: أصحاب النبي، ٩/ ٣٧٠١.

٣٧٨ مسلم: العلم، ١٦/ ٢٦٧٤.

«الذين يحببون عباد الله إلى الله، ويحببون الله إلى عباده، وهم يمشون على الأرض نصحاء»

قال: قلنا: يحببون الله إلى عباد الله، فكيف يحببون عباد الله إلى الله؟ قال:

«يأمرونهم بحب الله وينهونهم عما كره الله فإذا أطاعوهم أحبهم الله»[٣٧٩]

إن الذينَ يقومون بمهمة التبليغ على أكمل وجهٍ ينالون ثواباً وأجراً عظيماً على عملهم أغلى من كلِّ كنوز الدُّنيا، في حين أن إهمال هذه الوظيفة يولِّدُ نتائجَ وخيمةً قد تُودِي بالمجتمع بأكملِه، وتؤول به إلى التَّهلُكة والدمار.

وإن تحذير النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الشأن لافت للانتباه، ومثيرٌ للعجب إلى درجة كبيرة، حيثُ يقولُ في الحديثِ الشَّريف:

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[٣٨٠]

ويروي الصحابي أبزى الخُزاعيُّ رضي الله عنه حادثة جرت في عهد النبيِّ ﷺ فيقول:

«خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا، ثم قال:

«ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون؟، والله ليعلمن أقوام جيرانهم، ويفطنونهم ويفقهونهم، ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون ويتفقهون أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا»

ثم نزل فدخل بيته، فقال قوم: من تراه عنى بهؤلاء؟ فقالوا: نراه عنى الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوما بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال:

«ليعلمن قوم جيرانهم وليفقهنهم وليفطننهم وليأمرنهم، وليهينهم وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا»

---

٣٧٩ البيهقي: شعب الإيمان، ٢، ١٢/ ٤٠٥؛ علي المتقي: كنز العمال، ٣، ٥٨٦- ٦٨٦.

٣٨٠ الترمذي: الفتن، ٩/ ٢١٦٩.

فقالوا: يا رسول الله أبطير غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم أبطير غيرنا؟ فقال: ذلك أيضا، قالوا فأمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويفطنوهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾»[٣٨١]

لقد تابع نور الكون سيِّدنا محمَّد ﷺ تبليغَ الدين المبين بالكمال والسموِّ القلبيِّ الذي أوصله الله تبارك وتعالى إليه، وبشوق كبير من أجل إيصال البشرية إلى الهداية والرشد، ومن خلال المشاعر التي كانت تعتلج في قلبه بضرورة الوفاء بالأمانة الإلهيَّة التي أُودِعَت لديه، فقد أوصل تلك الأمانة «**أمانة التبليغ**» إلى قمَّةِ القِمم، فردَّ كلَّ العروض والإغراءات الدنيوية التي عُرِضت عليه لثنيه عن القيام بوظيفته، وكان الردُّ بكلِّ حزم ودون أدنى تردُّدٍ، واعتبر عبوديَّته للحقِّ سبحانه وتعالى فوق كلِّ شيءٍ.

لقد كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يشرح الإسلام للناس بما يتناسبُ ومستوى إدراك كلِّ شخص، ووفق المعايير والمفاهيم التي يمكن للمخاطبين بالدعوة فهمُها، وإنَّ هدايةَ الناس كانت تُدخِلُ إلى قلبه مشاعرَ لا تُوصَفُ من السرور والبهجة حتى لو كان المهتدي شخصاً واحداً؛ فقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام يشعر بلذَّةٍ كبيرةٍ من توضيحه وشرحه الإسلام مطوَّلاً حتى لعبدٍ مع أنه في فتح كبير كفتح خيبر، وهو بذلك أصبح وسيلة لهدايته إلى طريق الحقِّ.[٣٨٢]

ومرة أخرى، وبعد تحمُّلِ النبيِّ ﷺ لمشاقِّ سفرٍ دام عشرة أيام إلى الطائف أصبح سبباً في هداية شخص واحد فقط، وهو عدّاسٌ النَّصرانيُّ، ولقد نسي بعدَ ذلك كلَّ الأحداث الأليمة التي مرَّ بها في الطائف.

وقد كان النبيُّ ﷺ يبذلُ قُصارى جهده وطاقته من أجل أن ينيرَ قلوب كلِّ البشر بنور الإسلام، ولم يكن يعرف التذمُّرَ، ولا المللَ، ولا التعب، يروي لنا الصحابيُّ أبو رفاعة ﵁ حادثة تبيِّنُ مدى حساسية النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام تجاه أمر التبليغ، حيث يقول:

٣٨١ المائدة: ٧٨-٧٩. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١، ١٦٤/ ٧٤٨؛ علي المتقي: ٣، ٦٨٤/ ٨٤٥٧.

٣٨٢ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩٨.

«انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتي بكرسي، حسبت قوائمه حديدا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها» [٣٨٣]

وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أيضاً حريصين كلَّ الحرص على تبليغ الحقيقة، وتصحيح الأخطاء والانحرافات التي يرونَها أمامَهم، ولم تكن وظيفةُ تحذير المخالفين لسنة النبي ﷺ محصورةً بأشخاص معيَّنين من بينهم، إذ إنَّ كلَّ واحد منهم كان يقوم بالواجب المترتِّب عليه في كلِّ زمان ومكان، ولم يكونوا يخافون في الله لومةَ لائم، فما كانوا يتحمَّلون أيَّ تصرُّف مخالفٍ لسُنة النبي ﷺ، وكانوا يعبِّرون للمعترضين علىً أحاديث الرَّسول ﷺ بعدم تحمُّلهم البقاءَ معهم تحت سقف واحد[٣٨٤]، وعدم إمكانية قَبولِهم بالبقاء مع الذين يتكلَّمون بآرائهم الشخصية تجاه الأحاديث النبوية الشَّريفة في بلاد واحدة، بل يغادرون ذلك المكان. [٣٨٥]

يقول سفيانُ الثوريُّ قدَّس الله سِرَّه عن أهمِّية التبليغ:

«إنَّ ذهابَكَ إلى خرسانَ والبقاءَ هناكَ في سبيلِ التبليغِ خيرٌ لك من مجاورةِ مكَّةَ».

إن كان التبليغ بهذا القدر الكبير من الأهمِّية، فإنَّ إعدادَ الأشخاص الذين سوف يقومون بوظيفة التبليغ بالشَّكلِ الأمثل تحملُ القدر نفسه من الأهمِّية، وإن الحادثة التي نوردها فيما يأتي تبين مدى قيمة وأهمِّية المبلِّغ الذي يكون من أرباب القلوب:

كان سيِّدنا عمر بن الخطاب ﷺ جالساً ذات يوم مع أصحابه، فطلب منهم أن يعبِّروا عما يتمنونه ويريدونه من الله ﷻ، فقال بعضهم:لو أن لنا ملءَ هذا المكان نقوداً لأنفقناها في سبيل الله تعالى! وقال آخر: أتمنى لو أنَّ هذه الدار مملوءةٌ ذهباً أنفقه في سبيل الله وأتصدَّقُ! و قال رجل: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة زبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدَّقُ! ثم قال عمر تمنوا! فقالوا: ما ندري ما نتمنَّى يا أمير المؤمنين! فقال عمر ﷺ:

٣٨٣ انظر: مسلم: الجمعة، ٦٠/ ٨٧٦؛ أحمد: مسند، ٣٤، ٣٥٥/ ٢٠٧٥٣.

٣٨٤ انظر الشافعي: الرسالة، ص، ٣٩١، اسطنبول ١٩٨٥؛ السيوطي: المفتاح، ص، ٨٤، بيروت ١٩٨٧.

٣٨٥ انظر: مالك، الموطأ، البيوع، ٣٣؛ ابن ماجه: المقدمة، ٢.

أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، و معاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله سبحانه وتعالى؛ أي: أوكِّلهم بمهمات التبليغ والإصلاح. [٣٨٦]

لقد بيَّن ربُّنا ﷻ الذي هو منبع الرحمة والشفقة المطلقة الأسلوبَ الأكثرَ تأثيراً وفعاليةً في مجال دعوة العباد إلى دين الحق، وأمر النبيَّ ﷺ والدُّعاةَ من بعده باتِّباعِه والالتزام به، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [٣٨٧]

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [٣٨٨]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [٣٨٩] **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [٣٩٠]

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣٩١]

---

٣٨٦ البخاري: التاريخ الصغير، ١، ٥٤.

٣٨٧ النحل: ١٢٥.

٣٨٨ العنكبوت: ٤٦.

٣٨٩ إن حال سيدنا يوسف عليه السلام خيرُ مثال على هذه الآية الكريمة، حيث لم يضرب عليه السلام خطيئة إخوته الذين ظلموه بوجوههم، وإنما أخفى هويته عنهم واستمر في إكرامهم والإحسان إليهم، وفي نهاية الأمر تعرف عليه إخوته وقالوا له: **﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا...﴾** (يوسف: ٩١)، واعترفوا بفضله وعلو مكانته عليهم، وطلبوا منه العفو والسماح، وإن هذا مثال بارز على أسلوب التبليغ بالحال الذي له تأثير بالغ على النفوس، وللوقوف على تفاصيل القصة راجع: عثمان نوري طوب باش: سلسلة الأنبياء٢، اسطنبول ٢٠٠٤.

٣٩٠ فصلت: ٣٣- ٣٤.

٣٩١ يوسف: ١٠٨.

وكم من أرواحٍ قاسية كالشَّوكِ تحوَّلت إلى ورودٍ فوَّاحةٍ بالعطر، وأخرى مظلمةٍ كالزنازين أضاءت بالأنوار نتيجةَ اتباع هذا المنهج الإلهي الموصى به.

وقد أوصى الله تعالى سيِّدينا موسى وهارونَ عليهما السلام باتباع أسلوب اللِّينِ والرِّفقِ حتى عندما أرسلهما إلى إنسان مثل فرعونَ المتجبِّرِ البعيدِ عن الحقيقة والمنحرفِ عن السبيل القويم، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٣٩٢]

يتبيَّنُ من هذه الآية الكريمة أنَّ هنالك أمرين أساسيين لمنهج التبليغِ هما:

١. استخدامُ أسلوب اللين والرفق عند تبليغ الحقيقة لشخص ما، والابتعادُ عن كلِّ ما يثير لديه العصبية والأنانية:

إن فرعون على الرغم من تعاليه وتجبُّره مال قليلاً إلى الخضوع أمام معجزات موسى عليه السلام، إلا أن هامان ومَن حوله كانوا أعانوه على طغيانه، فأصابه الغرور والاستكبار، وواجه الحقَّ، وأبى الإيمان.

ولقد أمر الله تعالى - مع كلِّ ذلك - موسى عليه السلام بالرفق به، ودعوته بالتي هي أحسن، وخطابه بالقول الليِّن، إن الله عز وجل يعلِّمنا من خلال أمره لموسى عليه السلام باستخدام «القول اللين» منهجَ التبليغ الذي ينبغي علينا اتباعُه، وبناءً على ذلك، ففي مجال التبليغ يجبُ أن تُلان القلوب وتُستمال، ثم يتم التبليغ، [٣٩٣] فلم يكن في حياة الرَّسول ﷺ وحياة أهل الله مكانٌ للمناقشة والجدال، وإنما الأمر الأساسي والمهم لديهم هو التبليغ بالحال.

لقد كان الأنبياء الذين كلَّفهم الله بوظيفة التبليغ ينظرون إلى الناس من نافذة القلب؛ لأنهم جاؤوا من أجل عمارة القلوب، وقد كانوا سبباً في هداية كثير من الناس بسبب

---

٣٩٢ طه: ٤٤.

٣٩٣ في السنة السابعة للهجرة بعد فتح خيبر أصاب مكة قحط وجفاف شديد، فمدَّ النبي ﷺ لأهل مكة يدَ العون، فأرسل إليهم الذهب، و الشعير، والتمر، فاستلم أبو سفيان كلَّ المعونات، ووزعها على فقراء قريش، وقال معبراً عن مشاعر الشكر والامتنان: «جزى الله عنا ابن أخينا كل خير! فقد حفظ لنا حقَّ القربى» (اليعقوبي: ٢، ٥٦).فقد ألان النبي ﷺ بهذه اللفتة الكريمة قلوبَ أهل مكة واستمالهم إليه، وعندما تم فتح مكة بعد مدة دخل هؤلاء المشركين الذين أُلِينَت قلوبهم بهذه المساعدات وغيرها، دخلوا إلى الإسلام بكل سهولة ويسر.

نظرتهم المليئة بالمحبَّة والشفقة تجاه المحيطين بهم، فلو أنَّهم تصرفوا بعكس هذا الأسلوب الجميل والحكيم لاقتلعوا العلاقة التي تربطهم مع الناس الذين حولهم من جذورها، ولأضاعوا في النهاية فرصة نجاحهم في مهمة التبليغ، وهذا الأمر يأتي بخلاف المراد الإلهي؛ لأن الله تعالى يريد تخليص عباده وانتشالهم من المهالك التي انزلقوا إليها، ومن أجل ذلك فقد أرسل الله تعالى عبر التاريخ الإنساني آلاف الأنبياء وأمرهم باتباع أسلوب لطيف لتزكية قلوب الناس؛ ومن أجل الغاية نفسِها تفضَّل الله على عباده «بأهل الله» الذين هم صفوة خلقه في التقوى والحكمة؛ لكي يتبعوا هذا الأسلوب النبوي في تربية الناس من الناحية الروحية والمعنوية، ويحافظوا على استمراره.

فلا يُرجى الخير من الخدمات والأعمال التي تُؤدَّى بأسلوب فظٍّ، وجارح، وجلف، والذي لا يأتلف مع الأخلاق الحسنة، وخاصة الخدمات والأعمال التي تخاطب روح الإنسان مثل التربية، والإرشاد، والتبليغ، إذ ينبغي إظهار أهمِّية للرحمة واللين في هذا المجال؛ حيث إنَّ الله تعالى يخاطب في القرآن الكريم كلَّ الأمة من خلال شخص فخر الكائنات سيِّدنا محمَّد ﷺ، فيقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [٣٩٤]

٢. شمول جميع الناس بالتبليغ بغضِّ النظر عن حالتهم وموقعهم:

من المعلوم أن فرعون كان ظالماً وبائساً ورافضاً للإيمان، وكان في الوقت نفسه مجرماً جانياً، قتل الآلاف من الأطفال الأبرياء في سبيل القضاء على موسى ﵇، وعلى الرغم من كلِّ ذلك فقد خُوطب بالتبليغ الإلهي.

والنبيُّ ﷺ أيضاً دعا أبا جهل عدة مرات إلى الإسلام، وبلَّغه الرسالةَ الإلهيَّة، وعلى الرغم من يقين أبي جهل بنبوة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وتقبُّلِه له في وجدانه إلا أن استكباره وغلبة نفسه منعتاه من الإقرار بذلك، ولكنَّ النبي ﷺ استطاع بسلوكه السامي أن يكون وسيلةً لهداية الكثير من الذين أعلنوا العداء للإسلام في البدء، من أمثال: عمر بن الخطاب، وأبي سفيان، وهند، ووحشي.

---

٣٩٤ آل عمران: ١٥٩.

تفيد هذه الرؤيةُ – في مجال العمل الإسلامي وفي كلِّ النشاطات البشرية أيضاً – أنَّ اللطف واللين والرقة الناتجة عن مراقبة أحوال المخاطبين الفعلية، وأحوالهم المحتملة أيضاً؛ يمكن أن تحقق أعظم النتائج، وهذه الرؤية هي المنطلق الأساسي في سلوك المتصوفين؛ إذ يجعلون أحوالهم أكبر مؤثِّر فيَّاض ومتكامل في مَن حولهم.

ولدى التدقيق في حياة نور الكون التبليغية المليئة بالعبر، والتي دامت ثلاث وعشرين سنة، نشاهد الخصائص التي تنير درب كلِّ داع ومبلِّغ، وهذه الخصائصُ هي:

أ- بدءُ النبيِّ ﷺ بدعوة أقرب الناس إليه؛ لأنَّ الله تعالى يقول:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [٣٩٥]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٣٩٦]

ب- لقد اتبع النبيُّ ﷺ في الدعوة إلى الإسلام طريقة التدرُّج، حيث كان يبدأ من أبسط الأمور وأعمها ثم ينتقل خطوة أعلى إلى ما هو أصعب منها، حتى يكتمل الأمر.

فقد كان أمر الله الأوَّل هو الآية:

﴿اقْرَأْ﴾ [٣٩٧]

ثم بعد ذلك أُعطِيَ الرَّسول ﷺ وظيفة الرسالة، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [٣٩٨]

وبعدها نزل قولُ الله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

وعقب هذه الآية التي أمرت بتبليغ العشيرة، جاءت الآية الأخرى لتوسِّعَ حدودَ وظيفة التبليغ إلى كل المدينة، حيثُ يقولُ الله تعالى:

---

٣٩٥ الشعراء: ٢١٤.

٣٩٦ التحريم: ٦.

٣٩٧ العلق: ١.

٣٩٨ المدثر: ٢.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٣٩٩]

وفي مرحلة لاحقة، تمَّ توسيع حدود الدعوة لتشملَ الولايات المجاورة، إذ يقول الله ﷻ:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ [٤٠٠]

وفي النهاية أُعلِنَ عن توسيع حدود وظيفة التبليغ والدعوة لتشملَ كلَّ الإنسانية، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٤٠١]

ويقول أيضاً:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٠٢]

كما أن فخرَ الكائنات محمَّداً ﷺ راعى التدريج في دعوة الناس، فإنه التزم الأسلوبَ نفسَه لدى تبليغه الأحكام وبيانِها، وإن هناك أمثلةً كثيرة على هذه الأحكام التي تمَّ تبليغها بالتدريج، مثل الأمر بالصَّلاة والصيام، وتحريم الخمر والربا وغيرها.

وإنَّ النبيَّ ﷺ لم يصل بأصحابه الكرام إلى المستوى الذي وصلوا إليه من حيث كمال الأخلاق والإيمان والعبادات بشكل آنيٍّ ومفاجئ، وإنما أوصلهم إلى ذلك المستوى العالي من الكمال بتطوير بطيء لا يكاد يشعر به المرء، ومتبعاً في ذلك التدرج في التبليغ سواء في العقائد أو العبادات، ومثال ذلك: الوصية التي أوصى بها معاذَ بنَ جبل عندما أرسله إلى اليمن، فهذه الوصية تظهر ما ذكرناه آنفاً بشكل جلي، والوصية هي:

«**إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله فإن هم طاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة،**

٣٩٩ القصص ٥٩.

٤٠٠ الأنعام: ٩٢.

٤٠١ الأنبياء: ١٠٧.

٤٠٢ سبأ: ٢٨.

تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» [٤٠٣]

٣. لقد كان الرَّسول ﷺ يترقَّبُ من أجل التبليغ والتعليم أفضل اللحظات التي يكون فيها المخاطبون مستعدين لتلقي التبليغ، وذلك من الناحية الزمانية والمكانية والمعنوية.

وقد كان الصحابي ابن مسعودٍ رضي الله عنه يلقي دروساً على الناس أَيَّامَ الخميس.فقال له رجل:يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا.[٤٠٤]

وأثناء فتح مكَّة جاء العباس رضي الله عنه بأبي سفيان الذي قبل الدخول في الإسلام، جاء به إلى الرَّسول ﷺ، وقال:«يا رسولَ الله، إن أبا سفيان رجل يحبُّ الفخرَ، فاجعل له شيئاً. فقال الرَّسول ﷺ:

«نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» [٤٠٥]

وكان الرَّسول عليه الصلاة والسلام ربَّما يُسأل عن أمر فيجيب حسب حال السائل، فقد اتبع في ذلك منهجاً خاصّاً يراعي فيه السائلين واختلاف أحوالهم.

فقد أجاب عن سؤال: أي الأعمال أفضل؟ - الذي كثيراً ما كان يحرص الصحابة على طرحه - حسب حالة السائلين، وهذه الأجوبة هي:

«إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيل الله، وحج مبرورٌ» [٤٠٦] **«الصَّلاةُ على وقتِها»** **«بر الوالدين»** [٤٠٧] **«ذكرُ اللهِ»** [٤٠٨] **«الحبُّ في اللهِ»** [٤٠٩] **«الهجرةُ»** [٤١٠]

٤٠٣ البخاري: الزكاة، ٤١، ٣٦/ ٤٣٤٧؛ مسلم: الإيمان، ٢٩- ٣١/ ١٩.

٤٠٤ البخاري: العلم، ١١، ١٢/ ٧٠.

٤٠٥ أبو داود: الخراج، ٢٤- ٢٥/ ٣٠٢١/ ٣٠٢٢.

٤٠٦ البخاري: الحج، ٤/ ١٥١٩.

٤٠٧ البخاري: المواقيت، ٥/ ٥٩٧٠.

٤٠٨ الموطأ: القرآن، ٢٤/ ٧١٦.

٤٠٩ أبو داود، السنة، ٢/ ٤٥٩٩.

٤١٠ النسائي: البيعة، ١٤/ ٢٥٢٦.

٤. جعل النبيُّ ﷺ التيسيرَ والتبشيرَ أساسَ حياتِه في كلِّ شأن، وأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار بدرجة كبيرة في مجال التبليغ. حيثُ يقولُ الرَّسول ﷺ في الحديثِ الشَّريف:

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا» [٤١١]

ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [٤١٢]

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [٤١٣]

يقول النبي ﷺ في تفسير هذه الآية الكريمة:

«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي» [٤١٤]

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه حادثة وقعت زمنَ النَّبيِّ ﷺ، حيث يقول:

قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ:

«دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» [٤١٥]

٥. لقد كان النبيُّ ﷺ يحذِّرُ الناس من عذاب الله تعالى، ويرغِّبُهم بالدار الآخرة.

وأوَّلُ ما بدأ الرَّسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام خاطب بني هاشم بقوله:

«...اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم، واعلموا أن أول آت يوم القيامة المتقون، فإن تكونوا يوم القيامة مع قرابتكم فذاك وإياي لا يأتون الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد وجهي عنكم، فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا- فصرف وجهه-، **فتقولون يا محمد فأقول هكذا-** وصرف وجهه إلى الشق الآخر» [٤١٦]

---

٤١١ البخاري: العلم، ١١/ ٦٩، الادب، ٨٠.

٤١٢ البقرة: ١٨٥.

٤١٣ الاعراف: ١٥٦.

٤١٤ البخاري: بدء الخلق، ٥ / ٣١٩٤، التوحيد، ٢٢/ ٧٤٥٣، ٢٨/ ٧٥٥٣؛ مسلم: التوبة، ١٤- ١٦/ ٢٧٥١.

٤١٥ البخاري: الوضوء، ٥٨/ ٢٢٠، الأدب، ٨٠/ ٦١٢٨.

٤١٦ ابن اسحاق: السير والمعازي، ١، ١٤٧؛ اليعقوبي: البلدان، ٢، ٢٧.

٦. إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يدعو النَّاسَ إلى ما يدعوهم إليه بالأقوال فقط، وإنما كان يدعوهم أيضاً بلسانِ حالِه وبالتَّطبيقِ العمليِّ في حياته.

فتبليغ الإسلام من خلال التطبيق العملي يُعتبَرُ خيرَ وسيلة للإرشاد، وقد ضحَّى الصحابة الكرام بأنفسهم ونذروها في سبيل إيصال صدى الإسلام والإيمان إلى كلِّ زاوية من زوايا الدُّنيا، وإعادة النَّاس إلى طريق الهداية، وإن تقديمَ جماليات الإسلام ومحاسنه بالحماس والوجد نفسِه اليومَ يُعدُّ من أفضل مناهج التبليغ والدعوة.

وإن تبليغ الإسلام من خلال التطبيق العملي واجبٌ إلهيٌّ مفروضٌ على كلِّ مؤمن بحسب إمكانياته المتاحة، وقد ازدادت مسؤولية هذه الوظيفة ثقلاً وصعوبة في يومنا هذا بسبب اتساع الإمكانات وتنامي وسائل الاتصال وكثرتها، فعلى الرغم من أن الذين يعيشون في أقاصي بقاع العالم – والذين لم يصلهم خبرُ الإسلام – قريبون منا من جهةٍ بسبب تطور وسائل الاتصال، فإن كثيراً منهم ممن قصرنا في تبليغهم الإسلامَ وأهملنا في إرشادهم سوف يتعلَّقون بنا يومَ القيامة، ويحاسبوننا على تقصيرنا.

تبليغ الدعوة

إن غاية التبليغ والإرشاد في الإسلام هي إيصالُ الدِّين الحقِّ إلى كلِّ النَّاس،[٤١٧] فليس القصدُ حمل النَّاس على الإسلام بالإكراه أو التضليل.[٤١٨]

وأمَّا التبشيرُ المسيحيُّ فيهدف إلى تنصير مخاطبيه وتعميدهم بأيِّ حال من الأحوال، وإن باولوس الذي يتخذه المبشِّرون أسوةً لهم يقول في إحدى رسائله متحدِّثاً عن أسلوب التحرُّكِ في التبشيرِ:

«فاني اذ كنت حرا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لاربح الاكثرين فصرت لليهود كيهودي لاربح اليهود، و للذين تحت الناموس كاني تحت الناموس لاربح الذين تحت الناموس، و للذين بلا ناموس كاني بلا ناموس مع اني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لاربح الذين بلا ناموس، صرت للضعفاء كضعيف لاربح الضعفاء صرت للكل كل شيء لاخلص على كل حال قوماً».

٤١٧ انظر المائدة: ٦٧.

٤١٨ انظر: البقرة: ٢٥٦؛ يس: ١٧.

فكما يتبيَّنُ من نصِّ هذه الرسالة فإن باولوس شرع استخدام كلِّ وسيلة متاحة في سبيل الوصول إلى غايته دون الالتزام في ذلك بقاعدة أو حدود ما، بينما حرَّم الإسلام استخدام الوسائل غير المشروعة ولو من أجل الوصول إلى غايات مشروعة، إنَّ هذا الأصلَ الخاطئ الذي اعتمدته المسيحيةُ المحرَّفةُ منذ البدايات؛ أي: تحقيق غاية تنصير النَّاس بأي ثمن كان بدلاً من إيصال الرسالة إلى البشر، قد تسبَّب في إفساد أصل الدين وفقدانه، وجعل الرسالة تبدو مختلفة في كلِّ مكان تدخل إليه، مما أدَّى مع مرور الزمن إلى انقسام أتباع الدين لفرق ومذاهب مختلفة ومتنازعة.

إن تقرُّبَ المبشِّرين خلال سعيهم إلى التنصير من الذين يعانون حالات إنسانية صعبة سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية، وكذلك من ضحايا الفقر والتهجير والاضطهاد والحرب والكوارث الطبيعية، ومن ثَمَّ استغلال حاجات هؤلاء المادية والروحية أشبهُ بعملِهم على شراءِ ذمم هؤلاء المعانين وإيمانِهم.

ومن جهة أخرى، فإن تداخُلَ التبشير مع الامبريالية جعل غايتَه سياسيةً أكثرَ منها دينية، وإن المبشرين يعملون على تنصير النَّاس في الدول التي اتخذوها هدفاً لهم تحت غطاء فعاليات تعليمية أو صحية أو ما شابه ذلك، وذلك بإنشاء المدارس، ومعاهد اللغات الأجنبية، والمراكز الصحية، وما شابهها من الأنشطة التعليمية والتربوية والصحية.

إن المبشِّرين الذين يتَّبعونَ أصول باولوس في عصرنا الحالي يطبِّقونَ مبدأ «التَّقيَّةِ» كأساس لعملهم؛ أي: أنَّهم يُخفون هوياتِهم الحقيقيةَ عن المقصودين بخطابهم، ويظهرون لهم الهويةَ التي تنال إعجابهم، ويميلون إليها، ويرتاحون لها، مثلاً: إذا كان هدفُهم الذي اختاروه هم المسلمون، فإنَّهم يلجؤون - مِن أجل أن يظهروا أمامَهم بمظهر لطيف ومقبول - إلى استخدام أصول مناسبة لتحقيق غايتهم، وذلك باستخدام المفاهيم والمصطلحات الإسلامية في خطابهم بدل تلك المسيحية، من قبيل قراءة الآيات القرآنية، وارتداء الأزياء الإسلامية، واستخدام مصطلحات إسلامية مثل «شيخ» بدلاً من مصطلح «البابا» أو «الراهب»، وكلمة المسجد بدلاً من الكنيسة، وما شابه ذلك من الأمور؛ وكذلك فإنَّهم يعتمَّدون تقديم تنازلات كثيرة عن المسيحية كمبدأ أساسي في عملهم من أجل إخراج النَّاس من دينهم وجذبهم نحوهم.

ومن واجب المسلمين في مواجهة هذه الحملة الشرسة للمبشرين إيلاءُ أهمِّيةٍ كبيرة لتربية أنفسهم وأولادهم، والعملُ الدؤوبُ على تعلم الإسلام وتطبيقه بالشَّكل الأنسب، ومحاولة إيصاله إلى غيرهم من النَّاس، وينبغي على المسلمين على الأقل أخذُ العبرة من المبشرين الذين يبذلون هذه الجهود الجبَّارة في سبيل نشر دينهم المحرَّفِ، ومن ثم عليهم بذل جهد مضاعف من أجل تبليغ دين الإسلام الحقِّ إلى النَّاس من خلال تطبيقه العمليِّ في حياتهم، وذلك لأن شكر نعمة الإسلام - التي لا يمكننا الوفاء بشكرها حقّ الشكر - يستوجبُ منا عدمَ نسيان مسؤولية التبليغ، والقيامَ به على قدر المستطاع.

مواقفُ أبي لهبٍ وامرأتِه تجاهَ النبيِّ ﷺ

لقد كانت «دارُ السَّعادةِ» بيتُ فخرِ الكائنات سيِّدنا محمَّد ﷺ تقع بين منزل أبي لهب وعقبةِ بنِ أبي مُعيطِ المُفلِسين البائسين للأبد، وكان هذان الجاحدان يأتيان بكلِّ الأوساخ والقاذورات فيرميانها أمامَ باب الرَّسول ﷺ، وقد كان قلبُ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام الرقيقُ اللطيفُ الطاهرُ يتأذَّى من هذه المعاملة السيئة التي يلقاها من جيرانه، ويقول:

«**يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟**» ثم يزيلُ الأوساخَ، ويرميها بعيداً عن باب بيته. [٤١٩]

وذات يوم كان أبو لهب يهمُّ بالقيام بالعمل القذرِ نفسِه، فأبصره حمزة ﷺ، فأخذ حمزةُ الأوساخَ من يده ورماها على رأسه، فأخذ أبو لهب من جهة يزيل الأوساخ عن رأسه، ومن جهة أخرى يشتم ويسبُّ حمزة. [٤٢٠]

ولم تكن أم جميل - زوجة أبي لهب - بأقلَّ من زوجها في الإساءة إلى الرَّسول ﷺ وإيذائه، حيث إنَّها كانت تصنع كلَّ ليلة أحزمة كبيرة من الأشواك، فتربطها بعنقها؛ لتجرَّها تحت جنح الظلام، وترميَها على الطريق الذي يمرُّ منه النبي ﷺ، وأما الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فكان يمرُّ عليها وكأنه يطأُ الحرير. [٤٢١]

فنزلت بحقِّهما سورةُ المسد بسبب هذه المظالم الشديدة التي كانت تصدر منهما تجاه النبي ﷺ، ولما سمعت أمُّ جميل بالأمر حملت في يدها حجراً كبيراً، وخرجت تبحث عن

٤١٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٠١.

٤٢٠ ابن الأثير: الكامل، ٢، ٧٠.

٤٢١ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٧٦؛ القرطبي: ٢٠، ٢٤٠.

النبي ﷺ، وفي تلك الأثناء كان الرَّسول ﷺ بجوار الكعبة مع أبي بكر الصديق ﷺ. فلما رأى أبو بكر ﷺ قدومَها باتجاهما، قال لنور الكون:

يا رسولَ الله، إنَّها أم جميل، وإنَّها امرأةٌ مؤذيةٌ وقاسيةُ القلب، أخشى من إيذائها لك إن رأتك، ليتك تنهضُ ونغادر المكان قبل أن تؤذيَكَ هذه المرأةُ بشيء! فقال فخر الكائنات محمَّد ﷺ: «**إنَّها لن تراني!**». وحقاً لم تتمكن أمُّ جميل من رؤية النبي عليه الصَّلاة والسَّلام على الرغم من قدومها إليهما، فوقفت بجانب أبي بكر ﷺ، فتكلَّمت ببعض الكلام تذمُّ النبيَّ ثم انصرفت. [٤٢٢]

ولقد كانت السيِّدة أم كلثوم والسيِّدة رقية – ابنتا النبيِّ ﷺ – مخطوبتين قبل النُّبوَّة لابني أبي لهب؛ عتيبة وعتبة، ولم تتزوَّجا بعدُ، ولما نزلت سورة المسد قالت أمُّ جميل لولديها:

لقد خرجت رقيةُ وأمُّ كلثوم من ديننا، فاتركاهما!.

وقال أبو لهب: رأسي من رأسكما حرامٌ إن لم تُطلِّقا ابنتي محمد.

وبناءً على ذلك جاء عتيبة إلى الرَّسول ﷺ وقال له:

إني لا أعرفُ دينَك، وقد طلَّقت ابنتَك، ومن الآن فصاعداً فلا أنت تأتيني، ولا أنا آتيك،

وبعد أن قال هذا الكلام دنا من رسول الله ﷺ، ومزّق قميصه الصَّلاة والسَّلام!.

فدعا النبي عليه الصَّلاة والسَّلام على عتيبة بسبب هذا التصرف الأرعن والخارج عن حدود الأدب، حيثُ قال:

«**اللهمَّ سلِّط عليه كلباً من كلابِكَ**».

وبعد فترة من الزمن خرج عتيبة في قافلة يريد الشام فنزل منزلا، فقال: إني أخاف دعوة محمد، قالوا له: كلا، فحطوا متاعهم حوله وقعدوا يحرسونه فجاء الأسد فانتزعه فذهب به!. [٤٢٣]

وفي تلك الليلة غادر السبع المكان بعد أن تجوَّلَ حول القوم، فقام أصحاب عتيبة بوضعه وسطهم وناموا، فعاد الأسد من جديد، ومرَّ من بينهم، وبدأ يشمهم ببطء واحداً تلو

٤٢٢ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٧٨- ٣٧٩؛ القرطبي: ٢٠، ٢٣٤.

٤٢٣ الحاكم، المستدرك، ٢، ٢٨٨/ ٣٩٨٤؛ الزمخشري، الكشاف، ٤، ٤١٧.

الآخر حتى وصل إلى عتيبة، فأخذ رأس عتيبة في فمه وعضه عضة شديدة، وأصبح عدو الله يصارع الموت من الألم، وقال:

– ألم أخبركم بأن محمَّداً أصدقُ النَّاس كلاماً؟ ثم استسلم للموت.

ولما وصل خبر عاقبة عتيبة الوخيمة إلى والده أبي لهب، قال:

– ألم أقل لكم: إنني أخاف من دعاء محمَّد على ابني؟ [٤٢٤]

وفي هذه الفترة تعرَّضَ النبيُّ ﷺ للأذى والإساءة على يد كثير من المشركين من أمثال أبي لهب، وكان يتلقَّى كلَّ ذلك بالصبر والتحمُّلِ، ويتابع مهمة التبليغ التي كُلِّفَ بها محتسباً أجرَه عند الله سبحانه تعالى.

جهودُ أهلِ مكَّةَ للتحالُفِ

كان استمرار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بتبليغ الإسلام دونَ الالتفات إلى شيءٍ من المضايقات أو المصاعب يزيد من غيظ المشركين، فيصبُّون نيرانَ حقدهم على المسلمين؛ لأن الدينَ الجديدَ كان يهدِّد مصالحَهم وتجاراتِهم، وعلى إثر هذا أسرعوا إلى أبي طالب وعرضوا عليه حالهم، وطلبوا منه منعَ ابنَ أخيه من المضيِّ في الأمر الذي جاء به، فصرفهم أبو طالب بكلِّ لطف وحكمة، ولم يكلِّم النبيَّ ﷺ في شيء.

ولما لاحظ المشركون عدم تغير الأمور، ذهبوا مجدداً إلى أبي طالب، وقالوا له:

– يا أبا طالب، ما عدنا نطيق التحمل أكثر، إنك تعلم أن ابن أخيك يسبُّ ديننا وآلهتنا، ويتَّهمنا بالجهل والحماقة، فإذا لم يدع ابن أخيك هذا الأمر الجديد الذي جاء به، فإنَّنا سوف نواجهك وإياه على السواء، إما أن تمنعه عن الأمر، أو ارفعْ حمايتك عنه، فإنَّنا آتون إليك من أجله...

فتوجَّه أبو طالب إلى النبي ﷺ وشرح له مواقف المشركين منه بكلِّ لباقة ورقة، ومع أنه لم يرفع الحماية عنه إلا أنه أشعر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بعدم رغبته في مواجهة قريش، حيث قال له:

– احمني، واحمِ نفسَك!

---

٤٢٤ انظر: ابن سعد: الطبقات، ٨، ٣٦-٣٧؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٣٣٨-٣٣٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٩١.

حزن النبيُّ ﷺ كثيراً لقول أبي طالب؛ لأنَّ كلامه يتضمَّنُ معنىً يفيد بأن عمَّه سوف يتخلَّى عن حمايته عند الضرورة؛ فابتلَّت عيناه المباركتان بالدمع من الأسى؛ لأنَّ المسلمين مازالوا ضعفاء، وليست بهم طاقةٌ في مواجهة مشركي مكَّة المتجبِّرين، والذين سَكِرُوا بكثرة ثروتِهم وتفوُّقِ قوَّتِهم. فأنزل الله تعالى الآية الكريمة التالية للتخفيف من هذا الضيقِ الذي وقع فيه الرَّسول ﷺ:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾[٤٢٥]

فهدأ حزنُ النبيِّ ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة، وقال قولتَه المشهورةَ لعمِّه أبي طالب بإيمان صُلب، وشجاعة عظيمةٍ:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته»

ثم استعبرَ النبي ﷺ، فدمعت عيناه، وانصرفَ من عند عمِّه.

-اهتزَّت مشاعرُ أبي طالب من هذه الكلمات التي لم يكن يتوقَّعُ سماعَها من ابن أخيه، فهو لم يكن مؤمناً، ولكنه كان يحبُّ النبي ﷺ مثل أولاده، حيث كان قد وعد أباه عبد المطَّلب الذي جمع أولاده قبيل لحظات وفاته ليسألهم عمن يتولى رعايةَ وحمايةَ ابنِ أخيهم اليتيمِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، وذلك بقوله: يا أبتاه، إنك تعلمُ أني لست بالرجل الغني، ولكني صاحبَ قلب لطيف وشفوق، وإني أضحي بروحي في سبيل حماية ابن أخي، وعلى ذلك أقطع لك وعداً، فاجعله أمانة لدي واطمئنَّ عليه-. ولهذا السبب لم يتحمَّل قلبُ أبي طالب المليء بالرحمة مظهرَ ابن أخيه وهو يغادره محزوناً منكسراً، فناداه من خلفه:

أقبل يا بن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا.[٤٢٦]

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلانَ النبي ﷺ وإسلامَه لهم، وعزمَه مفارقتهم في ذلك وعداوتهم، وعلموا أنهم بذلك لن يبلغوا مرادهم، مشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له:

---

٤٢٥ المزمل: ٨- ٩.

٤٢٦ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٧٦-٢٧٨؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٩٦-٩٧.

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك؟ وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامنا فنقتله فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني؟ أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا!. [٤٢٧]

جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا:

إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مجلسنا فانهه عن أذانا.

فقال أبي طالب: يا عقيل ائت محمدا.

فقال أبو طالب: إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم فانته عن ذلك.

فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال:

«ما ترون هذه الشمس؟»

قالوا: نعم، قال:

«ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تشغلوا منها شغلة»

فقال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي قط فارجعوا. [٤٢٨]

عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال:

«إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدا، لقد قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فقالت: هؤلاء الملأ من قريش، قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك. فقال: **«يا بنية، أريني وضوءا»** فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه، قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصرا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام

٤٢٧ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٦٧؛ ابن كثير: البداية، ٤، ١٢٢

٤٢٨ الحاكم، المستدرك، ٣، ٦٦٨/ ٦٧ ٦٤٦٤؛ ابن اسحاق: السير والمغازي، ١٣٦؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٩٢؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٠٢- ٢٠٣.

على رءوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: «**شاهت الوجوه**» ثم حصبهم بها، فما أصاب رجلا منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافرا» [٤٢٩]

وقد قام أبو طالب - حين رأى ما تصنع قريش بالنبي ﷺ - في بني هاشم وبني عبد المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدوِّ الله الملعون.[٤٣٠]

ولما لم يجد المشركون فائدةً من مراجعتهم لأبي طالب بشأن ابن أخيه، توجَّهوا مباشرةً إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وقالوا له:

- إنكَ منا حيثُ قد علمتَ من السلطة في العشيرة والمكان في النَّسب، وإنك قد أتيتَ قومكَ بأمر عظيم؛ فرَّقتَ به جماعتَهم، وسفَّهتَ به أحلامَهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فما الذي تريده من ذلك؟ فإن كنتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً!، وإن كنت إنما تطلب الشَّرفَ فينا سوَّدناك علينا!، وإن كنت تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا!، وإن كنت تطلب الزواج من امرأة ذات حسب ونسب وجمال زوَّجناك أجملَ فتيات قريش!، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رِئيّاً تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن الرِّئيَّ - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبِّ حتى نُبرِئكَ منه أو نُعذَرَ فيك!.

لقد كان المشركون البائسون يظنون أن بإمكانهم ثنيَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن دعوته عن طريق إغرائِه بأكبرِ الرغبات الإنسانية من المال والمنصب والنِّساء.

وقد اعتقدوا بأنَّ النبيَّ ﷺ لن يصمدَ أمامهم، ولن يتمكن من قول «لا» تجاه هذه الإغراءات الثلاثة التي تُستخدَمُ بشكل دائم وفي كل عصر كوسيلة للإيقاع بالرجال واصطيادهم.

إن الثروةَ والشهرةَ والشَّهوةَ تُعتبر ثلاثة من أكبر المصائد النفسية التي توقع إرادة أكثر النَّاس في شباكها، وتذيبها في ضرام نيرانها، ولكن الأمر العجيب هو كيف لم يفهم المشركون أن هذه الرغبات النفسية وأشباهها من الشهوات الدُّونيّةِ لم يكن لها مكان أبداً في الحياة النورانية للرسول ﷺ؟...

---

٤٢٩ أحمد: مسند، ٤، ٤٨٦/ ٢٧٦٢.

٤٣٠ انظر: ابن هشام: السيرة، ١، ٢٨١؛ ابن الأثير: الكامل، ٢، ٦٥.

إذ إنَّ جوابه عليه الصَّلاة والسَّلام الذي كان في غاية الوضوح يصدحُ بهذه الحقيقة الجلية، حيث يقول:

«ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» [٤٣١]

وأما المشركون – ولأنَّهم لم يتمكَّنُوا من إدراك دعوته العلوية بسبب وقوعهم ضحية لأهوائهم النفسية – فقد ذهبوا معه بعيداً إلى الحدِّ الذي كانوا يطلبون فيه من النبي ﷺ عبادةَ الأصنام التي يعكِفونَ هم على عبادتها، ولكنَّ جوابَ رسول الله عليه الصلاة والسلام كان واضحاً وقطعياً كما ذُكر في الآيات الكريمة:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٣٢]

﴿....قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [٤٣٣]

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [٤٣٤].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ...﴾ [٤٣٥]

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [٤٣٦]

---

٤٣١ ابن كثير: البداية، ٣، ٥٠؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٩٦.

٤٣٢ غافر: ٦٦.

٤٣٣ الرعد: ٣٦.

٤٣٤ النمل: ٩١– ٩٢.

٤٣٥ يوسف: ١٠٨.

٤٣٦ ص: ٦٨.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾ [٤٣٧]

وأمام هذه المواقف القطعية للرسول ﷺ أراد المشركون إيجاد حلٍّ لمسألة سبِّ وذمِّ آلهتهم وأصنامهم على الأقل، فطلبوا منَ النَّبيِّ ﷺ ترك ذمِّ أصنامهم، فجاء الردُّ على ذلك من الحق ﷻ بقوله:

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [٤٣٨]

أي: أن المشركين الذين لا يمكنهم القَبول بحقيقة الإسلام كانوا يهدفون من تحرُّكهم إلى إمكانية إيجاد أرضية تفاهم مع النبي ﷺ بشرط التخلِّي عن الآيات التي تمسُّ مصالحهم وتحاربها، وبالتالي التعايش معه بشكل في غاية الهدوء، ولكن الحُكمَ الذي أورده القرآن الكريم جاء في غاية الوضوح، حيث قال الله تعالى:

﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [٤٣٩]

أي: أنَّ التنازلَ في مجال التَّوحيد محظورٌ ومحرَّمٌ حتى في هذه الأحوال والظروف العصيبة؛ لأنَّ هذا التنازلَ كان يعني تعريضَ الدين الذي لم يكتمل تأسيسُه بعدُ للتخريب والفساد، وما كان أملُ المشركين الخبيثُ إلا هذا، وهم إذ يفشلون في نيل مطالبهم يسعون إلى الإكثار من من هذه المطالب بجهالة محاولين بذلك إنقاذَ أصنامهم، حتى إنَّهم ذهبوا بعيداً في هذا إلى حدٍّ قدموا فيه عرضاً مضحكاً، حيث قالوا:

– اعبد أصنامَنا؛ وبالمقابل نحن نعبدُ إلهَك، وبذلك يرتفعُ الخلافُ الذي بيننا!

ولكن الله تبارك وتعالى أجاب على هذا العرض الذي يخالف تماماً روح الإسلام ومنطقه، فقال في القرآن الكريم:

---

٤٣٧ الأنعام: ١٦١– ١٦٤.

٤٣٨ القلم: ٨– ٩.

٤٣٩ الإسراء: ٧٥. – إذاً لو فعلت ذلك يا محمَّد –.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٤٤٠]

آمن بدعوةِ النبيِّ ﷺ في بدايات الدعوة الجليلة الفقراءُ، والعبيدُ، والضُّعفاءُ من النَّاس، ورغم وُجودِ أشخاصٍ أغنياءَ مثلِ أبي بكر رضي الله عنه بين المؤمنين إلا أنَّهم قليلو العدد للغاية.

وقد بيَّنَ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام - من خلال ردِّه لمختلف العروض التي قدَّمها المشركون لأجل التوصل إلى تفاهم مشترك معه - بصورة جليَّةٍ أن لا نيةَ لديه - بعكس ما يدَّعيه البعضُ - في الحصول على الزعامة أو الغنى، وذلك لأنَّ الحياة اليومية التي كان الرَّسول ﷺ يعيشها لم تكن تختلف عن حالة الفقراء حتى في الأحوال التي تتوافر لديه فيها الإمكانياتُ المادية، ومما لا ريبَ أن هذه الحالة كانت مظهراً من مظاهر الأخلاق النبوية التي كان يتحلَّى بها مثل: الزهد والتواضع والقناعة وغيرها.

فلو أراد النبيُّ ﷺ لقبل في البدء عرضَ قريش عليه في رئاستهم أو سياستهم، وكان باستطاعته فيما بعدُ استخدام هذه الإمكانات والقوة التي كان سيتمتعُ بها كوسيلةٍ من أجل تبليغ الإسلام، ولكنَّ النبيُّ ﷺ لم يرضَ أبداً الدخولَ في مثل هذه السياسة، وجعلَها أداةً في خدمة دعوته؛ لأنَّ الإسلامَ لشرفه وكرامته يحافظ دائماً على قاعدة الصدق في الغايات والوسائل جميعها، ويرفض مبدأ الغاية التي تبرِّر الوسيلة، بل يشترط لتحقيق الغاية السامية وسائل شريفة، ولهذا السبب فإن المسلمين يُضَّطرون في كثير من الأحوال إلى التضحية والجهاد؛ لأنَّ الطريقَ الذي طلبوه هو الصراط المستقيم الذي ليس فيه أيُّ اعوجاج.

إعجازُ القرآن الكريمِ، وتأثيرُه على المُستمعينَ إليه

الإعجاز لغة: إثباتُ العجز، والعجزُ: ضدُّ القوة، وهو القصورُ عن فعل شيءٍ ما، وقد يأتي بمعنى قطع مسافة ما فرسخاً فرسخاً.

وإعجاز القرآن الكريم اصطلاحاً: يعني عجزَ جميع البشر من فصحاء وعلماء وعامة على الإتيان بمثلِه في أسلوبه البيانيِّ والبلاغيِّ، أو أخباره الغيبية، أو أحكامه التشريعية، أو أيٍّ من وجوه إعجازه الأخرى.

---

٤٤٠ الكافرون: ١- ٦؛ انظر ابن هشام: السيرة، ١، ٣٨٦.

لما تعلَّقت إرادةُ الله تعالى بإنزال كتابه الأخير – الذي تفضَّل به على البشرية جمعاء – على أكمل صورة، وبلسان عربي مُبين، جعل لدى الناطقين باللغة العربية ابتداءً من عصورٍ خلت قبل نزول القرآن الكريم ميلاً واهتماماً كبيراً بالفصاحة والبلاغة والأدب، وقد اكتسبَتِ اللغة العربية غنى وكمالاً جعلها مؤهَّلةً للتعبير عن الكلام الإلهيِّ، وذلك من خلال اهتمام العرب بها، وتنظيمهم لأنشطة وأسواق عديدة في مختلف ميادين اللغة والأدب، والتي أدَّت إلى تطورها ونضوجها.

وبعد هذه الأنشطة والفعاليات التي استمرَّت لقرون طويلة أصبح الإيجاز والبلاغة في الحديثِ بين العرب من أرقى المسالك، حيث احتلَّ الشعراءُ والخطباءُ مواقعَ اجتماعية مرموقةً حُسدوا عليها من أفراد المجتمع، ومن أجل ذلك أصبح الكلام الإلهي – أي: القرآن الذي شكَّلَ قمَّةَ كلِّ كلام البشر أكبرَ وأعظم المعجزات التي أكرمَ الله بها النبيَّ ﷺ.

ولأن العقل والإدراك والبيان من أهم الصفاتِ التي تميِّزُ البشر عن سائر الكائنات الحية الأخرى، فقد كان إعجاز القرآن الكريم – الذي يُعدُّ أكملَ الكتب السماوية وختامها أيضاً – في ميدان العقل والبيان والعلم، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[٤٤١]

لقد أَلَّفَ علماءُ اللغة الكثير من المؤلفات حول إعجاز القرآن الكريم الذي لا يُشقُّ له غبار، وأوردوا فيها أفكاراً وآراءً دقيقة بشأن هذه المسألة، ونودُّ أن نورد هنا ملخصاً جزئياً عن هذه الأفكار.

عندما أعلن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أمر نبوَّتِه اعترضَ عليه الكافرون، وقالوا – كما ينقل لنا القرآن الكريم عن لسانهم –:

﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ...**﴾

فجاء الردُّ الإلهي:

﴿**...قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٤٤٢]

٤٤١ الرحمن: ١– ٤.
٤٤٢ العنكبوت: ٥٠– ٥١.

لقد ظهر إعجاز القرآن الكريم في ميادينَ ومجالاتٍ متعددة، ومن ذلك: البلاغةُ والأسلوبُ، وغنى المضمون، وكفايةُ الأسس والمبادئ التي يحتويها للإنسانية جمعاء، وإيرادُه الأخبار الغيبية، وصلاحيَّتُه لكلِّ زمان ومكان، وأخيراً تفوقُه في مجال التشريع.

إن الجانب الأهمَّ لمعجزة القرآن الكريم هو البلاغةُ والأسلوب، فالبلاغةُ هي التحدُّثُ بأنسب كلام تستوجبه الحالة، من حيث المحتوى، والقصد، والموضوع، والمخاطب بالكلام، وقد حقَّقَ القرآن الكريم هذا الأمر بأجمل أسلوب في كلِّ المجالات والشؤون التي تحدث بها.

والقرآن الكريم يشكِّلُ لوحةً فريدةً من حيث الفصاحة أيضاً؛ إذ من المستحيل الوقوفُ ولو على ذرَّةٍ من النقص في الكلمات التي يختارها، والجمل التي ينظمها، وكذلك في المعاني التي يُعبِّرُ عنها بهذه الكلمات والجمل.

فكما أن المعاني التي يحتويها القرآن الكريم هي من عند الله تعالى، فإن نظم القرآن أيضاً من الله تعالى؛ أي: أن القرآنَ الكريمَ مُنزَّلٌ من الله تعالى معنىً ولفظاً، وإن هذا الأمر هو الفارق الأساسيُّ الذي يميِّزُ القرآنَ عن الحديث القدسي، ولهذا السبب كان استبدال أيَّة كلمة من القرآن الكريم بكلمة أخرى يوقعُ الإنسان في الكفر إن فعله عن عمد، وأما إن وقع الأمر سهواً، فإن كثيراً من العبادات التي تُؤدَّى بالقراءة تبطلُ إن تسبَّبَ الاستبدالُ بتغيير المعنى لدرجة معينة، وقد بيَّنَ علماء الفقه الكثيرَ من الأحكام في كتبهم الفقهية حول النتائج الشرعية التي تترتَّبُ على الخطأ في لفظ القرآن الكريم أو استبدال شيء من كلماته، وجعلوا الباب الذي يحتوي على هذه الأحكام تحت عنوان «زلة القارئ».

وإذا عرفنا ذلك، فنجد أن ما قيل حول جواز الصلاة بترجمة القرآنِ الكريم ما هو إلا كلام فارغ يعبر عن ضحالة مستوى قائله، ضحالته في التفكير، وفقره في الروح.

إن هناك توازناً عجيباً في أسلوب القرآن الكريم بين المعنى واللفظ؛ حيث إنَّه يستخدم اللفظ بقدرة عَصيَّةٍ على التغيير، تجعله يعبر عن المعنى المراد بأجمل صيغة وأبلغها، وهكذا يتشكَّلُ هذا التوازن القائم بين اللفظ والمعنى بأسلوب فريدٍ خاصٍّ بصاحب هذا الكلام، والذي هو صفة من صفاته العلوية المطلقة، وهذا ما يعجَزَ عنه أكبر الأدباء في العالم.

وقد قال ابن عطيةَ رحمه الله تعالى في هذا المجال:

«كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد» [٤٤٣]

إن القرآن الكريم يحتوي على آيات تتضمَّنُ مواضيعَ كثيرة مثل القصة، والموعظة، والجدال، والمناظرة، والتاريخ، والتشريع، والجنة والنار، وآيات الترغيب والترهيب؛ وهو يتناول كلَّ موضوع من هذه المواضيع بأسلوب مختلف حسب شدة المعنى أو لينه ضمن اتساق كليٍّ، مع المحافظة على تماسك الفصاحة والبلاغة بالمستوى نفسه، وهذا دليل على أنَّه كلام إلهي.

إن القرآن يخاطب في الوقت نفسه جميعَ النَّاس في مختلف الأزمنة والأمكنة، وعلى اختلاف مستوياتهم العلمية والمعرفية، وعندما تُتلى آيات القرآن الكريم في مجلس يحضره أشخاص مختلفون عن بعضهم من حيث المستوى العلمي، فإن كل واحد من أولئك الحضور يفهم من تلك الآيات أشياءَ مختلفةً عن الآخرين، وذلك حسب مستوى إدراكه الشخصي، وهذا أيضاً أمرٌ فوق طاقة البشر وقوتهم.

وحاصل القول: إنَّ معجزة كلِّ نبيٍّ عائدة إلى العصر الذي يعيش فيه، وأما نبيُّنا الكريم محمَّدٌ ﷺ فلأنه مبعوث إلى النَّاس كافَّة فإن معجزتَه الكبرى التي هي القرآن الكريم شاملةٌ لكلِّ زمان ومكان، ومستمرَّةٌ إلى يوم القيامة.

وقد تعرَّض القرآن الكريم لذكر الكثير من الحقائق العلمية؛ كي يدلِّلَ على وجودِ الحقِّ سبحانه وتعالى وقدرتِه العظيمة التي وسعت كلَّ شيءٍ، وإن التقدمَ والاكتشافاتِ المذهلةَ التي تحدث في ميدان العلوم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لم تستطع نقضَ أيِّ حُكم ورد فيه، بل على العكس فإن هذه الاكتشافات دائماً ما تأتي مطابقةً ومؤيدةً لما أخبر به منً قبلُ، وإن هذا الأمر أيضاً من دلائل إعجازه.

تجمعُ كلُّ أمة من أمم العالم أمهرَ علمائها في عصرنا الحالي ليؤلِّفُوا موسوعة علمية ويتباهوا بها أمام الأمم الأخرى، وإن الموسوعة البريطانية «بريتانيكا»، والفرنسية «لاروس» من جملة هذه الموسوعات، ولكن هذه الأمم تخرجُ كلَّ سنة مجلداً جديداً أو إضافياً بقصد تصحيح المعلومات الواردة في الموسوعة أو الزيادة عليها، ومع مرور

---

٤٤٣ ابن عطية: المحرر الوجيز، ١، ٥٢، بيروت ١٤١٣؛ الزرقاني: مناهل العرفان، ٢، ٣٢٥؛ دراز: النبأ العظيم، ص، ١١٢؛ عبد القادر عطا: عظمة القرآن، ص، ٨٥.

الزمن وبسبب المعلومات الجديدة التي تظهر نتيجة الأبحاث التي تُجرى في وقتها تُصحَّحُ بعضُ البيانات القديمة أو يُضاف عليها، وحتى هذه الموسوعات المشهورة – التي أسَّستها الهيئات العلمية المكونة من أمهر العلماء الذين بلغت اكتشافاتهم العلمية في عصرنا حداً لا يتصوَّره العقلُ – تتعرَّضُ سنة بعد سنة إلى النقد، وتحتاج إلى التصحيح، بينما نجد أن الحقائق العلمية العديدة التي لا حصرَ لها والتي أشار إليها القرآن الكريم بقيت ثابتة ولم تحتجْ عبر قرون طويلة إلى مثل هذا النقد أو التصحيح، وإن هذا من أكبر الأدلة على منشئِه الإلهي؛ أي: أنه كلام الله المنزل على سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ويبيِّن النَّبيُّ ﷺ في الحديث الآتي أن القرآن الكريم معجزةٌ إلهيَّة، وأنه سوف يستمر بهذه الصفة بشكل أبدي إلى يوم القيامة، فيقول:

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [٤٤٤]

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» [٤٤٥]

إن القرآن الكريم معجزةٌ خالدة من جميع الجوانب، فالقرآن الكريم من هذه الناحية، في تحدٍّ دائم منذ قرون خلت وإلى عصرنا هذا، حيث طلب من أولئك العرب الذين كانوا في ذلك العصر على أعلى الدرجات من الفصاحة والبلاغة، وكل من يأتي بعدهم من الجن والإنس أن يأتوا ولو بآية مشابهة له، وأوَّلُ تحدٍّ ورد في القرآن الكريم من هذا القبيل قولُ الله تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٤٤٦]

---

٤٤٤ الجن: ١-٢.

٤٤٥ الترمذي: فضائل القرآن، ١٤/ ٢٩٠٦؛ الدارمي: فضائل القرآن، ١/ ٣٣٧٤.

٤٤٦ الطور: ٣٤. – أي المشركون الذين ينكرون أن القرآن كلام الله –.

وقال الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [٤٤٧]

ولما وقف المشركون عاجزين أمام هذا التحدي في الخطاب الإلهي، أنزل الله تبارك وتعالى آية أخرى في هذا الشأن ليؤكِّدَ عجزَهم التامَّ والمطلقَ بشكل أكثر وضوحاً، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٤٨]

وفي المرة الثالثة - ولكي يُضيِّقَ الخناق عليهم أكثر - طلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٤٩]

ولما عجزوا عن ذلك أيضاً طلب منهم أن يأتوا ولو بشبيه قريب لأيِّ سورة من سور القرآن الكريم، وليس مثله تماماً، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٥٠]

لقد نقلت هذه الآيات الكريمة عجز المشركين من مرحلة إلى أخرى، فدوَّنت بذلك ضعفَهم، وختمت على ألسنتهم، ولأنهم لم يتمكنوا من الردِّ على هذا التحدي الإلهي الصارخ أخذوا يأتون بتصرفات وتحركات تهجمية بعيدة عن المنطق، مثل: التكذيب، والانفعال، والافتراء، حيث ينقل الله تعالى لنا موقفهم هذا الذي تجلَّى في بعض أقوالهم:

---

٤٤٧ الإسراء: ٨٨.

٤٤٨ هود: ٣١.

٤٤٩ يونس، ٣٨.

٤٥٠ البقرة: ٢٣. وانظر أيضاً القصص: ٤٩- ٥٠.

﴿...إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [٤٥١]

﴿...سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [٤٥٢]

﴿...إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ...﴾ [٤٥٣]

﴿...إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٤٥٤]

فهذه بعض الادعاءات البعيدة عن الحقيقة التي انشغلوا بها، وهي تظهر حيرتهم وعدم منطقيتهم.

إن تحدي القرآن الكريم بالإتيان بسورة من مثله جاء في مواجهة كلِّ أعدائه، وكان من نتيجة هذا التحدي خسرانُ جميع المنكرين وعجزُهم حتى يومنا هذا، وإن هذا العجزَ سوف يستمر إلى يوم القيامة.

لقد علم قساوسة المسيحيين ورهبانهم اللغةَ العربيةَ حتى بلغوا من العلم في اللغة والفصاحة درجةً يتمكنون فيها من تدريس اللغة العربية للعرب أنفسِهم، ولكن أحداً منهم لم تبلغ به الجرأةُ أن يواجه هذا التحدي القرآني، إن علماء الكفرِ والإلحادِ يبذلون منذ عصور جهوداً جبارة وأرواحاً وأموالاً لإطفاء نور الله تعالى، وقد تحمَّلوا من أجل ذلك الكثير من المصاعب والمشاقِّ، ألم يكن من الأسهل لهم - لو عرفوا أنهم يستطيعون - أن يأتوا بشبيه للقرآن الكريم بدلاً من تعريض أنفسهم لعشرات الصعوبات والمشقات؟ ألا يظهر تحدي القرآن الكريم عظمتَه، وعجزَ أعدائه عن مواجهته، ولا يترك لهم مجالاً للردِّ أو الإنكار.

لقد ظهر في هذا المجال أدباءُ مهرةٌ ومشهورون ممن أغلقوا على أنفسهم أبوابَ بيوتهم ومكثوا فيها أشهراً في محاولة منهم لتأليف ما يُجارون به القرآن الكريم، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يكتبوا آية واحدة، على الرغم من محاولتهم عصر أدمغتهم، وبذلهم كلَّ جهدهم.

---

٤٥١ المدثر، ٢٤.

٤٥٢ القمر: ٢.

٤٥٣ الفرقان: ٤.

٤٥٤ الأنعام: ٥٢.

علماً بأن كلَّ مَن أراد كتابة أو تأليف نظيرٍ لسور القرآن الكريم مثل مسيلمةَ الكذَّاب وأشباهه، وقعوا في شرٍّ أعمالهم، حيث بلغت كتاباتهم من السخافة حدّاً يثير السخرية والاشمئزاز؛ إذ لم تتجاوز كتاباتهم حدود الكوميديا والسخرية، إلى جانب أنها أظهرت مدى حماقتهم وجهلهم؛ لأنَّ القرآن الكريم ليس معجزة في الفصاحة والبلاغة فقط، وإنما هو في الوقت ذاته كتاب معجزات يحيط بكلِّ الحقائق عبر العصور، فإن كان القرآن على هذا النحو، فمن الطبيعي أن يعجز كائن بشريٌّ لا يعرف حتى مكان أو زمان موته عن الإتيان بآية مشابهة للقرآن الذي يحتوي على الحقائق الفريدة والعلوية، والمليء بالمعجزات، وإن حالة التوراة والإنجيل اللذين كُتِبا بتدخُّل بشريٍّ ماثلةٌ أمامنا اليوم حيث إنَّ الكتابين ابتعدا عن أصليهما، وكأنهما أصبحا مجرَّدَ كتابين يحتويان على المتناقضات.

إن استمرار القرآن الكريم إلى يومنا هذا دون أن يفقد شيئاً من تأثيره لهو من أكبر الأدلة الثابتة بالتجربة والمشاهدة التي لا يمكن إنكارها على أنه كتابُ بيانٍ معجز، فمنذ بدءِ نزول القرآن الكريم وحتى يومنا الحالي – وقد مضت خمسة عشر قرناً –لم يخرج أحدٌ ممن عارضوا القرآن منتصراً، ومَن أراد تجربة معارضةِ القرآنِ ومجاراتِه بالكتابة تعرَّضَ للسخرية والاستهزاء بين قومه من سوءِ ما كتب، و حَملَ عاراً لن يفارقَه إلى يوم القيامة.[455]

إنَّ القرآن الكريم ليس بالشعر ولا بالنثر، وإنَّما على العكس، يجمع خصائص الشعر والنثر في أسلوب فريد، ولهذا الأسلوب انسجام وموسيقا داخلية في غاية الروعة والإحكام، فمتى ما قرأ الإنسان القرآنَ فإنه يشعر بتأثير هذه الموسيقا الداخلية في أعماق روحه.

فإذا ما قدمت أو أخرت في ألفاظ القرآن الكريم، أو أجرَيتَ عليه تعديلاً ولو كان بسيطاً، فسد انسجامه واختل معناه.

لقد أحدث القرآن الكريم بهذه الخصوصية تأثيراً خارقاً في قلوب النَّاس وأيقظهم من سُباتهم، فقد كان العرب يستمعون إليه من فم النبيِّ ﷺ الشَّريف، فيأتون إليه مؤمنين أفواجاً أفواجاً، ولقد اعترف المشركون في وجدانهم الداخلي بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته بسبب عجزهم عن الإتيان بمثله، ولكنهم ردُّوه لأنه لا يتوافق مع مصالحهم الدنيوية، وقد ثَقُلَ على أنفسهم أن يتَّبعوا يتيماً.

---

٤٥٥ البوطي: من روائع القرآن، ص، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠.

ويروي لنا ابن عباس ﵁ تأثير القرآن الكريم على أحد فصحاء قريش، فيقول:

جاء الوليد بن المغيرة إلى الرَّسول ﷺ، يفاوضه، فلما انتهى من كلامه، عرض عليه النبي أن يسمعه شيئا من القرآن الكريم، فتلا عليه النبي ﷺ هذه الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٤٥٦]

فقال الوليد بن المغيرة: اقرأها عليَّ مرَّة أخرى.

فلما أعاد النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قراءتها، قال الوليد:

– والله ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنِّ، وإن له لحلاوةً، وإنّ عليه لطَلاوةً، وإنَّ أعلاه لَـمُثمِرٌ، وإنَّ أسفَله لَـمُغْدِقٌ، وإنّه لَيعلُو وما يُعْلَى عليه.

ثم قام الوليد بن المغيرة الذي أخذته الحيرة والدهشة، واتجه إلى بيت أبي بكر ﵁ وسأله بعض الأسئلة عن القرآن الكريم، ثم توجَّهَ إلى أهل قريش، وقال لهم:

– يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة[٤٥٧] – يعني محمَّداً ﷺ– فو الله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله.

فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟

فقال الوليد: ألست أكثرهم مالا وولدا؟ .

قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغُ قريشاً أنك مُنكِرٌ له.

فقال الوليد: وماذا أقولُ؟! فو الله ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالشعر مني، لا برَجزِه ولا بقصيدِه، ولا بأشعارِ الجنِّ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لِقولِه الذي

---

٤٥٦ النحل: ٩٠.

٤٥٧ في السابق كان رجل من قبيلة خزاعة يسمى أبو كبشة يخالف قومه في عبادة الأصنام، وكان مشركو مكة يطلقون على النبي ﷺ اسم ابن أبي كبشة تشبيهاً له بذلك الرجل، وقد قيل بأن أبا كبشة أحد أجداد الرَّسول ﷺ من جهة الأب، أو الأم، أو أنه لقب أبيه من الرضاعة.

يقول لَحلاوةً، وإنَّ عليه لطَلاوةً، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفلُه، وإنه ليَحطِمُ ما تحته، وإنَّه ليَعلُو وما يُعلَى عليه.

فقال أبو جهل: والله ما يرضى عنك قومُك حتى تقولَ فيه قولاً.

قال: فدعني أفكِّر.

فلما فكَّر قال: هذا سحرٌ يُؤثَرُ، يأثره عن غيره، فخرج على قومه بهذا القول الآثم.

فأنزل الله فيه آيات تصوِّرُ بشكل بياني عجيب تقلُّب حالته، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[٤٥٨]

لقد كان عُتاةُ المشركين الذين يمنعون النَّاس من الاستماع إلى القرآن الكريم، يستمعون هم بأنفسهم له، ومن هؤلاء المشركين أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، إذ خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا.

فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.[٤٥٩]

لقد أسلم الكثير من النَّاس من خلال التأثير الروحيِّ الموجود في جوهر القرآن الكريم، ومن بين هؤلاء سيِّدُنا عمرُ بن الخطاب ﷺ، حيث إنَّ عمر بن الخطاب توجَّه ذات يوم إلى بيت زوج أخته وهو يستشيطُ غضباً، وما إن وصل إلى باب بيته حتى سمع صوت تلاوة القرآن الكريم، فرَقَّ قلبه بهذا السماع، وانقلبت أفكاره وعواطفه رأساً على عقب، والحادثة

٤٥٨ المدثر: ٨١– ٥٢.

٤٥٩ ابن كثير، تفسير، ٥، ٧٧؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٣١٥.

حقيقة معروفة، علماً بأن عمر بن الخطاب ﷺ كان مشهوراً بحِدَّةِ مِزاجه ومع ذلك رقَّ قلبه للقرآن، وأسلم إثرَ ذلك.

ومن الذين نالوا شرف الإسلام بتأثير القرآن الكريم عليهم جُبيرُ بنُ مُطعِم ﷺ، فهو لما سمع تلاوة سورة الطور منَ النَّبيِّ ﷺ أخذ قلبُه بالخفقان، وقد وصف حالته فقال:

«سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [٤٦٠]

كاد قلبي أن يطير» [٤٦١]

لقد كانت أخت الشاعر المشهور امرئ القيسِ صاحب المعلقة الشعرية التي عُلِّقت على جدار الكعبة كأفضل شعر تمَّ اختياره خلال المسابقة التي كانت تُقام في ذلك الوقت، كانت أخته على قيد الحياة في الفترات الأولى للرسالة المحمَّدية، وقد قرأوا لها بعض الآيات من القرآن الكريم، فلما سمعت تلك المرأة الخبيرة بالفصاحة والبلاغة قالت:

– لا يمكن أن يكون هذا من كلام البشر، فإنْ كان على وجه الأرض مثل هذا الكلام، فليس من اللائق بقاء شعر أخي مُعلَّقاً على جدار الكعبة، وإنما ينبغي إنزالُ شعرِه وتعليقُ هذا الكلام مكانه.

وبعد كلماتها هذه قامت إلى شعر أخيها، فأنزلته بيدها مِن على جدار الكعبة، ولأنه لم يبقَ ما يقال عن المعلقات الأخرى التي كانت تحت معلقة أخيها حسب مستوياتها، أنزلتها هي أيضاً واحدةً تلوَ الأخرى.

إنَّ صاحب العقل السليم يكفيه سماع القرآن الكريم ليعلمَ بأنه كلامُ الحقِّ ﷻ، ولهذا السبب كُلِّفَ النبيُّ ﷺ بالذات بإسماع النَّاس القرآن الكريم. وهكذا تقول الآية الكريمة:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٦٢]

---

٤٦٠ الطور: ٣٥- ٣٧.

٤٦١ البخاري: التفسير، ٥٢/ ٤٨٥٤.

٤٦٢ التوبة: ٦.

إذاً، إنَّ بلوغَ صدى كلام الله تعالى الآذانَ وسيلةٌ لاستقرار نور الإيمان في القلب!

ثم إنَّ الموسيقا الجاذبة للأرواح والكائنة في صدى القرآن الكريم نابعةٌ من نظامه الصوتي - أي: من تنظيم الكلمات والأحرف، والسكنات والحركات، والمدِّ والقصر - بأنسب أسلوب، وإن أكثرية النَّاس عندما يتقلون من صوت إلى آخر تتحرك قلوبهم بالانسجام أو اللحن الاستثنائي المتشكِّلِ في الصوت، حتى الذين لا يفهمون معاني القرآن الكريم يتلذذون تجاه صداه إلى درجة كبيرة عندما يُتلَى بما يتوافق مع أصولها وقواعدها. [٤٦٣]

مواقفُ المشركينَ منَ القرآنِ الكريمِ

لقد وضع الإسلام حدّاً للحياة النفسية للمشركين، إذ كان يتحدث لهم عن مواضيع تتعلق بالحقِّ والعدالة، والبعث ويوم القيامة، والحساب على النقير والقطمير، وقد أزعجت هذه الحالة الجديدة الكافرين إلى حد كبير، وإضافة إلى ذلك فقد كان الإسلام يعتبر آلهةَ المشركين ضرباً من الباطل، علاوة على أن مكَّة قد بدأت تهتز بـــ «النبأ العظيم» الذي جاء به رسول الله ﷺ، وتصور بدايات سورة النبأ هذا المشهد الرهيب، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [٤٦٤]

ولأن الإنسان خُلقَ ميَّالاً بطبعه إلى الحقِّ والحقيقة، فإنَّه لا يُبدي الرِّضا قلبياً تجاه المجهول، حيث يجري دائماً وراء المعلوم، وبناءً على ذلك فإن الأشياءَ التي لا يعرفها أو تلك التي لا يمكنه معرفتها تجعلُه في حالة اضطراب وقلق، فمنذ الأزل انشغلت البشريةُ كثيراً بمسألة الموت على الرغم من إرشادهم من قبل الأنبياء والرسل، وقد أُريد لهذه المشكلة التي تنفثُ سمومَها في الأذهان مثل الأفعى السامة، وتحرِّكُ مع الزمن جرسَها المزعجَ المرعب، أُريدَ لها بمختلف العبارات والتصورات أن تصمت وتختفي، وتبقى دفينة في اللاشعور، ولكن عندما يتعلَّقُ الأمر بواقعة الموت التي هي أعلى من الحياة نفسها، والتي تحيط بالإنسان مثل دوامة نارية ملتهبة، ستصبح حقيقةً صعبةً واقعةً على كلِّ شخص - دون استثناء - فإنها تأتي في مقدمة الغايات التي ينبغي ربطها بالمعلوم.

---

٤٦٣ ولهذا السبب تكوّن علم مستقل وخاص بقراءة القرآن الكريم، وظهرت له عشرة أصول للقراءة، حيث أطلق عليها اسم «القراءات العشر»، وأصبحت كلُّ قراءة مذهباً له أصوله الخاصة وإمامه، مثل المذاهب الفقهية تماماً، والقراءة المعروفة والمنتشرة في بلدنا هي «قراءة عاصم برواية حفص».

٤٦٤ النبأ: ١-٣.

إن هذا اللغز المستقبلي الذي يعجز عن فهمه الفكر البشريُّ لا يمكن حلُّه إلا بوحي إلهي، وقد جاء كلُّ الأنبياء – وخاصة نبينا الكريم محمَّد ﷺ – بحلِّ هذا اللغز، وكشفوا الغموض عن هذا المستقبل المجهول، ولكنَّ هذا الحلَّ قُوبِل –مع الأسف– بالاستهزاء والسخرية والامتعاظ من قِبلَ بعض النَّاس الذين انحطوا عن مستوى الكرامة الإنسانية في الوقت الذي كان ينبغي أن يُقابَل بالشكر والامتنان، وإن المشركين الذين عاشوا حياة مناقضة لحكمة الخلق وغايته، استقبلوا الخبرَ الذي جاءهم به الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن الآخرة بواسطة الوحي الإلهي، استقبلوه بالحيرة والدهاشة، وأداروا ظهورهم للدعوة التي تحوي على خلاصهم الأبدي بعناد عجيب، وسلبيةٍ يندى لها الجبين؛ فقط لأنها جاءت معاكسةً لحياتهم وأهوائهم النفسية.

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن الآخرة بعبارة «**النبأ العظيم**»، وإن الحكمة من هذا الأمر واضحة؛ وذلك لأنَّ النَّاس لديهم شعورٌ مشترك من القلق والاضطراب تجاه الموت بغضِّ النظر عن ظروف الحياة الخاصَّة بكلِّ إنسان، وإن انتهاء كلِّ طرق الحياة على تنوعها في أفق الموت يقضُّ مضاجع البشر وخاصة غير المؤمنين، ولأنه لا تُوجَد واقعةٌ أكثرَ أهمِّية من الموت بالنسبة للأحياء، استوجب الأمر الإخبارَ عنه بعبارة تبيِّنُ عظمته وخطورته، وبذلك يستطيع مَن يدرك هذا الأمر بالشَّكلِ المناسب التخلي عن النعم الفانية، وترك اللهاث وراء سراب الآمال الزائفة والأماني الخادعة؛ ليتوجه شطر النعيم المقيم في المستقبل الأبدي؛ إذ لا تختلف الحياة التي تُعاش دون الاعتبار من الموت عن عالم المصائب المظلم، إن نجمة السعادة تبزغ بالموت القادم في نهاية حياة جميلة مليئة بالإيمان والعمل الصالح، ومن أجل ذلك فإن الدين الإسلامي يُذكِّرُ على الدوام بالموت، ويوصي بالاستعداد له.

لقد طلب الكافرون الذين امتعضوا من بيان القرآن الكريم الذي جاء مخالفاً لأهوائهم ورغباتهم النفسية مثل حديثه عن الآخرة والموت، طلبوا منَ النَّبيِّ ﷺ تغيير القرآن بالشَّكلِ الذي يُلبِّي رغباتِهم، حيث جاؤوا إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وقالوا له:

– ائتنا بقرآن لا يأمرنا بترك عبادة اللات والعُزَّى، فإن كان الله لا ينزِّلُ عليك مثل هذا القرآن، فأتنا أنت بمثله، أو غيِّرِ القرآن الذي يأتيك من الله؛ ليكون موافقاً للشكل الذي نطلبه منك؛ فضع آية الرحمة بدلاً من آية العذاب، واستبدل الحرامَ بالحلال، والحلالَ بالحرام!

فأنزل الله تعالى بحقِّ هؤلاء الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٤٦٥]

لقد كان المشركون في حَيرةٍ من أمرهم، فلا يدرون ما يفعلون، حيث كانوا يزيدون من اضطهادهم وتعذيبهم، وتهجُّمهم وإيذائهم للمسلمين يوماً بعد يوم، فأوصلوا الحياة في مكَّة إلى حالة لا تُطاق، وبسبب كلِّ هذا الأذى طلب المسلمون الإذنَ منَ النَّبيِّ ﷺ من أجل الهجرة، ولما أُذن لهم بالهجرة خرجوا في طريقهم إلى الحبشة، وكان معهم أبو بكر رضي الله عنه.

وبعد مرور يوم أو يومين من الخروج صادفوا في طريقهم سيِّدَ قبيلة الأحابيش ابنَ الدُّغُنَّة.

فقال ابن الدُّغُنَّة: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُجُ ولا يُخرَجُ مثلُه! إنك تُكسِبَ المعدومَ، وتصل الرحمَ، وتحمل الكَلَّ، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحقِّ، وأنا لك جارٌ، فارجع، فاعبد ربك ببلدك.

فرجع أبو بكر وارتحل معه ابن الدُّغُنَّة، وطاف ابن الدغنة عشيةً في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرَج مثلُه ولا يخرج، وإنه في جواري.

فقبل أهل مكَّة بجواره، ولكن قدَّموا له شرطاً، حيث قالوا له:

– مر أبا بكر فليعبد ربَّه في داره، ويصلِّ فيها، وليقرأ القرآن ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلنُ به، فإنَّا نخشى أن يفتنَ نساءَنا وأبناءَنا.

فقال ابن الدُّغُنَّة ذلك لأبي بكر، وقبل أبو بكر بالأمر، فلبث أبو بكر بذلك يعبدُ ربَّه في داره، ولا يستعلنُ بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وبدأ يصلي فيه ويقرأ القرآن، وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه من الدمع إذا قرأ القرآن، فتجتمع عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدُّغُنَّة، فقدم عليهم.

---

٤٦٥ يونس: ١٥؛ الواحدي: أسباب النزول، ٢٧٠؛ الألوسي: روح المعاني، ١١، ٨٥.

فقالوا له: إنا كنَّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبدَ ربَّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصَّلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتتن أبناؤنا ونساؤنا، فإنه إن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربَّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يردَّ عليك ذمَّتَك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مُقرِّين لأبي بكر الاستعلان.

فأتى ابن الدُّغُنَّة إلى أبي بكر ﵁، فقال له:

– قد علمتَ الذي قد عاقدتُ عليه قريشاً فإما أن تقتصر على ذلك، فتلزم بيتك، ولا ترفع صوتك، وإما أن تردَّ إليَّ ذمتي، فإني لا أحبُّ أن تسمع العرب أني أُخفِرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر ﵁ بكلِّ توكل على الله تعالى وتسليم له:

– فإني أردُّ عليكَ جوارك، وأرضى بجوارِ الله ﷿. [٤٦٦]

لقد كانت العرب تتأثَّرُ كثيراً بفصيح الكلام وبليغه، وكانوا يحبُّون الأدب حبّاً يبلغ درجة العشق، فقد كان لبيتٍ واحدٍ من الشعر القدرة على رفع منزلة بعضهم إلى عنان السماء، أو إنزال بعضهم الآخر إلى قاع الأرض، وقد لاحظ المشركون التأثير الكبير الذي يحدثه القرآن الكريم على مستمعيه حتى إنَّهم أنفسهم بدأوا يُسحَرون به، فكانوا يتخذون تدابير وقائية للحيلولة دون ذلك، فكان المشركون الذين منعوا قراءة القرآن الكريم والاستماع إليه يلجؤون أيضاً إلى أسلوب غوغائي للتشويش على القرآن الكريم، وهو إصدار الضجيج والصياح لدى تلاوة القرآن الكريم من أجل منع النَّاس من سماع الكلام الإلهي ومنع تأثر قلوبهم به وميلهم نحوه، وقد بيَّنَ الله تعالى هذا الأمر في كتابه الكريم، حيث يقول:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [٤٦٧]

لم يكن النبي ﷺ الذي اضطُهد من قومه وتعرض على يدهم لشتى أنواع الأذى والظلم، لم يكن يتراجع على الرغم من ذلك عن تبليغهم الإسلامَ، ودعوتهم إلى الخلاص الأبدي، وأما المشركون فإنَّهم كانوا يتربَّصون خارجَ مكَّة بالنَّاس القادمين إليها بقصد الحج أو

٤٦٦ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٩٥– ٣٩٦.

٤٦٧ فصلت: ٢٦.

العمرة، أو لمقصد آخر، فيحذِّرونهم من الاقتراب من النبي ﷺ، والاستماع إلى حديثه، وحتى كان يبلغ بهم الأمر أن يهدِّدوهم بالأذى إن هم فعلوا ذلك، وقد كانوا يحاولون إبعادَ القادمين إلى مكَّة عن النبي ﷺ من خلال الافتراء عليه بصفات كاذبة حتى هم أنفسهم لم يكونوا يقتنعون بها، من قبيل اتهامه بالجنون، والسحر، والكهانة، وغيرها. ولما قدم الطُّفيلُ بنُ عمرو[٤٦٨] مكَّةَ وصل إليه وفدٌ من زعماء قريش، وقالوا له:

– يا طفيلُ، إنك رجل شريف في قومك، وشاعر لبيب، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجلُ الذي بين أظهرنا قد أعضلَ بنا، وقد فرَّق جماعتَنا، وشتَّتَ أمرَنا، وإنما قوله كالسحر يُفرِّق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه، ولا تسمعَنَّ منه شيئاً.

فقرر الطُّفيلُ بعد أن سمع مقالة زعماء قريش أن لا يسمعَ شيئاً منَ النَّبيِّ ﷺ ولا يكلمه، حتَّى إنَّه كان يضع في أذنيه قطناً حين يذهب إلى المسجد الحرام؛ لئلا يسمع شيئاً من حديث النبي ﷺ، وبعد مدة لم يعد يرى الحالة التي أصبح عليها لائقةً به، فيقول عن نفسه:

غدوت إلى المسجد الحرام، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي:

– واثُكْل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحَسنُ من القبيح من الكلام، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإن كان الذي يأتي به حَسَناً قَبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت:

– يا محمَّد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرَكَ حتى سددت أذني بكرسُف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرضْ عليَّ أمرَك.

---

٤٦٨ الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ: كان رجلاً شريفاً، وصاحب عقل راجح، وشاعراً، ومضيافاً، فقد كان بابه مفتوحاً لكل قادم إليه، حيث يطعم الجائع، ويحمي المستجير، ويغيث الملهوف، وبعد أن أسلم في السنة العاشرة للنُّبوَّة مكث يدعو قبيلة دوس إلى الإسلام حتى هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وبعد أن أبدى بطولة منقطعة النظير في معركة اليمامة نال شرف الشهادة، وانتقل إلى جوار ربه، رضي الله عنه وأرضاه.

فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلامَ، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه! ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادةَ الحقِّ.

وبعد أن مكث الطفيل عند النبي ﷺ عدة أيام، استأذن منه للرحيل إلى قومه بقصد دعوتهم إلى الإسلام، وقال للرسول ﷺ:

– يا نبيَّ الله، إني امرؤٌ مَطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال النبي ﷺ:

«اللهم اجعل له آيةً».

فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بِثنيَّة تطلعني على الحاضر وقعَ نورٌ بين عينيَّ مثل المصباح؛ فقلت: اللهمَّ في غير وجهي، إني أخشى أن يظنُّوا أنها مُثْلةٌ وقعت في وجهي لفراقي دينهم، فتحوَّلَ فوقع في رأس سوطي .

وبذلك عاد إلى قومه، وظل مشغولاً بالتبليغ والجهاد حتى نال مرتبة الشهادة. [٤٦٩]

وكان ممن استجاب لدعوة الطفيل رضي الله عنه أكثرُ رواة الحديث النبوي فيما بعدُ، وهو الصحابي المشهور أبو هريرة رضي الله عنه.[٤٧٠]

لقد كان المشركون في داخلهم يستسلمون لحقيقة القرآن الكريم إذا ما جُوبِهوا به على الرغم من اتخاذهم لتلك المواقف السلبية المتشددة تجاهه والتي ذكرناها آنفاً، ولم يكونوا يستطيعون حبس أنفسهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم خفية، بعيداً عن أعين النَّاس، ويتذرَّعون لترك الإيمان هذه المرة بقولهم الذي نقله لنا القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٤٧١]

على الرغم من أن المشركين كانوا يدركون في داخلهم بأن سيِّدنا محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام هو نبيُّ الله تعالى، وأن القرآن الكريم هو كتابُه المـُنزلُ بالوحي على نبيِّه، إلا أن الكبرياء والنفس كانت تصدُّهم عن تصديقه والإيمان به.

٤٦٩ ابن هشام: السيرة، ١، ٤٠٧ – ٤٠٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٣٧ – ٢٣٨.

٤٧٠ ابن حجر: الإصابة، ٢، ٦٢٢.

٤٧١ الزخرف: ٣١.

لقد كان المشركون يعترفون بأنَّ القرآن الكريم هو كتابُ الله تعالى، ولكنهم في الوقت نفسِه كانوا ينسبونَ الخطأ إلى إرادة الله وتقديرِه.

ولأنَّ عقولَهم قد خضعت لأهوائهم النفسية وحُجبت عن الحقيقة كانوا يقولون بأنه ما كان يجب أن يُنزَّلَ القرآنُ الكريمُ على رجل فقير ويتيم ووحيد، بل كان من الواجب نزولُه إما على أحد أغنياء مكَّة مثل الوليد بن المغيرة، أو على أحد أغنياء الطائف مثل عمرو بن عمير.

وهكذا فقد قال الوليد بن المغيرة:

- أيُنزَّل القرآنُ على محمَّد! وأُترَكُ وأنا كبيرُ قريش وسيِّدُها!، ويُترَك أبو مسعود عمرو بن عُميرٍ الثقفيُّ سيِّد ثقيف!، ونحن عظيما القريتينِ!. [٤٧٢]

بينما قيمة العباد عند الله تعالى ليست بالمال، ولا بالنسب، وإنما بالتقوى، ومع ذلك فإنَّ النبيَّ ﷺ من أشرفهم نسباً.

الاتِّهاماتُ الموجَّهةُ إلى الرَّسول ﷺ والقرآنِ الكريم

لما وقف المشركون عاجزين أمام الرَّسول عليه الصلام والسَّلام رغم كلِّ ما فعلوه به، احتاروا في أمره، ولم يعودوا يعرفون ما يفعلونه، فقادتهم حماقتُهم إلى الادِّعاء بأنَّه إنَّما تعلَّمَ القرآن الكريم من عبد نصراني؛ على الرغم من معرفتهم بأمِّيته، ألم يفكروا بأنه هل يقبلُ العبدُ الذي يكون بمقدوره تأسيسُ أصولِ مثلِ هذا الدينِ الجليلِ بنقل هذا الشرفِ العظيم إلى غيره؟ وهل كان سيبقى مسيحياً؟

لقد ردَّ القرآن الكريم على هذا الاتِّهامِ الباطل الذي لا يستندُ إلى المنطق والواقع بشيء، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [٤٧٣]

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٤٧٤]

---

٤٧٢ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٨٥.

٤٧٣ النحل: ١٠٣.

٤٧٤ العنكبوت: ٤٨.

ومن جانب آخر، وحتى لا يتأثَّرَ النبيُّ ﷺ باتهامات المشركين وأباطيلهم وافتراءاتهم، أنزل الله تعالى عليه الآية الكريمة:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [٤٧٥]

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٧٦]

لم يكن المشركون يتوانون عن توجيه مختلف الاتهامات إلى النبيَّ ﷺ وإلى القرآن الكريم، لا لشيءٍ غير أنَّ السيرَ في الطريق السوي لم يتوافق مع أهوائهم ورغابتهم النفسية، ولكنهم كانوا يعلمون الحقيقة، وقد أحاط بهم القلقُ والاضطرابُ والخوفُ من خروج الإسلام خارج مكَّة وانتشارِه بين القبائل والأقوام المجاورة، فتشكَّلَ وفدٌ من زعماء قريشٍ، واتجهوا إلى الوليد بن المغيرة، وقالوا فيما بينهم:

- ماذا نقول بشأن محمَّد للقبائل القادمة إلى مكَّة؟

فقال الوليد بن المغيرة الذي كان قد قابلَ الرَّسول عليه الصلام والسَّلام، وسمع منه القرآن الكريم:

- إني أعلمُ بكلِّ أنواع الشعر، وليس ما سمعته من محمَّد بالشعرِ، فهو قولٌ أعلى من الشعرِ، وما هو بالنثرِ، إذ لم أسمع من قبلُ بمثل ذلك الكلام الذي لا نظيرَ له في البلاغة والفصاحة والانسجام، ولا يشبهُ قولُه قولَ الكهنة، وليس بقولِ مجنونٍ، إذ لم أرَ فيه أية علامة تدلُّ على الجنون، ولا نستطيع القول بأنه ساحر، فهو لا ينفخُ حين القراءة، ولا يعقدُ الألغاز، فليس فيه ما يشبهُ السحرة!

وبعد هذا الكلام، أصرَّ الوليد بن المغيرة على إيجاد مَخرجٍ لنية المشركين الفاسدة، فأجبر نفسه على القول:

---

٤٧٥ الطور: ٢٩– ٣١.

٤٧٦ الأحقاف: ٧– ٨.

– ولكنَّه يفرِّق بين الأخ وأخيه، ويزرعُ الشِّقاقَ بين ذوي القُربى، ولذلك لا يمكن أن يكون كلامُه إلا سحراً. [٤٧٧]

ولـمَّا لم يُوفَّق المشركون في الاتهامات والادعاءات التي أوردوها بحق القرآن الكريم، انعطفوا إلى شخص سيِّدنا محمَّدٍ المبارك ﷺ، واتخذوه هدفاً لحقدهم وتهجمهم الأعمى.

فوجدوا الفرصة في وفاة القاسم ابن النبيِّ ﷺ الذي وافته المنيَّة في العام الثاني من عمره، وقالوا له على لسان العاص بن وائل بأنه «أبتر»، وهو يتضمَّن السخرية والاستهزاء بمعنى أنَّ النبيَّ ﷺ مقطوع الذرية والنسل، ولن يبقى له ذكر بعد وفاته، وكانوا بذلك يريدون إسقاط الرَّسول ﷺ من أعين النَّاس، وإزالة تأثيره من قلوبهم.

ولكنَّهم لم يفلحوا في هذا أيضاً، حيث أنزل الله تعالى سورة الكوثر كصفعة مؤلمة على وجوههم، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [٤٧٨]

ويُفهَم من هذه السورة أن صفةَ «الأبتر» مشتركةٌ بين كلِّ مَن يحمل تجاه النبي ﷺ البغض والحقد وذلك في أيِّ زمان أو مكان، فالبلهاءُ الذين يصفون النبيَّ ﷺ بأنه مُجرَّد بدوي، والحمقى الذين يتجرَّؤون على انتقاص سيِّد العالمين بأقوالهم السافلة، والبؤساء التعساء الذي يصفون الدين الذي جاء به الرَّسول ﷺ بأنه قانون الصحراء، هؤلاء جميعاً هم فقراء الأرواح، الذين سيقطع الله منهم الذرية والنسل، وكلٌّ منهم جدير بصفة «الأبتر».

يقول الشاعر:

تنسابُ أنوارَ الوجـــودْ   من نور شمسِ جمالِكْ
فلأنتَ والدُ أمــــــةٍ   سارت بهـــدي كمالِكْ
ولَأنت نورُ قلوبِهـــــا   تحيـــا بفيضِ وصالِكْ
قد خابَ مَن يبغي الأذى   لكَ فـــي أذى أولادِكْ
فلَـــــــذاكَ أبترُ خائبٌ   يومَ القيامةِ هالِــــــكْ

٤٧٧ ابن الجوزي: ٨، ٤٠٣–٤٠٤؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٥٥٠؛ الواحدي: أسباب النزول، ٤٦٨.
٤٧٨ الكوثر: ١–٣.

إن الذين لم يتحمَّلُوا الرَّسول ﷺ كانوا مثل المنكرين للأنبياء السابقين تماماً، حيث إنَّ أغلبهم مجموعةٌ من المحظيين لدى الحكام، ومن الأغنياء المستكبرين.

حيثُ يقولُ الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [٤٧٩]

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ. أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٤٨٠]

حيث كان أبو لهب الذي نزلت بحقِّهِ سورةُ المسد يقول:

– تباً لدينٍ يُساويني بغيري!

وكان أبو جهل الذي يُعدُّ من ألدِّ أعداء النبي ﷺ والدين الإسلامي يقول:

– والله لا نُكذِّبُ محمَّداً! ولكن تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرفَ، أطعَموا فأطعمنا، وحمَلوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكَبِ، وكنَّا كفرسي رهانٍ، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماءِ، فمتى ندركُ هذه؟ والله لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدِّقُه! [٤٨١]

وقال أبو جهل مرَّة ثانية بسبب الحقد والحسد، والعداوة الشديدة التي يكنُّها للنبي ﷺ:

– إنِّي أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أطيقُ حملَه، فإذا سجد في صلاته رَضَختُ به رأسَه.

وبعد ذلك رأى أبو جهل الرَّسول ﷺ يصلِّي في الحرم الشَّريف، فتقدَّم إليه لينفِّذ ما قد توعَّدَ به من قبلُ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونُه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له:

– ما لك يا أبا الحكم؟

٤٧٩ سبأ: ٣٤– ٣٥.

٤٨٠ القلم: ١٠– ١٥.

٤٨١ ابن كثير: البداية، ٣، ١١٣.

فقال أبو جهل:

– قمتُ إليه لأفعلَ به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوت منه عرضَ لي دونَه فحلٌ منَ الإبل، لا والله ما رأيتُ مثلَ هامته ولا مثل قصرَتِه ولا أنيابِه لفحلٍ قطُّ، فهمَّ بي أن يأكلَني!.[٤٨٢]

وذلك لأن الله قد تكَّفلَ بحفظ النبيِّ المصطفى محمَّد ﷺ، والدينِ الذي أرسله به، وجعله في غلبة دائمة على خصومه.

في حين أن المشركين ما زالوا لا يتقبَّلون رسولَ الله ﷺ، وكانوا يقفون بعيداً عن حقيقة القرآن الكريم، وكأنَّهم كانوا يهربون من الحقائق الإلهيَّة.

ويقول الله تبارك وتعالى في وصف هذه الحالة:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [٤٨٣]

ويعبِّرُ الشاعر عن بعد الكافرين من الإيمان بالرغم من علمهم بحقيقته، وأنَّ الهداية مسألة تقدير من الله تعالى في البيتين الآتيين:

يا ربُّ كيف أرى الهُدى إن كان بابُكَ مُوصَدا

ما العقلُ منِّي نافــــعٌ إن كـانَ قلبيَ يجحدُ

إلا أن عناد الكافرين وإشاحتهم بوجوههم عن الإيمان يظهر في قادم الأيام على شكل الأذى والتعذيب والاضطهاد للرسول ﷺ وللمؤمنين، بموجب الامتحان الإلهي.

فترةُ الأذى والتَّعذيبِ

إن المشركين الذين خابت مساعيهم من العروض التي قدَّموها لأبي طالب، ولم يحصلوا على أيِّ تنازلات منَ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لجؤوا إلى التهديد، لعل التهديد ينفع حيث فشل الترغيب، ففي البدايات الأولى لم يمسوا الأشخاص الذين ينتمون إلى عوائل وقبائل كبيرة بسوء؛ لأنَّ أعمال الظلم على المسلمين لم تكن حالة عامَّة بعدُ.

---

٤٨٢ ابن هشام: السيرة، ١، ٣١٨؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٩٢– ٩٣.

٤٨٣ المدثر: ٤٩– ٥١.

وفي هذه الأثناء كان أكثرُ المعرّضين لظلم المشركين وتعذيبهم هم الفقراءُ والعبيدُ والجواري الذين لا سندَ لهم، ولا قبائلَ تحميهم، ولم يبقَ صنفٌ من صنوف التعذيب إلا وقد مُورِس عليهم، وكأن وسائل التعذيب قد استنفذت معهم.

فقد كان الصحابي خباب ﵁ [٤٨٤] يُمَدَّدُ فوق النار الملتهبة، ويُداس على صدره، ويُنتظَر حتى تنطفئ النار بالدهن الذائب من جسده والمتقطر عليها.

كان خبّابٌ ﵁ حدّاداً، وله مُستحقّاتٌ على بعض المشركين، ولما طلب منهم مستحقاتِه قالوا له:

– أكفر بمحمَّد، ثم نعطيك ما تطلب!

فقال وقد ترك كل الدُّنيا الفانية وزُخرُفَها جانباً، مفضِّلاً عليها السعادة الأبدية:

– لن أكفر به أبداً، وأنا معه ما حييت.

ويتحدث هو نفسه عن أحد هذه المواقف التي تعرَّضَ لها حيث يقول:

– كنتُ قيناً في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، قال:

– لا أعطيك حتى تكفرَ بمحمَّد.

فقلت: لا أكفر حتى يُميتَك اللهُ ثم تُبعَثَ.

قال: أتعني أني سوف أموت، ثم أُبعث مرَّة أخرى؟

فقلت: نعم.

فقال العاص بن وائل: دعني حتى أموتَ وأُبعَثَ، فسأُوتى مالاً وولداً، فأقضيك.

فنزل قول الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا. كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا. وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [٤٨٥]

---

٤٨٤ خباب بن الأرت ﵁ سادس المسلمين السابقين إلى الإيمان، كان من المسلمين الذين لاقوا معاناة كبيرة وتعرضوا إلى التعذيب والاضطهاد الشديد على يد المشركين، وقد حمل على ظهره آثار التعذيب الظاهرة حتى وفاته ﵁، وبعد أن هاجر إلى المدينة المنورة شارك في كل الغزوات والمعارك التي وقعت بعد معركة بدر، وروى عن النبي ﷺ ٣٢ حديثاً، وتوفي في الكوفة سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م وله من العمر بضع وسبعون سنة.

٤٨٥ مريم: ٧٧– ٨٠.

ولم تكن أمُّ أنمارٍ صاحبةُ خباب ﷺ تتأخَّر أيضاً عن القوم في تعذيب خباب ﷺ، حيث كانت تكوي رأس خباب ﷺ بالحديد المحمّى على النار، فذهب خباب ﷺ إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يشكو إليه أمَّ أنمار، فقال الرَّسول ﷺ داعياً:

«اللهم انصر خبابا»

وبعد هذا الدعاء اشتكت مولاته أم أنمار رأسها، فكانت تعوي مثل الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدة المحماة فيكوي بها رأسها. [٤٨٦]

كان بلال الحبشي[٤٨٧] ﷺ واحداً من الذين تعرضون لأشدِّ ألوان العذاب إيلاماً، لقد كان أُميَّةُ بنُ خلف يُذيق بلالاً من أنواع العذاب ما لا يخطرُ بالخيال ولا يتصوَّرُه العقل، حيث كان يمدِّدُه على الرمال الساخنة كالنار، ويضع فوق بطنه حجارةً عظيمة، وفي بعض الأحيان كان يجرُّه في أزقة مكَّة، وكان يترك بلالاً عطشانَ جائعاً يوماً كاملاً بليلته، ويلبسه قميصاً من الحديد، ويوقفه فوق الرمال الحارقة تحت أشعة الشمس اللاهبة، ويبقيه على هذه الحالة حتى يذوب شحم جسده.

٤٨٦ انظر ابن الأثير: أُسد الغابة، ٢، ١٤٧/ ١٤٠٧.

٤٨٧ بلال بن رباح ﷺ؛ اشتهر ببلال الحبشي لأن أصوله تعود إلى الحبشة، لقد كان من السبعة الأوائل الذين أسلموا في مكة وأشهروا إسلامهم، وكانت أمه حمامةُ مسلمةً أيضاً، ولهذا السبب فقد رأى كلاهما من العذاب الشيء الكثير على يد المشركين وذلك في السنوات الأولى للإسلام، وإن بلالاً ﷺ الذي عُرف برفعه الأذان في السنة الأولى للهجرة أصبح مؤذن رسول الله ﷺ في الحضر والسفر، وشارك مع النبي ﷺ في كل الغزوات، ولما فُتحت مكة صعد على سطح الكعبة ورفع أذان الفتح، كان بلال ﷺ يقوم بخدمة النبي ﷺ حيث يحضّر له ماء الوضوء، ويخدمه، وخلال المعارك يقوم بحراسته ليلاً، ويعينه في أعمال إدارة الدولة الأخرى، وبعد وفاة النبي ﷺ لم يستطع رفعَ الأذان مرة أخرى، وفي زمن خلافة عمر ﷺ ترك المدينة المنورة ؛ ليشارك في بعض المعارك في سورية (الشام)، وقد طلب المسلمون هناك أن يرفع بلال الأذان وتوسَّطوا في ذلك الخليفة، وبناء على طلب الخليفة رفع بلال الأذان مرة واحدة. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٣٥٧)، فانسكبت الدموع من أعين المسلمين الذين تذكروا زمنَ رسول الله ﷺ، روى بلال ﷺ / ٤٤/ حديثاً شريفاً عن النبي ﷺ، وتوفي هذا العاشق لرسول الله في دمشق وله من العمر بضع وستون سنة. وأثناء وفاته قال بلال ﷺ: غداً نلقى الأحبَّةْ محمَّداً وصحبَهْ. فبكت زوجته وقالت نائحة: يا ويلتاه! ما الذي جرى علينا! بينما كان بلال العاشق للرسول ﷺ يقول بقلب مليء بالشوق والحنين: آه؛ ما أجمله! وما أطيبه! (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٣٥٩).

وعلى الرغم من إذاقة المشركين لبلال مختلفَ أنواع العذاب، فلم يكن يتكلَّم بشيءٍ مما يطلبوه منه، حيث كان يقول دائماً: «**أحدٌ، أحدٌ**» [٤٨٨]

إن الاضطهاد الموجَّهَ إلى المسلمين لم يكن عبارةً عن الأذى فقط، إذ إنَّ ياسراً [٤٨٩] والدَ عمار ﵁ لم يتكلم بما طلبه منه المشركون، فلم يتحمّل العذاب الشديد الذي لاقاه على أيديهم فاستشهد ﵁ تحت التعذيب.

وأما سُميَّةُ والدة عمار ﵄ فبعد أن تعرَّضت للتعذيب الوحشي على يد المشركين، تمَّ ربط كل قدم من قدميها بحبل إلى جمل ومُزِّقَ جسدُها بوحشيةٍ تفوق تصوُّرَ العقل البشري، فاستشهدت ﵂ بطريقة رهيبة ومفجعة.

وهكذا أصبح أفراد عائلة ياسر ﵃ أوَّل شهداء الإسلام. [٤٩٠]

ذات يوم صادف النبي ﷺ هذه العائلة أثناء تعرُّضِها للتعذيب والتنكيل، فقال:

«**صبرا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**» [٤٩١]

وما أكثر ما وقع عمار ﵁ [٤٩٢] ضحية للأذى والعذاب والتنكيل.

وذات يوم أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال:

«**ما وراءك؟**». قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير قال:

«**كيف تجد قلبك؟**». قال: مطمئن بالإيمان قال:

«**إن عادوا فعد**». فنزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى:

---

٤٨٨ انظر أحمد: مسند، ١، ٤٠٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٣٣؛ البلازوري: ١، ١٨٦.

٤٨٩ ياسر بن عامر ﵁، قدم من اليمن إلى مكة واستقر فيها، وتزوج من سمية جارية أبي حذيفة، ورُزق منها بولدين هما عمار، وعبد الله. (ابن سعد: الطبقات، ٤، ١٣٦، ٨، ٢٦٤) وقد أسلم جميع أفراد عائلة ياسر، وتعرضوا لأشد ألوان العذاب والقهر من أجل أن يرتدوا عن دينهم.

٤٩٠ انظر ابن حجر: الإصابة، ٣، ٨٤٦؛ الزمخشري: ٣، ٤٦١.

٤٩١ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٣٢، ٤٣٨/ ٥٦٤٦.

٤٩٢ قال النبي ﷺ: «**إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان**» (الترمذي: المناقب، ٣٢/ ٣٧٩٧؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ١٤٨/ ٤٦٦٦). وقال ﷺ:«**ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما**». وبهذا الاختيار فقد بين الرَّسول ﷺ فضل أصحابه. (الترمذي: المناقب، ٣٤/ ٣٧٩٩؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٣٨/ ٥٦٦٥).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [٤٩٣]

إن هذه الحادثة دليلٌ شرعيٌّ على جواز النطق بكلمة الكفر في حال تعرض الإنسان المؤمن لخطر الموت، وأما فيما عدا هذه الحالةَ فلا يجوز اللجوء إلى هذه الرُّخصةِ.

وقد كان المشركون أعداءُ الإسلامِ يضربون صُهيباً رضي الله عنه [٤٩٤] ضرباً مبرِّحاً حتى يُغمى عليه.

وأما الصحابية زِنِّيرَةُ رضي الله عنها فقد لاقت على يد المشركين من صنوف التعذيب والتنكيل ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وقد عمي بصرُها جرّاءَ ألوان التعذيب التي تعرَّضَت لها على يد أبي جهل.

فقال لها أبو جهل: أرأيتِ؟ ما أذهبَ بصرَكِ إلا اللاتُ والعزى!.

فقالت: كذبتَ وبيتِ الله! ما تضرُّ اللات والعزى وما تنفعان، وإنَّ ربِّي قادرٌ على ردِّ بصري.

ولما أصبحت ردَّ الله إليها بصرَها. [٤٩٥]

---

٤٩٣ النحل: ١٠٦. الحاكم، المستدرك، ٢، ٣٨٩/ ٣٣٦٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٨٩، ٢٤٩؛ ابن الأثير: الكامل، ١، ٦٧؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠، ٢٩٥.

٤٩٤ صهيب بن سنان رضي الله عنه، وقد اشتهر بصهيب الرومي، وقع أسيراً لدى الروم عندما كان صغيراً، ثم وقع أسيراً لدى العرب، ولما اتفق في مكة مع ابن جدعان أخذ يتعلم الإسلام من عمار بن ياسر رضي الله عنه وأسلم على الفور، أعطى كل أمواله للمشركين وتحمل الكثير من الصعوبات والمشقات حتى هاجر إلى المدينة المنورة، وقد نزل بحقه قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

ولما رآه النبي ﷺ قال:

«**يا أبا يحيى، ربح البيع**» (الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٥٠- ٤٥٢/ ٥٧٠٦)

كان صهيب الرومي رضي الله عنه من أمهر الناس في رمي السهم، وشارك مع النبي عليه الصلاة والسلام في كل الغزوات والمعارك، وكان رجلاً متوسط القامة، وأشقر البشرة، ومتميزاً بالكرم والشهامة، أمضى عمرَه كله مضحياً في سبيل الإسلام، تُوفِّي في المدينة المنورة سنة/ ٨٣ هـ/ وله من العمر ثلاثة وسبعون عاماً، ودُفن في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

٤٩٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٤٠- ٣٤١؛ ابن الأثير: الكامل، ٢، ٦٩؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٧، ١٢٣.

وما أكثر المسلمين الذي كانوا في هذه الحالات من الشدة والعذاب والمعاناة، فقد تعرَّض نخبةٌ من أصحاب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام الـمُجتبَين لصنوف من التعذيب لا يتصورها عقل بشر من أمثال عامرِ بن فهيرة، وأبي فُكَيهةَ، ومقداد بن عمرو، وأمِّ عُبيس، والسيِّدة لُبينة، ونَهدية وابنتها، حيث كان المشركون يُعرُّونهم من ثيابهم ويربطون أرجلهم بالسلاسل الحديدية ثم يجرونهم، ويخرجونهم إلى الصحراء في أشد الأيام حرارة ولهيباً، ويضعون فوقهم صخوراً كبيرة، فيذيقونهم أشدَّ ألوان العذاب ويستمرون على ذلك إلى أن يفقدوا وعيهم، فلا يدرون ما يقولون، وكانوا يخنقونهم فلا يتركونهم حتى يشارفوا على الموت.[٤٩٦]

كان النبيُّ ﷺ في البدايات يحزن كثيراً لحال جميع المؤمنين، ولكنَّه لم يملك في ذلك الوقت فعلَ أيِّ شيءٍ تجاه هذا الظلم والاضطهاد[٤٩٧]، والشيء الوحيد الذي أمكن عمله هو أن أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه الذي كان يتمتع بشيءٍ من الغنى اشترى سبعةً من الأرقاء الذين أسلموا من أسيادهم، ومن ضمنهم بلال الحبشي رضي الله عنه، ثم أعتقهم لوجه الله تعالى، وبذلك تمكَّنَ من تخليصهم من العذاب الأليم الذي تعرضوا له.

ولكنَّ اعتداء المشركين واضطهادهم للمسلمين كان يزداد يوماً بعد يوم، حيث انتقلوا من تعذيب المستضعفين والفقراءَ من المسلمين إلى غيرهم من أصحاب رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام الذين يتمتعون بشيءٍ من الثروة والمنعة، إذ لم يسلم من إيذائهم وتعذيبهم حتى أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، والزبير بن عوام، ومصعب بن عمير وغيرهم ممن لهم مالٌ وجاهٌ بين أهل مكَّة.

كان المشركون يحرِّضون سفهاءَ مكَّة لكي يتهجموا على النبيِّ ﷺ، وكانوا يؤذونه بسَوقِ افتراءاتٍ وأكاذيبَ بحقه عليه الصَّلاة والسَّلام ومن هذه الافتراءات؛ اتهامه بالشعر، والسحر، والكهانة، والجنون، وغيرها من الافتراءات التي ما كانوا يصدقونها هم أنفسُهم.[٤٩٨]

---

٤٩٦ انظر : ابن ماجه: المقدمة، ١١؛ أحمد: مسند، ١، ٤٠٤.

٤٩٧ ولهذا السبب ينبغي على كلِّ مؤمن أن يتصرف وفي تفكيره أن أي حزن يصيبه يُحزن رسول الله ﷺ. وبناءً على ذلك، فعليه الابتعاد عن كلِّ فعل أو سلوك من شأنه جرح مشاعر أخيه المسلم مثل الغيبة، والظلم، والاعتداء على الحقوق، وكسر القلوب وغيرها.

٤٩٨ انظر ابن هشام: ١، ٣٠٩– ٣١٠.

يروي عبد الله بن عمرو ما رآه من إيذاء المشركين للنبيِّ ﷺ حيث يقول:

بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا» فأقبل أبو بكر الصديق ﷺ حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال: {**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**} [غافر: ٢٨] . [٤٩٩]

ويروي لنا عبد الله بن مسعود ﷺ أيضاً حادثة مشابهة، حيث يقول:

بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل:

- أيُّكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه بين كتفي محمَّدٍ إذا سجد؟

فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، ولو كانت لي منعةٌ طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبيُّ ﷺ ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت، وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال:

«**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**»

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ:

«**اللهم، عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**»

وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام بالحقِّ لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر، ثم سُحِبوا إلى القليبِ؛ قليبِ بدرٍ. [٥٠٠]

وعلى الرغم من تعرُّضِ النبي ﷺ لهذه المظالم والأذيات إلا أنه لم يرضخ يوماً للمشركين، ولم يتنازل لهم عن شيءٍ من دعوى التَّوحيد سواء التنازل عن طريق التفاهمات أو تحت التهديد، فلم يتنازل عن شيءٍ من دينه أبداً، وهذا أيضا كان دأب الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

٤٩٩ البخاري: التفسير، ٤٠/ ٣٨٥٦.

٥٠٠ البخاري: الصلاة، ١٠٩/ ٥٢٠، الجهاد، ٩٨/ ٢٩٣٤؛ مسلم: الجهاد، ١٠٧/ ١٧٤٩.

فيروى عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال:

كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود ؓ، قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا:

والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟

فقال عبد الله بن مسعود ؓ: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود ؓ حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» رافعا بها صوته «**الرحمن علم القرآن**» قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون. [٥٠١]

كان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه وقال:

- تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك؛ وإن كان تاجرا قال:

- والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.

وقد سُئِلَ ابن عباس ؓ ذات مرة:

«أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له، آللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر

٥٠١ ابن هشام: السيرة، ١، ٣١٤- ٣١٥؛ ابن الأثير: الكامل، ١، ٦٧٩.

بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده. وإن عاد إليه وعيُه يعود إلى التَّوحيد» [٥٠٢]

ينبغي علينا أن نتفكَّرَ بعمق في هذه المشاهد من الظلم والقهر التي نقلناها آنفاً – إلى جانب تلك المشاهد الكثيرة التي لم نوردها لضيق المقام – ونتدبَّرَ فيها؛ لنعلمَ بأن نعمة الإسلام التي نتمتَّعُ بها قد وصلت إلينا من خلال آلاف الرجال والنِّساء الذين تحمَّلُوا في سبيل ذلك شتى صنوف الأذى والتعذيب دون أن يتنازلوا قِيدَ أنملةٍ عمّا عزموا عليه وآمنوا به، وبالتالي ينبغي علينا أن نجلَّهم ونقدِّرَهم حقَّ قدرهم.

لو شاء الله ﷻ لنشر الإسلام في كل بقاع الأرض في غاية اليسر والسهولة، وبالتالي ما كان المسلمون ليتحملوا كلَّ هذه المشقات ويتعرَّضوا لصنوف التعذيب والتنكيل هذه، ولكن لو كان الأمر على هذا النحو لما ظهر إخلاصُ من اختاروا السير في هذا السبيل، ولما أثبتوا في هذا المجال ثباتَهم، وجهادَهم، وعزمَهم، وتضحياتِهم، ومن البديهي ألا يبقى فرق حينئذ بين المؤمن والمنافق، ولا بين الصادق والكاذب.

حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [٥٠٣]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [٥٠٤]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [٥٠٥]

---

٥٠٢ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٣٩– ٣٤٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٣٣؛ ابن كثير: البداية، ٣، ١٠٨.

٥٠٣ العنكبوت: ١– ٣.

٥٠٤ آل عمران: ١٤٢.

٥٠٥ البقرة: ٢١٤.

إن مواجهة الامتحانات الصعبة عند الكفاح في السير على طريق التَّوحيد من سنن الله تعالى الثابتة في عباده، فكلُّ الأنبياء والصادقين من عباد الله عانوا من المشاقِّ الشيءَ الكثير، وتعرَّضوا لمختلف أطيافِ الأذى والعذاب، حتَّى إنَّ بعضَهم استُشهدَ في سبيل هذا الكفاح المقدس، ولذلك فليس من الصواب استسلام المسلم وفقده لأمله عندما تواجهه في طريقه المشقاتُ والصعوبات، وإنما على النقيض من ذلك، على المؤمنين أن يعلموا بأنَّهم كلما أظهروا التحمُّلَ والثباتَ في مواجهة الأذى والمصائب لتنفيذ أوامر الله تعالى فإنَّهم ينالون بقدر تحملهم رضا الله ﷻ وتوفيقه.

تلقينُ المسلمينَ دروساً في الصَّبرِ والثَّباتِ

لقد كان النبي ﷺ في واقع الأمر بشراً، إذ كانت أعمال الأذى التي يتعرَّضُ لها بين الحين والآخر تحزنه كثيراً، وإنَّ التصرُّفاتِ المسيئةَ التي كان يُقابَل بها من أناس – يبذل قصارى جهده وطاقته من أجل هدايتهم – تؤلمُ قلبه وتكدِّرُه، فهذه اللحظات التي كان يعيشها، والحالات التي كان يُقاسيها، كانت تجعله في حاجة ماسَّةٍ للمواساة والتخفيف.فكانت تأتيه المواساة من ربِّه ﷻ حيث إنَّ الله ﷻ لا يريد لرسوله الكريم الحزنَ والكدرَ، فكان يشدُّ من عزيمته ويرفعُ من معنوياته من خلال الآيات الكريمة التي ينزلها عليه، إذ يقول الله ﷻ:

﴿...إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [٥٠٦]

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٥٠٧]

﴿...وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [٥٠٨]

وكان الحقُّ ﷻ يواسي حبيبَه محمَّداً ﷺ، ويوصيه بالصبر على النحو الآتي:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [٥٠٩]

---

٥٠٦ الإسراء: ٧٨. -أي يا أيها الرَّسول -.

٥٠٧ لقمان: ٢٣- ٢٤.

٥٠٨ النحل: ١٢٧.

٥٠٩ ق: ٣٩.

وبهذه الآيات التي كانت تقوي عزيمةَ الرَّسول ﷺ وتشد من أزره، كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بدوره يخفِّفُ من آلام أصحابه، ويضمِّدُ جراحَ قلوبِهم.

يقول الصحابي خبّابُ بنُ الأرتِّ ﷺ:

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [٥١٠]

ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَاد. لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [٥١١]

لقد كان أذى المشركين وتعذيبهم يستمرُّ على المسلمين، وعندما كانت الآلام والمعاناة تزداد عليهم كان الله تعالى يُواسي قلوب المؤمنين وينضجها بهذه الآيات، إنَّ الآلام والمعاناة تُعتبر مؤثِّراتٍ تقرِّبُ العباد من ربهم سبحانه وتعالى، وقد كان المؤمنون كانوا ينظرون إليها أيضاً على أنها ميزان إلهيٌّ يُقاسُ به مدى توكُّلِهم على الله وتسليمِ أمرِهم له سبحانه وتعالى، إن السلوك الأفضل الذي ينبغي على المؤمنين القيامُ به في مثل هذه الأوقات هو كما يبيِّنُه الله تعالى في كتابه العزيز، حيثُ يقولُ الحقُّ سبحانه وتعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلا﴾ [٥١٢]

٥١٠ البخاري: مناقب الأنصار، ٩٢/ ٦٩٤٣ .

٥١١ آل عمران: ١٩٦– ١٩٨.

٥١٢ الإنسان: ٢٤– ٢٦.

إن من المؤكد أن المؤمنين الذين يُراعون هذه الأوامر الإلهيَّة سوف يصلون من شدة اطمئنان قلوبهم إلى مرحلة من القوة القادرة على مواجهة آلام الصبر والمعاناة، ولعلَّ من أهمِّ هذه الأوامر صلاةَ التهجُّدِ التي يختلي بها المؤمن مع ربه في جوف الليل؛ فإنها تقرب العبد من الله تعالى، وتُكسِب روحَه قوة وقدرة خارقة تُلصِقُ قلبه بالإيمان، وفي ذلك يقول المولى ﷻ:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا﴾ ٥١٣

إن الأمر بالتهجد موجَّهٌ بشكل مباشر إلى النبي ﷺ، بمعنى أنه أمر وجوب خاصٌّ به، وأما بالنسبة للأمة فإنه تكليفٌ اختياريٌّ متروكٌ لرغبة المؤمنين، وكلٌّ حسب طاقته، وإن هذه العبادة من جملة العبادات الطوعية - خارج تلك المفروضة - الموصى بها لأهل التقوى؛ لكونها عاملاً من عوامل الترقية والتزكية الروحية.

إن الحق سبحانه وتعالى الذي وهب المؤمنين سُبلَ السعادة بكلِّ جوانبها، قال أيضاً لرسوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ٥١٤

إلا أن الذين حُمِّلوا مهمةَ إعلاء كلمة الحق مُكلَّفون بالعمل في هذا الشأن بقدر طاقتهم واستطاعتهم؛ لأنَّ الإنسان بسبب خضوعه لامتحان العبودية يمرُّ بالكثير من الأحوال التي يصطدم فيها بالمصاعب والمشاقِّ وجهاً لوجه، ولذلك فإنه لن يصلَ إلى النتيجة التي يبتغيها إن لم يبذل الجهد ويكافح من أجل تحقيقها.

وقد بيَّنَ الله تعالى أن هذه الحقيقة تنطبقُ حتى على الرُّسل والأنبياء، حيثُ يقولُ ﷻ:

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٥١٥

٥١٣ المزمل: ٦.

٥١٤ الإسراء: ٨١.

٥١٥ يوسف: ١١٠.

وبقدرِ ما كانت هذه الآياتُ تطرب قلوب المؤمنين وتبعث فيها السكينة والطمأنينة، وتزيدُ من صبرهم على الجهاد ومواجهة المشركين، فإنها كانت تزيدُ بالقدر نفسه من كراهية المشركين وأحقادهم، ناهيك عن إصرارهم على الأذى الذي كانوا يلحقونه بالنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، حيث كانوا يبدعون كلَّ يوم أسلوباً جديداً من التعذيب، وولوناً جديداً من التنكيل، وإن المضايقات والمعاناة التي كان المسلمون يتعرَّضون لها لم يكن لها حد، ففي كل يوم جديد كانت تسوء حالتهم أكثر من سابقه، فأخذت قدرتهم على التحمُّل تضعف وتكاد تتلاشى.

فازدادت الأحوال سوءاً حتى وصل الأمر بالمشركين إلى درجة عالية من الخطورة والسفالة، بحيث أخذهم التفكير إلى محاولة القضاء على منبع الوحي وتجفيفه، أما النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام فقد كان يستمسك بحبال الصبر حتى وصل إلى قمته، وراح يلتجئ إلى الله تعالى بكليته طلباً لعنايته وحفظه، إلا أن وعد الله لم يكن قدآن أوانه بعد.

ولم يرد الله تعالى لنبيه الكريم أن يضعف أمام أحوال الاضطراب والكدر التي تعتريه، فكان يثبته بأمثال قوله في القرآن الكريم:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [٥١٦]

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥١٧]

---

٥١٦ إبراهيم: ٤٧.

٥١٧ الأحقاف: ٣٥.

السنة الخامسة للبعثة

هجرةُ الحَبشةِ

لقد أعطى النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أمراً للمسلمين بالهجرة من مكَّة بسبب أذى المشركين الذي فاقَ كلَّ تصور وتحمل، وعجز المسلمين عن القيام بواجباتهم الدينية بحُرِّيةٍ، إضافة إلى كون الهجرة مهمة من أجل نشر الدين.

ولما سأل الصحابة الكرام عن المكان الذي سوف يهاجرون إليه، قال الرَّسول ﷺ:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» [٥١٨]

وكانت هذه الهجرة الأولى في شهر رجب في السنة الخامسة للبعثة.

ضمَّت القافلة الأولى سبعة عشر شخصاً منهم اثنا عشر رجلاً، وخمس نساء، وكان من بين هؤلاء المهاجرين وجهاء الصحابة أيضاً من أمثال: عثمان بن عفان، وزوجته السيِّدة رُقيَّةَ، والزُّبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي سلمة، وعثمان بن مظعون، وابن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين.

وبدأت الهجرة، فخرج المهاجرون من مكَّة سرّاً حتى وصلوا إلى ميناء شُعيبةَ على ساحل البحر الأحمر، ثم أمَّروا عليهم عثمان بن مظعون، ووجدوا سفينتين تجاريتين بفضل الله تعالى، فركبوا معهم مقابل نصف دينار لكلٍّ منهم إلى الحبشة، وعلمت قريش، فأسرعت في تعقبهم إلى الساحل، ولكنهم عندما وصلوا إلى ساحل البحر كان المسلمون قد أبحروا. [٥١٩]

عن أنس ﷺ ، أن أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فخرج وخرج معه بابنة النبي ﷺ، فاحتبس على النبي ﷺ خبرهما، فجعل يخرج يتوكف الأخبار، فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها فقالت: يا أبا القاسم! رأيتهما،

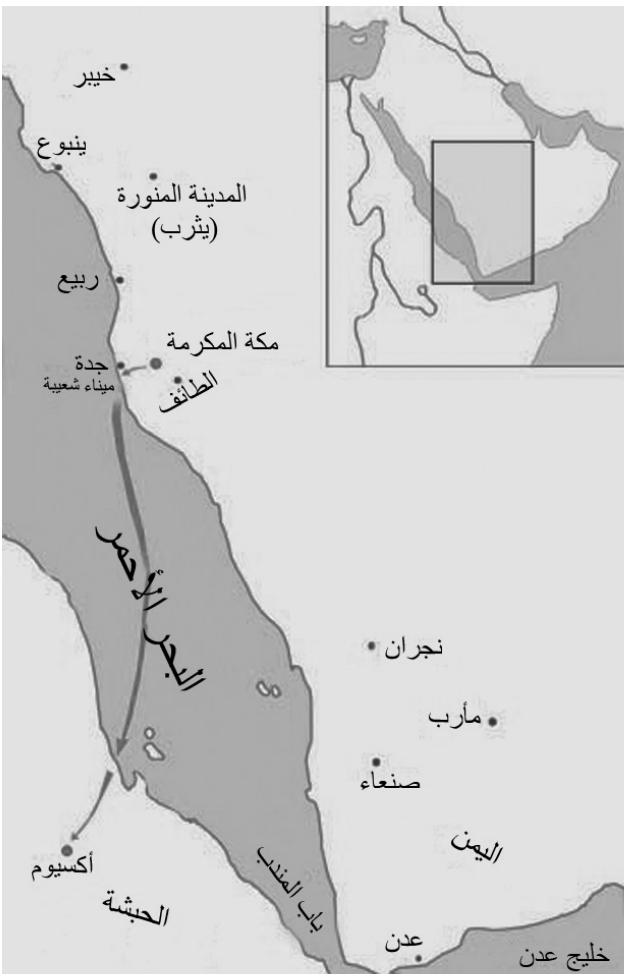
٥١٨ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٢١؛ ابن الأثير: الكامل، ١، ٦٧٩؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٦٧٣.

٥١٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٠٤.

قال: «**على أي حال رأيتهما؟**» قالت: رأيته وقد حملها على حمار من هذه الذبابة وهو يسوق بها يمشي خلفها، فقال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**صحبهما الله، إن كان عثمان بن عفان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط** عليه السلام» [٥٢٠]

لقد تمكَّن المهاجرون الأوائلُ من البقاء في الحبشة مدة ثلاثة أشهر؛ لأنَّ شائعةً انتشرت في البلاد تفيد بأن مشركي مكَّة قد دخلوا في الإسلام، وبناءً على هذه الشائعة عادت قافلة الهجرة إلى مكَّة، ضمَّت هذه القافلةُ تسعةً وثلاثين شخصاً منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً وستُّ نساء، وخرجت القافلة من الحبشة في شهر شوال من السنة الخامسة للبعثة، ولما اقتربت القافلة من مكَّة علم المسلمون بأن خبر إيمان مشركي قريش مجرَّدُ إشاعة لا أصلَ لها من الصحة، وثقلت عليهم العودة مجدَّداً إلى الحبشة، ومن جانب آخر خشي المسلمون من دخول مكَّة من دون حماية أحد، ولم يكن بوسعهم إلا أن يدخلوا تحت حماية أقربائهم وأصحابهم من المشركين، أو يدخلوا سرّاً إلى مكَّة. [٥٢١]



---

٥٢٠ علي المتقي: كنز العمال، ١٣، ٦٣/ ٣٦٢٥٩.

٥٢١ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣-٨؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٠٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٣٣.

قصَّةُ الغرانيقِ

لـمَّا نزلت سورة النجم قرأها النبيُّ ﷺ في الحرم الشَّريف بصوت مرتفع، ولما وصل إلى آية السجدة خرَّ الرَّسول ﷺ ساجداً لله تعالى، ولم يبقَ أحدٌ من المؤمنين والمنكرين على حد سواء إلا وسجد معه. [٥٢٢]إلا أن المشركين لم يسجدوا لله تعالى، وإنما سجدوا لأصنامهم التي مرَّ ذكرُ أسمائها في السورة الكريمة.

وهذه هي الحادثة التي أُريدَ استغلالُها وجعلُها سنداً لتلك الدعوى الخبيثة والباطلة التي ظهرت وانتشرت فيما بعدُ، ألا وهي «قصة الغرانيق».

وإن سبب شائعة دخول مشركي مكَّة في الإسلام هو سجود المشركين مع المسلمين في ذات الوقت مع أن غايةَ السجدتين مختلفةٌ عن بعضهما.

وعلى الرغم من أن أصل المسألة هو ما ذكرناه، فقد ظهر فيما بعدُ ما يعرف بمسألة أو «قصة الغرانيق»، وهي أنَّ الشيطان الخنَّاسَ همس بين الآيات بقوله: «تلك الغرانيقُ العُلى وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى»، فأُعجب المشركون بها وسجدوا على إثر ذلك، ولكن تبيَّنَ فيما بعد خطأ المسألة!.

إن هذه القصة ما هي إلا مِن وَهْم بعض الحاقدين الذين يُضمِرون العداوة للإسلام مثل من سبقهم من المشركين، وقد بحث في هذه القصة كبار المحدثين والمفسرين وعلماء السير، وثبت كذب وبطلان القصة بشكل قطعيٍّ؛ سواء من حيث الرواية، أو من حيث مناقضة القصة للعقيدة الإسلامية.

أوَّلاً: إن الله تعالى حفظ رسوله ﷺ من الغفلة والسهو والخطأ في معرض قيامه بوظيفة تبليغ النَّاس الوحي الإلهي، فمن المستحيل أصلاً أن يتدخَّلَ الشيطان في وظائف رسالة الأنبياء عليهم السلام، فالله ﷻ قد بيَّن بأن الشيطان لا سلطانَ له حتى على عباده المؤمنين،[٥٢٣]فكيف يمكنه التدخل في تبليغ رسالة النبيِّ ﷺ، فالأمرُ فيه استحالة حتمية.

فكما الرَّسول ﷺ معصومة من كلِّ أنواع القصور والغفلة والخطأ؛ فكذلك القرآن الكريم الذي أُنزلَ عليه من السماء قد تكفَّل الله تعالى بحفظِه من كلِّ تدخُّلٍ أو تحريفٍ.

---

٥٢٢ البخاري: التفسير، ٥٣/ ٤.

٥٢٣ انظر: الحجر، ٤٢.

حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٥٢٤]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٥٢٥]

إن الرواية التي تضمَّنت قصةَ الغرانيق مردودة تماماً من حيث السند، ويقول ابن خزيمةَ فيما يتعلَّقُ بهذا الموضوع:

«إن قصة الغرانيق من أكاذيب الزنادقة» [٥٢٦]

ويكفي لضعف هذه الرواية أو القصة وفسادها أنها لم ترد في أيٍّ من كتب الأحاديث الصحيحة، وأن هذه الرواية لم تتضمن في سندها أيّاً من الرواة الموثوق بهم أو الذين يُؤخَذُ عنهم الحديث. [٥٢٧]

إن دعوى الغرانيق غير ممكنة عقلاً أيضاً؛ لأنَّ قصة الغرانيق تتضمَّنُ الشرك بالله تعالى، في حين أن الإسلام اعتباراً من بدايته إلى نهايته دعوة إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك، فليس في هذا النوع من الادعاءات التي تطرح بحق عقيدة التَّوحيد - التي هي الجوهر الأساسي للإسلام - أيُّ جانب يقبله العقل، وإن سورة النجم التي هي محلُّ البحث والجدل تتضمَّن من بدايتها إلى نهايتها تحقيراً وذمّاً للشرك، وبياناً بأن الأصنامَ ما هي إلا عبارة عن أسماء خاوية لا تقدم ولا تؤخر، وأن المشركين لا يتبعون إلا الظن والهوى، فلا يمكن تضمين مثل هذه السورة كلاماً يصوِّب عمل المشركين، ولو افترضنا جدلاً أنها تضمَّنت هذا الكلام، فلا يمكن أن تقنع المشركين، وتدفعهم إلى السجود له، فليس من المعقول أن تُليِّنَ جملتان ألقى بهما الشيطان - على زعم من زعم ذلك، وحاشا أن يكون كذلك - بين آيات سورة تتضمَّنُ بكاملها ذمّاً للمشركين وتحقيراً لهم، من غير المعقول أن تُليِّنَ هاتان الجملتان المشركين إلى درجة السجود.

إن خير ردٍّ على هذا الافتراء جاء في أوَّل سورة النجم، حيثُ يقولُ الله تعالى:

---

٥٢٤ فصلت: ٤٢.

٥٢٥ الحجر: ٩.

٥٢٦ اسماعيل جراح أوغلو: الغرانيق، ٣١، ٣٦٣.

٥٢٧ القاضي عياض: ٢، ١٣٢.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [٥٢٨]

إن هذه المسألة ظهرت نتيجةَ عداوة حاقدة تجاه الإسلام، وقد أُثبِت بطلانُها وفسادُها من عدة جوانب من قبل العلماء المسلمين، حيث إنَّ فترة الدعوة المكيَّة التي دامت ثلاث عشرة سنة مضت بالكفاح والمجاهدة في سبيل القضاء على الشرك، وتقوية عقيدة التَّوحيد في القلوب؛ لأنَّ عقيدة التَّوحيد لا تقبل أبداً شريكاً لله تعالى.

هجرةُ الحبشةِ الثَّانيةِ

لقد شعر مشركو مكَّة بقلقٍ شديدٍ عندما علموا بأنَّ المهاجرين إلى الحبشة لقوا حَفاوةً وتكريماً في الاستقبال، ومعاملةً حسنةً في تلك البلاد، مما دفعهم إلى زيادة تعذيبهم والتنكيل بهم. ثم إن تعرَّضَ أصحاب رسول الله ﷺ للظلم وألوانٍ من التعذيب مما لا يتصوَّره عقلٌ بشريٌّ والتي وصلت إلى درجة كيٍّ بعضهم بالنار، وضربهم بالسياط حتى تآكُل جلودهم، كلُّ ذلك دفع بالصحابي عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذي كان يعيش في جوار الوليد بن المغيرة ويرى كلَّ هذه المظالم، دفعه إلى إعادة التفكير بعمق بحالته، حيث يقول:

والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لَنقصٌ كبيرٌ في نفسي!

ثم ذهب إلى الوليد وردَّ عليه حمايته، وقال له:

– يا أبا عبد شمس، قد وفَّيتَ ذمتَك، فرددت إليك جِوارَكَ، فقال له الوليد:

– ولِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحدٌ من قومي؟

فقال:

– لا، ولكني أرضى بجوار الله ﷻ، ولا أريد أن أستجيرَ بغيره.

فقال له الوليد:

– إذن فهيَّا اردُدْ عليَّ جواري علانيةً أمامَ أهل مكَّة كما أمَّنتك علانية، فانطلقا حتى وصلا إلى المسجد الحرام، ووقف الوليد، ونادى على النَّاس بصوت عال، فردَّ عليه عثمان جِوارَه، وقال:

---

٥٢٨ النجم: ٢– ٤.

- قد وجدته وفيّاً كريماً، حافظاً للجوار، ولكنِّي أحببتُ ألا أستجيرَ بغير الله، فقد رددت عليه جِوارَه. [٥٢٩]

لقد اضطرَّ المسلمون إلى الهجرة للحبشة مرَّة ثانية في السنة ذاتها بسبب ازدياد شدة ظلم المشركين وتعذيبهم لهم، وكان عددهم في هذه المرة تسعون نفراً، منهم سبعة وسبعون رجلاً، وثلاث عشرة امرأةً، وكان على رأسهم جعفر[٥٣٠] الطيَّارُ بن أبي طالب، أخو عليٍّ ﵁.

قال ابن إسحاق: عن أم عبد الله بنت أبي حثمة ﵂، قالت:

«والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه- قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا- قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه- فيما أرى- خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب!»[٥٣١]

تقول أمُّ سلمةَ أمُّ المؤمنين وزوجةُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام:

---

٥٢٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٧٠؛ ابن اسحاق: السير والمغازي، ١، ١٧٩.

٥٣٠ **جعفر بن أبي طالب** ﵁، هو ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان جعفر قد أسلم قبل أن يدخل الرَّسول ﷺ دار الأرقم، ويبدأ بنشر الإسلام ؛ وقد انضم إلى المهاجرين للحبشة في المرة الثانية مع امرأته أسماء ينت عُميس. (ابن سعد: الطبقات، ٤، ٣٤).

لقد رجع جعفر وأصحابه من الحبشة إلى المدينة المنورة في السنة السابعة للهجرة، حيث كان النبي ﷺ في هذه الأثناء في غزوة خيبر، فأعطى قسماً من غنائم هذه الغزوة للعائدين من الحبشة. (البخاري: المغازي، ٣٨).

شارك جعفرٌ ﵁ في غزوة مؤتةَ التي كانت في السنة الثامنة للهجرة، واستشهد فيها. يقول ابن عمر ﵄: «فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في الشهداء، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة رمح ورمية سهم» (البخاري: المغازي، ٤٤).

ولأن جعفر بن أبي طالب قطعت ذراعاه في تلك المعركة، فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سوف يوهب في الجنة جناحين، وقال: «**رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة**» (الترمذي: المناقب، ٢٩/ ٣٧٦٣).

وبعد ذلك أصبح جعفر ﵁ يّذكر بلقب «الطيار».

٥٣١ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٤٣؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ٢٣- ٢٤؛ ابن الأثير: الكامل، ١، ٦٨٠.

«لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه» [٥٣٢]

وإن الذكريات التي ترويها أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها – عن تلك الأيام – تبيِّنُ مدى محبَّة المسلمين للرسول ﷺ على الرغم من عدم رؤيتهم له ولقائهم به، حيث تقول:

– لقد كانت للنجاشي جاريةٌ اسمها أبرهة، ولما عقد نكاحي مع النبيِّ ﷺ في الحبشة، وبينا نحن نجهِّزُ أنفسَنا للرحيل إلى المدينة المنورة، دخلت عليَّ أبرهةُ وقالت لي:

– حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله ﷺ مني السلام وتعلميه أني قد اتبعت دينه.

ثم لطفت بي وكانت التي جهزتني فكانت كلما دخلت علي تقول:

– لا تنسي حاجتي إليك..

فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت أبرهةُ، وأقرأته منها السلام، فتبسم وقال:

«**وعليها السلام ورحمة الله وبركاته**»[٥٣٣]

٥٣٢ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٣٤؛ أحمد: مسند، ١، ٢٠١– ٢٠٢.

٥٣٣ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٧٨.

السَّنةُ السَّادسةُ للبعثة

طلب قريش منَ النجاشي إعادة المهاجرين المسلمين

إن مشركي قريش الذين لم يعيروا انتباهاً كبيراً لهجرة الحبشة الأولى، استُنفِروا وضجُّوا عندما سمعوا بالاستقبال الجميل والمعاملة الحسنة التي يلقاها المهاجرون المسلمون في أرض الحبشة، وأخذوا بيفكرون بجدِّيةٍ في خطورة انتشار الإسلام في البلدان المجاورة، إذ لن يتمكنوا عندئذٍ من احتواء الإسلام والوقوف في وجهه، وتوصَّلوا بعد المشاورات إلى قرار يقضي بالطلب من ملك الحبشة إعادةَ المهاجرين المسلمين إلى مكَّة، وأرسلوا في الحال عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص مُحمَّلَين بمختلف الهدايا الثمينة إلى النجاشيِّ وحاشيته من أجل الحصول على مبتغاهم.

ولما علم أبو طالب بخبر إرسال المشركين لوفدهم مع الهدايا إلى النجاشي، كتب قصيدة يخاطب فيها النجاشيَّ ويمدحه، ويثني عليه من أجل حمله على حماية المهاجرين المسلمين من دسائس المشركين. [٥٣٤]

وقبل أن يقابل عمرٌو وصاحبُه النجاشيَّ قام بتوزيع الهدايا على ضباط النجاشي وقادة جيشه لضمان تأييدهم له، وتمكن من كسبهم إلى جانبه، وبعد ذلك تقدَّمَ وفدُ المشركين بالهدايا إلى النجاشي وقالوا له:

– أيها الملكُ، إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا إليك فيهم أشرافُ قومِهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

---

٥٣٤ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٥٦.

وكان وفدُ قريش يخشى أشدَّ ما يخشاه أن يستدعيَ الملكُ جعفراً وأصحابه، فيسمع منهم ويتأثَّر بكلامهم، ولذلك كانوا يودُّون أن يسلمهم النجاشي لهم من غير استجواب أو محاكمة.

فكان هذا من مهمة ضباط الملك وبطارقته الذين تلقَّوا الرشاوى من أجل الوقوف إلى جانب وفد قريش، حيث قالوا:

– نعم أيُّها الملك، إن ما يقوله القوم حقٌّ، فقومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي، ثم قال:

– لا والله، لا أسلمهم إليهما، ولا يُكادُ قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي، حتى أدعوهم فأسألَهم عمَّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما، وأحسنتُ جوارَهم ما جاوروني.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

وأرسل النجاشي في طلب رجال الدين لديه وأساقفته، فنشروا مصاحفَهم حولَه.

فلما جاء المهاجرين رسولُ الملكِ اجتمعوا، وقال بعضهم لبعض:

– ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا:

– نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا إلى مجلس الملك، أجلس النجاشيُّ الطرفين حوله وجهاً لوجه، فكان المشهد يسجِّلُ لحظات تاريخية مدهشة، كان المتكلم باسم المهاجرين هو جعفر رضي الله عنه.

فتوجه النجاشي إلى ممثل المهاجرين جعفر الطيار، وقال:

– إن هذا وفد قريش يريدون أن يعيدوكم إلى مكَّة!

فقال جعفر للملك:

– أيها الملك! اسألهم أنحن عبيدٌ فيريدون استردادنا؟

فنظر النجاشي إلى عمرو بن العاص، وأجاب عمرو:

– كلا، إن جميعهم أحرار، وليسوا بعبيد!

وتواصلت المقابلة على النحو الآتي:

– أيها الملك! اسألهم إن كان لهم دَينٌ في ذمتنا، فيطلبوننا به؟

– كلا، فليس لأحد دين عليهم!

– أيها الملك! اسألهم هل قتلنا أحداً منهم، فيطلبوننا للقصاص والثأر؟

– كلا، فليس لنا دمٌ في رقابهم!

إذاً، لم يطلبون عودتنا؟

عندها قال عمرو بن العاص:

– إن هؤلاء قد فارقوا دِينَ آبائنا وأجدادنا، وشتموا آلهتنا، وأفسدوا علينا شبابنا، وفرَّقوا بين أقربائنا، وقسموا أهل مكَّة إلى قسمين.

فسأل النجاشي المهاجرين:

– ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحدٍ من هذه الملل؟

فبدأ جعفر الطيار رضي الله عنه بالكلام، فقال:

– أيها الملكُ، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ؛ ولا نعرف الحقَّ أبداً، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصَّلاة والزكاة والصيام، فصدَّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك من بين الملوك على مَن سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلَمَ عندك أيُّها الملك.

فقال له النجاشي الذي كان يستمع إليه بكلِّ هدوء:

- هل معك مما جاء به عن الله من شيءٍ؟

فقال له جعفر:

- نعم.

فقال له النجاشي:

- فاقرأه علي.

فقرأ عليه جعفر ﵁ آيات من أوَّل سورة مريم - وهي الآيات المتعلقة بولادة سيِّدنا عيسى ويحيى عليهما السلام - فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفتُه حتى أخضلُوا مصاحفَهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم النجاشي:

- والله، إن هذا والذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام ليخرجُ من مشكاةٍ واحدة!

ثم توجَّهَ إلى وفد قريش، وقال لهم:

- انطلقا، فلا والله لا أسلمُهم إليكما، ولا يُكادون.

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص:

والله لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصلُ به خضراءَهم.

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين في المهاجرين:

- لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال عمرو بن العاص:

- والله لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون أنَّ عيسى بن مريم عبدٌ.

ثم غدا عمرو على النجاشي من الغد، فقال له:

- أيها الملك، إنَّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً! فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم النجاشيُّ ليسألهم عنه. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض:

- ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا:

- نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

ثم جاؤوا إلى مجلس الملك فلما دخلوا عليه، قال لهم:

– ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب:

– نقول فيه الذي جاءنا به نبينا عليه الصَّلاة والسَّلام، يقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريمَ العذراء البتولِ.

فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال:

– والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود.

فتناخرت بطارقتُه حوله حين قال ما قال.

فقال النجاشي لهم:

– وإن نخرتم! والله إن هذا هو الحقُّ.

ثم توجَّهَ إلى المهاجرين، وقال لهم:

– اذهبوا فأنتم شُيومٌ بأرضي – والشُّيوم: الآمنون – مَن سبَّكم غرم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ما أحبُّ أن لي دبراً من ذهب، وأنِّي آذيت رجلاً منكم، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرَّشوةَ حين ردَّ عليَّ مُلكي، فآخذ الرشوة فيه؟! وما أطاعَ النَّاسَ فيَّ فأطيعهم فيه! ولو أني بجانب الرَّسول ﷺ لصببتُ له الماء على قدمه، ولكنتُ له خادماً!

فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاؤوا به، وأقام المهاجرون عنده بخير دار، مع خير جار. [٥٣٥]

وجاء في رواية أخرى أن النجاشي قال:

«أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه»[٥٣٦]

---

٥٣٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٥٦– ٣٦١؛ أحمد: مسند، ١، ٢٠٢– ٢٠٣، ٥، ٢٩٠– ٢٩١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٢٥– ٢٧.

٥٣٦ أبو داود: الجنائز، ٥٥– ٥٧/ ٣٢٠٥ .

إن البيان الذي أدلى به جعفرٌ ﷺ يشكِّلُ خيرَ مثال ونموذج للعاملين في ميادين التبليغ والدعوة الإسلامية فيما يتعلَّق بأدب الحديث، ومراعاة المواقف والأماكن والأزمنة، فينبغي على المبلِّغِ مراعاةُ هذا الأصل في كل وقتٍ، بحيث:

إن طُلب منه تلاوة شيءٍ من القرآن الكريم، فلا يقرأ من أيِّ موضع شاء من القرآن، وإنما يختار السورةَ أو الآياتِ التي تقتضيها الحالة التي هو فيها؛ أي: إنَّ الإجابة على السؤال حول عيسى ﷺ بقراءة الآيات المتعلقة به تعدُّ إجابةً مثيرة للإعجاب، وأيضاً إن الردَّ على الذرائع التي تقدم بها المشركون من أجل إعادة تسليم المهاجرين وإعادتهم بأجوبة عقلية ومنطقية والتحدث عن الأوامر التي جاء بها دينهم من الأمر بإحقاق الحق، والأمر بالتحلي بالأخلاق الكريمة، يعتبر ردّاً ملفتاً للانتباه.

وهناك حكم كثيرة في اختيار النبي ﷺ لجعفر بن أبي طالب ﷺ رئيساً لقافلة المهاجرين إلى الحبشة، حيث إنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يعلِّمُ بهذا التصرُّف الحكامَ كيفية اختيار وتعيين رجال الإدارة، إذ ينبغي تعيينهم وفقاً لقدراتهم ومؤهلاتهم ومناسبتهم للمواقع التي سوف يشغلونها.

لقد عاد قسم من المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية بعد هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة المنورة، وأما القسم الآخر فقد عاد أثناء سريان صلح الحديبية.

وأما القافلة الأخيرة من المهاجرين التي كانت بقيادة جعفر ﷺ فقد جاءت إلى المدينة خلال فتح خيبر، وسُرَّ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام كثيراً بعودتهم.

إسلامُ سيِّدنا حمزةَ ﷺ[٥٣٧]

لم يكن النبيُّ ﷺ يكتفي بإرسال أصحابه الكرام إلى الكعبة لقراءة القرآن الكريم فيها على مسامع المشركين، وإنما كان بين الحين والآخر يذهب بنفسه إلى الكعبة، فيتلو آياتٍ من الذِّكر الحكيم، وفي إحدى المرات التي ذهب فيها النبي عليه الصَّلاة والسَّلام إلى الكعبة تمادى أبو جهل كثيراً في الإساءة إليه، فشتمه وأهانه، وبدا للمشركين الآخرين الذين كانوا مُلتفِّين حوله كما لو أنه على وشك المضي قدماً في إساءته الرعناء لما أظهره من

٥٣٧ لقد كان حمزة ﷺ يَكبُرُ الرَّسول ﷺ بعامين، وهو عمُّ النبيِّ ﷺ، وفي الوقت نفسه أخوه بالرضاعة، انظر ابن هشام: السيرة، ١، ٣١٢– ٣١٣؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢١٣؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٨٤.

الخشونة والعنف تجاه النبي ﷺ، فأسرعت امرأة في تلك الأثناء إلى حمزة بن عبد المطَّلب الذي كان عائداً لتوِّه من الصيد، وأعلمته بالأمر، قائلة:

– يا أبا عُمارةَ، لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمَّد آنفاً من أبي الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمَّد ﷺ.

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على أحد، مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقعَ به؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجَّه شجَّةً منكرة، وبدأ الدم يقطر من رأسِه، وقال له:

أتشتمه وأنا على دينه! أقول ما يقول؟! فرُد عليَّ ذلك إن استطعتَ! فأُصيب عدو الله بالذهول والدهشة حيث لم يكن في حسبانه حدوث مثل هذا الأمر المريع، فأخذ يدفع عن نفسه الضرب، وابتعد من المكان هارباً مدحوراً مذعوراً، وأما المشركون الآخرون الذين رأوا الحادثة بأمِّ أعينهم فتفرَّقوا وذهب كلٌّ منهم في شأنه؛ لأنَّ الجميع يعلم جيداً مدى قوة وبطش حمزة بن عبد المطَّلب وفروسيته وشجاعته، فهو يغلب كل أبطال وفرسان قريش، ولا يجرؤ أحد على مواجهته، والوقوف في وجهه.

ثم رجع حمزة إلى نفسه بعد أن قال ما قال، وأخذ يدعو: اللهم ما صنعتُ إن كان خيرًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلاَّ فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجًا.

ولأن الله يريد به خيرًا هداه لأن يذهب إلى رسول الله ﷺ ليعرض عليه أمره وما أهمه، وعنده قال حمزة:

«يا ابن أخي، إني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو، أرشد أم هو غيٌّ؟ شديد، فحدثني حديثًا؛ فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني».

وهنا أقبل عليه رسول الله ﷺ وحدثه بما كان يحدثه به من قبل، فذكّره رسول الله ﷺ ما كان يذكّره إياه، ووعظه ما كان يعظه به، وخوفه ما كان منه يخوفه، وبشره ما كان به يبشره، اللغة هي اللغة، والحديث هو الحديث، لكن الوعاء الذي يستقبل الفيض قد اختلف وتغير، وإنها للحظة هداية يختارها الله بحكمة بالغة.

سمع حمزة الكلمات التي طالما كان يسمعها كثيرًا، لكن هنا انبسطت أساريره، وانشرح صدره، وآمن من ساعته بصدق، وقال لرسول الله ﷺ وبيقين صادق من قلبه:

«أشهد أنك الصادق، فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول».

وفرح النبي ﷺ بإسلام حمزة فرحاً شديداً، ولم يكن فرحاً بأخذ ثأره الشخصي، وإنما هو إظهار لفرحه وسعادته بسلوك عمه طريق الهداية، وهذا الأمر يوضح بدوره أن الشيء الأهم في حياة الإنسان ليست الحياة الدُّنيا الفانية ومتاعها، وإنما الحياة العقبى الأبدية.

نستخلص من هذه الحادثة النتيجة الآتية:

وجوب ترجيح الخدمات والأعمال التي ترفعُ من شأن الإسلام وتعظِّمُه على المنافع والمصالح الشخصية، وضرورة شعور الإنسان بالسعادة وراحة البال بتوفيقه في القيام بالجهود والأعمال التي تخدم الدين أكثر من سعادته بنجاحه في الشؤون الفردية.

ألحّ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه على النبي عليه الصَّلاة والسَّلام يوم إسلام حمزة رضي الله عنه على الخروج معاً إلى المسجد الحرام ودعوة النَّاس هناك إلى الإسلام، فقال له النبيُّ ﷺ:

«يا أبا بكر إنا قليل»

فلم يزل به أبو بكر حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم من دار الأرقم، وذهبوا إلى المسجد الحرام، ولما وصلوا إلى الكعبة، قام أبو بكر رضي الله عنه في النَّاس خطيباً - ورسولُ الله ﷺ جالسٌ - ودعا إلى رسول الله، فهو أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى، فثار المشركون على أبي بكر رضي الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم، فضربوهم ضرباً مبرحاً، ووُطِئ أبو بكر بالأرجل وضُرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله غائباً عن الوعي ولا يشكُّون في موته، ثم رجعوا فدخلوا المسجد، فقالوا:

- والله لئن مات أبو بكر لنقتلَنَّ عُتبةَ! ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلِّمونه فلا يجيب حتى آخر النهار، ثم تكلَّم وقال أوَّلَ ما قاله:

- ما فعلَ رسولُ الله ﷺ؟

فقالت أمُّه أم الخير بإلحاح: يا بني، لتشرب أو تأكل شيئاً.

فصار أبو بكر ﷺ يكرر قوله وكأنه لا يسمعهم: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت أمه: يا بني، والله ما لي علمٌ بصاحبِك.

فأرسل أبو بكر ﷺ أمَّه إلى امرأة مسلمة فاضلة تُدعى أمَّ جميل[٥٣٨] لكي تسألها عن أخبار الرَّسول ﷺ، فخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن محمَّد بن عبد الله، قالت:

– لا أعرف محمَّداً ولا أبا بكر، ثم قالت: تريدين أن أخرج معك؟

قالت أم أبي بكر: نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت، وقالت: والله، إن قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقمَ الله منهم، فقال لها أبو بكر ﷺ: ما فعلَ رسولُ الله ﷺ؟

فقالت له: هذه أمُّكَ تسمع!

قال أبو بكر ﷺ: فلا عينَ عليك منها؛ أي: إنَّها لا تفشي سرَّك.

قالت:إن رسول الله ﷺ سالمٌ هو في دار الأرقم.

فقال أبو بكر ﷺ: والله لا أذوقُ طعاماً ولا أشربُ شراباً أو آتي رسولَ الله ﷺ.

ولما هدأت الطرق وسكن النَّاس وذهبوا إلى بيوتهم، اتكأ أبو بكر ﷺ على ذراع أمه وأم جميل وخرجتا به حتى دخل على رسول الله ﷺ، وما إن أبصر سيِّدُ الخلق ﷺ أبا بكرٍ حتى رقَّ له رقة شديدة، وأكبَّ عليه يقبِّلُه وأكبَّ عليه المسلمون كذلك، فقال:

– بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله! ما بي من بأسٍ إلا ما نال النَّاس من وجهي، وهذه أمِّي برّة لو دعوتَ لها، فعسى الله أن يستنقذَها بك من النار.

فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت، ودخلت دائرة الإيمان مع المؤمنين.[٥٣٩]

إن ازديادَ عدد المسلمين بشكل متسارع، ودخولَ شخصيات مؤثِّرة فيه أمثال حمزة ﷺ، أصاب المشركين بالفزع والاضطراب، فأسرع زعماء قريش إلى عقد اجتماع للبحث عن حلول لهذه المسألة الخطرة عليهم، قبل حدوث ما لا يُحمد عقباه، وقالوا:

---

٥٣٨ هذه المرأة هي أم جميل بنت الخطاب، وكانت امرأة مسلمة، وينبغي عدم الخلط بينها وبين أم جميل امرأة أبي لهب.

٥٣٩ انظر ابن الأثير: أسد الغابة، ٧، ٣٢٦؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٠.

- إن وضع محمَّد أصبح يشكِّلُ خطراً جدِّياً علينا، وقد أفسد علينا منافعنا ومصالحنا، ونرى أن نرسل إليه أعلمنا في الكهانة، والشعر فيكلِّمه!

واستقرَّ رأيهم على عتبة بن ربيعة ليكون ممثلَهم في التفاهم مع النبيِّ ﷺ، فأرسلوه إليه.

فقام إليه عتبةُ حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، وأملى عليه مطولاً عروضَ المشركين، فاستمع النبيُّ ﷺ إليه بصمت، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، فقال له:

- **أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟**

قال عتبة: نعم.

قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **فاسمع مني؛**

قال: أفعل.

فبدأ النبي ﷺ بقراءة سورة فصلت، وعتبةُ ينصت إليه حتى وصل إلى آية السجدة فقرأها، وسجد لله تعالى، ثم قال: **قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك!**.

فقام عتبةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا له: ما وراءك يا أبا الوليد؟

فقال عتبة: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، والله لما قرأ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [٥٤٠]

أمسكت بفيه وناشدته الرحمَ أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمَّداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفتُ أن ينزلَ بكم العذابُ.

يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُه مُلكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ النَّاس به؛ فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛

قال عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.[٥٤١]

---

٥٤٠ فصلت: ١٣.

٥٤١ ابن هشام: السيرة، ١، ٣١٣- ٣١٤؛ ابن كثير: البداية، ٣، ١١١- ١١٢.

إسلامُ سيِّدنا عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه[٥٤٢]

اجتمع زعماء المشركين في دار الندوة، وقرَّروا قتلَ النبي ﷺ، واختاروا من بينهم عمرَ بنَ الخطاب الذي كان أشجعهم، وأكثرهم إقداماً وأصلبهم عوداً، وأرسلوه إلى نبي الله ﷺ لتنفيذ ما أقروه، فتقلَّدَ عمر سيفَه، وخرج في طريقه إلى الرَّسول ﷺ وهو مهتاجٌ غافلٌ عن خطورة وعظمة الأمر المقدم عليه، وكلُّ اهتمامه مُنصبٌّ على قتله عليه الصَّلاة والسَّلام، وصادف في طريقه نُعيمَ بنَ عبد الله رضي الله عنه.فشكَّ نعيمٌ في حال عمرَ، وسأله عن وجهته:

- أين تغدو يا عمرُ؟

قال عمر:

- أريدُ أن أقتلَ محمَّداً الذي ترك دين أجدادنا وجاءنا بدين جديد!

فأراد نعيمٌ ذلك الصحابي صاحب البصيرة النافذة أن يلهيَ عمر لبعض الوقت، وقال له:

- والله إن نفسك تخدعُك! كيف تأمنُ بني هاشم وبني زهرة إن قتلت محمَّداً؟ أفلا أدلك على العجب؟! انظر أوَّلاً في أمر عائلتك!

فغضب عمر وقال:

- وما الذي ترمي إليه؟

قال نعيم:

- إن أختك فاطمةَ وزوجَها سعيدَ بنَ زيد قد تركا دينك، وأسلما!

لقد كان نعيم رضي الله عنه عندما علم بما يضمره عمر من الشرِّ، يريد أن يكسب بعض الوقت بتوجيهه نحو أخته وصهره، من أجل إخبار النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بنيَّةِ عمرَ.

فمشى عمرُ متذمراً من كلام نعيم رضي الله عنه وغاضباً، ثم توجَّه إلى بيت أخته وزوجها حتى أتاهما، وكان عندهما رجلٌ من المهاجرين يعلِّمهما القرآن الكريم، وهو خباب بن الأرت، فلما سمع خبابٌ بصوت عمرَ توارى في البيت، وأخفت السيِّدة فاطمة الصحفَ التي كانت تقرأ منها القرآن الكريم. فلما دخل عليهما عمرُ صرخ بهما:

- ما هذه الهَيْنَمَةُ –أي: الصوت الخفي– التي سمعتُها عندكم؟

---

٥٤٢ إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصغرُ سناً منَ النَّبيِّ ﷺ بثلاثة عشر عاماً، ويجتمع نسبه مع نسب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عند الجدِّ التاسع.

فقالا له:

- ما من شيءٍ هنا، ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا.

قال عمر:

- فلعلَّكما قد صبأتما، فقد سمعت شيئاً من هذا؟

فقال له صهره:

- يا عمر، أرأيت إن كان الحقُّ في غير دينك؟

فوثب عمر على صهره فوطئه وطأً شديداً، فجاءت أخته؛ لتدفعه عن زوجها، فضربها ضربة مؤلمة على وجهها فدمِي، عندها قالت فاطمة:

- يا عمر، افعل ما شئت! وإن أردت فاقتلنا! فقد أسلمنا، ولن نتخلَّى عن إسلامنا!

وعندما نطقت فاطمة هذه الكلمات النابعة من الشجاعة والطاقة الإيمانية كان الدم يسيل من على وجهها الطاهر المبارك.

دُهش عمر من ردِّ أخته الذي لم يكن يتوقعه، ولما رأى الدمَ على وجه أخته أحسَّ بوخزة الضمير في قلبه، وندم على ما فعل، وقال لهما:

- أعطوني الكتاب الذي كنتم تقرؤونه.

فقالت أخته:

- نخشى أن تفعلَ سوءاً بالصحيفة إن أعطيناكها!

قال عمر:

- لا تخشَوا شيئاً! وأقسم بالآلهة أنه سيعيدها إليهما بعد قراءتها.

فشعَّ نور الأمل بإيمان عمر في قلب فاطمة، وقالت له:

- يا أخي، قم فتطهَّرْ، فإنك على نجاسة بسبب عبادة الأوثان؛ لأنَّ هذا الكتاب:لا يمسه إلا المطهرون.[٥٤٣]

فلما اغتسل عمر وعاد إليهما، أعطته فاطمة الصحيفة، وبدأ بقراءة الآيات [٥٤٤] التي تضمنتها، وهي:

---

٥٤٣ انظر: الواقعة، ٧٩.

٥٤٤ جاء في رواية أخرى أن الآيات التي قرأها عمر رضي الله عنه هي من أوائل الحديد. (البيهقي: الدلائل، ٢، ٢١٧)

﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى. وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [٥٤٥]

ولما قرأ عمر ﵁ هذه الآيات ذُهل من روعتها، وكأنه قد أصابه الجمود، ولم يتمالك نفسَه من قول:

- ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمَه!

فجذبته فصاحة القرآن وبلاغته، وأخذت منه بالألباب، حيث إنَّ هذه الكلمات مليئة بالحكم والعبر، والحقائقِ التي يستحيل معها أن تكون من كلام البشر، ولفَّه تفكيرٌ عميق بتلك الكلمات ومصدرِها السامي.

فلما سمع خباب ﵁ قول عمر، خرج من البيت فقال:

- أبشر يا عمر! فإنِّي أرجو أن تكون دعوةُ رسول الله ﷺ لك، حيث قال:

- «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام**» فيا عمرُ اتقِّ الله!

فقال عمر بن الخطاب ﵁:

- يا خباب، دلَّني على مكان رسول الله؛ فإنِّي أريدُ أن أسلمَ!

فانطلقا إلى حيث رسول الله ﷺ في دار الأرقم التي في أصل الصفا، وكانت الخطوات في هذه المرة مؤمنة، وعاشقة ومتلهفة، ومليئة بالمحبَّة والشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ.

---

٥٤٥ طه: ١-١٦.

ولما وصل عمر ﷺ إلى باب دار الأرقم قابل حمزة ﷺ، حيث كان السيف في يده، ومتأهِّباً لأيِّ أمر طارئ؛ لأنَّ نُعيماً ﷺ كان قد أخبرهم خبر عمر ﷺ وخروجه من أجل البحث عن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام ونيته في قتله، وأما الأحداث الأخرى فلم يكن أحدٌ على علم بها بعدُ.

فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمرَ، حيث قابله في ساحة الدار وسأله عن سبب مَقدمِه، فعبَّرَ عمر ﷺ عن مراده بهذه الجملة السعيدة:

- جئتك لأسلمَ يا رسولَ الله!

فكبَّرَ رسولُ الله ﷺ، وكبَّرَ معه كلُّ من سمعه من الصحابة الكرام، فقد استجاب الله مرَّة أخرى لدعاء رسوله ﷺ.

ولما بدأ عمر ﷺ بالكلام كان أوَّل ما نطق به بقلب مطمئن هو الشهادتان، حيث قال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله

وأصبح دعاء النبي عليه الصَّلاة والسَّلام من نصيب عمر بن الخطاب ﷺ، وأما أبو الحكم بن هشام الذي كان مشهوراً بأبي جهل فقد هلك في ظلمات التيه والضلال والخسران الأبدي. [٥٤٦]

وبعد أن أسلم عمر بن الخطاب ونطق بالشهادتين في حضور النبي ﷺ خرج المسلمون جميعاً من دار الأرقم بناءً على طلبه، وبدؤوا بالتكبير متوجهين إلى الكعبة المشرفة.

وكان هذا الأمر قهراً للمشركين وكسراً لتسلُّطهم وتجبُّرهم على المسلمين، وفي ذلك الوقت أطلق النبيُّ ﷺ لقب «**الفاروق**» على عمر بن الخطاب ﷺ؛ أي: الذي يفرق بين الحق والباطل.[٥٤٧]

يقول عمر ﷺ متحدثاً عن تلك الأيام التي أسلم فيها:

- لما أسلمتُ لم يكن أحدٌ من المسلمين قبل ذلك إلا وقد أُوذِي أو عُذِّب، وجاهد وتحمَّل من أجل إسلامه، وأما أنا فلم لم يكن يقترب مني أحد، فقلت في نفسي: لا أريد لنفسي السلامة، والمسلمون من دوني يتعرَّضون لشتى المصائب والأهوال.

---

٥٤٦ انظر: ابن هشام، السيرة، ١، ٣٦٥- ٣٦٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٠٣.

٥٤٧ انظر: دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٢٩٦.

ففكرت في تلك الليلة التي أسلمت فيها أيَّ أهل مكَّة أشدَّ لرسول الله ﷺ عداوةً حتى آتيَه فأخبره أني قد أسلمت؛ فقلت: أبو جهل!، فأقبلتُ حين أصبحت حتى ضربتُ عليه بابه، فخرج إليَّ أبو جهل، فقال:

- مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قلت:

- جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمَّد، وصدَّقتُ بما جاء به، فضرب الباب في وجهي وقال:

- قبَّحكَ الله، وقبَّح ما جئتَ به!. [٥٤٨]

وبعد ذلك ذهب عمر بن الخطاب ﷺ إلى خاله المشرك الوليد بن المغيرة، واثنين آخرين من المشركين وأخبرهم بخبر إسلامه، إلا أنَّهم لم يجرؤوا على فعل أيِّ شيءٍ، واكتفوا بضرب الأبواب في وجهه؛ ليدخلوا إلى بيوتهم يائسين مغتاظين من إسلامه.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ عن عمر ﷺ:

«إنْ كان إسلامُ عمر لفتحاً، وهجرتُه لنصراً، وإمارتُه رحمة، والله ما استطعنا أن نصلِّيَ بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى دعونا، فصلينا» [٥٤٩]

لقد ناضل عمر بن الخطاب ﷺ بكلِّ ما أُوتِي من قوة في سبيل الإسلام في مكَّة حتى زمن الهجرة إلى المدينة المنورة، وتحمَّلَ مع المؤمنين الكثير من المتاعب والمحن.

٥٤٨ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٧١.

٥٤٩ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠، ٦٢- ٦٣/ ١٤٤١٠.

السَّنوات السابعةُ والثامنةُ والتاسعةُ للبعثة

سنواتُ المقاطعةِ

سياسةُ المشركينَ في عزلِ المسلمينَ:

المقاطعةُ التي دامَت ثلاثَ سنواتٍ

على الرغم من كلِّ العوائق ومحاولات المنع كان الإسلامُ يسجِّل كلَّ يوم تقدماً وانتشاراً أوسع، وكانت هذه الحالة تتسبب بزيادة الحقد والكراهية لدى المشركين تجاه المسلمين، فتعاهد المشركون الذين لم يتحمّلوا ازديادَ عدد المسلمين وانتشارَ الدعوة الإسلامية على الترصُّدِ بنور الكون واغتيالِه، وإغراق الكائنات في الظلمات، وأقسموا على ذلك قائلين:

- سوف نقتله حتماً سواءً بالسرِّ أو في العلن!

لما علم أبو طالب بالقرار الإجراميِّ الذي اتخذه مشركو قريش بحقِّ النبي ﷺ خشيَ أن يصيبَ ابن أخيه مكروهٌ من قِبَلِ المشركين، أو يعتدوا على حياته، فجمع أبو طالب بني هاشم وبني المطلب وأمرهم بالوقوف إلى جانب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، والقيامِ بحمايته من كلِّ الأخطار التي قد يتعرَّض لها.

وفي ليلة بزوغ قمر شهر محرم اجتمع كلُّ بني هاشم وبني المطلب بما فيهم أبو طالب والرسول ﷺ وذلك في حي أبي طالب، ولم يغب عن ذلك الاجتماع سوى أبي لهب، الذي اختار أن يقف في صفِّ المشركين.

وأمام هذا الوضع، وضع المشركون مخططاً خبيثاً من أجل الالتفاف على الإسلام، وعدم إتاحة أية فرصة أمامه للانتشار أكثر، وبالتالي القضاء عليه في مهده، وهذا المخطط هو:

محاصرة المسلمين، وذلك بفرض حظر اقتصادي واجتماعي عليهم، ومقاطعتهم في شتى المجالات على أمل أن يؤدي ذلك إلى إجبارهم على الرجوع عن الطريق المنير الذي سلكوه!.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف اجتمع المشركون بزعامة أبي جهل وائتمروا بينهم واكتتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يتعاملوا معهم بأيِّ شيءٍ آخر؛ ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقُوا الصحيفةَ في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

وكان كاتبَ الصحيفة منصورُ بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فشُلَّت يده في اليوم الذي كتب فيه الصحيفة، وأخذ المشركون يتحدثون فيما بينهم:

- لقد نزلت بمنصور المصيبة نتيجة الظلم الذي ارتكبناه بحقِّ بني هاشم! [٥٥٠]

وبسبب هذه المقاطعة انتقل المسلمون الذين كانوا يقيمون في البداية في مكَّة متفرقين بين مختلف أحيائها، انتقلوا إلى شِعبِ أبي طالب من أجل مساندة بعضهم والتعاون فيما بينهم بشكل يسهِّلُ عليهم مجابهة هذه المقاطعة الظالمة، وانتقل الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أيضاً من دار الأرقم؛ ليسكن في هذا الشِّعب.

لقد كان أبو طالب يتخذ كلَّ ما يقدر عليه من التدابير والإجراءات التي من من شأنها منعُ اغتيالِ النبي ﷺ ومنعُ وقوع أيِّ إساءة بحقِّه، ففي المساء كان النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام ينام في فراشه المعتاد، وأما في الليل بعد أن يهجع النَّاس إلى النوم كان أبو طالب يضع أحد أبنائه، أو إخوته، أو أولاد أعمامه في فراش الرَّسول ﷺ، ويرسل النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام إلى فراش ذاك البديل. [٥٥١]

لقد بدأت فترة عصيبة من الحرمان والاضطهاد بحق المسلمين، حيث كان أبو جهل وزبانيته القساةُ الأجلافُ يراقبون حيَّ المسلمين ليل نهار، ويعملون على منع دخول الطعام والشراب إليهم بأية وسيلة كانت.

فقطعوا كلَّ طرق الأسواق التي تصل إلى حيِّ المسلمين، وكانوا يشترون كلَّ الأطعمة التي تأتي إلى الأسواق فلا يدعون منها شيئاً يبتاعه المسلمون، ولم يكن المسلمون يتمكنون من الخروج من شِعبِ أبي طالب إلا في مواسم الحج، وكان كلما مرَّ أحد المسلمين بأيِّ بائع يبتاع منه بعض الطعام لعياله، يسرع أبو لهب فيقف على البضاعة ويقول:

٥٥٠ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٧٢- ٣٧٣؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٠٨- ٢٠٩؛ البخاري: الحج، ٤٥.

٥٥١ ابن كثير: البداية، ٣، ١٣٢.

يا معشر التجار، غالُوا على أصحاب محمَّد، حتى لا يدركُوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاءَ ذمَّتي، فأنا ضامنٌ أن لا خسارَ عليكم.

فكان المسلمون يرجعون دون أن يتمكَّنوا من ابتياع شيءٍ من الطعام لأطفالهم الذين يبكون من شدة الجوع، وكان التجار يتوجهون في صباح اليوم التالي إلى أبي لهب، فيبتاع منهم ما تبقى لديهم من البضاعة وبسعر مضاعف.[٥٥٢]

ولمواجهة هذه الظروف العصيبة صرف الرَّسول ﷺ وأمُّ المؤمنين السيِّدة خديجة رضي الله عنها كلَّ ما لديهم من الأموال من أجل تلبية احتياجات المسلمين.[٥٥٣]

وعلى الرغم من كل المحاولات والجهود التي بذلها المشركون من أجل إغلاق الطرق المؤدِّية إلى حيِّ المسلمين، فقد كان بعض أهل مكَّة يقدِّمون المساعدةَ لأقربائهم المحاصرين، ذات مرَّة كان حكيم بن حزام قد جلب قافلة قمح من الشام، فقام بوضع حمل قمح على ظهر ناقة وجاء بها إلى الطريق المؤدِّي لشعب أبي طالب وضربها من خلفها لتجري إلى داخل الحي، فأنزل المسلمون حمل القمح عن ظهر الناقة، وطحونها، وفي الليلة الثانية قاموا بوضع الطحين على ظهر الناقة ووزعوها على سكان الحي.

وكان هشام بن عمرو أيضاً واحداً من الذين كانوا يعينون المسلمين بهذه الطريقة، ولما علم المشركون - الذين قست قلوبهم حتى فقدت أدنى معاني الإنسانية - بإرسال هشام بعض أحمال الطعام إلى المسلمين هدَّدوه بأسلوب فظٍّ وقاس، وعندما استمرَّ هشام في تقديم العون لذوي قُرباه من المحاصرين على الرغم من التهديدات التي تلقاها من المشركين، أغلظ عليه المشركون بالكلام واشتبكوا معه بالأيدي، فتدخل أبو سفيان بينهم، وحال دون قتلهم له، ودافع عن هشام قائلاً:

خلّوا سبيلَ الرَّجلِ! فإنه أحسنَ إلى أقربائه! ليتنا أيضاً نستطيع أن نفعلَ ما فعله!

تحمل المسلمون في هذه الفترة المشقاتِ والحرمانَ الكثير، حيث اضطروا في كثير من الأحيان إلى إسكات جوعهم بأكل أوراق الشجر، وكان الأطفال يتمزَّقون من الجوع، وصياحهم ونشيجهم يعلو في السماء ليصلَ حتى إلى مسامع من هم خارج الحي.

---

٥٥٢ السهيلي: الروض الأنف، ٢، ١٢٧ - ١٢٨.

٥٥٣ اليعقوبي: ٢، ١٣.

لقد كان قصد المشركين من هذا الحصار هو تجويعُ المسلمين؛ لكي يجبروهم على التخلي عن النبي ﷺ وتسليمه لهم، وبذلك يحصلون على فرصة من أجل قتله، إلا أن المسلمين الذين توحَّدوا مع بني هشام تحت قيادة أبي طالب كانوا مصمِّمين على حماية النبيِّ ﷺ، ولو كلَّفهم ذلك التضحية بآخر قطرة من دمائهم.

ولما تجاوز أذى المشركين وظلمهم للمسلمين حدود التحمل رفع النبي ﷺ يديه المباركتين إلى السماء ودعا على مشركي قريش قائلاً:

– اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبعٍ كسَبعِ يوسفَ!

فانحبس المطر عن مكَّة، وأصاب مشركي قريش قحطٌ وجدبٌ حصد كلَّ شيءٍ، حتَّى إنَّ الكثيرين هلكوا من الجوع! ولما لم يبقَ شيءٌ يأكله النَّاس، بدأوا بأكل لحم الحيوانات الميتة وجلودها، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع!

ويذكر الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحادثة، حيث يقول:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥٥٤]

ولما اشتدَّ الجفاف والجوع على النَّاس لدرجة كبيرة جاء أبو سفيان إلى سيِّد العالمين، وقال له:

– يا محمَّدُ، إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلةِ الرَّحم، وإن قومَك قد هلكوا، فادعُ الله لهم، فإن رُفع البلاءُ عنا لنؤمنن بالله! ثم أقسم على وعده بالإيمان.

فدعا فخر الكائنات سيِّدنا محمَّد ﷺ ربَّه سبحانه وتعالى ليرفعَ البلاء عن النَّاس، فأمطرت السماء، وانتهى الجدب والقحط، ولما تحسَّنت أحوال المشركين عادوا إلى كفرهم وشركهم.[٥٥٥]

يقول الله تعالى عن الحالة النفسية لأهل الكفر:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٥٥٦]

٥٥٤ الدخان: ١٠– ١١.

٥٥٥ انظر: البخاري: التفسير، ٣٠، ٤٤؛ مسلم: المنافقين، ٤٠، أحمد: مسند، ١، ٤٣١، ٤٤١.

٥٥٦ يونس: ١٢.

انتهاءُ المقاطعةِ والحصارِ

في نهاية سنوات الحصار الثلاث التي عانى فيها المسلمون شتى ألوان الآلام والأوجاع، سلَّط الله ﷻ الأرضةً «دودة الشجر» على الصحيفة التي ضمَّت اتفاقَ المشركين على الحصار، وعُلِّقت على جدار الكعبة، حيث أكلت الأرضةُ من الصحيفة كلَّ ما فيها من ظلم وقطيعة رحم، فأتت عليها ما عدا كلمة «**باسمك اللهم**»، وأخبر الرَّسول ﷺ عمَّه أبا طالب بخبر الصحيفة حيث نزل عليه الوحيُ بالأمر، ونقل أبو طالب هذا الخبر إلى إخوته، وقال لهم:

- البسوا أحسنَ ثيابكم، واذهبوا إلى قريش! وأخبروهم بأمر الصحيفة قبل أن يلاحظوه بأنفسهم!

ولدى إخبار أبي طالب وإخوته المشركين بأمر الصحيفة أرسلوا رجلاً على عجل وأحضروا الصحيفة فوجدوها كما أخبر رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فانكسرت شوكة المشركين أمام هذه الواقعة! وأما أبو طالب فقد استلهم الشجاعة والقوة من هذا الأمر، وقال:

- لقد أدركتم الظلمَ وقطيعةَ الرَّحِمِ التي سبَّبتموها، أليس كذلك؟

لم يتمكن أحدٌ من المشركين من الردِّ على أبي طالب، ولكنهم لم يزيدوا على قول:

- إن هذا إلا سحر! وأداروا ظهورهم للحقيقة الجلية، واستمرُّوا في ظلمهم.

أخذ بعض وجهاء قريش يعيبون على بعضهم الأعمال التي ارتكبوها بحقِّ بني هاشم، وقالوا:

- إنَّ ما فعلناه بإخوتنا ليس إلا ظلماً بيِّناً!

بدأ بعض القرشيين بالسعي من أجل رفع الحصار عن المسلمين وقد بلغت الدعوة عامها العاشر، وكان من هؤلاء هشام بن عمرو، حيث قال لزهير بن أبي أمية:

يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النِّساء، وأخوالك حيث قد علمتَ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلفُ بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً.

وبعد أن أقنع هشام زهيراً، تمكن من إقناع معيط بن عدي، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود؛ كلاًّ بمفرده وضمَّهم إلى صفِّه، فاجتمع هؤلاء الخمسة ليلاً في الحجون في أعلى مكَّة، وتكلموا فيما ينبغي فعله، وتعاهدوا على بذل الجهد حتى نقض اتفاق الصحيفة.

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى المسجد الحرام، فطاف زهير حول الكعبة وعليه أجمل وأثمن الثياب، ثم أقبل على النَّاس، فقال:

- يا أهل مكَّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعدُ حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!

لقد اعترض أبو جهل في البدء على شقِّ الصحيفة، وإنهاء الحصار، ولكن تأييد أصحاب زهير الأربعة له بناءً على الاتفاق المسبق الذي توصلوا إليه أجبر أبا جهل على الصمت والخضوع للأمر الواقع، فقام مطعمٌ إلى الصحيفة المعلَّقة على جدار الكعبة فمزقها، وبعد ذلك تقلَّدَ كلٌّ من عدي بن قيس، وزمعة أبو البختري، وزهير سلاحه وانطلقوا إلى حيث يقيم بنو هاشم وبنو المطلب فأخرجوهم من شعب أبي طالب، وأمَّنوا رجوعهم إلى منازلهم، وبذلك تخلّص المسلمون بفضل من الله تعالى من الحصار الجائر والصعب الذي استمرَّ ثلاث سنوات، وقد نظم أبو طالب شعراً جميلاً في مدح الذين عملوا على إلغاء المقاطعة والحصار، وفقدَ المشركون آخر أمل لهم في احتواء الدعوة المحمَّدية، وأدركوا أنه ليس بإمكانهم منع النبي عليه الصَّلاة والسَّلام من تبليغ رسالة الإسلام. [٥٥٧]

لقد أصبحت هذه المتاعب والمشاقُّ التي تحملها المسلمون وسيلةً لتقوية إيمانهم وصفائه، ولم يكسب المشركون سوى الخسران كما في كل العصور.

في السنة الثامنة للبعثة هزم الفرسُ الرومَ في معركة كبيرة وقعت بينهم، فهدموا المدن الرومانية ودمَّروها على رؤوس ساكنيها، وتقدَّموا في بلادهم حتى وصلوا إلى اسطنبول، وأجبروا الامبراطورية البيزنطية على دفع تعويضات كبيرة.

٥٥٧ انظر ابن هشام: السيرة، ١، ٣٩٧- ٤٠٦؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٠- ٢١١.

وقد فرح المشركون بانتصار الفرس كثيراً؛ لأنهم عبدة أوثان مثلهم، وحزن النبي ﷺ حزناً شديداً لهزيمة الرومان الذين هم من أهل الكتاب، فأنزل الله تعالى آيات كريمة تتعلَّقُ بهذا الشأن، حيثُ يقولُ الله تبارك وتعالى:

﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٥٥٨]

وقال الرَّسول ﷺ:

«**أما إنَّهم** – الفرس – **سيُغلبون**» [٥٥٩]

لما سمع أبو بكر ﷺ بهذا الخبر الإلهي خرج إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أناحبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال:

«**ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل**»

فخرج أبو بكر فلقي أبيا فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. [٥٦٠]

ولما التقت الروم بالفرس بعد عدة سنوات أنزلوا بهم هزيمةً كبيرة، وعندما وصل الخبر إلى مكَّة انطلق أبو بكر إلى ورثة أُبيٍّ، فأخذ منهم مائة قلوص وأحضرها إلى الرَّسول ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**تصدَّق بها**» فقام أبو بكر ﷺ بتوزيعها على الفقراء.

وقد أسلم كثير من المشركين الذين رأوا هذه المعجزة الإلهيَّة. [٥٦١]

---

٥٥٨ الروم: ١– ٥.

٥٥٩ أحمد: مسند، ٤، ٢٩٦/ ٢٤٩٥.

٥٦٠ وقعت هذه الحادثة قبل تحريم الرهان.

٥٦١ انظر، ابن كثير، تفسير، ٦، ٢٩٧–٣٠٣؛ الترمذي: التفسير، ٣/ ٤٩١٣؛ القرطبي: تفسير، ٤١، ٣.

حادثةُ انشقاق القمرِ

لقد جهَّز اللهُ سبحانه وتعالى الأنبياءَ الذين كلَّفهم بدعوة النَّاس إلى الصراط المستقيم بصلاحيات وإمكانيات خارقة للعادة من أجل التأثير على النَّاس وجذبهم نحو الإيمان، وهذا الأمر أيضاً من أجل كسر عناد المشركين الذين سوف يصادفونهم ويصطدمون بهم على طريق الدعوة، وتُسمَّى هذه الأمور الخارقة للعادة التي تفضَّلَ الله تعالى بها على الأنبياء دليلاً على نبوتهم بــ «المعجزات».

وقد منُحت المعجزات للأنبياء بما يتناسبُ مع الأمور والأحوال التي اشتهرت وبرعت بها أقوامهم، فمثلاً: في عهد سيِّدنا موسى ﵇ كان السحرُ منتشراً على أعلى المستويات، ولهذا السبب فقد أُعطي معجزات تشبهُ في ظاهرها السحر، وأكثر مَن يبصر الإعجاز فيها مَن يعرف السحر، كالعصا، وبياض اليد.[٥٦٢]

وفي عهد سيِّدنا عيسى ﵇ كان علم الطب منتشراً ومتقدماً إلى درجة كبيرة، وكان الأطباء يتمتعون بمكانة متميِّزة بين النَّاس، ولهذا السبب فقد وهب سيِّدنا عيسى ﵇ معجزةً أبهرت وأعجزت حتى أمهر الأطباء في ذلك العصر، وضمنت له طاعتهم واتِّباعهم، وهذه المعجزة هي: إحياء الموتى.

وأما نبينا الكريم ﷺ فلأن نبوته ورسالته صالحة وشاملة لكلِّ زمان ومكان ومستمرة إلى يوم القيامة، فقد كانت معجزاته وصلاحياته أكبرَ من كلِّ الأنبياء السابقين، وانطلاقاً من ذلك فإن معجزاتِه لم تنحصر في البلاغة والفصاحة التي كانت من أكثر الأمور تأثيراً في عهده، وإنما شملت معجزاتُه كلَّ الميادين والمجالات، ومن تلك المعجزاتِ معجزةُ «انشقاق القمر «التي كانت إكسيرَ أملٍ أعاد لقلوب المسلمين الأمل والبهجة والقوة بعدما أُصيبَت بالتعب والإرهاق والحزن نتيجةَ الحصار المفروض عليهم من المشركين، وفي نفس الوقت كانت تحذيراً للمشركين بشأن هذا العهد الجديد الذي يواجهونه ومدى قوَّتِه.

لقد وقعت هذه المعجزة العظيمة للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام خلال سنوات الحصار والمقاطعة في السنة التاسعة للبعثة.

---

٥٦٢ إن معجزة بياض يد موسى ﵇ هي واحدة من معجزاته التسع. (انظر الأعراف: ١٠٨؛ الإسراء: ١٠١؛ طه: ٢٢؛ الشعراء: ٣٣؛ النمل: ١٢؛ القصص: ٣٢) حيث كانت يده تضيء من كل جانب إذا أخرجها من جيبه، وكأنها الشمس.

حيث دعا النبيُّ ﷺ ربَّه في ليلة مقمرة، فانشق القمر إلى نصفين، وقد شُوهِدت هذه المعجزةُ في كلِّ الأنحاء، ولما انشقَّ القمر إلى نصفين رُئِيَ نصفُه الأوَّلُ في جهة جبل أبي قُبيس، وأما النِّصفُ الآخرُ فقد رُئِي في جهة جبل قَيقعان المقابل لجبل أبي قُبيس، وعلى الرغم من رؤية المشركين لهذه المعجزة الظاهرة للعيان بأمِّ أعينهم فقد امتنعوا عن الإيمان، وأصرُّوا على كفرهم وجحودهم وعنادهم، حتَّى إنَّ أبا جهل أنكر هذه المعجزة، واعتبرها مجرَّدَ سحر أتى به النبيُّ ﷺ. وقد قال المشركون الذين شاهدوا هذه المعجزة:

- إن محمَّداً سحرنا، ولكن لا يمكن أن يسحرَ الجميع!

وبناءً على ذلك فقد انطلقوا يسألون القوافل القادمة من أماكن بعيدة عن مكَّة عمّا إذا كانوا شاهدوا انشقاقَ القمر أم لا؟ وقد أخبرهم أصحاب القوافل برؤيتهم لتلك الحادثة العجيبة والخارقة للعادة. وبعد وقوع هذه الحادثة نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [٥٦٣]

واتفق جميع أهل مكَّة على انشقاق القمر إلى نصفين، فالذين أنار سراجُ الهداية قلوبَهم آمنوا بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وأما الذين غُلِّفت قلوبُهم بظلام الإنكار والجحود والعناد فقالوا: «إنه لسحر عظيم».

وقد اضطر العالم الفلكي الفرنسي المشهور ليفرانشيس لالاند إلى القَبول بمعجزة «انشقاق القمر» بعد الأبحاث التي أجراها على حركات القمر منذ القديم. [٥٦٤]

إذا أردنا أن نتحدَّث عن الحكم وراءَ تأييد الله تعالى لأنبيائه بالمعجزات، فيمكن أن نوردها باختصار فيما يأتي:

١. التأثير على النَّاس وجذبهم نحو الإيمان.

٢. تثبيت قلوب المؤمنين ومواساتهم.

٣. إثبات نبوة الانبياء ورسالتِهم.

٤. إيقاع المنكرين في العجز، وإثارة دهشة المؤمنين تجاه القدرة الإلهيَّة.

٥٦٣ القمر: ١ – ٢؛ الواحدي: أسباب النزول، ٤١٨؛ الترمذي: التفسير، ٥٤/ ٣٢٨٦ .

٥٦٤ انظر: ذكائي كونرابا: ص، ١١٠.

ثم إن حال المعجزات كحال الآيات القرآنية من حيث إنَّها تزيد إيمان المؤمنين وإنكار المنكرين الذين وردت بحقهم في القرآن الكريم عبارة «**لا يهدي**» [٥٦٥]؛ أي: يزيد إنكار المنكرين الذين لا يمنحهم الله تعالى الهداية.

وإن حادثة «انشقاق القمر» من المعجزات العظيمة للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، ولأنَّ النبيَّ ﷺ هو نبيُّ آخرِ الزمان فإنَّ معجزة انشقاق القمر علامةٌ على ظهوره، وهي في الوقت نفسِه علامةٌ من علامات اقتراب الساعة، حيثُ يقولُ الله ﷻ:

﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [٥٦٦]

استمرارُ الرَّسول ﷺ بالتبليغِ في كلِّ أحوالِه

لم يكن النبيُّ ﷺ يتوقَّف - ولو لحظةً واحدة - عن دعوة النَّاس إلى الحقِّ والإيمان رغم كلِّ ما تعرض له من الاذى والظلم والاضطهاد على يد المشركين، حيث كان يستغلُّ كلَّ فرصة من أجل دعوة النَّاس إلى الهداية والرشد، ويتعامل مع مخاطبيه بلين ورقَّة، ويكلِّم كلَّ واحد منهم حسب مستوى وعيه وإدراكه، إذ كان دقيقاً في ملاحظة الفروقات الاستيعابية بين البشر.

وذات يوم صادف ركانةُ الذي كان من أقوى أبطال وفرسان قريش والذي لا يقدر على صرعه أحد، صادف النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام في أحد أودية مكَّة، فدعاه الرَّسول ﷺ إلى الإسلام قائلاً:

- «**يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟**»

فقال ركانة:

- إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك.

---

٥٦٥ لقد وردت عبارة «**لا يهدي**» في ست وعشرين آية قرآنية، مثل:

﴿...**وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ٢٥٨)

﴿...**وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ٢٦٤)

﴿...**وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (المائدة: ١٠٨)

٥٦٦ القمر: ١.

فقال له رسول الله ﷺ:

- «**أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟**»

قال ركانة: نعم.

قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام:

- «**فقم، حتى أصارعَك**»

فقام إليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئا، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال:

- يا محمد، والله إن هذا للعجب، أتصرعني!.

فقال رسول الله ﷺ:

- «**وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري**»

فلم يسلم، وبعد سنوات أسلم ركانة خلال فتح مكَّة، وذهب إلى المدينة المنورة فاستقر هناك. [٥٦٧]

ذات مرَّة جاء ضِمادُ بن ثعلبةَ وهو من قبيلة أزدِ شَنوءةَ، جاء إلى مكَّة لأداء العمرة، وكان ضماد رجلاً يتطبب، ويطلب العلم، فسمع سفهاءَ من أهل مكَّة يقولون: إن محمَّداً مجنون، فقال في نفسه:

- لو أني رأيت هذا الرجل لعلَّ الله أن يشفيه على يدي، فقام من مجلسهم وأتى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فلقيه، فقال:

- يا محمَّد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي مَن يشاء، فهل لك بذلك لعلَّ الله يشفيك على يدي؟

فقال رسول الله ﷺ:

«**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد**»

أُعجب ضماد بهذه الكلمات أيَّما إعجاب، وقال:

---

٥٦٧ ابن هشام: السيرة، ١، ٣٩١؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ٢، ٨٤/ ١٧٠٨.

- لم أسمع أجمل وأحسن من هذا الكلام أبداً! أعد عليَّ كلماتك هؤلاء.

فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

فبعد أن سمع ضماد هذه الكلمات التي هي أشبه باللآلئ قال:

- لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت كلاماً مثل كلامك هذا، ولقد بلغن - أي: كلماتك هذه - من الفصاحة والبلاغة قاموس البحر، هات يدك أبايعْك على الإسلام، فبايعه. فقال رسول الله ﷺ:

- «**وعلى قومك**»؟

قال ضماد:

- وعلى قومي.[٥٦٨]

فبعد أن أسلم ضماد رضي الله عنه أخذ منه النبيُّ ﷺ البيعةَ باسم قومه أيضاً، وعيَّنه رسولاً له إلى قومه من أجل تبليغهم الإسلام.

٥٦٨ مسلم: الجمعة، ٤٦/ ٨٦٨؛ أحمد: مسند، ١، ٣٠١؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٤١.

السَّنةُ العاشرةُ للبعثة

عامُ الحُزن:

وفاةُ السيِّدة خديجة، وأبي طالب

لم تدم فرحةُ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام والمسلمين طويلاً بخروجهم من الحصار سالمين؛ لأنَّه بعد انتهاء الحصار والمقاطعة مباشرةً تُوفِّي حامي الرَّسول ﷺ، والمدافع عنه إلى حدِّ التضحية بالنفس؛ عمُّ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أبو طالب.

لقد كان الرَّسول ﷺ يلحُّ عليه بين الحين والآخر من أجل دخوله إلى الإسلام، وكان أبو طالب يقول تجاه إصرار ابن أخيه:

- إني أعلم حقيقتك، ولكن إن آمنت بك، فسوف تعيب عليَّ نساء قريش!

فقد كان على يقين في داخله بنبوة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، ولكن نفسَه تأبى عليه أن يُعلِنَ إسلامه.

لقد ألحَّ النبي ﷺ على أن يسلم أبو طالب الروحَ إلى ربِّه وهو على الإيمان، ولأجل ذلك قال له وهو على فراش الموت:

- «**أيْ عمُّ! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**».

وخلال ذلك كان أبو جهل يحولُ دونه ودون قول الشهادة والإيمان، حيث إنَّ أبا جهل كان يقول له كلما لقَّنه النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام كلمة الشهادة:

- أترغب عن ملة عبد المطَّلب وأجدادك!

وفي نهاية الأمر كان قول أبي طالب للرسول ﷺ:

- يا بن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام:

- «**والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك!**»

ولكنه خرج من بيت عمِّه حزيناً. فنزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [٥٦٩]

الهدايةُ نورٌ إلهيٌّ يضع العبد على الصراط المستقيم، ولا يناله إلا من كان قلبه ميّالاً إلى الحق سبحانه وتعالى. حيث يقول الحق ﷻ:

﴿**... وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾ [٥٧٠]

إن جهدَ الإنسان وسعيَه في سبيل هداية البشر ما هو إلا وسيلة في هذه المضمار، فمن المستحيل أن ينال أحدٌ الهداية بجهد غيره وإن كان نبيّاً، ولذلك لم ينل أبو طالب الهداية بسبب غلبة النفس عليه وعدم ميل قلبه إلى الله تعالى، على الرغم من إدراكه الحقيقة، ومحاولة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام إرشاده إلى طريق الهداية.

ولم تمض ثلاثةُ أيام على حادثة وفاة أبي طالب التي أغرقت الرَّسول ﷺ في الحزن، حتى تُوفِّيت أمُّ المؤمنين خديجةُ الكبرى، سيدة النِّساء، وشريكة الرَّسول ﷺ في الآلام، وسنده في المحن، ورفيقة دربه، فأضافت بوفاتها ألماً فوق ألم على قلب النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وقلوبِ المؤمنين المليئة بالجراح والآلام، وأنزل النبيُّ ﷺ جسد زوجته المبارك -والتي أحبها كثيراً- إلى القبر بيديه الشَّريفتين، فخيَّمَ الحزن والكدر على قلب سيِّد الخلق، وفاضت عيناه بالدمع.

لقد كانت خديجة ؓ مستشارةَ النبيِّ ﷺ الصادقةَ في دعوة الإسلام، ومؤنستَه، وشريكتَه في المعاناة، ومصدرَ سكينته وطمأنينته، وقد ثقلت وفاتها على النبي ﷺ، وبسبب هاتين الحادثين الأليمتين سُمِّي العام العاشر للبعثة في كتب السيرة بـــ «عام الحزن».

وبوفاة عم النبي ﷺ وزوجته السيِّدة خديجة لم يبقَ له أيٌّ من الملاجئ والمساند الدنيوية الظاهرة والفانية التي كان يلجأ إليها في الملمات والمحن، ويسند ظهره لها، وهكذا فقد

٥٦٩ القصص: ٥٦. البخاري: تفسير، ١١٢/ ٤٧٧٢، الجنائز، ٨١/ ١٣٦٠، مناقب الأنصار، ٤٠/ ٣٨٨٤؛ مسلم: الإيمان، ٤١- ٤٢/ ٢٤؛ ابن هشام، السيرة، ١، ٤١٨؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٢٢- ١٢٣.

٥٧٠ الرعد: ٢٧.

انحصر عالم قلبه بالمولى ﷻ؛ لأنَّ التوكل والتسليم يكون للحقِّ سبحانه وتعالى؛ فهو المصدر الوحيد للسلطة والقوة المطلقة، حيث إنَّ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام حُرم منذ صغره من رعاية وحماية أبيه، وأمه، وجده، ونشأ في ظل التربية الإلهيَّة.

لقد كانت أمُّ المؤمنين السيِّدة خديجةُ ﵂ صاحبةَ فضائلَ كثيرة، حيث جاء ملك الوحي -جبريل ﵇- ذات يوم إلى الرَّسول ﷺ وقال:

«يا رسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب»[٥٧١]

وقالت السيِّدة خديجة ﵂ بعد إقرائها السلام: منه السلام وإليه السلام، وعلى جبريل السلام! وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

لم ينسَ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام زوجته المباركة طوال سنوات حياته أبداً، وقدَّم خيرَ مثال في الحب والوفاء.

تقول أمُّ المؤمنين السيِّدة عائشةُ ﵂:

«ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول:

«**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**»[٥٧٢]

ذات يوم استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «**اللهمَّ هالةُ**». فغارت السيِّدة عائشة ﵂ من كلامه، وقالت:

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرا منها»[٥٧٣]

---

٥٧١ البخاري: مناقب الأنصار، ٢٠/ ٣٨٢٠. والقصب: هو اللؤلؤ المجوف.

٥٧٢ البخاري: مناقب الأنصار، ٢/ ٣٨١٨، الأدب، ٣٧/ ٦٠٠٤؛ مسلم: فضائل الصحابة، ٧٤-٧٦/ ٢٤٣٥.

٥٧٣ البخاري: مناقب الأنصار، ٢٠/ ٣٨٢١.

وقصدت بخير منها نفسَها، فردَّ عليها الرَّسول ﷺ الذي لم يجد كلامها لائقاً بمقام السيِّدة خديجة ﵂، وقال:

«ما أبدلني الله ﷻ خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء» [٥٧٤]

رحلةُ الطَّائفِ

لقد ازداد الظلم والأذى على الرَّسول ﷺ بعد وفاة عمِّه أبي طالب وزوجته أم المؤمنين خديجة ﵂، ووصلت أعمال العداء والتهجم على سلطان الأنبياء إلى حدِّ الوحشية، حيث بدأ أمل النبي عليه الصلاة والسلام بهداية قومه يخبو، وأمام هذا الوضع الصعب والمظلم اصطحب النبي ﷺ زيداً معه، وخرج في طريقه إلى الطائف التي تبعد عن مكَّة مسافة / ١٢٠ كم/ تقريباً، ومكث هناك عشرة أيام.

فبدأ يبيِّن الإسلامَ لأهل الطائف، ويدعوهم إلى التَّوحيد، فالتقى بوجهاء وزعماء الطائف، ودعاهم إلى ترك عبادة الأصنام والخضوع بالعبودية للإله الواحد جل جلاله، ولم يبقَ أحدٌ من أشراف هوازنَ إلا وذهب إليه النبي ﷺ وكلمه بشأن الإسلام.

إلا أن هذه الدعوة أثارت عاصفةً مرعبةً من الاهتياج والغضب الشديد بين أهل الطائف الذين كانوا قوماً وثنيين مثل قريش، فلم يهتدِ أيٌّ منهم إلى الإسلام بسبب غرقهم في سراديبَ من الحياة النفسية والشهوانية، وعلاوة على ذلك فقد أنزلوا بالنبيِّ ﷺ كلَّ أنواع الأذى والقهر والاعتداء.

ففي البدء سخروا منه واستهزأوا به، ثم بدأوا بسبِّه وشتمه، وبعد ذلك سلَّطوا عليه الصِّبيان والعبيد والسفهاء، ووقفوا صفين، وأخذوا يرمونه بالحجارة، ويسخرون منه، ويسبُّونه بأقبح السباب والشتائم، حتَّى إنَّ العبيد ظلوا يلاحقونه ويقذفونه بالحجارة إلى ما بعد خروجه من الطائف، حتَّى إنَّه ﷺ كان لا يرفع قدماً، ولا يضعها، إلاَّ على الحجارة، وسالت الدماء من قدَميْه الشَّريفتين، وشُجَّ رأسُ سيِّدنا زيد بن حارثة ﵁ الذي حاول الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، إذ جعل من جسده درعاً يقي النبيَّ ﷺ من الحجارة، ويقول:

- يا أهلَ الطائفِ! أوَ تدرون أن الذي ترمونَه بالحجارة هو نبيُّ الله؟

---

٥٧٤ أحمد: مسند، ٤١، ٣٥٦/ ٢٤٨٦٤.

وتحاملا على أنفسهما بصعوبة حتى وصلا إلى بستان نخل فاستظلّا بظلِّ نخلة، كانت السموات والأرض شاحبة كئيبة وحزينة على ما أصاب سيِّد الخلق وأكرم الأكرمين، حتَّى إنَّ الحزن والكمد كان يلفُّ جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، فالكلُّ حزين كئيب على مصابه.

استأذنت الملائكة – وعلى رأسهم جبريل الطَّيْلاِ – من رب العرش العظيم، وهرعوا إلى رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وقالوا له:

- يا رسولَ الله، إن أمرتنا بأمرك أهلكنا المشركين!

ولكن نبيَّ الرحمة ومنبعَ الشفقة حتى في هذه الحالة العصيبة لم يدعُ بالشرِّ تجاه هذه المعاملة القاسية والمفجعة التي تعرض لها، وإنما رفع يديه إلى قيوم السماوات، وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

فلما رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة،-أصحاب البستان الذي لجأ إليه النبيُّ ﷺ- وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال:

«**باسم الله**»، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ:

«ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟»

قال عداس: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ:

«من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»

فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي**»

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.[٥٧٥]

فيا لها من سعادة أن يؤمن عداس بالرَّسول ﷺ وهو في أحلَكِ ظروف حياته وأشدها سلبية وقسوة، وينال بهذا الإيمان شرف مواساة النبي ﷺ، ففرح رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً بإسلامه حتَّى إنَّه نسي المعاناة والآلام التي أصابته على يد أهل الطائف.

وثمة اليوم مسجد باسم عداس في مكان إسلامه، وقد تمت المحافظة على البستان الذي قدَّم فيه العنبَ للنبيِّ ﷺ.

تعازي من الرَّحمةِ والتسليات الرَّحمانيَّةِ التي لا نظيرَ لها

تقول أمُّ المؤمنين السيِّدة عائشة رضي الله عنها:

سألت رسول الله ﷺ فقلت: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

فقال رسول الله ﷺ:

«**إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**؟. فقال النبي ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا ؟!**»[٥٧٦]

---

٥٧٥ ابن هشام: السيرة، ١، ٤٢٠؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ٣٥/ ٩٨٥١.

٥٧٦ البخاري: بدء الخلق، ٧/ ٣٢٣١؛ مسلم: الجهاد، ١١١/ ١٧٩٥.

إن رحلة الطائف تنطوي على الكثير من العبر والعظات منها:

١. إظهارُ مدى أهمِّية التبليغ، حيث لم يقعدِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن التبليغ ولو للحظة واحدة، على الرغم من عام الحزن الذي مرَّ به، إذ تابع مهمَّتَه في التبليغ بكلِّ صبر وثبات.

٢. إنَّ عدم دعائه على أهلِ الطائف بشرٍّ على الرغم من الأذى الذي أنزلوه به يُظهر مدى رحمة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، ويشير أيضاً إلى وجوب تحلِّي المبلِّغين بالرحمة في دعوتهم الناسَ إلى الإسلام.

٣. ينبغي أن ينسب المبلِّغُ الخطأ والتقصير إلى نفسه، وألا يفقدَ الأمل ولا يتذمَّرَ من عدم استجابة النَّاس لدعوته، فقد كان الرَّسول ﷺ حين يرى خطأ الناس لا يواجههم به وإنما ينسب الأمر إلى نفسه، وذلك في مواقف كثيرة.

٤. إن إيمان عداس الذي جاء بعد رحلة الطائف يحمل أهمِّية بالغة؛ لأنَّه كان مواساةً وعزاءً للرسول ﷺ في أشدِّ ظروفه ضيقاً، وإن هذه الحادثةَ فيها إشارةٌ لنا بأننا – ولو كنا في أصعب الظروف والمواقف – ينبغي أن يكون إيمان شخص واحد كافياً لمواساتنا والتخفيف عنا من وطأة تلك الظروف الصعبة.

٥. ينبغي أن يكون الـمُبلِّغ قدوةً بحاله.

٦. يجب على من يقوم بتبليغ الإسلام أن يكون عالماً بأسلوب التخاطب مع النَّاس، ومثقَّفاً، وينبغي أن يعلم جيداً ما يقول للشخص الذي يخاطبه، ومتى يقوله، وذلك مثل تعاملِ الرَّسول ﷺ مع عداس.

استماعُ الجنِّ إلى القرآنِ الكريمِ منَ النَّبيِّ ﷺ وإيمانُهم به

خلال عودة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من رحلة الطائف حيث لم يؤمن به غيرُ عداس، وبينما كان يقرأ القرآن ذات ليلة في أحد الأماكن التي نزل فيها، استمع إليه نفرٌ من الجن، فأدركوا جميعُهم الحق، وآمنوا برسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وعادوا إلى قومهم يبلِّغونهم رسالة الإسلام. [٥٧٧]

---

٥٧٧ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٢.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

انطلق النبيُّ ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء[٥٧٨]، وأُرسِلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا:

- ما لكم؟

فقالوا:

- حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب.

قال القوم:

- ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: :

- هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدَاً﴾

فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ سورة الجنِّ، وأخبره بأن نفراً من الجن استمع إلى القرآن الكريم ونقلوا ما سمعوه إلى قومهم، حيثُ يقولُ الله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [٥٧٩]

ويتحدث القرآن الكريم في سورة الأحقاف عن هذه الحادثة على النحو الآتي:

---

٥٧٨ لقد كانت الجن تصعد إلى السماء وتسترق السمع إلى الوحي، وعندما تسمع كلمة واحدة تضيف عليها تسعاً وتسعين كلمة من عندها، فتكون تلك الكلمة الواحدة حقاً، وأما بقية الكلمات فهي باطلة، ولما بُعث سيدنا محمد ﷺ نبياً مُنع الجن من الصعود إلى الأماكن التي كانوا يصعدون إليها عن طريق قذفهم بالشهب، ولم تكن الجن قبل ذلك تُقذف بالشهب. (الترمذي: التفسير، ٧٢/ ٣٣٢٤)

٥٧٩ الجن: ١- ٢؛ البخاري: التفسير، ٧٢/ ٤٩٢١، الأذان، ١٠٥/ ٧٧٣؛ مسلم: الصلاة، ١٤٩/ ٤٤٩؛ الترمذي: التفسير، ٧٢/ ٣٣٢٣.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٥٨٠]

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم عن منع الجن من استراق السمع إلى السماء:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا. وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [٥٨١]

---

٥٨٠ الأحقاف: ٢٩– ٣٢.

٥٨١ الجن: ٨– ١٠.

يبين أحد أولياء الله الصالحين هذه الحادثة بمثال مجازي، حيث يقول: «كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتصيخ السمع إلى الأسرار السماوية، وبينما يسترقون القليل منها إذ تأتيهم في تلك الأثناء شهب من السماء فتطردهم منها». ويقال لهم: لقد أُرسل نبي، فاذهبوا إلى حيث يسكن، وخذوا منه ما تشاؤون من الأخبار. فإذا كنتم تبحثون عن لؤلؤة لا تقدر بثمن «فأتوا البيوت من أبوابها». فاضرب على الباب، وقف أمامه، لأنه ليس لكم ولا لأمثالكم طريق إلى السماوات. إذ لا حاجة لكم إلى سلوك مثل ذلك الطريق الطويل، فقد أعطينا سرَّ الأسرار لعبدنا الذي خلقناه من التراب. فإن لم تكونوا خائنين فتعالوا إلى ذاك الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض، فإن كنتم حتى قصباً فارغاً، فإنكم بصحبته سوف تصبحون مثل قصب السكر.

عندما كان الشخص يُحرِم في العصر الجاهلي وفي السنوات الأولى للإسلام من أجل الحج أو العمرة لم يكن يدخل البساتين، والحدائق، والبيوت من أبوابها، فإن كان من أهل المدينة يفتح فتحة من سقف البيت فيدخل ويخرج منها، وأما إن كان من أهل البادية فلم يكن يدخل من باب الخيمة، وإنما يشق الخيمة من الخلف ويدخل منها، وكانوا يفعلون ذلك طيلة مدة الإحرام معتقدين بأنهم يحسنون صنعاً ويقومون بطاعة للإله، فأنزل الله تعالى الآية ﴿.. **وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**...﴾ (البقرة: ١٨٩) من البقرة مبيناً فيها بأن دخول البيوت من الخلف ليس من الحسنات ولا الطاعات، (الواحدي: أسباب النزول، ٥٦– ٥٧)

وبعد ذلك استخدمت الآية استخداماً مجازياً للدلالة على ضرورة القيام بكلِّ أمر حسب أصوله في شتى مجالات الحياة، وقد فسر مولانا الآية هنا تفسيراً صوفياً بقوله:

«لكي تعرف الله تعالى لا بد أن تلجأ إلى أهل الله الذين يُعدُّون بمثابة بابه».

لقد كان الشيء الظاهر الذي كسبه الرَّسول ﷺ من رحلته إلى الطائف هو إسلامُ عدَّاس ﷺ، ولكنَّه في الحقيقة نال الكثير من ألطاف الله تبارك وتعالى، ومن جملة هذه الألطاف أنه أصبح سلطانَ عالمين مختلفين، فأولاً: قبل عودته إلى مكَّة سمعت منه الجنُّ القرآن الكريم وبدأت بنشره في عالمها، وثانياً: بعد هذا الأمر بمدة قصيرة عرجَ الله ﷻ بنبيه الكريم ﷺ إلى عالم السماء؛ ليكونَ السلطانَ عليها.

لقد اقتضت أعراف العرب أنه ليس بإمكان النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام - وقد خرج من مكَّة بناءً على إرادته الذاتية - العودةُ إليها إلا أن يكون تحت حماية أحد من أهل مكَّة، ولذلك لما عاد النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في طريقه إلى مكَّة ووصل إلى جبل حراء، أرسل رجلاً صادفه من أهل مكَّة إلى أخنس بن شُرَيقٍ، وبعده إلى سُهيلِ بن عمرو، وثم إلى مُطعمِ بن عدي، يقول لهم:

- هل تُدخل محمدا في جوارك، حتى يبلغَ رسالة ربه؟

أما أخنس وسهيل فلم يقبلا حماية النبي ﷺ، وأما مطعم بن عدي فقد قبل وأخذه في جواره، ونزل الرَّسول ﷺ في بيته، ولما أصبح الصباح جمع مطعمٌ أبناءه من حوله، وقال:

- البسوا السّلاحَ، وكونوا عند أركان البيت؛ فإني قد أجرتُ محمَّداً!

ولما وصل إلى الكعبة نادى القوم بقوله:

- يا معشر قريش، إني قد أجرت محمَّداً، فلا يهجه أحد منكم!

وبقي النبي ﷺ في الكعبة تحت حماية مطعم وأبنائه حتى طوافه بالبيت وصلاته ركعتين وعودته إلى البيت. [٥٨٢]

ومرت السنوات، فالتقى مطعم بن عدي - وهو ما زال على الكفر - بالمؤمنين في معركة بدر وقُتل هناك، ولما جرى النقاش حول مصير أسرى المعركة قال الرَّسول ﷺ لجبير بن مطعم:

«لو كان المطعمُ بن عديٍّ حيّاً، ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتنَى، لتركتُهم له» [٥٨٣]

٥٨٢ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٢؛ ابن كثير: البداية، ٣، ١٣٨.

٥٨٣ البخاري: الخمس، ١٦/ ٣١٣٩؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٤٠٤- ٤٠٦.

وذلك وفاءً لما كان من مطعم يوم عودته من الطائف، ودخوله في جواره.فما أعظم هذه الأخلاق الكريمة التي جعلتً الرَّسول ﷺ في هذا المستوى من الإحساس بالوفاء حتى تجاه مشرك كان سبباً في يوم من الأيام في تسهيل تبليغه لدعوة الإسلام.

لقاؤُه بمختلفِ القبائلِ ودعوتُهم إلى الإسلامِ

لقد بقي النبي ﷺ بعيداً عن النَّاس مدَّةَ من الزمن بعد عودته من الطائف، وبعد ذلك عاد مجدَّداً إلى الدعوة، ولما بدأ المشركون التصرف بعنف وقسوة مع النبي ﷺ، أمره الله تعالى أن يعرض نفسِه على القبائل ويبليغهم رسالة الإسلام.

وبناءً على ذلك أخذ النبي ﷺ يخاطب كلَّ مَن يأتي إلى مكَّة في مواسم الحج، ويتنقل بين النَّاس في أسواق مكَّة مثل سوق عكاظ، والمجنّة، وذي المجاز، فيخاطب كلَّ من يجده فيها، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم، ويدعوهم إلى الإسلام.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يذهب إلى أماكن نزول القبائل المشاركة في هذه الأسواق الكبيرة مثل بني عمرو، ومحارب، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسُليم، وعبس، وبني نصر، وكندة، وكلب، وحارثة، وعزرة، فيدعوهم إلى الإسلام. وكان النبيُّ ﷺ يعرض عليهم أن يصدقوا بنبوته، ويطلب منهم العون والنصرة على الإيفاء بوظيفة الرسالة التي كلَّفه بها ربُّه سبحانه وتعالى. [٥٨٤]

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

كان النبي ﷺ يعرض نفسه على النَّاس في الموقف، فيقول:

«ألا رجلٌ يَحمِلُني إلى قومِهِ، فإنَّ قُريشاً قد منعُوني أن أبلِّغَ كلامَ ربِّي» [٥٨٥]

ولكن لم يكن أحد منهم يخرج ليقبل دعوة الرَّسول ﷺ، ويتولى حمايته، وإنما على النقيض من ذلك، حيث إنَّ البعض كان يعبس في وجه النبيِّ ﷺ ويتصرف معه بجلافة وقسوة، والبعض الآخر يتجادل معه ويقول له: إن قومَك أدرى بك! فلم لا يتبعونك؟، وأما النبيُّ ﷺ فكان يجيبهم بما يقتضيه الحال، ويستمرُّ في دعوتهم إلى طريق الحقِّ. [٥٨٦]

---

٥٨٤ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٦- ٢١٧؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٢٢، ٤٩٢؛ ابن كثير: ٣، ١٨٣- ١٩٠.

٥٨٥ أبو داود: السنة، ١٩- ٢٠/ ٤٧٣٤.

٥٨٦ أحمد: مسند، ٣، ٣٢٢؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٦.

لقد كان إذا خرج أحدٌ من بني مضر أو من اليمن إلى الحج أو إلى أحد أسواق مكَّة، يقول له قومه:

كن على حذر! لا يردنَّكَ فتى قريشٍ عن دينك![٥٨٧]

ذات يوم وصل النبي ﷺ إلى بني شيبان بن ثعلبة في منى، ولما أعلمهم أنه رسول الله قال له مفروق بن عمرو أحد وجهاء القبيلة:

وإلامَ تدعو يا أخا قريش؟

فاقترب منه النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام وجلس بجانبه، وأبو بكر ﷺ واقفٌ يظلِّلُ الرَّسول ﷺ بثيابه، فقال رسول الله ﷺ:

«أدعُوكُم لشهادةِ أن لا إلهَ إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأنِّي رسولُ الله، وأنْ تُؤوونِي وتَنصُرُونِي حتَّى أُؤدِّي عن الله الذي أمَرَني به، فإنَّ قريشاً قد تظاهَرَت على أمرِ الله وكَذَّبَت رسولَهُ واستغنَتْ بالباطلِ عنِ الحقِّ، والله هو الغنيُّ الحميدُ»

قال له مفروق بن عمرو الشيباني:

وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ هذه الآياتِ من سورة الأنعام:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٥٨٨]

---

٥٨٧ الحاكم: المستدرك، ٣، ٦٨١/ ٤٢٥١.

٥٨٨ الأنعام: ١٥١- ١٥٣.

فقال له مفروق:

وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلامِ أهلِ الأرضِ، ولو كان من كلامهم لعرفناه.

فتلا النبي عليه الصَّلاة والسَّلام هذه المرة قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥٨٩]

فقال له مفروق:

دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك!.

وقد تحدَّث وجهاء القبيلة - ومنهم هانئ والمثنى - بالكلام ذاته، ولكن أخبروه بأنَّهم لا يستطيعون أن يقطعوا أمراً دونَ الرجوع إلى قومهم واستشارتهم، إضافة إلى أنَّهم على اتفاق وتفاهم مع الفرس وأن هذا الأمر لا يرضيهم.

وفي نهاية الأمر، على الرغم من قناعتهم داخلياً بصدق النبيِّ ﷺ وقَبولهم له، إلا أن المنافع والمصالح الدنيوية، والخشية من وقوع الضرر عليهم؛ كلُّ ذلك دفعهم إلى ردِّ دعوة النبيِّ ﷺ . [٥٩٠]

ويقول طارق بن عبد الله رضي الله عنه:

«رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز -وعليه حلة حمراء- وهو ينادي بأعلى صوته:

«**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» يرددها مرارا والناس مجتمعون عليه يتبعونه، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة، قد أدمى كعبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا، فإنه كذاب!! فقلت: من هذا؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قلت: ومن الذي يرميه بالحجارة؟ قالوا: عمه أبو لهب» [٥٩١]

---

٥٨٩ النحل: ٩٠.

٥٩٠ ابن الاثير: أسد الغابة، ٥، ٢٥٠- ٢٥١؛ ابن كثير: البداية، ٣، ١٤٣-١٤٤.

٥٩١ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٦٨/ ٤٢١٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٦، ٤٢، ١١٤؛ ابن ألأثير: أُسد الغابة، ٣، ٦٩.

وينقل لنا مُدرِكُ الأزديُّ ﵁ حادثة تبيِّنُ مدى تعرُّض الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام للمشقَّات والمصاعب وهو في سعيه الدؤوب دون كلل أو ملل من أجل تبليغ رسالة الإسلام، حيث يقول:

«كنتُ أحجُّ مع أبي، فرأيت جماعةً عند منزلنا في منى، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟

قال أبي: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم.

قال: فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله ﷻ، والإيمان به، وهم يردون عليه، ويؤذونه حتى انتصف النهار، وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحا ومنديلا، فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه، فقال:

«يا بنية، خمري عليك نحرك، ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلا!»

فقلت: من هذه؟

فقالوا: هذه ابنته زينب ﵂» [٥٩٢]

إن بنات النبي عليه الصَّلاة والسَّلام - السيِّدة زينب، والسيِّدة فاطمة والأخريات رضي الله عنهن - عشن فترة طفولتهنَّ وشبابهنَّ في أضعف عهود الإسلام، وفي أكثر فترات تعرُّضِ المسلمين للأذى والقهر والاضطهاد، لقد كانت السيِّدة زينب وأخواتها يشاركنَ الرَّسول ﷺ والمسلمين الآلامَ والمعاناةَ والظلمَ الذي تعرَّضوا له، حيث إنَّهن كن عندما يخرج والدهُنَّ النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من البيت من أجل تبليغ الإسلام، إما يقفن في باب الدار يترقبن أباهن بقلق واضطراب، أو أنهن يتعقبن والدهنَّ الكريمَ خطوة بخطوة، ويعملن على حمايته من الأذى والاعتداء.

لقد كانت بنات النبي عليه الصَّلاة والسَّلام تلك الكريمات العفيفات يقدمن العون والمساعدة لأبيهم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عند وفاة أم المؤمنين السيِّدة خديجة ﵂، ويشاركن معه معاناته وآلامه، وقد كان الحزن والكدر يخيِّمُ عليهنَّ كلما أوذي النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من قومه، ولا تفارقُ الدموع عيونهن، لقد عشن سنوات من القلق والارتباك والاضطراب، حيث كانت السيِّدة فاطمة ﵂ تمسح دماءَه، وتلحقه السيِّدة زينب ﵂ بالماء لتغسل يديه ووجهه.

---

٥٩٢ ابن الأثير: أُسد الغابة، ١، ٥٩٥، ٥، ١٢٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٢١/ ٩٨٢٧.

لقد كان بنو عامر بن صعصعة من بين القبائل الكثيرة التي دعاها النبيُّ ﷺ إلى الإسلام في سوق عكاظ، حيث قال لهم الرَّسول ﷺ:

«إني رسول الله وآتيكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولا أكره أحدا منكم على شيء»

قالوا:

- ومن أي قريش أنت؟

قال:

- «**من بني عبد المطلب**».

قالوا فأين أنت من عبد مناف؟

قال:

- «**هم أول من كذبني وطردني**».

قالوا: ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك!

وفي تلك الأثناء خرج رجل من القبيلة يقال له: بيحرة، ولما سأل عن النبي ﷺ وعرف من يكون، قال في نفسه:

- والله لو أنِّي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العربَ،

ثم قال للرسول ﷺ:

أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على مَن يخالفك، أيكون لنا الأمرُ من بعدك؟

فقال النبي ﷺ:

«الأمرُ للهِ يضعُهُ حيثُ يَشاءُ»

فقال له بيحرة:

- أفنهدف نحورَنا للعرب دونَك، فإذا أظهرك الله كان الأمرُ لغيرنا! لا حاجةَ لنا بأمرك.

ثم توجه إلى قومه مخاطباً إياهم:

- ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيءٍ أشدَّ سوءاً مما ترجعون به، لتنابذوا النَّاس وترميَكم العربُ عن قوس واحدة، قومُه أعلمُ به، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد النَّاس به، أتعمدونَ إلى زهيقٍ قد طردَه قومه وكذَّبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئسَ الرأيُ رأيتم.

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال:

– قم فالحق بقومِك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربتُ عنقَكَ.

فلما قام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيثُ بيحرة شاكلتها، فقمصت برسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فألقته أرضاً.

فكانت عند بني عامر يومئذ ضباعة بنة عامر، وهي من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، فقالت: يا آلَ عامر! أيُصنَعُ هذا برسول الله بين أظهركم ولا يمنعُه أحدٌ منكم؟

فقام ثلاثة من بني عمها إلى بيحرة. فدعا رسول الله ﷺ لهؤلاء بقوله:

«**اللهم بارك على هؤلاء**»

فأسلم الثلاثة الذين نصروه ببركة دعائه، وقُتِلوا شهداء.

فلما تفرقت النَّاس، ورجعت بنو عامر إلى الديار، ذكروا الذي جرى معهم إلى شيخ لهم كان قد أدركه السنُّ حتى لا يقدر أن يوافيَ معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال:

– يا بني عامر! هل لها من تَلافٍ؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفسي بيده ما تقوَّلها إسماعيليٌّ قط، وإنها لحقٌّ، فأين رأيُكم كان عنكم؟ [٥٩٣]

وعلى الرغم من المواقف السلبية، والمعاملة القاسية التي تلقاها النبي ﷺ من النَّاس، لم يتراجع قِيدَ أُنملةٍ عن تبليغِ النَّاس الدينَ المبين، وعرضِ حقيقة الإسلام على كلِّ القبائل الأخرى القادمة إلى السوق.

زواجُ الرَّسول ﷺ من السيِّدةِ سودةَ

كانت السيِّدة سودة ﵂ على ذمّة –السكران– بن عمرو، ولما تعرَّض المسلمون للظلم والأذى هاجرا مع المسلمين الآخرين إلى الحبشة، وبعد مدَّة من الزمن تُوفِّي هناك، وقد حازت السيِّدة سودة على إعجاب وتقدير النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام لما قدمته من التضحية والفداء في سبيل الإسلام، وتزوَّجها الرَّسول ﷺ لمواساتها وتعويضا لها عن الإجحاف والمعاناة التي تعرَّضَت لها في حياتها.

٥٩٣ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٣- ٣٤؛ ابن كثير: البداية، ٣، ١٣٩-١٤١؛ ابن حجر: الإصابة، ١، ٥٢.

عرضت السيِّدة خولة -زوجةُ عثمان بن مظعون- أمر زواج النبي ﷺ من سودة على أبيها، وافق على تزويج ابنته للرسول ﷺ، وقال:

- إنه كفءٌ كريم، وزوج ذو شرف!

إلا أن السيِّدة سودة رضي الله عنها كان لديها خمسة أو ستة أولاد عندما تُوفِّي عنها زوجها، لذلك لم تجرؤ على الزواج منَ النَّبيِّ ﷺ. ولما رأى الرَّسول ﷺ تردُّدَها، سألها:

«ما يمنعُكِ منِّي؟»

فقالت السيِّدة سودة:

- والله يا نبيَّ الله، ما يمنعني منك ألا تكونَ أحبَّ البرية إليَّ، ولكنِّي أكرمك أن يَضغوَ هؤلاء الصِّبيةُ عند رأسك بكرةً وعشيةً.

قال: «**فهل منعك مني شيء غير ذلك؟**»

قالت: لا والله.

قال لها رسول الله ﷺ:

«يرحمك الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغر، وأرعاه على بعل بذات يد» [٥٩٤]

وقد حصل هذا الزواج في رمضان من السنة العاشرة للنُّبوَّة.

لقد كانت أم المؤمنين السيِّدة سودة رضي الله عنها تبدي اهتماماً كبيراً بالنبيِّ ﷺ، ولا تتوانى عن خدمته في شيء، وقد أصبحت رفيقةَ الرَّسول ﷺ ومؤنستَه في فترة وحدته، وقد اهتمَّ النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه بدوره ببناتها الصغيرات المحتاجات إلى الرعاية الأبوية، وأظهر لهن غاية الشفقة والرحمة، وربَّاهنَّ بكلِّ محبَّة ووُدٍّ.

---

٥٩٤ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٣٥- ٧٥؛ أحمد: مسند، ١، ٣١٨- ٣١٩، ٦، ٢١١/ ٢٩٢٣؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٤، ٢٧٠/ ٧٤٢٥.

السَّنةُ الحاديةَ عشرةَ للبعثة

لقاءُ العقبةِ

كان الوقتُ ليلاً...

التقت جماعةٌ مؤلَّفة من ستة أشخاص من المدينة كانت قادمةً من أجل زيارة الكعبة، التقت بسيِّد الأنبياء محمَّد ﷺ عند العقبة، فنظروا إلى نوره الذي أضاء الأكوان، فتحدَّثوا فيما بينهم قائلين:

– ما أحسنه! وبدأت تقطر في تلك اللحظات قطرات الرحمة التي أنبتت داخلهم راحةً لا تُوصَف، ونمت في قلوبهم براعم المحبَّة، وفي تلك الأثناء اقترب منهم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وناداهم من أجل دعوتهم إلى الإسلام كما يفعل مع كل النَّاس بما تستوجبه عليه وظيفة النُّبوَّة، وقال:

– ليتَنا نجلسُ فنتحدَّثُ!

فغبطت الجماعة سعيدة الحظِّ نفسَها على الفرصة التي أُتيحت لها من أجل التحدث مع الإنسان الذي وقعوا في أسر محبَّته والإعجاب به، فتجمَّعُوا من فورهم حول الرَّسول ﷺ، وكأنهم فراشات اِلتمَّت في محيط سراج مضيء في ظلمة الليل.

فقرأ عليهم النبيُّ ﷺ آياتٍ من القرآن الكريم، وبلَّغَهم رسالة الإسلام، وأخبرهم بأنهم إن أرادوا السعادة في الدُّنيا والآخرة، فينبغي عليهم الاستجابة إلى دعوة الإيمان.

لقد كان أهل المدينة قد سمعوا من أجدادهم كلاماً حول قرب ظهور نبيٍّ في ذلك الزمان، وقد كانوا يسمعون الكلام ذاته من جيرانهم اليهود، فلما سمعوا دعوة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، قالوا لبعضهم:

– أيها الأصحاب! والله إن هذا لهو النبيُّ الذي يتهدَّدنا اليهودُ بظهوره! فحذارِ من أن يسبقنا اليهودُ إلى الإيمان به.

فأنعموا النظر إلى مُحيَّا النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام النورانيِّ الذي أعجبوا به منذ اللحظة التي أبصروه فيها، وأدركوا حقيقة وصدق ما أخبرهم به، وقالوا بكلِّ شوق وسرور: «نعم» للدعوة الإلهيَّة، ونطق الجميع كلمة الشهادة:

أَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

وسألهم النبيِّ ﷺ عما إذا كانوا سيُقدمون على مساعدته إن قدم هو والمسلمون إلى المدينة.

إلا أنَّ هؤلاء المسلمون الستة الأوائل طلبوا منَ النَّبيِّ ﷺ مهلةَ سنةٍ؛ لأنهم لم يكونوا على أتم الاستعداد لتقديم العون والمساعدة له، بسبب اشتداد الحرب القائمة بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة، ووصولها إلى أوجها، ولكنَّهم عاهدوا النبيَّ ﷺ على دعوة أهل المدينة إلى الإسلام، ووعدوه بالعودة إليه في موسم الحج القادم.

لقد عادت قافلة الإيمان الصغيرة هذه إلى بلادهم بمشاعر مختلفة تماماً من النشوة والسكينة، إذ قد نفضوا عن أنفسهم أوساخ الجاهلية وأدرانها، وأزاحوا عن أكتافهم ثقل القسوة والتوحش، فأصبحوا خفيفي الوزن كطائر رشيق، وما إن وصلوا المدينة حتى بدأوا بالحديث عن سيِّد الكائنات شمس العالمين، وبادروا بدعوة النَّاس إلى الإسلام، ولم يبقَ في المدينة بيتٌ لم يُذكَر فيه الرَّسول ﷺ.[٥٩٥]

حادثةُ شقِّ الصَّدرِ الثالثةُ: التَّحضيرُ للمعراجِ

في ليلة الإسراء والمعراج، وقبل التقاء فخر الكائنات سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ بالحقِّ ﷻ، مُلِئَ صدرُه الشَّريف بالإيمانِ والحكمةِ تحضيراً لقلبه النبويِّ الطاهرِ للمرة الثالثة من أجل تلقي التجلِّيات الإلهيَّة.[٥٩٦]

يبيِّن النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هذه الحادثة، فيقول:

«**بينما أنا في الحطيم،** - وربما قال: في الحجر - **مضطجعا إذ أتاني آت فشقَّ صدري ما بينَ هذهِ إلى هذهِ، فاستخرجَ قَلبِي، ثمَّ أُتِيتُ بطِستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسِلَ قلبي، ثم حُشِيَ، ثم أُعِيدَ..**»[٥٩٧]

---

٥٩٥ انظر: ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٨؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ٤٠.

٥٩٦ انظر: البخاري: الصلاة، ١؛ مسلم: الإيمان، ٢٦٣/ ١٦٣.

٥٩٧ البخاري: بدء الخلق، ٦، الأنبياء، ٢٢/ ٣٨٨٧؛ مسلم: الإيمان، ٢٦٤/ ١٦٤.

التَّكريمُ اللامحدودُ من المحبوبِ للحبيبِ: المعراجُ

وقعَت حادثةُ المعراجِ قبل الهجرةِ بثمانية عشر شهراً.

إن هذه المكرُمةَ الإلهيَّةَ المعبَّرَ عنها بالإسراء والمعراج هي فضل وإحسان من الله تعالى متحقِّقٌ وفق المقاييس والمعايير الإلهيَّة تماماً، والخارجة عن نطاق الإدراك، وذلك عن طريق رفع كلِّ الحجب والحدود البشرية، فمثلاً تمَّ رفع مفهوم المكان والزمان الذي يُعدُّ من المفاهيم البشرية، لتحصل رحلةٌ طويلةٌ لا يتسع لها عمر مليارات من البشر ومشاهداتٌ لا حصرَ لها في أقل من ثانية. يقول الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٥٩٨]

لقد بدأت الآية الكريمة بتنزيه الله تعالى للفت الانتباه إلى الأهمِّية البالغة للأمور التي تتضمَّنُها، فمعنى «**سبحان**» حسب بيان علماء التفسير: تنزيهُ الله تعالى عن كلِّ صفات النقص، ومن جهة أخرى فإنه مستخدمٌ أيضاً للدلالة على عظمة خلق الله تعالى الخارقة للعادة والمحيِّرة للعقول، و هو في الوقت ذاته من الأذكار والتسبيحات المهمة.

وباختصار نقول بأن هذه الكلمة هي:

١. تهيئةٌ للأرضية اللازمة لتطهيرِ القلوب لتتقبَّل حادثة الإسراء المحيرة للعقول وتصدِّقها، ووقايةِ النَّاس من الوقوع في أوهام التشبيه والتجسيم «أي: تشبيه الحق سبحانه وتعالى بالمخلوقات، والاعتقاد بأن له شكلاً جسميّاً معيَّناً».
٢. بيانٌ لحقيقة تنزيه الله تبارك وتعالى عن العجز، والشَّبيه، وعن كلِّ صفات النقص، وذلك في مواجهة مَن يرون استحالة وقوع المعراج.

وبمتابعة الآية الكريمة نرى فيها لفتاً للأنظار إلى أهمِّية الليل؛ لأنَّ الإسراء كان رحلة ليلية، والوحي الإلهي في غالبه كان يأتي في الليل، وكذلك الأحداث الكبرى سواء السلبية أو الإيجابية كانت تتجلَّى أيضاً بشكل عام في الليل، ولذلك فإن صلاة التهجُّدِ - التي هي من العبادات النافلة والتي يتمُّ أداؤها في وقت السحر - تُعدُّ من العبادات الجليلة.

---

٥٩٨ الإسراء: ١.

وأما فيما يتعلق ببركة المسجد الأقصى وما حوله فقد بيَّنت الآية أنه:

١. مباركٌ ببركة الدِّين والدُّنيا، حيث توجد على أطرافه المساحات الخضراء الخلابة والينابيع الجارية العذبة.

٢. عاش كثير من الأنبياء في أنحاء هذا المكان، ولذلك فقد عُرف بمهبط الوحي.

٣. مبارك بسبب وقوع حادثة الإسراء فيه.

لقد أرى الله ﷻ عبدَه ورسوله محمَّداً ﷺ في هذه الرحلة السماوية الإلهيَّة الكثيرَ من العجائب والأحداث الخارقة للعادة.

فقد أمَّ الرَّسول ﷺ تلك الليلةَ في المسجد الأقصى جميعَ الأنبياء والرُّسل في الصلاة.[٥٩٩]

وفي الرواية التي ينقلها أبو هريرة رضي الله عنه:

«إن النبي ﷺ أتي ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك»[٦٠٠]

وبحادثة الإسراء والمعراج تم التأكيد على أن الإسلام دين الفطرة ؛ وتبين بأن أبواب السماوات لا تُفتح لمن في قلبه زيغ أو فساد.

وهكذا فإنَّ النبيَّ ﷺ غدا ممثلاً لأمَّته، وكان منبع الفيض لهم، وإن الحليب هنا يعبِّرُ عن الفطرة الإنسانية، وأما الخمر فإنها تمثل الشهوات والرغبات الدنيوية.

ويقول الله تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[٦٠١]

مبيناً بأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لا يتكلَّمُ شيئاً على هواه، أو من تلقاء نفسه، وإنَّما كلُّ ما ينطق به هو من وحي ربِّه سبحانه وتعالى.

ثم إن الفاعل الحقيقي لكلِّ شيءٍ هو الحقُّ ﷻ، وقد سلَّم له النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أمرَه كلَّه بشكل تام، وقد وجه الله تعالى نبيه وحبيبه هنا إلى أفضل الأمور عن طريق اختياره

٥٩٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٤.

٦٠٠ البخاري: التفسير، ٧١/ ٤٧٠٩، الأشربة، ١/ ٥٥٧٦؛ مسلم: الأشربة، ٩٢/ ١٦٨، الإيمان، ٢٧٢/ ١٦٨.

٦٠١ النجم: ٣.

اللبن وترجيحه على الخمر، وفي الوقت ذاته فإن هذه الحادثة الشَّريفة تظهر رجحان أمة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام على غيرها من الأمم.

لقد نال النبيُّ ﷺ شرف المعراج إلى السماوات السبع في ليلة الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقد صعِدَ النبيُّ ﷺ الذي وصل إلى المسجد الأقصى، صعِدَ إلى السماء حتى وصل إلى سِدرة المنتهى بصحبة جبريل عليه السلام.

يتحدث سيِّد الكائنات وتاج الأنبياء سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ عن هذه الحادثة، فيقول:

«أتيت بدابة أبيض، دون البغل وفوق الحمار: البراق، فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا، قيل: من هذا؟ قال جبريل: قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على آدم، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من ابن ونبي، فأتينا السماء الثانية، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على عيسى، ويحيى فقالا: مرحبا بك من أخ ونبي، فأتينا السماء الثالثة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على يوسف، فسلمت عليه قال: مرحبا بك من أخ ونبي، فأتينا السماء الرابعة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قيل محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إدريس، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من أخ ونبي، فأتينا السماء الخامسة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتينا على هارون فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من أخ ونبي، فأتينا على السماء السادسة، قيل: من هذا؟ قيل جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على موسى، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من أخ ونبي، فلما جاوزت بكى، فقيل: ما أبكاك [٦٠٢]: قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي، فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور،

٦٠٢ لم يكن بكاء موسى عليه السلام نابعاً من مشاعر الحسد تجاه نبينا ﷺ، وإنما بسبب الحزن على عدم بلوغ حالة الكمال.

فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم، ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر وورقها، كأنه آذان الفيول في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان: ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات، ثم فرضت علي خمسون صلاة، فأقبلت حتى جئت موسى، فقال: ما صنعت؟ قلت: فرضت علي خمسون صلاة، قال: أنا أعلم بالناس منك، عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك، فسله، فرجعت، فسألته، فجعلها أربعين، ثم مثله، ثم ثلاثين، ثم مثله فجعل عشرين، ثم مثله فجعل عشرا، فأتيت موسى، فقال: مثله، فجعلها خمسا، فأتيت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت: جعلها خمسا، فقال مثله، قلت: سلمت بخير، فنودي إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرا»! [٦٠٣]

وورد في بعض أخبار ليلة المعراج، أنه عند سدرة المنتهى قال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ:

– إنك سوف تصعدُ وراء ذلك وحدَك!، لأنه لو دنوت أنملة لاحترقت!. [٦٠٤]

وبعدها أكمل النبيُّ ﷺ رحلة المعراج بمفرده، وأُعطي تجلِّيات عظيمة خارقة للعادة، وتشرَّفَ بجمال الحقِّ سبحانه وتعالى.

إنَّ التعبيرَ عن عجائب هذه الرحلةِ والأحداث الخارقة للعادة التي جرت فيها بالشَّكلِ الأمثل بالغُ الصعوبة، ويشبه ذلك العمل على الإحاطة بحقيقة عصية على الخيال من خلال الإدراك البشري المحدود، فالتجلِّيات الكبيرة والمهيبة التي بقيت حقيقتُها وماهيَّتُها سرّاً خفيّاً بين المولى ﷻ وبين حبيبه المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام تحقَّقت ضمنَ شروطِ «عالم الغيب» وظروفه تماماً.

---

٦٠٣ البخاري: بدء الخلق، ٦/ ٣٢٠٧، الأنبياء، ٢٢، ٤٣، مناقب الأنصار، ٤٢؛ مسلم: الإيمان، ٢٦٤/ ١٦٤؛ الترمذي: التفسير، ٩٤، الدعوات، ٥٨؛ النسائي: الصلاة، ١؛ أحمد: مسند، ٥، ٤١٨/ ١٧٨٣٣.
وفقاً لأحد الآراء أن مشاهدة النبي ﷺ لنهري النيل والفرات في الجنة تعني:
أن نور الإسلام سوف ينتشر على وجه الأرض، وسوف يحكم الإسلام البلاد المباركة التي تقع على أطراف حوض الفرات والنيل، وبذلك سوف تخلص تلك المناطق من عقيدة عبادة النار التي يعتنقها الفرس، ومن عقيدة التثليث التي يؤمن بها البيزنطيون، وإن نسل الناس في هذا الوادي سوف يحملون لواء التَّوحيد ويعملون على خدمة الإسلام باستمرار.

٦٠٤ الرازي: التفسير الكبير، ٢٨، ٢٥١.

إضافة إلى أن تجلي الأسرار العظيمة هذه التي بقيت سرّاً بين الله تعالى ونبيِّه الكريم ﷺ تُظهِرُ للمخاطبين بالوحي الإلهي قدرةَ الله تعالى وعظمتَه، وسلطانَه اللامحدود.

ومن جانب آخر، فإن حادثةَ المعراج فيها قصدٌ إلهيٌّ بإحالة الحزن الذي ملأ قلب النبيِّ ﷺ - نتيجةَ الأحداث التي مرَّ بها في رحلته إلى الطائف - إلى فرحٍ وسرورٍ.

إن هذا التجلِّيَ الإلهيَّ - الذي حدث في الأساس خارجَ حدود الزمان والمكان - تستحيلُ الإحاطةُ به وفهمُه تماماً من خلال الفكر الإنساني القاصر، فيُكرَه إعمالُ المخيلة في مثل هذه المواضيع المتجاوزة لحدود الإدراك البشري.

وخلاصة القول: أن الرَّسول ﷺ قد أُكرم بتجلٍّ استثنائيٍّ في المعراج، تلك المكرَّمة الإلهيَّة التي تجاوزت كلَّ المعجزات والألطاف التي أُكرم بها جميع الأنبياء السابقين، حيث إنَّه تواجد في عالم مخصوص بالذات الإلهيَّة خارجَ حدود الزمان والمكان، كما وصف ذلك القرآن الكريم:

﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[٦٠٥]. إذ خُوطِب بهذا التجلي.

وإذا ما تذكَّرنا حادثةَ سقوطِ موسى عليه السلام وغيابِه عن الوعي لدى مشاهدته جُزءاً يسيراً من هذا التجلي على الرغم من أنه أحد أولي العزم من الأنبياء، أدركنا المنزلة السامية والعلية التي يتمتع بها رسولُنا الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام عند الله تعالى ومدى الصلاحية والقدرة الخاصَّة التي مُنحها من ربِّه عزّ وجلّ.

يبيِّن الله تعالى حادثة المعراج في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿**وَالنَّجْمِ**[٦٠٦] **إِذَا هَوَى**﴾[٦٠٧]

٦٠٥ النجم: ٩.

٦٠٦ لقد فسر علماء التفسير كلمة النجم التي وردت في قسم الله تعالى بتفسيرات عدة، وأهم هذه التفسيرات هو أن المقصود بكلمة النجم: إما الرَّسول ﷺ، وإما آيات القرآن الكريمة التي نزلت على فترات زمنية منفصلة، وبالتالي يكون معنى القسم بالنجم على النحو الآتي:

١. قسماً بمحمد المصطفى الذي عرج إلى السماء ونزل.

٢. قسماً بالزمن الذي كانت تتنزل فيه آيات القرآن الكريم.

٦٠٧ النجم: ١.

إن ابتداء السورة بالقسم على هذا النحو هو تأكيد على صدق وحقيقة المعراج التي تضمنتها في مواجهة الاعتراضات التي قد تصدر من المنكرين لها، إذ جرى تأكيد هذا الأمر وتأييده من خلال الآيات التي جاءت بعد آية القسم، إذ قال الله تبارك وتعالى:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [٦٠٨]

إن عبارة «استوى» الواردة في الآية الكريمة من «الاستواء» وتأتي بمعنى الإحاطة، والاعتدال، والاستقرار، وقد بيَّنَ أغلب المفسرين أن فاعل «فاستوى» هو جبريل ﷺ، ومع ذلك فهم يضيفونه إلى النبيَّ ﷺ أيضاً، وفي هذه الحالة يكون الاستواء تعبيراً عن علوِّ قدرِ وقيمةِ النبيَّ ﷺ، ورفعةِ مرتبتِه ومقامِه، بمعنى: أن الله ﷺ أقام النبيَّ ﷺ أوّلاً في أعلى أفق:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [٦٠٩]

أي: أنَّ نورَ الأكوان سيِّدنا محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام رُفِعَ إلى الأعلى بتأثير الجذب الإلهي، وصُعِدَ به إلى مكان ومقام أعلى من ذلك الموجود فيه.

وبذلك فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يبقَ في المعراج مستوياً أو مستقرّاً فقط في الأفق الأعلى، وإنما دنا من الله تبارك وتعالى، وبعدها أصبح تأثير الجذب الإلهي يزدادُ أكثر فأكثر إلى أن تخطَّى النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في لحظة واحدة إلى ما بعدَ الأفق الأعلى:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [٦١٠]

إن عبارة «قاب قوسين أو أدنى» التي وردت في السورة هي تشبيهٌ مستخدمٌ من أجل تقريب الحقيقة إلى فهم وإدراك البشر، حيث إنَّ هذه حقيقة في الأصل فوق تصوُّرِ الإنسان.

كان العرب قبل الإسلام عندما يعقدون اتفاقاً بينهم يُخرجون قوسين، فيضمُّون قابيهما «القاب: هو المكان المنتصف بين رأسي القوس» إلى بعضهما البعض، ثم يرمون بهما سهماً واحداً، وكانت هذه العملية إشارةً إلى التعاون والاتحاد الذي يفيدُ أنَّ كلاً من الطرفين سوف يرضى بالأمر الذي يرضى عنه أحد المتفقين، ويغضب للأمر الذي يُغضب أحدهما.

---

٦٠٨ النجم: ٢- ٧.

٦٠٩ النجم: ٨.

٦١٠ النجم: ٩.

ووفقاً لذلك فإن «قاب قوسين» حقيقةٌ علوية تدلُّ على القرب الماديِّ والمعنويِّ معاً، وكذلك تتجاوز حدود الإدراك البشري؛ أي: أن الرَّسول ﷺ وصل إلى نقطة قريبة جدّاً من ربِّه سبحانه وتعالى، بحيث رُفِعَت دونَه كلُّ الحجب والوسائط، فتلقى الوحيَ مباشرة منه وفقاً لقوله تعالى:

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [٦١١]

وإن ماهية هذا الوحي تبيَّنَت وفق الأمور الآتية:

١. الصَّلاةُ:

إن فرضية الصلاة هي من أهم المواضيع التي تضمنها المعراج، حيث رجع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام إلى ربِّه ﷻ بشأن أوقات الصَّلاة التي فُرضت في البدء خمسين وقتاً، وذلك بناء على توصية سيِّدنا موسى ﵇، فَخُفِّفَتْ إلى خمس صلوات في اليوم، وإلى جانب ذلك فقد تكرم الله ﷻ على رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام وعباده المؤمنين بأن جعل أجر الصلوات الخمسة بمثابة خمسين صلاةً، وبعد ذلك قال الله تبارك وتعالى:

«يا محمَّدُ، إنَّهنَّ خَمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلةٍ، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسونَ صلاةً، ومَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَت له حسنةً، فإن عملها كُتبَت له عشراً، ومَن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملَها كُتبَت سيِّئةً واحدةً» [٦١٢]

فقد جاء بيان هذا الأمر في حديث طويل عن المعراج، حيث فرض الله في البدء خمسين صلاة على نبيه محمَّد ﷺ، وخففت إلى خمس صلوات بعد أن رجع الرَّسول ﷺ إلى ربِّه سبحانه وتعالى وسأله التخفيف، ومعنى ذلك: أن الصَّلاة المفروضة التي هي من حقوق الله تعالى على عباده خمسون وقتاً في الأصل، ولكن بفضل الله تعالى وإحسانه تمَّ تخفيفها إلى خمس صلوات، فالغاية الأصلية من خلق الإنسان هي عبادة الله ﷻ، كما يقول الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٦١٣]

---

٦١١ النجم: ١٠.

٦١٢ مسلم: الإيمان، ٢٥٩/ ١٦٢.

٦١٣ الذاريات: ٥٦.

يدلُّ البيان الإلهي على أن الأصل هو العبادة، إلا أن موجبات الرحمة الإلهيَّة اقتضت التخفيف آخذةً بالاعتبار الضعيف والأضعف، وأفادت في الوقت نفسه استحباب الزيادة على الأوقات الخمسة من غير وجوب.

فالمؤمن كامل الإيمان يزيد على هذه الصلوات الخمسة بأن يصلِّيَ النوافلَ مثل صلاة الضحى، والأوّابين، ويتهجَّد في الليل، وما كلُّ هذه الصلوات إلا نتيجةً طبيعيةً لحادثة المعراج، وقد خُففت الصَّلاة التي فُرضت في الأصل خمسين وقتاً إلى خمس أوقات نتيجة مراجعة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ربَّه وسؤاله التخفيف عن أمته؛ لأن قليلاً من الناس فقط يستشعرون لذة هذه العبادة، ويصلون فيها إلى حدِّ الاستمتاع.

٢. مخاطبةُ الرَّسول ﷺ

يقول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك» [٦١٤]

٣. أوحيت إلى الرَّسول ﷺ آخر آيتين من سورة البقرة، فقد جاء في الحديثِ الشَّريف:

«أُعطِيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطِيَ الصَّلواتِ الخمسِ، وأُعطِيَ خواتيمَ سورةِ البقرةِ، وغُفِرَ لـمَن لم يشرك بالله مِن أمَّتِه شيئاً...» [٦١٥]

ومع كلِّ ما ذكرنا فإنَّ معرفة كيفية وقوع الوحي في المعراج وتفصيلاته لا يعلم بها إلا الله ورسوله.

إن الأمر الواضح والبيِّنَ هنا أن التجلِّيات التي حدثت في معراج النبيَّ ﷺ ليست ضرباً من الخيال، وإنما هي حقيقة مشاهدة صدَّقها القلب والوجدان، كما ورد في القرآن الكريم:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [٦١٦]

وبعد أنِ التقى الرَّسول ﷺ ليلةَ المعراج بربِّه سبحانه وتعالى، وشاهد تجلِّياتٍ كثيرةً لا حصرَ لها، وأحداثاً عجيبةً مليئةً بالعبر، عاد من ذلك المقام الخاصِّ والرفيع الذي لن يبلغه

٦١٤ مسلم: الإيمان، ٣٣٣/ ١٩٧.

٦١٥ مسلم: الإيمان، ٢٧٩/ ١٧٣.

٦١٦ النجم: ١١- ١٢.

أحد من العباد، عاد إلى المكان – سدرة المنتهى – الذي ترك فيه جبريل عليه السلام، ورآه مرَّة أخرى في صورته الحقيقية. حيثُ يقولُ الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ٦١٧

لقد أشارت الآية الكريمة إلى تقدُّم النبيِّ ﷺ على جبريل عليه السلام من جهة المقام، حيث قال جبريل في ليلة المعراج: «لو تقدَّمتُ قِيدَ أنملةٍ لاحترقتُ». وبقي في مكانه، أما النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام فقد تابع طريقَه إلى الأعلى، وهذه الحقيقة يتم إدراكها بشكل بارز لدى عودة الرَّسول ﷺ والتقائه بجبريل عليه السلام مجدَّداً.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ٦١٨

سُئل فخرُ الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

– يا رسولَ الله، أيُّ شيءٍ رأيتَ يغشَى تلكَ السِّدرةَ؟

فقال الرَّسول ﷺ:

«رأيتُها يغشاها فراشٌ مِن ذَهَبٍ، ورأيتُ على كلِّ ورقةٍ مِن ورقِها مَلَكاً قائماً يُسبِّحُ الله» ٦١٩

وجاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

«أكرم الله تعالى موسى عليه السلام بالتكليم، واتَّخذ إبراهيمَ عليه السلام خليلاً، وأكرم سيِّدنا محمَّد المصطفى ﷺ بشرف رؤية الله – مشاهدة الحق ﷻ بكيفية لا نعلمها–» ٦٢٠

إن عدم انصراف بصر الحبيب عن محبوبه هو أعلى درجات الأدب، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ٦٢١

ويُفهَم من هذه الآيات أيضاً أنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قد تجاوز سدرة المنتهى، حيث ليس بمقدور أيٍّ من المخلوقات بما فيهم جبريل عليه السلام تجاوزها، ويتبيَّنُ من الآية

٦١٧ النجم: ١٣– ١٤.

٦١٨ النجم: ١٥– ١٦.

٦١٩ ابن كثير: تفسير، ٧، ٤٢١، ٤٥٤، الطبري: تفسير، ٢٧، ٧٥؛ مسلم: الإيمان، ٢٧٩/ ١٧٣.

٦٢٠ الطبري: تفسير، ٢٧، ٦٤.

٦٢١ النجم: ١٧– ١٨.

حصول وصلٍ سرِّيٍّ وخفيٍّ وقريب بلغ مسافة «قاب قوسين أو أدنى» يعجز الإدراك البشريُّ عن فهم كيفيته.

وقد رأى سلطانُ الأنبياء عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الوصل من الحقائق العلوية الكبرى؛ أي: رأى من آيات الربوبية، وعظمةِ سلطان الله وملكه ما يعجز الكلام عن وصفه أو الإحاطة به، إذ لا يمكن الوصول إلى فهم هذه الحقائق إلا بالمشاهدة والمعاينة.

ذهب المفسرون إلى أن النبي ﷺ رأى الله تعالى رؤيةً قلبية. [٦٢٢]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**رأيتُ ربِّي تبارك وتعالى**» [٦٢٣]

وفي رواية أخرى: سُئل الرَّسول ﷺ: هل رأيت ربك؟ فأجاب: «**رأيتُ نوراً**» [٦٢٤]

والله أعلم بالحقيقة... [٦٢٥]

لقد رُوي عن الرَّسول ﷺ الكثيرُ من الأخبار والأحاديث المتعلقة بحادثة الإسراء والمعراج، ونورد فيما يأتي بعضاً من هذه الروايات:

مرَّ النبيُّ ﷺ في المعراج بقوم لهم مَشافِرُ كمشافر الإبل، عليهم ملائكة يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار - والأفهار: الحجارة - فتخرج من أدبارهم...

فسأل النبيُّ ﷺ: من هؤلاء يا جبريل؟

قال جبريل عليه السلام: أكلة اموال اليتامى ظلما!. [٦٢٦]

ومرّ النبيُّ ﷺ بقوم لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخمشونَ بها وجوهَهم وصدورَهم.

فسأل النبيُّ ﷺ: من هؤلاء يا جبريل؟

فقال جبريل عليه السلام:

- هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس -المغتابون-، ويقعون في أعراضهم . [٦٢٧]

٦٢٢ الطبري: تفسير، ٢٧، ٦٣.

٦٢٣ أحمد: مسند، ١، ٢٨٥/ ٢٥٨٠/ ٢٦٣٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١، ٧٨/ ٢٤٧.

٦٢٤ مسلم: الإيمان، ٢٩٢/ ١٧٨.

٦٢٥ تم الرجوع في تفسير وشرح الآيات المتعلقة بالمعراج إلى كتاب التفسير «دين الحق لغة القرآن «للشيخ حمدي يازر.

٦٢٦ روح البيان، تفسير سورة الإسراء، ٥، ١١٥؛ الطبري: تفسير، ١٥، ١٨- ١٩.

٦٢٧ أبو داود: الأدب، ٣٥/ ٤٨٧٨ .

ثم رأى الزُّناة، قومٌ بين أيديهم لحمٌ نضيج في قدر، ولحم نيءٌ في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيِّئ الخبيث ويدعون النضيج، ورأى أكلةَ الرِّبا لهم بطونٌ كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحوَّلوا عن مكانهم، وأصابهم الشيطانُ من المسِّ، ورأى النِّساء اللاتي يزنين ويقتلن أولادَهـن، بعضُهنَّ معلَّقاتٌ بثديهنَّ، ونساءٌ أخرياتٌ مُنكَّساتٌ بأرجلهنَّ يصرخْنَ إلى الله تعالى.

ولهذا السبب كان نور الكون سيِّدنا محمَّد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم يقول:

«**والذي نفسُ محمَّدٍ بيده، لو تعلمونَ ما أعلمُ، لَبكَيتُم كَثيراً ولَضحِكتُم قَليلاً**» [٦٢٨]

وفي حديث آخر يتحدَّث النبيُّ ﷺ عما شاهده خلال المعراج، حيث يقول:

«**رأيتُ ليلةَ أُسرِي بي على بابِ الجنَّةِ مكتوباً: الصَّدَقةُ بعَشرِ أمثالِها، والقَرْضُ بثمانيةَ عَشَرَ، فقلت:يا جبريلُ، ما بَالُ القرضِ أفضلُ من الصَّدقةِ؟ قال: لأنَّ السائلَ يسألُ وعندَهُ، والـمُستقرِضُ لا يستقرِضُ إلا مِن حاجةٍ**» [٦٢٩]

وفي حديث آخر يقول نورُ الأكوان عليه الصَّلاة والسَّلام:

«**قُمتُ على بابِ الجنَّةِ، فإذا عامَّة مَن دخلَها المساكينُ، وإذا أصحابُ الجدِّ مَحبُوسُونَ، إلا أصحابَ النَّارِ، فقد أُمِرَ بهم إلى النَّارِ، وقُمتُ على بابِ النَّارِ، فإذا عامَّةُ مَن دخلَها النِّساءُ**» [٦٣٠]

إنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام يحذِّرُ في هذا الحديث الشَّريف النِّساءَ على وجه الخصوص لحماية أنفسهنَّ من الوقوع في الأعمال والمعاصي التي تُعرِّضهنَّ للعذاب الإلهي الأليم.

يجب أن ننبِّهَ هنا إلى حقيقة مهمَّةٍ نستشفُّها من خلال حادثة المعراج، وهي: أن الإنسان العادي لديه مشاهدات وانطباعات حول الماضي فقط، وذلك من ناحية الزمن، بينما نجد أن الأنبياءَ مُزوَّدون بمعلومات وأخبار عن الماضي، والحاضر، والمستقبل، وإن

٦٢٨ البخاري: التفسير، ٥، ١٢/ ٦٦٣٧.

٦٢٩ ابن ماجه: الصدقات، ١٩/ ٢٤٣١.

٦٣٠ البخاري: الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٧؛ مسلم: الزهد، ٩٣/ ٢٧٣٦.

إخبار الرَّسول ﷺ عن أحوال وأهوال المحشر، واستخدامه لعبارات التحقق مثل «رأيتُ، وسمعتُ» في نقل تلك الأخبار، ما هو إلا مظهر من مظاهر هذه الحقيقة التي ذكرناها.

علماً بأنَّ النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام تابع بأمِّ عينه بعضاً من الوقائع العائدة إلى المستقبل والمليئة بالعبر والعظات، وذلك في ليلة المعراج المستغنية عن امتدادات الماضي، والحاضر، والمستقبل، ونقل لنا تلك الوقائع بصيغة الماضي؛ أي: بصيغة التحقق.

في الحقيقة لقد رأى الرَّسول ﷺ ليلةَ المعراج من الآيات والحقائق ما لا حصرَ لها.

فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«ثمَّ عُرِجَ بي حتَّى ظَهَرتُ لمُستوًى أسمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلامِ» [٦٣١]

أي: أنَّ النبيَّ ﷺ عرج به تلك الليلة إلى مقام ومستوى عالٍ لدرجة أنه صار في مكان يسمع صوت الأقلام التي تكتب مقدرات الكائنات، فأصبح مطَّلعاً على حقائق بعيدة عن الإدراك البشري.

يتبيَّنُ من الأحاديث الشَّريفة التي أوردناها آنفا أن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام كان يعيش خلال المعراج في الماضي والحاضر والمستقبل بشكل متداخلٍ ببعضه، وفي لحظة واحدة.

بعضُ الحِكمِ لحادثةِ المعراجِ

١. تعرَّضَ الرَّسول ﷺ قبل خروجِه في هذه الرِّحلةِ السَّماويةِ لحادثة «شقِّ الصدر»، وهذا يُظهِرُ بأنَّ الارتقاء الروحيَّ ممكن عن طريق تصفية القلب، ولا مكانَ في مثل هذا القلب إلا للنور الإلهي، إذ إنَّ القلب عندما يتخلَّصُ من الكثافة وآثار الدُّنيا المادية يبدأُ باحتضان تجلِّيات الأسرار الإلهيَّة.

٢. إن حادثة الإسراء تضعُ أمام الأعين القدرةَ اللامتناهيةَ لله تعالى حيث يُسيِّرُ عبده بصورة استثنائية، وتظهر عظمة سلطانه وملكه.

٣. ومن لطائف المعراج أيضاً أنه إحسانٌ بعد رحلة الطائف المحمَّلةِ بالألم، والعذاب والقلق، وبشرى بعد الكآبة والمشقات.

---

٦٣١ البخاري: الصلاة. ١/ ٣٤٩؛ مسلم: الإيمان، ٢٦٣/ ١٦٣.

٤. إنَّ الفرائض التي أُعلِمنا بها في القرآن الكريم جاءت بواسطة جبريل عليه السلام، أما الصَّلاةُ فإنَّها فُرِضت في المعراج مباشرةً من الله تعالى بالذات دون واسطة جبريل عليه السلام، وإنَّ هذا فيه دلالةٌ على أنَّ في الصَّلاةِ سرّاً يختلفُ عن باقي العبادات، وأنَّها تحمل أهمِّية استثنائية من بين كلِّ العبادات الأخرى.

إنَّ الصَّلاة عمود الدين، فالكمالُ الذي يصل إليه المسلم بالصَّلاة لا يمكن أن يصل إليه بأيٍّ من العبادات الأخرى، وإنَّ مرتبةَ الصَّلاة بين العبادات الإسلامية كمرتبة نعمة رؤية الله تعالى بين نِعم الآخرة، حيث تتصدَّرُ نعمة مشاهدة الله تبارك وتعالى كلَّ نعيم الجنة، وكذلك الصَّلاة تأتي على قمة العبادات في الإسلام، وإن أكثر اللحظات التي يكون فيها العبد قريباً من ربه في الدُّنيا هي لحظات الصَّلاة بخشوع، فالصَّلاة هي التقاء العبد بربِّه وهو ما يزال في الدُّنيا، ولذلك فقد قال النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«...**جُعِلَت قُرَّةُ عَينِي في الصَّلاةِ**» [٦٣٢]

وقد بقي الرَّسول ﷺ يُوصي أمَّتَه بالصَّلاة إلى آخر رمقٍ في حياته، فكانت آخر وصاياه: الصَّلاةَ، الصَّلاةَ، وما ملكت أيمانُكم.

٥. إن فتح أبواب السماء لنور الكائنات ﷺ في المعراج يُظهِرُ بأن نبوَّته ليست محدودة وخاصة بمكة وقريش وثقيف فقط، وإنما هو نبيُّ جميع أمم الأرض وسيِّدُ العالمين.

٦. تبيَّنَ بالمعراج النقطةُ النهائيةُ التي يمكن أن يصل إليها تكاملُ الإنسان؛ أي: تمَّ بيان حدود الارتقاء والسمو الروحي للإنسان.

٧. إن الإسراء بالنبيِّ ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يظهر الرابطةَ المتينةَ بين المركزين الدينيين، حيث أرسل فيهما الكثيرُ من الرُّسل والأنبياء على مرِّ التاريخ، ويدلُّ أيضاً على احتواء الإسلام لكلِّ الأديان السماوية، وأنه الدين الحق والوحيد عند المولى سبحانه وتعالى، إذ أنَّ إمامةَ الرَّسول ﷺ في المسجد الأقصى بجميع الأنبياء ما هي إلا مظهرٌ من مظاهر هذا الاحتواء.

٦٣٢ النسائي: عشرة النساء، ١/ ٣٩٣٩/ ٣٩٤٠.

انعكاساتُ المعراجِ

قال نور الكون وبهجة الكائنات سيِّدنا محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام لما أراد إخبار مشركي قريش بحادثة الإسراء والمعراج:

«يا جبريلُ! إنَّ قومي لا يُصدِّقوني. قال جبريل: يُصدِّقُكَ أبو بكرٍ، وهوَ الصِّدِّيقُ»[٦٣٣]

لما سمع المشركون بخبر حادثة الإسراء والمعراج عملوا في الحال على إنكاره وتكذيبه، وسيطر على الأوساط ضجيجُ الإشاعات، فاستغلَّ المشركون الفرصةَ وأرادوا أن يُزحزحوا المؤمنين عن إيمانهم عن طريق بثِّ الوساوس بينهم، حتى إنَّهم ذهبوا إلى أبي بكر الصِّدِّيق ﵁، وأخبروه بأنَّ النبيَّ ﷺ يقول بأنه أُسرِي به إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السماء، إلا أنه قال لهم بكلِّ ثقة وإيمان بالنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

- إن كانَ قد قال ذلكَ فقد صدَقَ، فهو لا يكذبُ أبداً، وأنا أصدِّقُه في كلِّ ما يأتي به…

فقال المشركون:

- أوَ تصدِّقُ بأنه أُسرِي به إلى المسجد الأقصى في الليلة الماضية، ونحنُ نقطعُ أكباد الإبل إليها في شهر كامل؟

قال أبو بكر الصِّدِّيق ﵁:

- إني أصدِّقُه في أبعدَ من هذا، إنِّي أصدِّقُه أن خبر الوحي يأتيه من السماء في عشية وضحاها، أفلا أصدقه أنه انتقل الى البرزخ وصعد الى السماء؟.

ثم انطلق أبو بكر ﵁ إلى النبيَّ ﷺ وهو عند الكعبة، فإذا به يخبر النَّاس عن الإسراء والمعراج، فسمع الأمر من فمه الشَّريف وقال:

- صدقتَ يا رسولَ الله!

فسُر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام غاية السرور من تصديق أبي بكر ﵁ له، ومنذ ذلك اليوم اشتُهر أبو بكر ﵁ بلقب «**الصِّدِّيق**»[٦٣٤]

وسار بقية الصحابة الكرام على خطى أبي بكر ﵁، وصدَّقوا النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام فيما أخبر به.

---

٦٣٣ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢١٣، ٢١٥.

٦٣٤ ابن كثير: السيرة، ٢، ٩٦؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٥.

ولما فشل المشركون في خداع المؤمنين وتحويلهم عن إيمانهم، انطلقوا إلى النبيِّ ﷺ وأخذوا يمتحنونه بشكل عقلاني، حيث سألوه عن بيت المقدس، فأحضر الحقُّ سبحانه وتعالى بيتَ المقدِسِ أمام عيني رسوله الكريم ﷺ، وأخذ النبيُّ ﷺ يجيب عن أسئلتهم حول بيت المقدس وهو ينظر إليه بعينيه. [٦٣٥]

فتحوَّل المشركون إلى سؤال الرَّسول ﷺ عن قافلة لهم قادمة في الطريق، فقالوا:

– يا محمَّد، أخبرنا عن قافلتنا التي هي أهمُّ عندنا من بيت المقدس!

فقال الرَّسول ﷺ:

«إنِّي مررتُ بعِيرِ بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرَهم حسُّ الدابة، فندَّ لهم بعيرٌ، فدللتهم عليه وأنا متوجِّهٌ إلى الشَّام. ثمَّ أقبلتُ حتَّى إذا كنتُ بضُجْنَانَ مررتُ بعِيرِ بني فلان، فوجدتُ القومَ نياماً ولهم إناءٌ فيه ماءٌ قد غطَّوا عليه بشيءٍ، فكشفتُ غطاءَه، وشربتُ ما فيه[٦٣٦]، ثم غطَّيت عليه كما كان، وآيةُ ذلك أنَّ عيرَهم تَصُوبُ الآن من ثنية التنعيم البيضاء يقدُمها جملٌ أورقُ عليه غِرارتان؛ إحداهما سوداءُ، والأخرى برقاءُ»

---

٦٣٥ انظر: البخاري: مناقب الأنصار، ٤١/ ٣٨٨٦، التفسير، ١٧/ ٤٧١٠؛ مسلم: الإيمان، ٢٧٦/ ١٧٠.

٦٣٦ يقول النبي ﷺ: «**المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلإ، والماء، والنار**» (أبو داود: البيوع، ٦٠/ ٣٤٧٧) أما إذا حاز أحدٌ الماء في قرب أو نحوه أصبح مالكاً له، ولا يصح أخذه والانتفاع به من غير إذن صاحبه، فكيف يمكن أن نفسِّر شربَ النبي ﷺ الماء من قرب محكم الإغلاق دون إخبار مالكه ؟ لقد أجاب علماؤنا على هذا التساؤل وفق الآتي: لقد كان من عادات وأعراف العرب في عصر الجاهلية أن لبن الماشية كلها مباح للمسافرين، حيث إنهم كانوا ينبهون رعاتهم على هذا الأمر، وكانوا إذا جاؤوا برعاة جدد يشترطون عليهم عدم منع المسافرين الذين يمرون بهم من شرب حليب الماشية، إذا كان الحليب مباحاً للمسافر إلى هذه الدرجة فمن باب الأولى أن يكون ماء الشرب كذلك، وإن من أصول التشريع الإسلامي الحكم حسب العرف. (السهيلي: الروض الأنف، بيروت ١٩٨٧، ٢، ١٥٢). ولذلك فإن شرب النبي ﷺ للماء الذي كان مع القافلة لدى عودته من رحلة المعراج يُعدُّ أمراً طبيعياً بالنظر إلى الزمان والمكان الذي حصل فيه، ومن جهة أخرى فقد أُريد لهذه الحادثة أن تكون علامة ودليلاً على معراج النبي ﷺ، وفي الحقيقة لما سمع المشركون بحادثة شرب الماء من النبي ﷺ أبدوا قَبولهم بها كعلامة على وقوع المعراج من عدمه، قائلين: (إن هذه علامة واضحة لا تخطئ، سوف نذهب ونرى، لنعلم أكان ما قلته صدقاً أم كذباً ؟.)

ويقول الرَّسول ﷺ في حديث آخر:

«**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعني كاذبا، ورجل بايع إماما فإن أعطاه وفى له، وإن لم يعطه لم يف له**» (أبو داود: البيوع، ٦٠/ ٣٤٧٤)

فقال المشركون الذين أطبقت عليهم الحيرة والدهشة:

– والللات والعزى إن هذه لعلامةٌ تامَّةٌ، وأملوا ألا يكونَ آخرُ كلامه صحيحاً، فابتدروا الثنية، وبدأوا يرقبون القافلة، ولما أبصروا القافلة قادمة، قالوا:

– والله إن القافلة آتية! ويتقدمها الجمل الأورق.

فلما كان أوَّل ما لقيهم من القافلة الجمل كما وصف لهم، سألوا رجال القافلة عن الإناء، فأخبروهم أنَّهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه، وأنَّهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء.

إن شُربَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام الماء لأحدُ الأدلة التي تُثبتُ وقوعَ المعراج بالجسد والروح معاً.

وسأل المشركون آخرين وهم بمكة، فقالوا:

– صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، ونَدَّ لنا بعيرٌ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه!

حتَّى إنَّ بعضهم كان قد عرف صاحب الصوت وقال: إن هذا صوت محمَّد ﷺ.

ولم يُبقِ المشركون شيئاً في القافلة إلا وسألوا النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام عنه، حتى وصلوا إلى الجمال التي في الناقة وسائس القافلة، وأعطاهم الرَّسول ﷺ أجوبة صحيحة عن كلِّ أسئلتهم؛ لأنَّ القافلة أيضاً قد أُحضرت أمام عيني الرَّسول ﷺ مثلما حصل الأمر عندما سألوه عن المسجد الأقصى، ولكن أصحاب القلوب المغلَّفة أصرُّوا على عنادهم وإنكارهم، وقالوا: –إن هذا لسحرٌ!. [٦٣٧]

يقول الله تعالى:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٦٣٨]

أليس بالأمر الهين على الله تبارك الذي أوجد كلَّ شيءٍ من العدم أن يعرج بعبده إلى السماء؟ إنَّ مَن لا يدينون بالتصديق لهذا الأمر لا يُعبِّرون إلا عن حرمانهم من العقل السليم.

---

٦٣٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ١٠؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ١، ٧٥/ ٢٣٧؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٢٥٦.

٦٣٨ ق: ١٥.

إن المشركين الضالين والحمقى لم يصدِّقوا حادثة المعراج، وعادوا مرَّة أخرى إلى السخرية والاستهزاء بالنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، ولكنهم كانوا بهذه الحركات البغيضة والأعمال السيئة يضيِّعونَ من أيديهم نعمةَ بقاء رسول الله ﷺ بينهم، حيث كان الوقتُ قد حان لاسترداد النعمة العظيمة من أهل مكَّة الذين لم يَقْدرُوها حقَّ قَدرِها عندما تنكَّروا لرسول الله ﷺ، وبالغوا في الإساءة لنبيٍّ خُلقوا من أجله، حتى تجاوزوا في ذلك كلَّ الحدود.

وفي الواقع لم يبقَ شيءٌ إلا أن يُخرِجَ الله تبارك وتعالى نورَ الكون من بينهم، ويتكرم به على قوم يعرفون قيمتَه، ويقدرونه حقَّ قدره.

وبالفعل لم يمضِ وقت طويل على رحلة الطائف حتى أُرسِلَ إلى الحبيب المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام وفدٌ من قِبلِ قوم شرفاء؛ ليبايعوا الرَّسول ﷺ على الإسلام والإيمان.

السَّنةُ الثانيةَ عشرةَ للبعثة

بيعةُ العَقبةِ الأُولى

إن الأشخاص الستة الذين كانوا قد قدموا من المدينة إلى مكَّة وتشرَّفوا بنور الإيمان، عادوا في السنة اللاحقة وقد صاروا اثنا عشر شخصاً، وكان اللقاء في العقبة مرَّة أخرى.

وقد دعا النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام القادمين الجددَ أيضاً إلى التَّوحيد، فآمن الأشخاص الستة الآخرون الذين قد سمعوا من أصحابهم المؤمنين حديثَهم عن جمال الإسلام وعظمته، ومدحَهم لرَّسول الله ﷺ وثناءَهم عليه.

كان هذا اللقاء في العقبة مختلفاً عن سابقه، حيث إنَّهم في هذه المرة بايعوا نور الكون سيِّدنا محمَّداً ﷺ، فوضع هؤلاء المدنيون أيديَهم في يد الرَّسول ﷺ وبايعوه، وعاهدوه، وبسبب هذه البيعة أُطلق على لقاء العقبة الثاني اسم «بيعة العقبة الأولى».

تعهَّدَ هؤلاء المدنيون للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام في هذه البيعة بالأمور الآتية:

١. ألا يشركوا بالله شيئاً.
٢. ألا يسرقوا.
٣. ألا يقربوا الزِّنا.
٤. ألا يَئِدُوا بناتِهم الصغيراتِ.
٥. ألا يَفترُوا على أحدٍ.
٦. وألا يخرجُوا عن طاعة الله ورسوله.[٦٣٩]

إن هذا العهدَ الذي أقدم عليه أناس من أهل المدينة نقطةُ تحوُّلٍ وبداية عهدٍ جديدٍ في التاريخ الإسلامي، حيث إنَّهم عاهدوا على أن يعملوا على القضاء على كلِّ مظاهر الشرك الذي كان مسيطراً على الحجاز وشبه الجزيرة العربية، وأن يرفعوا الظلم والعادات الفاسدة والبالية من بين النَّاس.

٦٣٩ انظر: البخاري: مناقب الأنصار، ٤٣/ ٣٨٩٢/ ٣٨٩٣.

تعيينُ مُصعبِ بنِ عُميرٍ ﷺ مُعلِّماً وفتحُ المدينةِ بالقرآنِ الكريمِ «السنة ١٢ للبعثة»

لقد كتب المسلمون الجددُ من أهل المدينة رسالةً إلى النبيِّ ﷺ يطلبون فيها منه أن يرسل إليهم رجلاً معلماً يقرأ عليهم القرآن الكريم، ويبيِّن لهم الإسلام، ويعلمهم كيفية أداء الصَّلاة، فأرسل إليهم الرَّسول ﷺ مصعبَ بنَ عمير.[٦٤٠]

وأرسل النبي ﷺ أيضاً مع مصعب ﷺ أحدَ السابقين إلى الإسلام وهو عبد الله بن أم مكتوم؛ ليعلِّمَ أهل المدينة القرآنَ الكريم.[٦٤١]

لقد اهتدى مصعب بن عمير ﷺ إلى الإسلام وهو ما يزال شابّاً يافعاً، وعلى الرغم من الظلم والتعذيب الذي مارسه أهلُه عليه، وحرمهانهم إياه من الميراث، إلا أنه لم يرتدَّ عن دينه؛ لأنَّه كان صاحبَ قلب غني مليء بالإيمان والحبِّ والوجد، وإن كان غريباً فقيراً في ما يبدو للناس، وكان عابداً لله، متحمِّساً لنشر الإسلام في كل مكان.[٦٤٢]

وهكذا فقد نما الإسلام وتوسَّع بشكل كبير بذهاب مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة المنورة، لقد بدأ هذا الصحابيُّ الشابُّ والمجدُّ الذي كلَّفه الرَّسول ﷺ بوظيفة تبليغ الإسلام يصلُ ليلَه بنهاره من أجل بيان دين الله تعالى للناس، وإنَّ أسعدَ بنَ زُرارةَ الذي كان أوَّلَ من نال الهداية ببركة جهود مصعب ﷺ كان يستضيفه في بيته، ويعينه في كلِّ جهوده وأعماله.

ذات يوم اصطحب أسعدُ بنُ زرارةَ مُصعباً معه، وذهب به إلى بستان بني ظفر، وأجلسه على رأس بئر هناك، ولما رآهما سعد بن معاذ، وهو أحد وجهاء بني عبد الأشهل، قال لأُسَيدِ بنِ حُضير: إنك رجلٌ حكيمٌ، ولا حاجةَ لك لأحد، اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا حيَّنا ليُسفِّها ضُعفاءَنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنَّ أسعدَ بن زرارة ابنُ خالتي، ولولا ذلك لكفيتُكَ هذا.

---

٦٤٠ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٢٠.

٦٤١ انظر: البخاري: مناقب الأنصار، ٤٦.

٦٤٢ يقول سيدنا علي ﷺ: إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو اليوم فيه، ثم قال رسول الله ﷺ: «**كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة**»؟ قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: «**لأنتم اليوم خير منكم يومئذ**» (الترمذي: القيامة، ٣٥/ ٢٤٧٦)

فأخذ أُسيدٌ حربتَه وأقبل إليهما، فوقف عليهما مُتَشتِّماً مُغتاظاً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا ولا تعودا إلى ما أنتما فيه، إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ؟

فقال له مصعب ﷺ ذو البصيرة والفراسة: أو تجلسُ فتسمع؟ فإنك رجل عاقل، فإن رضيت أمرَنا قبلتَه، وإن كرهته أكُفُّ عنك ما تكره.

فقال أسيد: أنصفتَ! ثم ركز حربته وجلس، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن.

ولما سمع أُسيدٌ القرآنَ الكريم أشرق وجهه بنور الإسلام قبل أن يتكلَّم، ولانَ قلبُه للإسلام، ثم قال عن القرآن الكريم:

- ما أحسنَ هذا وأجملَه! [٦٤٣] كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتطهِّرُ ثوبك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه، وتشهَّد، وصلى ركعتين، ثم قال:

- إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه؛ سعدَ بنَ معاذ، وسأرشده إليكما الآن، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه.

فقام سعد مغضباً، وخرج إليهما، ولكنه في نهاية الأمر استمع إلى قول مصعب ﷺ مثل صاحبه أُسيدٍ، وأسلم على يديه. ثم أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما وقف عليهم قال:

- يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

---

٦٤٣ لقد استمرَّ أسيدٌ ﷺ في قراءة كلام الله تعالى طيلة حياته بعشق ووجد كبيرين. ويقول عن نفسه: بينما أنا أقرأ من الليل البقرة، وفرسي مربوطة عندي، إذ جالت الفرس، فسكتُّ فسكنت، فقرأت فجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأت فجالت الفرس، فانصرفت، وكان ابني يحيى قريباً منها، فأشفقت أن تصيبه، فلما اجترء رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبحتُ حدثت النبي ﷺ فقال: «**اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير**» قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال الرَّسول ﷺ: «**وتدري ما ذاك ؟**» قال أسيد: لا. فقال النبي ﷺ: «**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحَتْ ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**» (البخاري: فضائل القرآن، ١٥/ ٥٠١٨)

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ: كان أسيد بن حضير من أفاضل الناس فكان يقول:

«لو أني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث: لكنت من أهل الجنة، وما شككت في ذلك حين أقرأ القرآن وحين أسمعه، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدت جنازة فما شهدت جنازة قط، فحدثت نفسي سوى ما هو مفعول بها، وما هي صائرة إليه» (الحاكم: المستدرك، ٣، ٣٢٦/ ٥٢٦٠)

قالوا: سيِّدُنا وأفضلُنا رأياً، وأيمنُنا نقيبةً.

فقال سعد ﵁: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة. [٦٤٤]

ودعا مصعبٌ ﵁ عمرَو بن الجَموحِ إلى الإسلام، وهو من أشراف بني سليمة، حيث قرأ عليه الآيات الثمانية الأولى من سورة يوسف، فطلب عمرو من مصعب ﵁ مهلةً لكي يفكِّرَ فيما عرضه عليه، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى أيِّ قرار، فاتفق ولده معاذ الذي كان قد سبقه بالإسلام مع صديق مسلم له في القبيلة، فحملا ذات ليلة الصنمَ الذي اتخذه أبوه في البيت سرّاً، وطرحاه في حفرة بجوارهم يطرح النَّاس فيها فضلاتهم، فلما أصبح عمرو ورأى الصنم طريحَ الحفرة أصابه الغضب والحيرة، فأخرج الصنم من الحفرة ثم غسله وطهَّره وطيَّبه، ووضعه في مكانه.

ولما تكررت الحادثة عدة أيام، جاء بسيفه ووضعه في عنق الصنم من أجل أن يدافع عن نفسه، ولما أصبح الصباح ووجد صنمه في الحفرة نفسِها أدرك أن الصنم الذي يعكف على عبادته لا ينفع في شيءٍ، وأنه عاجز حتى عن الدفاع عن نفسه، فأفاق من غفلته ومن ظلام شِرْكِه؛ ليصبح على نور الإسلام، وشكرَ الحقَّ ﷻ على أن أنقذه من الضلالة بهدي الرَّسول ﷺ. [٦٤٥]

ولما وصل خبر تلقي أهل المدينة للإسلام بحسن القَبول ودخولهم فيه إلى النبيِّ ﷺ والمسلمين في مكَّة فرحوا بالخبر أيَّما فرح، حتى إنَّهم أطلقوا على تلك السنة اسم «سنة السرور»، وذلك لأن المدينة كانت تتحضَّرُ لتصبحَ حاضنة الإسلام.

يقول النبي ﷺ عن المدينة المنورة:

«فُتِحَت البلادُ بالسَّيفِ، وفُتِحَت المدينةُ بالقرآن» [٦٤٦]

---

٦٤٤ ابن هشام: السيرة، ٢، ٤٣-٤٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٦٠٤-٦٠٥؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ١، ١١٢-١١٣.

٦٤٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٦١-٦٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ١٨٢.

٦٤٦ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٩٨/ ٥٧٧٦.

السَّنةُ الثالثةَ عشرةَ للبعثة

بيعةُ العقبةِ الثانيةُ

بعد لقاء العقبة الأولى بسنةٍ التقى أهلُ المدينة مجدَّداً بالنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في موسم الحج، وفي هذه المرة كانوا سبعين شخصاً بينهم امرأتان.

وبايعوا الرَّسول ﷺ مرَّة أخرى، وقد سُمِّيت هذه البيعةُ بـ «بيعة العقبة الثانية».

كان مصعب رضي الله عنه على رأس القافلة القادمة إلى مكَّة، فقبل أن يتجه إلى بيته ذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره بتسارع دخول الأنصار إلى الإسلام في المدينة، فسُرَّ النبيُّ ﷺ كثيراً بالخبر الذي جاء به مصعبٌ رضي الله عنه. ولما بلغ خبر وصول مصعب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ مسامعَ أمِّه المشركةِ غضبت كثيراً. فقال مصعب رضي الله عنه:

- لا آتي أحداً قبل النبي ﷺ، ولا أقدِّمُ عليه أحداً إن كان هو حاضراً.

وبعد أن استأذن من النبي ﷺ جاء إلى أمِّه ودعاها إلى الإسلام. [٦٤٧]

هكذا كانت محبَّة الصحابة رضوان الله عليهم للرسول ﷺ.

يقول جابر رضي الله عنه:

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول:

«من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟»

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مصر - كذا قال - فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله له من يثرب، فآويناه، وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن،

٦٤٧ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١١٩.

فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك، قال:

«تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة»

قال: فقمنا إليه فبايعناه.» [٦٤٨]

لقد تواعد هؤلاء الأشخاص المفلحون على اللقاء بالنبيِّ ﷺ خلال أيام التشريق في العقبة، فعندما مضى الثلث الأوَّل من الليل تسلَّلَوا إلى المكان الذي تواعدوا على اللقاء بالنبيِّ ﷺ فيه خفية، وبدؤوا بانتظاره هناك، فجاء الرَّسول ﷺ إلى المكان بصحبة عمِّه العباس، فقد كان - وإن لم يكن قد أسلم بعدُ - يتولَّى مهمَّةَ حماية النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بعد أبي طالب، وكان الرَّسول ﷺ يثق به، فتكلم العباس حول دعوة أهل المدينة لابن أخيه إلى بلادهم، فقال:

- يا معشرَ يثرب! إن محمَّداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عِزَّةٍ من قومه، ومَنَعَةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم واللحاقَ بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمِن الآنَ فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

فقام أسعد بن زرارة ﷺ، وتكلم في ردٍّ على مخاوف العباس عمِّ النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله، إلى ترك ديننا واتباعك عَلى دينك، وتلك مرتبة صعبة، فأجبناك إلى ذلك، ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار والأرحام والقريب والبعيد، وتلك رتبة صعبة، فأجبناك إلى ذلك، ودعوتنا ونحن جماعة في عز ومنعة لا يطمع فينا أحد أن

٦٤٨ أحمد: مسند، ٣، ٢٢٣/ ١٤٤٥٦؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٨١- ٦٨٢.

يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه، وتلك رتبة صعبة، فأجبناك إلى ذلك، وكل هؤلاء الرتب مكروهة عند الناس، إلا من عزم الله على رشده، والتمس الخير في عواقبها، وقد أجبناك إلى ذلك بألسنتنا وصدورنا وأيدينا؛ إيماناً بما جئت به وتصديقاً بمعرفة ثبتت في قلوبنا، نبايعك على ذلك ونبايع الله ربنا وربك، يد الله فوق أيدينا، ودماؤنا دون دمك، وأيدينا دون يدك، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، فإن نف بذلك فبالله نفي ونحن به أسعد، وإن نغدر فبالله نغدر ونحن به أشقى، هذا الصدق منا يا رسول الله، والله المستعان.

وبعد كلام أسعد نهض عبد الله بن رواحة ﵁، وقال لرسول الله ﷺ:

– يا رسولَ الله، سل لربِّكَ ما شئتَ، ثم سل لنفسِكَ بعد ذلك ما شئتَ.

فقال النبي ﷺ:

«أسألُكُم لربِّي أن تَعبدُوهُ ولا تشركُوا به شيئاً، وأسألُكم لنفسِي وأصحابي أن تُؤووناً وتَنصُرُونا وتَمنعُونا ممَّا تَمنعونَ منه أنفسَكم»

فسأل الصحابة القادمون من المدينة:

– فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

فقال النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام:

«لكمُ الجنَّةُ»

فقالوا:

– ربح البيع، لا نُقيلُ ولا نَستقيلُ. [٦٤٩]

فأما عبد الله بن رواحة ﵁ فقد أتم هذه الصفقة في غزوة مؤتة، فلما تلقى بشارةَ الاستشهاد من الرَّسول ﷺ انضمَّ إلى المعركة وقد لفَّه شوق عارم إلى بذل روحه، حيث قدَّم ماله إلى بيت المال، وقدَّم روحه الطاهرة إلى الله تعالى؛ ليطير إلى الجنة العالية، وأما بقية الصحابة فقد تابعوا نشاطهم وجهادهم في سبيل الله في مختلف المواقع، حيث ظلوا صادقين في بيعتهم؛ لينالوا من بركة التجارة المعنوية التي أقدموا عليها.

لقد نزلت الآية الكريمة الآتية المتعلقة بما فعله مسلمو المدينة في البيعة:

٦٤٩ ابن كثير: التفسير، ٢، ٤٠٦؛ أحمد: مسند، ٢٨، ٣٠٩/ ١٧٠٧٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ٤٨/ ٩٨٩٢ .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٥٠]

وبعد ذلك تكلَّم أناسٌ آخرون، وبعدهم خطبَ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في أهل المدينة، وتلا القرآن الكريم، وبيَّن لهم الإسلام، ثم ذكر الشروط التي يبايعونه عليها، والأمور التي يجب عليهم الالتزام بها، وهي بالإضافة إلى ما ذكرناها آنفاً:

١. السمع والطاعة؛ في السلم والحرب، في الحضر والسفر، في العسر واليسر.

٢. عدم مخالفة أمير المؤمنين كائناً مَن كان.

٣. أن يقولوا كلمة الحقِّ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم.

ثم قال النبي ﷺ:

«أخرِجُوا إليَّ منكُم اثني عشرَ نَقِيباً، ليكُونُوا على قَومِهم بما فيهم»

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«أنتمْ على قومِكُم بما فيهم كُفلاءُ ككَفالةِ الحوارِيِّينَ لعيسى بنِ مريمَ، وأنا كَفيلٌ على قَومِي – يعني: المسلمين –»

فقال النقباء: نعم.

فأمسك العباس بيد الرَّسول ﷺ وأخذ له البيعة من أهل المدينة فرداً فرداً بالمصافحة تحت شجرة.

وفي هذه البيعة دُعِيَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة، واتخذ قراره بالهجرة إليها؛ لأنَّ المدينة – التي كانت تُسمى يثرب– قد أصبحت جاهزةً من كلِّ النواحي لاحتضان الإسلام.

لم يعلم أهل مكَّة بهذه البيعة بسبب وقوعها بعد منتصف الليل، ولما تمَّ عقد البيعة، اكتشفها أحدُ الشياطين، وجاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة، فقام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض، وصاح بأنفذِ صوتٍ سُمِعَ قط:

---

٦٥٠ التوبة: ١١١.

- يا أهل منى، يا معشر قريش، هل لكم في مُذَمَّم والصباة - الذين خرجوا عن دين آبائهم - معه، قد اجتمعوا على حربكم.

فقال النبي ﷺ:

«هذا أزب العقبة هذا ابن أزيب، اسمع أي عدو الله أما والله، لأفرغن لك»

ثم قال للمسلمين:

«ارفَضُّوا -ارفعوا- إلى رِحالِكُم»

فقال العباس بن عبادة رضي الله عنه:

- يا رسولَ الله، والذي بعثك بالحقِّ، إن شئتَ لَنميلَنَّ على أهلِ منى غداً بأسيافِنا!

قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«لم نُؤمَر بذلكَ، ولكن ارجعُوا إلى رِحالِكم»

فرجع المسلمون إلى رحالهم وأماكنهم، ورقدوا حتى الصباح، وفي صباح اليوم التالي جاءهم جمع من كبار رجال قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، فحلف المشركون من الأوس والخزرج الذين كانوا في القافلة مع المسلمين بأنهم لم يفعلوا ذلك، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم، ولاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحدٌ منهم بنفي أو إثبات، إلا أن مشركي قريش لم يتوقفوا عن البحث والسؤال حول بيعة العقبة، ولما علموا بوقوع بيعة العقبة، قطعوا جميع الطرق المؤدية إلى المدينة، وأرسلوا عيوناً إلى جميع الجهات بهدف العثور على المسلمين، فعثرت عيون المشركين على سعد بن عبادة في الطريق وأمسكوا به، وسألوه: هل دخلت في دين محمَّد؟ فلما قال: نعم.

أخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكَّة يضربونه ويجذبونه من شعره، وبدأوا بتعذيبه. فأَسرع كلٌّ من جبير بن مطعم[٦٥١] وحارث بن حرب - حيث كان سعد قد أجارهما من قبل في بلاده وأنقذ تجارة لهما - فأخرجاه من بين أيدي

٦٥١ جبير بن مطعم رضي الله عنه، من أقرباء النبي ﷺ، بقي على الشرك ولم يسلم لمدة طويلة، وقد كان من جملة الهيئة التي قررت قتل الرَّسول ﷺ، وشارك مع المشركين في غزوة بدر، وفي غزوة أحد قتل عبدُه وحشي حمزةَ رضي الله عنه بتوجيه منه، وعقب صلح الحديبية بمدة قليلة دخل الإسلام عام/ ٦٢٨ م / ، وصدق في إيمانه، وكان راجح العقل لطيف المعشر، وقد روى ستين حديثاً نبوياً، وتوفي في المدينة المنورة سنة ٥٨ هـ/ ٦٧٨ م.

المشركين. وفي الوقت الذي كان المسلمون قد اجتمعوا يتحدثون فيما بينهم عن كيفية إنقاذه من بين أيدي المشركين، وصل إليهم سعد رضي الله عنه. [٦٥٢]

يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

«إن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا من المهاجرين لأنهم هجروا المشركين، وكان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك، فجاءوا إلى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام ليلة العقبة» [٦٥٣]

لم تكن بيعتا العقبة خاصَّة أو منحصرة باثني عشر أو خمسة وسبعين شخصاً، وإنما هي عقدٌ مع الله تعالى يلتزم به جميعُ المسلمين.

إن هذه الدُّنيا سوق لشراء الآخرة، ويتوجَّبُ علينا جميعاً الاشتراكُ من صميم قلوبنا في تلك البيعة التي جرت مع النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأن نقول كما قال الصحابة الكرام:«نِعمَ البيعُ».

لقد بات مصعبٌ رضي الله عنه لبنةَ الإسلام الأساسيةَ في المدينة المنورة، وعلينا نحن أيضاً أن نغرس أسس الإسلام في القلوب، فعلى المبلِّغ - إن احتاج الأمر - أن يطرق أبواب البيوت باباً باباً، وعليه أن يكون قدوةً بلسان حاله قبل قوله، فإن امتلأ قلب الداعي والمبلِّغ بمحبَّة الله تعالى ورسولِه عندها يستطيع أن يضحِّيَ بحظوظه الدنيوية في سبيل الإسلام.

---

٦٥٢ ابن هشام: السيرة، ٢، ٧٤- ٧٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٢١- ٢٢٣، ٣، ٦٠٢- ٦٠٣؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٢٢، ٤٦١، ٤٦٢/ ١٥٧٩٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٤٢- ٤٤.

٦٥٣ النسائي: البيعة، ١٣/ ٤١٦٦.

الملاذُ الأخيرُ للأنبياءِ: الهجرةُ «السنة ١٣ للبعثة»

الإذنُ بالهجرةِ إلى المدينةِ

لما علم المشركون بعد بيعة العقبة الثانية أن المسلمين سوف يهاجرون إلى مكان يلقَون فيه الحمايةَ والملجأ والأمان، زادوا من وتيرة إيذائهم لهم بدرجة كبيرة، وبلغ المسلمون حالةً لم يعودوا معها يطيقون العيشَ في مكَّة بسبب شدة الظلم والعذاب والاضطهاد الذي يتعرَّضون له على أيدي المشركين، فعرضوا حالتهم البائسة على النبي ﷺ، وطلبوا منه الإذنَ لهم بالهجرة.

فأذن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لهم بالهجرة وأشار لهم إلى طرق المدينة، وقال:

«قَد أُرِيتُ دارَ هِجرَتِكُم، رَأيتُ سبخةً ذاتَ نخلٍ بينَ لابتينِ» [٦٥٤]

وأمرَهم بالاتجاه إلى الأنصارِ؛ أي: إخوتهم من مسلمي المدينة؛ ليحتضنوهم هناك، وقال:

«إنَّ اللهَ ﷻ قد جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنونَ بها»

وبعد ذلك تجهَّز المسلمون للهجرة خِفيةً دون أن يشعرَ بهم المشركون، فأعانوا بعضَهم البعضَ، وبدأوا بالهجرة إلى المدينة سرّاً. [٦٥٥]

وإنما كانت الهجرة إلى المدينة لأنَّ بلاد الحبشة التي هاجر المسلمون إليها في بداية الأمر واستُقبلوا فيها استقبالاً حسناً لم تكن حائزة على الشروط التي تؤهِّلُها لتكون مركزاً لدين شامل لكلِّ العالم، أما المدينة فقد كانت بلدة تتمتع بصفات هامة سواء من الناحية السياسية، أو التجارية، وكذلك في كثير من الجوانب مما يؤهِّلُها لأن تكونَ مركزاً للدين الإسلامي، ولذلك كان قدر تلك البلدة المباركة أن تكون وجهةَ الهجرة الجديدة.

وبهذا فقد أصبحت المدينة جاهزةً لتكون ملجأً ومأوى للمسلمين، وأصبح المشركون في حالة يخشون فيها على أنفسِهم، إذ إنَّ الإسلامَ قد خرج من مكَّة، واكتسب تأييداً كبيراً ولقي اعتباراً في المدينة، وهذا نابعٌ من عدم إدراك المشركين للضرر الكبير الذي أصابهم والكسب الذي فاتهم بسبب إساءتهم ومضايقتهم للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام من أجل

٦٥٤ البخاري: الكفالة، ٤، مناقب الأنصار، ٨٩/ ٣٩٠٥.

٦٥٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٧٦؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٢٦.

طرده وترحيله من وطنه، وفي الحقيقة هذا الأمر خسارة كبيرة بالنسبة لهم، ولكن لم يكونوا يبصرون، ولا يسمعون، ولا يشعرون، ولا يدركون.

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ:

﴿...وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [٦٥٦]

إن المشركين التعساءَ انخدعوا بقوَّتهم وسلطة أنفسهم في ذلك الوقت، وظنُّوا أنَّهم يُرهبون المسلمين ويُحبطونهم بالسخرية، والاستهزاء، والتهديد، والمقاطعة، والعنف، والتعذيب، واعتقدوا بأنهم بذلك يحافظون على نفوذهم ومركزهم في مكَّة، بينما في واقع الأمر كانوا سيشهدون في وقت قريب أحداثاً كثيرة! وينتظرون خسرانهم وتعاستهم المحقَّقة والمقدَّرة...

وذلك لأن تدفُّقَ مهاجرين إلى المدينة لم يكن بسبب خشيتهم على أنفسهم، وخوفهم من عدوِّهم، وإنما كانوا يهاجرون بهدف إنشاء أسس الإسلام بشكل محكم ومتقن.

لا ينبغي أن يُفهَم بأن الهجرة كانت هروباً يائساً يحمل في طيَّاته الذلَّ والمسكنة، لا، لم تكن الهجرة كذلك أبداً، وإنما كانت المدينة دار هجرة للمهاجرين حيث يجتمعون بإخوتهم المؤمنين الآخرين ويتحدون معهم، وإن خروجهم واستقرارهم فيها كان قراراً منهم من أجل إقامة حكم دين الله تعالى في المكان الذي هاجروا إليه.

ويبيِّنُ الشاعر المرحوم نجيب فاضل هذه الحقيقة في أبيات شعرية، حيث يقول:

الهجرةُ بحثٌ عن أملٍ   يبزغُ مـــن أيِّ البلدانِ
بحثٌ عـن زندٍ وذراعٍ   تَقوى في وجه الطغيانِ
بحثٌ عـن سيلٍ مقدامٍ   يجتـاز سدود الأوطانِ
بحثٌ عـــن فتحٍ مُنتظَرٍ   للقلب بنور الإيمـــانِ

ومن أجل ذلك فقد كان المهاجرون يتركون أموالهم ومنازلهم وأقرباءهم وكلَّ ما لديهم في مكَّة، وكان البعض يخرج إلى المدينة سرّاً والبعض الآخر جهراً.

---

٦٥٦ الإسراء: ٦٧.

يقول سيِّدنا عليٌّ رضي الله عنه:

«ما علمتُ أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً، إلا عمرَ بن الخطاب؛ فإنه لما همَّ بالهجرة، تقلَّدَ سَيْفَه، وتنكَّب قوسَه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عَنْزَتَه، ومضى قِبَلَ الكعبة والملأُ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكِّناً، ثم أتى المقام فصلى متمكِّناً، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، فقال لهم:

– شاهت الوجوهُ، لا يرغمُ الله إلا هذه المعاطسَ، من أراد أن تثكلَه أمُّه أو يؤتمَ ولده أو يرملَ زوجه، فليلقني وراء هذا الوادي.

فما تبعه أحدٌ إلا قومٌ من المستضعفين علَّمَهم وأرشدَهم، ومضى لوجهه» [٦٥٧]

وكان أهل المدينة يستقبلون إخوتهم القادمين من مكَّة ويأخذونهم بالأحضان، ويقدمون لهم العون والمساعدة بكلِّ رحابة صدر وسرور، ولذلك أُطلِقَ على القادمين من مكَّة اسم «**المهاجرين**»، وأُطلق أهل المدينة الذين استقبلوهم اسم «**الأنصار**».

حيثُ يقولُ الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٥٨]

لقد استخرجَ العلماءُ المسلمونَ من إعطاء الإذنِ بالهجرة للمسلمين الأحكامَ الآتية:

لقد كانت الهجرةُ في عهد النبي ﷺ فرضاً على المسلمين، وإن فرضيته باقية إلى يوم القيامة، وإذا كانت الهجرةُ قد انتهت بفتح مكَّة، فإن هذا الانتهاءَ محصورٌ بعهد النبيِّ ﷺ.

ولا يجوز للمسلم البقاءُ في بلد لا يتمكن فيه من إقامة شعائر الإسلام من أذان، وصيام، وصلاة وغيرها من الأحكام والشعائر الإسلامية، وإن الآية الآتية دليلٌ على ذلك، حيثُ يقولُ الله تعالى:

---

٦٥٧ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٤، ١٥٢– ١٥٣/ ١١٩٧.

٦٥٨ التوبة: ١٠٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلا﴾ [٦٥٩]

إن هذه الآية الكريمة تبيِّنُ أن الذين بقوا في مكَّة بين مجتمع المشركين ولم يهاجروا إلى المدينة هم من الذين ظلموا أنفسَهم، فهؤلاء قد رجَّحوا راحتهم، وعاداتهم، وعائلاتهم، وأملاكهم، ومصالحهم الشخصية على دينهم، ولهذا السبب لم تُقبل منهم معذرتُهم بقولهم: «**كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ**»، ومع ذلك فقد قُبلت معذرةُ من لم تكن لهم قدرةٌ على الهجرة من كبار السن، والضعفاء، والنِّساء، والأطفال.

ومن الأحكام الأخرى التي يمكن استنتاجها من حادثة الهجرة أنَّ مساعدة المؤمنين بعضَهم قدرَ المستطاع فرضٌ على المسلمين جميعاً مهما اختلفت بلدانهم أو تباعدت، وقد أجمع العلماء المسلمون على أن المسلمين يأثمون إذا ما كان هناك أفرادٌ منهم يتعرَّضون للظلم أو الأسر أو الاضطهاد في أيِّ بلد كان، ولم يقدموا على نجدتهم ومساعدتهم وتخليصهم مما يتعرضون له، إن كانت لديهم القدرة على ذلك.

لقد أولى نورُ الكائنات سيِّدُنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام الهجرةَ أهمِّية كبيرة، وظلَّ يطلب من المسلمين جميعاً أن يهاجروا إلى المدينة حتى فتح مكَّة، وذلك لأن البلدان الأخرى ما عدا المدينة كانت دار كفر، ومن الصعب على المسلمين أن يتعلموا عقائدهم وأحكام دينهم في تلك البلدان.

خطَّةُ المشركينِ للاغتيالِ

لما رأى المشركونَ أن مكَّة تفرغُ من قاطنيها يوماً بعد يوم، بدأوا يدركون رويداً رويداً أنَّهم كانوا يوهمون أنفسهم أنَّهم استطاعوا أن يقفوا في وجه الإسلام بما قاموا به من أعمال، فأسرعوا إلى عقد اجتماع في دارِ الندوة؛ منبع الفسادِ والخرابِ، وانضمَّ إلى الاجتماع شيخ متكلم من نجد، ولم يكن هذا الشيخ سوى الشيطان حيث دخل في صورة إنسان.

---

٦٥٩ النساء: ٩٧– ٩٨.

فتناقش القوم طويلاً حول ما يجب عليهم القيامُ به بشأن ما يواجهونه من مخاطر، وتم تقديم اقتراحات كثيرة من قبيل إلقاء القبض على النبيِّ ﷺ وحبسِه، أو طردِه وإخراجِه من مكَّة، وقد اعترض الشيطان على كلِّ الاقتراحات، وفي النهاية أجمعوا على أسوأ وأقبح فكرة وهي:

قتلُ رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام!..

وقدَّمَ هذا الاقتراحَ فرعونُ عصره أبو جهلٍ وفق الصيغة الآتية:

– والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ ، أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلة فتى شاباً جليداً نَسيباً وَسِيطاً فينا، ثم نعطي كلَّ فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم!

فقال الشيخ النجدي:

– القولُ ما قال الرجل، هذا الرأيُ الذي لا رأيَ غيرَه!. [٦٦٠]

فتفرَّق القومُ على ذلك وهم مجمعون له.

ولما اتخذ المشركون هذا القرار، كان النبيُّ ﷺ قد بقي وحيداً تقريباً في مكَّة؛ إذ إنَّ النبيَّ الشفوقَ على أمته كان قد أرسل أصحابه قبله إلى المدينة، ورجَّح أن يكون آخرَ المهاجرين كشاهدٍ على هجرة آخرهم، وكانت الإرادة الإلهيَّة تقتضي ذلك أيضاً، حتَّى إنَّ أبا بكر رضي الله عنه الذي كان رفيق رحلته المقدسة الوحيدُ، فعندما استأذنه من أجل الهجرة، قال له الرَّسول ﷺ:

«لا تعجَلْ! لعلَّ اللهَ أن يجعلَ لكَ صاحِباً!» [٦٦١]

فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسَه على رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ليصحبَه، وعلف راحلتين – كان قد اشتراهما بثمانمئة درهم عنده – ورقَ السمر أربعة أشهر. [٦٦٢]

ولما تحرك المشركون من أجل تنفيذ القرار الذي اتخذوه وتعاهدوا عليه، أذن الله عز وجل للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بالهجرة، يقولُ الله تعالى:

---

٦٦٠ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٣– ٩٥.

٦٦١ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٢.

٦٦٢ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [٦٦٣]

وبالإضافة إلى هذه الآية، فقد جاء جبريل عليه السلام إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وأخبره بالمؤامرة التي حاكها المشركون، وما يبيتونه له من شرٍّ، وقال له:

– لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشِكَ الذي كنتَ تبيتُ عليه. [٦٦٤]

فذهب النبي ﷺ في الهاجرة –حين يستريح النَّاسُ في بيوتهم– إلى أبي بكر؛ ليخبرَه بإذن الهجرة، ويبرمَ الاتفاق على مراحل الهجرة. فسأله أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسولَ الله؟ فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام: **نعم، الصُّحبة!**.

فسُرَّ أبو بكر رضي الله عنه بهذا الخبر سروراً عظيماً، حتَّى إنَّ دموع الفرح التي كانت تتفجر من ينابيع عيونه كانت تعكس بأجمل صورةٍ ما في قلبه الطاهر والنقي من فرح. [٦٦٥]

وبعد ذلك أرسل النبيُّ ﷺ في طلب سيِّدنا عليّ رضي الله عنه وأخبره بأمر الهجرة، ووكَّله بتسليم الأمانات التي عنده إلى أصحابها، وذلك لأنه ما من أحد في مكَّة إلا ويسلم أماناته القيّمة إلى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لعلمِهم بأمانته وصدقه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقد قال لعلي رضي الله عنه للحذر من مؤامرة المشركين:

– **«نم على فراشي، وتسجَّ ببُردي هذا الحضرميِّ الأخضر، فإنه لن يخلصَ إليك شيءٌ تكرهُه منهم!»** [٦٦٦]

إن تغطية النبي ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه ببُردِه يشكّلُ مثالاً على التبرُّك بآثار النبيِّ ﷺ، والأمثلة المشابهة لهذا كثيرة.

حيث إنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قد أرسل بُردَه إلى أُوَيسٍ القرني، الذي قال فيه: **«إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم!»** [٦٦٧]

٦٦٣ الإسراء: ٨٠.

٦٦٤ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٥.

٦٦٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٧– ٩٨.

٦٦٦ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٥، ٩٨.

٦٦٧ مسلم: فضائل الصحابة، ٢٢٣– ٢٢٥/ ٢٥٤٢؛ فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، ص، ١٢.

والأمر الآخر الملفت للانتباه هنا هو التسليم التامُّ من عليٍّ ﷺ لأمر الرَّسول ﷺ، وفي الواقع كان الصحابة الكرام لا يظهرون أيَّ ترددٍ أبداً في تسليم أمورهم للنبيِّ ﷺ، وكانوا يحرصون على اتباع أقوال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وأفعاله دون أدنى إهمال أو تقصير، فلم يسألوا يوماً لماذا أو لأي سبب، وإنما كان دأبَهم الإسراعُ إلى تنفيذ أوامره دونما استفسار عن الغاية، فكانوا يبذلون غاية جهدهم لتطبيق أيٍّ سنة من سننه، والعمل بمقتضاها دون استثناء، إذ إنَّهم يعلمون مدى الضلالة التي سيقعون فيها إن هم تركوا نهجَ الرَّسول ﷺ، ويخشون ذلك، لقد كان تعلق الصحابة الكرام بالقرآن الكريم وبالسنة المطهرة كتعلُّقِ الظلِّ بصاحبه. [٦٦٨]

يقول عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه:

«انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله ﷺ: «**اجلس**» وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفا، فنزل، وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: «**اصعد على منكبي**» قال: فصعدت على منكبيه، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه، قال لي رسول الله ﷺ: «**اقذف به**» فقذفت به، فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام نستبق حتى توارينا بالبيوت، خشية أن يلقانا أحد من الناس» [٦٦٩]

لم يكن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام قد خرج من داره بعدُ في ليلة الهجرة، حتى طوَّقه المشركون من كلِّ جانب، إلا أنه لم يكن يبدو على النبي ﷺ الذي كان في غاية التوكُّلِ على الله تعالى والتسليم له، لم يبدو عليه أيُّ أثرٍ للتردد، أو القلق، أو الخوف، فأخذَ النبيُّ ﷺ بيده المباركة قبضةً من التراب ونثرها على المشركين، وهو يقرأ هذه الآيات من سورة يس ليخرج من بين أيديهم:

٦٦٨ البخاري: الخمس، ١؛ مسلم: الجهاد، ٥٢؛ أبو داود: الخراج، ١٨؛ أحمد: مسند، ١، ١٠.

٦٦٩ أحمد: مسند، ١، ٨٤/ ٦٤٤؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٦/ ٤٢٦٥.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٦٧٠]

بالطبع لن يروه! لأنَّ عمى قلوبهم أعمى عيونَهم، وكذلك فإن المارَّ من بين أيديهم هو سيِّد العالمين ونور الكون سيِّدُنا محمَّد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، وبالتأكيد فإن القلوب والعيون العمياء لا يمكنها رؤية النور، وهكذا لم يروه!

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال:

– ما تنتظرون هاهنا؟

قالوا:

– ننتظر محمَّداً!

قال الرجل:

– خيَّبَكم الله! قد واللهِ خرج عليكم محمَّدٌ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضعَ على رأسه تراباً! وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

فوضع كلُّ رجل منهم يدَه على رأسه، فإذا عليه ترابٌ، ثم جعلوا يتطلَّعون إلى الدار، فرأوا عليّاً على الفراش مسجّىً ببُردِ رسول الله ﷺ، فقالوا:

– والله إن هذا لمحمَّدٌ نائماً، عليه بُردُه!

فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحُوا فانطلقوا إلى الفراش؛ ليروا مَن فيه، ولما استدار إليهم مَن كان في الفراش ونظر إليهم، تسمَّرَ المشركون في أماكنهم من شدة الدهشة مما رأوه، فلم يصدِّقُوا أعينَهم! لأن مَن كان أمامهم ليس الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وإنما ابنُ عمِّه عليٌّ ﵁! فقالوا:

– والله لقد كان صدقنا الذي حدَّثنا!

فصرخ المشركون بغضب في وجه عليٍّ ﵁:

– أين ابن عمِّكَ يا عليُّ؟

فقال عليّ ﵁:

٦٧٠ يس: ٨– ٩.

– لا أعلمُ! فلستُ رقيباً عليه! فقد طلبتُم منه الخروجَ من مكَّة! وقلتم: فارِقْنا، واذهب حيث شئتَ! فها هو قد خرج وفارَقَكم.

فوبَّخَ المشركون عليّاً، وعنَّفُوه، حتى إنَّهم أخذوه إلى المسجد الحرام فحبسوه هناك مدة، ثم أطلقوا سراحه.[٦٧١]

بينما كان المشركون البائسون المغلَقَّةُ قلوبُهم والبعيدون عن الحقيقة ينتظرون حول بيت الرَّسول ﷺ وهم يُبيِّتون له السوءَ والشرَّ، كان النبيُّ ﷺ قد وصل منذ زمن إلى بيت أبي بكر ﵁ تحت الأمن والرعاية الإلهيَّة؛ لأنَّ المشركين كانوا يدبِّرونَ أمراً، واللهُ ﷻ يدبِّرُ أمراً آخر، ولن يُمضيَ الله تعالى إلا أمرَه، وفي هذا الشأن يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٦٧٢]

الرِّحلةُ الشّاقَّةُ

وبعد خروج النبيِّ ﷺ ووصولِه إلى بيت أبي بكر الصِّدِّيق ﵁، فعرض عليه أبو بكر الصِّدِّيق أن يأخذ أحد الجملين اللذين أعدهما لهذه الرحلة، فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذه إلا بثمنه رغم رفض أبي بكر، وإصراره على تقديمه هدية لرسول الله ﷺ.

إن الرَّسول ﷺ الذي أخرجه ربُّه ﷻ قبل قليل من بين المشركين دون أن يروه، تحرَّكَ هذه المرة وفق سنة الله في الكون التي تقتضي الأخذَ بالأسباب؛ ليكون قدوةً لأمته من بعده، فخرج مع أبي بكر ﵁ من الجهة الخلفية للبيت، وأبقى الجملين هنا لعدة أيام.

وبتدبير احترازي آخرَ خرج في طريق معاكسٍ لاتجاه المدينة من أجل تضليل المشركين إن هم لحقوا به.

كان أبو بكر الصِّدِّيق ﵁ يمشي حيناً أمامَ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وحيناً آخر خلفَه، ولما لاحظ الرَّسول ﷺ هذه الحركة من أبي بكر ﵁، سأله عن سبب عمله هذا:

«يا أبا بكرٍ، مالَكَ تمشي ساعةً خلفي وساعةً بينَ يديَّ؟»

---

٦٧١ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٦؛ أحمد: مسند، ١، ٣٤٨؛ اليعقوبي: ٢، ٣٩.

٦٧٢ الأنفال: ٣٠.

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

– يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك.

فقال النبي ﷺ:

«يا أَبا بَكرٍ! لَو كانَ شَيءٌ لَأحببتَ أن يَكُونَ لَكَ دُونِي؟»

قالَ:

– نعم، والذي بعثك بالحق! ما كانَت لِتَكُن مِن مُلِمّةٍ إلّا أحبَبتُ أن تَكُونَ لِي دُونَك.

واستمرت الرحلة حتى وصلا إلى غار ثور.

فقال الصدِّيق رضي الله عنه:

– مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه، فأدخل يدي فأحسه وأقصه، فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك.

وبعد أن قام أبو بكر بتنظيف الغار، وأغلق جحور الحشرات، قال:

– انزل يا رسول الله!. [٦٧٣]

وفي هذه الأثناء جاء المشركون بقيادة أبي جهل إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، وسألوا أسماءَ عن أبيها، ولما أجابت بأنَّها لا تعلم أين يكون، لطموا وجهها حتى طُرح القُرطُ من أذنيها من شدة اللطمَ، ثم انصرفوا.

بقي نورُ الكون عليه الصَّلاة والسَّلام وصاحبُه في الغار مدَّةً من الزمن؛ ليحميا نفسيهما من المشركين الذين يبحثون عنهما في طرقات المدينة، وبطبيعة الحال كانت العناية الإلهيَّة ولطفه ترعاهما، فكلما أخفقَ تدبير العبد وانتهى، جاءَ دورُ النصر الإلهي، وقد تعقَّب بعض المشركين أثرَهما حتى وصلوا إلى باب غار ثور، لكنهم نظروا فوجدوا بباب الغار بيتَ عنكبوت يغطيه وكأنه لم يُمسَّ منذ زمن طويل، وعشّاً للحمام عند الباب، وقد نبتت بأمر الله تعالى شجرةٌ عند باب الغار ناحية النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام لتغطيَ وجهه، فلا يبقى مجالٌ لرؤيته. [٦٧٤]

فعاد المشركون وابتعدوا عن الغار بعد أن تأكدوا – حسب ظنهم – أنَّ النبيَّ ﷺ ليس فيه.

---

٦٧٣ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٢٢– ٣٢٢، ٤، ٩٤٤.

٦٧٤ ابن سعد: الطبقات، ١، ٩٢٢؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٢٢– ٤٢٢.

لقد كان المعينُ المشتركُ لهذين المهاجرين العزيزين، وملجؤهما، وحاميهما، وسندهما هو الحقُّ ﷻ، ولأجل ذلك فإن المشركين الذين جاؤوا إلى باب الغار لم يتمكّنوا سوى من رؤية عش الحمام، وبيت العنكبوت.

وبينما كانت تجري كلُّ هذه الأحداث في الخارج، كان أبو بكر ﵁ يعيش لحظات حساسة داخلَ الغار، حيث شعر بخوف شديد؛ ليس على نفسه، وإنما على رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام...

لأن المشركين إن مالوا قليلاً ونظروا إلى أسفل من أقدامهم فسوف يرونهم لا محالةَ، إذ كانوا يتجوَّلون حول الغار يمنةً ويسرةً، ويقولون:

– لو كانوا قد دخلوا الغار، لكان قد تكسَّرَ بيضُ الحمام، ولفسدَ بيتُ العنكبوت.

ولما قال بعضهم:

– لندخل الغارَ وننظر ما بداخله! قال أُميةُ بنُ خلف:

– أليست لكم عقولٌ؟ وما الذي تفعلونه في الغار؟ فهل ستدخلون هذا الغار الذي نسج العنكبوتُ بيته فوق بابه؟ والله إني أرى أنَّ هذا العنكبوت نسج بيته قبلَ ولادة محمَّد!

وأما أبو جهل فقال:

– والله إنِّي أظنه قريباً منا! ولكنَّه سحرَ عيوننا، وحجبها عن رؤيته! [٦٧٥]

وفي هذه الأثناء خاطب أبو بكر ﵁ الذي أصابه القلق، خاطب النبيَّ ﷺ بقوله:

– إن قُتِلتُ فإنما أنا رجلٌ واحد، وإن قتلتَ أنتَ هلكَتِ الأُمةُ.

لقد كان النبيُّ ﷺ قائماً يصلي، وأبو بكر يرتقبُ، فقال للرسول ﷺ:

– هؤلاءِ قومُكَ يطلبونكَ، أما والله ما على نفسي أخاف! ولكن مخافةَ أن أرى فيكَ ما أكرهُ.

فقال له النبيُّ ﷺ:

«يا أبا بكرٍ، لا –تخَفْ–تَحزن إنَّ اللهَ معنا» [٦٧٦]

ويبيِّنُ الله تعالى هذه الحادثةَ في القرآن الكريم، حيث يقول:

---

٦٧٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٢٨؛ الحلبي: ٢، ٢٠٩.

٦٧٦ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٢٣– ٢٢٤؛ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٣٢٨– ٣٢٩.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٧٧]

يقول أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

- قلت للنبي ﷺ: وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا!

فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

- **«يا أبا بكرٍ، ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما»** [٦٧٨]

بعد كفاح امتدَّ ثلاثَ عشرةَ سنةً في مكَّة من أجل تبليغ وحي الله الذي نزل في غار حراء، كان غار ثور المدرسة الثانية للتعليم الروحي، لكنَّ مدرسة غار ثور تختلف عن مدرسة غار حراء؛ فكانت المدرسة هناك من أجل مشاهدةِ آثار أسرار القدرة الإلهيَّة، وقراءةِ الحِكم المدونة في كتاب الكون، فهو مدرسة الغوص في الأسرار الإلهيَّة، وكشف القلوب.

واستمرت الضيافة في الغار ثلاثة أيام بلياليها، لكنَّ رسول الله ﷺ لم يكن وحيداً، وإنما كان بصُحبة صاحبِه أفضلِ البشر وأعلاهم قيمةً وقدراً بعد الأنبياء والرُّسل سيِّدِنا أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، لقد وصل أبو بكر رضي الله عنه بصحبته للنبيِّ ﷺ في الغار - والتي دامت ثلاثةَ أيام - إلى أعلى مراتب الشرف، والعزَّة، والفضيلة، فقد نال صفة «**ثاني اثنين**». وتشرَّفَ بخطاب نور الكون ﷺ لصاحبه العزيز:

﴿...لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾ [٦٧٩]

كان رسول الله ﷺ يفضي إليه بسرٍّ أنَّ الله تعالى بمعيَّتهما، وكانت هذه البداية الأولى لتعليم الذِّكرِ الخفيِّ، ووصولِ القلوب إلى الاطمئنان بانفتاحها واتصالها مع الله عز وجل.

---

٦٧٧ التوبة: ٤٠.

٦٧٨ البخاري: فضائل الصحابة، ٢/ ٣٦٥٣، المناقب، ٤٥؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١/ ٢٣٨١.

٦٧٩ التوبة: ٤٠.

أي: إنَّ غار ثور هو مكانٌ لبداية التربية القلبية الأساسية التي تحمل العبدَ من فضاء الأسرار اللامتناهية إلى الوصل الإلهي، وهو المرحلة الأولى لهذه الرحلة الإلهيَّة.

إن جريانَ أسرار عوالم قلب النبيِّ ﷺ الذي هو منبعُ النور إلى أمته قد بدأ للمرة الأولى في هذا الغار بصحبة الصدِّيقِ أبي بكر ﷺ، فأصبح الحلقةَ الأولى للسلسلة الذهبية التي سوف تستمرُّ إلى يوم القيامة.

لقد أخذ الإيمانُ قوَّتَه من محبَّته للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، إذ إنَّ الدافع الأساسيَّ لكلِّ الرحلات العلوية هو محبته عليه الصَّلاة والسَّلام، والطريق الوحيد للوصول إلى الحقِّ سبحانه وتعالى يبدأ بمحبته عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ شرطَ الحب لأنَّ شرطَ الحبِّ وقانونَ العشقِ يوجب محبَّة ما يحبُّه المحبوب لمحبَّته، فالرابطة الروحية تحافظ على اتقادِ جذوة المحبَّة على الدوام، ولكنَّ فهمَ أسرار المحبَّة الإلهيَّة يحتاج فكراً سامياً، وقلباً سليماً.

نعتقد أن هذه الحادثة التي تعبِّرُ عن الرابطة القلبيّةِ لأبي بكر ﷺ تجاه النبيِّ ﷺ لها تأثيرٌ على كلِّ قلب حسب أفقه واستعداده:

فأبو بكر ﷺ كان في كلِّ صحبة له مع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يشعر ويتلذَّذُ بمتعةٍ ولذَّةٍ مختلفةٍ تماماً عن سابقاتها، وقد كان في شوق وحنين دائم إلى النبي ﷺ حتى عندما يكون بقربه؛ لنيلِه التجلِّيات الاستثنائية بسبب قربه واتصاله بأسرار النُّبوَّة.

ولذلك كان أبو بكر ﷺ عندما يقول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام:

«ما نفعَني مالٌ قطُّ ما نفعَني مالُ أبي بكرٍ»

يبكي وتنهمر الدموعُ من عينيه، ويقول:

- هل أنا ومالي إلا لكَ يا رسولَ اللهِ! [٦٨٠]

وبذلك فإنه كان يظهر بأنه فداءٌ للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بنفسِه ومالِه وبكلِّ ما يملك، وأنه فانٍ بالحبيب المصطفى ﷺ، وهذا المقام الروحي يُسمَّى في التصوف «الفناء في الرَّسول».

٦٨٠ ابن ماجه: المقدمة، ١١/ ٩٤.

أسند الرَّسول ﷺ في غار ثور رأسَه المباركَ على ساق أبي بكر؛ ليغفو قليلاً، ويرتاح من وَعْثاء السفر، وفي تلك اللحظات أبصرَ أبو بكر في مكان قريب منه ثقباً صغيراً في حائط الغار، فأسرع إلى وضع قدمه على فتحة ذلك الثقب دون أن يوقظَ النبيَّ ﷺ، وذلك ليمنع خروج أيٍّ من الحشرات الضارَّة منه خشيةَ أن تؤذي الرَّسول ﷺ.

وبالفعل تحقَّقَ بعد لحظات الامتحانُ الإلهيُّ الذي كان في فكرِ أبي بكر ﵁، حيث لدغت أفعى قدم أبي بكر ﵁ لدغة شديدة، وأفرغت سُمَّها في جسده، وعلى الرغم من حرص الصحابي الجليل على عدم إيقاظ النبي ﷺ أو إزعاجه، وعدم إتيانه بأية حركة، وتحامله على الألم الشديد الذي سبَّبته لدغةُ تلك الأفعى السامة التي أحرقت بسمِّها جسَده، إلا أنه لم يتمالك عينيه، فذرف الدمع، فتساقطت منه على وجه النبيِّ ﷺ المبارك قطرات، فاستيقظ النبي ﷺ على إثر ذلك من غفوته، وقال:

- «**ما بك يا أبا بكر؟**»

فقال أبو بكر ﵁:

- لا شيء يا رسولَ الله!

ولكنه اضطر إلى بيان الأمر بسبب إصرار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام. [681]

فمسح النبي ﷺ بريقه المباركِ على مكان لدغة الأفعى، فبرأ جرحُ أبي بكر ﵁ بإذن الله تعالى، وخفَّ ألمه واضطرابه.

ويقول الشاعر فضولي في معرض بيان كون الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام منبع الشفاء الماديِّ والمعنويِّ، واستفادة الصحابة من هذا الشفاء، فيقول:

«لو شرب أيٌّ من أصحاب الرَّسول ﷺ سمَّ الأفعى، فإن ذلك السمَّ ينقلب بالنسبة له إلى ماء الحياة، ولكن إن شرب أحد خصوم سلطان الأنبياء عليه الصَّلاة والسَّلام الماء، فإن ذلك الماءَ يتحوَّلُ في جوفه إلى سمِّ أفعى».

وهناك مثال آخر يعكس هذه الحقيقة، وهي الحادثة التي وقعت في عهد خلافة عمر بن الخطاب ﵁: فحسب الرواية أن امبراطورَ بيزنطةَ أرسل إلى عمر ﵁ كإشارة إلى حُسنِ النوايا سماً شديداً قاتلاً؛ لكي يستفيد منه عمر ﵁ ويستخدمه في القضاء على أعدائه، ولكن

٦٨١ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٤٧٧؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٢٣.

عمر ﵁ لم يستسغ ولم يلتفت إلى هذا العمل الذي كان طبيعياً بالنسبة للملوك الرومانيين الذين يقضون حياتهم بالحيل والمؤامرات، فأخذ قارورة السمِّ من يد الرَّسول الذي جاء بها وسمّى باسم الله، وشرب السمَّ أمام الرَّسول، فلم يُر عليه أيُّ تأثير للسم.[٦٨٢]

إن هذه الحوادثَ - أي: عدم التأثر بالسمِّ بإذن الله تعالى - لا تحدث إلا بحقِّ عبادٍ مُخلَصين استثنائيين من الذين قد نالوا نصيباً من عوالم قلبِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وتماهوا به.

لما سمع عمر بن الخطاب ﵁ في زمن خلافته بعض النَّاس يتحدثون عن فضله على أبي بكر الصِّدِّيق ﵁، قال:

- والذي نفسي بيده لتلك الليلة -لأبي بكر مع رسول الله- خير من عمرَ وآل عمر.[٦٨٣]

وخلال مكوثهما في غار ثور كانت أسماءُ بنت أبي بكر ﵄ تأتيهما بالطعام والشراب، وأما عبد الله بن أبي بكر فقد كان يقضي الليل بجانبهما في الغار بناءً على أمر أبيه، ويفارقهما وقت السحر، فيصبح نهارَه مع مشركي قريش في مكَّة؛ ليبدوَ وكأنه قضى الليل فيها، وكان عبد الله ذاك الشاب فائق الذكاء والفطنة يكون نهاراً مع المشركين، ويستمعُ إلى ما يقال بحق النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فيخبر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بمؤامراتهم ومخططاتهم.

وكان عامر بن فُهيرةَ مولى أبي بكر ﵁ يرعى دوابَّه مع رعاة أهل مكَّة، حيث يخرج معه في الصباح، وفي المساء لدى العودة إلى المنازل يُبطِئ الدوابَّ عنهم، فيبقى خلف الرعاة، وعندما يحل ظلام الليل يعود مع الدواب إلى غار ثور، فكان النبيُّ ﷺ وصاحبه العزيز أبو بكر الصِّدِّيق ﵁ يحلبان الدوابَّ ويأخذان حاجتهما من اللبن، وكانت تتم إزالة آثار أقدام عبد الله الذي يعود في الصباح مبكراً إلى مكَّة بآثار أقدام الدواب، وبذلك لا يُعرف له أثر، ولا يلفت انتباهَ أحد.[٦٨٤]

---

٦٨٢ وجاء في كتاب رسالة البسملة لمصطفى بن هلال الزغراوي، الصفحة، ٤٢: أن الذي شرب السمّ هو خالد بن الوليد ﵁.

٦٨٣ الحاكم: المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨.

٦٨٤ ابن هشام: السيرة، ٢، ٩٩؛ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ٥٣.

لم يفلح المشركون في العثور على النبي ﷺ وأبي بكر وقد ظلُّوا يبحثون عنهما لثلاثة أيام، فقطعوا الأمل من إيجادهما، ولما سمع النبيُّ ﷺ وصاحبه هذا الخبر من عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه، ركبا في اليوم الرابع الجملين اللذين أحضرهما الدَّليلُ وانطلقا.

ولقد كانت هذه الرحلة سبباً في حزن النبيِّ ﷺ على كلِّ الأحوال؛ لأنها فراق للأرض التي وُلِدَ وترعرع فيها.

ولأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام كان يُكِنُّ محبَّةً كبيرة لمكة المكرَّمة، حيث وقف ذات مرَّة في منطقة حزورة فاتَّجه إلى الكعبة والحرم، وخاطب مكَّة قائلاً:

«والله إنَّكِ لَخيرُ أرضِ الله، وأحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرِجتُ مِنكِ ما خَرَجتُ» [٦٨٥]

ومرة أخرى خاطب مكَّة، فقال:

«ما أطيبَكِ مِن بَلَدٍ وأحبَّكِ إليَّ! ولولا أنَّ قومِي أخرجُونِي مِنكِ ما سَكنتُ غَيرَكِ» [٦٨٦]

وجاءت مواساة النبيِّ ﷺ في حزنه بالوحي الإلهي، حيث قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...﴾ [٦٨٧]

إن هذه العبارة القرآنية تحمل بشارة العودة، وفي الوقت ذاته تتضمن أوَّل إشارات فتح مكَّة، لِتقلبَ الكدر والحزن الذي خيَّمَ على قلب الرَّسول ﷺ فرحاً وسروراً.

إن مسافة الطريق بين مكَّة المكرَّمة والمدينة المنورة تبلغ ما يزيد عن / ٤٠٠ كم/ ، وهذه المسافةُ تستغرق في تلك الأيام مسيرةَ ثمانية أيام على ظهور الجمال، فتابعت تلك القافلة المباركة مسيرَها على الطريق الطويل دون توقُّفٍ في الأربع والعشرين ساعة الأولى وفي ظروف جوية قاسية، إذ الطقسُ حارٌّ، والرمالُ ملتهبةٌ تحت أشعة الشمس.

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يعرف الكثيرَ من النَّاس على الطرقات بسبب رحلاته التجارية المتكررة إلى الشام، حيث كان بين الحين والآخر يذهب إلى هناك ويعود بالقوافل التجارية،

---

٦٨٥ الترمذي: المناقب، ٦٨/ ٣٩٢٥؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٠٥/ ١٨٧١٦.

٦٨٦ الترمذي: المناقب، ٦٨/ ٣٩٢٦.

٦٨٧ القصص: ٨٥.

وقد قابل في هذه الرحلة أحد الأشخاص الذين يعرفهم، ولما استفسر الرجل عن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام قائلاً: يا أبا بكر! من هذا الرجل الذي يسبقك؟.

أجاب أبو بكر ﷺ الذي لا يتخلَّى عن الحيطة والحذر:

- هو دليلٌ! يدلُّني على الطَّريق!

وأراد بهذا الكلام: أنه خير مَن يدلني على طريق النجاة، ولكن السائل فهم أنَّه دليل يعرف طرق الصحراء.[٦٨٨]

مرّ الرَّسول ﷺ، وأبو بكر الصِّدِّيق ﷺ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أُريقطٍ[٦٨٩] الذي كان دليلَهم في الرحلة بخيمة في منطقة قُديدٍ، وهي لامرأة تُدعى «أمَّ مَعبَد»، حيث كانت تعمل على تقديم الطعام والشراب وتلبِّي احتياجات المسافرين الذين يمرُّون بها، فطلب مسافرو المدينة المباركون اللبنَ من أمِّ معبد.

لقد كانت لأم معبد شاة ضعيفة وهزيلة ليس في ضرعها حليب، حتَّى إنَّها لا تقوى على اللحاق بالقطيع إلى المراعي، فتبقى عند أمِّ معبدٍ في الخيمة، ولما استأذن الرَّسول ﷺ بحلبِ الشاة، قالت أم معبد:

- بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها!

فجاء رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام بالشاة ومسَّها فدعا، وذكر اسم الله ﷻ عليها ومسح ضَرعها، ثم طلب إناءً فحلب فيه بيديه المباركتين حتى ملأه، وظلَّ يحلبُها ذاك اليوم حتى شرب من لبنها كلُّ مَن كان هناك.

وقد أخبرت أم معبد بأن تلك الشاة بقيت لديها على قيد الحياة إلى زمن القحط الذي وقع في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

وتقول أم معبد:

- لقد كنا نحلبُ تلك الشاةَ صباح مساء، حتى وإن لم تجد الدواب ما تأكله على وجه الأرض.

---

٦٨٨ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٣٣ - ٢٣٥؛ أحمد: مسند، ٣، ٢١١.

٦٨٩ كان عبد الله بن أريقط في ذلك الوقت مشركاً، ولكنه كان رجلاً أميناً يُعتمَد عليه، وأهلاً للثقة، واختُلف في دخوله الإسلام فيما بعدُ، ولكن الروايات التي تقول بإسلامه أقوى.

ولما غادر النبي عليه الصَّلاة والسَّلام وصحبه ذلك المكان، رجع زوجُ أم معبد إلى البيت، وعندما أبصر أبو معبد الكثير من اللبن في البيت قال:

– من أين لكِ هذا اللبن يا أم معبد والشَّاء عازِبٌ – أي: الغنم غائب بعيد – ولا حلوب في البيت؟

فقالت أم معبد:

– لا والله، إنه مَرَّ بنا اليومَ رجل مُبارَك من حالِه كذا وكذا، وقصَّت عليه الأحداثَ التي جرت ذلك اليوم.

قال أبو معبد:

– صِفيه لي يا أم مـعبد!

فبدأت أم معبد بوصف شمائل الرَّسول ﷺ بقولها:

– رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلا، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم، يتحدرن ربعة لا تشنأه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم، قدرا له رفقاء يحفون به، إن قال: سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مفند – أي: غير عابس الوجه، خالٍ من الخرافة –.

فقال أبو معبد لما سمع هذه الصفات الجميلة:

– هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

لقد دخل أبو معبد مع كامل أفراد عائلته السعيدة إلى الإسلام؛ لينالوا بذلك شرف صحبة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام. [٦٩٠]

---

٦٩٠ الحاكم: المستدرك، ٣، ١٠/ ٤٢٧٤، علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ٦٧١/ ٤٦٣٠٠.

لما عجز المشركون عن العثور على القافلة المباركة، رصدوا لمن يجدهم مكافأةً مالية، فانكبَّ الذين انبهرت عيونهم بهذه المكافأة إلى الطرقات بحثاً عن القافلة الميمونة، وكان من بينهم سُراقةُ بنُ مالك.

ولقد صادف سراقةُ الرَّسول ﷺ بعد البحث والتنقيب الطويل الذي قام به، وما إن أبصرته عيناه حتى حثَّ فرسه على الجري للإمساك به، ولكن فجأة ودونما توقع منه غرقت أرجل الفرس في بحر من الرمال، وسقط هو عن ظهرها.

وحاول جاهداً أن يخرج من تلك الرمال ليتقدَّمَ باتجاه النبي ﷺ، ولكن عبثاً حاول، وباءت محاولاته بالفشل، وعلى إثر ذلك أصابه الندم على ما فعل، فالتجأ إلى الرَّسول ﷺ يطلب منه العفو والصفح، فدعا له النبيُّ ﷺ، وبفضل هذا الدعاء خرجت فرسُ سراقةَ من بين الرمال، ولما رأى سراقة هذه المعجزة الإلهيَّة تغيَّرَ عالمُ قلبه وأصبح صديقاً للرسول ﷺ، ورجع وقد وعد بكتمان أمر القافلة المباركة عن المشركين، وصار سراقة يخذِّل المشركين القادمين إلى تلك الجهة أو يوجِّههم إلى ناحية أخرى لإبعادهم عن القافلة. [٦٩١]

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ سراقةَ بشارة ظلَّت تدوي في أذنيه على الدوام، وهذه البشارة جاءت في قول الرَّسول ﷺ له:

«كَيفَ بكَ إذا لَبستَ سِوَارَيْ كِسرَى ومِنْطَقَتَه وتاجِه؟»

وبالفعل لما فُتحِت بلاد فارس على أيدي المسلمين جِيء بسوار كسرى ومِنطقته وتاجه إلى المدينة المنورة، فأرسل عمر بن الخطاب ﷺ وراء سراقةَ فحضر، فألبسه عمر السِّوار، والمنطقة، والتاج، وقال له:

– يا سراقة! ارفع يديك، وقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة رجلا أعرابيا، من بني مدلج. [٦٩٢]

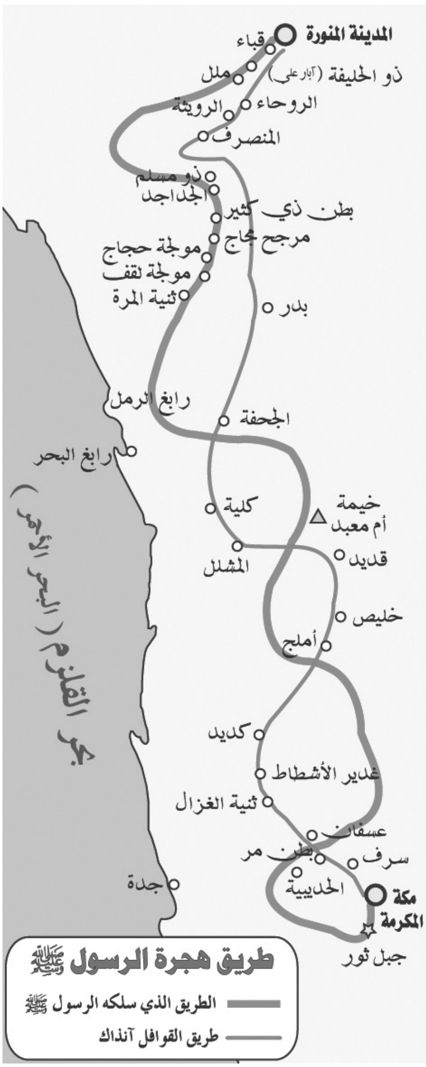
ولما وصل الرَّسول ﷺ إلى مكانٍ يقال له: الغميم، التقى ببُريدةَ بن الحُصيب وقومه، فدعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا له، ونالوا شرف الإسلام وصاروا من أتباعه، وفي ليلة ذلك اليوم علّم الرَّسول ﷺ بريدة مطلع سورة مريم. [٦٩٣]

٦٩١ انظر: مسلم: الزهد، ٧٥/ ٢٠٠٩.

٦٩٢ ابن الأثير: أسد الغابة، ٢، ٣٣٢/ ١٩٥٥؛ ابن حجر: الإصابة، ٢، ١٩/ ٣١٢٢.

٦٩٣ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٤٢.

وحلَّ بريدةُ عمامته البيضاء التي على رأسه وقال:



- يا رسول الله، اجعلني حامل رايتكم!

وبهذا قام بحمل راية الرَّسول ﷺ حتى قرية قباء.

وبعد انصراف القافلة المباركة عن بريدة وقومه التقت بقافلة تجارية قادمة من الشام، وكان من ضمن رجال القافلة الزُّبيرُ بن العوام، فألبس الزبير كلاً من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وأبا بكر الصديق رضي الله عنه حلَّةً بيضاء. [٦٩٤]

كانت القافلة الميمونة تقترب خطوة فخطوة من المدينة المنورة، وها هو الرَّسول ﷺ يتابع وظيفته النبوية، ويدعو كلَّ من يصادفهم في طريقه إلى الإسلام، ويبيِّنه لهم على الرغم من استنفار المشركين ومحاولاتهم المتكررة من أجل قتله والقضاء على الدعوة، ورغم كلِّ الأخطار والمصاعب الأخرى التي تعرَّض لها. حيثُ يقولُ الصحابي الجليل سعدٌ الدليلُ[٦٩٥] رضي الله عنه:

«أتانا الرَّسول ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت لأبي بكر عندنا بنتٌ مُسترضَعة، وكان النبي ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة فقلنا له: هذا الغائر من ركوبة، وبه لصان من أسلم يقال لهما المهانان، فإن شئت أخذنا عليهما، فقال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام:

«خذ بنا عليهما»

---

٦٩٤ البخاري: مناقب الانصار، ٤٥.

٦٩٥ اشتُهر هذا الصحابي المبارك بصفة «الدليل» لأنه دل الرَّسول عليه الصلاة والسلام على الطريق المختصر المؤدي إلى المدينة، وكان دليلاً له على طريق ركوبة.

فخرجنا حتى إذا أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه: هذا اليماني.[٦٩٦] فدعاهما رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما، فقالا: نحن المهانان، فقال النبي ﷺ:

«**بل أنتما الـمُكرَمان**» وأمرهما أن يقدما عليه المدينة.[٦٩٧]

المسافرُ العزيزُ المُنتظَرُ

لقد كان أهل المدينة في غاية الحماس والسعادة عندما سمعوا بخروج النبيِّ ﷺ في طريقه إلى المدينة، وكانوا يراقبون بشوق كبير طريق ذلك المسافر المهاجر المبارك، وقد خرجوا إلى أطراف المدينة منتظرين بلهفة واشتياق ليستقبلوا تلك القافلة المنيرة، وليقتطفوا جزءاً من كرم قافلة السعادة الأبدية تلك.

وفي النهاية، وفي يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوَّل من السنة الرابعة عشرة للنُّبوَّة تردَّدَ صدى صوت من حناجر المسلمين ملأ الآفاق بهجة وفرحاً ينادي:

«ها قد جاء! ها قد جاء ذاك المسافر المنتظر المبارك!..».

وبهذا الخبر الذي حمل بشرى الخير والبركة بدأت أصوات التكبير تعلو وتتردد في سماء المدينة؛ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

انطلق المسلمون – منهم من يمتطي حصانه، ومنهم من تسعى به قدماه – مسرعين إلى استقبال ذاك القادم الـمُنتظر، والمهاجر الـمُبارك.ولما وصلت تلك القافلة المباركة المنتظرة إلى قباء قرب المدينة المنورة تحت الحماية والرعاية الإلهيَّة، بدأ المكان يضجُّ ويغلي، وتحوَّلت الدُّنيا إلى مهرجان للسعادة.

كانت النغمات اللاهبة لنشيد «طلع البدر علينا» المتعالية من التلال تشقُّ عنان السماء أمواجاً أمواجاً، وتبعث البهجة والحماسة في القلوب، وكان التاريخ يُسجِّل في تلك اللحظات بداية «التقويم الهجري» الذي سوف يوثِّقُ ويفهرسُ كلَّ الأحداث التي ستقع في العالم إلى يوم القيامة.

---

٦٩٦ كانا يقصدان بهذا القول النبي ﷺ، وذلك لأن مكة تقع في منطقة تهامة، وكانت تهامة تُعد داخل الحدود اليمنية، ولهذا السبب كان يقال للكعبة: «الكعبة اليمانية» (ابن الأثير: النهاية، ٥، ٣٠٠)

٦٩٧ أحمد: مسند، ٤، ٧٤/ ١٦٦٩١.

لقد كان أغلب القادمين إلى مراسم الاستقبال لا يعرفون مَن كان سبب وجود الكائنات، وسيِّدَ العالمين سيِّدَنا محمَّداً المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنهم لم يتشرَّفوا برؤيته والنظر إلى وجهه المنير من قبلُ، وقد ظنُّوا لفترة أن سيِّدنا أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه هو النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

كان الرَّسول الأكرم سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام في حالةٍ من الصمت، وعندما جاءت فوقه أشعة الشمس أسرع أبو بكر رضي الله عنه إلى النهوض وبدأ يظلله بردائه؛ ليقيَه حرَّ الشمس، وعندها فقط تمكن المسلمون من التعرف على نور الكون. [٦٩٨]

وأصبحت المدينة اعتباراً من هذا اليوم فصاعداً مكاناً لازدهار الإسلام وتقدمه، ومرآتَه التي ينعكس فيها، وبهذه الهجرة ذبل وجه الكفر المظلم وبدأ بالاضمحلال، واكتسب مسجد السعادة في قباء معنىً علوياً سامياً، وبقي مكاناً مقدَّساً يحمل ذكرى طيبة لهذه الهجرة المباركة إلى يوم المحشر.

وها هم الأنصار يعرضون أموالهم وأملاكهم على المهاجرين: فيقول أحدهم:

«هذا كلُّ مالي! خذ نصفَه وليكن ملكك!.»،. وبذلك تمَّ بناء أساس أخوة إسلامية لا يُعلَى عليها في التضحية والفداء والإيثار، لقد أصبحت المدينة مظهراً للموقع الذي لا يضمحل والاعتبار الذي لا يتلاشى في التاريخ الإسلامي، وقد أصبح الأذان، والصيام، والزكاة، والمعارك في المدينة نموذجاً ومثالاً للأمة بتجلٍّ وسموٍّ مختلف.

ثم إن نور الكون ﷺ بقي ضيفاً في بيت كلثوم بن هدم من أبناء عمرو بن عوف خلال تواجده في قباء، وقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام يخرج من هذا البيت، فيذهب إلى بيت سعد بن خَيثمةَ، ويجلس هناك مع المسلمين ويتحدث معهم.

ولأن سعدَ بنَ خَيثمةَ رضي الله عنه كان شابّاً غير متزوِّج فقد كان المهاجرون غير المتزوجين يقيمون في بيته، ولهذا السبب أطلقَ على بيت سعدٍ اسم «منزل العُزَّابِ» [٦٩٩]

وفي الأيام التي قضاها النبي ﷺ في قباء كان يشارك النَّاس في تشييع الجنازات، ويعود المرضى، وينضمُّ إلى الدعوات.

---

٦٩٨ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥.

٦٩٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٠؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٣٣.

ينقل لنا أبو سعيد الخدري ﷺ ذكرى تعود إلى تلك الأيام الجميلة والتي تبيِّنُ مدى دقة وحساسية الصحابة الكرام، فيقول:

«لما قدم النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام المدينةَ كنا نذهب إليه ونخبره إذا مرض أحدُنا وكان على فراش الموت، فيأتي ليجلسَ عند رأس المريض، ويستغفرَ له، وكان لما يموت المريض يرجع مع الذين من حوله، وأحياناً كان ينتظر حتى يتمَّ دفن الجنازة.

فشعرنا بالقلق حول التعب والإرهاق الذي نسبِّبه له نتيجةَ هذا الأمر، فقلنا لبعضنا:

- دعونا لا نخبر النبيَّ ﷺ بشيءٍ عن مرضانا حتى الموت، فإن تُوفِّي المريضُ نذهب إليه ونخبره، وهكذا فلن يتعب، ولن يضيع وقته.

وبدأنا نعمل بهذه الشاكلة، فلما كان يموت مريضنا نذهب إلى الرَّسول ﷺ ونخبره الخبر، فيأتي ويصلي عليه، ويستغفر له، ثم يعود إلى بيته، وفي بعض المرات كان يشيع الجنازة حتى الدفن. واستمر الأمر على هذه الحال مدة من الزمن، فقلنا:

- والله لا ينبغي أن نفعل هذا أيضاً، فهذا أيضاً يرهق الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، دعونا إذا مات لنا مريض نأخذ الجنازة إلى باب بيت النبيِّ ﷺ، فيصلِّي عليها هناك، وهذا الأمر أسهل عليه، وعملنا على ذلك.

يقول راوي الحديث محمَّد بن عمر:

«لهذا السبب فقد سُمِّي المكان الذي تُقام فيه صلاة الجنازة بالمصلى. حيث كانت تُؤخذ الجنائز إليه، وبعد وفاة النبي ﷺ استمرَّ الأمر على هذا النحو» [٧٠٠]

وبينما كان رسول الله ﷺ في قباء، كان عليُّ بنُ أبي طالب كرم الله وجهه قد أدَّى الأماناتِ التي كلف بردها إلى أصحابها، ولحقَ بالنبي ﷺ فأدركه هناك.

هناك روايات كثيرة تُظهر مدى المحبَّة العظيمة التي كان يكنُّها الصحابة الكرام للنبي ﷺ وذكرياته وآثاره العزيزة على قلوبهم، حيث يصفُ الصحابي البراء بن عازب[٧٠١] ﷺ رغبة أبيه الدائمة في سماع شيءٍ من ذكريات النبيِّ ﷺ كلما سنحت له الفرصة في ذلك، فيقول:

٧٠٠ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٥٧؛ الحاكم: المستدرك، ١، ٥١٩/ ١٣٤٩.

٧٠١ براء بن عازب ﷺ، هو رجل من الأنصار، ويُكنى بأبي عمار، أسلم قبل الهجرة، وشارك بعد معركة أحد في كل المعارك والغزوات، توفي في الكوفة سنة ٧٣هـ، وروى عن النبي ﷺ ما يزيد على ثلاثمائة حديث.

«اشترى أبو بكر ﵁ من عازب – أبي – رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب:البراء فليحمل إلي رحلي. فقال عازب: لا، حتى تحدثنا: كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟.فقصَّ أبو بكر ﵁ رحلةَ الهجرة على أبي بالتفصيل» [٧٠٢]

المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى: مسجدُ قباء

لقد نزل النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في قباء حيث الموقف الأوَّل لرحلة الهجرة، نزل ضيفاً على بني عمرو بن عوف مدة أربع عشرة ليلة، وتمَّ بناء مسجد قباء الذي اكتسب شهرة عظيمة في هذه الفترة، وقد شارك الرَّسول ﷺ بنفسه في أعمال بناء هذا المسجد.

إن مسجد قباء هو أوَّل مسجد بُني في الإسلام، وله مكانة عظيمة؛ لأنه بُني خلال حادثة بالغة الأهمِّية، وهي هجرة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وورد ذكر هذا المسجد في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [٧٠٣]

وقد قال أبو هريرة ﵁:

«أن قول الله تعالى في هذه الآية، نزل في أهل قباء» [٧٠٤]

لقد قام المهاجرون الأوائل عندما كانوا يصلون إلى قباء بتسوية الأرض التي يُجفِّف عليها بنو عمرو بن عوف تُمورَهم، وبدؤوا بإقامة الصَّلاة عليها، ولأن سالماً مولى أبي حذيفة ﵁ كان من الذين يعرفون قراءة القرآن الكريم بشكل حسن فقد كان يؤمُّ بالمهاجرين الأوائل.[٧٠٥]

---

٧٠٢ البخاري: أصحاب النبي، ٢/ ٣٦٥٢؛ أحمد: مسند، ١، ٢.

٧٠٣ التوبة: ١٠٨. وفيما بعد لما اعتمد عمر بن الخطاب ﵁ التقويم الإسلامي ابتداءً من الهجرة استند إلى قوله تعالى: «مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ». (سمهودي، ١، ٢٤٨)

٧٠٤ الترمذي: التفسير، ٩/ ٣٠٩٩؛ أبو داود: الطهارة، ٣٢/ ٤٤؛ ابن ماجه: الطهارة، ٣٥٧.

٧٠٥ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤، ٣١١.

فقام الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بتوسيع هذه الساحة التي كان يصلي فيها المهاجرون الأوائل، وبنى عليها مسجد قباء، لقد كان المسجد على شكل مربع، وأبعاده هي: ٣٢. ٣٢م. وقد طلب النبي عليه الصَّلاة والسَّلام من أهل قباء إحضار الحجارة، فأخذ من أحدهم حجراً ووضعه على جهة القِبلةِ، ثم أمر أبا بكر الصِّدِّيق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بوضع الحجارة على هذا الترتيب.

كان عمار بن ياسر رضي الله عنه أكثر النَّاس جهداً ونشاطاً في بناء المسجد، ولذلك كان يُقال عنه:

«الرجل الذي بنى أوَّل مسجد في الإسلام» [٧٠٦]

وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يعمل ويقول الشعر في الوقت نفسه؛ ليخفف آثار التعب والإرهاق عن المؤمنين. [٧٠٧]

وعُيِّنَ سعدٌ القرظي مؤذِّناً لمسجد قباء.

لقد كانت فعاليات التربية والتعليم تستمرُّ في المسجد النبوي وفي مساجد المدينة التسعة الأخرى، كما هو الحال أيضاً في مسجد قباء، ويقوم النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بمتابعة هذه الفعاليات والإشراف عليها في كلِّ قدوم له إلى هذه المساجد. [٧٠٨]

وقد كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يأتي أيام السبت إلى قباء؛ إما راكباً أو راجلاً، ويصلي ركعتين في مسجدها.[٧٠٩] وقد أوصى النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام المسلمين بهذا الأمر في إحدى أحاديثه الشَّريفة، حيث يقول:

«مَن تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة»[٧١٠]

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس، ويقول:

«لو كان بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل»[٧١١]

٧٠٦ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٤.

٧٠٧ كامل ميراس: ترجمة التجريد، ٠١، ١٠٦.

٧٠٨ حمد الله: نبي الإسلام، ٢، ٧٧١.

٧٠٩ البخاري: فضائل الصلاة، ٣، ٤؛ مسلم: الحج، ٥١٦.

٧١٠ ابن ماجه: الإقامة، ١٩٧/ ١٤١١؛ النسائي: المساجد، ٩.

٧١١ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤٥؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٢، ٢٦٤/ ٣٤٩٦٧/ ٣٤٩٦٨.

لقد تمَّ توسيع مسجد قباء في زمن عثمان بن عفان ﷺ، وفي زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وفيما بعد تمَّ القيام بالكثير من أعمال الإصلاح والتجديد، وقد تمَّ في العام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م هدم المسجد الذي كان قد بُني من قبل السلطان محمود الثاني بمنارة واحدة، وسقف مسطح، هُدم من قبل المملكة العربية السعودية ليُبنى من جديد مع التوسيع على شكل قبَّةٍ وبأربع منارات.



صلاةُ الجُمعةِ الأولى في وادي رانُوناءَ

بعد أن أمضى النبيُّ ﷺ أربعة عشر يوماً في ضيافة أهل قباء، تحرَّك ومَن معه باتجاه المدينة، وقد كان ذلك يوم جمعة، وعند الظهيرة وصلوا إلى «وادي رانوناء»، حيث دخل وقت صلاة الظهر، فنزل الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن ظهر ناقته، وأقام هناك صلاة الجمعة التي فُرضت كعلامة على بلوغ الإسلام مرحلة القوة، وخطب في هذه الصَّلاة الخطبة الآتية:

الخطبة الأولى:

«يا أيها الناس،

توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا، واعلموا أن الله قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، من عامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياتي أو بعدي، وله إمام عادل أو جائر، استخفافا بها، أو جحودا لها، فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ولا زكاة له، ولا حج له، ولا صوم له، ولا بر له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه، ألا لا تؤمن امرأة رجلا، ولا يؤم أعرابي مهاجرا، ولا يؤم فاجر مؤمنا، إلا أن يقهره بسلطان، يخاف سيفه وسوطه. [٧١٢]

يا أيها الناس،

فقدموا لأنفسكم. تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [٧١٣]

---

٧١٢ ابن ماجه: الإقامة، ٧٨/ ١٠٨١.

٧١٣ ابن هشام: السيرة، ١، ١١٨ – ١١٩؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٥٢٤.

الخطبة الثانية:

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا من أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل يختار الله ويصطفي فقد سماه خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [٧١٤]

إن هاتين الخطبتين تُعتبران بمثابة ملخص عام للمواضيع الدينية في الإسلام، مثل: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات..

وتشير الخطبة إلى فرضية صلاة الجمعة أثناء الهجرة، وإلى أهمِّية وضرورة اجتماع المسلمين مع بعضهم.

الانتظارُ الحماسيُّ والمثيرُ في المدينةِ

لما همَّ النبيُّ ﷺ بالتحرُّك من قباء إلى المدينة أرسل الخبرَ إلى أخواله من بني النجار، فتسلَّحوا بدورهم، وجاؤوا إلى الرَّسول ﷺ، وألقَوا عليه السلام، ثم قالوا:

- تستطيع أن تركب ناقتك، فإنَّك بأمان. [٧١٥]

وبعد صلاة الجمعة ركب رسول الله ﷺ ناقتَه القصواءَ، وتوجَّهَ بصحبة أبي بكر ﵁، وأشرافِ بني النجار، وبقيَّةِ المسلمين إلى المدينة.

ولما أدرك أهل قباء أنَّهم سوف يُحرمون من شرف استضافة شمس العالمين وإمام الأنبياء عليه الصَّلاة والسَّلام، أصابهم الحزن لرحيله، وقالوا:

- يا رسول الله، أخرجتَ ملالاً لنا، أم تريد داراً خيراً من دارنا؟

---

٧١٤ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٥٢٤– ٥٢٥؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ١٢٤/ ٤٤١٤٧.

٧١٥ انظر: البخاري: مناقب الأنصار، ٤٦.

فقال الرَّسول ﷺ:

«أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة...»[٧١٦]

لقد كان جميع أهل المدينة يطمعون ويرغبون في استضافة النبي ﷺ في بيوتهم، إذ إنَّ كلَّ واحد منهم يرحِّبُ به ويتطلَّعُ إلى أخذه بيته، وقد اشتدَّ التنافس والجدال فيما بينهم حول هذا الأمر، وفي هذه الأثناء قال الرَّسول ﷺ مشيراً إلى ناقته القصواء:

«خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»[٧١٧]

أي: أنها تعرف أين تذهبُ بأمر الله تعالى.

وبهذه الطريقة حلت مسألةُ استضافة النبي ﷺ دون أن تُجرَحَ مشاعرُ أحد من الأنصار.

وبعد أن بركت الناقةُ في مكان أو مكانين ثم قامت منهما، اتَّجهت إلى منزلِ خالد بن زيد؛ أي: أبي أيوب الأنصاري ﷺ، وبركت أمامَ منزله، لقد غرق قلب الصحابيِّ الجليلِ صاحبِ الحظِّ السعيد بسعادة وسرور يعجز المرء عن وصفهما، وقال لرسول الله ﷺ يدعوه إلى بيته:

- مرحباً بك يا رسولَ الله، شرَّفتَ دارنا.

وبينما كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يتوجَّهُ إلى بيت أبي أيوب ﷺ، إذ استقبلته فتياتُ بني النجار بالدفوف وهنَّ ينشدْنَ:

نحنُ جوارٍ مِن بني النَّجَّارِ   يا حبَّذا محمَّدٌ مِن جارِ

فقال لهن سلطانُ القلوب ﷺ:

«أَتُحِبُّونِي؟»

قلن: إي والله يا رسول الله.

فقال وقد ملأه الفرح والسرور من حسن استقبالهنَّ له:

«الله يعلم إني لأحبكن!» [٧١٨]

---

٧١٦ مسلم، الحج، ٤٨٨/ ١٣٨٢؛ أحمد، مسند، ١٢، ٣٢٨/ ٧٣٧٠؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٣٣٩.

٧١٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٢– ١١٣؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٥٠١–٥٠٩.

٧١٨ ابن ماجه: النكاح، ٢١/ ١٨٩٩؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٢، ٥٠٨؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٣٤١.

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:

«ما رأيتُ أهلَ المدينة فرحوا بشيءٍ أشدَّ من فرحِهم برسول الله ﷺ! صعِدَ الرجال والنِّساء فوقَ البيوت، وتفرَّقَ الغلمانُ والخدم في الطرق، ينادون: يا محمَّد! يا رسولَ الله! يا محمَّد! يا رسولَ الله!» [٧١٩]

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«ما رأيت يوما قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة» [٧٢٠]

وقد ذبح أهل المدينة جِمالاً تعبيراً عن شكرهم وسعادتهم بخبر تشريف الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام للمدينة. [٧٢١]

ويعبِّرُ الشاعر في بيتين من الشعر عن مدى محبَّة المؤمنين لرسول الله ﷺ، فيقول:

اسمُك يا شمس الأماني قد جاء وَفْقاً للـ «الأمانِ»
فمَن يعيشُ الوجدَ يومـاً تراه يطربُ بالأمـــــانِ

إن لفظة «الأمان» توافق اسم «محمَّد» بما يقابله بالحروف الأبجدية، حيث إنَّ كلّاً منهما يقابل الرقم ٩٢، وما عبَّر به الشاعر هنا على لسان العاشق من تكراره «للأمان» في كلِّ صرخاته هو في الحقيقة تعبيرٌ عن أن مراده هو ذكر اسم سيِّدنا النبي ﷺ، ويا له من إيجاد شاعري جميل في الحقيقة.

وبالهجرة المباركة تصل الفترة المكيَّة إلى نهايتها، لتبدأ الفترة المدنية للرسالة المحمدية.

٧١٩ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥؛ مسلم، الزهد، ٧٥.

٧٢٠ أحمد: مسند، ٣، ١٢٢/ ١٢٢٣٤؛ الترمذي: المناقب، ١/ ٣٦١٨.

٧٢١ أحمد: مسند، ٣، ٣٣١٠.

تحليلُ الفترةِ المكيَّةِ

يمكننا أن نجمع الإساءات والأذيات التي ارتكبها المشركون في مكَّة بحق المسلمين خلال فترة النُّبوَّة المكيَّة – والتي استمرَّت ثلاث عشرة سنة – في خمسة بنود، هي:

١. الاستهزاء.

٢. الاحتقار.

٣. التعذيب.

٤. تجريدهم من مختلف أنواع المعاملات التجارية والمدنية.

٥. العنف الشديد بحق المسلمين إلى درجة أصابهم بالإحباط ودفعهم إلى الهجرة.

وقد بيَّنَ الحقُّ سبحانه وتعالى أحوالهم هذه في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [٧٢٢]

وبالمقابل فإن المنهج الذي اتبعه الرَّسول ﷺ والذي كان ينزل عليه الوحي باستمرار من أجل تقويته وإعلامه بكيفية التصرف في المواقف هو:

١. بذل الجهد لزيادة المشاعر الروحانية في قلوب المؤمنين.

٢. إظهار الصبر والجلد تجاه المشقات والآلام.

٣. النصح بالموعظة الحسنة.

٤. متابعة الكفاح دون تنازل.

٥. إظهار التوكل والتسليم لله تعالى.

---

٧٢٢ المطففين: ٢٩– ٣٢.

ونتيجة الالتزام بهذه الأصول فقد وُفِّقَ الرَّسول ﷺ في دعوته على الرغم من كل شيء، وتمكَّنَ من تجاوز كلِّ العقبات والمعيقات التي واجهته في طريقه بنجاحٍ منقطعِ النظير، وكان من ثمرة هذه الرحلة الطويلة والمليئة بالآلام والمعاناة أن دخل أهلُ بلدةٍ استراتيجية من كلِّ النواحي كالمدينة المنورة الإسلامَ أفواجاً أفواجاً، فرغم عدم ذهاب الرَّسول ﷺ إلى المدينة المنورة للدعوة من قبلُ، وهو الذي قُذِفَ بالحجارة وطُرِدَ من الطائف التي كان قد توجَّه إليها بآمال كبيرة، فقد كبر الإسلام هناك ككرة ثلج كبيرة بالتأييد الإلهي، وخلال فترة قصيرة فتحت المدينة أحضانها لكلِّ المؤمنين وعلى رأسهم الرَّسول ﷺ.

يبيِّن أحد المفكرين مدى عظمة الدهاء الذي كان يتمتع به الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام انطلاقاً من نجاحه في دعوته، فيقول:

«إن كان عظم الغاية، وقلة الوسائل، وضخامةُ النتيجة هي المعايير الثلاثة للعبقرية، فمن ذا الذي يَجرُؤ أن يقارن أيّاً من عظماء التاريخ بالنبيِّ محمَّد ﷺ في عبقريته؟» [٧٢٣]

إن الله سبحانه وتعالى لم يأذن للمؤمنين بالهجرة إلا بعد فترة مليئة بالألم والمعاناة والقلق والاضطراب امتدَّت ثلاثة عشر عاماً، وبعد ثلاث عشرة سنة من الظلم والاضطهاد وصل المؤمنون إلى مرحلة الاطمئنان الإيماني، وامتلأت قلوبهم بالفيوضات الربانية وبالروحانية، وإنما وصل المؤمنون إلى ذلك بعد أن دفعوا ثمن إيمانهم.

لقد تمَّ في هذه الفترة ترسيخُ أسس الدولة والحضارة الإسلامية التي سوف تُقام في المدينة؛ لتكون نموذجاً ونبراساً لسائر البشرية، وتمَّت تنشئة أناس مؤمنين ضمن هالة من الوجد والفيوضات؛ لتتشكل منهم شخصيات قوية وجلدة ومستقيمة لا تعرف الضعف والانحناء أمام المصاعب والمشقات التي سوف يواجهونها، وقد أصبح هؤلاء النَّاس نجوماً متألقة تهتدي بها الأمة كلها.

---

٧٢٣ لامارتن: تاريخ تركيا.

خصائصُ الآياتِ المكيَّةِ

من المعلوم أنَّ الآياتِ الأولى التي نزلت من القرآن الكريم كانت تتعلَّقُ بأمور العقائد مثل: الدعوة إلى التَّوحيد، والإيمان بالبعث بعد الموت، وتبشير المؤمنين بالجنة، وترهيب الكافرين والعصاة بالنار، وبعد تقوية إيمان النَّاس بهذه المواضيع عن طريق إقناعهم بمختلف الأدلة، بدأ نزول الآيات المتعلِّقة بالمعاملات؛ لأنَّه لم يكن بالأمر الهين مفارقة النَّاس للمعتقدات الباطلة والعادات الفاسدة التي اعتنقوها وتعلقوا بها منذ مدة طويلة، إذ إنَّ العمل على تخليص وتطهير النَّاس من تلك العادات الفاسدة دون مراعاة التدرج، قد يكون سبباً في نفورهم وابتعادهم عما يُدعَون إليه. تقول أم المؤمنين السيِّدة عائشة رضي الله عنها:

«إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [٧٢٤]

وما نزلت سورة البقرة والنِّساء إلا وأنا عنده في المدينة» [٧٢٥]

إن ما يميِّزُ الآياتِ المكيَّةَ من حيث الأسلوب قصرُها وإيجازها، وتضمُّنُها مواقفَ حازمة وقطعية تجاه الشرك والوثنية؛ لأنَّ مشركي مكَّة كانوا من أصحاب الفصاحة والبلاغة، حيث كان دأبهم إجراء السباقات الشعرية والأدبية في هذا المجال، فكان من الواجب أن يكون الكلام الذي يُخاطَبون به في غاية الفصاحة والبلاغة من أجل التأثير فيهم.

وقد استخدم القرآن الكريم في بدايات السور الحروف المقطَّعة، وذلك على عكس ما اعتادت عليه العرب في الابتداء بكلامهم، من أجل تحدي المشركين الذين كانوا يتميَّزون بالمستوى العالي في الأدب والفصاحة، وتعجيز عقولهم، وإن السور التي تبدأ بالحروف المقطعة كلها مكيَّة ما عدا سورتي البقرة وآل عمران.

---

٧٢٤ القمر: ٦٤.

٧٢٥ البخاري: فضائل القرآن، ٦/ ٤٩٩٣.

وبسبب هذه الخصوصيات فإن الأسلوب الأدبي للآيات الأولى كان في غاية التأثير، إذ كان يأخذ بمجامع قلوب المخاطبين والمستمعين، وكأنه يسحر من يستمعون إليه من شدة جماله وروعته.

ومن خصائص الآيات التي نزلت في مكَّة أيضاً أنها تبدأ في غالبيتها بخطاب «أيها النَّاس» مع بعض الاستثناءات.

ومن أجل أن تلقى السورُ المكيَّةُ المتضمِّنةُ للكثير من الأمور المناقضة لقناعات المشركين وعاداتهم القَبولَ لديهم جاء في مواضعَ كثيرةٍ منها القسمُ بالأشياء المعتبرة لديهم مثل القسم بالشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، وغيرها، وذلك لأن هذه المخلوقاتِ الـمُقسَمَ بها كانت في الوقت ذاته تُظهرُ قدرة الله تعالى، وامتدادات القدرة التي تتجلَّى في الكائنات.

ومن جهة أخرى فقد نزلت أغلب قصص القرآن الكريم في الفترة المكيَّة؛ لأنَّ من خصائص الآيات المكيَّة التوقُّفُ عند هذه القصص كثيراً لأخذ العبر من الماضي، إذ إنَّ السور التي تتضمَّنُ بيان قصص الأنبياء والأمم السابقة - وخاصة تلك التي تذكر قصة آدم عليه السلام وإبليس - سور مكيَّة، والاستثناء الوحيدُ هنا هو سورة البقرة التي نزلت في المدينة.

لقد لعب بيان القصص المليئة بالعبر، والتي جرت على الأمم السابقة، لعب هذا البيان دوراً مهماً في تبليغِ الحقِّ لمشركي مكَّة وإصلاحِهم بصورة تدريجية، وقد أعطت الآيات التي ذُكِرَت فيها القَصصُ الأولويَّةَ لعقيدة «**التَّوحيد**» على الدوام.

إنَّ الآياتِ المكيَّةَ تضع قاعدة مهمة للقائمين بالتبليغ من حيث كيفيةُ تحركِهم ودعوتِهم للناس، إذ إنَّ قيامهم بالدعوة ليس من أجل المنافع الدنيوية، وإنما الغايةُ من ذلك نيلُ رضا الله تبارك وتعالى، وبالتالي فإن المتوجب عليهم ألا ينتظروا المكافأة على عملهم إلا من الله ﷻ، فالأنبياء الذين ذكرهم القرآن في سورة الشعراء؛ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، كانوا يأمرون قومهم على الدوام بتقوى الله وطاعته، ويقولون بأنهم مجرد رسل أمناء، ولا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً، حيث ينقل الله لنا قولهم:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٢٦]

٧٢٦ الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

إن النصف الثاني من القرآن الكريم نزل في أغلبه بمكة، ولأن أكثر أهل مكَّة كانوا يتصفون بالاستكبار فقد تكرَّرَ في القرآن الكريم لفظ «كلا» وذلك استنكاراً لحالتهم، وزجراً وتهديداً لهؤلاء المستكبرين، ولهذا السبب كانت السور التي ورد فيها لفظ «كلا» بتمامها مكيَّة، وكل ألفاظ «كلا» جاءت في النصف الثاني من القرآن الكريم.

وكذلك آيات السجدة نزلت كلُّها في مكَّة، فهذه الآيات تدعو الذين يسجدون لغير الله إلى السجود له وحده سبحانه وتعالى، وتسير بهم إلى سبل الكمال.

وإن هذه الآيات الأولى التي نزلت في مكَّة بيَّنت أن العادات القديمة باطلة ومنشؤها من الجهل ووضعت في الوقت عينه أسسَ الدساتير الأخلاقية الشاملة لكلِّ العالم.

وقد وضعَت الآياتُ المكيَّةُ أسسَ مجتمع سليم من حيثُ الإيمانُ، والأخلاقُ، والفِكرُ، إذ تضمنت هذه الآيات الأوامرَ والأحكامَ الأخلاقية، وقد جعلت هذه الآياتُ هدفَها الرئيسيَّ تقويةَ إيمان المؤمنين، وتجهيزَهم بخصائص مميزة مثل الصبر، والثبات، والعزم، والكفاح؛ وتطهيرهم من المعتقدات والعادات الباطلة.

وكما أن الآياتِ المكيَّةَ لم تتضمَّن مواضيعَ تشريعية وقانونية، فإنها لم تتضمَّن أيضاً الأحكام المتعلِّقة بالعبادات ماعدا الصَّلاة، ونضرب لذلك مثلاً سورة يونس، والرعد، والفرقان، ويس، سورتا الرعد والحديد ذُكر أنهما مدنيتان، والأرجح أن الرعد مكية، والحديد مدنية منها آيات مكية، فكلُّ هذه السور مكيَّة، ولا توجد في أيٍّ منها آيات الأحكام، حيث إنَّ هذه السور تبيِّن بشكل عام أصولَ الإيمان، والخلق، وصفات الله تعالى، وقصص الأنبياء المليئة بالعبر والعظات، ومشاهد يوم القيامة.

فَترةُ النُّبوَّة

في المَدِينَة المُنَوَّرَة



القسم الثالث

السنة الأولى للهجرة

أيام النبي ﷺ الأولى في المدينة المنورة

لقد أضحت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة صفحة جديدة وبداية عهد تاريخي بالنسبة للمسلمين.

لم يكن النبي ﷺ في المدينة المنورة إنسانًا لاجئًا يبحث عن الأمان والحماية، وإنما كان على العكس من ذلك، إذ كان مهندس المستقبل، وقائد الأمة ومرشدها، ورئيس الدولة الإسلامية الوليدة. وباختصار فقد كان كل شيءٍ. لقد اكتسبت الدعوة الإسلامية وحياة المسلمين قوةَ دفعٍ عظيمةٍ نحو الأمام بمَقْدَم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

بقي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ضيفًا في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مدة سبعة أشهر، وذلك منذ مجيئه إلى المدينة وحتى بناء «المسجد النبوي». وقد كان لضيافة الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ماضٍ يمتد إلى عصور سابقة:

فقبل سبعة قرون مضت عندما علم التُّبَّعُ أبو كريب أحد ملوك اليمن الذي قدم في ذلك الزمان إلى المدينة «كانت تُسمى في تلك الفترة بيثرب»، عندما علم من علماء اليهود بأنه سوف يظهر نبي في مكة ثم يهاجر إلى المدينة المنورة، أقام هناك دارًا واستقر فيها، ثم قام التبّع بكتابة رسالة وختمها بالذهب وسلمها إلى أكبر علماء المدينة، وأمره إن لم يبلغ هو عهد ظهور هذا النبي بأن تُسلم هذه الرسالة كأمانة إلى الأجيال القادمة من نسله بالتناوب حتى تقديمها إلى سيد العالمين محمد المصطفى ﷺ عند ظهوره.[٧٢٧]

٧٢٧ ابن عساكر: ٣، ٣٣٤ – ٣٣٥؛ السمهودي: ١، ١٨٨ – ١٨٩.

لقد كان التُّبَّعُ في ذلك الزمان قد آمن برسول الله ﷺ، وأصبح من المسلمين.[٧٢٨]

وظل هذا البيت ينتقل من الآباء إلى الأبناء حتى وصل إلى ملكية أبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه سليل أحد علماء المدينة، وقد كان هذا البيت المبارك يقع في الجهة الشرقية من المسجد النبوي.

ولما علم مَن كان بيده رسالة التبّع بخبر مقدم الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة أرسل إليه رجلـًا أمينـًا وهو أبو ليلى من قبيلة سُليم لكي يسلمه تلك الرسالة، التقى أبو ليلى بالنبي ﷺ في طريق مكة، ولما أبصره الرسول ﷺ ناداه أن يحضر إليه، وسأله:

- أنت أبو ليلى؟

قال:

- نعم.

قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:

- ومعك تُبَّع الأول!

فبقي أبو ليلى متحيرًا وبدت عليه علامات الدهشة، فهو لم يكن يعرف النبي ﷺ بعد، وقال له:

- من أنت؟ فإني لست أعرفك ولا أرى في وجهك أثر السحر، فكيف علمت بأمر الكتاب الذي بيدي؟

فقال له الرسول ﷺ:

- أنا محمد! هات الكتاب!

فأخرج أبو ليلى الكتاب من مخبئه ودفعه إلى رسول الله ﷺ، ولما قرأ أبو بكر رضي الله عنه الكتاب قال النبي ﷺ ثلاث مرات:

- مرحبـًا بتبّع الأخ الصالح!

وأمر أبا ليلى بالعودة إلى المدينة المنورة، فعاد أبو ليلى إلى المدينة وبشر أهلها بمقدم نور الكون سيدنا محمد ﷺ إليهم، فقام كل فرد من أفراد المدينة بتكريمه بسبب هذه البشارة العظيمة.[٧٢٩]

---

٧٢٨ أحمد: مسند، ٥، ٣٤٠.

٧٢٩ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٣، ٣٣٥؛ ٤، ١٧٦؛ ١١، ١٣.

صاحب البيت: أبو أيوب الأنصاري ﵁

لقد أصر أبو أيوب الأنصاري ﵁ الذي نال شرف استضافة ومؤانسة سلطان الأنبياء عليه الصلاة والسلام مدة سبعة أشهر في بيته السعيد، أصر كثيرًا على أن ينزل الرسول ﷺ في الطابق العلوي من بيته، وقال:

– يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له:

– يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون في سفل البيت.

وأقام في الطابق السفلي من بيت أبي أيوب ﵁.

لقد كان أبو أيوب الأنصاري وعائلته من شدة محبتهم للرسول ﷺ وتبجيله، وتفانيهم في خدمته، يبدون حساسية بالغة في إظهار هذا الاحترام والتبجيل، فكان لا يضع فراشه في مكان يحتمل أن يكون فوق مكان نوم الرسول ﷺ في الطابق السفلي، وإنما كان يفرش لنفسه ولأهله بجانب الجدار لتجنب ذلك الاحتمال تأدبًا مع النبي ﷺ.

وذات يوم انكسرت له جرة ماء، وأُريق ما فيها على أرض البيت. فاضطرب أبو أيوب الأنصاري ﵁ وخشي من أن يتسرب الماء من سقف المنزل فتتساقط قطراته على ضيفه المبارك والكريم رسول الله ﷺ، ويتسبب ذلك في إزعاجه وإقلاق راحته، فتناول القطيفة الوحيدة التي كانت لديه ويتغطى بها هو وامرأته، وأخذ يمسح بها أرض الدار ويجفف الماء الذي انسكب عليها. ولما أصبح الصباح أسرع إلى نور الكون سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام راجيًا منه ومتوسلًا إليه بإلحاح أن ينتقل للسكن في الطابق العلوي من بيته، وعندما امتنع النبي ﷺ عن ذلك وقال له:

– إنه أرفق بنا أن نكون في السفل.

فقال أبو أيوب ﵁:

– إن كنت في الطابق السفلي فلن نخرج إلى الطابق العلوي!

عندها استجاب الرسول ﷺ لطلبه فغيّر مكانه، وانتقل للسكن في الطابق العلوي.[٧٣٠]

---

٧٣٠ مسلم: الأشربة، ١٧١/ ٢٠٥٣؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٦.

كان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه وعائلته خلال فترة استضافتهم للنبي ﷺ يعدون الطعام ويقدمونه لضيفهم الكريم بكل سعادة ورحابة صدر، وعندما تعود إليهم الصحفة وفيها بقية من الطعام كان أبو أيوب رضي الله عنه وعائلته يتتبعون آثار أصابع النبي في تلك الصحفة ليتناولوا منها الطعام تبركًا بآثار الرسول ﷺ فيها، وذات مرة أرسلوا إلى النبي ﷺ طعامًا فيه شيءٌ من البصل أو الثوم، فلم يتناول منه الرسول ﷺ، ولما لم يرَ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه آثار أصابع النبي ﷺ في الطعام، فتوجه إليه بسرعة والقلق بادٍ على وجهه، وسأل الرسول ﷺ:

يا رسول الله! أحرام هو؟ فقال النبي ﷺ: «**لا، ولكني أكرهه من أجل ريحه**». فقال أبو أيوب رضي الله عنه: فإني أكره ما تكره!.[٧٣١]

وبعد هذه الحادثة لم يقدموا لفخر الكائنات سيدنا محمد عليه أفضل الصوات وأتم التسليم طعامًا فيه شيءٌ من تلك النبتة.

إن هذه الحالة الراقية تعبر بأجمل صورة عن مدى رقة الرسول ﷺ ولطفه، وحساسيته الفائقة والمنقطعة النظير في حرصه على عدم التسبب بأدنى أذى أو إزعاج للناس أو للملائكة.

واستمر حب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه للرسول ﷺ وإجلاله والاهتمام به إلى ما بعد انقضاء فترة استضافته له في بيته. وقد تجلى هذا الحب والاهتمام في حرصه على نيل البشارة التي بشر بها الرسول ﷺ بشأن فتح اسطنبول، حيث قال النبي ﷺ:

«**لتفتحن القسطنطينية** «اسطنبول» **ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**» [٧٣٢]

إذ شارك رضي الله عنه في حصار اسطنبول مرتين على الرغم من تقدمه في العمر وبلوغه ما يربو على الثمانين عامًا ليكون ممن تشملهم تلك البشارة النبوية، وقد كان أول من يقدم روحه الطاهرة في سبيل هذا الفتح الذي سوف يتحقق في المستقبل. وقد بلغ به الأمر أن أوصى من حوله قبل وفاته قائلًا: ادفنوا جسدي في أبعد أرض تطؤها أقدامكم!.

وذلك ليكون دليلًا لجند المسلمين الذين سوف يأتون من بعده من أجل فتح اسطنبول.[٧٣٣]

---

٧٣١ مسلم: الأشربة، ١٧٠ – ١٧١/ ٢٠٥٣؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٦.

٧٣٢ أحمد: مسند، ٤، ٣٣٥/ ١٨٩٥٧؛ الحاكم: المستدرك، ٤، ٤٦٨/ ٨٣٠٠.

٧٣٣ انظر: ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٨٤ – ٤٨٥.

خدمة أنس بن مالك ﵁ للنبي ﷺ

يقول أنس بن مالك ﵁:

«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أخذ أبو طلحة بيدي. فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله! إن أنسًا غلام كيِّس فليخدمك، قال: فخدمتُه في السفر والحضر «عشر سنوات». والله، ما قال لي لشيءٍ صنعتُه: لم صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيءٍ لم أصنعْه: لم تصنعُ هذا هكذا؟»[٧٣٤]

وجاء في رواية أخرى حول دخول أنس ﵁ في خدمة النبي عليه الصلاة والسلام:

لما قدم النبي ﷺ المدينة المنورة سارع أهل المدينة من الأنصار برجالهم ونسائهم إلى تقديم الهدايا للضيف الكريم الذي وفد إليهم، وأما أم سُليم فقد أصابها الحزن والكآبة لأنها لم تجد في حوزتها شيئًا تقدمه هدية للنبي عليه الصلاة والسلام مثل بقية الناس، فلم تجد ما تفعله سوى أنها أمسكت بيد ابنها أنس وذهبت به إلى رسول الله ﷺ، وقالت له: يخدمك أنس يا رسول الله؟ فقبلَ النبي ﷺ طلبها، ودخل أنس في خدمته.[٧٣٥]

يقول أنس ﵁:

«كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا. فأرسلني يومًا لحاجة. فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «**يا أنيس! أذهبت حيث أمرتك؟**» قلت: نعم. أنا أذهب يا رسول الله!»[٧٣٦]

ويروي أنس ﵁ ذكرى أخرى له مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، حيث يقول:

«خدمت رسول الله ﷺ يومًا حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمتي، قلت: يقيل رسول الله ﷺ فخرجت إلى صبيان يلعبون، فجئت أنظر إلى لعبهم. فجاء رسول الله ﷺ فسلّم على الصبيان يلعبون، فدعاني رسول الله ﷺ فبعثني إلى حاجةٍ له، فذهبت فيها وجلس رسول الله ﷺ في فيءٍ حتى أتيته، واحتبست عن أمي عن الإتيان الذي كنت آتيها

---

٧٣٤ مسلم: الفضائل، ٥٢/ ٢٣٠٩؛ البخاري، الوصايا، ٢١/ ٢٧٦٨؛ أحمد: مسند، ١٩، ٤٧/ ١١٩٨٨..

٧٣٥ السمهودي: وفاء الوفا، ١، ٢٧١.

٧٣٦ مسلم: الفضائل، ٥٤/ ٢٣١٠.

فيه، فلما أتيتها، قالت: ما حبسكَ؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ في حاجةٍ له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سِرٌ لرسول الله ﷺ، قالت: فاحفظ على رسول الله ﷺ سِرّه.

قال ثابت – راوي الحديث –:

«قال لي أنس: لو حدّثتُ به أحدًا من الناس – أو لو كنت مُحدِّثًا به – لحدّثتك به يا ثابت!» [٧٣٧]

يتبين من هذه الحادثة أن رسول الله ﷺ كان يخاطب الصغار كما يخاطب أقرانه الكبار، حتى إنه يأتمنهم على بعض أسراره، وقد امتلأت صفحات حياته بمحبة الصغار والإشفاق عليهم والإحسان إليهم، إذ كان يتعامل مع الصغار بجدية دون الاستهتار أو الاستخفاف بمشاعرهم، وينزل إلى مستوى تفكيرهم، وكأنه يدخل إلى روح الصبي الصغير.

ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«**من كان عنده صبي فليتصابَ له**» [٧٣٨]

وقد لفت النبي ﷺ انتباهنا إلى الكيفية التي ينبغي علينا التعامل بها مع أطفالنا وصغارنا، حيث يقول:

«**أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم**» [٧٣٩]

لقد كان النبي ﷺ في حياته النموذجية قدوة وأسوة لنا حتى في كيفية تربية أطفالنا والتعامل معهم. لقد أدب الرسول ﷺ أنسًا أدبًا رفيعًا فريدًا من نوعه إذ لم يؤنبه مرة طيلة سنوات حياته، كيف استطاع عليه الصلاة والسلام وهو في سن الخامسة والخمسين عامًا من عمره أن يجد سبيلًا إلى روح أنس وهو ما يزال في سن العاشرة فيبني معه علاقة صداقة مثل من هم في عمره، ويمازحه مثل الكبار، وعند الضرورة يأتمنه على بعض أسراره، لقد تمكن أنس رضي الله عنه الذي تربى في كنف ورعاية رسول الله ﷺ على الرغم من صغر سنه من سلوك مسالك الكبار، فاحتفظ بالأسرار التي أفضى بها إليه رسول الله ﷺ وانتقلت معه إلى قبره، إن الارتقاء بأنس إلى هذا المستوى من الرشد والنضوج لهو – دون ريب – من ثمار المنهج التربوي النبوي الذي طبقه الرسول ﷺ والذي لا يدانيه أي منهج في الدنيا.

---

٧٣٧ أحمد: مسند، ٣، ١٩٥/ ١٣٠٢٢.

٧٣٨ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٣، ٥١٣/ ٥٥٩٨.

٧٣٩ ابن ماجه: الأدب، ٣/ ٣٦٧١؛ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ١، ٦٧/ ١٩٦.

عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار: المؤاخاة

لقد اعتبر النبي عليه الصلاة والسلام منذ بداية الدعوة كل الذين يدخلون في الإسلام متساوين فيما بينهم بغض النظر عن أعراقهم وقبائلهم وألوانهم، وعمل على تأسيس الأخوة الإسلامية وتمكينها بينهم. وقد آخى الرسول ﷺ بين المسلمين مرتين، فالمرة الأولى كانت قبل الهجرة، والمرة الثانية حدثت بعد الهجرة، وفي المؤاخاة التي وقعت في مكة المكرمة تم إعلان التآخي بين بعض المسلمين المنتسبين إلى قريش ومواليهم الذين أعتقوهم بعد الإسلام، فمثلًا تمت المؤاخاة بين زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب، وبين سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح، وبين بلال الحبشي وعبيدة بن الحارث.[٧٤٠]

إن المسلمين الذين ارتبط بعضهم مع بعض بهذا الشكل منذ فجر الإسلام الأول، قدموا نموذجًا آخر من الأخوة والارتباط بعد الهجرة أيضًا.

ومنذ اليوم الأول لوصول المهاجرين إلى المدينة المنورة دخل الأنصار في سباق فيما بينهم من أجل استضافتهم في بيوتهم ودورهم، حتى إنهم حين عجزوا عن تقاسم هؤلاء الضيوف - لشدة إصرار كل منهم على استضافة عدد أكبر منهم - اضطروا للجوء إلى القرعة من أجل تقاسم وتوزيع الضيوف على بيوت الأنصار.[٧٤١] وبعد مجيء النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بخمسة شهور آخى بين المهاجرين والأنصار شخصًا بشخص. وقد أجرى الرسول عليه الصلاة والسلام معاهدة الإخاء هذه في دار أنس بن مالك رضي الله عنه.[٧٤٢]

ونورد فيما يأتي أمثلة على هذه المؤاخاة، حيث تمت المؤاخاة بين:

أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد؛ وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك؛ وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ؛ وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت؛[٧٤٣] وبين بلال وعبد الله بن عبد الرحمن؛[٧٤٤] وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء؛[٧٤٥] وبين سالم ومعاذ بن ماعص؛[٧٤٦]

٧٤٠ ابن سيد الناس: ١، ٣٢١؛ ابن حبيب: ص، ٧٠؛ ابن عبد البر: الدرر، ص، ٩٠.

٧٤١ البخاري: الجنائز، ٣، مناقب الأنصار، ٤٦.

٧٤٢ البخاري: الأدب، ٦٧.

٧٤٣ ابن هشام: السيرة، ٢، ١٢٤ - ١٢٥.

٧٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٣٣، ٢٣٤.

٧٤٥ البخاري: الأدب، ٦٧.

٧٤٦ ابن عبد البر: ٢، ٥٦٧.

وبين عمار وحذيفة رضي الله عنهم أجمعين.[٧٤٧] وخلال إجراء هذه المؤاخاة تمت مراعاة التشابه من حيث الأمزجة والطباع بين الأطراف المتآخية.

فأخذ كل مهاجر عائلته وضمها إلى عائلة أخيه من الأنصار، وهكذا فإن كل من تم عهد الإخاء بينهم من الصحابة سوف يعملون معًا ويتقاسمون ما يجنونه من الكسب بالتساوي فيما بينهم، وقد قام الأنصار بإهداء الفائض مما يملكونه من الأراضي والبساتين إلى الرسول ﷺ، وقام النبي ﷺ بتوزيع هذه الأملاك وتقسيمها على المهاجرين، ولم يقف الأنصار عند هذا الحد من الكرم والمروءة، وإنما قدموا لرسول الله ﷺ العرض الآتي، حيث قالوا له:

«اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المئونة، ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا» [٧٤٨]

إن هذه المؤاخاة كانت تؤسس للعون والمساعدات المادية والمعنوية التي قدمها الأنصار لإخوانهم المسلمين المهاجرين من مكة والذين تركوا كل ما يملكون وراءهم، ففتحوا لهم ذراع المعونة والنصرة لكي يبدؤوا حياتهم الجديدة من نقطة البداية، وكانت هذه المؤاخاة تهدف إلى مواساة المهاجرين – الذين فارقوا بلادهم في سبيل دينهم – والتخفيف من حزنهم وإحساسهم بالغربة، وإنشاء روابط الاتحاد بين المسلمين بإشعار هؤلاء المهاجرين بدفء المدينة من خلال الاستقبال الجميل الذي لاقوه.

إن معاهدة المؤاخاة – التي جرت انطلاقًا من المحبة الإيمانية الصرفة البعيدة كل البعد عن المصالح المادية والرياء – قد تضمنت الكثير من البنود والحقوق في نواحي الحياة المتعددة مثل الحقوق المتبادلة، والمساواة، وتقديم المساعدة من أحد الطرفين للآخر، وحتى حق الميراث.[٧٤٩] فكان كل من الإخوة وليًا للآخر، ووارثًا له، إن عهد الإخاء هذا – والذي استمر فيما بعد مبدـًا أساسيًا من مبادئ المجتمع الإسلامي– قد جرى عليه تعديل فيما يتعلق بحكم الميراث وذلك بعد غزوة بدر، إذ تم نسخه بالوحي الإلهي، وتم حصر الميراث فيما بين ذوي القربى من جهة النسب فقط دون غيرهم.[٧٥٠]

٧٤٧ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٣٥/ ٥٦٥٧.

٧٤٨ البخاري: المزارعة، ٥/ ٢٣٢٥.

٧٤٩ البخاري: الكفالة ٢، الأدب، ٦٧.

٧٥٠ انظر: الأنفال: ٧٢ – ٧٥؛ البخاري: الفرائض، ١٦.

يقول ابن عباس ﵄ حول هذا الموضوع:

«كان المهاجرون لما قدموا إلى المدينة، يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزل قول الله تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ [751]

نسخ حكم الميراث بين المهاجرين والأنصار، وأصبح حق الأخوة بين المهاجرين والأنصار بالنصر والرفادة والنصيحة، بدلالة تكملة الآية نفسها:

﴿...وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ...﴾

فقد ذهب الميراث، وبقي له أن يوصي لأخيه بالمؤاخاة بشرط الالتزام بحدود الثلث» [752]

وقد تم بالمؤاخاة التي جرت بين المهاجرين والأنصار وضع حد نهائي للعداوة الدموية التي كانت مستحكمة بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة المنورة، وتأسست بين الطرفين أخوة أقوى من رابطة الأخوة بالدم، لقد كان المهاجرون والأنصار حريصين على لقاء بعضهم بعضًا، وعندما يلتقي أحدهم بالآخر يسارع بإلقاء التحية على أخيه ويبادره بالقول: «كيف حالك منذ أن رأيتك آخر مرة؟»، ويسأل عن أحواله وأموره، ولم يكن المسلمون من المهاجرين والأنصار عادة يمضون أكثر من ثلاثة أيام دون زيارة إخوتهم ورؤيتهم، والسؤال عن أحوالهم، حتى ورد المدح والثناء على هذه الأخوة في القرآن الكريم. يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[753]

لقد كان الرسول ﷺ يضع أسس المجتمع والدولة الإسلامية في المدينة المنورة. وقد كان من أول الأعمال الضرورية لتحقيق هذا الأمر بناء نسيج اجتماعي موحد قائم على

---

٧٥١ النساء: ٣٣.

٧٥٢ البخاري: التفسير، ٤، ٧/ ٤٥٨٠؛ أبو داود: الفرائض، ١٦/ ٢٩٢٢.

٧٥٣ الحشر: ٩.

أساس متين، وذلك لأن العناصر التي تحقق المساندة بالشكل الأمثل داخل المجتمع هي؛ المحبة المتبادلة بين أبنائه، والأخوة، والنصرة فيما بينهم، ولهذا السبب فإن هذه المؤاخاة التي حققها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قد صارت العامل الأهم في تشكيل مجتمع لم يشهد له التاريخ البشري مثيلًا.

إن التصنيف أو الصفة الوحيدة التي أخذها النبي ﷺ بعين الاعتبار في بناء أساس المجتمع الجديد هي الأخوة الإسلامية فقط، دون تمييز بين القبيلة، أو القومية، أو العِرق، أو المكانة الاجتماعية، أو المكانة المادية؛ وهكذا فكأنه قد وضع الفوارق والاختلافات التي تبدو على مجموعات الناس من النواحي الاجتماعية في وعاء كبير، ومزجها لينشئ من هذا المزيج المجتمع الإسلامي الجديد خاليًا من تلك الفوارق والاختلافات.

فضل المهاجرين والأنصار

إن كلمة المهاجر – التي تعني من ترك بلده وانتقل إلى مكان آخر – اسم أُطلق على مسلمي مكة الذين هاجروا إلى المدينة المنورة نتيجة للضغوط الشديدة، والأذى والظلم، والاضطهاد الذي تعرضوا له في بلدهم والذي بلغ حدًا يفوق قدرتهم على التحمل.

لقد كان المهاجرون يغادرون وطنهم الأم مخلفين وراءهم كل أموالهم وممتلكاتهم ما عدا تلك المنقولات البسيطة التي يقدرون على حملها معهم، وكان المشركون يسارعون إلى وضع يدهم على تلك الممتلكات ويضمونها إلى أموالهم، وقد كانت الخسائر المالية للمسلمين المهاجرين كبيرة جدًا، ولكن قلوبهم لم تكن لتعبأ بهذه الأموال، إذ لم يكن هدفهم من هذه الهجرة شيئًا من المنافع الدنيوية، وذلك لأن الصحابة الكرام قد ذاقوا لذة الإيمان وحلاوته، ولذلك فإنهم كانوا مستعدين للتضحية بكل ما يملكون في سبيل الله تعالى.

لقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كلما خاطبهم الرسول الأكرم ﷺ بشيءٍ أجابوه بقولهم:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله!»، ويعتبرون أي نصيحة من النبي عليه الصلاة والسلام بمثابة أمر موجه إليهم، مستعدون لتنفيذه في الحال، وقد كان الصحابة الكرام إذا ما اعترضهم المشركون ومنعوهم من الهجرة إلى المدينة المنورة دلوهم على الأماكن

التي خبَّؤوا فيها أموالهم القيمة مقابل تخلية سبيلهم والسماح لهم بمتابعة الهجرة، وكان الصحابي صهيب بن سنان – والمشهور باسم صهيب الرومي – خير مثال في هذا المجال:

فقد كان صهيب الرومي ﷺ واحدًا من المسلمين الذين تعرضوا لأشد ألوان العذاب والظلم في سبيل الله تعالى، وبعد تعرضه لكل هذا الاضطهاد خرج في طريقه إلى المدينة المنورة بقصد الهجرة، فخرج في إثره بعض مشركي مكة، وقالوا له:

– أتيتنا ها هنا صعلوكًا فقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغتَ بيننا ما بلغت، والآن تنطلق بنفسك ومالك؟! واللّٰه لا يكون ذلك!

فنزل صهيب ﷺ عن راحلته وانْتَثَل ما في كنانته، وقال:

يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلًا، وايم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فافعلوا ما شئتم. فإن شئتم دللتكم على مالي وخليتم سبيلي؟ فقالوا: نعم. وقبلوا منه عرضه. فدلهم صهيب ﷺ على المكان الذي خبأ فيه ثروته. ثم تابع طريقه إلى المدينة، ولحق برسول الله ﷺ بقباء في أواسط شهر ربيع الأول. ووجد بها مع النبي ﷺ أبا بكر وعمر ﷺ، وبين أيديهم رطب قد جاءهم به كلثوم بن الهِدْم، وكان قد أصاب صهيبًا رمدٌ ومجاعة شديدة، فأقبل يأكل التمر، فقال عمر ﷺ مازحًا:

– يا رسول الله ألا ترى إلى صهيب يأكل الرطب وهو رمد؟

– فقال نور الكون سيدنا محمد ﷺ لصهيب:

– تأكل الرطب وأنت رمد؟

فقال صهيب ﷺ:

– يا رسول الله! إنما آكله بشق عيني الصحيحة!

فتبسم النبي ﷺ وقال له مشيرًا إلى ثروته التي تنازل عنها للمشركين مقابل تخليتهم سبيله وتركه يهاجر إلى المدينة:

– ربح البيع أبا يحيى ربح البيع!.[٧٥٤]

٧٥٤ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢٢٦ – ٢٣٠؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٥٠ – ٤٥٢؛ ١، ٣٣٢.

وبينما كان المهاجرون يحاولون جاهدين الهجرة إلى المدينة بهذه التضحيات والمعاناة، كان المسلمون من أهل المدينة يضمونهم إلى صدورهم بمحبة إيمانية فريدة نظرًا لهذا الكفاح الإيماني الكبير الذي قاموا به. وبالمقابل فقد أبدى بعض المهاجرين مظاهر العفة والاستغناء عن أخذ أي شيءٍ من أموال إخوانهم الأنصار الذين احتضنوهم وتنازلوا لهم عن ممتلكاتهم عن طيب خاطر، لكيلا يكونوا حملًا ثقيلًا عليهم، فقبل بعضهم العمل في بساتين النخل التي يمتلكها الأنصار لكسب قوت يومهم من عمل يمينهم، وأما بعض الآخر فقد اختار اللجوء إلى العمل في التجارة، وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ واحدًا من هؤلاء الذين عملوا بالتجارة، حيث قال له أخوه الأنصاري سعد بن الربيع ﷺ:

- إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلقْها، فإذا انقضت عدتها فتزوجتها.

وأما عبد الرحمن بن عوف ﷺ، فقال له:

- بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق!

فبدأ عبد الرحمن بن عوف ﷺ بالتجارة في السوق، ولم يمض وقت طويل حتى صار من أغنياء المدينة.[٧٥٥]

إن المهاجرين الذين كانوا من أوائل من تلقى الخطاب الإلهي، والذين آمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام متحدين كل الصعاب التي تقف في طريقهم، متعرضين في سبيل ذلك لأشد أنواع التعذيب والتنكيل، حتى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، أصبحوا مظهرًا من مظاهر مدح الله ﷻ لهم والثناء عليهم في القرآن الكريم. وذلك لأنهم - على الرغم من عدم حصولهم على أي من المنافع الدنيوية - قد تخلوا عن كل شيءٍ يمتلكونه في سبيل الفرار بعقيدتهم والحفاظ عليها. إن المهاجرين الذين أقدموا على هذه الحركة لم يقوموا بالتضحية والفداء فحسب، وإنما في الوقت عينه كانوا يوفون بواجب ديني، حيث إن القرآن الكريم قد ذم الذين لا يهاجرون في الأحوال التي تستوجب الهجرة.[٧٥٦]

لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى سوف يغفر للمهاجرين ذنوبهم وسيئاتهم، ويثيبهم بالجنة يوم القيامة، حيث قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

---

٧٥٥ البخاري: مناقب الأنصار، ٣.

٧٥٦ انظر النساء: ٩٧.

﴿...فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [٧٥٧]

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٧٥٨]

ويقول النبي ﷺ في هذا الشأن:

«**سبق المهاجرون الناسَ** -إلى الجنة- **بسبعين خريفًا يتنعمون فيها والناس محبوسون للحساب، ثم تكون الزمرة الثانية مائة خريف**» [٧٥٩]

وكما أن المهاجرين سوف ينالون في الآخرة المكافآت العظيمة، فإنهم في الوقت ذاته كانوا في الحياة الدنيا مظهرًا للكثير من ألطاف الله تعالى ببركة التضحيات الجسام التي قدموها، حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٦٠]

وقد فرض الله تعالى للمهاجرين نصيبًا من الغنائم أكثر من غيرهم من المسلمين نظرًا للحرمان الذي عانوه في سبيل إعلاء كلمة التوحيد والحفاظ على إسلامهم، يقول القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الشأن:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [٧٦١]

---

٧٥٧ آل عمران: ١٩٥.

٧٥٨ النحل: ١١٠.

٧٥٩ الهيثمي: مجمع الزوائد، ١٠، ١٥/ ١٦٣٧٣.

٧٦٠ النحل: ٤١.

٧٦١ الحشر: ٨.

لما قدم المهاجرون إلى المدينة المنورة عانوا كثيرًا في البداية، فإلى جانب نار الشوق والحنين إلى الوطن التي كانت تكوي أفئدتهم، فإنهم لم يعتادوا على جو المدينة لفترة طويلة، وتعرضوا نتيجة ذلك لأمراض كثيرة مثل الحمى وما شابهها. ولما رأت أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ الأحوال المضطربة لأبيها أبي بكر وبلال الحبشي ﵄ نتيجة حرارة الحمى والشوق إلى مكة المكرمة، نقلت الخبر إلى رسول الله ﷺ، فدعا النبي ﷺ بالدعاء الآتي:

«اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصحِّحها، وبارك لنا في مُدِّها وصاعها، وانقل حمَّاها فاجعلها بالجُحْفة» [٧٦٢]

لقد أُطلق على أهل المدينة المنورة الأوفياء، لأنهم استقبلوا بالأحضان إخوانهم المهاجرين الذين هجروا وطنهم مكة وعانوا في سبيل ذلك المصاعب والآلام، وقاسموهم ممتلكاتهم بكرم وسخاء منقطع النظير، والذين تقربوا من الرسول ﷺ وأيدوه وساندوه ونصروا دعوته، فأطلق عليهم اسم «الأنصار» والذي يأتي بمعنى المساعدون والمعينون، ويُستخدم للدلالة على شخص واحد من الأنصار لفظ «الأنصاري»، وللدلالة على مجموعهم أو جمع منهم يُستخدم تعبير «الأنصاريون».

عن غيلان بن جرير ﵁ قال:

«قلت لأنس ﵁: أرأيت اسم الأنصار، كنتم تُسمون به، أم سماكم الله؟ فقال أنس ﵁: بل سمانا الله» [٧٦٣]

لقد كان الأنصار يتشكلون من قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة المنورة، وهما عبارة عن أخوين تفرعت منهما قبيلتان، ففي السنة الحادية عشرة للنبوة جاء وفد مؤلف من ستة أشخاص من قبيلة الخزرج إلى مكة بهدف طلب العون والمساعدة من قريش ضد قبيلة الأوس بسبب الحرب القائمة بينهما، والتقى هذا الوفد في مكة برسول الله ﷺ، فدعاهم

٧٦٢ البخاري: مناقب الأنصار، ٧٢/ ٣٩٢٦، فضائل المدينة، ١٢/ ١٨٨٩؛ مسلم: الحج، ٤٨٠/ ١٣٧٦.
كانت الجحفة في ذلك العهد منطقة يسكن فيها اليهود أو المشركون. وقد كان أهلها يعينون أهل الكفر على المسلمين، وينشرون الفتن والفساد بين المسلمين. وقد أراد النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الدعاء أن يشغلهم بالبلاء الذي سوف يصيبهم، فلا يجدوا بذلك فرصة لتقديم العون للكافرين، ونشر الفتن والفساد بين المسلمين. (العيني: ١٠، ٢٥١)

٧٦٣ البخاري: مناقب الأنصار، ١/ ٣٧٧٦.

النبي عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام وبلغهم إياه فقبلوه ودخلوا فيه، وخلال عودة وفد الخزرج إلى المدينة وضعوا نصب أعينهم أن تُرفع العداوة بينهم وبين إخوانهم من الأوس بفضل هذا الدين الحق الذي دخلوا فيه، حتى يعودوا إخوةً متحابين متكاتفين كما في العهود السابقة، فقاموا بدعوة قبيلة الأوس إلى الإسلام أيضًا، وهكذا فإن الحروب التي استمرت بينهم لسنوات طوال وأنهكت قواهم انقلبت بفضل سلم الإسلام وسكينته إلى حالة من الاتحاد والقوة، فالتقت القبيلتان مجددًا، وعادت الأخوة القديمة تسري بينهم، وأرسلوا في السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة للنبوة ممثلين عنهم إلى مكة، فالتقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، وتحققت نتيجة ذلك بيعة العقبة الأولى والثانية.

تعهد أهل المدينة في بيعة العقبة الثانية بحماية الرسول عليه الصلاة والسلام ومسلمي مكة وتقديم العون والمساعدة لهم إن هم هاجروا إليهم إلى المدينة، وهكذا أصبحوا وسيلة لفتح الباب أمام بدء عهد جديد في تاريخ الإسلام والهجرة.

ولما أعلن الرسول ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أبدى الأنصار تجاه إخوانهم من المهاجرين نموذجًا فريدًا لا نظير له من المساندة والاتحاد، إذ أشركوا معهم إخوانهم المهاجرين في بيوتهم التي يملكونها في المدينة، وفي أعمالهم، وفي بساتينهم، حتى إنهم قدموهم على أشقائهم من الدم، وقد امتدح القرآن الكريم هذا العمل المفعم بالإخلاص الذي أقدم عليه الأنصار، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ [٧٦٤]

إن الحادثة التي كانت سببًا في نزول هذه الآية الكريمة لخيرُ مثال على تضحيات الأنصار، وأعمالهم الخيرة، وهذه الحادثة هي:

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال:

«من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟»

---

٧٦٤ الحشر: ٩.

فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا، يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال:

«قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[٧٦٥]

وعن أنس رضي الله عنه، قال:

لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنإ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال النبي ﷺ:

«لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم» [٧٦٦]

ويقول جابر رضي الله عنه:

«كانت الأنصار إذا جروا نخلهم قسم الرجل تمرة إلى قسمين: أحدهما أقل من الآخر، ثم يجعلون السعف مع أقلهما، ثم يخيرون المسلمين فيأخذون أكثرهما، ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف، حتى فتحت خيبر...»[٧٦٧]

ومن الأمثلة الأخرى على تضحيات الأنصار تجاه إخوانهم من المهاجرين الحادثة التي يرويها أنس رضي الله عنه:

دعا النبي ﷺ الأنصار ليكتب لهم بالبحرين، فقالوا: لا والله حتى تكتب لإخواننا من قريش بمثلها، فقال: **«ذاك لهم ما شاء الله على ذلك»**، يقولون له، قال:

«فإنكم سترون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» [٧٦٨]

وقد امتدح النبي عليه الصلاة والسلام ميزة الإيثار التي تميز بها الأنصار بقوله:

«إنكم تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع» [٧٦٩]

٧٦٥ مسلم: الأشربة، ١٧٢ - ١٧٣/ ٢٠٥٤.

٧٦٦ الترمذي: القيامة، ٤٤/ ٢٤٨٧.

٧٦٧ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠، ٤٠/ ١٦٥٢٦.

٧٦٨ البخاري: الجزية، ٤/ ٣١٦٣، مناقب الأنصار، ٨/ ٣٧٩٤، الشرب، ١٠/ ٢٣٧٦ / ٢٣٧٧.

٧٦٩ عليّ المتقي: كنز العمال، ١٤، ٦٦/ ٣٧٩٥١.

لقد نال الأنصارُ الكرام بإيثارهم النبي ﷺ، والمهاجرين الجنةَ يوم القيامة، والأهم من ذلك أنهم نالوا رضى الله سبحانه وتعالى.

حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٧٧٠]

لم يتوانَ الأنصار لحظة واحدة عن التضحية حتى بأرواحهم في سبيل حمايةِ الإسلام ونصرة سيدنا محمد عليه أفضل الصوات وأتم التسليم، فقد أظهروا في غزوة بدر تضحيات جسام، وكانوا في معركة أحد معظم الذين التفوا حول رسول الله عليه الصلاة والسلام، جاعلين من أجسادهم دروعا تتلقى طعنات سلاح الأعداء لحماية نور الكائنات من الأنصار، وذلك حين هوجم المسلمون من الخلف وانقلبت المعركة ضدهم، إذًا كانت تربطهم برسول الله ﷺ محبة وصحبة أسطورية لا نجد لها نظيرًا بين البشر. وإن الحادثة التي يرويها أنس ﵁ حول محبتهم للنبي ﷺ والتي تحمل مشاعر حساسة تلفت الأنظار، وتبهر القلوب، حيث يقول أنس ﵁:

«خرجت مع جرير بن عبد الله[٧٧١] البجلي في سفر، فكان يخدمني –وهو أكبر مني سنًا–. فلما قلت له: لا تفعل. قال لي:

إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا، آليت أن لا أصحب أحدا منهم إلا خدمته» [٧٧٢]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام مبينًا فضل الأنصار عنده:

«لو أن الأنصار سلكوا واديا، أو شعبا، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»[٧٧٣]

---

٧٧٠ التوبة: ١٠٠.

٧٧١ جرير بن عبد الله ﵁، كان رئيسًا لقبيلة بجيلة اليمنية. جاء في شهر رمضان للسنة العاشرة للهجرة، أي قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر إلى المدينة المنورة مع وفد مؤلف من مائة وخمسين شخصًا وأسلموا فيها. وكان يحب الرسول ﷺ كثيرًا. وكان النبي ﷺ يحبه أيضًا، وكان كلما رآه الرسول ﷺ يبتسم له.

٧٧٢ البخاري: الجاد، ٧١؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٨١/ ٢٥١٣.

٧٧٣ البخاري: مناقب الأنصار، ٢/ ٣٧٧٩؛ عليّ المتقي: كنز العمال، ١٢، ٥/ ٣٣٧٠١.

ونورد فيما يأتي بعض العبارات المباركة التي صدرت من فم النبي ﷺ الشريف بشأن فضل الأنصار رضي الله عنهم أجمعين:

«لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[٧٧٤]

«لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله» [٧٧٥]

«أما بعد، أيها الناس! فإن الناس يكثرون ويقل الأنصار، حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام...» [٧٧٦]

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٧٧٧]

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يكنّ في قلبه محبة عميقة تجاه أصحابه الكرام جميعًا من الأنصار والمهاجرين، بحيث إن كل الصحابة كان لديهم شعور وتفكير بأن محبة الرسول ﷺ لهم أكثر من غيرهم.

يروي كعب بن عجرة ﵁ الحادثة الآتية والتي تحمل الكثير من العبر، حيث يقول:

«جلسنا يومًا أمام رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا معشر الأنصار، ورهط من المهاجرين، ورهط من بني هاشم. فاختصمنا في رسول الله ﷺ أينا أولى به وأحب إليه؟ قلنا نحن معشر الأنصار:

– آمنا به واتبعناه، وقاتلنا معه وكنا كتيبته في نحر عدوه، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه.

فقال إخواننا المهاجرون:

– نحن الذين هاجرنا إلى الله ورسوله ﷺ، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال، وقد حضرنا ما حضرتم، وشهدنا ما شهدتم، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه.

---

٧٧٤ مسلم، الإيمان، ١٣٠/ ٧٦/ ٧٧؛ الترمذي: المناقب، ٢٥/ ٣٩٠٦.

٧٧٥ البخاري: مناقب الأنصار، ١١ / ٣٧٨٣؛ مسلم، الإيمان، ١٢٩/ ٧٥؛ الترمذي: المناقب، ٢٥/ ٣٩٠٠.

٧٧٦ البخاري: مناقب الأنصار، ١١/ ٣٦٢٨.

٧٧٧ البخاري: مناقب الأنصار، ١١/ ٣٧٩٩؛ عليّ المتقي: كنز العمال، ١٢، ٤/ ٣٣٦٩٨.

وقال إخواننا من بني هاشم:

- نحن عشيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وحضرنا الذي حضرتم، وشهدنا الذي شهدتم، فنحن أولى برسول الله عليه الصلاة والسلام وأحبهم إليه.

فخرج علينا رسول الله ﷺ فأقبل علينا، فقال:

- **إنكم لتقولن شيئًا؟**

فقلنا مثل مقالتنا، فقال للأنصار:

- **صدقتم، من يرد هذا عليكم؟**،

وأخبرناه بما قال إخواننا المهاجرون، فقال:

- **صدقوا، من يرد هذا عليهم؟**،

وأخبرناه بما قال بنو هاشم، فقال:

- **صدقوا، من يرد هذا عليهم؟**

ثم قال:

ألا أقضي بينكم؟

- قلنا: بلى، بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله! قال:

- **أما أنتم يا معشر الأنصار! فإنما أنا أخوكم!**

فقال الأنصار:

- الله أكبر! ذهبنا به ورب الكعبة.

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- **وأما أنتم يا معشر المهاجرين! فإنما أنا منكم**.

ففرح المهاجرون، وقالوا:

- الله أكبر! ذهبنا به ورب الكعبة. ثم قال النبي ﷺ:

- **وأما أنتم بنو هاشم! فأنتم مني وإلي**.

ففرح بنو هاشم، وقالوا:

- الله أكبر! ذهبنا به ورب الكعبة.

فقمنا، وكلنا راضٍ مغتبط برسول» [٧٧٨]

٧٧٨ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠، ١٤/ ١٦٣٧٢.

إن حدود الدولة الإسلامية الصغيرة التي تأسست في المدينة المنورة وتألفت مما يقرب من أربعمائة عائلة امتدت وتوسعت إلى مساحات شاسعة خلال عشر سنوات لتصل إلى العراق وفلسطين، وكانت الدولة الإسلامية أثناء وفاة النبي ﷺ في حالة حرب مع الدولة البيزنطية والفارسية، وفي السنوات العشر الأولى لم تتغير الأحوال الحياتية للصحابة الكرام مطلقًا من حيث المظهر الخارجي والسلوك وطراز المعيشة، ومستوى الرفاهية، وهندسة البيوت. فكانت حياتهم لها طابع الزهد والبساطة، ولم تعرف حياة مجتمع الصحابة شيئًا من الإسراف في الإنفاق، والبذخ، والرفاهية والاهتمام بالمظاهر، وإنما كان المبدأ الأساسي الذي يسيرون عليه ويتمسكون به هو إدراكهم التام بأن «غدًا سوف يكون القبر قصر هذه النفس التي بين جوانحهم»، ولهذا السبب فإنهم كانوا دائمي الابتعاد عن تخصيص شيءٍ من النعم الدنيوية لأنفسهم أو استخدامها بما يزيد عن الحاجة، واستعملوا هذه النعم وسيلة بين أيديهم في سبيل هداية الإنسانية وسعادتها وهم يشعرون خلال ذلك بلذة ونشوة إيمانية تفوق الوصف، وقد نظم الصحابة الكرام حياتهم ووجّهوها نحو العمل من أجل الفوز برضا الله تعالى بعيدًا عن المنافع أو الأهداف الدنيوية، ولذلك كان من أحد الأسباب الرئيسية في سرعة انتشار الإسلام بين المجتمعات المظلومة، والمضطهدة، والمُستغلة والمهمشة هو تقديم الصحابة الكرام للهوية الإسلامية الصحيحة والنقية الخالية من الكدورات والشبهات في كل مكان وصلوا إليه، وذلك لأن الصحابة الكرام الذين هم الطلبة الخاصون لرسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا مؤمنين من الطراز الرفيع الاستثنائي، حيث كانوا ينظرون إلى عباد الله وهم يدعونهم إلى الإيمان بعين الشفقة والرحمة الإلهية متحلين بالإيثار، والصدق، والعدل، متمتعين بقلوب غنية وممتلئة بنور الرسالة.

مدينة النبي ووثيقة المدينة

إن المدينة المنورة تقع إلى الشمال من مكة المكرمة، ومحاطة بالجبال من جهاتها الثلاث، وفي جهتها الجنوبية توجد منطقة سهلية. وإنها بلدة طيبة تمتلك أرضًا خصبة صالحة للزراعة، وهواءً نقيًا وجميلًا، وتتزيّن ببساتين من النخل خضراء واسعة.

لقد كان في المدينة المنورة أثناء هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام قبيلتان عربيتان هما: الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية هي: بنو قينقاع، وبنو نادر، وبنو قريظة، وقد

جاءت قبيلتا العرب مهاجرتان من اليمن إلى المدينة في أعقاب السيل العظيم الذي أصاب ديارهم والذي يعرف بـ «سيل العرم»، وأما اليهود فقد قدموا من القدس بعد هجوم الرومان عليها، واحتلالها، ونشر الخراب والدمار فيها.

ومع الزمن حصلت مصادمات بين العرب واليهود في المدينة، وعلى إثر تلك الخصومات والصدامات تغلّب العرب على اليهود وأصبحوا حكام المدينة، إلا أن اليهود بعد مدة من الزمن تمكنوا من الإيقاع بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين تربطهما في الأصل صلة الأخوة، وذلك عن طريق حياكة الدسائس والفتن، فقامت بينهما حروب ومعارك دامت لسنوات طوال، وآخر هذه المعارك التي نشبت بينهما هي معركة بُعاث، حيث استمرت هذه الحرب بين القبيلتين مع فترات التوقف مائة وعشرين سنة، وانتهت قبل الهجرة النبوية بقرابة خمس سنوات، حيث تكبّد على إثرها الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وأصابهما الضعف والوهن، ولهذا السبب كان اليهود خلال فترة الهجرة هم حكام المدينة المنورة وخاصة من الناحية الاقتصادية.

وبتشريف الرسول الأكرم ﷺ للمدينة المنورة وبلطف الله تبارك وتعالى انتهت العداوة والبغضاء بين هاتين القبيلتين، وعادت الأخوة بينهما إلى سابق عهدها.

ويقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٧٧٩]

وبعد الهجرة أخذ مشركو مكة يرسلون إلى مشركي المدينة ويهودها كتبًا تتضمن يحضرونهم فيها على المسلمين في المدينة، وذلك من أجل الحيلولة دون اكتساب المسلمين للقوة والمنعة، فقد جاء في أحد الكتب التي أرسلها مشركو مكة تهديدًا موجهًا إلى عبد الله بن أُبي والمشركين من قبيلتي الأوس والخزرج، وذلك على النحو الآتي:

«إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم باللات والعزّى لتقتلنَّه أو لتخرجنَّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح ذراريكم!»

---

٧٧٩ آل عمران: ١٠٣.

وبناءً على هذا التهديد اجتمع عبد الله بن أُبي مع مشركي المدينة الذين يتحركون في فلكه، وتضامنوا فيما بينهم من أجل مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام ومقاتلته، ولما علم النبي ﷺ بخبر القوم توجه إليهم، وقال:

«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم، وإخوانكم؟»[٧٨٠]

فلما سمع القوم كلام الرسول عليه الصلاة والسلام تفرقوا، وذهب كلٌّ إلى شأنه.

وخاب مشركو قريش، ولم يصلوا إلى مبتغاهم من هذا التهديد والتحريض، ومن جانب آخر فإن مشركي قريش الذين فشلوا في تحقيق مأربهم كانت لديهم القدرة والإمكانية على القيام بهجوم شامل على عامة سكان المدينة دون تمييز بما فيهم المسلمين، والمشركين، واليهود وقتلهم جميعًا، فأصبح هذا الخطر المشترك دافعًا لغير المسلمين من أهل المدينة إلى التقرب من النبي ﷺ والالتفاف حوله، والدخول تحت قيادته.

وعدا عن ذلك، كان هناك تنافس منذ زمن طويل في المدينة بين الأوسيين والخزرجيين واليهود، حيث يرغب كل طرف على أن تكون لجماعته وقبيلته الكلمة الفصل والمسموعة في هذه المدينة، فمثلًا كان الخزرجيون يُحضرون قائدهم عبد الله بن أُبي لكي يجعلوه حاكمًا على المدينة، وفي كل الأحوال لم يكن الأوسيون يؤيدون أحدًا من الخزرج لكي يصبح حاكمًا على المدينة، ولا الخزرجيون يقبلون أحدًا من الأوسيين لكي يكون حاكمًا على المدينة، ولهذا السبب أصبح الرسول عليه الصلاة والسلام هو الشخص الذي يجمع كل أهل المدينة على قيادته.

وفي ضوء هذه الظروف أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة إدارة المدينة المنورة، ولم يضيع الرسول ﷺ الذي آخى في وقت سابق بين المهاجرين والأنصار وأسَّس بذلك عَقْدَ النظام الاجتماعي بين المسلمين، لم يضيع الوقت وإنما سارع إلى كتابة وثيقة قَبِل بموجبها اليهودَ مواطنين في المدينة المنورة لهم الحقوق والواجبات ذاتها التي يتمتع بها المسلمون، ووضع بذلك بعض الأسس التي ستشكل دستورًا فريدًا لدولة المدينة، ونورد فيما يأتي بعض البنود التي جاءت في هذه الوثيقة التي سميت بـ «**وثيقة المدينة**»، وصارت بمثابة شهادة ميلاد رسمية لقيام الدولة الإسلامية، وهذه البنود هي:

٧٨٠ أبو داود: الخراج، ٢٢ - ٢٣/ ٣٠٠٤؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٣٥٨ - ٣٥٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب[٧٨١] من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[٧٨٢] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٧٨٣] بالمعروف والقسط بين المؤمنين...

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة [٧٨٤] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس...

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله...

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط[٧٨٥] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه،

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله ﷻ، وإلى محمد عليه الصلاة والسلام...

٧٨١ يقال: إن رسول الله ﷺ كتب هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية، وإذ كان الإسلام ضعيفا، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب . (راجع الروض الأنف) .

٧٨٢ الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

٧٨٣ العاني: الأسير.

٧٨٤ الدسيعة: العظيمة، وهي في الأصل: ما يخرج من حلق البعير إذا رغا. وأراد بها هاهنا: ما ينال عنهم من ظلم.

٧٨٥ اعتبطه: أي قتله بلا جناية منه توجب قتله.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ [٧٨٦] إلا نفسه، وأهل بيته....

وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة[٧٨٧] يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا[٧٨٨]...

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم...

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره...

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة....

وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[٧٨٩]

وإن من الجلي أن هذه البنود أقرت الأسس التي ينبغي الاعتماد عليه لدى تطبيق الأحكام الإسلامية في المجتمع المسلم.

---

٧٨٦ يوتغ: يهلك.

٧٨٧ بطانة الرجل: خاصته وأهل بيته.

٧٨٨ على أبر هذا: أي على الرضا به.

٧٨٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٩ - ١٢٣؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٦٣ - ٢٦٤؛ حميد الله: الوثائق، ص، ٥٧ - ٦٤.

إن وثيقة المدينة – التي تعد عقد مواطنة – تُشكل دليلًا قاطعًا على بطلان الادعاءات التي تقول بأن الدين الإسلامي لا يصلح للمعاملات، إذ لم يضع قوانين وأحكامًا لها، وإنما اقتصر على تنظيم جانب العبادات فقط.

إن وثيقة المدينة لها طبيعة المعاهدة التي تشمل جوانب عديدة، إذ تحتوي على المواضيع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية. وإن هذه الوثيقة تبين للمسلمين بأن العامل الوحيد الذي يجمع شملهم ويشكل وحدتهم إنما هو الإسلام، وتحثهم على التعاون فيما بينهم، وإقامة العدالة والمساواة في مجتمعهم، وترشدهم إلى ضرورة الرجوع إلى الله ورسوله في كل أمر يظهر بينهم الاختلاف بشأنه.

لقد ضبطت الوثيقة ونظمت العصبية القبلية الموجودة لدى العرب على ضوء مبادئ العدالة، وأمرت بمعاقبة المسيء والمعتدي حتى ولو كان من أقرب الناس إلى المرء.

إن هذه المعاهدة تُعتبر وثيقة متقدمة جدًّا بالنسبة لمعاملة الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود نظرًا للحقوق التي أثبتها لهم إذ أعطاهم حرية الملكية والاعتقاد على السواء، ولولا خرق اليهود أنفسهم للمعاهدة والإخلال ببنودها لظلوا مستمرين مع المسلمين في الحياة المشتركة في ظل هذه المعاهدة العادلة.

إعلان المدينة حرمًا آمنًا

بعد القرارات التي اتخذها النبي عليه الصلاة والسلام بإعلان المدينة حرمًا، بيَّن حدود الحرم المدني على الشكل الآتي:

«...**اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة، وإني أحرِّم ما بين لابتيها**» [٧٩٠]

وبناء على هذا الأمر الذي صدر من رسول الله ﷺ تم وضع الحجارة في الأماكن التي أشار إليها وعُينت حدود حرم المدينة المنورة. وهكذا فقد أُطلق على المدينة التي وُضعت داخل حدود الحرم تسمية «حرم الرسول». فتمت حماية منطقة المدينة الواقعة بين جبلي عير وثور[٧٩١] على مسافة ثلاثة فراسخ.[٧٩٢]

٧٩٠ البخاري، أحاديث الأنبياء، ١١/ ٣٣٦٧؛ مسلم، الحج، ٤٥٦/ ١٣٦١؛ أحمد: مسند، ٤، ١٤١/ ١٢٥١٠.

٧٩١ المنطقة القريبة من ذو الحليفة والواقعة بين جبل عير وأحد وبين جبل ثور الذي يقع شمالهما. وينبغي عدم الخلط بين جبل ثور المقصود هنا وبين جبل ثور الذي يقع في مكة المكرمة.

٧٩٢ البخاري: فضائل المدينة، ١/ ١٨٦٧/ ١٨٦٩؛ مسلم: الحج، ٤٧١ – ٤٧٢/ ١٣٧٢.

وبعد أن أعلن النبي ﷺ المدينة المنورة حرمًا قال:

«المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يُقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث «عمل مخالف للكتاب والسنة»، من أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» [٧٩٣]

وبعد ذلك رفع الرسول ﷺ يديه إلى السماء ودعا لهذه البلدة المباركة، وبفضل هذا الدعاء وبركته أصبحت هذه المدينة منذ ذلك الزمان وإلى زمننا الحاضر مكانًا للسكينة، والسرور، والرحمة بالنسبة للمؤمنين جميعًا، وأصبحت نبض السعادة للعالم الإسلامي كله.

لقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يظهرون اهتمامًا واحترامًا فائقًا لحرم المدينة المنورة، حيث ينقل لنا أبو هريرة ﷺ حساسيته ورعايته الدقيقة في هذا الشأن بقوله:

لو رأيتُ الظباء ترتع بالمدينة ما ذعرتها. لأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:

«ما بين لابتيها حرام»[٧٩٤]

وقد كان الصحابة الكرام لا يسمحون لأحد بالتعدي على هذا الحرم حتى لأولادهم الصغار، حيث يقول عبد الله بن عبادة ﷺ:

«كنت بجوار بئر أبي إيهاب أصيد الطيور، فجاء أبي عبادة، ولما رآني أخذ الطير من يدي ثم أرسلها، وقال: إن رسول الله حرَّم ما بين لابتي المدينة كما حرم إبراهيم ﷺ مكة»[٧٩٥]

تنظيم سوق المدينة والحياة التجارية فيها

لما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة اختار للمسلمين مكانًا وجعله سوقًا لهم يمارسون فيها تجارتهم بشكل مستقل عن سوق اليهود في المدينة. وذلك لأنه من الحقائق البديهية في ميدان التجارة والتي يعرفها الجميع أن ترسيخ الاستقلال الاقتصادي يتم بامتلاك أسواق مستقلة.

وقد كان النبي ﷺ قريبًا من الأسواق والعمليات التجارية التي تجري فيها، حيث يقوم بمراقبة التجار وأموالهم التجارية. وذات يوم مرَّ عليه الصلاة والسلام على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا، فقال:

---

٧٩٣ البخاري: فضائل المدينة، ١/ ١٨٦٧.

٧٩٤ مسلم: الحج، ٤٧١ / ١٣٧٢.

٧٩٥ ابن الأثير: أسد الغابة، ٣، ١٥٩.

- **ما هذا يا صاحب الطعام؟**
- فقال الرجل: أصابته السماء. يا رسول الله!

فقال الرسول ﷺ:

- **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»** [٧٩٦]

عن قيس بن أبي غرزة ﷺ قال:

«كنا نسمى في عهد رسول الله ﷺ السماسرة، فمر بنا رسول الله ﷺ فسمانا باسم هو أحسن منه، فقال:

- **«يا معشر التجار! إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة»** [٧٩٧]

إن الإنسان مهما بلغ من الحرص والاحتراز في أموره من الوقوع في الخطأ، لا بد له من الوقوع في الهفوات في عملياته التجارية وربما يتجاوز على حقوق الغير حتى بغير قصد منه نتيجة للطبيعة البشرية التي رُكب منها والتي تتميز بالتعرض للنسيان والغفلة. ولهذا السبب يجب على المؤمن الإكثار من الصدقات كتدبير احترازي لتجنب آثار تلك الأخطاء والتجاوزات التي من المحتمل أن يقع فيها دون الشعور بها. وإن النبي ﷺ أراد في الحديث الذي أوردناه آنفًا لفت نظرنا إلى هذا الأمر.

يقول رفاعة بن رافع ﷺ:

«خرجنا مع النبي ﷺ إلى المصلى[٧٩٨] فرأى الناس يتبايعون، فقال:

يا معشر التجار! فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال:

«إن التجار يُبعثون يوم القيامة فجارًا، إلا من اتقى الله، وبرَّ، وصدق» [٧٩٩]

---

٧٩٦ مسلم: الإيمان، ٤٣/ ١٠٢.

٧٩٧ أبو داود: البيوع، ١/ ٣٣٢٦؛ أحمد: مسند، ٤، ٦/ ١٦١٣٩.

٧٩٨ المصلى: اسم يُطلق على المكان الفسيح الذي يُخصص في السابق لأبناء بلدة ما من أجل أن تُقام فيه صلوات الجمعة، والعيد، والجنازة. بشكل عام كان يتم تحضير المصليات خارج المدن من أجل الصلوات الجماعية، وبالتالي لم تكن صلاة العيدين، والجمعة وغيرها من الصلوات الجماعية تُقام في جوامع متعددة كما يحدث اليوم، وإنما كانت تُؤدى هذه الصلوات في المصليات الجامعة لأبناء البلدة الواحدة كلهم. وبذلك كان يتم ضمان لقاء جميع أبناء البلدة الواحدة مع بعضهم البعض كل جمعة.

٧٩٩ الترمذي: البيوع، ٤/ ١٢١٠.

وقد كان يتحدث النبي ﷺ عن أخلاق التجارة وفضائلها من خلال روايته لبعض الأحداث كتلك التي جرت بين رجلين صالحين من بني إسرائيل، فيقول الرسول ﷺ:

«اشترى رجل من رجل عقارًا له. فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب. فقال له الذي اشترى العقار:

- خذ ذهبك مني! إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب! فقال الذي شرى الأرض:

- إنما بعتك الأرض وما فيها.

فتحاكما إلى رجل. فقال الذي تحاكما إليه:

- ألكما ولد؟ فقال أحدهما:

- لي غلام. وقال الآخر: لي جارية. فقال الحكم:

- أنكحوا الغلام الجارية! وأنفقوا على أنفسهما منه. وتصدقا» [٨٠٠]

إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو التاجر الماهر الخبير الذي انضم في شبابه إلى القوافل التجارية وخرج في الكثير من الرحلات الطويلة، لما قدم المدينة المنورة وضع في هذا المجال مجموعة من القواعد والمبادئ الأساسية. إذ قال عن أهمية التجارة:

«تسعة أعشار الرزق في التجارة، والعشر في المواشي» [٨٠١]

وقال أيضاً:

«إنَّ أَطيب ما أَكل الرجل من كَسبه...» [٨٠٢]

إذًا، لأن للغذاء تأثير معنوي على الإنسان إلى جانب تأثيره المادي المعروف، فإن اللقمة التي نتناولها تؤثر على أرواحنا أيضًا سواء كانت آتية من مصدر حلال، أو حرام، أو مشبوه، أي إن الحالة المعنوية للقمة التي نأكلها تؤثر على إحساسنا ومشاعرنا. وقد ورد حديث نبوي شريف حول أهمية المال الحلال في كل العبادات بشكل عام وفي الحج بشكل خاص. حيث يقول النبي ﷺ:

٨٠٠ البخاري: الأنبياء، ٥٤/ ٣٤٧٢؛ مسلم: الأقضية، ٢١/ ١٧٢١؛ ابن ماجه: اللقطة، ٤/ ٢٥١١.

٨٠١ السيوطي: الجامع الصغير، ١، ١١٣/ ٦١٨٣ ؛ عليّ المتقي: كنز العمال، ٤، ٣٠/ ٩٣٤٢.

٨٠٢ ابن ماجه: التجارات، ١/ ٢١٣٧.

«من أمَّ هذا البيت من الكسب الحرام شخص في غير طاعة الله، فإذا أهل ووضع رجله في الغرز أو الركاب وانبعثت به راحلته قال: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لبيك ولا سعديك، كسبك حرام، وزادك حرام، فارجع مأزورًا غير مأجور، وأبشر بما يسوؤك! وإذا خرج الرجل حاجًا بمال حلال، ووضع رجله في الركاب، وانبعثت به راحلته، قال: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، قد أجبتك، راحلتك حلال، وثيابك حلال، وزادك حلال، فارجع مأجورًا غير مأزور، وأبشر بما يسرك!» [٨٠٣]

لقد أولى القرآن الكريم رعاية خاصة لأمر الحلال والحرام في المأكل والمكسب، لأهميته العظمى، وبسبب الإخلال به كثيرًا، إذ جاء باب الحرام والحلال في المأكل والكسب بعد مسألة الشرك مباشرة خلال بيان الأحكام الإلهية في سورة البقرة. وحتى السور المكية مثل سورة الأنعام والأعراف ويونس والنحل، التي لم تتضمن الكثير من أحكام المعاملات، فقد تناولت بشكل جلي مسألة الحلال والحرام في الطعام والكسب بعد الحديث عن مسائل العقيدة مباشرة، مما يدل على أهميتها وخطورتها في حياة المؤمن.[٨٠٤]

وقد نبه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على ضرورة ووجوب تحلي المرء بالصدق والشجاعة في التجارة، حيث قال:

«الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون» [٨٠٥]

«التاجر الجبان محروم، والتاجر الجسور مرزوق»[٨٠٦]

وفيما يأتي نورد بعض القواعد والمبادئ التي وضعها النبي ﷺ في ميدان التجارة:

«إذا تبايع الرجلان، فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا، وكانا جميعا، أو يخير أحدهما الآخر، فتبايعا على ذلك، فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن يتبايعا ولم يترك واحد منهما البيع، فقد وجب البيع» [٨٠٧]

«الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة» [٨٠٨]

---

٨٠٣ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٠٩ - ٢١٠/ ٥٢٨٠.

٨٠٤ انظر: الأنعام: ١٣٦ - ١٥٢؛ الأعراف: ٣٢ - ٣٣، ١٦٩؛ يونس: ٥٩ - ٦٠؛ النحل: ٩٥، ١١٥ - ١١٦.

٨٠٥ ابن ماجه: التجارات، ٦/ ٢١٥٣.

٨٠٦ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٢، ٧٩/ ٢٤٤٧.

٨٠٧ البخاري: البيوع، ١٩/ ٢١١٢؛ مسلم: البيوع، ٤٤/ ١٥٣١.

٨٠٨ البخاري: البيوع، ٢٦/ ٢٠٨٧؛ مسلم: المساقاة، ١٣١/ ١٦٠٦.

نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن تبادل الأموال التجارية قبل جلبها إلى السوق، وبيع البضاعة المشتراة قبل استلامها بالتمام، أو بيع مال ليس حاضرًا لدى البائع، ونهى أيضًا عن البيع على بيع الغير، وعن خداع المشتري، وغير ذلك من البيوع الضارة.[٨٠٩]

وقد حث النبي ﷺ على تسهيل عمليات البيع والشراء، والتمتع بالليونة فيها، وامتدح من يقوم بذلك، حيث قال عليه الصلاة والسلام:

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[٨١٠]

«غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلا إذا اقتضى» [٨١١]

إن الذين يصيبهم الجشع في جمع الأموال وينخدعون ببريق المنافع الدنيوية، متجاهلين المبادئ والقواعد المقدسة التي وضعها النبي الكريم ﷺ في ميدان التجارة، وظانين بأنهم يكسبون المزيد من الربح والأموال، هم في الحقيقية يعرضون أنفسهم للتهلكة وخطر مواجهة الفقر وجهًا لوجه يوم القيامة. وأما التجار الصادقون الذين عزموا على نيل رضا الله تعالى والفوز بنعيم الآخرة فقد بشرهم الرسول ﷺ بالبشارة الآتية:

«التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» [٨١٢]

بناء المسجد النبوي وغرف السعادة

لم يكن هناك مسجد في المدينة المنورة في البدايات الأولى. فكان النبي ﷺ يؤدي صلاته حيثما أدركته الصلاة، ولم يمض وقت طويل حتى أمر النبي ﷺ ببناء المسجد الثاني بعد المسجد الذي بني بقباء، وهذا المسجد هو المسجد النبوي المعروف في وقتنا الحاضر.

لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ووصل إلى حي بيوت بني النجار كانت ناقته القصواء قد بركت في المكان الذي سوف يُقام عليه المسجد النبوي، وكانت هذه الأرض وقتها ملكًا ليتيمين من بني النجار هما سهل وسهيل حيث تجفف عليها التمور، وعندما بركت القصواء في هذا المكان نزل النبي ﷺ عن ظهرها، وقال:

---

٨٠٩ انظر: البخاري: البيوع، ٧٠ – ٧٢؛ مسلم: البيوع، ٢٩.

٨١٠ البخاري: البيوع، ١٦؛ ٢٠٧٦؛ ابن ماجة: التجارات، ٢٨/ ٢٢٠٣.

٨١١ الترمذي: البيوع، ٧٥/ ١٣٢٠.

٨١٢ ابن ماجه: التجارات، ١/ ٢١٣٩.

- **هذا إن شاء الله المنزل!**

وسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن صاحب الأرض، فقال معاذ بن عفراء ﷺ:

- يا رسول الله! إنها لسهل وسهيل ولدي عمرو.

ثم بعد ذلك طلب النبي ﷺ من سادات بني النجار الحضور ومعهم الغلامين ليعرض عليهما شراء تلك الأرض، وقال لهم:

- **يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا** – أي اطلبوا له ثمنًا.

فقال الغلامين–سهل وسهيل–:

- لا، بل نهبه لك يا رسول الله.

فأبى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول، وهو ينقل اللبن:

«**هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبر ربنا وأطهر**» [٨١٣]

كانت في المكان بعض قبور المشركين، وكانت فيه خِرَب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ونقلت العظام إلى مكان آخر، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع.[٨١٤] ثم طلب النبي ﷺ تحضير لبنات من الطين استعدادًا للبناء.[٨١٥]

كان الرسول ﷺ يبين بهذه الكلمات بأن هذا الحمل الذي يحمله هو وأصحابه –وهو التراب واللَّبِن – خير وأفضل من أحمال التمر والزبيب وغيرها من البضاعة المادية التي كان الناس يجلبونها من خيبر بهدف التجارة، وذلك لأن ما يحملونه خالٍ تمامًا من المنافع الدنيوية.

لقي رجل من الذين يحملون اللَّبِن النبي عليه الصلاة والسلام ومعه لبنة، فقال:

- أعطنيها يا رسول الله! فقال الرسول ﷺ:

- **اذهب فخذ غيرها، فلست بأفقر إلى الله مني.**[٨١٦]

---

٨١٣ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥/ ٣٩٠٦؛ مسلم: المساجد، ٩/ ٥٢٤؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٢١٥.

٨١٤ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥/ ٣٩٣٢؛ مسلم: المساجد، ٩/ ٥٢٤.

٨١٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٣٩.

٨١٦ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ١، ٣٣٣.

لقد كان النبي ﷺ يشارك في أعمال البناء انطلاقًا مما تستوجبه المسؤولية المعنوية الملقاة على عاتقه من جانب، ومن جانب آخر لتشجيع الصحابة الكرام على العمل [٨١٧]. وقد قال أحد الصحابة الكرام حول هذا الأمر:

لئن قعدنا والنبي يعمل ..... لذاك منا العمل المضلل. [٨١٨]

وجاء خلال أعمال بناء المسجد رجل يحسن عجن الطين، وكان من حضرموت، فقال رسول الله ﷺ:

«رحم الله امرءًا أحسن صنعته، وقال له: الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه» [٨١٩]

وإن الحق ﷻ يريد من المسلمين أن يحسنوا ويتقنوا كل عمل يقومون به، حيث يقول:

﴿...وَأَحسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨٢٠]

وخلال نقل النبي ﷺ للَّبِن مع الصحابة ومشاركتهم في أعمال بناء المسجد أخذ يرتجز أبياتًا من الشعر لأحد المسلمين، فيقول:

«اللهم إنّ الأجرَ أجرُ الآخره، فارحم الأنصارَ والمهاجره» [٨٢١]

---

٨١٧ لقد بين فخر الكائنات النبي ﷺ بهذا السلوك المسؤولية الملقاة على عاتق من هم في مواقع الإدارة وصناعة القرار بأجمل وأفضل طريقة، وذلك بالتقدم للمشاركة في كل عمل، وعدم التهاون في أي عمل مهما كان نوعه، وتجنب سلوك التكبر والتعالي على الآخرين... وقد اقتدى السلطان أحمد الأول بالرسول ﷺ في هذا الأمر واتخذه أسوة حسنة، حيث عمل كأحد العمال في أعمال بناء المسجد الذي أصبح خارقة من خوارق فن البناء، وأحد المعالم الأثرية الذي يُذكر مقترنـًا باسمه، إذ حمل بيده المعول والمجرفة وشارك بقية العمال في بنائه. وبعد وفاته رأته ابنته جوهر نسيبة خاتون في حلمها وهو في مقام رفيع في الجنة، فسألته باستغراب: يا أبتي! بأي الأعمال وصلت إلى هذه المرتبة الرفيعة؟
فقال السلطان أحمد: مسند، يا بنيتي! عندما بُني هذا المسجد نقلت حجارته على ظهري. وهذا هو سبب بلوغي لهذا المقام العالي!
عندما جسد السلطان أحمد الأول بسلوكه العملي هذه الأخلاق الإسلامية الكريمة، كانت الدولة العثمانية صاحبة أوسع وأطول حدود من ناحية اتساع المساحة الجغرافية لها. إذ كان ملوك العالم ينحنون إجلالًا لعظمة وعدالة هذه الدولة العلية، ويضعون تيجانهم على رؤوسهم بيد الصدر الأعظم.

٨١٨ ابن هشام: السيرة، ٢، ١١٤.

٨١٩ السمهودي: وفاء الوفا، ١، ٣٣٣؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٣٤٤.

٨٢٠ البقرة: ١٩٥.

٨٢١ البخاري: مناقب الأنصار، ٤٥/ /٣٩٠٦/ ٣٩٣٢.

كان كل رجل من أصحاب النبي ﷺ أثناء بناء المسجد يحمل لبنةً لبنة وعمار بن ياسر يحمل لبنيتن، لبنة عنه ولبنة عن رسول الله ﷺ. فقام إليه رسول الله ﷺ وجعل ينفض التراب عنه، وقال:

«**يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك؟**»

فقال عمار رضي الله عنه: إني أريد الأجر من الله!. فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال:

«**ابن سمية! للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن**» [٨٢٢]

والرواية الآتية أيضًا تبين قيام المسلمين نساءً ورجالًا بالعمل على بناء المسجد النبوي بكل حماس وإقدام. إذ إنه لما توفيت امرأة عبد الله بن أوفى نادى في الناس قائلًا لهم:

«احملوها وارغبوا في حملها! فإنها كانت تحمل ومواليها بالليل حجارة المسجد الذي أسس على التقوى، وكنا نحمل بالنهار حجرين حجرين»[٨٢٣]

لقد كان مسجد النبي ﷺ مربع الشكل يبلغ طوله وعرضه قرابة المائة ذراع[٨٢٤]، وأما ارتفاعه فكان ثلاثة أذرع من الحجارة، وما فوق ذلك من لبن الطين بمقدار خمسة أو سبعة أذرع.[٨٢٥] واستخدم في بناء جدرانه اللَّبِن من الطين[٨٢٦]، ووضع في الجهة القبلية للمسجد أعمدة من جذوع النخل، واستخدم في تسقيفه جريد النخل.[٨٢٧] وجُعل للمسجد محراب وثلاثة أبواب، وكان المحراب في جهة بيت المقدس حيث كانت القدس وقتئذٍ قبلة المسلمين. ولما حُولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أغلق النبي ﷺ الباب الأول للمسجد، وفتح بدلًا عنه بابًا آخر في الحائط الشامي.[٨٢٨]

وبني بجانب المسجد النبوي غرفتان من أجل إقامة الرسول عليه الصلاة والسلام.[٨٢٩] وزاد عدد الغرف فيما بعد.

---

٨٢٢ أحمد: مسند، ٣، ٩١/ ١١٨٦١؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٥٦.

٨٢٣ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢، ١٠/ ١٩٥٦.

٨٢٤ الذراع الواحد يساوي: ٧٥ سم.

٨٢٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٣٩.

٨٢٦ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٣٤٤.

٨٢٧ البخاري: الصلاة، ٦٢.

٨٢٨ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٣٤٦.

٨٢٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤٠.

ويروي الحسن البصري رحمه الله تعالى الذي أمضى طفولته قريبًا من بيت النبي ﷺ لكون أمه جاريةَ أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها، يروي بأن يده في ذلك العهد كانت تطول سقف بيت الرسول ﷺ.[٨٣٠] ويفهم مما يقوله الحسن البصري رحمه الله تعالى بأن سقف البيت لم يكن على ارتفاع عالٍ. وكانت أبواب غرف النبي ﷺ عبارة عن حصير مصنوع من الشعر الأسود.[٨٣١]

وقد عبر كبير أئمة التابعين سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى عن مشاعر الأسف والحسرة التي انتابته جراء هدم هذه الغرف السعيدة وإلحاقها بالمسجد النبوي في العصر الأموي، حيث يقول:

«والله لوددت أنهم تركوها على حالها! ينشأ ناشئٌ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله، ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر» [٨٣٢]

كان المسجد النبوي يمتلئ بالمياه والطين عند هطول الأمطار لأن سقفه مغطى بجرائد النخل التي لا تمنع من تسرب مياه الأمطار. وذات مرة كان النبي ﷺ معتكفًا في المسجد خلال شهر رمضان، فتسربت مياه الأمطار التي هطلت في الليل إلى داخل المسجد وحولت أرضيتها إلى طين، ولما صلى الرسول ﷺ صلاة الفجر بدت على وجهه وجبينه آثار الطين.[٨٣٣]

أمطرت السماء ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة، فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه، فيبسطه تحته فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال:

«ما أحسن هذا!» [٨٣٤]

حمل تميم الداري من الشام إلى المدينة قناديل، وزيتًا، ومقطًا وقنديلًا أو قنديلين من الذهب، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة، فأمر غلامًا يقال له أبو البراد، فقام

٨٣٠ ابن سعد: الطبقات، ٧، ١٦١؛ السهيلي: الروض الأنف، ١، ٢٤٨.

٨٣١ ابن سعد: الطبقات، ١، ٤٩٩.

٨٣٢ ابن سعد: الطبقات، ١، ٤٩٩ – ٥٠٠.

٨٣٣ البخاري: الاعتكاف، ١.

٨٣٤ أبو داود: الصلاة، ١٥/ ٤٥٨.

فبسط المقط وعلق القناديل، وصب فيها الماء والزيت، وجعل فيها الفتل، فلما غربت الشمس أمر البراد فأسرجها، وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فإذا هو بها تزهر، فقال: من فعل هذا؟ قالوا: تميم الداري يا رسول الله! فقال فخر الكائنات سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

«نورت الإسلام، وحليت مسجده، نور الله عليك في الدنيا والآخرة!...» [٨٣٥]

وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أن المسجد النبوي هو واحد من المساجد الثلاثة التي تُشد إليها الرحال بقصد الزيارة والتعبد، فقال ﷺ:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى»[٨٣٦]

وقال النبي ﷺ:

«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. ومنبري على حوضي» [٨٣٧]

وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الصلاة في المسجد النبوي أفضل من الصلاة في غيره من الأماكن بألف مرة، ما عدا الصلاة في المسجد الحرام، فقال ﷺ:

«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام» [٨٣٨]

يروي أنس رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخطب إلى لزق جذع نخل، واتخذوا له منبرًا في المسجد نظرًا للضرورة التي دعت إليه في ذلك الوقت، فبدأ الرسول ﷺ يخطب عليه. فحنّ الجذع الذي كان يخطب عليه حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ عن منبره وذهب إليه فمسه، فسكن الجذع.[٨٣٩]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام عن هذه النخلة:

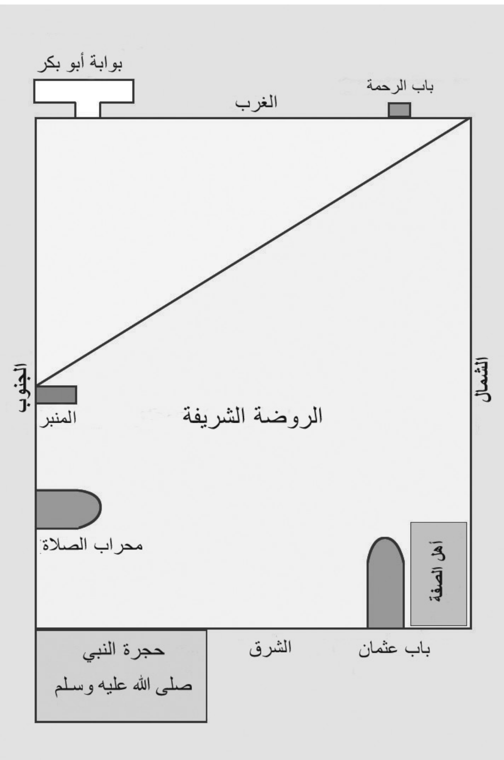
«كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[٨٤٠]

---

٨٣٥ السمهودي: وفاء الوفا، ٢، ٥٩٦ - ٥٩٧؛ ابن حجر: الإصابة، ٢، ١٨/ ٩٦٠٩.
٨٣٦ البخاري: فضل الصلاة، ١/ ١١٨٩؛ مسلم: الحج، ٥١١-٥١٣/ ١٣٩٧.
٨٣٧ البخاري: فضل الصلاة، ٥/ ١١٩٦، فضائل المدينة، ١١؛ مسلم: الحج، ٥٠٢/ ١٣٩١.
٨٣٨ البخاري: فضل الصلاة، ١/ ١١٩٠؛ مسلم: الحج، ٥٠٥ - ٥١٠/ ١٣٩٤.
٨٣٩ البخاري: المناقب، ٢٦/ ٣٥٨٥؛ الترمذي: المناقب، ٦/ ٣٦٢٧.
٨٤٠ البخاري: المناقب، ٢٥/ ٣٥٨٤؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٠٠.

ثم بعد ذلك حفرت حفرة تحت المنبر فدفن الجذع فيها، أو جعل في السقف. فلما هُدم المسجد في عهد عثمان بن عفان ﷺ وأعيد بناؤه، أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب. وكان عنده في بيته حتى بلى، فأكلته الأرضة وعاد رفاتًا.[٨٤١]

لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة المنورة كانت من أولى الخطوات التي اتخذها من أجل خلق مجتمع إسلامي سليم متماسك ومتضامن بناؤه المسجد النبوي، وذلك لأنه كان لاجتماع المسلمين بعضهم مع بعضهم في مكان واحد لخمس مرات في اليوم من أجل أداء الصلوات المفروضة تأثيرًا مهمًا في إزالة الفوارق بينهم من حيث المكانة الاجتماعية، والمال والجاه، وتعزيز الأخوة التي تم تأسيسها بينهم. ولهذا السبب فقد تم تشكيل المدن الإسلامية بشكل عام بإيجاد مركز رئيسي وسطه ثم التوسع انطلاقًا منه إلى الأطراف، حيث يُجعل المسجد في المركز، وتُقام المنازل من حوله.



كان المسجد في عصر السعادة إلى جانب كونه مكانًا للعبادة، يُعتبر أيضًا مكانًا للتدريس، ومجلسًا لعقد اجتماعات الشورى، ومركزًا لبحث المواضيع الإدارية والعسكرية، ومشفى للتداوي، ومكانًا للاستراحة. وكان مأوى الصحابة غير المتزوجين ومن لا بيوت لهم والذين يداومون على مجالس التعليم والذكر في المسجد، كان مأواهم أيضًا صفة المسجد. ومن هذه الناحية كان المسجد النبوي يقوم بوظيفة بيت الضيافة أيضًا.

٨٤١ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٥١ - ٢٥٢.

الحث على صلاة الجماعة

إن التربية الاجتماعية تُعد من أهم الأسس التي يقوم عليه الإسلام، وإن الدرس الأول في التربية الاجتماعية عند المسلمين يبدأ من أداء الصلاة مع الجماعة، إذ إن الركن الأساسي والعمل الصالح الأول الذي يحافظ على بقاء وسلامة المجتمع الإسلامي الصلاة مع الجماعة. فحيثما وجد أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة فإن ذلك يشكل دلالة على بدء فهم ذلك المجتمع بإدراك روح الإسلام وبنيته الاجتماعية. إذ إن الإسلام الذي يهدف إلى تأسيس ركائز الوحدة والتماسك بين أتباعه قد أمرهم بإقامة الصلاة التي تُعد العلامة الفارقة والمميزة لهم عن الآخرين مع الجماعة، واعتبر المداومة في التردد على المساجد من أحد دلائل الإيمان. حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان، لأن الله تعالى يقول:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾» [٨٤٢]

إذًا، إن عمارة المساجد من الناحية المعنوية بالمداومة على صلاة الجماعة فيها تُعد من وظائف العبودية المهمة التي لا تقل قيمة وأهمية عن عمارتها من الناحية المادية. وقد جاء في الرواية التي نُقلت عن أبي هريرة ﵁، أن:

«الغرباء فِي الدنيا أربعة: قرآن في جوف ظالم، ومسجد في نادي قوم لَا يصلون فيه، ومصحف في بيت لَا يقرأ فيه، ورجل صالح مع قوم سوء» [٨٤٣]

لقد أولى الله سبحانه وتعالى أهمية كبيرة لأداء الصلوات مع الجماعة، حتى في حالة الحرب وأثناء المعركة، فقد أمر الجنود المسلمين بإقامة صلاة الجماعة، وبيَّن كيفية إقامتها في القرآن الكريم. يقول أبو هريرة ﵁:

«إن رسول الله ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون:

إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، هي العصر. فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة! فأتى جبريل ﵇ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وجاءه بالآية التي تبين كيفية أداء الصلاة مع الجماعة في حالة الحربن يقول الله تعالى:

---

٨٤٢ التوبة: ١٨؛ ابن ماجه: المساجد، ١٩/ ٨٠٢.

٨٤٣ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٣، ١٠٨/ ٤٣٠١.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [٨٤٤]» [٨٤٥]

أي مهما كانت الظروف والأحوال صعبة وحرجة فإن تأجيل الصلاة أو ترك أدائها مع الجماعة غير وارد على الإطلاق عند المسلمين.

ونورد فيما يأتي جملة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث وتشجع على صلاة الجماعة، وتبين أهميتها:

«**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ** -الفرد- **بسبع وعشرين درجة**» [٨٤٦]

«**من غدا إلى المسجد وراح، أعد الله له نزلة من الجنة، كلما غدا أو راح**» [٨٤٧]

«**إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة، لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله ﷻ له حسنة، ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله ﷻ عنه سيئة، فليقرب أحدكم أو ليبعد، فإن أتى المسجد وقد صلوا بعضًا وبقي بعض صلى ما أدرك وأتم ما بقي كان كذلك، فان أتى المسجد وقد صلوا فأتم الصلاة كان كذلك**» [٨٤٨]

«**إذا توضأ أحدكم، فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد، كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه**» [٨٤٩]

---

٨٤٤ النساء: ١٠٢.

٨٤٥ الترمذي: التفسير، ٤/ ٣٥، ٣٠٣٥؛ أحمد: مسند، ١٦، ٤٤٤/ ١٠٧٦٥.

٨٤٦ البخاري: الأذان، ٣٠/ ٦٤٥؛ مسلم: المساجد، ٢٤٩/ ٦٥٠

٨٤٧ البخاري: الأذان، ٣٧/ ٦٦٢؛ أحمد: مسند، ١٦، ٣٥٥/ ١٠٦٠٨.

٨٤٨ أبو داود: الصلاة، ٥٠/ ٥٦٣.

٨٤٩ ابن ماجه: المساجد، ١٤/ ٧٧٤.

يروي أبو هريرة ﷺ نقلًا عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال:

«**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**»

قالوا: بلى. يا رسول الله! قال الرسول ﷺ:

«**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» [٨٥٠]

يقول يزيد بن عامر ﷺ:

جئت والنبي ﷺ في الصلاة، فجلست ولم أدخل معهم في الصلاة، فانصرف علينا رسول الله عليه الصلاة والسلام فرآني جالسًا، فقال:

«**ألم تسلم يا يزيد؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قد أسلمت. فقال رسول الله ﷺ:

«**فما منعك أن تدخل مع الناس في صلاتهم؟**»

قلت: إني كنت قد صليت في منزلي، وأنا أحسب أن قد صليتم. فقال النبي ﷺ:

«**إذا جئت إلى الصلاة فوجدت الناس، فصل معهم، وإن كنت قد صليت تكن لك نافلة، وهذه مكتوبة**»[٨٥١]

لم يكن النبي ﷺ يقبل من الناس أي عذر بشأن التخلف عن صلاة الجماعة، وقد طلب من المسلمين أن ينظموا أمورهم وأعماهم وشؤونهم بما يتوافق مع مواعيد الأذان، وقد جاء ذات يوم عبد الله بن أم مكتوم إلى الرسول ﷺ، وسأله، فقال:

يا رسول الله! إني رجل ضرير البصر شاسع الدار، ولي قائد لا يلاومني – أي يوافقني –، فهل ترخص لي أن أصلي في بيتي؟ فرخص له، فلما ولى، دعاه،فقال له النبي ﷺ:

«**هل تسمع النداء؟**»

قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «**لا أجد لك رخصة**»[٨٥٢]

---

٨٥٠ مسلم: الطهارة، ٤١/ ٢٥١.

الرباط: يأتي بمعنى ربط النفس بالطاعات، وحراسة الثغور والحدود، والجهاد في سبيل الله. وقد امتدحت الآيات والأحاديث الرباط كثيرا، ووعدت بالأجر الجزيل للمرابطين–.

٨٥١ مسلم: المساجد، ٢٥٥/ ٦٥٣؛ أبو داود: الصلاة، ٥٦/ ٥٥٢؛ ابن ماجه: المساجد، ١٧/ ٧٩٢.

٨٥٢ أبو داود: الصلاة، ٤٦/ ٥٥٢.

وقد قال النبي ﷺ عن فضل السعي إلى صلاة الجماعة لمن يكون بيته بعيدًا عن مكان الجماعة:

«أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة، حتى يصليها مع الإمام، أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام» [٨٥٣]

«الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا» [٨٥٤]

لقد حذر النبي ﷺ كثيرًا من لا يواظب على صلاة الجماعة، حيث يروي أبي بن كعب في هذا المجال الحادثة الآتية، فيقول: صلى بنا رسول الله ﷺ يومًا الصبح، فقال: «**أشاهد فلان؟**» فقالوا: لا. قال: «**أشاهدٌ فلان؟**» قالوا: لا. فقال:

«إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبوًا على الركب، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله ﷻ» [٨٥٥]

وقال سيدنا علي رضي الله عنه:

«لا صلاة لجار المسجد ـ أي صلاة كاملة ـ إلا في المسجد» قيل: ومن جار المسجد؟ قال علي رضي الله عنه: «من أسمعه المنادي» [٨٥٦]

وإن الأحاديث الآتية تحتوي على تحذير وتهديد شديد اللهجة من النبي عليه الصلاة والسلام بحق تاركي صلاة الجماعة، حيث يقول الرسول ﷺ:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية» [٨٥٧]

«لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين» [٨٥٨]

---

٨٥٣ البخاري: الأذان، ٣١/ ٦٥١؛ مسلم: المساجد، ٢٧٧/ ٦٦٢.

٨٥٤ أبو داود: الصلاة، ٤٨/ ٥٥٦؛ ابن ماجه: المساجد، ١٥/ ٧٨٢.

٨٥٥ أبو داود: الصلاة، ٤٧/ ٥٥٤.

٨٥٦ ابن أبي شيبة: المصنف، ١، ٣٠٣/ ٣٤٦٩.

٨٥٧ أبو داود: الصلاة، ٤٦/ ٥٤٧.

٨٥٨ ابن ماجه: المساجد، ١٧/ ٧٩٤.

الأذان الأول

لقد كان في أول الأمر ينادى الناس حين دخول وقت الصلاة بـ: «الصلاة، الصلاة». وبعد ذلك تفضل الله تعالى على المسلمين وشُرع الأذان المحمدي.

لقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه حول الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها شكل دعوة الناس إلى الصلاة وإعلامهم بدخول وقتها. فاقترح بعضهم قائلين:

«عندما يدخل وقت الصلاة ننصب راية في مكان مرتفع، وإذا رآها المسلمون أخبروا بعضهم بعضًا، فيعلموا بذلك دخول وقت الصلاة». ولكن النبي ﷺ لم يرقه هذا الطرح.

وقال آخرون: «ننفخ في البوق كما يفعل اليهود».

فرد الرسول ﷺ هذا الاقتراح أيضًا، وقال: «**هذا من أمر اليهود**»

وتحدث آخرون عن دق الجرس، فقال النبي عليه الصلاة: «**هو من أمر النصارى**»

فانصرف عبد الله بن زيد[٨٥٩] بن عبد ربه وهو مهتم لهمِّ رسول الله ﷺ، فأُرِي الأذان المحمدي في منامه فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال له: يا رسول الله! إني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأراني الأذان.

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يومًا، قال: ثم أخبر النبي ﷺ، فقال له: «**ما منعك أن تخبرني؟**». فقال: سبقني عبد الله بن زيد، فاستحييت. فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال، قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله!**».

فأذن بلال كما علمه عبد الله بن زيد رضي الله عنهما.[٨٦٠]

---

٨٥٩ عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري: لقد حاز على إعجاب وتقدير النبي ﷺ يوم أحد حيث دافع عن رسول الله ﷺ عن قرب. وفي هذه المعركة لم يكن عبد الله رضي الله عنه الوحيد الذي أظهر البطولة والتضحية وإنما أبدى كل أفراد عائلته بطولات قل نظيرها. وقد دعا لهم النبي ﷺ أن يكونوا بجواره يوم القيامة في الجنة. كان الرسول ﷺ يمر بين الحين والآخر على بيت عبد الله بن زيد رضي الله عنه فيتوضأ ويصلي هناك. وكان عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه واحدًا من الصحابة المحبين لرسول الله ﷺ إلى درجة الافتتان. ولما سمع عبد الله نبأ وفاة النبي ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى دعا ربه قائلاً: «اللهم إن كان هذا النبأ صحيحًا فاعمِ بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد أحدًا» فعمي بصره من ذلك الوقت. (القرطبي: ٥، ٢٧١).
استشهد عبد الله بن زيد رضي الله عنه وعن ولديه في المعركة المعروفة باسم وقعة الحرة.

٨٦٠ أبو داود: الصلاة، ٢٧/ ٤٩٨.

وبذلك أصبح الأذان سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الإسلام وسننه الواجبة. وذلك لأنه ثابت بالرؤيا الصادقة، وبالسنة النبوية، وبالوحي الإلهي. حيث يقول الله تعالى ﷻ:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ [٨٦١]

وعلى الرغم من أن عبد الله بن زيد ؓ كان الوسيط في تشريع الأذان إلا أن مظهر الوحي والفيض الغيبي كان دائمًا هو نور الكون سيدنا محمد ﷺ. حيث شُرع الأذان بتصديق وإقرار منه وبُدئ به للنداء على الناس إلى المسجد والجماعة، ولما رفع بلال الحبشي ؓ الأذان الأول وصلت أصداء هذه الدعوة الجليلة من أقصى المدينة إلى أقصاها، وتردد صدد الأذان في السماء، فأسرع المؤمنون إلى المسجد تغمرهم نشوة الإيمان والسعادة.

على الرغم من عرض وسائل وأساليب متعددة لدعوة الناس إلى الصلاة على نور الكون عليه الصلاة والسلام إلا أنه لم يسحب أيًّا منها، وأما الأذان فقد تلقاه بالقبول بفرح ورحابة صدر، وذلك لأن الأذان يلخص مبادئ الإسلام وعقيدته في الله، والنبي، والعبادة، والحياة، ويقيم بينهم ترابطًا سليمًا وصحيحًا، حيث رجح الرسول ﷺ الطريقة المثلى في أمر الدعوة إلى الصلاة.

إن الأذان الذي ثبت بالآيات والأحاديث الصحيحة هو بالنسبة للمؤمنين دعوة علوية مستمرة منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة سنة، إنه نداء صلاة شامل للعالم والملل أجمع، ولهذا السبب لا يمكن رفع الأذان بغير شكله الأصلي والأساسي، إن الأذان وكأنه نغمة سماوية قدسية تربط المسلمين بالسماء دومًا.

يقول الرسول ﷺ:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا. ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» [٨٦٢]

وفي حديث آخر، يقول النبي ﷺ:

«إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر. فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله. قال: أشهد أن لا إله إلا الله. ثم قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، قال: أشهد

٨٦١ المائدة: ٥٨.

٨٦٢ مسلم: الصلاة، ١١/ ٣٨٤؛ أبو داود: الصلاة، ٣٦/ ٥٢٣.

أن محمدًا رسول الله، ثم قال: حيَّ على الصلاة. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: حيَّ على الفلاح. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: الله أكبر الله أكبر. قال: الله أكبر الله أكبر. ثم قال: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا الله، من قلبه دخل الجنة» [٨٦٣]

وقال عليه الصلاة والسلام عن الدعاء بعد سماع الأذان:

«من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[٨٦٤]

لقد وردت أحاديث كثيرة حول فضل الأذان الذي يُعد صدى الدعوة الربانية يصدح في أجواز السماء. ومن هذه الأحاديث:

«ثنتان ـ دعوتان ـ لا تُردَّان أو قلما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس ـ أي قتال العدو ـ حين يلحم بعضهم بعضًا» [٨٦٥]

«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه...» [٨٦٦]

«إذا أذن بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا سكت المؤذن أقبل، فإذا ثوب أدبر، فإذا سكت أقبل، فلا يزال بالمرء يقول له: اذكر، ما لم يكن يذكر، حتى لا يدري كم صلى» [٨٦٧]

أصحاب الصفة: مدرسة العلم والعرفان

لقد أقيمت في أحد أطراف المسجد النبوي صفة[٨٦٨] مفتوحة الجوانب ومغطاة بجرائد النخل، وكان يقيم فيها فقراء الصحابة ممن لا بيوت ولا عائلات لهم، وأُطلق عليهم اسم «أصحاب الصفة» أو «أهل الصفة».[٨٦٩] كان عدد أصحاب الصفة يتغير باستمرار فيزيد

---

٨٦٣ مسلم: الصلاة، ١٢/ ٣٨٥؛ أبو داود: الصلاة، ٣٦/ ٥٢٧ .

٨٦٤ البخاري: الأذان، ٨/ ٦١٤؛ أبو داود: الصلاة، ٣٧/ ٥٢٩.

٨٦٥ أبو داود: الجهاد، ٣٩/ ٢٥٤٠.

٨٦٦ البخاري: الأذان، ٩، ٣٢/ ٦١٥، الشهادات، ٣٤/ ٢٦٨٩؛ مسلم: الصلاة، ١٢٩/ ٤٣٧.

٨٦٧ البخاري: الأذان، ٤/ ١٢٢٢؛ مسلم: الصلاة، ١٩/ ٣٨٩.

٨٦٨ الصفة تعبير يُستخدم للدلالة على أماكن الجلوس المرتفعة من نوع الإيوان أو السدة التي تقام في البيوت أو القصور.

٨٦٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٥٥.

أحيانًا، و ينقص أحيانًا أخرى، وذلك حسب الظروف التي تمر عليهم، كأن يتزوج أحدهم، أو يخرج في سفر، أو يسكن في مكان آخر، أو يُتوفى، وقد وصل عددهم مجتمعين إلى سبعين شخصًا.

ويذكر في بعض المصادر اسم أكثر من مائة صحابي من أهل الصفة. وقد كان النبي ﷺ يقوم بتأمين متطلبات معاشهم، ويطلب ممن له أموال من الصحابة تقديم العون والمساعدة لهم.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه والذي كان أحد أهل الصفة:

«وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها...»[٨٧٠]

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا:

«رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل إلا عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته»[٨٧١]

ويروي فضالة بن عبيد رضي الله عنه:

«أن النبي ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة والجوع، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين. فإذا صلى النبي ﷺ انصرف إليهم، فقال:

«**لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة**»[٨٧٢]

ويروي عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما الواقعة الآتية، فيقول:

إن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس**».

---

٨٧٠ البخاري: الرقاق، ١٧/ ٦٤٥٢.

٨٧١ البخاري: الصلاة، ٥٨/ ٤٤٢.

٨٧٢ الترمذي: الزهد، ٣٩/ ٢٣٦٨.

وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي بعشرة... وايم الله، ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس، ما هذا؟. قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات!...[٨٧٣]

إن هذه القصة مثال واقعي على البركة التي تكون بسبب الإخلاص والكرم.

لقد كان أصحاب الصفة يعملون عندما يجدون عملًا، وفي الأوقات الأخرى ينشغلون في المسجد بالعلم والعبادة. وقد كان أصحاب الصفة ممن لديهم القوة البدنية يقومون بما يتيسر لهم من الأعمال حتى ولو كانت شاقة ومجهدة مثل جلب الحطب على ظهورهم من رؤوس الجبال، ونقل المياه إلى البيوت من الينابيع، ثم يشترون بما يكسبوه من المال طعامًا وشرابًا لأصحابهم.[٨٧٤] ولأنهم كانوا ملتزمين بالعفة والوقار فقد كانوا يمتنعون عن كل ما من شأنه أن ينقص من قدرهم أو يسيء إليهم. فلم يكونوا يطلبون شيئًا من أحد. وكان أصحاب الصفة أقرب الناس إلى صفاء الدين وحقيقته، وأكثرهم التزامًا بمجلس النبي ﷺ. ولهذا السبب فقد كانت تربيتهم سريعةً جدًا، من أمثال أبي بن كعب، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت من علماء الصحابة الذين كان معلمهم الرسول ﷺ.

لقد كان أصحاب الصفة على مستوى عالٍ من العلم، وكأنهم قد خضعوا لدورات تعليمية مكثفة وممتازة. حيث إن أغلب المكثرين لرواية أحاديث النبي ﷺ كانوا عمومًا من أصحاب الصفة. ويقول أبو هريرة رضي الله عنه الذي يأتي على رأس هؤلاء المكثرين:

«إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة... إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون» [٨٧٥]

وقد كانت الوفود التي تأتي إلى المدينة المنورة من أجل تعلم الإسلام في مدة قصيرة يلتقون من جهة بالنبي ﷺ، ومن جهة أخرى يتعلمون من أصحاب الصفة المسائل التي لا يعرفونها. وعندما كانت الحاجة تدعو لإرسال معلمين من الصحابة إلى القبائل التي دخلت

---

٨٧٣ البخاري: المواقيت، ٤١/ ٦٠٢، المناقب، ٢٥/ ٣٥٨١؛ مسلم: الأشربة، ١٧٦ – ١٧٧/ ٢٠٥٧.

٨٧٤ انظر: البخاري: المغازي، ٢٨، الجهاد، ٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٥١٤.

٨٧٥ البخاري: العلم، ٤٢/ ١١٨.

الإسلام حديثًا خارج المدينة من أجل تعليمهم أمور دينهم، فقد كان يتم اختيار المعلمين من بين أصحاب الصفة.

إن مرتبة أصحاب الصفة من حيث الفضل بين الصحابة تأتي بعد مرتبة الخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرين بالجنة، وأصحاب بدر. وقد امتدحهم الله تعالى وأثنى عليهم في مواضع كثيرة في القرآن الكريم. حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٨٧٦]

ويروي خباب رضي الله عنه الحادثة الآتية، فيقول:

«جاء من المشركين المتكبرين الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري إلى رسول الله ﷺ، فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من ضعفاء المؤمنين. فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا له: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. فقال النبي ﷺ: نعم. قالوا:فاكت ب لنا عليك كتابًا. فدعا رسول الله ﷺ بصحيفة، ودعا عليًا ليكتب ونحن قعود في ناحية. فنزل جبرائيل عليه السلام فأنزل عليه قول الله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧٧]

ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٨٧٨]

---

٨٧٦ البقرة: ٢٧٣.

٨٧٧ الأنعام: ٥٢.

٨٧٨ الأنعام: ٥٣.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ..﴾ [٨٧٩]

فوضع النبي عليه الصلاة والسلام الصحيفة التي كان يريد أن يكتب فيها العهد جانبًا، ثم نادانا، ولما أتيناه قال:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٨٨٠]

فكنا نقعد مع النبي عليه الصلاة والسلام فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم»[٨٨١]

لما نزلت الآية الأخيرة المذكورة آنفًا، نهض النبي عليه الصلاة والسلام على الفور من مجلسه وطفق يبحث عن أولئك الصحابة الفقراء، فوجدهم خلف المسجد يذكرون الله تبارك وتعالى. فقال الرسول ﷺ:

«الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي! معكم المحيا ومعكم الممات»[٨٨٢]

ويقول أبوسعيد الخدري رضي الله عنه:

«جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارئ يقرأ علينا ـ أي القرآن الكريم ـ إذ جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فقام علينا، فلما قام النبي ﷺ سكت القارئ. فسلم رسول الله ﷺ ثم قال:

ما كنتم تصنعون؟

---

٨٧٩ الأنعام: ٥٤.

٨٨٠ الكهف: ٢٨.

٨٨١ ابن ماجه: الزهد، ٧/ ٤١٢٧؛ الطبري: التفسير، ٧، ٢٦٢ - ٢٦٣.

٨٨٢ الواحدي: أسباب النزول -الكهف-، ١، ٣٠٦؛ الطبري: التفسير، ١٥، ٢٤٠.

قلنا: يا رسول الله! إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله.

فقال رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي جعل من أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم»[٨٨٣]

ثم جلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال مشيرا بيده: هكذا ـ أي تحلقوا ـ فتحلقوا وبرزت وجوههم له. فقال رسول الله ﷺ:

«أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين! بالنور التام يوم القيامة. تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذاك خمس مائة سنة»»[٨٨٤]

زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد عقد على أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ قبل الهجرة في مكة المكرمة، ولكن تزوجها ودخل بها بعد الهجرة في المدينة المنورة.

تقول أم المؤمنين عائشة ﵂:

«لما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة خلفنا وبناته بمكة. فلما قدموا المدينة أرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه وأرسل معهما ناقتين وخمسمائة درهم ليشتروا بها طعامًا، وأرسل والدي أبو بكر معهم عبد الله بن أريقط ومعه ناقتان أو ثلاثة نوق، فأرسل أخي إلى عبد الله يخبره بأن يُركبني أنا وأمه أم رومان وأختي أسماء على الجمال ويرسلنا. فخرج أبو رافع بفاطمة، وأم كلثوم، وسودة بنت زمعة. وخرج زيد بأم أيمن وابنه أسامة، ومن ثم خرجنا جميعًا في طريقنا إلى المدينة.[٨٨٥] فلما كنا بقديد نفر البعير الذي كنت عليه أنا وأمي أم رومان في محفة فجعلت أمي تنادي: وابنيتاه! واعروساه فسلم الله وهدأ البعير. فقدمنا المدينة بسلام وبقيت مع

---

٨٨٣ يلمح النبي ﷺ بقوله هذا إلى الآية التي ذكرناها آنفًا من الكهف. حيث أمر الله تعالى رسوله الأكرم ﷺ بالصبر على المضايقات والشدائد التي قد يتعرض لها نتيجة صحبته للضعفاء والفقراء الذين سبقوا إلى الإسلام، وأمره أيضًا بحسن معاملتهم والتصرف بلطف معهم.

٨٨٤ أبو داود: العلم، ١٣/ ٣٦٦٦.

٨٨٥ أما السيدة زينب ﵂ فبقيت مدة من الزمن في مكة لأنَّ زوجها أبا العاص الذي لم يكن قد أسلم بعد لم يأذن لها بالخروج.

أهلي. وكان رسول الله ﷺ يبني المسجد وأبياتًا حول المسجد. وبعد مدة قال أبي: ما يمنعك أن تبني بأهلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الصداق. فدفع إليه أبي ثنتي عشرة أوقية. فدفع رسول الله عليه الصلاة والسلام صداقي وبنى بي في شهر شوال.[٨٨٦] ولم يذبح النبي عليه الصلاة والسلام لا جملًا ولا شاة. وإنما أرسل سعد بن عبادة[٨٨٧] إلى رسول الله ﷺ طعامًا في طبق كبير» [٨٨٨]

أحوال المدينة

لقد كان عهد المدينة - الذي أصبح عهد سيادة الإسلام والمسلمين وأنار العالم بالتأسيس للمبادئ الشاملة للدين المبين، وأُحكم بدماء الشهداء والمجاهدين في الغزوات والمعارك - عهدًا مليئًا بالنشاط المتقد والوجد والحركة.

إن ظروف المدينة التي احتضنت بكل إمكاناتها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والمهاجرين من الصحابة لم تكن تُعد في البدء مريحة ومواتية بالشكل الأمثل. حيث كانت بعض المخاطر تتربص بالمسلمين. وذلك لأن المدينة كانت تضم إلى جانب المهاجرين والأنصار بعض المنافقين واليهود، وكان هؤلاء يستغلون أي فرصة للطعن في الإسلام والحيلولة دون انتشاره وانتصاره.

---

٨٨٦ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٥٨، ٦٢ - ٦٣.

٨٨٧ سعد بن عبادة، ﷺ: أسلم في بيعة العقبة الثانية. إذ كان أحد الممثلين الاثني عشر في تلك البيعة. وكان رجلًا غنيًا وكريمًا. ولما نزل النبي عليه الصلاة والسلام ضيفًا في بيت خالد بن زيد مدة سبعة أشهر كان سعد بن عبادة يرسل إليه الطعام كل يوم. وكان له بيت على شكل القلاع، حيث كان يقيم فيه ويولم للناس كل يوم، فيذهب إليه كل من شاء الذهاب ليأكل ويشرب دون مقابل. وكان ﷺ يطعم أصحاب الصفة كل يوم. وحمل في كثير من المعارك راية قبيلة الخزرج. وفي غزوة ذي قرد قدم حمل عشرة جمال من التمر كمؤونة لجيش المسلمين. فدعا له النبي عليه الصلاة والسلام على هذا الصنيع قائلًا: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة». وفي غزوة بني قريظة أيضًا قدم الطعام لكل جيش المسلمين. وبقي يخدم الإسلام ويجاهد في سبيل الله تعالى بماله ونفسه حتى وفاته. لقد كان له حول المدينة الكثير من الأراضي، والبساتين، والحدائق. وكان بيته في حي على أطراف المدينة. وقد أقام هناك مسجدًا لبعد داره عن مسجد النبي عليه الصلاة والسلام. وبعد خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ذهب إلى حوران على أطراف الشام. وفي عام / ٦٣٥/ توفي هناك، ودفن ﷺ في غوطة دمشق.

٨٨٨ أحمد: مسند، ٦، ٢١١.

على الرغم من إظهار المنافقين للإسلام ومشاركة المسلمين في الشعائر الظاهرية للإسلام إلا أنهم كانوا يستبطنون كفرهم ووثنيتهم القديمة. لقد أورد الله تعالى – الذي سيُتم نوره على أكمل وجه – تهديدًا ووعيدًا شديدين بحق هؤلاء المنافقين، حيث قال ﷻ:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [٨٨٩]

لقد اكتسب هؤلاء المنافقون مهارة عجيبة في نفاقهم وأسلوب إخفائه لدرجة أن النبي ﷺ لم يكن يطلع ويكشف أحيانًا حالتهم إلا بوحي وإعلام من الله تعالى. وذلك لأن المنافقين كانوا يشعرون بأية شكوك أو انتقادات حتى ولو كانت بسيطة يمكن أن تدور حولهم أو توجه إليهم، ويتصرفون على ضوء ذلك بخبث ومكر.

ولم يكن المشركون الذين أجبروا الرسول الأكرم ﷺ والمؤمنين على الهجرة وترك بلادهم، لم يكونوا أيضًا يقفون مكتوفي الأيدي تجاه المسلمين في المدينة، حيث كانوا يعملون على تأجيج نيران الفتنة التي أوقدها المنافقون في المدينة. فهم لم يرتاحوا أبدًا لتوطن الإسلام وإظهاره هناك، وإنما كانوا على الدوام يبعثون الكتب والرسل إلى المنافقين من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين في المدينة المنورة. ويضمنون هذه الكتب بالتهديد الشديد إن هم لم ينفذوا ما يُطلب منهم بأن يجمعوا قبائل العرب في شبه الجزيرة العربية كلها فيهاجموا المدينة ويضربوا بالسيف رقاب كل من فيها دونما تمييز بين المؤمنين، والمنافقين، والمشركين. وحتى إنه بلغ بهم الأمر أن أرسلوا إلى المدينة عصبة من اللصوص وقطاع الطرق فنهبوا قطعان المدينة وسرقوها، وذلك بهدف زرع مزيد من الخوف والرعب في قلوب المنافقين وتحريضهم على المؤمنين. لقد بلغت الأحوال مرحلة حرجة ودقيقة وأظهرت المخاطر والتهلكة بشكل جلي. وقد اتخذ المسلمون كل التدابير الممكنة لمواجهة مختلف المخاطر والهجمات المحتملة، وأخذوا يتناوبون على حراسة أحياء وشوارع المدينة في الليل. حتى إن النبي ﷺ كان يقضي لياليه دون نوم. وكان المسلمون يرسلون الفرق العسكرية المسلحة خارج المدينة من أجل السيطرة والتحكم بكل النواحي.

---

٨٨٩ التوبة: ١٠١.

ومن جهة أخرى، فقد كانت هناك قبائل اليهود والتي تُعد من ألد أعداء المسلمين والمتحينين لأية فرصة سانحة من أجل الانقضاض عليهم والفتك بهم. ولأنهم يمتلكون معلومات حول الأديان السابقة فقد كانوا من أكثر الناس جدالًا للمسلمين، وأكثرهم إثارة للمشكلات. ولهذا السبب فقد تم إيلاء أهمية كبيرة لموضوع دعوة اليهود إلى الإسلام في سورة البقرة التي تُعد من أوائل ما نزل من السور في المدينة. فبعد ذكر دعوة الناس عامة إلى الإسلام والتي تخللت الآيات من ٤٠ إلى ١٦٢، فقد تحدثت الآية / ١٢٣/ حول بني إسرائيل بشكل خاص، وتم تخصيص ما يزيد عن نصف السورة تقريبًا لهم. وكان الحديث يحتوي على مخاطبتهم مباشرة، أو البحث في الأمور الغيبية، وأحيانًا يحتوي على ردود بشأن بعض ادعاءاتهم، وأحيانًا يتضمن تذكيرًا بالنعم التي أُغدقت عليهم من أجل إيقاظ العواطف الإيمانية النائمة في قلوبهم.[٨٩٠]

لقد كان الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ في شِعره ويحرض مشركي قريش عليه. وكان شعراء مشركي قريش أيضًا يهجون الرسول ﷺ في شعرهم. فاستأذن الشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه والذي يُعد من أشهر شعراء العرب عامة وشعراء الأنصار خاصة، استأذن من النبي ﷺ في هجاء مشركي مكة بشعره. فأذن له الرسول ﷺ بذلك.[٨٩١]

لقد كان للشعر في ذلك الوقت تأثير كبير على الناس يشبه التأثير الذي يحدثه الإعلام في وقتنا الحاضر. فأقام النبي ﷺ للشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه منبرًا خاصًا في المسجد. وأخذ حسان يهجو من على هذا المنبر كل من يؤذي أو ينال من رسول الله ﷺ بكلام. فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**إن روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله ﷺ**» [٨٩٢]

بينما كان اليهود والمشركون يحيكون المؤامرات ويؤذون الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، كان الله تعالى يوصي حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام ويأمره بالصبر والعفو.

٨٩٠ انظر دراز: النبأ العظيم، ص، ١٧٨.

٨٩١ انظر: البخاري: المناقب، ١٦؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٥٦ - ١٥٧.

٨٩٢ أبو داود: الأدب، ٨٧/ ٥٠١٥.

روي عن عروة بن الزبير ﷺ:

«ركب رسول الله ﷺ ذات مرة على حمار، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج حيث كان مريضًا، قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم رسول الله عليه الصلاة والسلام عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله ابن رواحة: بلى يا رسول الله! فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

«**يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب – يريد عبد الله بن أبي – قال: كذا وكذا**».

فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه:

– يا رسول الله! اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك. ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوِّجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فلذلك فعل به ما رأيت.

فعفا النبي ﷺ عن عبد الله بن أبي. فنزل بسبب ذلك قول الله ﷻ:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٨٩٣]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه قبل نزول آيات القتال يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى.[٨٩٤]

---

٨٩٣ آل عمران: ١٨٦.

٨٩٤ البخاري: التفسير، ٣، ١٥/ ٤٥٦٦، الأدب، ٤٥/ ٦٢٠٧، المرضى، ١٢/ ٥٦٦٣.

الإذن بالقتال:

«قاتلوا الذين يقاتلونكم»

لم يؤذن للنبي عليه الصلاة والسلام في السابق بقتال المشركين. فقد كان عليه الصلاة والسلام مكلفًا بدعوة المشركين إلى القبول بوحدانية الله ﷻ، وتحمل الظلم والأذى الذي يتعرض له، والصبر على التصرفات المهينة التي تصدر عن الجهلة وعدم الالتفات إليها وغض الطرف عنهم. وأما مشركو قريش فقد كانوا يتحولون في تعذيب أتباع الرسول ﷺ من صنف إلى آخر من أجل إجبارهم على ترك الدين الجديد الذي آمنوا به ودخلوا فيه. وأما المسلمون فمنهم من ترك دينه نتيجة عدم تحملهم لألوان العذاب التي أُذيقوها على أيدي المشركين، ومنهم من هاجر في سبيل النجاة بدينه إلى الحبشة، ومنهم هاجر إلى المدينة مضطرين بذلك إلى ترك ديارهم وأوطانهم التي ولدوا وترعرعوا فيها.

وبدأ سير الأحداث المؤذية يتجه نحو مزيد من التعقيد والخطورة بحيث لم تعد سياسة «الصبر والتحمل» التي اتبعها النبي ﷺ إلى ذلك الوقت، لم تعد تجدي نفعًا في تحقيق الصلح والسلم. ورأى النبي ﷺ أن سلاح الدفاع الذي تمسك به بعد الصبر والتحمل لم يكن كافيًا أيضًا بالشكل الأمثل فلجأ إلى ربه، وانتظر الوحي منه.

وأخيرًا، وفي الوقت الذي اشتد فيه عنف وشراسة المشركين بشكل كبير، وكانوا قد أمعنوا في التنكر للنعم الكثيرة التي تفضل الله بها عليهم وكذَّبوا الرسول ﷺ، وأذاقوا المسلمين المزيد من الويلات والعذاب فشردوهم عن ديارهم وبيوتهم؛ حينها نزلت الآيات الكريمة التي تأذن بالجهاد الذي أصبح ضرورة ملحة من أجل حماية الدين وأهله وأرضه، حيث يقول الله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٨٩٥]

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٨٩٦]

---

٨٩٥ الحج: ٣٩ – ٤٠.

٨٩٦ البقرة، ١٩٠.

وبيَّن الله ﷻ السبب والغاية التي شرع من أجلها القتال، فقال:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾ [٨٩٧]

إن الإذن بالقتال جاء نتيجة للأعمال العدائية التي قام بها المشركون تجاه الإسلام والمسلمين. وفُرض الجهاد لضرورة حماية وجود المجتمع، والمحافظة على ما يُعرف بالضرورات الخمس: «المال، والنفس، والنسل، والعقل، والدين» وصد هجمات واعتداءات المعتدين. ويهدف هذا الأمر الإلهي إلى معاقبة المفسدين للدين، وإزالة العوائق والموانع أمام تبليغ الحقائق الإلهية لجميع الناس.

إن الحروب والمعارك التي خاضها النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين لتشمل رحمته الواسعة الإنسانية جمعاء، كانت بناء على ضرورة تأمين الصلح والسلم الاجتماعي والنضال في سبيل نشر التوحيد. ولهذا السبب فقد قال الرسول ﷺ:

«...أنا نبي الرحمة ... نبي الملحمة» [٨٩٨]

وإلى جانب الآيات التي أذنت وأمرت بالجهاد، فقد أنزل الله تعالى آيات كريمة تتضمن تشجيعًا وحضًّا للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على تنفيذ الأمر الإلهي بالجهاد، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ [٨٩٩]

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٩٠٠]

---

٨٩٧ الأنفال: ٣٩.

٨٩٨ أحمد: مسند، ٤، ٣٩٦/ ١٩٥٢٥.

٨٩٩ الأنفال: ٦٤ – ٦٥.

٩٠٠ التوبة: ١٣ – ١٥.

وإلى جانب هذه الآيات الكريمة فقد جاءت أخرى تحذر من ترك الجهاد أو إهماله، أو التقصير في القيام به، إذ يقول الله ﷻ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٩٠١]

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ...﴾ [٩٠٢]

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [٩٠٣]

وبعد هذا البيان الإلهي جهّز النبي ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين أنفسهم بكل ما أتيح لهم من وسائل القتال بجدية بالغة من أجل مواجهة المشركين ومحاربتهم.

الجهاد في سبيل الله ﷻ

الجهاد بمعناه العام يشمل معانٍ كثيرة. إذ يعني: تعهد المرء بتزكية النفس وتربيتها، وتنفيذ أوامر الله تعالى بإخلاص، والبعد عن المحرمات، [٩٠٤]والنصيحة للمسلمين، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به عن طريق الأدلة العلمية الملائمة[٩٠٥]، وحماية الدين والعرض والنفس والوطن والنسل والمال؛ والنضال والقتال بكل الإمكانات الأخرى المتاحة من أجل نشر الإسلام وإزالة الموانع والمعيقات التي تحول دون ذلك وبذل النفس والمال في سبيل ذلك.[٩٠٦]

---

٩٠١ البقرة: ٢١٦.

٩٠٢ التوبة: ١٢٠.

٩٠٣ التوبة: ٢٤.

٩٠٤ النسائي: الحج، ٤.

٩٠٥ أحمد: مسند، ٣، ٤٥٦.

٩٠٦ للاطلاع على الآيات المتعلقة بهذا الموضوع انظر: النساء: ٩٥؛ الأنفال: ٧٢؛ التوبة: ٢٠، ٤١، ٤٤، ٨١، ٨٨. وللاطلاع على الأحاديث النبوية انظر: البخاري: المظالم، ٣٣؛ مسلم: الإيمان، ٢٢٦؛ أبو داود: السنة، ٢٨ – ٢٩.

ولذلك فإن كلمة الجهاد تعني كل الجهود والطاقات التي يبذلها الفرد والمجتمع بقصد إقامة مجتمع إسلامي في سبيل إعلاء كلمة الله، وذلك من أجل إصلاح النفس ونيل رضا الله تعالى. وانطلاقًا من هذه النظرة؛ فليس من المبالغة القول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قضى حياة النبوة كلها والتي بلغت ثلاثًا وعشرين سنة في سبيل تحقيق ما سبق ذكره آنفًا.

لقد ذكر الله تعالى في مواضع كثيرة بأن نعمة النفس والمال ما هي إلا من أجل امتحان إلهي للإنسان، وأراد منا الجهاد بهما في سبيله. حيث يقول الله تعالى فيما يتعلق بهذا الشأن في كتابه العزيز:

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٩٠٧]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٩٠٨]

ذات يوم سأل أحدُ الصحابة نورَ الكون حبيبَنا محمدًا ﷺ:

- يا رسول الله! أيُّ الناس أفضل؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.** [٩٠٩]

يفهم من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة أن المقصود بالجهاد بالنفس والمال ليس الجهاد القتالي فحسب – أي بالسلاح –. وذلك لأن السلاح ما هو إلا وسيلة تُستخدم في حالات الضرورة مثل رفع الظلم، وإحقاق الحق. فالفتح الحقيقي هو فتح القلوب والذي يمكن تحقيقه بوسائل متعددة على رأسها التبليغ الكلامي والكتابي والسلوكي.

---

٩٠٧ التوبة: ٨٨.

٩٠٨ الصف: ١٠ – ١١.

٩٠٩ البخاري: الجهاد، ٢/ ٢٧٨٦؛ مسلم: الإمارة، ١٢٢/ ١٨٨٨.

فآيات الجهاد التي نزل أكثرها في العهد المكي لم يكن للمؤمنين وقتها قدرة أو قوة جدية من أجل القتال والحرب، ولم يكن بإمكانهم في ذلك العهد مواجهة إرهاب الجاهليين و تبليغ الإسلام ونصرته سوى بتقديم شخصية المؤمن الحق، أي تحقيق الإنسانية، والحق، والعدالة، وقد سمّى القرآن الكريم حالتهم هذه بـ «الجهاد الأكبر»، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [910]

إن عبارة «**جِهَادًا كَبِيرًا**» الواردة في الآية الكريمة تعني وضع كل الإمكانات والموارد في سبيل نصرة الإسلام ـ أي لتحقيق هداية الإنسانية وسلمها ـ والتبليغ بالحال والمقال من أجل إعلاء دين الله تعالى، وفي الحقيقة إن الجهاد بالتبليغ أفضل وأكثر أهمية من مجابهة العدو بالسلاح والقتال، فالنبي عليه الصلاة والسلام في سنواته الأولى كان يجاهد فقط بالقرآن الكريم.

لقد وردت عبارات كثيرة في القرآن الكريم حول الجهاد في سبيل الله تعالى بهدف إيصال الناس إلى الهداية، ولكن قسمًا قليلًا من هذه الآيات تدعو إلى المجاهدة بالقتال والسلاح، وحتى هذه الآيات القليلة التي تدعو إلى الجهاد القتالي تحصره في حالات الضرورة.

إن الغزوات والمعارك التي خاضها النبي عليه الصلاة والسلام كانت في أغلبها دفاعية، فكما حصل في غزوة بدر وأحد والخندق... كانت غزوة مؤتة وتبوك غزوات دفاعية من أجل تجنب أي هجوم محتمل على المسلمين.

وأما فتح مكة فكان من أجل استعادة حقوق المسلمين المغتصبة من قبل المشركين، وبسبب إخلال المشركين بشروط المعاهدة التي كانوا قد عقدوها مع المسلمين. وهذا يعني أن المعارك والغزوات التي خاضها نبي الرحمة رسول الله عليه الصلاة والسلام كان قائمة على العدالة والرحمة الواسعة، وأصبحت كل هذه المعارك معالم الرحمة بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء، لأن الهدف الأساسي للحرب أو القتال في الإسلام ليس قتل الناس، أو الحصول على الغنائم، أو نشر الفساد والتخريب على وجه الأرض، أو إظهار الذات، أو

---

٩١٠ الفرقان: ٥٢.

تحقيق المنافع المادية، أو الانتقام؛ وإنما على العكس من ذلك، فالهدف هو رفع الظلم، وضمان حرية الاعتقاد، وهداية الناس، والقضاء على كافة أشكال العدوان. [٩١١]

وإذا ما وضعنا كل المعارك والغزوات التي خاضها النبي ﷺ بشكل عام تحت مجهر النظر والبحث نجد بأنه ليست هناك أية غاية لمعركة يمكن أن يخوضها سوى الدفاع عن الإسلام، وإعلاء كلمة الله، أي نشر دين الله. فالحروب التي تُفتعل فقط من أجل السيطرة

---

٩١١ لقد اتبع النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين في كافة تحركاته العسكرية التي بلغت / ١٢٠/ حركة منها تسع وعشرون غزوة، وإحدى وتسعون سرية، اتبع سياسة رحيمة تجاه أعدائه، بحيث إنه على الرغم من وضع كامل شبه الجزيرة العربية تحت حكمه وإدارته لم يُرق إلا الشيء القليل والمحدود من الدماء، سواء من جيش المسلمين، أو جيوش الأعداء. فخلال الأنشطة العسكرية المائة والعشرين الكبيرة والصغيرة التي خاضها النبي ﷺ لمختلف الأسباب في إحدى عشرة سنة لم يُستشهد – وفقًا للروايات الصحيحة – من المسلمين سوى ثلاثمائة وبضعة وأربعون شهيدًا. وأما قتلى الأعداء فبلغ ما يقارب ثمانمائة وبضعة أشخاص. أي إن مجموع عدد الذين فقدوا حياتهم أثناء المعارك المائة والعشرين الصغيرة والكبيرة يبلغ ألفًا ومائتي شخص. وإذا ما أخذنا بالاعتبار الغزوات التي شارك فيها الرسول ﷺ بنفسه، نجد أنه خلال ست عشرة غزوة من أصل تسع وعشرين غزوة لم يحدث أي قتال، ولكن تحققت الأهداف منها. وأما الغزوات الثلاثة عشر الأخرى فقد حدث فيها قتال، واستشهد خلالها من المسلمين مائة وأربعون شهيدًا، وقتل من الأعداء ما يقارب ثلاثمائة وخمس وثلاثون شخصًا.

وقد كان فخر الكائنات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ينجح في إخضاع أماكن كثيرة لحكمه باتباع علم السياسة واستخدام فراسته وبصيرته الثاقبة، دون أن يعطي مجالًا للقتال والمواجهة المسلحة. وكان أيضًا يتسلم مناطق أخرى ويضعها تحت حكمه بهداية أهلها إلى الإسلام ويعتبر ذلك أجل وأفضل من القتال، بحيث يتجنب استخدام السلاح ما أمكنه ذلك. أحيانًا كان يدمج السياسة والدبلوماسية مع عمليات استخباراتية قوية ويُوفق إلى إقناع الأعداء بتجنب القتال، فيضمن بذلك التقليل من إراقة الدماء وإزهاق الأرواح والوصول بها إلى أدنى المستويات. وكان ﷺ يرجح أن يكون قادة جيوشه من المناطق التي يُرسلون إليها أو من القبيلة المعادية التي سوف يقاتلونها وذلك من أجل تأمين انتهاء المعارك بنتيجة إيجابية. بالإضافة إلى ذلك فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوصي جيشه بـ: الوفاء بالوعود، وعدم الإسراف في القتل، وعدم الإخلال بالعهود، وتجنب الظلم، وعدم قتل الناس العزل ومن ليسوا في المعركة وخاصة عدم التعرض للعبيد، والصغار، والنساء، والمسنين، والرهبان المعتكفين في الأديرة، وعدم الإضرار ببساتين النخل، وتجنب قطع الأشجار وهدم البيوت.

(انظر: إلشاد محمودوف، Sebep ve Sonuçları İtibariyle Hazret-i Peygamber'in Savaşları حروب النبي ﷺ من حيث الأسباب والنتائج، ٢٠٠٥، أطروحة «رسالة» دكتوراه غير منشورة).

على الأرض واحتلالها، ظلمٌ وعار على جبين الإنسانية، بينما الحرب في الإسلام حتمًا تكون لأهداف ومقاصد سامية مثل إحقاق الحق، والسعي إلى هداية الناس، ورفع الظلم عن المضطهدين، لأن الله تعالى يقول:

﴿...مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [٩١٢]

إذًا، إن التضحيات والجهود المختلفة التي سوف يبذلها المؤمنون بأموالهم وأنفسهم ضمن هذه المعايير وفي سبيل أهداف الإسلام سوف تكون سببًا للطف الإلهي الكبير بهم مثل شراء الجنة كما وعدهم الله تعالى، ولكن الإخلاص هنا شيءٌ مهم للغاية كما في كل أمر، حيث لما قال عبد الله بن عمرو ﵁ للنبي ﷺ:

يا رسول الله! أخبرني عن الجهاد والغزو. قال رسول الله ﷺ:

«يا عبد الله بن عمرو إن قاتلت صابرًا محتسبًا، بعثك الله صابرًا محتسبًا. وإن قاتلت مرائيًا مُكاثرًا بعثك الله مرائيًا مُكاثرًا. يا عبد الله بن عمرو على أي حال قاتلت أو قُتلت بعثك الله على تلك الحال» [٩١٣]

وفي حديث آخر، جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه. فمن في سبيل الله؟. وسأله آخره قائلًا: يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله» [٩١٤]

وفي رواية أخرى، أن رجلًا قال:

«يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا!. فقال رسول الله ﷺ: «**لا أجر له!**». فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عُد لرسول الله ﷺ، فلعلك لم تفهمه. فعاد الرجل وقال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو

٩١٢ المائدة: ٣٢.

٩١٣ أبو داود: الجهاد، ٢٤/ ٢٥١٩.

٩١٤ البخاري: العلم، ٤٥/ ١٢٣؛ مسلم: الإمارة، ١٤٩ - ١٥٠/ ١٩٠٤.

يبتغي عرضًا من عرض الدنيا!، فقال ﷺ: «**لا أجر له!**». فقالوا للرجل: عُد لرسول الله ﷺ، فقال له الثالثة، فقال له: «**لا أجر له**»[٩١٥]

لقد ورد الكثير من الأحاديث النبوية الشريف على لسان سيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام حول فضل الجهاد في سبيل الله تعالى. ونورد فيما يأتي بعضًا من هذه الأحاديث:

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقه، وأمن الفتان» [٩١٦]

«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها» [٩١٧]

«تضمن الله لمن خرج في سبيله: لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي. فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده! ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم، وريحه مسك،...» [٩١٨]

«ما من أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، وما له على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة» [٩١٩]

ويبين الرسول الأكرم ﷺ الغاية من الجهود التي بذلها في سبيل الله تعالى، والهدف من الغزوات التي خاضها، فيقول:

«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» [٩٢٠]

---

٩١٥ أبو داود: الجهاد، ٢٤/ ٢٥١٦.

٩١٦ مسلم: الإمارة، ١٦٣/ ١٩١٣.

٩١٧ البخاري: الجهاد، ٦. ٧٣/ ٢٨٩٢، الرقاق، ٢/ ٦٤١٥؛ مسلم: الإمارة، ١١٣ – ١١٤/ ١٨٨١.

٩١٨ مسلم: الإمارة، ١٠٣/ ١٨٧٦؛ النسائي: الإيمان، ٢٤.

٩١٩ البخاري: الجهاد، ٢١/ ٢٧٩٥/ ٢٨١٧؛ مسلم: الإمارة، ١٠٨ – ١٠٩/ ١٨٧٧.

٩٢٠ البخاري: الإيمان، ١٧/ ٢٥ ؛ مسلم: الإيمان، ٣٦/ ٢٢؛ أحمد: مسند، ١٤، ٢٢١/ ٨٥٤٤.

ولهذا السبب لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يهاجم أحدًا في الليل بغتة، وإنما ينتظر حتى يحلّ الصباح، وإذا سمع صوت الأذان توقف.[٩٢١] ويقول للسرايا التي يرسلها:

«إذا رأيتم مسجدًا، أو سمعتم مؤذنًا فلا تقتلوا أحدًا»[٩٢٢]

ويقول مسلم بن حارث ﷺ:

«إن رسول الله ﷺ أرسلنا في سرية، فلمَّا بلغنا المغار استحثثت فرسي، فسبقت أصحابي، واستقبلنا الحي بالرنين، فقلت لهم: تريدون أن تحرزوا أنفسكم؟ فقالوا: نعم. فقلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، تحرزوا. فقالوها، وجاء أصحابي فلاموني، وقالوا: حرمتنا الغنيمة بعد أن بردت في أيدينا، فلما قفلنا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فدعاني النبي ﷺ، فحسَّن ما صنعتُ، وقال:

«أما إن الله ﷻ قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر»[٩٢٣]

ويقول بريدة ﷺ: قال رسول الله ﷺ:

كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال:

«اغزوا باسم الله. وفي سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال. فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا الجزية فاستعن بالله وقاتلهم» [٩٢٤]

---

٩٢١ البخاري: الأذان، ٦؛ مسلم: الصلاة، ٩.

٩٢٢ أبو داود: الجهاد، ٩١/ ٢٦٣٥؛ أحمد: مسند، ٣، ٤٤٨ - ٤٤٩/ ١٥٧١٤.

٩٢٣ أبو داود: الأدب، ١٠٠ - ١٠١/ ٥٠٨٠.

٩٢٤ مسلم: الجهاد، ٣/ ١٧٣١؛ الترمذي: السير، ٤٨/ ١٦١٧؛ أحمد: مسند، ٥، ٣٥٢، ٣٥٨/ ٢٣٠٣٠.

بعض السرايا

أراد النبي ﷺ إضعاف شوكة مشركي مكة الذين أخذوا بمضايقة المسلمين في المدينة، ومنعِهم من أداء مناسك العمرة، وتحريضِ منافقين المدينة عليهم، وذلك عن طريق قطع طرق التجارة التي يسلكونها بقوافلهم التجارية إلى الشام[٩٢٥]، وبالتالي حصارهم والتضييق عليهم من الناحية التجارية والاقتصادية.[٩٢٦] وتحقيقًا لهذا الهدف فقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام بعد سبعة أشهر من الهجرة سيدَنا حمزة ﷺ ومعه ثلاثون رجلًا من المهاجرين إلى سيف البحر.[٩٢٧] «٨ من رجب/ تشرين الثاني - كانون الأول ٦٢٩م»

كانت القافلة التجارية العائدة من الشام إلى مكة قد وصلت إلى سيف البحر تحت حماية ثلاثمائة فارس، وكان أبو جهل من ضمن من هم في القافلة.

ولما اصطفّ الطرفان من أجل القتال دخل بينهم مجدي بن عمرو الجهني الذي كان حليفًا للطرفين، فحجز بينهم ومنعهم من الاقتتال.

---

٩٢٥ لقد طبق النبي ﷺ في الأيام الأولى المقاطعة الاقتصادية والسياسية بحق مشركي قريش من أجل وضع حد لعداواتهم. ومن أجل هذا الهدف أقام علاقات دبلوماسية مع القبائل المجاورة، ووقع معهم معاهدات مختلفة، ونفذ بعض الغزوات والسرايا من أجل تعقب القوافل التجارية العائدة لمشركي قريش والتي تشكل شريان الحياة الرئيسي لتجارة واقتصاد مكة.
يقول محمد حميد الله في هذا المجال:
لا ينبغي أن نعتبر هذه الهجمات ضد هذه القوافل التجارية عمليات نهب وسلب بسيطة، وذلك لأنه لا المشركون كانوا أبرياء وضحايا، ولا المهاجمون كانوا عصابة مشكلة من أجل تنفيذ مثل هذه الهجمات فقط. إذ كانت المدينتان الدولتان في حالة حرب بكل المقاييس. وإن حالة الحرب تعطي الحق لكلا للطرفين المتحاربين بإلحاق الضرر بالطرف الآخر سواء في الأرواح أو الأموال أو المصالح الأخرى للعدو. ولهذا السبب فقد كان الطرفان يطبقان «قانون الحرب» بينهما. ووفقًا لهذه الحالة فإن هذا النوع من الغزوات العسكرية بعيد كل البعد عن المعنى البسيط للحركات التي تهدف إلى التعرض للقوافل التجارية وتنهبها بقصد السرقة.
والأمر الآخر الذي ينبغي الانتباه إليه هنا، هو أن السرايا العسكرية التي كان المسلمون يخرجون فيها بهذا القصد إنما كانت تهدف لمهاجمة القوافل العائدة إلى أهل مكة فقط دون غيرهم. وقد بقيت المكونات البشرية الأخرى للدولة على الرغم من أنهم غير مسلمين، بقيت سالمة تمامًا من هذه الهجمات والسرايا. (انظر. حميد الله: نبي الإسلام، ١، ٢١٩؛ حروب النبي ﷺ، ص، ٥٦).

٩٢٦ البخاري: المغازي، ٢؛ أبو داود: الخراج، ٢٢ - ٢٣/ ٣٠٠٤.

٩٢٧ سيف البحر: يقع في ناحية العيص من أراضي جهينة. وقد أطلق هذا الاسم لوقوع المكان بمحاذاة ساحل البحر.

وقد سُر النبي عليه الصلاة والسلام لوساطة مجدي بن عمرو بين الطرفين ونجاحه في منع الاقتتال بينهما، وقدر له هذا النجاح، وأهدى أثوابًا للسفراء الذين أرسلهم.[٩٢٨]

وأرسل النبي ﷺ للهدف ذاته عبيدة بن حارث رضي الله عنه إلى رابغ[٩٢٩] ومعه ستون أو ثمانون رجلًا من المهاجرين، وذلك في بداية الشهر الثامن للهجرة خلال شهر شوال.

كان القرشيون مائتي رجل بقيادة أبي سفيان. فلم يصطف الطرفان للقتال، ولم يستل أي منهم سيفه. وإنما حدث بينهم تراشق خفيف بالسهام. وقد رمى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السهم الأول في ذلك اليوم، ونال بذلك شرف رمي السهم الأول في الإسلام، حيث يُعرف بأنه: «أول من رمى سهمًا في الإسلام». اعتقد المشركون بأن امدادات سوف تأتي إلى المسلمين فخافوا وتفرق الجمعان عن بعضهما البعض.

لقد كان المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان مع المشركين على الرغم من إسلامهما حيث خرجا على أمل تحقيق رغبتهما بلقاء الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لم يُوفقا حتى ذلك اليوم للمجيء إليه واللقاء به. ولما أبصرا المسلمين انسحبا من بين صفوف المشركين وانضما إلى صف المسلمين.[٩٣٠]

وبعد الشهر التاسع من الهجرة أي في شهر ذي القعدة أرسل النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص مع ثمانية أو عشرين شخصًا إلى الخرار.[٩٣١] «١ذي القعدة / أيار ٦٢٣م».

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ:

«اخرج يا سعد! حتى تبلغ الخرار، فإن عيرًا لقريش ستمر به».

فخرجت، وكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا الخرار صبح خامسة، كانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم، وكان النبي ﷺ قد عهد إلي أن لا أجاوز الخرار، ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم.فرجع المجاهدون إلى المدينة دون أي قتال.[٩٣٢]

---

٩٢٨ الواحدي: أسباب النزول، ١، ٩ - ١٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦.

٩٢٩ رابغ: وادي يقع بين الأبواء وجحفة والذي يمر خلاله الحجاج عندما يتوجهون إلى مكة، ويبعد عن جحفة مسيرة ثلاثة أميال.

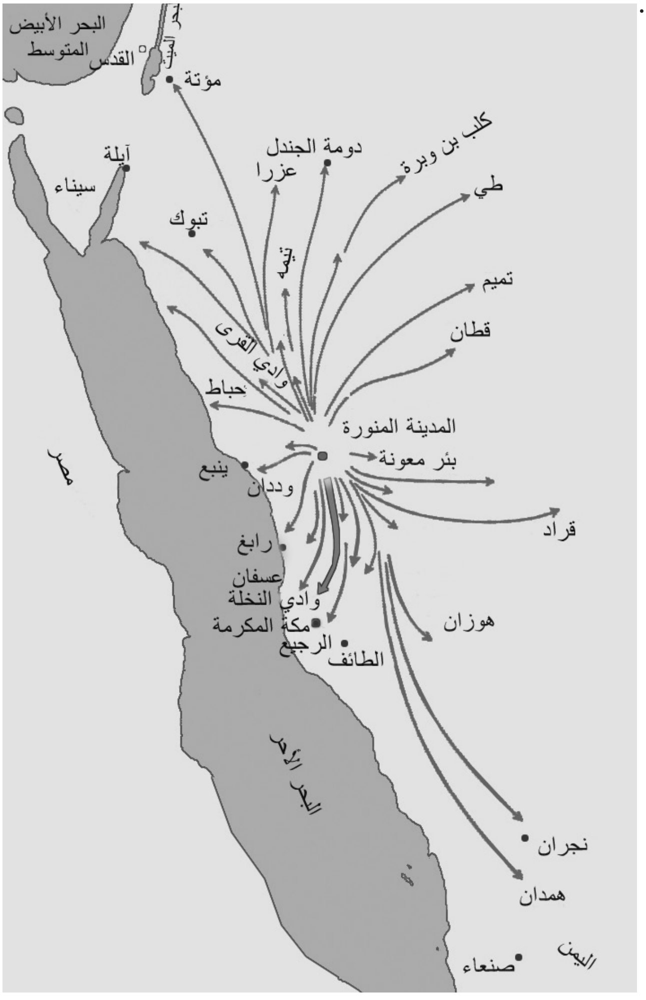
٩٣٠ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٢٤ - ٢٢٥؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٧.

٩٣١ الخرار: اسم لنبع ماء قرب الجحفة في الحجاز. يقع إلى الشمال من المحجة على الطريق المتوجه من جحفة إلى مكة، وقريبًا من غدير خم.

٩٣٢ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٣٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ١١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٧.

وفي شهر صفر أوائل الشهر الحادي عشر للهجرة خرج النبي ﷺ بنفسه إلى غزوة الأبواء «ودان».[٩٣٣] «٢ صفر/آب ٦٢٣ م». وهذه الغزوة الأولى التي يشارك فيها رسول الله ﷺ بنفسه. وقد استخلف مكانه على المدينة المنورة الأنصاري سعد بن عبادة ﷺ.

لم تحدث أية مواجهة مع المشركين في هذه الغزوة، ولكن وُقّعت أثناءها معاهدة مع بني ضمرة من قبيلة كنانة.



ووفقًا لبنود هذه المعاهدة فلن يقاتلهم النبي ﷺ، مقابل تعهدهم أيضًا بعدم محاربة الرسول ﷺ، وعدم التحالف والتكتل ضد المسلمين، وعدم مساعدة أعدائهم. وكتب النبي ﷺ معهم كتابًا بذلك. استغرقت غزوة الأبواء خمسة عشر يومًا.[٩٣٤]

فإن النبي ﷺ كان ميالًا للسلم والصلح كما تبين، ساعيًا إليهما في كل فرصة تتاح أمامه، وتعامل مع الناس بشكل دائم من منطلق الرأفة والرحمة بهم.

٩٣٣ الأبواء: قرية تقع بين الفرع والجحفة، وتبعد عن المدينة مسافة ثلاثة وعشرين ميلًا. وفيها قبر السيدة آمنة أم النبي ﷺ. وأما «ودان» فتقع بين المدينة ومكة، وتبعد عن الأبواء ثمانية أميال قرب الجحفة، وهي ضمن الأراضي العائد لبني ضمرة وغفار من قبيلة كنانة.

٩٣٤ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٢٣ - ٢٢٤؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٨.

السنة الثانية للهجرة

بعض الغزوات وسرية بطن نخلة

وقعت غزوة بواط[٩٣٥] في شهر ربيع الأول، أوائل الشهر الثالث عشر للهجرة، وذلك بهدف مواجهة قافلة لقريش كانت مكونة من ألفين وخمسمائة ناقة، وتسير بحماية قوة مؤلفة من مائة مقاتل. «٢ ربيع الأول / أيلول ٦٢٣م». واستخلف النبي عليه الصلاة والسلام وراءه على المدينة سعد بن معاذ الأنصاري ﵁، وخرج مع مائتي رجل من المسلمين. وعاد المسلمون من هذه الغزوة إلى المدينة دون مواجهة أو قتال مع المشركين.[٩٣٦]

وخلال الأيام ذاتها وقعت غزوة بدر الأولى، وذلك للحاق بكرز بن جابر الذي أغار على المراعي في جبل جماء ناحية العقيق على بعد ثلاثة أميال من المدينة وأخذ قطعان الإبل والماشية. «٢ ربيع الأول / أيلول ٦٢٣م». وقد استخلف رسول الله عليه الصلاة والسلام على المدينة زيد بن حارثة، ولم يدرك رسول الله ﷺ كرز بن جابر، لأنه لما وصل إلى موقع سفوان كان كرز قد لاذ بالفرار ونجا بنفسه، فعاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة. وأما كرز فقد دخل الإسلام فيما بعد وحسن إسلامه.[٩٣٧]

في الشهر السادس للهجرة وخلال شهر جمادى الآخرة خرج المسلمون في غزوة ذي العُشيرة «٢ جمادى الآخر / نوفمبر تشرين الثاني ٦٢٣م»، ووُقِّعت في هذه الغزوة معاهدة مع بني مدلج وحلفائهم.[٩٣٨]

وفي هذه الأثناء خرجت كتيبة من المسلمين بقيادة عبد الله بن جحش ﵁ ابن عمة الرسول عليه الصلاة والسلام من أجل السيطرة على الوضع، وهاجمت في «بطن نخلة» قافلة تابعة لأهل مكة، فاستشاط غضب مشركي مكة وثارت ثورتهم لما علموا بأمر

---

٩٣٥ بواط: جبل من سلسلة جبال جهينة، وتبعد عن المدينة مسافة ستة وثلاثين ميلًا.

٩٣٦ الواقدي: المغازي، ١، ١٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٨ – ٩.

٩٣٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٣٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٩؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٤، ٤٦٨.

٩٣٨ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٩ – ١٠.

الحادثة، والذين كانوا في الأساس يبحثون على الدوام عن أي ذريعة أو حجة من أجل الانقضاض على المدينة والفتك بالمسلمين.

وقال المشركون الذين أثاروا عاصفة على الرسول الكريم ﷺ وعلى المسلمين، بسبب مصادفة حادثة بطن نخلة لشهر رجب الذي يُعد من الأشهر الحرم:

- قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام؟ سفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

وفي الحقيقة لم يأمر النبي ﷺ من خرج في هذه الغزوة بالقتال، ولما علم فيما بعد بأمر الحادثة قال لعبد الله:

- ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!

وأبى أن يستلم شيئًا من غنيمة العير. فندم المهاجرون على هذا العمل وأصابهم حزن شديد، وظنوا بأنهم سيتعرضون للهلاك جراء هذا الذنب.[٩٣٩] إلا أن المشركين أخذوا بتضخيم هذا الأمر أكثر من حجمه، وقادوا حملة من التشنيع والتشويش بحق المسلمين، فكان ذلك سبب نزول الآية الكريمة الآتية:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...﴾ [٩٤٠]

فسأل عبد الله بن جحش وأصحابه الذين فرحوا بنزول هذه الآية الرسول ﷺ:

- يا رسول الله، أتطمع لنا أن تكون لنا أجر كما للمهاجرين؟

فنزل قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٩٤١]

---

٩٣٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٤١.

٩٤٠ البقرة: ٢١٧.

٩٤١ البقرة: ٢١٨.

إن هذا البيان الإلهي بينما كان يرفع من معنويات المؤمنين ويقويها، فقد كان في الوقت نفسه يثير غضب المشركين وحنقهم على المسلمين. وحتى لو لم تنزل هذه الآيات فقد كان المشركون بالغي الاستياء من المؤمنين، لأن عدد المسلمين كان يزداد يومًا بعد يوم، وتزداد دولة الإسلام منعة وقوة، حتى إن عدد المؤمنين من الرجال بلغ ألفًا وخمسمائة في تلك الفترة حسب الإحصاء الذي جرى بتوجيه من النبي ﷺ.[٩٤٢]

وإذا ما فكرنا بازدياد هذا العدد باضطراد فهو رقم لا يستهان به على الإطلاق، وهو رقم بدأ يقضّ مضاجع المشركين ويظهر الخطر رويدًا رويدًا، إضافة إلى ذلك فقد كان شريان الحياة بالنسبة لمشركي مكة والمدينة هو طريق التجارة. ولذلك فقد ركزوا جهودهم وفكرهم في البحث عن وسيلة لتجنب هذا الخطر والقضاء عليه. وانتهوا إلى قرار في غاية الخطورة، وهو الهجوم والانقضاض على المدينة.

لقد كان من بين الأسرى الذين أخذهم عبد الله بن جحش رضي الله عنه الحكم بن كيسان. فدعا فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام الحكمَ إلى الإسلام، وشرح له كل تفاصيل الإسلام بشكل مطول، وأعاد له البيان والشرح مرات عدة من أجل إزالة اللبس والشبهات العالقة في عقله. فغضب عمر رضي الله عنه من الحكم لعدم إسلامه على الرغم من كل الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ من أجل إقناعه، وقال:

علام تكَلم هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا آخر الأبد، دعني أضرِبْ عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية. فجعل النبي ﷺ لا يُقبل على عمر وهو مستمر في بيان الإسلام للحكم. فاستجمع الحكم فكره وقال سائلًا: وما الإسلام؟ فقال الرسول ﷺ:

«تعبد الله وحده لا شريك له وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله!»

فقال الحكم: قد أسلمت. فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال:

«لو أطعتكم فيه آنفًا فقتلته دخل النار!»

يقول عمر رضي الله عنه: ما هو إلا أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تأخر، وقلت: كيف أرد على النبيّ ﷺ أمرًا هو أعلم به مني، ثم أقول إنما أردت بذلك النصيحة لله

٩٤٢ البخاري: الجهاد، ١٨١.

ولرسوله. فأسلم الحكم والله فحسن إسلامه، وجاهد في الله حتى قُتل شهيدًا ببئر معونةَ ورسول الله ﷺ راض عنه ودخل الجنان.[٩٤٣]

يُستنتج من هذه الحادثة أن الدعوة إلى الإسلام ينبغي أن تكون بلسان طيب لين بعيدًا عن الغضب والانفعال، والتحلي خلال ذلك بالصبر، والحكمة والموعظة الحسنة.

تحويل القبلة

لقد كان المسلمون بعد الهجرة يتجهون في صلاتهم ناحية المسجد الأقصى، واستمر الحال على هذا النحو حتى الشهر السادس أو السابع عشر للهجرة، إلا أن اليهود كانوا يدّعون بأن ذلك اشتراك معهم في التوجه إلى المسجد الأقصى، وبالتالي يُظهرون تعاليهم وأفضليتهم على المسلمين، وكان هذا الأمر يُحزن الرسول عليه الصلاة والسلام. لأن القبلة التي كانت في قلبه الكعبة المشرفة، وإذا تحقق ذلك سوف يكون في الوقت ذاته أولى الخطوات العملية نحو فتح مكة. ولأجل ذلك فقد كان ينتظر قدوم الإذن الإلهي بكل شوق وشغف، ولم تكن رغبة الرسول عليه الصلاة والسلام تذهب بعيدًا عن التفكير طالما لم يأت الإذن الإلهي، وكان ينتظر متجمّلًا بالصبر، وفي نهاية الأمر، وفي يوم الاثنين من أواسط شهر رجب وبينما كان النبي عليه الصلاة والسلام في مسجد بني سليم يصلي صلاة الظهر أوحى الله تبارك وتعالى إليه، فقال:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٩٤٤]

وفي هذه الأثناء غيَّر الرسول ﷺ الذي كان قد أنهى الركعة الثانية في صلاته وجهته نحو الكعبة، وتوجه معه المصلون المقتدون جميعًا، فاتجه الجميع معًا إلى القبلة الجديدة، وهكذا أكمل المصلون الركعتين الباقيتين متوجهين نحو الكعبة. ولهذا السبب فقد سمي ذلك المسجد بـ «**مسجد القبلتين**»[٩٤٥]

---

٩٤٣ ابن سعد: الطبقات، ٤، ١٣٧ – ١٣٨/ ٣٩٥؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٥ – ١٦.

٩٤٤ البقرة: ١٤٤.

٩٤٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤١ – ٢٤٢.

وعن البراء رضي الله عنه:

«أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى، أو صلاها، صلاة العصر وصلى معه قوم» فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم، وأظهر بعض المسلمين القلق على من لم يكتب الله له شرف الصلاة إلى الكعبة ممن مات قبلهم، وقالوا: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الحق عز وجل الآية الكريمة الآتية:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٩٤٦]

وبينما أدى تحويل القبلة نحو الكعبة إلى نتائج وانطباعات حسنة بين المؤمنين، فقد فتح بالنسبة للمشركين والمنافقين واليهود المجال أمام مختلف الشائعات والأقاويل، فبدأ أعداء الإسلام بنشر الأقاويل يمينًا وشمالًا، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة الآتية:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٩٤٧]

إن تحويل القبلة حدث عظيم في غاية الأهمية، فحادثة نسخ القبلة السابقة - بالخصوصية التي احتوته - مسألة في غاية الدقة، حيث تُعتبر فرصة للشيطان وذريعة له من أجل نشر الفتنة والفساد وتضليل الناس، ولهذا فقد تكررت الأوامر المتعلقة بالقبلة مرات عديدة، فقد جاءت أوامر الثبات على هذه القبلة بشكل مفصَّل وقطعي سواء في حال الإقامة أو السفر، أو في أية ظروف أخرى، وقد وُجهت هذه الأوامر مرة للنبي بمفرده، ومرة للمؤمنين، وفي أخرى جاء الأمر شاملًا للطرفين.[٩٤٨]

---

٩٤٦ البقرة: ١٤٣. البخاري: الإيمان، ٣٠/ ٤٤٨٦؛ الترمذي: التفسير، ٢/ ٢٩٦٤؛ مسلم: المساجد، ١١

٩٤٧ البقرة: ١٤٢.

٩٤٨ انظر البقرة: ١٤٨ - ١٤٩.

إن الآية الكريمة الآتية تضمنت تأكيدًا للأمر الذي ذكرناه إلى جانب بيان بعض الحِكَم، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٩٤٩]

نستنتج من البيان الإلهي الحِكم الآتية:

١. إن الحكمة الأولى لتحويل القبلة إلى الكعبة حسب الآية الكريمة هي عدم ترك أي حجة أو دليل بيد أهل الكتاب والمشركين ضد المسلمين. وذلك لأنه وفقًا للكتب السماوية السابقة فإن تحويل القبلة نحو الكعبة من صفات النبي الخاتم الموعود.

حيث إن العهد القديم يشير إلى هذا الأمر بشكل جلي وذلك خلال إيراده البيانات المتعلقة بمستقبل مكة في قسم كتاب أشعيا. ولهذا السبب فقد كان أهل الكتاب يشككون بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام بقولهم:

«إن قبلة خاتم الأنبياء ينبغي أن تكون نحو مكة، وأما محمد وأصحابه فإنهم ما يزالون يتوجهون نحو بيت المقدس»

ثم إن مخالفة قبلة سيدنا إبراهيم عليه السلام تناقض البيان الإلهي بأن الرسول ﷺ من «ملة إبراهيم عليه السلام»، وقد أمكن للمشركين أن يسوقوا ذلك كدليل عقلي على صدق دعواهم، ولكن بعد تغيير القبلة لم يتمكن أحد من الاعتراض أو تقديم حجة سوى المعاندين الذين اتخذوا الظلم والتعنت ديدنًا لهم.[٩٥٠]

٢. الحكمة الأخرى من تحويل القبلة هي: إتمام الله ﷻ نعمته على المؤمنين. وذلك بتمكينهم من الوصول إلى الهدف المنشود بالاهتداء والسير في الطريق المستقيم. لأن النعمة الأصلية هي الوصول إلى الطريق المستقيم، وإن القبلة جزء من هذا الطريق المستقيم.

---

٩٤٩ البقرة: ١٥٠.

٩٥٠ انظر: ألماليلي محمد يازير، الدين الحق ولسان القران، ١، ٥٣٧.

٣. إن من الحكم الكامنة في صلاة النبي ﷺ نحو البيت المقدس خلال الأشهر الأولى الإشارة إلى وحدة منبع الأديان السماوية كلها، وتأليف قلوب أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام، إلى جانب ذلك يمكن القول بأن هذا التصرف هو للتخفيف على الأقل من الأعمال المخالفة لليهود والنصارى في مرحلة تأسيس المجتمع والدولة الإسلامية.

وإن هذه المسألة في الوقت ذاته تُعتبر إحدى الأدلة على عدم تدخل النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم إطلاقًا، وذلك لأن النبي ﷺ كانت لديه الرغبة الملحة منذ البداية بأن تكون القبلة نحو الكعبة، ولكنه اضطر للانتظار حتى الشهر السادس عشر للهجرة ونزول الأمر الإلهي بهذا الخصوص.

الصيام، وصدقة الفطر، والزكاة

لقد كان الإسلام من جهة يعمل على تثبيت البنية السياسية من خلال الغزوات والسرايا، ومن جهة أخرى يعمل على تكامل الحياة الروحية الخاصة به بالتدريج من خلال عبادات متعددة، ومن جملة ذلك فرض «صيام رمضان» على المؤمنين، حيث جاء الأمر بالصيام في الشهر الثامن لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، بعد تحويل القبلة نحو الكعبة، وخلال شهر شعبان.[٩٥١]

لقد بين الله تبارك وتعالى فرضية صيام رمضان في الآية الكريمة الآتية، حيث قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٩٥٢]

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**»[٩٥٣]

ويبين الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فضل الصيام في هذه الأحاديث الشريفة الآتية، حيث يقول:

---

٩٥١ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤٨.

٩٥٢ البقرة: ١٨٣.

٩٥٣ البخاري: الإيمان، ١، ٢/٨، التفسير، ٣٠/ ٤٥١٤؛ مسلم: الإيمان، ١٩ – ١٦/٢٢.

«قال الله ﷻ:كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[٩٥٤]

«كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي»[٩٥٥]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: :

«من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة»

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»** [٩٥٦]

إن الصيام عبادة عظيمة للمسلم، فهي تشعرنا بقيمة نعم كثيرة لا حصر لها نتمتع بها ونتقلب فيها، وتوقظ في الصائم مشاعر الشكر لله تعالى على النعم الكثيرة التي أنعم بها عليه، وتصرف الرغبات والشهوات النفسية، وتخلص القلب من أسْر المادة لتوصله إلى الصبر الذي يُعد في القمة من الأخلاق الحميدة. وكما أن الصوم يخلق لدى الصائم مشاعر الإحساس بأحوال الفقراء والمحتاجين وفهمها، فإنه كذلك يملأ القلب بمشاعر الرحمة والشفقة تجاه العباد. ولذلك فإن النبي يوسف عليه السلام لم يأكل يومًا إلى حد الشبع على الرغم من امتلاكه أمر خزائن الدولة كلها، وذلك لكي لا يغفل عن أحوال الفقراء والمحتاجين.

---

٩٥٤ البخاري: الصوم، ٩/ ١٩٠٤؛ مسلم: الصيام، ١٦١-١٦٣/ ١١٥١.

٩٥٥ مسلم: الصيام، ١٦٤/ ١١٥١.

٩٥٦ البخاري: الصوم، ٤/ ١٨٩٧، الجهاد، ٣٧؛ مسلم: الزكاة، ٨٥، ٨٦/ ١٠٢٧.

وإلى جانب هذه الحكم الجليلة فإن الصيام يُعد أحد الأوامر الإلهية الأكثر تأثيرًا في القضاء أو التخفيف من المظاهر والأمراض الاجتماعية التي تفسد حياة المجتمع مثل الحقد والحسد والبغضاء، ويمكن للإنسان الحصول على سر التحرر من الملذات والشهوات الفانية ليعانق وينال الملذات الباقية الخالدة من خلال نعمة الصيام التي أمر الله تعالى بها. إن هذه العبادة درع واقٍ للشرف والكرامة الإنسانية في مواجهة أهواء النفس في الطعام والشراب والشهوة، إلى غير ذلك من رغباتها التي لا تنتهي.

إن قضاء نهار رمضان بالصيام، وليله بالقيام وصلاة التراويح سنة من سنن نور الأكوان محمد ﷺ. إذ يقول ﷺ في الحديث الشريف:

«شهرٌ – أي رمضان – كتبَ الله عليكم صيامه، وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» [٩٥٧]

فَلِكي نستفيد من شهر رمضان بالشكل الأمثل ينبغي علينا إلى جانب صيام نهاره أن نحيي لياليه بالعبادة، وأن نكثر من الدعاء والذكر بحضور القلب والابتعاد عن كل ما يفسد صفاءه، وأن نطهر القلب بالاستغفار والدموع والتذلل على أعتاب الله ﷻ. وأما الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان فإنه سنة نبوية سنية، وإن إحياء ليالي رمضان وسيلة من وسائل نيل رحمة الله تعالى ومغفرته. حيث يقول الرسول الأكرم ﷺ:

«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه» [٩٥٨]

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، فتشهد، ثم قال:

«أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»[٩٥٩]

---

٩٥٧ ابن ماجه: إقامة الصلاة، ١٧٣/ ١٣٢٨.

٩٥٨ البخاري: التراويح، ٤٦/ ٢٠٠٩.

٩٥٩ البخاري: التراويح، ١/ ٢٠١٢؛ مسلم: المسافرين، ١٧٧/ ٧٦١.

لم يُصلّ النبي ﷺ التراويح جماعة، وقد كان يرى من الأنسب أن يتعبد كل امرئ بما يتوافق مع قدرته وطاقته. وبقيت صلاة التراويح تُصلى بشكل فردي في خلافة أبي بكر رضي الله عنه أيضًا، وبدأ الناس يؤدون صلاة التراويح جماعة في عهد خلافة عمر رضي الله عنه.

لقد كان سيد العالمين محمد ﷺ يزيد من جميع عباداته وإحسانه في رمضان، ويختلي مع ربه في روحانية خالية من المطامع والأغراض الدنيوية، حيث يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله عليه الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح المرسلة»[٩٦٠]

وبعد الصيام جاء الأمر بـ «صلاة العيد» و «صدقة الفطر»، وقد بيَّن النبي ﷺ أن صدقة الفطر فرض على كل مسلم كبيرًا كان أوصغيرًا، رجلًا أوامرأةً، حرًا أوعبدًا، وبمقدار صاع[٩٦١] من تمر أو صاع من شعير. حيث يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعا من تمر، أو صاعا من شعير، على كل عبد أو حر، صغير أو كبير»[٩٦٢]

تُدفع صدقة الفطر في رمضان قبل صلاة العيد، وأما إن أُخرت إلى ما بعد صلاة العيد فلا تُعد صدقة الفطر وإنما صدقة من الصدقات العادية.[٩٦٣]

يقول أنس رضي الله عنه:

«قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان. قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما يوم الأضحى، ويوم الفطر**» [٩٦٤]

وفي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة من العام نفسه، وبعد أن أدى النبي ﷺ صلاة العيد أمر المسلمين بذبح الأضاحي، فقد أقام النبي ﷺ في المدينة المنورة عشر سنوات، وكان

٩٦٠ البخاري: بدء الوحي، ٥، ٦، الصوم، ٧/ ١٩٠٢؛ مسلم: الفضائل، ٥٠/ ٢٣٠٨..

٩٦١ الصاع: في مقياس الشرع يعادل وزن ٩١٧ ,٢ كغ تقريبًا؛ وحسب مقياس العرف يعادل وزن ٣٣٣ ,٣ كغ.

٩٦٢ البخاري: الزكاة، ٧٠ - ٧٨/ ١٥٠٣؛ مسلم: الزكاة، ١٣/ ٩٨٤.

٩٦٣ ابن ماجه: الزكاة، ٢١/ ١٨٢٧.

٩٦٤ أبو داود: الصلاة، ٢٣٩ / ١١٣٤؛ النسائي: العيدين، ١ ١٥٥٦.

في كل سنة يقدم أضحية.[٩٦٥] وكان عليه الصلاة والسلام يذبح أضحيتين، واحدة عن غير القادر من أمته على ذبح الأضحية، وواحدة عن نفسه وأهل بيته.[٩٦٦]

يقول حنش ﵁:

«رأيت عليًا يضحي بكبشين؛ فقلت له: ما هذا؟. فقال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أضحي عنه أبدًا، فأنا أضحي عنه أبدًا» [٩٦٧]

من الواجب على كل مسلم – رجلًا كان أو امرأة، إمامًا أو مقتديًا، مقيمًا أو مسافرًا – التكبير بعد فرض كل صلاة اعتبارًا من صلاة صبح يوم عرفة من ذي الحجة وإلى صلاة عصر اليوم الرابع من عيد الأضحى، بمجموع ثلاثة وعشرين وقتًا، ويكون التكبير مرة واحدة في الصلاة الفردية أو الجماعية بصيغة:

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله حمد.

ويقال لهذه التكبيرات تكبيرات التشريق.[٩٦٨]

وبعد تشريع صدقة الفطر جاء الأمر بالزكاة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [٩٦٩]

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[٩٧٠]

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٩٧١]

ورد ذكر الزكاة في القرآن الكريم إلى جانب الصلاة في ستة وعشرين موضعًا، وورد ذكرها بشكل منفصل في أربعة مواضع. ومن هذه المواضع ما ورد في سورة المؤمنون،

---

٩٦٥ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤٨ – ٢٤٩.

٩٦٦ أبو داود: الأضاحي، ٣ – ٤/ ٢٧٩٢؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٤٩.

٩٦٧ أبو داود: الأضاحي، ٣/ ٢٧٩٠

٩٦٨ مالك: الموطأ، الحج، ٢٠٥.

٩٦٩ الذاريات: ١٩.

٩٧٠ المؤمنون: ٤.

٩٧١ التوبة: ١٠٣.

ولكن مع ذكر الزكاة بشكل مستقل عن الصلاة فقد جاءت الزكاة مرتبطة بالصلاة، وذلك بعبارة تفيد أن المصلين لا بد أن يؤدوا الزكاة أيضًا. وسبب ذلك أن هاتين العبادتين لهما الدرجة الأولى والمتساوية في الأهمية من ضمن العبادات المقسمة إلى مجموعتين «البدنية» و «المالية»، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«**...من لم يزكِّ فلا صلاة له**» [٩٧٢]

لا تُعطى الزكاة للجهات الاعتبارية مثل المدارس، والمعاهد، والمستشفيات، وذلك لأن الزكاة حق للأصناف الثمانية المحتاجة كما ذكرها الله تعالى إذ إن هكذا مؤسسات لا يمكنها إنفاق أموال الزكاة المعطاة لها لسد الاحتياجات الأساسية للفقراء، ولكن يمكنها صرف هذه الأموال على التلاميذ المحتاجين في المعهد، وعلى الطلبة الذين يتعلمون العلم بقصد إعلاء كلمة الله تعالى، لأن من شروط صحة الزكاة البحث عن الفقراء العاجزين عن تأمين احتياجاتهم اليومية الأساسية من الطعام والشراب، وإعطاؤهم مال الزكاة من أجل تلبية هذه الاحتياجات، ولهذا السبب ينبغي على المؤسسات التي تُودع لديها أموال الزكاة مراعاة هذا المبدأ بدقة بالغة، وإلا فإنهم مسؤولون أمام الحق سبحانه وتعالى إن لم يلتزموا بهذا المبدأ.

لقد ورد تصنيف الأشخاص الذين يمكن إعطاؤهم أموال الزكاة في القرآن الكريم على النحو الآتي:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٩٧٣]

وأما الجمعيات والمنظمات الخيرية وغيرها من الجهات الاعتبارية فيمكن تسليمها أموال الزكاة بشرط إيصالها إلى الأصناف الثمانية التي ذكرهم القرآن الكريم، وهذه خصوصية مهمة ينبغي الانتباه إليها ومراعاتها.

لقد اكتتب الرسول عليه الصلاة والسلام كتابًا حسب الأمر الإلهي بحق الزكاة، وذكر فيه الأشياء والأموال التي فرضت فيها الزكاة، ومقدار المال الواجب فيه الزكاة، ونسبة

---

٩٧٢ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٦٢/ ٤٣٢٩.

٩٧٣ التوبة: ٦٠.

الزكاة الواجب إخراجها، وعلق ذلك الكتاب بسيف، وأبقى هذا الكتاب لديه وعمل بموجبه حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، وعمل بموجب هذا الكتاب بعدَ رسول الله ﷺ الخليفةُ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومِن بعدِه عمل به عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.[٩٧٤]

إنَّ للزكاة فوائدَ وحكمًا فردية واجتماعية كثيرة مثل الحد من الغرور والتعالي الذي قد يظهر لدى الأغنياء نتيجة تعلقهم وانبهارهم بالثروة الكبيرة التي بين أيديهم، والحيلولة دون تنامي المشاعر السلبية لدى الفقراء والمحتاجين تجاه الأغنياء مثل الحسد والحقد، وحماية الحياة الاجتماعية، وخلق علاقات قائمة على الترابط والود والمحبة بين أفراد المجتمع. إنَّ لعبادة «الزكاة والإنفاق» مكانة مهمة ومتميزة في النظام الاجتماعي للإسلام من ناحية تحقيق التوازن والمحبة بين الفقراء والأغنياء.

ومن حكم الزكاة والإنفاق أيضًا الحيلولة دون النمو غير الطبيعي للثروة الفردية، ومنع استخدامها في استغلال الفقراء، أو حصول الحقد والحسد بين طبقات المجتمع، لأن الغنى إن تحول إلى وسيلة للتفاخر والتكبر فإنه ينقلب إلى عاقبة وخيمة وحزينة بالنسبة إلى الغني، على أية حال، فإن جميع الأفراد في مجتمع ما سواء من يقدمون المساعدة، أو من يتلقونها محتاجون بعضهم إلى بعض من الناحية المادية والمعنوية على السواء.

مما ينبغي معرفته أن الملك بالمعنى المطلق هو لله تعالى، وأما ملكية الناس لما بين أيديهم فتشبه أصول الملكية المتناوبة الحديثة المبتكرة في عصرنا الحالي، أي إن الثروة أمانة مؤقتة أودعها الله تعالى لدى عباده، ولذلك فإن استخدام الأفراد لهذه الملكية مرتبط بجملة من المعايير الإلهية.

إذ يجب استخدام تلك الملكية أو إنفاقها في المكان أو الوجهة التي أمر بها صاحبها الحقيقي؛ لأنه إذا اُستخدمت الثروة بصورة مخالفة للأوامر الإلهية فإنها تفتح المجال لانزلاق الإنسان إلى كثير من الأمور السلبية والمهلكة مثل الجشع والاستكبار والظلم والعدوان على الآخرين، وتستقر محبة المال في قلوب من انزلقوا إلى مثل هذه الآفات المقيتة.

إن اختيار الله تعالى نعمة المال والبنين من بين النعم الدنيوية الأخرى ووصفها بـ «الفتنة» كان بناءً على خطورتهما من حيث الدخول إلى القلب والسيطرة عليه، وتحولها

---

٩٧٤ البخاري: الزكاة، ٣٨؛ أحمد: مسند، ٢، ١٤.

إلى ما يشبه عبادة الوثن، ولكي يحذِّر الله سبحانه وتعالى من وقعوا ضحية هذا الخسران ويوقظهم من غفلتهم قال في كتابه العزيز:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [٩٧٥]

وقد أخبرنا النبي ﷺ في الأحاديث الشريفة بالعاقبة الوخيمة لمن يهمل فريضة الزكاة، حيث قال:

«ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله! فالإبل؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلًا واحدًا، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله! فالبقر والغنم؟ قال عليه الصلاة والسلام:

«ولا صاحب بقر ولا غنم يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

ولما سأل الصحابة ﷺ عمن لا يؤدي زكاة الخيل أيضًا أجاب النبي ﷺ بإجابة مشابهة» [٩٧٦]

---

٩٧٥ التوبة: ٣٤ – ٣٥.

٩٧٦ مسلم: الزكاة، ٢٤/ ٩٨٧؛ البخاري: الجهاد، ٤٨.

فيجب على المرء الانتباه جيدًا إلى الخصوصية الدقيقة التي تتمتع بها الزكاة والصدقات، إذ ينبغي الحذر والابتعاد عن كل التصرفات والسلوكيات التي تذهب بثواب الصدقة والزكاة مثل التباهي، وإعطاء السيىء من الأموال، فينبغي أن يكون المعطي للزكاة بمنتهى الامتنان والشكر لآخذها، إذ إن الآخذ قد خلصه من دين مفروض عليه ومتعلق بذمته وكان سببًا أيضًا في نيله الأجر والثواب. وأما المال المعطَى فإنه في الوقت ذاته يشكل درعًا وحماية للشخص المعطي من العلل والأمراض والمصائب. وفي الحقيقة، فإن المساكين والفقراء وأبناء السبيل يُعدون نِعمًا كبيرة بالنسبة للأغنياء وأصحاب الثروات، إذ إن أبواب الجنة تُفتح بدعائهم. وقد جاء القرآن الكريم بالآداب التي ينبغي مراعاتها أثناء إعطاء الصدقات، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٩٧٧]

الاعتكاف

الاعتكاف في اللغة يأتي بمعنى: حبس النفس والانتظار في مكان ما، وأيضًا اللبث وملازمة الشيء أو الدوام عليه خيرًا كان أو شرًا، ماديًا كان أو معنويًا.

وأما الاعتكاف اصطلاحًا: فهو الإقامة أو اللبث في المسجد لمدة معينة بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى. ويكون الاعتكاف حتى لو كان اللبث في المسجد لساعة واحدة، وذلك لعدم ورود قيد على المدة، ويسمى ذلك اعتكاف النافلة.

إلا أن الله تعالى يقول:

﴿...وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ...﴾[٩٧٨]

٩٧٧ البقرة: ٢٦٢ – ٢٦٤.

٩٧٨ البقرة: ١٨٧.

هذه الآية فيها دلالة على شرط الصيام في الاعتكاف ولهذا السبب فإن الاعتكاف ينبغي أن لا يقل عن يوم واحد، وهذا هو الاعتكاف الشرعي الأساسي، ولذلك فإن الاعتكاف يطبق في غالب الحالات خلال شهر رمضان بالإقامة في المساجد مع الصيام، حيث يُقضى نهار الاعتكاف بالصيام، وليله بالعبادة والذكر في المسجد، وبذلك يتم تطبيق وتكثيف العبودية بالمعنى التام.

إن الاعتكاف في الأيام العشر الأواخر من شهر رمضان سنة مؤكدة كفائية، أي عندما يقوم بعض المسلمين بتطبيق الاعتكاف في مكانٍ ما تُرفع الإساءة عن الآخرين، وأما إذا نُذر الاعتكاف فيكون تنفيذه واجبًا، وما عدا ذلك، فإن الاعتكاف في المسجد خارج شهر رمضان بقصد العبادة مستحب.

وينبغي على المعتكف عدم الخروج من المسجد خلال الاعتكاف إلا لأمر ضروري، مثل الوضوء.

كانت نساء النبي ﷺ يعتكفن في حجراتهن، لأن الرسول ﷺ أزال الخيم المنصوبة في المسجد من أجل النساء، ولهذا السبب سنَّ لنساء المؤمنين الاعتكاف في بيوتهن لا في المساجد، وذلك بالمكوث في الزوايا المخصصة في بيوتهن كمسجد للصلاة.

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[٩٧٩]

«أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله ﷻ، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[٩٨٠]

ونذكر هنا حادثة تبين بشكل جميل مدى أهمية وفضل الاعتكاف، وفي الوقت نفسه تُظهر مدى أهمية قيام المرء بواجباته الفردية والاجتماعية، وعدم إهمالها، فقد كان ابن عباس رضي الله عنه كان معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه، ثم جلس فقال له ابن عباس رضي الله عنه:

يا فلان أراك كئيبا حزينا، قال: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ لفلان علي حق، لا وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك، قال: إن أحببت، قال:

٩٧٩ البخاري: فضل ليلة القدر، ٥/ ٢٠٢٤؛ مسلم: الاعتكاف، ٧/ ١١٧٤.

٩٨٠ البخاري: الاعتكاف، ١/ ٢٠٢٦؛ مسلم: الاعتكاف، ٥/ ١١٧٢.

فانتقل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه قال: لا ولكني سمعت صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام والعهد به قريب فدمعت عيناه، وهو يقول:

«من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرًا من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد ما بين الخافقين» [٩٨١]

غزوة بدر الكبرى «١٧ رمضان العام ٢ للهجرة/ ١٣ آذار ٦٢٤ م»

كانت قريش قد أرسلت في السنة الثانية للهجرة قافلة تجارية كبيرة إلى سوق غزة في الشام، مؤلفة من ألف بعير، وتحمل أموالًا بقيمة ما يقارب «٥٠٠٠٠» دينار، ساهم فيها الرجال والنساء من قريش، وكانت القافلة تسير بقيادة أبي سفيان وتضم إلى جانبه ثلاثين أو أربعين من وجهاء المشركين في مكة، أمثال؛ محمد بن نوفل، وعمرو بن العاص وغيرهم.

وكان المشركون في مكة يعلمون بأن المسلمين سوف يقطعون الطريق التجاري إلى الشام والذي تمر منه قوافلهم التجارية، وذلك معاملة بالمثل، لأنهم قد منعوا المسلمين من أداء الحج، لذلك فقد خرجوا من الشام والخوف يحيط بهم من كل جانب، فاستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الذي كان مع القافلة، فأعطاه عشرين مثقال من الذهب، وأرسله على عجل من تبوك إلى مكة.[٩٨٢]

وقد رأت عاتكة بنت عبدالمطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعتها. فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له:

- يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به!

فقال لها العباس رضي الله عنه:

- وما رأيت؟

قالت السيدة عاتكة:

- رأيت راكبًا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه. ثم دخل المسجد

---

٩٨١ البيهقي: شعب الإيمان، ٣، ٤٢٤ – ٤٢٥/ ٣٦٧٩.

٩٨٢ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٤٤؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٧ – ٢٨.

والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث. ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة!.

قال العباس رضي الله عنه:

- والله إن هذه لرؤيا! وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد!

ثم خرج العباس، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقًا، فذكر له تلك الرؤيا، واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكة، حتى تحدثت به قريش في أنديتها .

قال العباس رضي الله عنه:

فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال:

- يا أبا الفضل! إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل:

- يا بني عبدالمطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة. يا بني عبد المطلب! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفُروا في ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًا ما تقول فسيكون، و إن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيءٌ نكتبْ عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس:

فوالله ما كان مني إليه كبير، إلا أني جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئًا، ثم تفرقنا. فلما أمسيت، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت:

- أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غِيَر لشيء مما سمعت.

- قلت:

- قد والله فعلت، ما كان مني إليه من كبير وايم الله لأتعرَّضنَّ له، فإن عاد لأكفيْكَنَّه .

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه، ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلًا خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر. إذ خرج نحو باب المسجد يشتد. فقلت في نفسي: ما له لعنه الله، أكلُّ هذا فَرَق مني أن أشاتمه! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، قد جدع بعيره، وحوّل رحله، وشق قيمصه، وهو يقول:

– يا معشر قريش! اللطيمةَ اللطيمةَ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه! لا أرى أن تدركوها، الغوثَ! الغوثَ! فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر.[٩٨٣]

فتجهزت قريش سراعًا. وأكملت تجهيزاتها في يومين أو ثلاثة أيام، حيث اشتروا السلاح لمن لا سلاح له، وقدم الأغنياء ما بوسعهم من مساعدات للفقراء، وقال الوجهاء من قريش أمثال سهيل بن عمرو، وزمعة بن الأسود:

– من أراد الجمل، فها هو الجمل! ومن أراد الطعام فها هو الطعام! اخرجوا جميعًا للقتال! ولا يتخلفن منكم أحد! لئن بطش محمد بقافلتكم ليسيرن إليكم بمن معه، ويدخلن مكة!

اشترك الرجال جميعهم في الجيش، فمن استطاع الخروج بنفسه خرج، ومن لم يستطع أرسل مكانه أحدًا، ولما كان يوم الخروج إلى بدر وأصدر أبو جهل أمره بالركوب على ظهور الخيل والجمال، لم يشأ أمية بن خلف في البداية الخروج من مكة. لأن هذا المشرك الظالم كان قد سمع خبرًا من صادق الوعد الأمين رسول الله عليه الصلاة والسلام ينبئ بمقتله على أيدي المسلمين، وفزع من هذا الخبر فزعًا شديدًا، وقال:

– والله إن محمدًا لم يأت بكلام كذب قط!

فجاء إليه أبو جهل وما زال عليه حتى أقنعه بالخروج، فأسرع بتجهيز نفسه وخرج مع الناس.

وأخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة دروعًا لهما، ونظر إليهما عداس وهما يصلحان دروعهما وآلة حربهما، فقال: ما تريدان؟. قالا: ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كرمنا

---

٩٨٣ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٤٤ – ٢٤٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٩ – ٣١.

بالطائف؟. قال عداس: نعم. قالا: نخرج فنقاتله، فبكى عداس، وقال: بأي وأمي أنتما، لا تذهبا! فو الله إنه لنبي! والله ما تساقان إلا لمصارعكما! ثم بكى وانهمرت الدموع على خديه. إلا أن عتبة وشيبة لم يسمعا كلامه، وخرجا إلى المعركة.

لقد كان عدد المشركين تسعمائة وخمسون أو ألف رجل. منهم مائة أو مئتان على ظهور الخيل، وسبعمائة على الجمال، وكان معظمهم يرتدي الدروع، وخرج في الجيش جميع وجهاء قريش، واصطحبوا معهم الجواري والمغنيات، فخرجوا في طريقهم إلى بدر، والقيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء الإسلام والمسلمين.[٩٨٤]

لقد كان الثاني عشر من شهر رمضان للعام الثاني من الهجرة، وقد استخلف الرسول ﷺ مكانه عبد الله بن أم مكتوم لكي يصلي بالناس في المدينة، وخرج من المدينة ومعه جيش مؤلف من ثلاثمائة وثلاثة عشر شخصًا، منهم أربعة وستون رجلًا من المهاجرين، والبقية من الأنصار، كان ثلاثة جنود يركبون الخيل، وستون يركبون الجمال، والآخرون مشاة.[٩٨٥]

أوقف النبي ﷺ مسير المجاهدين على بعد ميل واحد من المدينة المنورة عند موضع يقال له بيوت السقيا. وأعاد صغار السن إلى المدينة.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

«رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني، فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة. ولما عُرض على رسول الله ﷺ استصغره، فرده. فبكى عمير فأجازه النبي ﷺ، وكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة»[٩٨٦]

ولما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه كان ثلاثة أشخاص يتعاقبون في ركوب الجمل، وذلك لقلة عدد الجمال، وكان النبي ﷺ يتناوب على ركوب جمله مع علي بن أبي طالب، وأبي لبابة رضي الله عنهما، فإذا كانت نوبة النبي ﷺ في المشي قالا له:

- اركب يا رسول الله! حتى نمشي عنك.

---

٩٨٤ الواقدي: المغازي، ١، ٣١ – ٣٩؛ البخاري: المناقب، ٢٥؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٢٩٤ – ٢٩٥.

٩٨٥ الواقدي: المغازي، ١، ٢٣ – ٢٤؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٠ – ٢٥١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٢.

٩٨٦ الواقدي: المغازي، ١، ٢١؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٤٩ – ١٥٠.

فقال لهما النبي عليه الصلاة والسلام:

«ما أنتما بأقوى على المشي مني، و ما أنا بأغنى عن الأجر منكما» [٩٨٧]

لقد كان الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يُظهر بهذا السلوك الراقي والخلق الرفيع مدى محبته الكبيرة لله تعالى، واشتياقه العميق للقاء الحق سبحانه وتعالى بالعبادة والعمل. وهو إلى جانب ذلك يعلّم أصحابه وأمته ضرورة الالتزام التام بالعدالة والانصاف، ومراعاة الحقوق تجاه الناس جميعًا بغض النظر عن الفروق الاجتماعية، والمالية، والدينية، والعرقية، واللغوية.

وبعد مدة أعاد النبي ﷺ أبا لبابة ﵁ إلى المدينة المنورة ليستخلفه فيها.[٩٨٨]

إن فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ الذي لم يكن يلتجئ إلا إلى الله تعالى، ولا يعرض حاجته إلى على مولاه ﷻ، لما رأى ضعف حالة أمته ومدى حاجتهم، آلمه ذلك ولم يتحمل رؤيتهم على هذه الحال، فرفع يديه إلى ربه سبحانه وتعالى داعيًا متضرعًا:

«اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم»

ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا.[٩٨٩]

ولمصادفة تلك الأيام الصعبة شهر رمضان الكريم فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه وجنوده الصائمين بالفطر، وذلك لأن المسلمين كانوا بحاجة ملحة إلى القوة البدنية في الحرب التي يقبلون عليها، فلم يصم جميع المؤمنين المشتركين في تلك الغزوة على أن يقضوا الأيام التي أفطروا فيها في وقت لاحق.

تقدم جيش الإسلام الأول مباشرة باتجاه بدر، فوصل إلى وادي العقيق، وأثناء ذلك وصل رجلان يقال لأحدهما خبيب بن يساف والآخر قيس بن محرث، وانضما إلى جيش المسلمين بقصد الحصول على الغنائم، فقال رسول الله ﷺ لخبيب: **«هل خرجتما معنا؟»**

فقال خبيب: لا! إنك ابن أختنا وجارنا، وإنما خرجنا مع قومنا لنصيب الغنيمة!

---

٩٨٧ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢١؛ أحمد: مسند، ١، ٤٢٢/ ٤٠٠٩.

٩٨٨ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥١.

٩٨٩ أبو داود: الجهاد، ١٤٥ / ٢٧٤٧.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**تؤمن بالله ورسوله؟**»

قال خبيب: لا!

عندها قال له النبي ﷺ: «**فارجع! فلن نستعين بمشرك!**»

أصرّ خبيب على الخروج معهم قائلًا: يعلم قومي شجاعتي في المعارك، وأنني أفتك في الأعداء فتكا شديدًا، أفلا أقاتل بجانبك فآخذ الغنائم، من دون الإسلام؟

وتكررت من خبيب المراجعة لرسول الله ﷺ، يعرض عليه العرض نفسه، فيتلقى الإجابة ذاتها من الرسول عليه الصلاة والسلام، فتعجب خبيب من الأمر كثيرًا، وأصابته الحيرة والدهشة من هذا الموقف الحازم من النبي عليه الصلاة والسلام. لأنه معروف ومشهور بين العرب بشجاعته وجرأته في المعارك، ولكن الرسول ﷺ لم يرض بانضمامه إلى جيش المسلمين والقتال في صفوفهم وهو لا يزال على الشرك، لقد هزّ موقف الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المقبل على جيش كبير بنفر قليل وعتاد بسيط، هز خبيبًا من أعماقه، وشاهد أنوار الحقيقة لعالم لم يكن يلحظه ويراه من قبل وقد انسابت إلى أعماق عوالم قلبه، فجرى من جديد مسرعًا خلف الرسول عليه الصلاة والسلام بمشاعر مفعمة بالحماس، وكانت هذه المراجعة مختلفة تمامًا عن سابقاتها، حيث إنه لما تلقى سؤال الرسول الأكرم ﷺ كما في المرات السابقة: «**أتؤمن بالله ورسوله؟**»

أجاب بكل بهجة وسرور: نعم يا رسول الله!

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**فانطلق**»[٩٩٠]

إن هذه الحادثة تبين لنا معيارًا إيمانيًا رائعًا حول العمل على تحقيق غاية مشروعة ما، إذ توجِّهُنا هذه الواقعة بأنه لا يجوز لتحقيق غاية مشروعة اتباع وسائل وطرق غير مشروعة مهما كانت الظروف والأحوال صعبة ومعقدة، فواجب العبد التوكل على الله تعالى بعد اتخاذ التدابير اللازمة والمتوفرة لديه، وقد أظهر لنا الرسول ﷺ هذه الحساسية الإيمانية من خلال رفضه انضمام خبيب إلى صفوف جيس المسلمين والقتال بجانبهم دون الدخول في الإسلام، فأصبح بذلك نموذجًا رائعًا للأمة في هذا المجال، لأن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان يلجأ في كل أمره إلى الله تعالى، ويتوجه إليه دون غيره، ويعلم بأنه لا ناصر

---

٩٩٠ مسلم: الجهاد، ١٥٠/ ١٨١٧؛ الترمذي: السير، ١ / ١٥٥٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ٤٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٥٣٥؛ أحمد: مسند، ٤٢، ٨٠/ ٢٥١٥٨.

ولا حافظ إلا المولى ﷻ، وفي الوقت نفسه كان يعلِّم الأمة ذلك، وإن الرسول ﷺ بمثل هذا السلوك يقدم لنا أجمل مثال عملي وحيٍّ لمعنى التوكل الذي جاء في الآية الكريمة:

﴿...**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[991]

يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

«ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟. فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال:

«**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»[992]

إن هذه الحادثة تشكل إحدى روائع الأمثلة لالتزام الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم بالعهود ووفائه بها حتى ولو كانت مع ألد الأعداء والخصوم.

لقد طلبت بعض نسوة أيضًا الانضمام إلى الخارجين لغزوة بدر، وإحدى هؤلاء النسوة أم ورقة، حيث أسرعت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقالت:يا رسول الله! ائذن لي في الغزو معك! أمرِّض مرضاكم، لعل الله أن يرزقني شهادة. فقال لها النبي ﷺ:

«**قري في بيتك فإن الله تعالى يرزقك الشهادة**»

فكانت تسمى بالشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنا، فأذن لها، قال: وكانت قد دبرت غلاما لها وجارية فقاما إليها بالليل فغماها بقطيفة لها حتى ماتت وذهبا، فأصبح عمر فقام في الناس، فقال: من كان عنده من هذين علم، أو من رآهما فليجئ بهما، فأمر بهما فصلبا فكانا أول مصلوب بالمدينة.[993]

---

٩٩١ آل عمران: ١٧٣.

٩٩٢ مسلم: الجهاد، ٩٨/ ١٧٨٧.

٩٩٣ أبو داود: الصلاة، ٦١/ ٥٩١؛ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٥٠٥/ ١٢٢٩٨.

لما علم أبو سفيان بخبر توجه المسلمين إلى بدر غيّر مسار القافلة إلى جهة أخرى. فجعل بدرًا على شماله وسلك طريق الساحل متجهًا بسرعة قصوى إلى الساحل. [٩٩٤]

ولما نجا بالقافلة من الخطر الذي يتهدّدها أرسل الخبر مع رجل إلى جيش قريش، وقال لهم:

- إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم، ورجالكم، وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا !.

ولما سمع الأخنس بن شريق برسالة أبي سفيان طلب من قومه بني زهرة، وبني عدي بن كعب الرجوع إلى مكة، فأطاعوه ورجعوا.

وأما أبو جهل فأصر على الخروج، وقال:

- والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا!

ولما سمع أبو سفيان بأن جيش قريش قد أطاع أبا جهل، ولم يرجع إلى مكة، قال:

- واقوماه هذا عمل عمرو بن هشام ـ يعني أبا جهل! كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى، والبغي منقصة وشؤم!. [٩٩٥]

أدرك الرسول ﷺ من خلاله المسار السياسي المتقدم الذي تتبعه خطوة بخطوة أنه لم يبق مفرٌ من الدخول في الحرب ومواجهة الموت وجهًا لوجه، فجمع الصحابة الكرام وسألهم عن رأيهم:

- أيهما أحب إليكم اللحاق بالعير، أم اللقاء بجيش قريش؟

فقام عن المهاجرين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﵄ فقالا وأحسنا القول، واختارا مواجهة جيش المشركين.

وأراد النبي ﷺ معرفة رأي الأنصار أيضًا، فقام عن الأنصار المقداد بن الأسود ﵁، وقال:

---

٩٩٤ ابن هشام: السيرة، ٢، ٥٧.

٩٩٥ الواقدي: المغازي، ١، ٤٣ – ٤٥؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٨.

– يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[٩٩٦] ولكن امض ونحن معك كما عاهدناك في العقبة، ونقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك![٩٩٧]

وبعد المقداد قام سعد بن معاذ ﵁، وقال:

– يا رسول الله! آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك! فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد!

فسر النبي ﷺ لصدق ووفاء أصحابه من المهاجرين والأنصار، وأشرق وجهه، وقال:

«سيروا وأبشروا، فإن الله ﷻ قد وعدني إحدى الطائفتين،[٩٩٨] والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم» [٩٩٩]

ولما جاء جيش المسلمين إلى بدر، كان جيش المشركين قد سبقهم في الوصول، وخيموا بعيدًا عن المدينة المنورة في وادي يليل خلف تلة رملية، وكانت آبار المياه تقع على جانب الوادي القريب من المدينة.[١٠٠٠]

وعندما وصل الرسول ﷺ والمجاهدون إلى بئر الماء الأقرب إلى بدر، استشار الأنصار بشأن تحديد المكان الذي سوف ينزلون فيه، فقال الحباب بن المنذر ﵁:

– يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوّر ما وراءه من القُلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فأُعجب النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الرأي وقبله.[١٠٠١]

---

٩٩٦ المائدة: ٢٤.

٩٩٧ البخاري: المغازي، ٤، التفسير، ٥/ ٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٢٠، ١٦٢؛ الواقدي: المغازي، ١، ٤٩.
يقول ابن مسعود ﵁: شهدت من المقداد الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي عليه الصلاة والسلام وهو يدعو على المشركين... (البخاري: المغازي، ٤، التفسير، ٥/ ٤)

٩٩٨ إن الطائفتين اللتين وُعد بهما النبي عليه الصلاة والسلام في الآية ٧. من الأنفال إحداهما النصر على المشركين في المعركة وأخذ أسرى منهم، والثانية الظفر بقافلة المشركين الكبيرة القادمة من الشام.

٩٩٩ الواقدي: المغازي، ١، ٤٨ – ٤٩؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٣ – ٢٥٤.

١٠٠٠ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٩.

١٠٠١ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٩ – ٢٦٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٥.

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله عليه الصلاة والسلام فيهم حكيم بن حزام على فرس له، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«دعوهم. فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه. فكان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني من يوم بدر!» [١٠٠٢]

يعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام بإعطائه الإذن لمن سوف يحاربهم ويقاتلهم بعد لحظات بالشرب من مائه دستور الإنسانية، وأسلوب الهداية؛ لأن مثل هذه المعاملة الحسنة المليئة بالروح الإنسانية والأخلاق الرفيعة كم كانت سببًا في تليين القلوب القاسية، ومن ثم فتح أبواب نور الهداية فيها.

وبعد أن استقر جيش المسلمين في منزله قال سعد بن معاذ رضي الله عنه:

– يا رسول اللّه! ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا رسول الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك...

فاستحسن الرسول اقتراحه، وأثنى عليه ودعا له بخير. واستل سعد رضي الله عنه سيفه ووقف عند باب العريش يحرس النبي ﷺ. [١٠٠٣]

أرسل النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمرة الأخيرة إلى جيش قريش، يقول لهم:

– ارجعوا، فإنه أن يلي هذا الأمر مني غيركم أَحب إِلَي من أَن تلوه مني، وأَلِيَه من غيركم أحب إليّ من أَن أَليه منكم.

فقال حكيم بن حزام:

– قد عرض نصفًا، فاقبَلوه، والله لا تنصرون عليه بعْد ما عرض من النّصف.

١٠٠٢ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٦١؛ الطبري، تاريخ، ٢، ٤٤١.

١٠٠٣ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٦٠؛ الواقدي: المغازي، ١، ٤٩؛ الطبري، تاريخ، ٢، ٤٤٠.

قال أَبو جهل:

– والله![1004] لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم، ولا نطلب أثرًا بعد عين ولا يعترض لعيرنا بعد هذا أبدًا.[1005]

أرسلت قريش عمير بن وهب وأحد فرسانه أبا أسامة إلى المسلمين ليستطلعوا أحوال جيشهم ويحصوا عدتهم وعددهم. فلما طافا بجيش المسلمين واطلعا على أحواله، عادا إلى القوم، بقولهم:

– والله ما رأينا جلدًا، ولا عددًا، ولا حلقة، ولا كراعًا، ولكنا رأينا قومًا لا يريدون أن يؤوبوا الى أهليهم، قومًا مستميتين ليست لهم منَعة ولا ملجأ إِلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف!.[1006]

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إن رسول الله ﷺ، كان يرينا مصارع أهل بدر، بالأمس، يقول: «**هذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله**»، فوالذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ، فجعلوا في بئر بعضهم على بعض...»[1007]

لقد كانت منازل المسلمين في بدر رملية، ولذلك لم يكن من السهولة السير فوقها، وقد ظهرت إضافة إلى ذلك بوادر أزمة مائية بسبب تناقص الماء الموجود بين أيديهم، فأصبح الناس يعانون صعوبة كبيرة في الحصول على الماء الكافي من أجل الوضوء والغسل، وقد أخذ الشيطان باستغلال الفرص من زعزعة استقرار قلوب المؤمنين وزرع الخوف في أفئدتهم، وذلك من خلال التهويل من أمر هذه المصاعب، وإظهار قوة المشركين وتفوُّقهم في أعين المسلمين من حيث العدة والعتاد.

١٠٠٤ كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يؤمنون بوجود الله تعالى. ولكنهم انحرفوا عن عقيدة التوحيد بعبادتهم لآلهة أخرى مع الله تعالى، فانزلقوا بذلك إلى الشرك. ولهذا فقد كانوا كما في هذه الحالة المذكورة يتلفظون بعبارات باسم الله تدل على إقرارهم بألوهيته. وإن السبب الذي أوقعهم في الشرك هو عبادتهم للأصنام لاعتقادهم بأنها تحقق لهم أمورًا جليلة مثل تقريبهم من الله تعالى، أو تكون شفعاء لهم عنده، أو تكسبهم العزة والشرف. (انظر.العنكبوت: ٦١؛ الزمر: ٣)

١٠٠٥ الواقدي: المغازي، ١، ٦١ – ٦٥.

١٠٠٦ الواقدي: المغازي، ١، ٦٢.

١٠٠٧ مسلم: الجنة، ٧٦/ ٢٨٧٣.

فأنزل الله ﷻ تلك الليلة الأمطار، وسالت المياه في الوادي، فملأ المسلمون ما لديهم من الأواني والقرب بالماء، وتوضؤوا، واغتسلوا، وسقوا دوابهم من تلك المياه المتدفقة في الوادي، وفي الوقت ذاته أزالت تلك الأمطار الغبار المتصاعد من الرمال، وثبتت الأرض الرملية، وعملت على تسويتها، وأما المشركون فقد شُلت حركتهم، ولم يتمكنوا من مفارقة المكان الذي نزلوا بسبب الأمطار الغزيرة، وقد تفضل الله تعالى على المؤمنين بحالةٍ من النعاس والنوم التي تبعث السكينة والهدوء في النفس، وتريح البدن والأعصاب.[١٠٠٨]

ويقول الله تبارك وتعالى عن هذه المكرمة الإلهية:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[١٠٠٩]

وأما النبي عليه الصلاة والسلام فقد أمضى ليلته بالصلاة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، حيث يقول علي كرم الله وجهه:

«رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»[١٠١٠]

ولما بزغ الفجر صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح وحض المؤمنين على القتال والجهاد في سبيل الله.[١٠١١]

وقبل أن يتخذ مشركو قريش أماكنهم في مواجهة المسلمين، نظم النبي ﷺ صفوف المجاهدين مستخدمًا السهم الذي بين يديه في إعطاء الإشارات والتعليمات، ومن ثم أحصى عددهم، وأثناء تسوية صفوف المسلمين كان أحد المجاهدين متقدمًا قليلًا على الصف، وهو سواد بن غزية، فطعنه رسول الله ﷺ بالسهم في بطنه، وقال له:

«استو يا سواد!»

فقال سواد: يا رسول الله! أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني.

١٠٠٨ الطبري: التفسير، ٩، ٢٥٦ – ٢٦١.

١٠٠٩ الأنفال: ١١.

١٠١٠ أحمد: مسند، ٢، ٢٩٩/ ١٠٢٣؛ ابن خزيمة: الصحيح، ٢، ٥٢/ ٨٩٩.

١٠١١ أحمد: مسند، ١، ١١٧.

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه! فقال الأنصار: يا سواد! إنه رسول الله!

فقال سواد: ليس في العدالة أحد من البشر فوق آخر! فقال له رسول الله ﷺ:

«**هيا! استقد**».

فانكب سواد على بطن النبي يقبلها. فقال له فخر الكائنات محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

«**ما حملك على هذا يا سواد؟**».

قال سواد: يا رسول الله! حضر ما ترى من الحرب، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله ﷺ بخير.[١٠١٢]

اصطف الجيشان وجهًا لوجه في صحراء بدر متأهبين للالتحام والنزال، وكان ذلك يوم الجمعة في اليوم السابع عشر من شهر رمضان، كان يومًا شديد الحرارة. وقد كانت العرب إلى تلك اللحظة التاريخية الحاسمة تخوض الحروب فيما بينها بدافع من العصبية القبلية القومية التي تستند على رابطة النسب، والدم، والقرابة، أما الآن فقد حل الدين محل القبلية والقومية، وقد أزاحت مشاعر الحمية الدينية عصبية القربى جانبًا والتي كانت من أقوى الروابط لدى العرب. حيث كان ذوو القربى الأقربون في هذه المعركة متوزعين بين صفوف الجانبين المتأهبين للقتال، مثل الآباء، والأعمام، والأخوال، والأولاد، والإخوة. وفي ذلك تقابل وجهًا لوجه وبالسيف كل من أبي بكر وابنه، وأبو عبيد بن الجراح وأبيه، وحمزة بن عبد المطلب وأخيه. وقد ارتسمت في هذه الملحمة لوحة مليئة بالعبر والعظات.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [١٠١٣]

لقد كان المشركون القادمون إلى ساحة المعركة يحيط بهم العجب والغرور، يباهون ويتبخترون معتقدين بأنهم قوم لا يُغلبون أبدًا، ويبين الله تعالى حال المشركين هذه ببيان قرآني بالغ الروعة. حيث يقول:

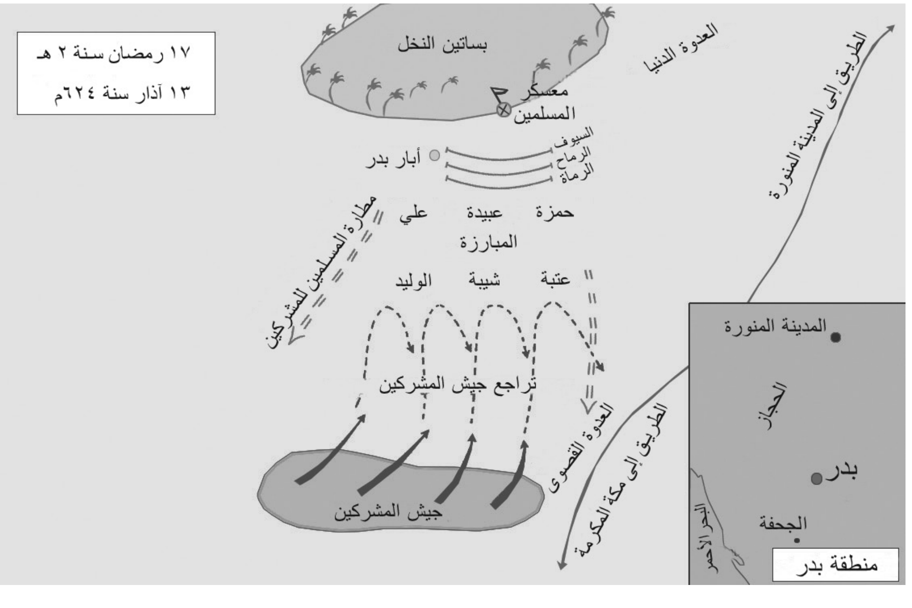
١٠١٢ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٦٦ – ٢٦٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٥ – ١٦؛ الواقدي: المغازي، ١، ٥٦.

١٠١٣ آل عمران: ١٣.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [١٠١٤]

وقلَب ربُّ العزة غرورهم رأسًا على عقب في تحدٍ إلهي جليل، حيث يقول المولى ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [١٠١٥]



١٠١٤ الأنفال: ٤٧ – ٤٨.

١٠١٥ الأنفال: ٣٦.

الإمداد بالملائكة

نظر الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم إلى المشركين:

لقد كانوا ما يقارب الألف رجل، وأما أصحابه فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا.[١٠١٦]

فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وبدأ يدعو ربه ويتضرع إليه:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»

فما زال النبي ﷺ يهتف بربه مادًا يديه المباركتين إلى السماء ومستقبلًا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر ﷺ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال:

- يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك. فإنه سينجز لك ما وعدك.

قد كانت قلوب المؤمنين جميعًا في حالة توسل وتضرع، فجاءت البشرى العظيمة من لدن الرحمن اللطيف:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٠١٧]

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[١٠١٨]

لقد أمد الله تعالى المؤمنين ذلك اليوم بملائكته الكرام.[١٠١٩] ووفقًا لإخلاص المؤمنين فقد أرسل الله تعالى لهم في أول الأمر ألفًا من الملائكة، ثم ازداد العدد إلى ثلاثة آلاف، وظل يزداد حتى وصل إلى خمسة آلاف من الملائكة مردفين.

١٠١٦ يقول البراء ﷺ: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث: أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة. (البخاري: المغازي، ٦؛ الترمذي: السير، ٣٨/ ١٥٩٨).

١٠١٧ الأنفال: ٩ - ١٠.

١٠١٨ آل عمران: ١٢٣ - ١٢٥.

١٠١٩ البخاري: المغازي، ٤، ٦؛ مسلم: الجهاد، ٥٨/ ١٧٦٣؛ الترمذي، ٣٠٨١.

على الرغم من تحديد النبي ﷺ لمواقع مصرع زعماء المشركين قبل بدء المعركة بليلة، وعلى الرغم من إعلام الله ﷻ له وتبشيره بالنصر الإلهي المبين فقد ظل ﷺ يتوسل إلى الله تعالى ويتضرع إليه، ويدعوه متذللًا على أعتابه من الليل حتى حلول الصباح، هذه الحالة هي إحدى المظاهر الهامة للشعور بالعبودية، ولا يريد الله تعالى منا سوى العبودية، ولا يوجد سبيل للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى أفضل وأسلم من التوسل إليه بالتضرع، والتذلل على أعتابه.

قال رسول الله ﷺ يوم بدر:

«**هذا جبريل، آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب**» [١٠٢٠]

يقول حويطب بن عبد العزى:

«لقد شهدت بدرًا مع المشركين، فرأيت عبرًا، رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض، فقلت: هذا رجل ممنوع، ولم أذكر ما رأيت أحدًا، وانهزمنا راجعين إلى مكة» [١٠٢١]

ويقول أبو داود المازني:

«إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري» ـ أي ملك ـ [١٠٢٢]

يقول أنس ﵁ متحدثًا عن يوم بدر:

...وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**»، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، قال: - يقول عمير بن الحمام الأنصاري: - يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل. [١٠٢٣]

١٠٢٠ البخاري: المغازي، ١١/ ٣٩٩٥/ ٤٠٤١.

١٠٢١ الحاكم: المستدرك، ٣، ٦٢٢/٥ ٦٠٨٤ /.

١٠٢٢ أحمد: مسند، ٥، ٤٥٠ / ٢٣٧٧٨.

١٠٢٣ مسلم: الإمارة، ١٤٥/ ١٩٠١؛ أحمد: مسند، ٣، ١٣٧.

لقد بدأت معركة بدر بالمبارزة بين المسلمين والمشركين رجلًا برجل، فخرج من صفوف المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة رضي الله عنهم أجمعين، وقتلوا مبارزيهم ثم رجعوا إلى صفوف الجيش، إلا أن عبيدة ﵁ عاد إلى الصف بمعاونة حمزة وعلي وقد أصيب في ساقه، إذ أصاب مبارزه عضلة ساقه فقطعها، فقال عبيدة ﵁: يا رسول الله، ألست شهيدًا؟ فقال له الرسول ﷺ: بلى. وبعد أن تلقى بشارة الشهادة من النبي عليه الصلاة والسلام توفي ﵁.[١٠٢٤]

وبعد ذلك بدأ الجيشان يتقاربان رويدًا رويدًا من بعضهما، ولم يأذن النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه بالهجوم المباغت. لأنه كان من بين صفوف المشركين من لا يرى الحرب والقتال مع المسلمين، وذلك لتجاوز القافلة مرحلة الخطر ونجاتها من أيدي المسلمين، ولذلك فإن تأخر المسلمون بالهجوم فسيزيد من إحجام هؤلاء عن القتال، فيؤدي ذلك إلى تثبيط عزيمة المشركين على القتال وزعزعة صفوفهم، وبطبيعة الحال فإن هزيمة من خرج منهم إلى المبارزة ومقتلهم بث بينهم ترددًا كبيرًا في القتال، إلا أن أبا جهل اللعين صار يصرخ بكل حقد، وتجبر ويحضهم على القتال:

- فلا أُلْفِيَن أحدًا منكم قتل منهم أحدًا!، ولكن خذوهم أخذًا![١٠٢٥]

وبناء على ذلك فقد انتقل المشركون إلى الهجوم العام والشامل، لم تكن تتوقف أصوات وصرخات التضرع الصادق والمخلص التي تصل إلى عنان السماء، ونداءات التكبير ولفظ الجلالة التي تصدر من صفوف المسلمين لتخترق صفوف الكفر كالسهام النارية فتبث فيها الرعب والفزع، وتنشر مشاعر السرور والبهجة في القلوب المؤمنة.

وفي نهاية الأمر أعطى الرسول عليه الصلاة والسلام الأمر بالهجوم. فالتحم الجيشان، وبدأ القتال عاصفًا وشديدًا، وازداد شدة مع مرور اللحظات التالية.

فكان النبي ﷺ إلى جانب التجائه إلى الله تعالى يسير بين أصحابه ويتلو الآية الكريمة:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١٠٢٦]

ليزيد من حماسهم، ويرفع معنوياتهم، ثم يبشرهم بقوله لهم:

١٠٢٤ الواقدي: المغازي، ١، ٦٩ – ٧٠.

١٠٢٥ الواقدي: المغازي، ١، ٧١.

١٠٢٦ القمر: ٤٥.

«والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًاغير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» [١٠٢٧]

ثم التفت إلى بكر الصديق ﷺ، الذي كان بجانبه فقال له:

«يا أبا بكر أبشر، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه، بين السماء والأرض. فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم طلع، على ثناياه النقع، يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته»

ثم إن الرسول ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا، وقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم نفحهم بها.[١٠٢٨] وفي تلك اللحظات هبت ريح شديدة ناحية العدو، تحولت إلى عاصفة هوجاء، فساد الغبار كل مكان وعميت الأعين عن الإبصار.

أُسود بدر

يقول علي بن أبي طالب ﷺ:

«إنا كنا إذا اشتد بنا البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو» [١٠٢٩]

ويتحدث البراء ﷺ عن شجاعة وبسالة الحبيب الأكرم عليه الصلاة والسلام، فيقول:

«كنا والله! إذا احمر البأس نتقي به. وإن الشجاع منا للذي يحاذى به. يعني النبي ﷺ» [١٠٣٠]

لقد أظهر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في هذه الغزوة صورًا لا نظير لها من التضحيات والبطولة. وخاصة أسد الله سيدنا حمزة بن عبد المطلب ﷺ حيث قدم شجاعة وبطولة عظيمة، حيث إن أمية بن خلف وهو أحد وجهاء وزعماء قريش لما سأل الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ: من الرجل منكم المُعْلم بريشة نعامة في صدره؟. ولما أجاب عبد الرحمن بقوله: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! [١٠٣١]

١٠٢٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٦٧ – ٢٦٨ ؛ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٥٩٣/ ٦٠٤٥.

١٠٢٨ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٦٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ٨١.

١٠٢٩ أحمد: مسند، ١، ٨٦/ ٦٥٤.

١٠٣٠ مسلم: الجهاد، ٧٩/ ١٧٧٦.

١٠٣١ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٧٢.

وكان علي ﷺ هو الآخر صاحب الصولات والجولات في أرض المعركة مثل عمه حمزة ﷺ، حيث كانت رؤوس المشركين تتطاير على الأرض جراء وقع ضربات سيفه.[١٠٣٢]

وكان أبو جهل يرتجز في المعركة وهو على ظهر حصانه مادحًا نفسه بقوله:

ما تنقم الحرب العوان مني

بازل عامين حديثٌ سني

لمثل هذا ولدتني أمي.[١٠٣٣]

يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ:

«بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا!. فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفهما، فضرباه حتى قتلاه، وكانا معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح»[١٠٣٤]

يقول معاذ بن عمرو ﷺ:

«ضربني عكرمة بن أبي جهل على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها»[١٠٣٥]

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**»

فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فيقول ابن مسعود ﷺ: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال

١٠٣٢ ابن الأثير: أسد الغابة، ٤، ٩٧.

١٠٣٣ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٧٥.

١٠٣٤ البخاري: فرض الخمس، ١٥/ ٣١٤١؛ مسلم: الجهاد، ٤٢/ ١٧٥٢.

١٠٣٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٧٥ – ٢٧٦.

أبو جهل: وبماذا أخزاني؟ أأعمد ـ أعار على رجل ـ من رجل قتلتموه؟ ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ فقلت: لله ورسوله. ثم قال وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم! فضربت رأسه بسيفه وقتلته، وجئت إلى رسول الله، فقلت له: يا رسول الله! قتلت عدو الله أبي جهل! فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه، فانطلقنا فأريته إياه، فقال: هذا فرعون هذه الأمة.[١٠٣٦]

أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تك الأخرى ترى ما أصنع، فقال مبشرًا إياها:

«**ويحك، أوهبلت، أوجنة واحدة هي، إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس**»[١٠٣٧]

فرجعت أمه وهي تضحك فرحًا بالبشارة التي بشرها بها النبي ﷺ، وتقول لنفسها:

- بخٍ، بخٍ لك يا حارثة.[١٠٣٨]

ولأن غزوة بدر هي في الوقت نفسه معركة الوجود للإسلام والإيمان، فقد نال الصحابة الكرام الذين اشتركوا في هذه الملحمة الأسطورية، والجهاد القتالي الأول، نالوا شرف الأفضلية على جميع المسلمين، وإن الحق سبحانه وتعالى جنّد حتى الملائكة الكرام في هذه المعركة المصيرية، وبذلك اكتسب الملائكة الذين اشتركوا في هذا النور العلوي المتوهج في بدر، اكتسبوا عزة وشرفًا رفيعًا تجاه الملائكة الآخرين، ولذلك لما سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ:

ما تعدون أهل بدر فيكم؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**من أفضل المسلمين**». قال جبريل عليه السلام: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة.[١٠٣٩]

١٠٣٦ البخاري: المغازي، ١٢/ ٣٩٦٢؛ أحمد: مسند، ١، ٤٤٤؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٧٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ٨٩ – ٩٠؛ الطبري، تاريخ، ٢، ٤٥٥.

١٠٣٧ البخاري: الجهاد، ١٤/ ٣٩٨٢؛ أحمد: مسند، ٣، ٢٧٢/ ١٣٧٨٧.

١٠٣٨ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٤٢٦.

١٠٣٩ البخاري: المغازي، ١١/ ٣٩٩٢.

وبانتصاف نهار بدر وحلول الظهيرة أشرفت المعركة على نهايتها بانتصار المسلمين على المشركين، وقد استشهد في هذه المعركة من المسلمين أربعة عشر شهيد. وقتل من المشركين سبعون رجلًا من ضمنهم أبو جهل، وأُسر نحو سبعون آخرون. وهكذا فإن المشركين البائسين رغم أنهم قدِموا إلى بدر مظهرين الشجاعة والبسالة إلا أنهم لم يعودوا بما جاؤوا به، فبدل أن يشربوا كؤوس النصر التي حلموا بها، فقد تجرعوا مرارة الموت وباؤوا بالخسران المبين. وبدل أن تغني الجواري وترقص لهم احتفالًا بالنصر، فقد عاد من بقي منهم باكيًا حزينًا كئيبًا ودخل في حداد على الأموات، وبدل أن يُشبعوا بطون من خرج في صفوفهم من قبائل العرب فقد ملئت بجثثهم حفر جهنم التي لا تعرف الشبع من أجساد الطغاة والجاحدين.

خرج النبي ﷺ من خيمته وهو ما يزال يرتدي الدرع وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١٠٤٠]

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لما نزلت هذه الآية في مكة، فجعلت أقول: أيّ جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر ورأيت النبي ﷺ يثب في الدرع، ويقول: «سيهزم الجمع ويولّون الدّبر» فعرفت أنّه هو - أي المشركون يهزمون في بدر-» [١٠٤١]

يقول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [١٠٤٢]

هم والله كفار قريش، ومحمد ﷺ هو نعمة الله. «وأحلو قومهم دار البوار» النار يوم بدر. أي أهلكوا قومهم يوم بدر فأدخلوا النار.[١٠٤٣]

إن غزوة بدر التي انتهت بنصر الإسلام والإيمان مليئة بالمعجزات والعبر التي تظهر تأييد الله عز وجل لعباده المخلصين والمتقين.

١٠٤٠ القمر: ٤٥. البخاري: الجهاد، ٨٩.

١٠٤١ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٣١٢؛ الطبري، التفسير، ٢٢، ٦٠٢.

١٠٤٢ إبراهيم: ٢٨.

١٠٤٣ البخاري: المغازي، ٨، التفسير، ١٤ / ٣.

وقد أنزل الله تعالى بعد هذا النصر والظفر العظيم الآية الكريمة الآتية لكيلا يترشح العجب والتباهي إلى قلوب المؤمنين المنتشين بالنصر، حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٠٤٤]

إن القوة والقدرة التي يتمتع بها الإنسان تُعتبر داخل التقديرات الإلهية، ولذلك نقول:

«لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم»

وذلك لأن كل الميزات والنعم والقدرات التي تتمتع بها المخلوقات التي أُوجدت من العدم بفضل الله تعالى وكرمه وجوده، هي من عند الله تعالى، ولهذا السبب فإن الإرادة الكلية تحتوي وتحيط بكل الوقائع، والأحداث، والمخلوقات. وهذا يعني أن أصل الإرادة والقوة عائد إلى الخالق ﷻ، ولكن لما كان الإنسان قد أُنزل إلى هذه الدنيا من أجل الامتحان فقد مُنح إرادة جزئية، وجُهز بميول نحو الخير والشر، وأما استخدام هذه القوة والقدرة فقد تُركت لإرادته.

العودة من بدر

كان من عادة الرسول ﷺ عندما ينتصر على أعدائه أن يمكث في ساحة مفتوحة من تلك المنطقة التي وقعت فيها المعركة لمدة ثلاثة أيام. وفي معركة بدر أيضًا بقي ثلاثة أيام، ولما حل اليوم الثالث أمر بتجهيز ناقته وإحضارها إليه. فوضع النبي ﷺ الحمل على ظهر الناقة وأحكم رباطه، ثم بدأ بالسير على الأقدام، وسار الصحابة الكرام خلفه، يقول بعضهم لبعض: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته.

ثم مشى الرسول ﷺ حتى قام على البئر التي رُميت فيه جثث المشركين، فجعل يناديهم بأسماء آبائهم، فقال:

«يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا»

فسمع عمر رضي الله عنه قول النبي ﷺ، فقال:

١٠٤٤ الأنفال:، ١٧.

يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال:

«والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»[١٠٤٥]

وحين فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من قتال بدر أتاه جبريل عليه السلام، فقال له:

- يا محمد إن ربي بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى، هل رضيت؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **نعم رضيت!** فانصرف جبريل عليه السلام.[١٠٤٦]

بينما غرقت المدينة المنورة بالفرح والبهجة احتفالًا بهذا النصر المؤزر، فقد تحولت مكة إلى مأتم كبير. حتى إن أبا لهب قد مات من القهر.[١٠٤٧] وبذلك فقد تجلى الوعد الإلهي.

إلا أن الفرح الذي ساد بين المؤمنين ابتهاجًا بالنصر في بدر لم يدم طويلًا، بسبب وفاة كريمة النبي عليه الصلاة والسلام السيدة رقية رضي الله عنها.

معاملة الأسرى

وبعد إقامة الرسول ﷺ مدة ثلاثة أيام في بدر عاد إلى المدينة المنورة، واستشار بشأن أسرى بدر أبا بكر، وعلي، وعمر رضي الله عنهم أجمعين. فقال أبو بكر رضي الله عنه:

- يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فيكونوا لنا عضدًا.

فقال رسول الله ﷺ:

- **ما ترى يا ابن الخطاب؟**

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبا لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

١٠٤٥ البخاري: المغازي، ٨/ ٣٩٧٦؛ مسلم: الجنة، ٧٧/ ٢٨٧٤.

١٠٤٦ الواقدي: المغازي، ١، ١١٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٦ - ٢٧.

١٠٤٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٨٩.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه.

وذلك لأن النبي ﷺ كان يأمل أن يخرج من أصلابهم من يهتدي إلى السبيل القويم، ويعبد الله تعالى.

وبعد الاستشارة التي جرت بحق الأسرى تم إطلاق سراحهم مقابل أخذ الفدية، وقد أطلق من لم يستطع دفع الفدية دون مقابل، ولكن تم تكليف كل واحد ممن يعرف من هؤلاء القراءة والكتابة لتعليم عشرة من أطفال المدينة القراءة والكتابة، فكانت هذه المهمة هي الفدية التي تم تحريرهم مقابلها، ولقد كان كاتب الوحي وجامع القرآن الكريم زيد بن ثابت رضي الله عنه ممن تعلم الكتابة على يد هؤلاء الأسرى.[١٠٤٨]

يُكمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول:

- فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه قاعدين يبكيان، قلت:يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ:

«**أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة** -شجرة قريبة من نبي الله عليه الصلاة والسلام- **وأنزل الله تعالى:**

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٠٤٩]. [١٠٥٠]

لم يرض الله ﷻ أن يتم أخذ الأسرى في الحرب، وثم يُطلق سراحهم مقابل الفدية قبل الإثخان في الأعداء وإلحاق الهزيمة العامة بهم، وتحقيق العزة والنصرة للإسلام، وقطع دابر الفتنة من جذوره وضمان عدم عودتها، ولهذا السبب عاتب رسوله والمسلمين على ما تمّ من تحرير الأسرى لقاء دفع الفدية، وأيضًا فإن أخذ الفدية نوع من الأعراض الدنيوية، بينما يريد الله تعالى السلامة الأخروية لعباده المؤمنين وليس الأعراض والرغبات

١٠٤٨ أحمد: مسند، ١، ٢٤٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٢٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٢.

١٠٤٩ الأنفال:، ٦٧ – ٦٩.

١٠٥٠ مسلم: الجهاد، ٥٨/ ١٧٦٣؛ الترمذي: السير، ١٨ / ١٥٦٧؛ أحمد: مسند، ١، ٣٠ – ٣١، ٣٨٣ – ٣٨٤.

الدنيوية، وبالتالي فإن أخذ الأسرى قبل القضاء التام على أعداء الدين يمكن أن يعرض سلامة ونجاة المؤمنين الأخروية للخطر.

ولأنه كما هو مكتوب في اللوح المحفوظ حكم إلهي بعدم مؤاخذة الخطأ في الاجتهاد، وعدم تعذيب المشاركين في معركة بدر، أو عدم معاقبة من يرتكب فعلًا لم يحرم ويحظر بشكل قطعي فقد عفا الله تعالى عن المؤمنين، وأحل لهم الغنائم التي أخذوها، وتجاوز عن معاقبتهم.

لقد أمر الله ﷻ بالإحسان في معاملة الأسرى، والعبيد.[١٠٥١] وهناك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ حول هذا الموضوع، حتى إنه كان من آخر كلامه قبل وفاته كما يروي علي رضي الله عنه:

كان آخر كلام النبي ﷺ «**الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**»[١٠٥٢]

يقول المعرور بن سويد:

«رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك؟ فذكر أنه ساب رجلًا على عهد رسول الله ﷺ. فعيره بأمه، فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ:

«**يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه**»[١٠٥٣]

يروي أبو عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير الحادثة المليئة بالعبر والتي جرت معه يوم بدر، فيقول:

«كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**» وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر؛ فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كِسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحيي، فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها»[١٠٥٤]

١٠٥١ انظر: النساء:، ٣٦.

١٠٥٢ أبو داود: الأدب، ١٢٣ – ١٢٤ / ٥١٥٦؛ ابن ماجه: الوصايا، ١/ ٢٦٩٨.

١٠٥٣ البخاري: الإيمان، ١٥/ ٣٠؛ مسلم: الأيمان، ٤٠/ ١٦٦١.

١٠٥٤ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ٨٦/ ١٠٠٠٧؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٨٨.

إن هذا النوع من الأعمال والتصرفات التي أتاها النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين إنما تنمّ عن الأخلاق الرفيعة التي أصبحت رمز الفضيلة الإنسانية في عصر راج فيه الظلم والإجحاف والقهر مثل العصور الوسطى، وسوف يستمر باسم الإنسانية نموذجًا ساميًا يُحتذى به إلى يوم القيامة. لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يبلغ الناس بواقع حاله من خلال الإحسان إليهم، والتعامل الجميل واللطيف معهم، فتلين بذلك قلوبهم وتطمئن إليه، ثم يقوم ببيان الإسلام لهم، وقد أسلم أغلب أسرى بدر بتأثير هذه المعاملة الراقية والجميلة.

فكما أن الإسلام لم يعمل على ترويج مؤسسة العبودية[١٠٥٥]، فإنه لم يشجع الناس عليها أيضًا. إلا أنه لم يرفع حكم العبودية بشكل تام خشية حدوث خلل في الحياة الاجتماعية آنذاك، نظرًا لاعتياد المجتمع على هذه المسألة واعتبارها واقعًا لا يمكن التخلي عنه، ولكن جرى تنظيم هذه المسألة من خلال مجموعة من القواعد والمبادئ الصارمة لقطع الطريق أمام استغلالها واستخدامها في اتجاهات خاطئة وسيئة، وبذلك فقد وُضع النظام القانوني للعبودية بأفضل حالة.

إنه ما دامت هناك حروب بين الأمم، وباعتبار استمرارها إلى يوم القيامة ـ وهو حقيقة مشاهدة وملموسة حتى يومنا هذا ـ فإن الحاجة إلى القواعد التي تدور حول الناس الذين يفقدون حرياتهم ستكون دائمة الوجود أيضًا. ولهذا فقد كان من الواجب بدلًا من إلغاء العبودية والقواعد المتعلقة بها، الاحتفاظ بالقواعد وتنظيم قانون العبودية بما يحفظ حقوق من يتعرض لها.

إن المبادئ التي جاء بها الإسلام تقرّب المسافات بين العبد والحر، وتعمل على تحرير العبيد بأية وسيلة متاحة، فمثلًا إذا ارتكب إنسان خطًأ وتسبب بقتل إنسان دون قصد منه، فإن الإسلام أول ما يأمره من أجل التكفير عن ذنبه هو تحرير رقبة ـ أي إطلاق عبد وإعطائه حريته ـ والشرط الثاني أن يتفاهم المخطئ مع عائلة وذوي القتيل ويدفع لهم الدية التي هي مقدار معين من الفضة والإبل، وأيضًا إذا ارتكب الإنسان في الحج خطـًا فإن أول ما ينبغي عليه فعله من أجل الكفارة هو تحرير رقبة، وكذلك إذا حلف

١٠٥٥ هنا يتم تحليل مسألة العبودية والأسر معًا. لأن الأسر كان مصدر العبودية، إذ إن الناس الذين يؤخذون أسرى في الحرب يتم استعبادهم.

وحنث بيمينه، وإذا ظاهر زوجته «الظهار» [١٠٥٦]، وإذا أفطر في رمضان عمدًا، ففي كل هذه الحالات يجب عليه تحرير رقبة من أجل الكفارة عما اقترفه، وعندما يتم الحديث عن عظم أجر بعض الأعمال يقال: «مثل أجر تحرير رقبة».

إن هذا القول يدل على مدى عظمة وفضل تحرير الإنسان ومنحه حريته، وإن استعباد إنسانٍ ما دون وجه حق يعد من كبائر الذنوب. وإن الإنسان مأمور بالإحسان إلى من ساقه قدره إلى العبودية، والتصرف معه بسلوك حسن.

إن الإسلام يأمر مالك العبد على الدوام بالأمر الآتي:

«أطعمه مما تأكل، وألبسه مما تلبس، ولا تحمله ما لا يطيق، وإن كلفته فأعنه، وقدم إليه ما يحتاجه».

ويبين الإسلام بأن أفضل سبيل لخلاص المؤمن ونيله الثواب الكبير هو تحرير الرقيق. وإن الإسلام يأتي بحقوق للرقيق إذا ما تمت مراعاتها يتحول الاستغناء عن الرقيق والابتعاد عن الحصول عليهم خير من استعبادهم، وتعني هذه الحقوق بما تعنيه أيضًا أن من يحاول أن يكون صاحب رقيق يسير باتجاه بحيث يصبح هو نفسه رقيقًا لهم.

لقد عمل الإسلام في هذا المجال ما أمكن على إغلاق كل السبل والمداخل التي تؤدي إلى العبودية والرق، وفتح السبل كلها من أجل الخروج منها، ثم إنه حض المؤمنين وشجعهم في كل مناسبة على تحرير كل من هم في حالة الرق والعمل على منحهم حريتهم.

قال فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ لعمه العباس الذي كان من بين الأسرى:

– **يا عباس، افد نفسك، وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن جحدم.**

فأبى العباس وقال:

– إني قد كنت مسلمًا قبل ذلك. وإنما استكرهتني قريش على الخروج.

فقال رسول الله ﷺ:

١٠٥٦ الظهار: هو تحريم الشخص زوجته على نفسه بقوله لها: «أنت عليّ كظهر أمي». لقد منع الإسلام هذه العادة الجاهلية، وأمر من يأتي هذا الفعل بدفع الكفارة.

- **الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعي حقا، فالله يجزيك بذلك، وأما ظاهر أمرك، فقد كان علينا، فافد نفسك.**

وكان رسول الله قد أخذ منه عشرين أوقية ذهب، فقال العباس:

- يا رسول الله! احسبها لي من فداي. فقال النبي ﷺ:

- **لا، ذاك شيءٌ أعطاناه الله منك.**

قال العباس: يا رسول الله! فإنه ليس لي مال. فقال رسول الله ﷺ:

- **فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل وليس معكما أحد غيركما؟ فقلت: إن أُصبت في سفري هذا فللفضل كذا ولقثم كذا ولعبد الله كذا؟**

قال العباس: فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيري وغيرها، وأني لأعلم أنك رسول الله!.[١٠٥٧]

وكان من بين أسرى بدر أبو العاص بن ربيعة صهر نور الكون عليه الصلاة والسلام زوج السيدة زينب رضي الله عنها. لقد كان أبو العاص رجلًا أمينًا وغنيًا ومن وجهاء مكة في التجارة، وأمه هالة بنت خويلد، أخت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، وقد كانت أم المؤمنين السيدة خديجة تعدُّ ابنَ أختها أبي العاص بمثابة ولدها.

قال مشركو قريش لأصهار النبي عليه الصلاة والسلام:

- إنكم قد فرغتم محمدًا من همه، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بهن.

فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له:

- فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت،

قال أبو العاص:

- لا والله، إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت السيدة زينب رضي الله عنها في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال:

١٠٥٧ أحمد: مسند، ١، ٣٥٣/ ٣٣١٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ١٣ – ١٥.

- **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها.**

فقال المسلمون:

- نعم يا رسول الله!

وأخلوا سبيل أبي العاص، وأعادوا القلادة المرسلة مع المال إلى السيدة زينب.

وكان رسول الله ﷺ أخذ على أبي العاص، أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه، إلا أن هذا الأمر سيبقى سرًا بين أبي العاص وبين رسول الله ﷺ ولن يبوح به لأحد.[١٠٥٨]

كان من بين أسرى بدر أيضًا وهب بن عمير بن وهب، جلس عمير بن وهب ذات يوم مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش ودهاتها، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناءً وهو بمكة. فذكر أصحاب القليب من المشركين الذين أُلقوا في البئر يوم بدر ومصابهم، فقال صفوان: والله! ليس في العيش بعدهم خير.

فقال له عمير: صدقت والله! أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة: ابني أسير في أيديهم، وكما سمعت فإن محمدًا يجول في الأسواق هناك.

فراقت الفكرة لصفوان فاغتنمها، وقال: عليّ دينُك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك.

ثم أمر عمير بسيفه، فشُحذ له وسُمّ، وجهز له صفوان مركبه وزاد طريقِه، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فأناخ ناقته على باب المسجد متوشحًا السيف. فبينا عمر رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، نظر فإذا عمير بن وهب، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب! والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله! هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. فقال رسول الله ﷺ:

١٠٥٨ أبو داود: الجهاد، ١٢١ / ٢٦٩٢؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٩٦ – ٢٩٧؛ أحمد: مسند، ٦، ٢٧٦/ ٢٦٣٦٢.

- **فأدخله علي.**

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال:

- **أرسله يا عمر، ادن يا عمير!.**

فدنا، ثم قال:

- **فما جاء بك يا عمير؟**

قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ـ يقصد ابنه ـ فأحسنوا فيه.

فقال رسول الله ﷺ:

- **فما بال السيف في عنقك؟**

قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟

فقال رسول الله ﷺ:

- **اصدقني، ما الذي جئت له؟**

قال عمير: ما جئت إلا لذلك.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟**

فانتابت عميرَ حالةٌ من الفزع، وقال:

- **فما شرطتُ له؟**

فذكر له النبي عليه الصلاة والسلام الحديث الذي دار بينهم وبين صفوان، ثم قال:

- **والله حائل بينك وبين ذلك.**

قال عمير: أشهد أنك رسول الله! وأنك صادق! قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ:

- فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرؤوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا.

فقال عمير: يا رسول الله، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ﷻ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلحق بمكة.

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول:

أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر! وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا.

فلما قدم عمير مكة، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه ناس كثير.

وذات يوم التقى عمير رضي الله عنه بصفوان بن أمية وهو في الحجر، فقال له:

أنت سيدٌ من ساداتنا! أرأيت الذي كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له، أهذا دين؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فلم يجبه صفوان بكلمة.[١٠٥٩]

لقد ثبتت هذه الحادثة في قلوب المؤمنين واحدة من أجمل الأمثلة لدستور «إحياء القادم لقتلك».

لقد أذل الله تعالى في بدر مشركي المدينة، ومنافقيها، ويهودها على أيدي المؤمنين من خلال قتل زعماء مشركي مكة، وغلّ أيدي أسراهم إلى رقابهم والدخول بهم إلى المدينة على هذا المظهر المهين، وبعد هذا النصر المظفر في بدر اضطر عبد الله بن أبي ومن يدور في فلكه من مشركي المدينة إلى بيعة الرسول ﷺ على الإسلام، خوفًا من أن يرتد النصر والغلبة عليهم بسوء.[١٠٦٠]

١٠٥٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٠٦ - ٣٠٩؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٢٥ - ١٢٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ١٩٩ - ٢٠١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٢٨٥/ ١٤٠٦٣.

١٠٦٠ انظر: البخاري: التفسير، ٣/ ١٥؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٢١.

حكم الغنائم

ظهر خلاف حول تقسيم الغنائم التي غنمها المسلمون في بدر، وذلك لعدم ورود أحكام إسلامية بحق الغنائم بعد. وبالإضافة إلى ذلك فقد جاء سعد بن أبي وقاص الذي استشهد أخوه في بدر، جاء بسيف سعيد بن العاص الذي قتله إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وطلب منه إعطاءه هذا السيف، وبسبب هذه الحادثة والمطالب نزلت الآية الأولى من سورة الأنفال قبل مغادرة المسلمين لبدر، وقبل تقسيم الغنائم، حيث يقول الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٠٦١]

لقد قسم النبي عليه الصلاة والسلام الغنائم على المجاهدين الذين اشتركوا في المعركة في مكان قريب من المدينة بشكل مبدئي ومتساوٍ.[١٠٦٢]

وبعد ذلك نزلت الآية الكريمة الآتية والتي تتضمنت تفاصيل غنائم الحرب، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠٦٣]

ووفقًا للآية الكريمة فإن خمس الغنيمة لله تعالى، وللرسول وأقربائه، واليتامى، والفقراء، وأبناء السبيل.

فكان النبي عليه الصلاة والسلام يقوم بسد احتياجات أفراد عائلته من الحصة العائدة له، ثم يضع ما يفيض منها في بيت مال المسلمين، ويصرف لتلبية احتياجات المسلمين وسد نفقات تجهيز الجيش.[١٠٦٤]

١٠٦١ الأنفال:، ١.

١٠٦٢ أحمد: مسند، مسند، ١، ١٧٨، ٥، ٣٢٣ – ٣٢٤؛ أبو داود: الجهاد، ١٤٤ – ١٤٥ / ٢٧٣٧ – ٢٧٤٤.

١٠٦٣ الأنفال:، ٤١.

١٠٦٤ انظر: البخاري: الفرائض، ٣، الخمس، ١، النفقات، ٣؛ مسلم: الجهاد، ٤٩.

يقول عمرو بن عبسة ﵁:

صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «**ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**» [١٠٦٥]

لقد كان الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام يعطي ما بين يديه للمحتاجين من أصحابه. إذ إنه في كثير من الأحيان لم تكن النار توقد في بيته لأيام طويلة، ولا يُطهى الطعام. وقد وردت روايات كثيرة تفيد بأنه في أحيان كثيرة ما كان النبي عليه الصلاة والسلام وأهله يجدون ما يأكلونه في يومهم، وهذه الرواية التي نوردها فيما يلي تدل بشكل جلي على أخلاقه الرفيعة في هذا المجال، حيث يقول أنس ﵁:

«أُتي النبي عليه الصلاة والسلام بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**»، وكان أكثر مال أتي به رسول الله عليه الصلاة والسلام، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتف إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه... فما قام رسول الله عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم» [١٠٦٦]

لقد نزلت سورة الأنفال في المدينة المنورة في السنة الثانية للهجرة النبوية، وقد أطلق على هذه السورة تسمية «سورة البدر» لأن القسم الغالب منها نزل في أيام بدر ويتحدث عن غزوة بدر.

مرتبة الشهادة

إن مرتبة الشهادة هي أعلى وأسمى مقام يمكن أن يصل إليه المؤمن في هذه الدنيا. إذ على الرغم من أن أدنى درجة في الجنة خير من الدنيا وما فيها، فإن الشهيد يتمنى بسبب علو مقام الشهادة وعظمة مكافأتها في الجنة، يتمنى أن يعود إلى الدنيا لمرات عديدة ويُقتل شهيدًا. ويقول الله تبارك وتعالى لمن يُقتل شهيدًا:

﴿**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[١٠٦٧]

١٠٦٥ أبو داود: الجهاد، ١٤٩ / ٢٧٥٥.

١٠٦٦ البخاري: الصلاة، ٤٢/ ٤٢١، الجزية، ٤/ ٣١٦٥، الجهاد، ١٧٢.

١٠٦٧ آل عمران:، ١٥٧.

يروي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

«أن رجلًا جاء إلى الصلاة والنبي ﷺ يصلي بنا، فقال حين انتهى إلى الصف: اللهم آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين. فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قال:

«من المتكلم آنفا؟»

فقال الرجل: أنا يا رسول الله. فقال النبي ﷺ:

«إذا يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله» [١٠٦٨]

كما أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يبشر بعض أصحابه بالشهادة أحيانًا، وكذلك كان يدعو لهم بالرحمة والمغفرة عندما يخرجون إلى معركة من المعارك فلا يلبثون أن ينالوا مرتبة الشهادة، كما دعا لعامر بن الأكوع بهذا النحو، ولم يمض وقت طويل حتى استشهد في خيبر.[١٠٦٩]

إن تحقق دعاء النبي عليه الصلاة والسلام بالرحمة والمغفرة بصورة الشهادة لدليل آخر على مدى علو وسمو مرتبة الشهادة. ولما رأى الصحابة الكرام أن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام يتحقق ويأتي بهذه النتيجة، فقد اعتبروا أن دعاءه لأي منهم بهذه الطريقة بمثابة بشارة له بنيل الشهادة.

ووفقًا للرواية التي وردت عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن النبي عليه الصلاة والسلام قام ذات يوم بين أصحابه، فذكر لهم:

«أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل، فقال:

– يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟

فقال له رسول الله ﷺ:

– **نعم. إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدّيْن. فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»** [١٠٧٠]

وفي رواية أخرى، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

١٠٦٨ الحاكم: المستدرك، ١، ٣٢٥ / ٧٤٨/ ٢٤٠٢؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٥، ٢٩٥/ ٩٥٢٥.

١٠٦٩ انظر: مسلم: الجهاد، ١٢٣، ١٣٢؛ البخاري: المغازي، ١٣٨.

١٠٧٠ مسلم: الإمارة، ١١٧/ ١٨٨٥؛ الترمذي: الجهاد، ٣٣ / ١٧١٢.

«يُغفر للشهيد كل ذنب، إلا الدَّيْن» [١٠٧١]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم:

«رأيت الليلة رجلين أتياني، فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء» [١٠٧٢]

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قريبًا جدًا من الشهداء من أصحابه، حيث كان يظهر اهتمامًا خاصًا بهم، ويبشرهم بالجنة يوم القيامة، وبذلك فإنه كان من جهة يواسي أقرباءهم، ومن جهة أخرى يحض ويشجع الصحابة الكرام على نيل مقام الشهادة مثل إخوانهم.

يقول جابر رضي الله عنه:

«جيء بأبي يوم أحد قد مُثل به، [١٠٧٣] حتى وضع بين يدي رسول الله ﷺ، وقد سجي ثوبًا، فذهبت أريد أن أكشف عنه، فنهاني قومي، ثم ذهبت أكشف عنه، فنهاني قومي... فقال رسول الله ﷺ:

«فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع» [١٠٧٤]

في الحقيقة إن الشهادة ليست موتًا، وإنما هي مظهر للتمتع بنعم أبدية في حياة سعيدة خارج حدود إدراكنا، ولا يعلم كنهها وكيفيتها إلا المولى عز وجل، ومن هذا المنطلق فقد نهى الله عز وجل عن القول بأن الشهداء من عباده أموات، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١٠٧٥]

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠٧٦]

١٠٧١ مسلم: الإمارة، ١١٩/ ١٨٨٦.

١٠٧٢ البخاري: الجهاد، ٤/ ٢٧٩١، الجنائز، ٩٣/ ١٣٨٦.

١٠٧٣ مثل به: من التمثيل بالقتيل، وهو قطع أنف المقتول وأذنه، وفقء عينيه وما أشبه ذلك. وقد نهى النبي ﷺ عن التمثيل بالقتيل نهيًا شديدًا. (البخاري: المظالم، ٣٠، الذبائح، ٢٥؛ أبو داود: الجهاد، ١١٠)

١٠٧٤ البخاري: الجنائز، ٣، ٣٥/ ١٢٩٣، الجهاد، ٢٠/ ٢٨١٦؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٢٩ – ١٣٠.

١٠٧٥ البقرة:، ١٥٤.

١٠٧٦ آل عمران:، ١٦٩ – ١٧١.

إن الشهداء الذين أثنى عليهم رب العالمين وامتدحهم، يُذكرون أيضًا من قبل الناس بكل إجلال واحترام، وقد عبر ذلك الشاعر الكبير ضياء باشا بقوله:

«من يسعى في خدمة الإنسان ويضحي بذاته في سبيل تقديم العون لهم، حريٌ به أن يُذكر من قبل الإنسانية جمعاء بكل إجلال وتقدير إلى يوم القيامة»

يُعرف الشهداء يوم القيامة برائحة طيبة كالمسك تفوح من دمائهم الزكية التي تنزف من جراحهم، فيشهد الناس فضلهم ومقامهم المشرف ذلك اليوم، ولهذا السبب لا يغسل دم الشهداء وأجسادهم الطاهرة، وإنما يُدفنون على حالتهم التي استشهدوا عليها.

ويبين النبي عليه الصلاة والسلام لطف الله تعالى بعباده الشهداء والتخفيف من الألم الذي يصيبهم أثناء استشهاداهم بقوله:

«**ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة**» [١٠٧٧]

وقد قال الله تعالى في حض عباده وتشجيعهم على الاستشهاد:

﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [١٠٧٨]

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام معبرًا عن مشاعره ورغبته الصادقة وحرصه على نيل الشهادة بكل إخلاص وصدق:

«... **لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**» [١٠٧٩]

ذات يوم رأى رسول الله ﷺ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قميصاً أبيض، فسأله:

«**ثوبك هذا غسيل أم جديد؟**»

١٠٧٧ الترمذي: فضائل الجهاد، ٢٦/ ١٦٦٨؛ النسائي: الجهاد، ٣٥/ ٣١٦١؛ ابن ماجه: الجهاد، ١٦/ ٢٨٠٢.

١٠٧٨ النساء:، ٧٤.

١٠٧٩ مسلم: الإمارة، ١٠٣/ ١٨٧٦؛ البخاري: الإيمان، ٢٦.

قال: لا، بل غسيل. قال:

«**البس جديدا، وعش حميدا، ومت شهيدا**»[١٠٨٠]

وبذلك فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يبشر عمر بن الخطاب ﷺ بالشهادة أيضًا.

صعد النبي ﷺ ذات يوم جبل أحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، فرجف بهم أُحد، فقال رسول الله ﷺ:

«**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق، وشهيدان**»[١٠٨١]

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول:

«اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»[١٠٨٢]

فرزقه الله ذلك. فتقول أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ :

«عجبت لدعاء أبي، فقلت له:وأنى يكون ذلك؟ فقال: يأتي به الله إذا شاء».

وبقي الناس يتعجبون من هذا الدعاء حتى استشهاد سيدنا عمر ﷺ، ويتطلعون لمعرفة كيفية تحققه.[١٠٨٣]

وقد قال النبي ﷺ مشيرًا إلى ضرورة تمني كل مسلم نيل الشهادة في سبيل الله:

«**من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[١٠٨٤]

وإلى جانب ذلك فقد عد النبي ﷺ بعض الأصناف من الناس بمنزلة الشهداء، حيث قال ذات مرة لأصحابه الكرام:

«**ما تعدون الشهيد فيكم؟**»

قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال:

«**إن شهداء أمتي إذًا لقليل!**»

قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال:

١٠٨٠ ابن ماجة، اللباس، ٢/ ٣٥٥٨؛ أحمد: مسند، ٢، ٨٩/ ٥٦٢٠.

١٠٨١ البخاري: أصحاب النبي، ٦/ ٣٦٧٥؛ الترمذي: المناقب، ١٨/ ٣٧٠٣/ ٣٦٩٧.

١٠٨٢ البخاري: فضائل المدينة، ١٢/ ١٨٩٠.

١٠٨٣ ابن حجر: فتح الباري، ٤، ١٠١.

١٠٨٤ مسلم الإمارة، ١٥٧/ ١٩٠٩.

«من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد» [١٠٨٥]

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث أخرى بأن من قتل دون ماله، ودمه، ودينه، وأهله فهو شهيد.[١٠٨٦]

إحضار السيدة زينب بنت النبي ﷺ إلى المدينة

لما أطلق سراح أبي العاص صهر النبي ﷺ الذي كان قد أُسر في معركة بدر، وعاد إلى مكة، أذن للسيدة زينب ﵂ بالخروج إلى المدينة، وبعد معركة بدر بحوالي شهر تقريبًا بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار إلى مكة، وقال لهما:

«كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصاحباها فتأتياني بها»

فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تتجهز، فلما فرغت من جهازها قدَّم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها.

وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج، فوقعت على صخرة، وكانت حاملًا فيما يزعمون فطرحت، وصارت تنزف دمًا، وهي فزعة مضطربة مما جرى لها، وبرك حموها كنانة ونثر كنانته، ثم قال:

- والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا، فتكركر الناس عنه.

وأتى أبو سفيان في جلّة من قريش، فقال:

- يا أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك.

فكفَّ كنانة، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال:

- إنك لم تصب! خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد. فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا إن ذلك عن ذل أصابنا وإن ذلك ضعف منا ووهن. ولعمري ما لنا

١٠٨٥ مسلم: الإمارة، ١٦٥؛ ابن ماجه: الجهاد، ١٧/ ٢٨٠٤.

١٠٨٦ انظر: البخاري: المظالم، ٣٣؛ مسلم: الإيمان، ٢٢٦؛ أبو داود: السنة، ٢٨ – ٢٩؛ الترمذي: الديات، ٢١.

بحبسها من أبيها من حاجة، وما لنا من ثؤرة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سرًا وألحقها بأبيها.

ففعل كنانة ذلك، فأقامت ليال في مكة حتى إذا هدأت الأصوات، خرج بها ليلًا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه في يأجج، فقدما بها ليلًا على أبيها رسول الله ﷺ.[١٠٨٧]

وفي السنة السادسة للهجرة وقع أبو العاص في الأسر مرة ثانية مع رجال في القافلة التي كان قد خرج على رأسها في تجارة إلى الشام، فأرسل وقت السحر خبرًا إلى السيدة زينب ابنة النبي ﷺ أن: «خذي لي الأمان من أبيك». فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر بالناس، قامت زينب على بابها فنادت بأعلى صوتها، فقالت:

- إني زينب بنت رسول الله! وإني قد أجرت أبا العاص! فقال رسول الله ﷺ:
- **أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟**

قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ:

- **فو الذي نفسي بيده، ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذي سمعتم، المومنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت.**

فلما انصرف النبي ﷺ إلى منزله دخلت عليه زينب ﵂ فسألته أن يرد إلى أبي العاص ما أخذ منه من المال، ففعل وأمرها ألا يقربها، فإنها لا تحل له ما دام مشركا. ثم كلم النبي ﷺ أصحابه، وكانت معه بضائع لغير واحد من قريش، فأدوا إليه كل شيء، حتى إنهم ليردون الإداوة والحبل، حتى لم يبق شيء.

فعاد أبو العاص بالمال الذي أخذه إلى مكة، ثم أعطى لكل منهم ماله، وبعد أن أنهى توزيع الأموال قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم شيء؟ قالوا: لا والله!

فقال أبو العاص: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لقد أسلمت بالمدينة، وما منعني أن أقيم بالمدينة إلا أن خشيت أن تظنوا أني أسلمت لأن أذهب بالذي لكم. ثم رجع إلى النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة. فرد النبي ﷺ عليه زينب بذلك النكاح أو بنكاح جديد.[١٠٨٨]

١٠٨٧ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٩٧ – ٢٩٩؛ ابن عبد البر: ٤، ١٨٥٤؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٦٢ – ٣٦٣.

١٠٨٨ الواقدي: المغازي، ٢، ٥٥٣ – ٥٥٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٣٢ – ٣٣.

اليهود وغزوة بني قينقاع «٢ شوال / نيسان ٦٢٤»

لقد كان بجوار المدينة مجتمع من اليهود لا ينفكون يقولون للعرب بأنه قد حان وقت ظهور نبي الزمان في ذلك الوقت. ولم يكونوا يوفرون جهدًا في نشر هذا الخبر بين الناس في الجوار لظنهم بأن هذا النبي سوف يكون من بينهم، إلا أن ظهور نبي آخر الزمان سيدنا محمد ﷺ من بين العرب لا من بينهم قد أغاظهم كثيرًا، وأثار في نفوسهم مشاعر الحسد والعداوة، وفجأة غيّروا مسار كلامهم وأنكروا نبوته، فقال الله ﷻ في حقهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١٠٨٩]

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١٠٩٠]

وكان من أسباب سلوك اليهود هذا أيضًا تعلقهم بزينة الحياة الدنيا ونعيمها. وقد بين الله هذا الجانب فيهم بقوله:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[١٠٩١]

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اليهود يعتبرون أنفسهم قومًا متميزين عن غيرهم من الأقوام وأعلى مرتبة وأكثر فضلًا من غيرهم من الأقوام والأمم، وذلك لغرورهم وزهوهم بأنفسهم لامتلاكهم القوة المادية نتيجة سيطرتهم على الأسواق التجارية في تلك الأيام، حتى إنهم كانوا يقولون كما ينقل القرآن الكريم عنهم:

﴿...نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ [١٠٩٢]

١٠٨٩ البقرة:، ٨٣.

١٠٩٠ البقرة:، ٩٠.

١٠٩١ البقرة:، ٩٦.

١٠٩٢ المائدة:، ١٨.

وكانوا إذا ذكروا بعذاب الله بسبب الخطايا والذنوب التي تقترفها أيديهم، أجابوا بقولهم:

﴿...لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...﴾ [١٠٩٣]

ولكن الله ﷻ رد عليهم ادعاءهم هذا، وأنه لن يحدث أبدًا. حيث قال في محكم تنزيله:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١٠٩٤]

على الرغم من دخول يهود المدينة في معاهدات مع الرسول ﷺ إلا أنهم كانوا أعداء له. وكانوا يدخلون بين القبائل فيستغلون الخلافات القائمة بينها، ويعملون على تعميقها، ليزرعوا بينهم الفتنة والفساد، ويثيروا الحروب والقتال، وقد بين الله تبارك وتعالى حالتهم هذه للرسول عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين، حيث قال في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [١٠٩٥]

وفي الواقع إن اليهود الذين يملأ قلوبهم الحقد، والحسد، والبغضاء تجاه المسلمين كما بينت الآيات الكريمة، قد اضطربوا وضاقوا ذرعًا عندما انتصر المسلمون في معركة بدر، حتى إن يهود بني قينقاع قد ذهبوا بعيدًا في هذا الحقد والتذمر، ووصل بهم الأمر أن اتخذوا قرارًا بإعلان الحرب على المسلمين، ولم يراعوا معاهدة المواطنة التي وقعوها مع النبي عليه الصلاة والسلام.

١٠٩٣ البقرة:، ٨٠.

١٠٩٤ البقرة:، ٨١.

١٠٩٥ آل عمران:، ١١٨ – ١٢٠.

وقد أصبح سوق اليهود منبع المؤامرات التي تحاك ضد المسلمين بين اليهود وأقرب أصحابهم عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، فلم يستبطنوا تجاه المسلمين إلا كل شر، وبلغ بهم الأمر أن وضعوا خطة من أجل اغتيال رسول الله ﷺ.

لقد قام اليهود الذين بلغت بهم الوقاحة مبلغًا كبيرًا بالتعرض لامرأة مسلمة كانت تبتاع ذهبًا من صائغ يهودي في سوق اليهود، فأساؤوا الأدب معها، ولدى صراخ المرأة واستنجادها بالمارة سمعها رجل من المسلمين الذي كان عابرًا من السوق وشهد الحادثة، فأسرع إلى نجدتها ونصرتها، واتجه نحو الصائغ اليهودي يدافع عن المرأة فنشب شجار بينهما، تغلب فيه الرجل المسلم على اليهودي وقتله، ونتيجة لذلك اجتمع عليه اليهود وضربوه حتى ارتقى إلى ربه شهيدًا، فأخذت الأمور بالتصعيد، واضطربت الأحوال لدرجة كبيرة، حيث تم خرق معاهدة المواطنة والإخلال بها بشكل تام، وبناءً على ذلك جمع الرسول عليه الصلاة والسلام اليهود، وقال لهم:

«يا معشر اليهود! اتقوا الله! أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا»

وبذلك فإن النبي ﷺ قد أعلمهم من جهة بأنهم سيدفعون ثمن فعلتهم النكراء التي اقترفتها أيديهم، ومن جهة أخرى عبر عن رغبته بعدم إنهاء الصلح القائم بينهم، وبعد ذلك عرض عليهم تجديد المعاهدة، إلا أن جواب اليهود كان مثيرًا ووقحًا، حيث قالوا:

- يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا!. فأنزل الله ﷻ قوله:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ...﴾ [١٠٩٦]

إن اليهود الذين قالوا لموسى عليه السلام في وقت مضى:

﴿...فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [١٠٩٧]

رافضين بذلك الجهاد الذي يُعد فوزًا إلهيًا، صاروا اليوم يتصرفون عكس تلك الحالة، وكأنهم كانوا يريدون الحرب التي ستحصدهم بكل شوق وشجاعة وحمية.

١٠٩٦ آل عمران:، ١٢ – ١٣؛ انظر. أبو داود: الخراج، ٢١ – ٢٢/ ٣٠٠١.

١٠٩٧ المائدة:، ٢٤.

وهكذا فإن اليهود الذين يعدون بأنهم قد أعلنوا الحرب على المسلمين منذ اللحظة التي خرقوا فيها المعاهدة، قد أظهروا بتلك الأقوال والحركات نيتهم السيئة المبيتة بشكل جلي، وأمام هذا الواقع الخطير، عقد النبي ﷺ راية الحرب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسار إلى يهود قينقاع، فسارع اليهود إلى إغلاق أبواب قلاعهم والتحصن فيها، وعلى الرغم من المؤامرات والخدع التي حاكوها مع المنافقين ضد المسلمين إلا أنها باءت كلها بالفشل، فلم يتمكنوا لا من الخروج من القلاع، ولا من رمي أي سهم على المسلمين، وذلك لأن النبي ﷺ بينما كان من جهةٍ يحكم حصاره عليهم، فقد اتخذ من جهة أخرى كل التدابير الضرورية واللازمة لمواجهة أي عدوان أو عصيان محتمل قد يأتي به المنافقون.

لقد كان رأس المنافقين عبد الله بن أبي هو الذي أعلم اليهود بضرورة الانسحاب إلى داخل الحصون ووعدهم بالمساعدة والنجدة، والوقوف إلى جانبهم في الحرب، إلا أن زعيم المنافقين لم يستطع الوفاء بوعده خوفًا على نفسه، وتركهم يواجهون مصيرهم وحدهم.

استمر الحصار خمسة عشر يومًا، وفي نهاية الأمر سرى إلى قلوب اليهود خوف وفزع عظيمين قل أن يشعر بهما مخلوق على وجه الأرض، ولما تلاشت الآمال بقدوم المساعدة والنجدة المنتظرة لم يبق أمامهم من حل سوى طلب الأمان، فانحنوا برقابهم إلى العقاب الذي سوف ينزله بهم رسول الله ﷺ.

لقد طلب زعيم المنافقين عبد الله بن أبي الخزرجي العفو عنهم وذلك لوجود تحالف سابق بين بني قينقاع وبين قبيلة الخزرج، لأنه وفقًا للأعراف والعادات السائدة آنذاك كان يتطلب الأمر قتلهم.

إلا أنه بالنظر إلى الإلحاح الشديد في طلب العفو عنهم، تجاوز الرسول الكريم ﷺ عن قتلهم، وقرر معاقبتهم بنفيهم إلى مناطق في أطراف سوريا «الشام». ولما وصلوا إلى وادي القرى أقاموا هناك مدة شهر، فقام يهود وادي القرى بإعطاء المشاة منهم مراكبًا، وقدموا لهم الطعام والشراب، وبعد ذلك تابع بنو قينقاع سيرهم إلى أن وصلوا إلى مكان استقروا فيه، إلا أن حياتهم لم تدم طويلًا في هذا المكان أيضًا.[١٠٩٨]

١٠٩٨ ابن هشام: السيرة، ٢، ٤٢٦ – ٤٢٩؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٧٦ – ١٨٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٨ – ٣٠.

غزوة سويق «٢ ذي الحجة / أيار ٦٢٤»

لقد أصبح أبو سفيان زعيم قريش بعد مقتل أبي جهل في بدر، فأقسم أبو سفيان على الأخذ بثأر الهزيمة التي لحقت بقريش في بدر، وسارع إلى تجهيز مائتي فارس وخرج من مكة والخوف يحيط به، فسار حتى وصل إلى مكان يبعد عن المدينة مسيرة ساعة من الزمن، وتقدم تحت جنح الظلام حتى بلغ منازل بني نادر، فوصل إلى دار سلام بن مشكم زعيم بني نادر والمسؤول عن خزينتهم، قام سلام بإطعام أبي سفيان وسقايته وأحسن ضيافته، وأسر له ببعض أسرار المسلمين.

ثم بعد ذلك غادر أبو سفيان ديار بني نادر ووصل إلى أصحابه، فقاموا بقتل رجل من الأنصار سعد بن عمرو وأشعلوا النيران في بعض بساتين النخل، فاكتفى أبو سفيان بما أقدم عليه وعدّه كافيًا للوفاء بقسمه، ثم أسرع إلى مغادرة المكان خشية تعقبه والبطش به من قبل المسلمين.

ولما وصل خبر ما أقدم عليه أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ أسرع إلى الخروج في إثره واللحاق به، ولكي يتمكن المشركون من الهرب بسهولة فقد قاموا برمي أزوادهم من أكياس السويق، ولهذا السبب فقد سميت هذه الغزوة بـ «**غزوة السويق**»[١٠٩٩]

زواج علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء رضي الله عنها

في السنة الثانية للهجرة تزوج علي رضي الله عنه من فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ.

لقد طُلبت فاطمة رضي الله عنها للزواج كثيرًا من قبل وجهاء المسلمين أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، إلا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جوابه لهم:

- **انتظر بها القضاء.**

ولهذا السبب لم يكن علي رضي الله عنه يجرؤ على خطبتها من رسول الله عليه الصلاة والسلام على الرغم من تشجيعه من قبل أقربائه من بني هاشم، وبعد مدة وبناءً على إلحاح أقربائه ذهب إلى رسول الله ﷺ.[١١٠٠]

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

١٠٩٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ٤٢٢ – ٤٢٣؛ الواقدي: المغازي، ١، ١٨١ – ١٨٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٣٠.

١١٠٠ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٦، ١٩/ ٤٠٩٧.

«دخلت على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما أن قعدت بين يديه أُفْحِمْتُ، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما جاء بك ألك حاجة؟**» فسكتُّ. فقال: «**لعلك جئت تخطب فاطمة؟**» فقلت: نعم! فقال: «**وهل عندك من شيء تستحلها به**» فقلت لا والله يا رسول الله فقال «**ما فعلت درع سلحتكها...فو الذي نفس على بيده أنها لخطمية ما قيمتها أربعة دراهم**». فقلت عندي. فقال «**قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها**» [١١٠١]

وبعد موافقة الرسول ﷺ على طلب علي ﵁ بالزواج من فاطمة ﵂، باع علي بعض أشيائه من أجل تأمين المهر، وكان ما قدمه للمهر / ٤٨٠ / درهمًا. فأمر رسول الله ﷺ أن يُشترى بثلثي المهر طيبًا، ويُشترى بالثلث الباقي لباسًا لفاطمة ﵂.[١١٠٢]

جهز رسول الله ﷺ فاطمة ﵂ في خميل، وقربة، ووسادة حشوها إذخر.[١١٠٣]

ثم دعا بلال الحبشي ﵁، فقال:

«**يا بلال إني زوجت ابنتي ابن عمي، وأنا أحب أن يكون من سنة أمتي، إطعام الطعام عند النكاح، فأت الغنم فخذ شاة وأربعة أمداد أو خمسة، فاجعل لي قصعة لعلي أجمع عليها المهاجرين والأنصار، فإذا فرغت منها فآذني بها**»

وطلب إعداد وليمة لهذا الزواج، فقام علي ﵁ برهن درعه لدى يهودي وأخذ منه آصعًا من شعير. فكانت وليمة علي ﵁ آصعًا من شعير وتمر وحَيْس ـ وهو تمر يخلط بسمن، وحضر الأنصار والمهاجرون فأكلوا من هذه الوليمة، ثم تفرقوا.[١١٠٤]

ثم دعا رسول الله ﷺ بإناء ماء فتوضأ فيه، ثم دعا عليًا ﵁ فجلس بين يديه فنضح على صدره من ذلك الماء وبين كتفيه، ثم دعا فاطمة فجاءت فنضح على صدرها من ذلك الماء وبين كتفيها ثم أخبرها بأنه زوّجها من خير أهله. وبعد ذلك دعا لها بقوله:

- **اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.**[١١٠٥]

١١٠١ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٧٩.

١١٠٢ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٩.

١١٠٣ النسائي: النكاح، ٨١/ ٣٣٨٤؛ ابن كثير: البداية، ٣، ٣٧٩.

١١٠٤ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٢٣؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٤٨٧/ ٩٧٨١؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٤١١.

١١٠٥ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٢٤؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٤١١.

ولما وزع النبي ﷺ الأعمال، جعل نصيب السيدة فاطمة رضي الله عنها الأعمال المنزلية، وأوصى عليًا رضي الله عنه بالأعمال الخارجية.[١١٠٦]

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنه:

كنت جالسا إذ جاء علي والعباس يستأذنان، فقالا: يا أسامة استأذن لنا على النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله علي والعباس يستأذنان، فقال: «**أتدري، ما جاء بهما**»؟ قلت: لا، فقال النبي ﷺ: «**لكني أدري، فأذن لهما**»، فدخلا، فقالا: يا رسول الله جئناك نسألك أي أهلك أحب إليك؟ قال: «**فاطمة بنت محمد**»، فقالا: ما جئناك نسألك عن أهلك. قال: «**أحب أهلي إلي من قد أنعم الله عليه وأنعمت عليه أسامة بن زيد**». قالا: ثم من؟ قال: «**ثم علي بن أبي طالب**». قال العباس: يا رسول الله جعلت عمك آخرهم؟ قال: «**لأن عليا قد سبقك بالهجرة**»[١١٠٧]

ويقول ابن عباس رضي الله عنه:

«خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط، ثم قال: «**تدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال رسول الله ﷺ:

«**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**» [١١٠٨]

لقد كان النبي ﷺ يبدي رعاية خاصة بشأن إعداد أفراد عائلته لمواجهة الحياة من حيث تعليمهم، وتربيتهم من الناحية الروحية والأدبية. ونورد على ذلك مثالًا، حيث لما نزل قوله وتعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١١٠٩]

١١٠٦ الكاساني: ٤، ٢٤.

١١٠٧ الترمذي: المناقب، ٤٠/ ٣٨١٩.

١١٠٨ أحمد: مسند، ١، ٢٩٣/ ٢٩٠١.

١١٠٩ الأحزاب:، ٣٢ - ٣٣.

بقي النبي ﷺ لمدة ستة أشهر عندما يخرج إلى صلاة الفجر يمر بباب فاطمة رضي الله عنها، ويقول: «**الصلاة يا أهل البيت!**» ثم قرأ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [١١١٠]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يمر في بعض الليالي على علي وفاطمة رضي الله عنهما، فيطرق بابهما لإيقاظهما لصلاة التهجد التي تُعد من أهم الأعمال والطاعات للفوز بالحياة الأبدية ونعيمها، فيقول لهما:

- **ألا تصليان؟** [١١١١]

ويروي لنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الشأن حادثة ملفتة للانتباه كثيرًا، فيقول:

«كانت فاطمة من أحب أهله ـ رسول الله ﷺ ـ إليه. وإنها جرت بالرحى حتى أثر في يدها، واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها. فأتى النبي عليه الصلاة والسلام خدم. فقلت:

- لو أتيتِ أباكِ فسألتيه خادمًا!

فأتته فوجدت عنده حداثًا فرجعتْ، فأتاها رسول الله ﷺ من الغد، فقال لها:

- **ما كان حاجتك؟** فسكتت. فقلت:

- أنا أحدثك يا رسول الله! جرت بالرحى حتى أثرت في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادمًا يقيها حر ما هي فيه. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- **اتقي الله يا فاطمة! وأدي فريضة ربك! واعملي عمل أهلك! فإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثًا وثلاثين، واحمدي ثلاثًا وثلاثين، وكبري أربعًا وثلاثين، فتلك مائة فهي خير لك من خادم.**

قالت فاطمة رضي الله عنها:

- رضيتُ عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ. ولم يعطها النبي ﷺ خادمًا» [١١١٢]

١١١٠ الأحزاب:، ٣٣. الترمذي: التفسير، ٣٣/ ٣٢٠٦.

١١١١ البخاري: التهجد، ٤/ ١١٢٧.

١١١٢ أبو داود: الخراج، ١٩ – ٢٠/ ٢٩٨٨.

وجاء في رواية أخرى أن الرسول ﷺ قال:

«والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم» [١١١٣]

يقول ثوبان ؓ مولى رسول الله ﷺ:

«كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة. فقدم من غزاة له وقد علقت مسحًا أو سترًا على بابها، وحلت الحسن والحسين قلبين من فضة. فقدم فلم يدخل، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأى، فهتكت الستر، وفككت القلبين عن الصبيين وقطعته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان فأخذه منهما، وقال:

- **يا ثوبان! اذهب بهذا إلى آل فلان -أهل بيت بالمدينة- إن هؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا. يا ثوبان! اشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج»** [١١١٤]

أهل البيت ومحبتهم

يأتي تعبير أهل البيت بمعنى أفراد العائلة الذين يعيشون ويسكنون في بيت واحد. ويُقصد بهذا المصطلح هنا جميع أفراد عائلة النبي ﷺ. وبهذا المعنى فإن أهل البيت هم الرسول ﷺ وعائلته، وعلي، وجعفر، وعقيل، والعباس وعائلاتهم رضي الله عنهم أجمعين. فكما أن من واجب المؤمنين جميعًا الصلاة على الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، فإنه يترتب على المسلمين جميعًا أيضًا إظهار المحبة والاحترام لأهل بيته الكرام.[١١١٥]

يحرم على أهل بيت النبي ﷺ أخذ أموال الزكاة، حيث إن النبي ﷺ رأى ذات يوم الحسن يضع تمرة من بيت مال المسلمين في فمه، فأسرع إلى إخراج تلك التمرة من فمه، وقال:

«كخ كخ، أما تعرف أنَّا لا نأكل الصدقة» [١١١٦]

١١١٣ أحمد: مسند، ١، ١٠٦/ ٨٣٨.

١١١٤ أبو داود: الترجل، ٢١/ ٤٢١٣.

١١١٥ أحمد: مسند، ٦، ٣٢٣.

١١١٦ البخاري: الزكاة، ٥٧/ ٣٠٧٢؛ مسلم: الزكاة، ١٦١/ ١٠٦٩، أحمد: مسند، ١، ٢٠٠/ ٩٣٠٨.

ويقول زيد بن الأرقم ﷺ:

«قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خم، بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر. ثم قال:

- **أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به!.**

فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال:

- **وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.**

ولما سئل زيد ﷺ: من هم أهل بيته؟ وأليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده، فسئل: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، كل هؤلاء حرم الصدقة» [١١١٧]

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

«**أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي**» [١١١٨]

وإن رسول الله عليه الصلاة والسلام أخذ ذات يوم بيد حفيديه الحسن والحسين، فقال:

«**من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة**» [١١١٩]

لقد كان الصحابة الكرام يُكنّون احترامًا ومحبة كبيرة لآل بيت رسول الله ﷺ، وذلك لأن من مقتضى قانون الحب أن المحب يحب بقدر محبته لمحبوبه أقرباء محبوبه، وأصحابه، وخدمه، والطعام الذي يأكله، واللباس الذي يرتديه، وباختصار فإنه يحب كل ما يتعلق بمحبوبه ويذكّره به. فعندما تزداد المحبة فإنها تسري إلى كل ما يحيط بالمحبوب.

وهكذا فإن الصحابة الكرام الذين أحبوا رسول الله ﷺ أكثر من محبتهم لأنفسهم كانوا إذا امتطى أحد من أقرباء النبي ﷺ مركبه يسرعون إلى الإمساك بركابه.[١١٢٠] ولأنهم قد علموا

١١١٧ مسلم: فضائل الصحابة، ٢٤٠٨/٣٦.

١١١٨ الترمذي: المناقب، ٣١ / ٣٧٨٩.

١١١٩ الترمذي: المناقب، ٢٠ / ٣٧٣٣.

١١٢٠ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٣٤٨.

بأنهم يوم القيامة سوف تنقطع الصلة مع جميع ذوي القربى إلا من رسول الله ﷺ، فقد كان الصحابة يرغبون من أعماق قلوبهم ومشاعرهم في الزواج من أقربائه وآل بيته ليرتبطوا معه بعلاقة المصاهرة أملًا بدوام صحبته يوم القيامة أيضًا.[١١٢١]

لقد كان العثمانيون يعدون خدمة آل البيت وظيفة قيمة وجليلة، وقد أحدثوا منصبًا رسميًا من أجل ذلك، وقد أطلق العثمانيون أيضًا على من يشغلون هذا المنصب الذي استحدث للإشراف على شؤون أهل البيت اسم «نقيب الأشراف». ويتم اختيار نقيب الأشراف من نسل النبي عليه الصلاة والسلام لينظر في مختلف شؤون أهل البيت وأمورهم؛ إذ كان يقوم بتقييد نسبهم، وتسجيل حالات ولادتهم ووفياتهم في سجلات خاصة، ويمنع دخولهم في وظائف متدنية المستوى، ويستلم حصصهم من الفيء والغنائم فيقسمها فيما بينهم، ولا يأذن بزواج فتياتهم من رجال ليسوا بكفءٍ لهن.[١١٢٢]

لقد كان نقيب الأشراف يتمتع بأحد أعلى المناصب في الدولة لاعتباره بحكم وصي عام لأولاد النبي عليه الصلاة والسلام، وبسبب شرف الوظيفة التي يشغلها، وبذلك فقد كان يتواجد في التشريفات كثاني شخصية في الدولة بعد الخليفة، وقد كان نقيب الأشراف أول من يبايع السلطان الجديد ويدعو له، ثم تأتي الشخصيات الأخرى في الدولة من أجل البيعة، وكذلك في تهنئة الأعياد كانت الأولوية لنقيب الأشراف، وكان السلطان يقوم واقفًا على قدميه من أجل نقيب الأشراف وذلك في تهنئة العيدين.

وكان إذا ارتكب أحد الأسياد والأشراف مخالفة للقوانين والأعراف، تتم معاقبة المخالف من قبل نقيب الأشراف في اسطنبول إن كانت الإساءة حصلت في منطقة تابعة لها، وأما إن كانت المخالفة قد حصلت خارج حدود اسطنبول، فتتم محاسبة المخالف من قبل القائم مقام التابعة له تلك المنطقة، وخلال تنفيذ العقوبة كانت العمامة الخضراء تُرفع من رأس المُعاقب وتُقبل باحترام؛ وثم تُعاد إلى مكانها بعد انتهاء العقوبة.

١١٢١ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ١٧٣.

١١٢٢ محمد ذَكِي باكالن: ٢، ٦٤٧. Mehmet Z. Pakalın

السنة الثالثة للهجرة

غزوة أحد: المعركة المليئة بالعبر والعظات

«٧ شوال / ٢٣ آذار ٦٢٥»

غزوة أحد.[١١٢٣] هي مثل غزوة بدر، معركة مريعة جرت مع مشركي مكة، وقد وقعت في شهر شوال السنة الثالثة للهجرة.

لقد دخل مشركو مكة في حداد شديد بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم في معركة بدر، فالجميع قد فقد قريبًا له، وامتلأت قلوبهم بمشاعر الكراهية والحقد، والسعي إلى الأخذ بالثأر، وقد كانت هند زوجة أبي سفيان زعيم قريش الجديد من ضمن الساعين إلى طلب الثأر من المسلمين، ولم يمض وقت طويل حتى شكلوا جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف مقاتل تتأجج قلوبهم بنيران الحقد والانتقام، واستخدم في تجهيز الجيش أموال القافلة التي نجا بها أبو سفيان يوم بدر، وأرسلوا إلى قبائل العرب المجاورة لهم يطلبون منهم العون والمساندة. [١١٢٤]

وفي هذه الأثناء بعث عم النبي عليه الصلاة والسلام العباس ﵁ بخبر إلى المدينة يعلمهم بما يجري في مكة.[١١٢٥] فشكل رسول الله ﷺ على الفور مجلس حرب في المدينة، واستشار أصحابه في المجلس حول ما إذا كان من الأصوب البقاء في المدينة وتعزيز دفاعاتها، أم الخروج خارج المدينة وملاقاة جيش العدو والدخول معه في مواجهة مباشرة، وكان من رأيه البقاء في المدينة والدفاع عنها. [١١٢٦]

١١٢٣ أحد: يقع جنوب المدينة المنورة على بعد ميل تقريبًا.

١١٢٤ الواقدي: المغازي، ١، ١٩٩ – ٢٠٣.

١١٢٥ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٣٧.

١١٢٦ وكان هذا بسبب رؤيا رآها النبي ﷺ. حيث قال فيما بعد: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه: أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته بأخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد يوم بدر**». (البخاري: التعبير، ٣٩، ٤٤، المناقب، ٢٥؛ مسلم: الرؤيا، ٢٠)

إلا أنه نتيجة للأغلبية التي تشكلت من آراء الشباب المتحمّسين للقتال والذين لم يُكتب لهم الخروج يوم بدر، وآراء الأبطال الشجعان أمثال حمزة رضي الله عنه تم اتخاذ قرار بالخروج من المدينة وملاقاة جيش العدو في معركة مباشرة.[١١٢٧]

حتى إن بعضهم قال:

– قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا، فدخل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى حجرته الشريفة، ودخل معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فعمماه ولبساه، وارتدى درعه، وصفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه، وفي هذه الأثناء أقنع من رأوا البقاء في المدينة الآخرين الذين أصروا على الخروج، حيث جاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، وقالا:

– قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم فيه هوىً أو رأي فأطيعوه.[١١٢٨]

فأسرعوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقالوا له:

– يا رسول الله! ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله، ثم إليك.

فقال رسول الله ﷺ:

– **قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.**

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

– **انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم.**[١١٢٩]

وهكذا خرج النبي عليه الصلاة والسلام واستخلف وراءه على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ليقيم في الناس صلاة الجمعة، وخرج على رأس جيش قوامه ألف مقاتل. ولكن انخفض عدد المقاتلين في جيش المسلمين إلى سبعمائة رجل بسبب رجوع زعيم

١١٢٧ ابن هشام: السيرة، ٣، ٦ – ٧.

١١٢٨ الواقدي: المغازي، ١، ٢١٣ – ٢١٤.

١١٢٩ الواقدي: المغازي، ١، ٢١٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٣٨.

المنافقين في منتصف الطريق ومعه ثلاثمائة من أنصاره في جيش المسلمين، فأنزل الله تعالى بسبب ذلك قوله:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[١١٣٠]

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١١٣١]

وقد كان انسحاب المنافقين من جيش المسلمين لطفٌ من الله تعالى، إذ إنهم لم يتسببوا بسلوكهم هذا بإضعاف الجيش، وإنما على العكس من ذلك فقد تم تطهير الجيش من المتلونين والمنافقين، ومن أصحاب القلوب المترددة والجبانة، وبذلك فقد أصبح الجيش من الناحية المعنوية أكثر قوة وحيوية، وذلك لأن خيانتهم أثناء المعركة كانت من الممكن أن تؤدي إلى مخاطر أكبر، وتهز معنويات المؤمنين بشكل أشد.

عشق الصحابة للشهادة

لقد كان عمرو بن الجموح ﵁ زعيم بني سليم الأنصاري رجلًا أعرجًا، وقد كان ينضم هو وأولاده الأربعة إلى المعارك والغزوات بجانب النبي ﷺ. وخلال خروج النبي ﷺ إلى غزوة أحد أراد عمرو ﵁ الخروج معه أيضًا، وأراد بنوه أن يحبسوه، وقالوا له:

– أنت رجلٌ أعرج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال عمرو:

– منعتموني دخول الجنة يوم بدر، والله لئن بقيت حيًا اليوم، فإني سوف أستشهد يومًا وأدخل الجنة، ثم قال لامرأته:

– بينما يستشهد الناس ويدخلون الجنة، فهل تظنين أني سأقعد عندكم؟

ثم خرج. فأخذ درقته، وقال:

١١٣٠ آل عمران:، ١٦٦ – ١٦٧.

١١٣١ آل عمران:، ١٢١ – ١٢٢.

- اللهم لا تردني إلى أهلي خزيًا!

ثم أتى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال له:

- يريد بنيَّ أن يحبسوني عن الخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- **أنا أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك.**

فقال عمرو رضي الله عنه:

- يا رسول الله! ألا يليق بي أن أجاهد في سبيل فأستشهد وأطأ الجنة بعرجتي؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

- بلى، يليق بك.

ثم قال لبنيه:

- **لا عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة.**

فتوجه عمرو رضي الله عنه نحو القبلة، ودعا:

- اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي مخزيًا، وانضم إلى الجيش.

كان عمرو الذي خرج إلى غزوة أحد ويملؤه الشوق لنيل الشهادة، كان يقول أثناء المعركة:

- والله إني لأشتاق إلى الجنة.

وفي النهاية استشهد مع أحد أبنائه الذي كان يحاول حمايته من سيوف الأعداء، ونال ما ابتغاه من المرتبة الرفيعة. وبعد ذلك قال عنه رسولنا الأكرم عليه الصلاة والسلام:

- **والذي نفسي بيده لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته.** [١١٣٢]

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام خلال خروجه إلى معركة أحد يفتش جيشه. فيأذن لمن تكون سنه مناسبة بالخروج، وأما من يجده صغير السن فيرده. وكان من بين الذين ردهم رسول الله ﷺ سمرة بن جندب، ورافع بن خديج رضي الله عنهما. فشفع ظهير بن رافع رضي الله عنه لرافع وطلب من رسول الله ﷺ أن يضمه إلى الجيش، فقال: يا رسول الله! إن رافعًا رام.

١١٣٢ الواقدي: المغازي، ١، ٢٦٤ – ٢٦٥؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٤، ٢٠٨.

ويروي رافع بن خديج الحادثة فيقول:

«وجعلت أتطاول على خفين لي، فأجازني رسول الله ﷺ. فلما أجازني رسول الله ﷺ قال سمرة بن جندب لربيبه، مري بن سنان: يا أبت، أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج، وردني، وأنا أصرع رافع بن خديج. فقال مري بن سنان: يا رسول الله! رددت ابني وأجزت رافع بن خديج، وابني يصرعه. فقال النبي ﷺ لرافع ولسمرة: **تصارعا!** فصرع سمرة رافعًا، فأجازه رسول الله ﷺ، فشهدها مع المسلمين» [١١٣٣]

جعل رسول الله ﷺ جبل أحد في ظهر جيشه، ووضع خمسين راميًا على جبل العينين من أجل التصدي لأية هجمة محتملة من قبل الأعداء خلال الوادي الذي بأسفل هذا الجبل، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير، وقال له:

«انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نُؤتَينَّ من قِبلك»[١١٣٤]

بدأت المعركة كما هي العادة في ذلك الزمن بالمبارزة، فانبرى للمبارزة من جيش المسلمين أسد الله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرج له من المشركين حامل رايتهم طلحة فأرداه علي رضي الله عنه بضربة واحدة من سيفه، فخرّ صريعًا، وأما المبارزة الثانية فخرج فيها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ليلاقي شقيق طلحة الذي حمل الراية بعد مقتله، فصرعه حمزة رضي الله عنه، وأما حامل الراية الثالث فقد أرداه قتيلًا سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وبعد ذلك التقى الجيشان ونشبت معركة طاحنة بينهما، فعلا غبار المعركة إلى عنان السماء، ولما حمي وطيس القتال:

عرض رسول الله عليه الصلاة والسلام سيفه الذي كُتب عليه: «في الجبن ذلة ومسكنة، وفي الشجاعة شرف وعزة!»، وقال:

- **من يأخذ هذا السيف مني؟**

فقام إليه رجال يريدون، فأمسكه عنهم، وقال:

- **من يأخذ هذا السيف بحقه، فتراجع القوم.**

١١٣٣ الطبري: التاريخ، ٢، ٥٠٥ – ٥٠٦؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢١٦.

١١٣٤ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٠؛ الطبري: التاريخ، ٢، ٥٠٧؛ أحمد: مسند، ١، ٢٨٨.

حتى قام إليه أبو دجانة سمّاك بن خرشة رضي الله عنه فقال:

- وما حقه يا رسول الله؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **أن تشرب به العدو حتى ينحني!**

فقال أبو دجانة رضي الله عنه:

- أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه.

فلما أخذ أبو دجانة السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته الحمراء التي كان يرتديها كإشارة على نيته للبدء بالقتال، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين ـ صفي المسلمين والمشركين. وحين رأى رسول الله ﷺ أبا دجانة يتبختر قال:

- **إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن** . [١١٣٥]

وخلال المعركة أسلم أحد علماء اليهود وهو مخيريق، وقد كان يعرف النبي ﷺ من خلال صفاته المذكورة عندهم في التوراة، ولكنه لم يستطع أن يبوح بما اطلع عليه من خلال العلم حتى معركة أحد، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد، قال لليهود:

- يا معشر يهود! والله لقد علمتم أن محمدًا نبي وأن نصره عليكم لحق!

فقال اليهود:

- إن اليوم يوم السبت، ولا يؤتى شيءٌ يوم السبت!

قال مخيريق:

- لا سبت لكم!

فأخذ سيفه وعدته، وقال لأحد أقربائه:

- إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء!،

ثم غدا إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه حتى قتل. وكان قد ترك خلفه سبعة بساتين من النخل. فاستلمها النبي عليه الصلاة والسلام وأوقفها للمسلمين. وقال:

- مخيريق خير يهود. [١١٣٦]

١١٣٥ ابن هشام: السيرة، ٣، ١١ – ١٢؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٥٩؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٢٨.

١١٣٦ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٦٣؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٥٠١ – ٥٠٣.

لقد كانت معركة أحد تفيض بمشاهد متعددة تفيض بالعبر:

حيث كان من بين جيش المسلمين رجل من أهل المدينة يقال له قزمان، وقد قتل في أحد سبعة من المشركين، وأصيب بجرحٍ عميق فمات، ولكن على الرغم من ذلك لما ذُكر للنبي ﷺ قال: قزمان من أهل النار!. لأنهً في الرمق الأخير من حياته مرّ به قتادة بن النعمان، فقال له: هنيئًا لك الشهادة!. فقال قزمان: ما قاتلت يا أبا عمرو على دين أو من أجل شهادة، ثم أندبته الجراح فقتل نفسه.[١١٣٧]

ومقابل هذه الحالة، فقد جاء الأصيرم إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو الذي كان يعترض على دخول قبيلته إلى الإسلام ويمنعهم، جاء نادمًا على فعلته تلك وقد تقنع بالحديد من فرقه إلى قدمه، وقال له:

- يا رسول الله! أقاتل وأسلم؟

فقال رسول الله ﷺ:

- **أسلم ثم قاتل.**

فأسلم ثم قاتل فقتل شهيدًا. فقال رسول الله ﷺ:

- **عمل قليلًا وأجر كثيرًا.**[١١٣٨]

وبينما يرقد بين الجرحى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة كان يقول للذين ينظرون إليه باستغراب:

- آمنت بالله وبرسوله وأسلمت، ثم أخذت سيفي، فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني!

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يختبر أصحابه، فيقول لهم:

- حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ قط؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه: من هو؟ فيقول:

- أصيرم بني عبد الأشهل، عمرو بن ثابت.[١١٣٩]

١١٣٧ الواقدي: المغازي، ١، ٢٦٣.

١١٣٨ البخاري: الجهاد، ١٣/ ٢٨٠٨؛ مسلم: الإمارة، ١٤٤/ ١٩٠٠.

١١٣٩ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩ – ٤٠؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٦٢.

خلال المعركة انكسر سيف عبد الله بن جحش ﷺ، فأعطاه رسول الله عليه الصلاة والسلام غصنًا من شجرة النخل، فانقلب غصن النخل ذاك في يد عبد الله سيفًا، وقد كان عبد الله ﷺ يستخدم هذا السيف حتى استشهاده. ولما انتقل هذا السيف الذي أطلق عليه اسم «العرجون» إلى ورثة عبد الله ﷺ اشتراه منهم رجل تركي بمائتي دينار ذهبًا.[١١٤٠]

لقد أدى إقدام المسلمين وإغارتهم الحماسية على العدو والتي لم يُر لها مثيل إلى النصر في وقت قصير، وبدأ جيش العدو الذي يُعد أكثر تفوقًا من ناحية العدد والعدة، بدأ بالهرب والانهزام، ولكن المسلمين بعد ملاحقتهم لأعدائهم مدة قصيرة من الزمن اطمأنوا إلى نصرهم بيقين وانصرفوا يجمعون الغنائم، حتى إن الرماة الذين كانوا على الجبل لحماية ظهر جيش المسلمين تركوا مواقعهم واتجهوا هم أيضًا إلى جمع الغنائم على الرغم من إلحاح قائدهم عليهم بالبقاء في أماكنهم، وتذكيره لهم بوصية رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولم يبق على الجبل من الرماة إلا أميرهم عبد الله ومعه سبعة آخرون.

وحدث ما حدث للمسلمين بعد هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه الرماة، حيث لم يفوّت خالد بن الوليد وكان أحد أدهى قادة قريش، لم يفوت هو والمجموعة التي بإمرته هذه الفرصة الثمينة التي انتظروها بفارغ الصبر، فاستغل انشغال رماة المسلمين بجمع الغنائم والتف مع المجموعة التي تحت إمرته حول الجبل الذي كان رماة المسلمين يتمركزون عليه فجاءهم من خلفهم، ولم يمض وقت طويل حتى انقض عليهم وقتل البقية الباقية في ذلك المكان فارتقوا إلى ربهم شهداء في سبيله، وبدأ هجومًا عنيفًا ومباغتًا على المسلمين المشغولين بجمع الغنائم، وأتاهم من خلفهم من حيث لا يتوقعون، وأما جيش العدو الذي ولّى الأدبار مندحرًا أمام المسلمين لما رأى الذي حدث لجيش المسلمين من التفاف خالد بن الوليد وإغارته عليهم عادوا أيضًا وانقضّوا على المسلكين من جديد، فوقع جيش الإسلام بين نارين، ونشب الاضطراب وعمت الفوضى بينهم.

سيد الشهداء حمزة ﷺ

حين تزعزت صفوف جيش المسلمين، وتشتت الجنود، فصار يتجه كل منهم إلى جهة دون هدف أو تنظيم، في هذه الفوضى العارمة انطلق رمح غادرٌ رماه وحشي ليستقر في جسد بطل الإسلام حمزة ﷺ، فوقع شهيدًا في سبيل الله، لقد ارتكب وحشي الذي كان

١١٤٠ ابن الأثير: أسد الغابة، ٣، ١٩٥؛ دياربكري: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، ١، ٤٣٣.

ما يزال عبدًا هذه الفعلة الشنعاء مقابل وعدٍ قطعته له هندٌ زوج أبي سفيان على نفسها بأن تعتقه من عبوديته وينال حريته إن هو أقدم على قتل حمزة ﷺ انتقامًا لقتلاها في بدر. وقد تمادت هند التي كانت تتحيّن هذه الفرصة منذ زمن بحقد مريع، تمادت في حقدها وبلغت بها الوحشية أن أخرجت كبد سيد الشهداء حمزة ﷺ من صدره وأخذت تلوكه في فمها، وبسبب ذلك فقد لقبت بـ «آكلة الأكباد».

وباستشهاد سيد الشهداء حمزة ﷺ اجتاحت صفوفَ المسلمين عاصفةُ حداد وحزن شديد. وتبعثرت الصفوف المضطربة أصلًا أكثر فأكثر، ويصور لنا البيان الإلهي هذه الحالة بقوله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١١٤١]

فبينما يحذر الله تعالى في الآية الكريمة الرماة الذين تركوا مراكزهم على الجبل بقوله عنهم: «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا»، فإنه في الوقت نفسه يمتدح ويثني على الذين ثبتوا ولم يغادروا مراكزهم واستشهدوا على إثر ذلك، بقوله عنهم: «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ».

لقد قتل المشركون في ذلك اليوم الكثير من المؤمنين، حتى إن مجموعة من المشركين اتخذوا الرسول عليه الصلاة والسلام هدفًا لهم وبدؤوا الهجوم المباشر عليه. واشتد الهجوم على رسول الله ﷺ بشكل كبير. يقول طلحة بن عبيد الله:

«لقد رأيت رسول الله ﷺ حين انهزم أصحابه وكرّ المشركون وأحدقوا بالنبي ﷺ من كل ناحية، فما أدري أقوم من بين يديه، أو من ورائه، أو عن يمينه، أو عن شماله فأذب بالسيف من بين يديه مرة وأخرى من ورائه حتى انكشفوا» [١١٤٢]

وكان في المعركة مالك بن زهير وهو أمهر المشركين في رمي السهام، فرمى رسول الله عليه الصلاة والسلام بسهم، ولما أدرك طلحة بن عبيد الله ﷺ أن السهم سوف يصيب

١١٤١ آل عمران: ١٥٢.

١١٤٢ الواقدي: المغازي، ١، ٢٥٤.

رسول الله عليه الصلاة والسلام مدّ يده ليتلقى السهم عن النبي ﷺ. فأصاب السهم إصبعه وأُصيبت يده نتيجة تلك الإصابة.[١١٤٣]

اجتمع نفر من الصحابة المهاجرين والأنصار وأحاطوا بالنبي عليه الصلاة والسلام للدفاع عنه، وبايعوه على الاستشهاد أمامه دفاعًا عنه، وجعل كل واحد منهم يقول:

«وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع»[١١٤٤]

لقد كان أبو طلحة ﵁ أحد أمهر الناس في رمي السهام. وقد كسر في يده يوم أحد قوسان أو ثلاثة أقواس. وكان رسول الله ﷺ يقول لكل من يمر من جانبه ومعه جعبة سهام:

- **انثرها لأبي طلحة.**

ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة:

- يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، لا تشرفْ يصبْك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك.[١١٤٥]

وكان قتادة بن النعمان ﵁ هو الآخر يقف أمام النبي ﷺ فيحميه ويدافع عنه، وقد رمى بقوسه على المشركين حتى انثنى رأس قوسه، وأصيب بسهم في عينه، ونزلت بؤبؤة عينه على خده، ولما رأى رسول الله ﷺ قتادة على هذه الحالة أدمعت عيناه، فأخذ النبي ﷺ بيده الشريفة بؤبؤة عين قتادة وأعادها إلى مكانها، فصارت هذه العين بعد ذلك أفضل من الأخرى، فكانت تبصر أحسن منها.[١١٤٦]

كانت أم عمارة ﵂ من الصحابيات اللاتي شاركن في معركة أحد، وكانت من الذين يقاتلون الأعداء بالسهام. وبعد انتهاء المعركة وعودة الرسول الكريم إلى المدينة المنورة قال عليه الصلاة والسلام:

- **ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني.**

وبذلك فقد صارت أم عمارة ﵂ مظهرًا لدعاء النبي ﷺ لها، حيث قالت له:

- ادع الله أن نرافقك في الجنة.

١١٤٣ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٢١٧.

١١٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٤٦؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٤٠.

١١٤٥ البخاري: المغازي، ١٨/ ٤٠٦٤؛ مسلم، الجهاد، ١٣٦/ ١٨١١.

١١٤٦ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣٣٤ / ٥٢٨١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١١٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٥٣.

فقال رسول الله ﷺ:

- **اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة!**

فقالت أم عمارة رضي الله عنها:

- ما أبالي ما أصابني من الدنيا. [١١٤٧]

وأثناء احتدام هجوم المشركين على رسول الله عليه الصلاة والسلام هاجم عتبة بن أبي وقاص - وهو أخو سعد - رسول الله عليه الصلاة والسلام ورماه بحجر، وبقذف هذاه الحجر وقعت حادثة اهتزت لها السماوات والأرض، حيث اخترق الحجر درع رسول الله إلى وجهه فأدمى وجهه المبارك وكسر رباعيته. فسقط النبي الأكرم ﷺ في حفرة من الحفر التي حفرها الفاسق المشرك أبو عامر من أجل الإيقاع بالمسلمين، فسارع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الإمساك بيد رسول الله عليه الصلاة والسلام الشريفة، وأقامه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه على قدميه وأخرجه من الحفرة، وأخرج أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بأسنانه إحدى حلقات المغفر التي كانت قد غرزت في وجه الرسول ﷺ، وبينما هو يخرج الحلقة الحديدية كسرت سنه الأمامية، وفي تلك اللحظات الكئيبة ساد ألم وحزن عميق بين جميع الصحابة، وحتى بين الملائكة الكرام، وقد ثقلت هذه الحالة على الصحابة كثيرًا، وقالوا للنبي عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله! ادع على المشركين.

فقال رسول الله ﷺ:

- **إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.** [١١٤٨]

ولما جُرح رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:

- **اشتد غضب الله على قومٍ أدموا وجه رسوله!**

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

- والله لما سمعت كلام رسول الله ﷺ ما حرصت على قتل أحد قط، ما حرصت على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص!

١١٤٧ الواقدي: المغازي، ١، ٢٧٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٤١٥.

١١٤٨ مسلم: البر، ٨٧/ ٢٥٩٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١١٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٤٤ - ٢٤٧.

ولذلك فقد صمم سعدُ بن أبي وقاص على قتل عتبة واقتحم صفوف المشركين مرات عدة من أجل قتله، إلا أن رسول الله ﷺ حال دون قتل سعد رضي الله عنه لأخيه عتبة. [١١٤٩]

لقد كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقف بجانب النبي عليه الصلاة والسلام ليحميه، وهو يمطر المشركين بالسهام دونما توقف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول له:

- **يا سعد ارم فداك أبي وأمي!.**

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان شاهدًا على هذا القول:

- ما سمعت رسول الله ﷺ جمع أبويه ـ يقول فداك أبي وأمي ـ لأحد غير سعد. [١١٥٠]

لقد كان النبي ﷺ متمتعًا بقوة إيمانية عظيمة لا تهتز حتى في أصعب الأحوال والظروف التي عاشها والمشقات والمصائب الجمّة التي تعرض لها في هذه المعركة، وفي حالة توكل مطلق على الله تعالى، وبينما كان من جهة يمسح الدماء بيده عن وجهه المبارك المجروح، فإنه من جهة أخرى كان يلجأ إلى الحق ﷻ داعيًا:

«**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [١١٥١]

ويقول سهل بن سعد رضي الله عنه:

«جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة رضي الله عنها أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم» [١١٥٢]

إذًا، فإن معركة أحد تحولت بكليتها إلى مشاهد من الحزن والكآبة التي عايشها المسلمون. فالحرب التي بدأت لصالح المؤمنين وحققوا فيها نصرًا ظنوه نصرًا مؤزرًا ونهائيًا، انقلبت فجأة لصالح المشركين بسبب عصيان المسلمين للأوامر التي تلقوها من

١١٤٩ الواقدي: المغازي، ١، ٢٤٥.

١١٥٠ الترمذي: المغازي، ١٢/ ٤٠٥٩، الأدب، ٦١/ ٦١٨٤، المناقب، ٢٦؛ أحمد: مسند، ١، ٩٢/ ٧٠٩.

١١٥١ البخاري: الجهاد، ٨٠، استبانة المرتدين، ٧/ ٦٩٢٩؛ مسلم: الجهاد، ١٠٥/ ١٧٩٢.

١١٥٢ مسلم: الجهاد، ١٠١/ ١٧٩٠.

رسول الله ﷺ. ولم يبق من المؤمنين حول الرسول ﷺ سوى أربع عشر شخصًا، وبدأ سيد الخلق ﷺ الذي تعرض لفاجعة عظيمة في هذه المعركة، بدأ ينادي المؤمنين:

«**يا معشر المسلمين! أنا رسول الله! إلي، إلي!**»[١١٥٣]

ويصف الله تبارك وتعالى هذه الحالة في القرآن الكريم حيث يقول:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١١٥٤]

صُعق بعض المسلمين لدى سماعهم بخبر استشهاد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانوا يقولون في أنفسهم:

- ما يبقينا في هذا المكان بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ثم بدؤوا بمغادرة ساحة القتال لا يلوون على شيءٍ، لقد عاد هؤلاء في الأساس من أجل حماية المدينة المنورة، إلا أنهم أجبروا على العودة من قبل نساء المسلمين.

وأما القسم الآخر فقد قالوا:

- حتى وإن مات رسول الله، فإن الله باقٍ لا يموت.

وتابعوا القتال. ومن هؤلاء أنس بن النضر ﷺ، عم أنس بن مالك المشهور، فقد صاح ببعض المسلمين الذين أصابتهم الحيرة والاضطراب وعجزوا عن التصرف لدى سماعهم بخبر استشهاد سيد الخلق ﷺ، صاح بهم بكل تسليم وتوكل على الله تعالى قائلًا:

- يا قوم! إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت! فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال:

- اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه -، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني أصحابه -.

ثم سلّ سيفه فقاتل حتى قتل شهيدًا رحمه الله تعالى ورضي عنه، وقد أُصيب في جسده بما يزيد عن ثمانين جرحًا.[١١٥٥]

١١٥٣ الواقدي: المغازي، ١، ٢٣٧.

١١٥٤ آعمران: ١٥٣.

١١٥٥ أحمد: مسند، ٣، ٢٥٣/ ١٣٠٨٥؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣١.

يقول أنس رضي الله عنه:

«غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فشق عليه ذلك، فقال:

– يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.

فلما كان يوم أحد، شهد مع رسول الله ﷺ المعركة، وانكشف المسلمون، قال:

– اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال:

– يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد.

قال سعد لما ذكر الحادثة لرسول الله ﷺ:

– فما استطعت يا رسول الله ما صنع!

فوجدنا عمي وبه بضعًا وثمانين بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل شهيدًا وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، كنا نرى، أو نظن: أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ »[١١٥٦]

إن المسلمين الذين فروا من ساحة المعركة لما انقلبت الأمور لصالح المشركين كانوا بشكل عام ـ لحكمة إلهية ـ من الذين رأوا الخروج من المدينة ومواجهة جيش المشركين في ساحة معركة مفتوحة. وقد خاطبهم الله عز وجل بقوله:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[١١٥٧]

وقد جاء التحذير والتوبيخ الإلهي للذين أرادوا البدء بالقتال والموت ثم فروا وانهزموا بعد أن سمعوا الهذيان بمقتل نور الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام، جاء التحذير الإلهي لهم في غاية الشدة، حيث قال تعالى:

١١٥٦ الأحزاب: ٢٣. البخاري: الجهاد، ١٢/ ٢٨٠٥؛ مسلم: الإمارة، ١٤٨/ ١٩٠٣.

١١٥٧ آل عمران: ١٤٣.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١١٥٨]

وعلى الرغم من كل تلك الأحداث الهائلة والمريعة التي وقعت في ذلك اليوم العصيب بقي رسول الله عليه الصلاة والسلام ثابتًا لم يتزحزح من مكانه، وأظهر مقاومة عجيبة بعلم ودراية نبوية. وقد أصبح نموذجًا ساميًا وفريدًا في البطولة لأصحابه الكرام من خلال صفات لا مثيل لها من الجلال، والجسارة، والإقدام، والاعتدال، والشجاعة. ويقول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[١١٥٩]

وعلى الرغم من كل الأحداث التي جرت لرسول الله عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين يوم أحد، والاضطراب العظيم الذي تخلل صفوفهم إلا أنَّ المشركين لم يتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، وذلك بفضل الله تعالى وإحسانه، ولطفه بالمؤمنين. وفي غمرة الفوضى والتشتت بدأ الصحابة الكرام –بعد أن أبصروا النبي ﷺ– باسترجاع قواهم ورصّ صفوفهم، والالتفاف حوله من جديد. فتم التصدي لهجوم المشركين المباغت والفجائي، وقام المؤمنون بحماية نبي الله عليه الصلاة والسلام والدفاع عنه بكل ثبات وشجاعة. وبدأ المشركون بالخسارة والهزيمة من جديد، ولكي لا تزداد خسائرهم أخذ المشركون بالتراجع قليلًا، فاستغلّ النبي عليه الصلاة والسلام هذه الفرصة السانحة وانسحب إلى جبل أحد، وقد حاول أبو سفيان مرة ثانية الانقضاض على المسلمين من قمة الجبل إلا أنه لم ينجح في هذه المرة.

وفي هذه اللحظات العصيبة والمفزعة تفضل الله تعالى على المؤمنين بحالةٍ من النعاس، فغرق المؤمنون في أماكنهم في نوم عميق يبعث في النفس الراحة والطمأنينة والسكون، حتى إن بعضهم قد سقطت سيوفهم التي بين أيديهم لعدة مرات. وقد أصاب هذا النعاس والنوم المؤمنين فقط، وأما المنافقون والمرتابون الذين كانوا بين صفوف

١١٥٨ آل عمران: ١٤٤.

١١٥٩ آل عمران: ١٣٩ – ١٤٠.

المسلمين فلم يكن النوم يجد إلى عيونهم سبيلًا، إذ كانوا خلال تلك الحظة يعيشون في حالة من القلق والاضطراب، ويلفهم الخوف من مهاجمة المشركين والفتك بهم.[١١٦٠]

وفي لحظةٍ حصل نقاش بين أبي سفيان وسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وبعد ذلك لما همّ أبو سفيان بالعودة نادى بغضب على المسلمين لعدم وصوله إلى النتيجة المطمئنة التي كان يأملها:

- موعدنا معكم بدر في العام القادم.

فانتظر عمر ﷺ ما سيقوله الرسول ﷺ في الرد على مقالة أبي سفيان. فقال نور الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

- قل: نعم! هو بيننا وبينكم موعد.[١١٦١]

وأما في الحقيقة فقد كان قد دخل خوف كبير في قلوب المشركين، ولذلك كانوا يتقهقرون أمام المسلمين، حيث إن من إحدى معجزات رسول الله ﷺ هي نصره بالرعب من مسافة بعيدة، إذ بمجرد توجهه عليه الصلاة والسلام نحو العدو يدخل الله في قلوبهم رعبًا حتى قبل اللقاء والمواجهة، وفي ذلك يقول الله ﷻ:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[١١٦٢]

إذًا، لم يجرؤ المشركون على مهاجمة المدينة المنورة التي بقيت مجردة من أي دفاع نتيجة لهذا الخوف والرعب الذي أُلقي في قلوبهم، وولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالرغم من النصر المؤقت الذي حققوه على المسلمين. وعلاوة على ذلك فقد كانوا يتراجعون على الرغم من عدم أسرهم أي مسلم، فمما لا ريب فيه أن هذا الأمر كان من فضل الله تعالى ولطفه بنبيه الكريم ﷺ وبالمؤمنين.

لما انكفأ المشركون وأخذوا بالتراجع قال رسول الله ﷺ:

- **استووا حتى أثني على ربي ﷻ!**

١١٦٠ البخاري: المغازي، ١٨، ٢٠؛ الواقدي: المغازي، ١، ٢٩٥ – ٢٩٦.

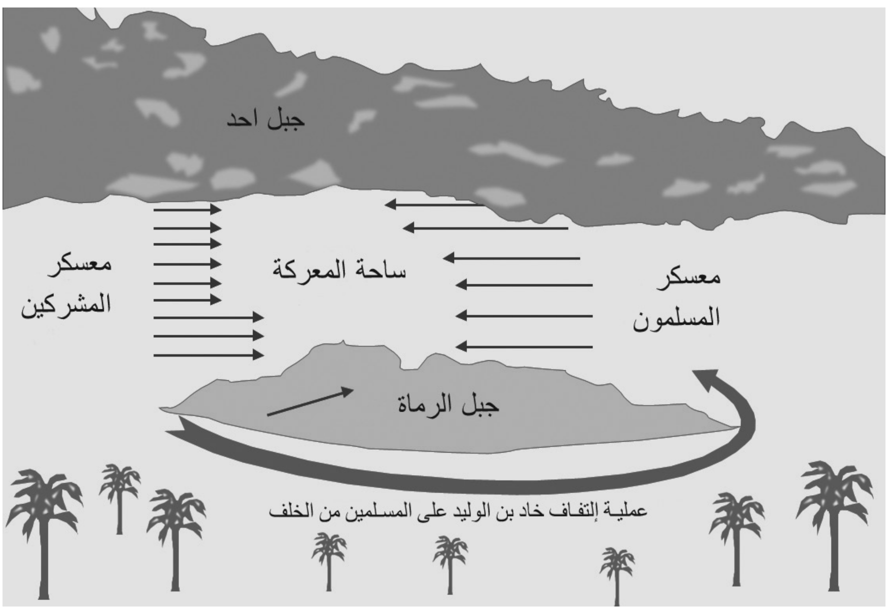
١١٦١ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٥٩.

١١٦٢ آل عمران: ١٥١.

فصار الصحابة الكرام خلفه صفوفًا. فقال رسول الله ﷺ داعيًا:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق! آمين!» [١١٦٣]



١١٦٣ أحمد: مسند، ٣، ٤٢٤/ ١٥٤٩٢؛ الحاكم: المستدرك، ١، ٦٨٦ – ٦٨٧/ ١٨٦٨، ٣، ٢٦ / ٤٣٠٨.

سعد بن الربيع: الصحابي الذي أَغلق دونه أبواب المعذرة

لما كان يوم أحد بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى ساحة المعركة ليأتيه بخبر عن سعد بن الربيع. قال له:

- **إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟**

فجعل الرجل يطوف بين القتلى، وينادي فيهم: يا سعد بن الربيع، مرة بعد أخرى، إلا أنه لم يعثر عليه، ولم يجد منه جوابًا، وفي نهاية الأمر نادى للمرة الأخيرة نحو الجرحى والقتلى علّه يسمع جوابًا، فقال:

- يا سعد! إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟

وفي تلك الأثناء لما سمع سعد ﷺ الذي كان في حالة ضعف شديد، ويعيش لحظاته الأخيرة في الحياة، لما سمع بذكر رسول الله ﷺ وسؤاله عنه استجمع قواه بكل ما أوتي من قوة، وتمكن أن يقول بصوت خافت مرتجف بأنين النزع:

- أنا في الأموات!

ويبدو أنه كان يشاهد العالم الآخر. فأسرع الصحابي نحوه، فوجده جريحًا في القتلى وبه سبعون طعنة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، وبالكاد سمع وبصوت خافت ومتقطع، الكلمات العجيبة والمدهشة الآتية:

- على رسول الله السلام، وعليك السلام قل له: يا رسول الله، أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى النبي ﷺ وفيكم شفر يطرف!.[١١٦٤]

لقد ودع سعد بن الربيع ﷺ هذه الحياة الفانية بكلماته المتلألأة التي كانت بمثابة وصية للأمة جمعاء.

شهداء أحد

بعد أن غادر المشركون ساحة المعركة بشكل تام نزل رسول الله ﷺ إلى ساحة المعركة ودفن الشهداء. فكان هناك سبعون شهيدًا من المسلمين، وكان من هؤلاء الشهداء أبطال أمثال حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وشجعان من أمثال مصعب بن عمير ﷺ.

١١٦٤ الموطأ: الجهاد، ٤١؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٢١ / ٤٩٠٦؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٧.

لقد استشهد مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان حامل لواء المسلمين في المعركة أثناء دفاعه وحمايته لرسول الله ﷺ. ولذلك فقد تصور أحد الملائكة بصورة مصعب رضي الله عنه وحمل عنه اللواء بعد استشهاده، وقد خاطب النبي عليه الصلاة والسلام الذي لم يكن على علم بعد باستشهاده، خاطب حامل اللواء قائلًا:

– تقدم يا مصعب!

فلما التفت إليه الملك علم النبي ﷺ أنه ملك أُيد به، وأدرك بأن مصعب رضي الله عنه قد استشهد. وبعد ذلك عثر على جسد مصعب رضي الله عنه، ولكن لم يجدوا ما يكفن به. [١١٦٥] إذ إن البُردة التي كانت على جسد الشهيد رضي الله عنه قصيرة جدًا، فإن هم غطوا بها رأسه ظهرت قدماه وإذا ستروا قدماه بانت رأسه. فذهب الصحابة الكرام إلى النبي ﷺ يسألوه عن أمره. فأمر النبي ﷺ أن يغطى القسم العلوي من جسد الشهيد بلباسه، وتُغطى رجلاه بنباتٍ طيب الرائحة.

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه ابنًا لأشرف عائلات مكة وأكثرها ثروة وغنى، يعيش حياة مترفة ومرفهة في بيئته. يحسده عليها كل شباب مكة ويتمنون أن يكونوا مكانه أو ينالوا نصيبًا مما يتمتع به، حتى إن الفتيات كن يضعن الزهور على الطريق الذي يمر به مصعب رضي الله عنه، إلا أنه على الرغم من كل ذلك، ورغم كل الضغوطات التي مارستها عليه عائلته المشركة فإنه ضحى بكل الإمكانيات والنعم الدنيوية التي كان يَنْعم بها، حتى إنه تخلى عن حقه في الميراث ليلتحق برسول الله ﷺ ويكون إلى جانبه. لقد كان مصعب رضي الله عنه شديد المحبة والتعلق برسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد تجلت هذه المحبة وتأكدت، وظهرت بصورة جلية لدى استشهاده حيث تصور ملك بصورته وحمل عنه اللواء إظهارًا لعظمة محبته وتضحيته في سبيل الله ورسول ﷺ. وبهذه الصورة ظهر مدى اللطف والتقدير الإلهي للتضحيات التي قدمها مصعب رضي الله عنه.

إن هذه المشاهد الحزينة والرقيقة تركت آثارها العميقة في القلوب الحية لسنوات طويلة، وتجلت هذه الآثار بعد سنوات في العهود التي اكتسب فيها المسلمون القوة والعزة. ومن نماذج من تأثر من المسلمين بتلك المشاهد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي كان من الأغنياء الشاكرين، إذ كان ذات يوم صائمًا فقدم له ولده على مائدة الإفطار أنواعًا مختلفة من الأطعمة، فتأثر بذلك غاية التأثر، وقال:

١١٦٥ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٢١ – ١٢٢.

- قتل مصعب بن عمير شهيدًا يوم أحد، وهو خير مني، كفن في بردة: إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه. وقتل حمزة، وهو خير مني. ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام. [١١٦٦]

وأما أكثر الشهداء الذين أحاطوا قلب الرسول عليه الصلاة والسلام وقلوب المؤمنين بهالة عظيمة من الحزن والأسى فهو أسد الله حمزة بن عبد المطلب ﵁، ذاك الشهيد البطل المقدام، والشجاع الذي لا مثيل له في جيش المسلمين.

توجهت السيدة صفية ﵂ نحو مكان الشهداء لكي ترى أخاها الشهيد حمزة ﵁، فقابلها ابنها الزبير وقال لها:

- يا أمه! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي. قالت:

- ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك؛ قال:

- خلِّ سبيلها! فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له.[١١٦٧]

يروي لنا الزبير بن العوام ﵁ مشهدًا لا نظير له من الأخوة الدينية والإيثار، والتعاضد يوم أحد، حيث يقول:

«أخرجت أمي صفية ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما، فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، وكان بجانب حمزة شهيد من الأنصار لا كفن له، فوجدنا غضاضة وحياءً أن نكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا:لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب. فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له» [١١٦٨]

كما يتبين من هذه المشاهد العاطفية، فإن عصبية القربى كانت تغادر مكانها في قلوب المؤمنين لتحل محلها الأخوة الإيمانية. وكانت تقدم لكل المؤمنين الذين سوف يأتون فيما بعد وحتى يوم القيامة نموذجًا لدفء حياة الأخوة الدينية.

١١٦٦ البخاري: الجنائز، ٢٧/ ١٢٧٥.

١١٦٧ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٨؛ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٣٤٩.

١١٦٨ أحمد: مسند، ١، ١٦٥.

كانت صلاة الجنازة تقام على كل عشرة شهداء مجتمعين. إذ جيء بأول عشرة شهداء وعلى رأسهم سيدنا حمزة ﵁ فصُلي عليهم ثم رفع التسعة ودفنوا، وبقي سيدنا حمزة ﵁، وثم بعد ذلك كان يؤتى بتسعة آخرين فيُصلى عليهم ومعهم حمزة ثم يرفعون ويدفنون ويبقى حمزة، وهكذا إلى أن صُلي عليهم جميعًا وفي كل مرة معهم سيدنا حمزة ﵁. وبذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد صلى صلاة الجنازة على جنازة عمه فلذة كبده، وسيد الشهداء عدة مرات.[١١٦٩]

وجاء في رواية عن جابر بن عبد الله ﵄:

كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول:

- **أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟**

فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد، وقال:

- **أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.**[١١٧٠]

كانت السيدة عائشة ﵂ زوج النبي عليه الصلاة والسلام قد خرجت يوم أحد في نسوة تستروح الخبر ـ ولم يضرب الحجاب يومئذٍ ـ حتى إذا كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي، لقيت المرأة الصالحة هند بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو ابن حرام ﵂ تسوق إبلًا لها، عليها زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد ابن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر. فقالت عائشة ﵂:

- عندك الخبر، فما وراءك؟

فقالت هند:

- خيرًا، أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل.

فسألتها السيدة عائشة ﵂ مشيرة إلى الجمل:

- من هؤلاء؟

قالت هند تلك المرأة الصالحة:

- أخي عبد الله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

١١٦٩ ابن ماجه: الجنائز، ٢٨/ ١٥١٣.

١١٧٠ البخاري: الجنائز، ٧٣ – ٧٥/ ١٣٤٣؛ ابن ماجه: الجنائز، ٢٨/ ١٥١٤.

قالت عائشة رضي الله عنها:

– فأين تذهبين بهم؟

قالت هند:

– إلى المدينة أقبرهم فيها!

وأخذت تزجر بعيرها، ثم برك البعير، فسألت السيدة عائشة:

– أمما عليه من الحمل؟!

قالت هند:

– ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك.

فزجرته فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعةً إلى أُحد فأسرع، فرجعت هند إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته بذلك. فقال رسول الله ﷺ:

– فإن الجمل مأمور، هل قال عمرو شيئًا؟

قالت هند:

– إن عمرًا لما وجه إلى أحد استقبل القبلة وقال: «اللهم لا تردني إلى أهلي خزيًا وارزقني الشهادة».

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

– **فلذلك الجمل لا يمضي! إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح.**

– **يا هند! إن زوجك عمرو لمن الصادقين. ما زالت الملائكة مظلة على زوجك من لدن قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن.**

ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم، ثم قال:

– **يا هند! قد ترافقوا في الجنة جميعًا، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله.**

وأمام هذه البشارة التي تلقتها هند من رسول الله عليه الصلاة والسلام رغبت أن تكون بصحبة زوجها الصادق في تلك الحياة الأبدية فقالت:

– يا رسول الله! ادع الله، عسى أن يجعلني معهم.[١١٧١]

١١٧١ الواقدي: المغازي، ١، ٢٦٤ – ٢٦٥؛ ابن حجر: فتح الباري، ٣، ٢١٦؛ ابن عبد البر: ٣، ١١٦٨.

وهذا مشهد آخر من المشاهد التي تمتلئ بالعبرة:

ضجت المدينة يوم أحد بخبر أليم تتصدع منه الجبال. إذ لما نودي في الناس أن «محمد قُتل» ارتجت المدينة بالصراخ والعويل، واخترقت الصيحات عنان السماء فوصلت إلى عرش الرحمن، حتى إن السميراء تلك المرأة الأنصارية لما أُخبرت بخبر استشهاد ولديها، وأبيها، وزوجها، وأخيها لم تُلق للخبر بالًا، وأسرعت تسأل عن حال النبي ﷺ:

- ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقال لها الصحابة الكرام:

- خيرًا! هو بحمد الله صالح على ما تحبين.

فقالت السميراء رضي الله عنها:

- أرونيه أنظر إليه ليطمئن قلبي.

فلما أشاروا لها إلى رسول الله ﷺ سارعت نحوه، فأمسكت بردائه وقالت:

- بأمي وأبي أنت يا رسول الله! كل مصيبة بعدك هينة يا رسول الله.[١١٧٢]

يقول بشير بن عقربة رضي الله عنه:

لما قتل أبي عقربة يوم أحد أتيت النبي عليه الصلاة والسلام، وأنا أبكي فقال:

- **يا حبيب! ما يبكيك؟ أما ترضى أن أكون أنا أباك وعائشة أمك؟**

قلت: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي! فمسح على رأسي فكان أثر يده من رأسي أسود وسائره أبيض، وكانت لي رتة فتفل فيها فانحلت، وقال لي: ما اسمك؟ قلت: بحير. قال:

- **بل أنت بشير.** [١١٧٣]

يقول جابر رضي الله عنه في مشهد آخر حيث يظهر الشوق والحماس إلى الوصل الإلهي:

«لما حضر أحد، دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير رسول الله ﷺ، فإن علي دينًا، فاقض، واستوص بأخوتك خيرًا. فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في

١١٧٢ الواقدي: المغازي، ١، ٢٩٢؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١١٥.

١١٧٣ البخاري: التاريخ الكبير، ٢، ٧٨؛ علي المتقي: كنز العمال، ١٣، ٢٩٨ / ٣٦٨٦٢.

قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هنية، غير أذنه» [١١٧٤]

وعند ذكر شهداء أحد كان النبي ﷺ يقول في بيان فضلهم:

«أما والله لوددت أني غودرت مع أصحاب نحص الجبل» [١١٧٥]

ومر النبي ﷺ ذات يوم بشهداء أحد، فقال:

- **هؤلاء أشهد عليهم.**

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

- ألسنا يا رسول الله بإخوانهم؟ أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا.

فقال الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

- **بلى، ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي.**

فبكى أبو بكر رضي الله عنه، ثم قال:

- أإنا لكائنون بعدك؟. [١١٧٦]

إن هذه الحالة التي كان عليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه مثال في غاية الروعة والجمال على محبته غير المتناهية والتي يصعب وصفها لحبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتؤكد استحقاقه للمرتبة العالية التي نالها لدى وصفه من رب العزة بـ «ثاني اثنين».

لقد كان الصحابة الكرام يقدمون محبة الرسول عليه الصلاة والسلام على كل شيءٍ، ويحبونه حتى أكثر من أنفسهم. إذ إنهم رضوان الله عليهم كانوا إذا ذكروا رسول الله ﷺ في بيوتهم، أو تذكروه في قلوبهم ضاقت عليهم الدار، فيسرعوا إلى القيام والتوجه إليه من أجل رؤيته والجلوس في حضرته، إذ كانوا يشعرون بالفرح والسعادة لدى النظر إلى وجهه المبارك والمنير، ويجدون طمأنينة وهدوءًا في الجلوس معه والتحدث إليه، وسماع كلامه.[١١٧٧] وإذا ما تأخروا في رؤيته أو حال دون ذلك حائل ما، تضيق نفوسهم وتضطرب

١١٧٤ البخاري: الجنائز، ٧٨/ ١٣٥١؛الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٢٤ / ٤٩١٣.

١١٧٥ أحمد: مسند، ٣، ٣٧٥/ ١٥٠٢٥؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣٠ / ٤٣١٨.

١١٧٦ موطا مالك: الجهاد، ٣٢/ ١٦٧٧/ ٤٥٠.

١١٧٧ القسطلاني: ٢، ١٠٤.

أرواحهم وكأن أجسادهم قد تحوّلت إلى أقفاص صغيرة لا تتسع لها. وكانت خشيتهم من عدم نيل صحبته يوم القيامة في الجنة تجعلهم في حالة من الاضطراب والفزع، بحيث تصفر وجوههم، ويُصابون بالحيرة والذهول، فلا يدرون ما يصنعون.[١١٧٨] وما يؤكد هذه المحبة التي لا نجد لها مثالًا بين سائر المجتمعات الإنسانية هو موقف ربيعة ﷺ خادم رسول الله ﷺ، إذ لما طلب منه الرسول عليه الصلاة والسلام أن «يتمنى عليه ما يشاء»، فلم يطلب ﷺ شيئًا إلا أن يكون بصحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام في الجنة يوم القيامة.[١١٧٩] وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يشعرون بسعادة لا مثيل لها في لحظات الموت وخروج الروح من أجسادهم لأن الموت هو وسيلتهم في التوجه إلى الله تعالى واللحاق برسوله الكريم عليه الصلاة والسلام.[١١٨٠] ولم يفرحوا رضي الله عنهم أجمعين بشيءٍ أكثر من فرحهم وسعادتهم ببشارة رسول الله ﷺ عندما قال:

«**المرء مع من أحب**»[١١٨١]

إن الآية الستين من سورة آل عمران تدور حول معركة أحد. ولما سأل المسور بن مخرمة عبد الرحمن بن عوف رحمه الله تعالى عن أحوالهم في معركة أحد، قال له عبد الرحمن:

«اقرأ العشرين ومائة من آل عمران، تجد قصتنا» [١١٨٢]

أحد جبل يحبنا ونحبه

لقد كانت لجبل أحد مكانة متميزة واستثنائية في قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد كان فخر الكائنات عليه أكمل التحيات والصلوات يكثر من زيارة أحد، وشهداء أحد طيلة فترة حياته، ويردد بين الحين والآخر قوله:

«**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[١١٨٣]

١١٧٨ القرطبي: ٥، ٢٧١.

١١٧٩ مسلم: الصلاة، ٢٢٦؛ أحمد: مسند، ٣، ٥٠٠.

١١٨٠ أحمد: مسند، ١، ٨؛ ابن ماجه: الجنائز، ٤.

١١٨١ البخاري: الأدب، ٩٦/ ٦١٦٨؛ مسلم، البر، ١٦٥/ ٢٦٤٢.

١١٨٢ ابن هشام: السيرة، ٣، ٥٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣١٩.

١١٨٣ البخاري: الجهاد، ٧١/ ٢٨٨٩؛ مسلم: الحج، ٥٠٤/ ١٣٩٣.

إن أُحُدًا ذلك الرمز الشامخ الشاهد على الشهداء الأخيار والذي لاقى التكريم بهذه اللفتة النبوية، صار بانغماسه في دفء محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام مزارًا مليئًا بالذكريات العزيزة على قلوب جميع أجيال المؤمنين القادمة إلى يوم القيامة.

لقد كان النبي ﷺ قلقًا من أن تتسبب نتيجةُ المعركة بتشاؤم الناس من جبل أحد، ولكي يحول دون تسرب مشاعر من الكراهية والبغض تجاه هذا الجبل إلى قلوب المؤمنين، قال: «إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه» معبرًا بذلك عن محبته لهذا المكان المبارك، إن أحدًا ببركة محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام له لم يعد مكانًا يشير إلى الهزيمة وإنما صار يذكره المؤمنون كموقع مقدس باعتبار أنه حظي بمحبة النبي ﷺ وتعلقه به من صميم قلبه، ويضمّ على سفحه أجساد الشهداء المباركة.

ومن جهة أخرى، فإن محبة أحد للنبي عليه الصلاة والسلام ومعرفته له مثال بارز على حقيقة معرفة جميع المخلوقات لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتصديقها لرسالته، ولذلك يقول رسول الله ﷺ:

«إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس» [١١٨٤]

الحِكم المستنتجة من غزوة أحد

شهدت صفحات غزوة أحد بحلوها ومرها مستوى عالٍ من كمال ونضج العبودية. فبينما كانت الأحداث تُقدم من جهة أعلى مستويات الصبر، والتوكل، والتسليم والرضا بالقدر بوجْد إيماني خالصٍ وكبير، فقد كانت من جهة أخرى تُواجه بأشد وأمرّ أنواع الامتحان الإلهي نتيجة الضعف الذي أصاب النفوس بالوقوع في الغفلة للحظات قليلة، والميل نحو عرض الحياة الدنيا.

لقد غيّر الإهمال في اتباع أوامر الرسول ﷺ وجهة المعركة وقدرها في لحظة واحدة، وتسبَّبَ في تأخير النصر الذي احتوى على تجلياتٍ كثيرة من التحذير والتنبيه الإلهي، فقد نتج عن خطأ بعض الأشخاص عقاب شمل الجميع، حيث وقع الجميع وبشكل مفاجئ في ضائقة عظيمة، لأن ذلك من سنة الله في عباده، حيث إنه حتى وجود حبيب الله بينهم لم يغيّر من هذه السنة الإلهية.

١١٨٤ أحمد: مسند، ٣، ٣١٠/ ١٤٣٣٣؛ علي المتقي: كنز العمال، ١١، ٤١٧ / ٣١٩٥٨.

كان الصحابة الكرام في غزوة بدر في حالة اتباع تامٍّ لرسول الله عليه الصلاة والسلام دون شرط أو قيد. فقد قالوا له وهم في ذروة وهج الحماس الإلهي:

- يا رسول الله! آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على هذا عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضِ لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يَتخلّف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك!.[١١٨٥]

لقد كان سبب الامتحان الإلهي في معركة أحد ضرورة تنبيه المؤمنين إلى بعض الأمور الحسّاسة والمهمة التي غفلوا عنها في لحظة ما.

وإن إحدى أهم الحكم التي تجلت في غزوة أحد أيضًا هي تمييز المؤمنين عن المنافقين الذين تسلّلوا ودخلوا بين صفوفهم.

وإن الحكمة الأخرى التي تضمنتها معركة أحد وأحداثها هي ضمان سكون المشركين وعدم تعرضهم للمؤمنين، وذلك عن طريق انشغالهم بنشوة النصر الوهمي الذي حققوه واكتفائهم به، والذي لم يكن له على أرض الواقع أي تأثير أو نتيجة إيجابية لصالح المشركين، وبهذا النصر الوهمي فقد هدأ الحقد والغضب الذي كأن يتأجج في قلوب المشركين منذ معركة بدر، وقلت لديهم مشاعر العنف التي كانوا يحسون بها تجاه الإسلام في الأوقات السابقة.

والأمر الملفت للانتباه هو تسابق الصحابة الكرام صغارًا وكبارًا من أجل المشاركة في غزوة أحد، حيث إن الشباب في عمر الخامسة عشرة سنة والذين يمكن اعتبارهم أطفالًا بالنظر إلى أعمارهم كانوا يأتون بمختلف الحجج والأدلة ويبحثون عن أية وسيلة لإثبات قدرتهم على القتال حتى يكونوا مقاتلين في صفوف جيش رسول الله ﷺ، إن السر الذي يقف خلف إقدام هؤلاء الناس على الموت بمختلف أعمارهم هو امتلاء قلوبهم بالإيمان العامر، والمحبة الأسطورية التي يشعرون بها في قلوبهم تجاه سيد الكائنات سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، فأينما وجد هذا الإيمان وهذه المحبة، وجدت سائر أنواع الشجاعة والبسالة، وأينما قلّ الإيمان وخفت المحبة، ظهر الكسل والتردد والمذلة والخوف. وأما السبيل إلى هذه المحبة فهو زيادة الذكر، والإكثار من الصلاة على الرسول

١١٨٥ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٥٣ - ٢٥٤.

عليه الصلاة والسلام، والتفكر بنعم الله تعالى، وبذل الجهد للتخلق بأخلاق النبي ﷺ والاهتداء بهديه وسيرته العطرة.

إن انتشار إشاعة إصابة نور الكائنات واستشهاده يحتوي على حكمة مهمة وجليلة بالنسبة للمؤمنين. لأن المؤمنين كانوا وكأنهم يخضعون لامتحان الإيمان والإرادة. وهكذا فإن المؤمنين قد جرى تحضيرهم قلبيًا وعقليًا من خلال هذه المواقف وتعليمهم كيفية التصرف مع الأحداث قبل وقوعها والتعرض لها، مثل بيان أن النبي ﷺ له طبيعة بشرية يتعرض لما يتعرض له سائر البشر، وأنه سوف يأتي يوم يودعهم فيه ويرتقي إلى ربه سبحانه وتعالى، وعلموا من هذه المواقف أيضًا أنه ينبغي على المؤمنين الثبات وعدم الارتداد بعد وفاة رسول الله ﷺ ومتابعة السير على السبيل والنهج الذي رسمه لهم وارتضاه لهم.

وخلاصة الأمر، لقد تم تلقين المسلمين في معركة أحد الكثير من الدروس والعبر في مجالات كثيرة مثل؛ كيفية تحقيق النصر في المعارك التي يخوضونها مع الأعداء، وكيفية تفادي الهزيمة والتفرق.

حمراء الأسد «٨ شوال/ ٢٤ آذار – مارس»

لقد زرع الله ﷻ في قلوب المشركين الذين فارقوا أحدًا خوفًا شديدًا، وحين اتجهوا في طريقهم نحو مكة غلفهم الله تعالى بغفلة عظيمة، إذ لم يستردوا إدراكهم وتفكيرهم، ولم ينتبهوا لأنفسهم إلا في خلال منتصف طريقهم إلى مكة، ولما عاد إليهم رشدهم واستفاقوا من غفلتهم أخذوا يفكرون بالعودة مجددًا ومهاجمة المسلمين.

وفي هذه الأثناء كانت تخطر للنبي عليه الصلاة والسلام الذي كان قد عاد إلى المدينة فكرة إرهاب العدو، وقد أنزل الله تعالى في هذا الشأن آية كريمة تبين للنبي ﷺ وللمسلمين ضرورة عدم إظهار التهاون والارتخاء أبدًا، حيث قال تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [١١٨٦]

فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، وعلى الفور تجهّزت مجموعة من المقاتلين للخروج ومن بينهم أبو بكر الصديق والزبير ﷺ، وكان كل الذين تجهزوا

١١٨٦ النساء: ١٠٤.

مباشرة وخرجوا لملاحقة الأعداء من جرحى يوم أحد، تجهّز هؤلاء المجاهدون الجرحى وانضموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام عند بئر أبي عنبة.[١١٨٧]

وفي هذه الأثناء كان أسيد بن حضير ﷺ مشغولًا بمداواة جراحه، فلما سمع نداء رسول الله عليه الصلاة والسلام ترك مداواة جراحه، وقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ.

وسارع سعد بن عبادة ﷺ أيضًا إلى تجهيز نفسه ثم جاء إلى قبيلته فأمرهم بالخروج واللحاق برسول الله ﷺ. فاستجابت له قبيلته، فتلبسوا وحملوا سلاحهم ثم جاؤوا.[١١٨٨]

فخرج النبي ﷺ على الفور مع المجموعة التي انضمّت إليه في طلب العدو.

لقد كان عبد الله بن سهل وأخوه رافع ﷺ قد قاتلا إلى جانب النبي ﷺ في أحد، وعادا إلى المدينة جريحين، ولما سمعا بدعوة النبي ﷺ المسلمين من أجل ملاحقة العدو، قالا:

- والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ ثم خرجا يلحقان برسول الله عليه الصلاة والسلام، فضعف رافع فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة ويمشي الآخر عقبة حتى أتوا رسول الله ﷺ، ولم يفارقاه.[١١٨٩]

وقد أصبحت هذه التضحيات الجسام التي قدمها المؤمنون موضع ثناء الله تعالى ومدحه، حيث يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١١٩٠]

لقد تقدمت هذه المجموعة في إثر العدو حتى وصلت إلى موقع يدعى «حمراء الأسد» وسميت الغزوة باسم هذا الموقع الذي يبعد عن المدينة ثمانية كيلو مترات، كان لواء المسلمين بيد علي ﷺ، فلما حلّ الليل أمر النبي ﷺ بإيقاد النار في خمسمائة موضع، فارتسم منظر في غاية الروعة، وإن الناظر إلى ذاك الاتجاه كان يظن بأن جيشًا عرمرمًا يعسكر في ذلك المكان، إذ إنه في تلك الأثناء توجه شخص يُدعى معبد والذي لم يكن قد

١١٨٧ الواقدي: المغازي، ١، ٣٣٤ - ٣٣٥.

١١٨٨ الواقدي: المغازي، ١، ٣٣٤ - ٣٣٥.

١١٨٩ ابن هشام: السيرة، ٣، ٥٣.

١١٩٠ آل عمران: ١٧٢.

أسلم بعد، توجه معبد إلى مكة لإخبار المشركين وتحذيرهم بأن جيش المسلمين قد خرج يريدهم، ولكي يبين لهم ضخامة جيش المسلمين من حيث العدد، قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط! فلما سمع المشركون بالخبر دخل في قلوبهم خوف ورعب عظيم، وقالوا: كيف يكون ذلك، ولم يكن بهم قوة على الحراك؟ وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض، ثم قالوا: فلنرجع دون أن نعرض أنفسنا للبلاء!

لم يجرؤوا بحالٍ من الأحوال على العودة والقتال مجددًا، وفي النهاية خرجوا في طريقهم يحثون الخطى نحو مكة، وبناءً على انسحابهم وعودتهم إلى مكة، رجع النبي ﷺ مع أصحابه إلى المدينة المنورة.[١١٩١]

مسألة الميراث

وفي هذه الأثناء نزلت الآيات المتعلقة بتقسيم الميراث، وذلك لأنه بعد معركة أحد كان قد ظهرت بعض الاختلافات في هذا المجال، إذ إن سعد بن الربيع رضي الله عنه استشهد في معركة أحد، فأخذ أخوه كل ميراثه دون أن يترك منه شيئًا لابنتيه. وكان هذا الأمر عادة جاهلية، حيث لم يكن للنساء والبنات أية قيمة أو وزن في العصر الجاهلي، ولذلك كنَّ يُحرمن من حق الميراث. فلما جاء الإسلام وضع حدًّا نهائيًا لهذه المظلمة الواقعة على النساء، فأنهى هذه العادة الجاهلية المقيتة، إذ يقول الله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١١٩٢]

وبذلك أصبح أول توزيع للميراث في الإسلام هو الذي جرى بين ورثة سعد بن الربيع رضي الله عنه.[١١٩٣]

١١٩١ ابن هشام: السيرة، ٣، ٥٢ – ٥٦؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٣٤ – ٣٤٠.

١١٩٢ النساء: ١١.

١١٩٣ أحمد: مسند، ٣، ٣٥٢، ٣٧٥.

لقد أُخذ بعين الاعتبار في قانون الميراث الإسلامي تحقيق توازن عادل بين حصص الميراث وبين الأعباء المادية للوارث. إذ أُعطي الذكر حصة إرثية أكثر من الأنثى لتحمله نفقات مالية أكثر منها، لأن الذكر هو المسؤول ماديًا تجاه عائلته؛ فهو الذي يدفع المهر عند الزواج، ويتحمل سائر تكاليف ونفقات مراسم واحتفالات الزواج، وهو المكلف بتأمين المسكن الشرعي للزوجة.

أي إن الفرق بين الذكر والأنثى في قانون الميراث الإسلامي مرتبط بالفرق في التكاليف والمسؤوليات، فقد تم تأسيس توازن دقيق بين هذين الأمرين، فالمرأة لم تُحمل في الإسلام مسؤولية تأمين الاحتياجات المالية والمادية للعائلة، بسبب تكليفها بمهام ثقيلة في الأسرة مثل تربية الأولاد، وتنظيم أمور العائلة الداخلية وذلك من أجل حماية النسل، ولهذا السبب فقد جعلت حصتها الإرثية إلى النصف مقارنة بالذكر، وقد أُعطيت هذه الحصة لتواجه بها ظروف الحياة في حال لم يُكتب لها الزواج، أو في حال طلاقها من زوجها، أو لتصرف منها على احتياجاتها الشخصية.

لقد أُعطيت المرأة ميزات خاصة بها من حيث طبيعتها الخلقية مثل عمق المشاعر، ورقة الأحاسيس، والشفقة، والرحمة، والحياء، والتضحية، وتربية الاطفال والمحافظة على النسل، وهي تتعرض أحيانًا لضعف بدني وروحي عندما تصطدم ببعض المفاجآت في ظروف الحياة المتشابكة والمعقدة بسبب نعومة بنيتها الجسدية، وقوة أحاسيسها وعواطفها، ومشاعر الرحمة والشفقة العالية لديها، ولهذا السبب كانت شهادة المرأة في الإسلام بنصف شهادة الرجل. وإن الذين يسوقون هذا الأمر كنقيصة يتهجّمون من خلالها على الإسلام إنما يقدمون على ما يقدمون عليه بسبب عدم إداركهم أو رؤيتهم للتكامل الموجود في هذه القاعدة المتولدة من الخصائص الفطرية والثابتة التي لا تتغير والتي يأخذها الإسلام بعين الاعتبار في وضع مبادئه وقواعده، وذلك إما نتيجة لجهلهم، أو لحقدهم الدفين على الإسلام.

الحقيقة هي أن الله سبحانه وتعالى خلق كل كائن وكل جزء في ذلك الكائن من أجل غاية معينة، وقد جهزه من الناحية المادية والروحية بقدرات تساعده على تحقيق تلك الغايات التي خُلق من أجلها، فالخالق تبارك وتعالى الذي خلق الذكر وأقامه على مهمة الكفاح في الحياة وتأمين متطلبات أهل بيته، قد جهزه أيضًا للإيفاء بهذه المهمة والقيام

بها على خير وجه، فجعله أكثر قوة من الناحية البدنية، وأكثر صلابة من الناحية العاطفية والروحية، وأما الأنثى فقد كُلفت بحفظ النسل، وتربية الأولاد والاهتمام والعناية بهم في أكثر لحظاتهم عجزًا وضعفًا، وحمايتهم، ولهذا السبب فإن وظيفتها لا تتطلب كثيرًا من القوة البدنية، وإنما تستوجب تجهيزها بمشاعر روحية وعاطفية أكثر عمقًا، وأحاسيس أكثر رهافة، ولأجل ذلك فقد أُعطيت المرأة إحساسًا في غاية الرقة والرهافة كموهبة إلهية وذلك من أجل احتضان الطفل في فترة عجزه الأولى وتربيته بمحبة ورحمة عميقة حتى يشتدّ عوده.

إن الأم التي هي منبع رحمة بالنظر إلى تكوينها العاطفي إذا ما حُملت بوظيفة خارجة عن الغاية التي خلقت من أجلها وفوق طاقتها فحتمًا سوف تظهر نتائج سلبية مضرة بالمجتمع والعائلة، حيث إن هناك احتمال قوي في مجال القضاء والعدالة أن تتأثر المرأة بحالة الجاني الظاهرية التي تدعو إلى الرحمة به فترأف به، وتنحرف بذلك عن تحقيق العدالة، وهذا من إحدى حِكم القرار الإلهي باعتبار شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل.

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام قد نظم مسألة الشهادة بناء على التكوين النفسي للإنسان، فوفقًا للموضع الذي تتطلب فيه الشهادة قد لا تُؤخذ شهادة الرجل بعين الاعتبار، بينما تُقبل شهادة المرأة كشهادة تامة، فمثلًا في المسائل الخاصة بالنساء التي لا يمكن للرجال الاطلاع عليها تُعد شهادة المرأة وحدها كافية فيها. [١١٩٤]

إن الذين يدّعون بأن مسألة الشهادة في الإسلام تُعتبر منقصة بحق المرأة، إما أنهم لا يفهمون أو لا يريدون أن يفهموا بأن الإسلام البريء من مثل هذا الاتهام عندما يؤسس توازنًا عادلًا بين الحقوق والواجبات فإنه يأخذ بعين الاعتبار كلًا من خصائص الإنسان الفطرية التي لا تتغير، وظروفَ وأحوال المجتمع بكافة جوانبها.

إن كمال الأنوثة يتحقق بالمحافظة على الميزات الجميلة التي أعطاها الله تعالى لها، إذ إن المرأة إذا ما وجهت الخصائص التي تتمتع بها بصورة مخالفة للمهام التي عينها الله تعالى وتجاهلت حقيقتها وطبيعتها، فإنها تخسر قيمة نفسها، وتقع فريسة التعاسة والاضطراب، فيأفل نجم العائلة، وتفسد الحياة الاجتماعية.

١١٩٤ مجلة الأحكام العدلية: المادة – ١٦٨٥.

لقد بدأ في عصرنا الحالي سباق محتدم نحو تحقيق مساواة مصطنعة وغير عادلة بين النساء والرجال، وإن هذا السباق الذي يأتي يضاد خصائص المرأة الخَلقية يعرّض مزايا الأنوثة والأمومة إلى الضعف ويورد العائلة موارد الضرر والتمزق. ولهذا السبب فإن حالات ووقائع الإجهاض التي تكاثرت بدرجة كبيرة في وقتنا الحاضر هي جريمة وأد البنات التي كانت سائدة في العصر الجاهلي لكن بنسخة عصرية، ولم يبق من فرقٍ بين المرأة المرهقة والمستهلكة في هذا العصر وبين المرأة في العصر الجاهلي سوى في المظهر الخارجي واللباس، وتُعد هذه الحالة نكبة اجتماعية جاءت بها التربية المادية الخالية من الروحانية.

السنة الرابعة للهجرة

وقعة الرجيع «٤ صفر/ تموز ٦٢٥»

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يرسل معلمين إلى القبائل المجاورة بهدف تبليغ وتعليم الإسلام للناس كافة. ولكن بعض هؤلاء المعلمين الذين أرسلهم النبي ﷺ تعرضوا للإهانة والإساءة، ومن أكبر هذه الإهانات والإساءات «وقعة الرجيع»:

وأصل قصّة الرجيع هذه، أن وفدًا من قبائل عضل والقارة، قدم على رسول الله ﷺ يطلبون منه رجالًا يعلمونهم دين الإسلام، ويقرؤونهم القرآن، فأرسل النبي ﷺ معهم عشرة من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

فانطلق الجميع حتى إذا كانوا في مكان يقال له الهدة بين عسفان ومكة قريبًا من مياه الرجيع لقبيلة هذيل فأقاموا هناك. فذهب عبدٌ لقبيلة هذيل إلى بني لحيان وأخبرهم بمجيء الدعاة والمعلمين المسلمين إلى ذاك الموقع، فتبعهم بنو لحيان بقريب من مائة رام، فلما أدرك عاصم وأصحابه بأنهم مُدركون من قبل بني لحيان لجؤوا إلى مكان مرتفع يقال له فدفد لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا:

- لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا!

فقال عاصم:

- أمَّا أنا فلا أنزل في ذمّة كافر!

ثم بعد ذلك دعا قائلًا:

- اللهم أخبر عنا نبيك! وبعدها رماهم الأعداء بالسهام حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر من أصحابه.

ولما أصيب عاصم بن ثابت رضي الله عنه دعا ربه قائلًا:

- اللهم حميت دينك أول نهاري، فاحم لي لحمي آخره!

ولما سمع بعض وجهاء قريش بخبر استشهاده بعثوا رجلًا إلى عاصم ليأتي بشيء من جسده يعرفونه به، إذ كان عاصم قد قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عز وجل

عليه مثل الظلة من الدبر، فحمته منه، إذ لم يدن إليه أحد إلا لدغت وجهه، فلم يقدروا منه على شيء.[١١٩٥]

فلما حالت الدبر بينه وبينهم، قالوا: دعوه إلى الليل فتذهب عنه، فنأخذه. إلا أنهم فوجئوا بما لم يكن في الحسبان، إذ أنزل الله مطرًا غزيرًا ملأ الوادي سيلًا جارفًا، فاحتمل السيل جسد عاصم وذهب به، ولم يتمكن العدو من الحصول على أي جزء من جثمانه الطاهر، وبعد هذه الحادثة صار عاصم ﵁ يُذكر باسم «الشهيد الذي حمته الدبر»[١١٩٦]

وبقي الآخرون الثلاثة، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما:

- هذا أول الغدر، والله لن أستسلم لكم أبدًا، وإن هؤلاء الشهداء خير قدوة لي! فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ليرتقي شهيدًا في سبيل الله تعالى.

ولم يبق من هؤلاء الصحابة العشرة سوى اثنان، هما: خبيب وزيد ﵄. وانطلق المشركون بهما حتى باعوهما بمكة. فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، والذي قتله خبيب يوم بدر. فمكث عندهم أسيرًا حتى اليوم الذي أجمعوا فيه على قتله.

تقول إحدى نساء البيت الذي أسر فيه خبيب ﵁:

- والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، والله لقد اطلعت عليه من صير الباب وإنه لفي الحديد ما أعلم في مكة حبة عنب تؤكل وإن في يده لقطف عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما هو إلا رزق رزقه الله، وكان خبيب يتهجد بالقرآن، وكان يسمعه النساء فيبكين ويرققن عليه، فقلت له:

- يا خبيب هل لك من حاجة؟

قال:

- لا! إلا أن تسقيني العذب، ولا تطعميني ما ذبح على النصب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي!

١١٩٥ البخاري: الجهاد، ١٧٠، المغازي، ١٠، ٢٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٥٤ - ٣٦٣.

١١٩٦ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٦٣.

فلما انسلخت الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته فأخبرته، فوالله ما رأيته اكترث لذلك، فلما ذهب به أبناء الحارث خارج منطقة الحرم من أجل قتله، قال لهم خبيب:

- هل أنتم تاركيَّ فأصلي ركعتين؟ قالوا: نعم.

فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطول فيهما، ثم قال:

- أما والله لولا أن تروا أني جزعت من الموت لاستكثرت من الصلاة.

وبذلك كان أول من سن الركعتين عند القتل خبيب رضي الله عنه.

ثم بعد ذلك دعا خبيب رضي الله عنه قائلًا:

- اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا! ثم أخذ ينشد هذه الأبيات:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمـًا......على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك فـي ذات الإله وإن يشأ......يبارك علـى أوصال شلو ممزّع

ثم بعد ذلك أخذ خبيب رضي الله عنه يتضرع إلى الله تبارك وتعالى داعيًا:

- اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عني، فبلغه أنت عني السلام.

وفي غمرة تلك المواقف والأحداث كان رسول الله عليه الصلاة والسلام جالسًا في المدينة مع أصحابه الكرام، فأخذته غمية كما كان يأخذه إذا أُنزل عليه الوحي، ثم قال:

- وعليه السلام ورحمة الله!

فعَلَت الحيرة والدهشة على وجوه الصحابة، وقالوا:

- يا رسول الله! على من رددت السلام؟

فقال رسول الله ﷺ:

- **هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام!**

وبذلك أعلم رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه الكرام بنبأ استشهاد صاحبه خبيب رضي الله عنه في لحظة استشهاده.[١١٩٧]

لما علق المشركون خبيبًا على الخشبة من أجل قتله جعلوا يسألونه:

- أتحب أن محمدًا في مكانك وأنت جالس في بيتك؟

١١٩٧ البخاري: الجهاد، ١٧٠، المغازي، ١٠، ٢٨؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٥٤ – ٣٦٣.

فأجاب خبيب ﵁ على الفور ودون تفكير صارخـًا في وجههم بكل شجاعة:

- والله ما أحب أن يشاكّ محمد بشوكة وأنا جالس في بيتي!

فقال أبو سفيان الذي اندهش من إجابته:

- لا، ما رأينا أصحاب رجل قط أشد له حبـًا من أصحاب محمد لمحمد.[١١٩٨]

ولما علق المشركون خبيبـًا ﵁ على الخشبة جعلوا وجهه ناحية المدينة المنورة، فقال:

- اللهم إن كان ما عملته خيرًا عندك فاجعل وجهي إلى القبلة!، فحول الله وجهه إلى القبلة، وحاول المشركون جاهدين أن يحولوا وجهه عن القبلة إلى جهة أخرى فلم يفلحوا، وقد نزل بحق هذا الصحابي الجليل قول الله تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١١٩٩]

وإن زيدًا ﵁ الذي استشهد بعد خبيب ﵁ كان على ذات القوة والمتانة الإيمانية، حيث كان يتهجد في الليل، ويصوم النهار، ولم يكن يأكل ما ذبح للأصنام، ولذلك فقد كان يفضل شرب اللبن، إذ يصوم على اللبن ويفطر باللبن، ولما خرج به المشركون إلى التنعيم من أجل قتله التقى بخبيب ﵁، ومع كل منهما فئام من الناس، فالتزم كل منهما صاحبه وأوصى كل واحد منهما صاحبه بالصبر على ما أصابه، ثم افترقا، وصلى زيد أيضـًا ركعتين.

ولما سئل زيد:

- أيسرك أن محمدًا في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟ أجابهم بما أجاب به خبيب ﵁.[١٢٠٠]

ولما طلب منه المشركون الارتداد عن الإسلام مقابل إطلاق سراحه والعفو عنه، قال:

- أن أموت مسلمـًا خير ألف مرة من أعيش مرتدًا عن ديني! فتذوق لذة الشهادة بوقار المؤمن الصادق ﵁ وأرضاه.

١١٩٨ الواقدي: المغازي، ١، ٣٦٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٥٦.

١١٩٩ الفجر: ٢٧ – ٣٠. القرطبي: ٢٠، ٥٨؛ الآلوسي: ٣٠، ١٣٣.

١٢٠٠ الواقدي: المغازي، ١، ٣٦١ – ٣٦٢.

لقد عبر عاشق النبي عليه الصلاة والسلام يونس أمره الذي أدرك هذه اللذة الإيمانية، عبر بأبيات من الشعر عن رغبته في نيل الشفاعة العظمى يوم القيامة من خلال بذل روحه في سبيل الله تعالى ورسوله الكريم، حيث قال:

روحي فداء في سبيلك، يا محمد يا صاحب الاسم الجميل! والوجه الجميل!

تعال واشفع لخادمك المطيع، يا محمد! يا صاحب الاسم الجميل والوجه الجميل!

موقعة بئر معونة

لقد كانت هذه الموقعة في أيام موقعة الرجيع ذاتها، حيث قدم أبو براء وهو أحد وجهاء منطقة نجد إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يرسل دعاة إلى قبيلته من أجل دعوتهم إلى الإسلام، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أحجم عن الاستجابة لطلبه هذا، حتى إنه لم يقبل الهدايا التي جلبها معه أبو براء، وقال له: إني أخاف عليهم أهل نجد!

فطمأن أبو براء رسول الله عليه الصلاة والسلام على الدعاة وتعهد له بأخذهم في جواره، فاستكتب رسول الله ﷺ كتابـًا إضافيـًا باسم أبي براء إلى ابن أخيه عامر بن الطفيل الذي يحكم قبائل نجد، ثم جهز وفدًا من الدعاة يتألف من سبعين شخصـًا اُختيروا من قراء أهل الصفة، وأرسلهم مع أبي براء.

فلما وصلت قافلة المعلمين الدعاة إلى موقع بئر معونة والذي يبعد عن المدينة مسافة أربعة ليال تعرضوا إلى خيانة ومأساة رهيبة، إذ باغتهم عامر بن الطفيل ابن أخ أبي البراء وهجم عليهم بجيش جرار، حتى إنه لم يقرأ كتاب رسول الله ﷺ الذي وصل إليه، فلما امتنعت قبيلته عن الانضمام إليه وقتال المسلمين إلى جانبه بسبب جوار أبي براء لهم، أقنع قبائل عُصيَّة ورِعل وذَكوان وبني لحيان، وفتكوا بالمسلمين جميعـًا، ولم ينج منهم سوى عمرو بن أمية.[١٢٠١]

يروي جبار بن سلمى الذي كان من بين الغادرين بالمسلمين في هذا اليوم المفجع، يروي الحادثة الآتية، حيث يقول:

«إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم وهو عامر بن فهيرة رضي الله عنه يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت والله! فقلت

١٢٠١ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٨٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ١٢٥ – ١٣٠.

في نفسي: ما فاز، ألستُ قد قتلت الرجل؟ ثم رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه»[١٢٠٢]

جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فأخبره الدعاة الذين أرسلهم قد استشهدوا ولقوا ربهم، فرضي عنهم وأرضاهم.[١٢٠٣]

لقد تأثر النبي عليه الصلاة والسلام تأثرًا شديدًا تجاه هذه الأحداث الأليمة، وانتابته مشاعر من القلق والاضطراب، ففتح يديه المباركتين إلى السماء، وقال:

«اللهم! العن بني لحيان ورعلًا وذكوان وعصية عصوا الله ورسوله....»

وظل النبي عليه الصلاة والسلام مدة شهر يقنت في صلاة الفجر بالدعاء عليهم.[١٢٠٤]

لقد ذرف المؤمنون دموع الحزن والأسى على أصحابهم. وأما المنافقون واليهود فقد سكروا بمشاعر الفرح التي انتابتهم جراء المصائب التي لقيها المسلمون، إذ إنهم كانوا مسرورين من الأحداث التي جرت على المسلمين منذ يوم أحد. وبالإضافة إلى ذلك فقد أخرجوا أحقادهم الدفينة التي لم يجرؤوا على إظهارها في أحد دفعة واحدة، وسرعوا من وتيرة دعاياتهم التي تنم عن الخيانة والغدر تجاه المسلمين، وبدؤوا عند الخروج إلى المعارك يظهرون أنفسهم بمظهر أهل الخبرة والدراية بالأمور مخفين بذلك خيانتهم وغدرهم، ويقولون للمسلمين الذين يقدمون المزيد من الشهداء:

- لو أن أولئك القتلى أطاعونا لما ماتوا.

فجاء الرد الإلهي عليهم قاسيًا يحمل تهديدًا شديدًا لهم، حيث قال الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٢٠٥]

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ...﴾[١٢٠٦]

١٢٠٢ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٨٧؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٤٩.

١٢٠٣ البخاري: الجهاد، ٩.

١٢٠٤ البخاري: الجهاد، ٩، ١٩، المغازي، ٢٨؛ مسلم: المساجد، ٣٠٧/ ٦٧٩، فضائل الصحابة، ١٨٦/ ٢٥١٧.

١٢٠٥ آل عمران: ١٦٨.

١٢٠٦ آل عمران: ١٤٥.

يقول أنس ﷺ:

«ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة، كانوا يدعون القراء، فمكث شهرا يدعو على قتلتهم» [١٢٠٧]

وذلك لأن جميع شهداء موقعة بئر معونة كانوا من أهل الصفة، والذين تربّوا روحيًا على يد رسول الله ﷺ، وكانوا من حملة القرآن الكريم والسنة المطهرة.

إن الأحداث التي جرت في وقعتي الرجيع وبئر معونة تظهر مدى أهمية وظيفة التبليغ والإرشاد عند المؤمنين، وتؤكد بأنها واجب حياتي لا بد من القيام به، إذ اختار الرسول عليه الصلاة والسلام خيرة أصحابه من القراء وحفظة القرآن وأرسلهم دعاة ومعلمين للدين الإسلامي آخذًا بعين الاعتبار مختلف المخاطر التي قد يتعرضون لها في مهمته هذه، وقد أثنى الله تعالى على هؤلاء المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل هذه الوظيفة المقدسة، وبين ﷻ أنه ﷺ، وأنهم أيضًا رضوا عن ربهم سبحانه وتعالى.[١٢٠٨]

خطة بني النضير الخائنة

لقد نجا عمرو بن أمية من وقعة بئر معونة، وفي طريق عودته إلى المدينة التقى برجلين ينتميان إلى القبيلة التي هاجمتهم وقتلت أصحابه، فانقضّ عليهما أثناء نومهما وقتلهما، ولكن تبين أنهما كانا بجوار رسول الله عليه الصلاة والسلام وعائدين من زيارتهما إلى المدينة المنورة، ولذلك كان من الواجب دفع دية القتيلين، ولما كان يتوجب على بني النضير دفع نصف الدية مع المسلمين بمقتضى معاهدة سابقة بينهم وبين المسلمين، فقد توجه رسول الله عليه الصلاة والسلام على رأس وفد من أصحابه إلى ديارهم.

ولما رأى يهود بني النضير قلة عدد أصحاب رسول الله ﷺ المرافقين له في ذلك الوفد، اعتبروا أن هذه فرصة لن تتكرر ثانية من أجل القضاء على النبي ﷺ، وبدؤوا برسم خطة من أجل اغتياله، فتظاهروا بأنهم سوف يدفعون الحصة المتوجبة عليهم من الدية بكل طيب خاطر، ودعوا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجلوس في ظل عريش إحدى دورهم ريثما يجهزوا المال المطلوب منهم، وسارعوا في هذه الأثناء على تنفيذ ما خططوا له

١٢٠٧ مسلم: المساجد، ٣٠٢/ ٦٧٧.

١٢٠٨ انظر: البخاري: المغازي، ٢٨، الجهاد، ٩؛ مسلم: المساجد، ٢٩٧.

سابقـًا متظاهرين أيضـًا بأنهم يقومون بتحضير واجب الضيافة للرسول ﷺ وأصحابه الذين معه، وقرروا أن يرموا بحجرة كبيرة على رسول الله ﷺ من سطح البيت الذي يستظل تحته فتؤدي إلى إزهاق روحه الطاهرة، لقد كان هؤلاء القوم أصحاب تجربة في ارتكاب مثل هذه الجرائم البشعة بحق بعض أنبياء الله السابقين.

وفي هذه الأثناء نهض رسول الله ﷺ على عجلٍ من المكان الذي يجلس فيه واتجه بعيدًا، لأن الله تعالى قد أعلمه بالأمر الذي سيقدم عليه هؤلاء المجرمون، ويذكر الله تعالى المؤمنين بالمكرمة التي أكرمهم بها والتي تجسدت بحماية رسول الله ﷺ، والمحافظة على سلامته، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١٢٠٩

إن استخدام الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة عبارة «**يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**» مخاطبـًا المؤمنين جميعـًا على الرغم من أن خطة الاغتيال كانت موجهة إلى النبي ﷺ وليس أصحابه الذين معه مبني على حقيقة أن حياة الرسول ﷺ هي بمثابة حياة وروح المؤمنين جميعـًا، لا بل أهم وأكثر قيمة. يقول الله ﷻ عن خطة الاغتيال هذه:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ١٢١٠

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢١١

وبناءً على ذلك بعث النبي ﷺ إلى بني النضير رسولًا يخبرهم بضرورة تجديد المعاهدة التي بينهم، ويحذرهم إن لم يفعلوا فعليهم الجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام، إلا أن المنافقين لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه هذه الوقائع، فأرسلوا سرًا إلى بني النضير الذين كانوا يتحضرون لترك المدينة يحرضونهم على عدم الخروج من المدينة، ويعدونهم إن

١٢٠٩ المائدة: ١١.

١٢١٠ الأنفال: ٥٨.

١٢١١ الانفال: ٦١ – ٦٢.

تطلب الأمر بتقديم عون ومساعدة عظيمة، وقد فضح الله تعالى هذه المراسلة السرية بين المنافقين ويهود بني النضير في القرآن الكريم، حيث قال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [١٢١٢]

فلما أحس اليهود الذين اطمأنوا إلى وعود وتحريض المنافقين المخادعين بالأمن والقوة أعلنوا العصيان في وجه رسول الله ﷺ، ولكن لم يكن المنافقون ليوفوا بوعدوهم أبدًا. ويصور الله ﷻ حال المنافقين بقوله:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[١٢١٣]

وذلك لأن المنافقين مهما حفروا حفر الفتنة والفساد سرًا من وراء المؤمنين، فإنهم كانوا يهابون ويخشون من المؤمنين خشية عظيمة، يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة، إذ يقول:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [١٢١٤]

ولما بالغ بنو النضير في تجاوز حدودهم إلى درجة كبيرة، ورأى النبي ﷺ أن جميع المحاولات السلمية لم تثمر معهم، لم يجد بُدًّا من محاصرتهم في ديارهم، فضرب حولهم حصارًا مطبقـًا، وفي هذه الأثناء نقضت قبيلة بني قريظة أيضـًا المعاهدة الموقعة مع المسلمين وأعلنوا وقوفهم بجانب يهود بني النضير. [١٢١٥]

رأى النبي ﷺ أن اليهود يصعدون فوق البيوت ويتوارون خلف الأبواب وإذا ما خسروا الحرب التي يخوضونها مع المسلمين فإنهم سوف يتسترون بهذه البيوت، وبناءً على ذلك أمر عليه الصلاة والسلام بهدم بيوت اليهود واحدًا تلو الآخر ابتداءً بأقربها إليه، وبقطع وحرق بعض أشجار النخيل، فصاح اليهود:

١٢١٢ الحشر: ١١.

١٢١٣ الحشر: ١٢.

١٢١٤ الحشر: ١٣.

١٢١٥ البخاري: المغازي، ١٤.

– يا محمد! أما كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على المفسدين، فما لك الآن تقطع الأشجار وتحرقها؟! لقد أثر كلام اليهود على بعض المسلمين وأخذوا بالتردد في الإقدام على هذا العمل وأحاط بهم القلق بهذا الشأن. فأنزل الله تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [١٢١٦]

فزال بذلك قلق المؤمنين وترددهم.[١٢١٧]

وبعد مرور عشرين يومـًا على الحصار استسلمت قبيلة بني النضير نتيجة للتكتيك العسكري المحكم والمتكامل الذي اتبعه الرسول ﷺ من جهة، وعدم مجيء الدعم والإسناد الذي وعدهم به المنافقون وخذلانهم لهم من جهة أخرى، فقام النبي ﷺ بنفي بني النضير عن المدينة المنورة، وأما بنو قريظة فأبقاهم في ديارهم بسبب قبولهم الدخول في معاهدة جديدة مع المسلمين، وكان هذا إحسانـًا إليهم من رسول الله ﷺ.[١٢١٨]

قام بنو النضير قبل خروجهم من منازلهم بهدم بيوتهم التي بقيت سليمة بأيديهم لكيلا يدعوها للمسلمين، ومن ثم توجه قسم منهم إلى خيبر، وأما القسم الآخر فهاجر ناحية الشام.[١٢١٩]

يبين الله تعالى النصر والعون الذي أيد المؤمنين بهما في هذه الغزوة بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٢٢٠]

وقد أطلق على الأموال التي تركها بنو النضير وراءهم اسم «الفيء» لأنه تم الحصول عليها من غير قتال، ووضع للفيء حكم مختلف عن حكم الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها بالقتال والحرب، حيث قال الله تعالى:

١٢١٦ الحشر: ٥.

١٢١٧ البخاري: التفسير، ٥٩ / ٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٩٢.

١٢١٨ البخاري: المغازي، ١٤؛ مسلم: الجهاد، ٦٢.

١٢١٩ ابن هشام: السيرة، ٣، ١٩١ – ١٩٤؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٦٣ – ٣٨٠.

١٢٢٠ الحشر: ٢.

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [١٢٢١]

إن نصيب الفيء الذي يُخرج لله تعالى وفق الآية الكريمة يُستخدم من أجل عمارة الكعبة وغيرها من المساجد الأخرى، وأما النبي عليه الصلام والسلام فقد قسم نصيبه من الفيء بين الفقراء والمحتاجين من أصحابه، وإن الحكمة التي تكمن وراء تقسيم الفيء على هذا النحو هي كما بينتها الآية الكريمة آنفًا؛ لكي لا تتجمع الأموال والثروات في أيدي أناس محددين، والحيلولة دون تداولها بينهم فقط دون الآخرين، لأن مبدأ الإسلام في الشؤون المالية هو مساعدة الناس بعضهم بعضًا، وإفادة الفقراء والضعفاء والمحتاجين من الأموال التي بيد الأغنياء، وبذلك يتشكل مجتمع عادل تتقارب طبقاته المختلفة من بعضها البعض، وتنتفي في هذا المجتمع الزمرة المتحكمة التي تستغل الآخرين.

ولهذا السبب فقد قسم رسول الله ﷺ الأموال التي غنمها من بني النضير على المهاجرين، ولم يعط منها شيئًا للأنصار سوى لثلاثة محتاجين منهم، وقبل تقسيم الغنائم خاطب النبي ﷺ الأنصار قائلًا:

«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، وإن شئتم كانت لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم»

فقال الأنصار رضي الله عنهم: لا، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا، ولا نشاركهم في الغنيمة.

وعقب هذا المشهد المنقطع النظير من الأخوة الإيمانية الصادقة الذي قدمه الأنصار نزلت الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ [١٢٢٢]

١٢٢١ الحشر: ٧ – ٨.

١٢٢٢ الحشر: ٩. الرازي: ٢٩، ٢٥٠؛ القرطبي: ١٨، ٢٥.

تحريم الخمر والميسر

من المعروف أنه لم ترد أحكام بشأن الخمر والميسر في السنوات الأولى للإسلام، وتم تأخير وضع الأحكام المتعلقة بهاتين المسألتين لاعتبارات خاصة، وقد مر تحريم الخمر بمراحل عدة حتى وصل إلى الحظر القطعي والنهائي، وفقـًا لتدرج الأحكام، وهذه المراحل هي:

١. في مكة:

نزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١٢٢٣]

لقد بينت هذه الآية الكريمة أنه كما تُستخرج من النخيل والأعناب أطعمة طيبة وزكية، فإنه في الوقت نفسه تُستخرج منها مواد مسكرة للعقول أيضـًا، وبذلك فقد أشارت الآية بشكل غير مباشر إلى أن هذه المواد المسكرة لا تُعد أشربة وأطعمة طيبة ومقبولة للمؤمنين، وأوحت بصورة ضمنية أنها سوف تحرم في المستقبل، ولم تنزل في الفترة المكية بشأن الخمر آية أخرى غير هذه.

٢. وبعدما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، ونتيجة لأسئلة الناس المتكررة، أنزل الله تعالى الآية الكريمة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ...﴾ [١٢٢٤]

وبعد نزول هذه الآية الكريمة ترك أغلب المسلمين شرب الخمر، وتابع البعض الآخر الشرب لعدم ورود التحريم بشأنها.

٣. بينما كان أحد الصحابة الكرام يقرأ في صلاة المغرب ارتكب خطـًا فاحشـًا في التلاوة وصل إلى درجة إفساد معنى الآية القرآنية، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [١٢٢٥]

١٢٢٣ النحل: ٦٧.

١٢٢٤ البقرة: ٢١٩.

١٢٢٥ النساء: ٤٣.

وبعد هذه الحادثة تناقص عدد شاربي الخمر بين المسلمين بشكل كبير، وكان منادي الرسول ﷺ في أوقات إقامة الصلاة ينادي في الناس:

«ألا يقربن الصلاة سكران!». فعلم المسلمون أن الخمر سوف تُحرم تحريمًا قطعيًا، وباتوا مستعدين لتلقي مثل هذا الحكم.

٤. وفي نهاية الأمر كان القسم الأعظم من المسلمين قد ترك شرب الخمر، وأما القسم الباقي فقد كان في حالة قلق واضطراب بسبب المواقف المحرجة التي تعترضهم نتيجة شرب الخمر، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدعو قائلًا:

«اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانـًا شافيـًا»

وذات يوم حصل نزاع شديد بين الصحابة بعد دعوة طعام وشرب للخمر، وظهرت بشكل جلي وملموس مساوئ الخمر، فتشكلت بذلك أرضية مناسبة من أجل تحريم الخمر دون أن يُحدث ذلك اضطرابـًا أو مفاجأة للمسلمين، وكانت هذه الحالة سببـًا لنزول التحريم الإلهي بشأن الخمر، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [١٢٢٦]

لما نزلت هذه الآية دعا النبي عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ عليه فلما بلغ: **﴿فهل أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾** قال عمر رضي الله عنه:

– انتهينا! انتهينا يا رب! لم يكن عمر رضي الله عنه هو الوحيد، وإنما جميع المسلمين كانوا يقولون:

– يا رب! انتهينا عن الخمر والميسر.

ولما نزلت آيات التحريم هذه خرج منادٍ بأمر الرسول ﷺ وجعل ينادي في الناس:

– حرمت الخمر!

وصار الناس يكسرون جرار الخمر ويريقونها حتى سالت في شوارع المدينة!

١٢٢٦ المائدة: ٩٠ – ٩١.

وبعد آيات التحريم هذه أتلف المسلمون كل الخمور التي كانت بين أيديهم، ولم يعودوا إلى الشرب بعد ذلك، فعن ابن عباس ﵄، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**أتاني جبريل، فقال: يا محمد، إن الله ﷻ لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومستقيها**»[١٢٢٧]

يقول أنس ﵁:

«كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ مناديا ينادي: «**ألا إن الخمر قد حرمت**» قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج، فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة» [١٢٢٨]

إن هذه الحادثة خير مثال على حرص الصحابة الكرام على إطاعة أوامر الله ﷻ، إذ سارعوا إلى إهراق ما بين أيديهم من الخمر وكسر جرارها التي في بيوتهم دون إبداء أي اعتراض أو سَوق أعذار، وحتى دون انتظار من يأمرهم بذلك، وكانوا يتسابقون إلى نيل رضا الله تعالى بإظهار التسليم التام لهذا الأمر الإلهي، وإطاعته بكل إخلاص وخضوع.

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«**كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام**» [١٢٢٩]

«**...من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها بالخمر**» [١٢٣٠]

«**يشرب ناس من أمتي الخمر، باسم يسمونها إياه**» [١٢٣١]

إن اتباع مبدأ التدرج في تحريم الخمر والميسر وفقًا لما تقتضيه المصلحة يؤسس في الإسلام لقاعدة أصيلة في المنهج المتبع في مجال التبليغ والإرشاد، والنهي عن المنكرات، إن الله سبحانه وتعالى على الرغم من أنه صاحب العلم الأزلي والكلي إلا أنه مع ذلك أخذ بعين الاعتبار لدى تشريع وتثبيت الأحكام الإسلامية طاقات وقدرات المخاطبين، وطبيعة التدرج في التكيف مع هذه الأحكام، وإن أهم مظهر لهذا الأمر هو نزول الآيات المتعلقة

١٢٢٧ أحمد: مسند، ١، ٥٣، ٢، ٣٥١/ ٢٨٩٧؛ النسائي: الأشربة، ١ – ٢؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٣٠٥/ ٣١٠١.

١٢٢٨ البخاري: التفسير، ٥، ١١/ ٤٦٢٠

١٢٢٩ ابن ماجه: الأشربة، ١٠/ ٣٣٩٢؛ النسائي: الأشربة، ٢٤، ٤٨/ ٥٥٨٢.

١٢٣٠ الترمذي: الادب، ٤٣ / ٢٨٠١.

١٢٣١ ابن ماجه: الأشربة، ٨/ ٣٣٨٥؛ أبو داود: الأشربة، ٦/ ٣٦٨٨.

بمسائل الاعتقاد، إذ إنها نزلت في الفترة المكية وقبل الآيات الأخرى بصورة معاكسة للترتيب الموجود في القرآن الكريم في وقتنا الحالي، وإذا ما علمنا أن القرآن الكريم كان موجودًا في اللوح المحفوظ قبل البدء بنزوله ندرك بشكل يسير أن التأخير والتقديم هنا في ترتيب نزوله كان وليد المصلحة.

إن المصلحة هنا هي عبارة عن مراعاة استعدادت البشر وقدراتهم والتطور أو النمو الذي يطرأ عليها في مجال اتباعهم القرآن الكريم، تمامًا مثل التكاليف التي تترتب على الصغير حيث تزداد كلما تقدم في السن...

إن مبدأ التدرج الذي طُبق بشكله الأمثل والأكمل في عصر السعادة هو سنة من سنن الله تعالى البالغة الحكمة والتي تمثل أبهى مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية بالعباد، كما إن هذه السنة الإلهية منهج صالح لكل زمان في مجال تبليغ الإسلام، فإنها أيضًا أصل في غاية التوافق مع خصائص واقع الإنسان وطبيعته البشرية، إذ إن أول مدخل للإنسان إلى الإسلام يكون بصورة تصحيح معتقداته، فإذا ما استوعب العقائد واستقامت في عقله وقلبه، يتم الانتقال إلى الأعمال، وتتم مراعاة مبدأ التدرج في مجال تنفيذ الأعمال والوفاء بها حسب قدرة الإنسان وطاقته، إن هذا المبدأ أو الحالة ليست محصورة فقط في مجال تبليغ الإسلام، وإنما هي صالحة للتطبيق في شتى ساحات التوجيه والتعليم البشري، ولهذا السبب فإلى جانب بقاء الأحكام أو القواعد الاعتقادية ثابتة دون تغيير في التبليغ الإلهي الذي ابتدأه الله تعالى بآدم عليه السلام، فإن القواعد الاجتماعية التي اتبعتها المجتمعات الإنسانية كانت تتغير وتتكامل بشكل موازٍ لسير تطور تلك المجتمعات حتى وصل هذا التكامل إلى مرحلة الكمال في الإسلام، إن هذه الكيفية تظهر مدى أهمية منهج أخذ طبيعة الإنسان وقدراته بعين الاعتبار في شتى ميادين الحياة.

ذات الرقاع[١٢٣٢] «٥ محرم / حزيران ٦٢٦»

اجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من قبيلة غطفان على قتال المسلمين وأخذوا يعدون العدة من أجل الهجوم عليهم، وبناءً على ذلك جهز النبي عليه الصلاة والسلام جيشًا مؤلفًا من أربعمائة مجاهد وسار إليهم.

١٢٣٢ يروى أيضًا أن هذه الغزوة وقعت بعد غزوة الخندق أو خيبر. إلا أننا أوردناها هنا اتباعًا لما ذهب إليه جمهور علماء السيرة.

فلما رأى المشركون جيش المؤمنين في مواجهتهم دخل الخوف والفزع قلوبهم ولاذوا بالفرار منسحبين، وبعد مدة من الوقت دخل وقت الظهيرة فأدى المسلمون صلاة الظهر، كان العدو يراقبهم من بعيد وهم يؤدون الصلاة، وندموا على عدم استغلال لحظات انشغال المؤمنين بالصلاة وأخذهم على حين غرة، فقال أحدهم:

– لا تحزنوا! إن لهؤلاء صلاةً هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، هي العصر، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وأخذوا ينتظرون المسلمين.

وفي هذه الأثناء أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام آتيًا بالأمر الإلهي الذي أفشل خطة العدو، حيث أنزل على رسوله ﷺ الآية الآتية:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ...﴾ [١٢٣٣]

وأطلق على الصلاة التي أقيمت بهذا الشكل اسم «صلاة الخوف»[١٢٣٤]

وبين جبريل عليه السلام كيفية أداء هذه الصلاة. وأُقيمت صلاة العصر في ذلك اليوم بهذه الكيفية، وذهب انتظار المشركين وتحينهم الفرصة المناسبة للانقضاض على المسلمين

١٢٣٣ النساء: ١٠٢. الترمذي: التفسير، ٤/ ٣٠٣٥.

١٢٣٤ صلاة الخوف: هي صلاة الفرض التي تقام بتقسيم الجماعة إلى قسمين حيث يتناوب كل قسم على أدائها خلف الإمام وذلك في حالات الخطر المحدق مثل خشية مهاجمة العدو على صفوف المسلمين. ففي الصلاة ذات الركعتين تفارق الجماعة الأولى بمفارقة الإمام بعد السجد الثانية من الركعة الأولى، وأما في الصلاة الرباعية فتفارق الجماعة الأولى الإمام بعد انتهاء جلسة التشهد الأولى، وتلتحق بمهمتها في الترصد والحراسة. ثم تأتي الجماعة الثانية فتكمل مع بالإمام الركعات الباقية من الصلاة وتعود إلى مهمتها. ويقوم الإمام وحده بالتسليم من الصلاة. ثم بعد ذلك تكمل الجماعتان صلاتها بالتناوب بأن تصلي الجماعة الأولى الركعات الباقية من غير قراءة باعتبارها كانت بحكم «اللاحق»، وتؤدي الجماعة الثانية الركعات الباقية مع القراءة باعتبارها بحكم «المسبوق». وبذلك يكون المسلمون قد أقاموا صلاتهم جماعة، وفي نفس الوقت لم يغفلوا أو يقصروا في أداء مهمتهم. (لجنة. الفقه الشرعي، ١، ٣٣٤؛ حمدي دوندوران: الفقه الإسلامي وأدلته، ص، ٣٧٧ – ٣٧٨)

هباءً. وبعد مضي خمسة عشر يومًا على الخروج في هذه الغزوة، انتهت الغزوة بتراجع العدو وانسحابهم بسبب الرعب الذي دخل إلى قلوبهم.[١٢٣٥]

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

«خرجنا مع النبي ﷺ في غزوة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا»

ويقول أبو بردة الذي نقل هذه الرواية: حدث أبو موسى بهذا، ثم كره ذاك، قال:

ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه. [١٢٣٦]

إن الفقر وقلة الإمكانات لم تكن لتشكل عائقًا أمام أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم تكن لتمنعهم من القيام بالواجبات الملقاة على عاتقهم، ومن الجهاد في سبيل الله، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانوا حريصين أشد الحرص على إبقاء أعمالهم الصالحة سرًا، وعلى عدم إفشاء المعاناة والعذابات التي مروا بها في سبيل طاعة الله تعالى، ولم يكن الصحابة الكرام يذكرون ما قاموا به من الأعمال والتضحيات إلا بهدف تحقيق غاية ما، كأن تكون تلك التضحيات مثلًا لغيرهم تشجعهم على السير في السبيل نفسها، أو من أجل مواساة من يتعرضون للشدائد والمصائب.

أثناء هذه الغزوة كان النبي ﷺ قد طلب ذات مرة ماءً من أجل الوضوء، إلا أنه لم يكن لدى أحد من الصحابة ماء يقدموه له، فوضع النبي ﷺ يده الشريفة في إناء كان بأسفله قليل من الماء فصار الماء يتدفق من بين أصابعه المباركة لتشكل معجزة من المعجزات التي أيده الله تعالى بها. فارتوى جميع من كان في الجيش من هذا الماء الذي نبع بين أصابع رسول الله ﷺ. ولما أخرج النبي ﷺ يده من الإناء كان ما يزال ممتلئًا عن آخره.[١٢٣٧]

وفي طريق العودة من غزوة ذات الرقاع مرّ جيش المسلمين بواد ذي أشجار، فأعطى النبي ﷺ للجيش مهلة من أجل الاستراحة من وعثاء السفر، فتفرق المجاهدون بين الأشجار طلبًا للراحة تحت ظلالها، وأما النبي ﷺ فقد لجأ إلى ظلّ شجرة كثيفة الأوراق

١٢٣٥ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢١٤ – ٢٢١؛ ابت سعد: ٢، ٦١.

١٢٣٦ البخاري: المغازي، ٣١/ ٤١٢٨.

١٢٣٧ البخاري: الوضوء، ٣٢، المناقب، ٢٥؛ مسلم: الفضائل، ٥.

تُسمى «سمرة» لكي يستريح هو أيضـًا، وعلق سيفه على أحد أغصان تلك الشجرة. وما إن نام الصحابة الكرام لبعض الوقت حتى سمعوا صوت رسول الله ﷺ يناديهم، فأسرعوا إلى تلبية ندائه وتجمعوا بين يديه، فرأوا عند النبي ﷺ رجلًا من الأعراب، فقال رسول الله ﷺ:

«إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، مخترط صلتـًا، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه ثم قعد، فهو هذا» [١٢٣٨]

ولم يعاقب رسول الله ﷺ هذا الأعرابي الذي كان يريد قتله، وإنما على العكس من ذلك أحسن إليه ودعاه إلى الإسلام، ولما عاد هذا الأعرابي الذي تأثر بهذا السلوك المليء بالإنسانية واللطف والسمو إلى قومه، لم يتمالك نفسه من قوله لهم:

– قد جئتكم من عند خير الناس.[١٢٣٩]

ومرة أخرى أيضـًا في طريق العودة إلى المدينة وصل المسلمون إلى إحدى الشعب وما إن نزلوا للراحة حتى قال لهم الرسول ﷺ:

– **من رجلان يكلآنا في ليلتنا هذه من عدونا؟**

فقام إليه من الأنصار عباد بن بشر ومن المهاجرين عمار بن ياسر رضي الله عنهما قالا:

– نحن نكلؤك يا رسول الله! ـ وقد كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهما حين هاجر المهاجرون إلى المدينة المنورة ـ فلما خرجا إلى فم الشعب قال عباد لأخيه عمار:

– أي شطري الليل تؤثر أن تنام فيه، أوله أم آخره؟

فقال عمار بن ياسر رضي الله عنه:

– بل أنام أوله، ثم أضطجع غير بعيد عنه.

وتوجه عباد رضي الله عنه إلى القبلة ودخل في الصلاة، وفي تلك الأثناء جاء رجل من المشركين فلما رأى عباد بن بشر رضي الله عنه من بعيد يصلي منتصبـًا على فم الشعب عرف أن النبي ﷺ وأصحابه بداخل الشعب، وأدرك أن هذا الواقف هو حارس القوم، فتناول سهمـًا من كنانته ورماه به فأصاب السهم عبادًا رضي الله عنه، فانتزعه عباد بن بشر من جسده و مضى مكملًا لتلاوته غارقـًا في صلاته، فرماه الرجل وأصابه بسهم ثانٍ وثالثٍ وفي كل مرة ينتزع عباد السهم

١٢٣٨ البخاري: الجهاد، ٨٤، ٨٧/ ٤١٣٩؛ مسلم: الفضائل، ١٣/ ٨٤٣.
١٢٣٩ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣١/ ٤٣٢٢.

ويمضي في صلاته واقفـًا، ثم ركع وسجد إلى أن أنهى صلاته وسلم منها، وزحف حتى غدا قريبـًا من صاحبه وأيقظه قائلًا:

- انهض فقد أثخنتني الجراح.

فانتفض عمار قائمـًا، ولما رآهما الرجل ولّى هاربـًا.

والتفت عمار بن ياسر إلى عباد بن بشر فرأى الدماء تنزف غزيرة من جراحه، فقال له:

- يا سبحان الله، هلا أيقظتني عند أول سهم رماك به؟

فأجابه عباد جوابـًا ملؤه العشق والشوق إلى الصلاة:

- كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولكن لما أثخنتني جراح السهام قطعت تلاوتي وأنهيت صلاتي، وايم الله لولا خوفي من أن أضيِّع ثغرًا من ثغور المسلمين أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لكان قطع النفس أحب إلي من قطعها. [١٢٤٠]

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة، فأبطأ بي جملي، فأتى علي رسول الله ﷺ، فقال لي: «**يا جابر**»، قلت: نعم، قال: «**ما شأنك؟**» قلت: أبطأ بي جملي، وأعيا فتخلفت، فنزل فحجنه بمحجنه، ثم قال: «**اركب**»، فركبت، فلقد رأيتني أكفه عن رسول الله ﷺ، فقال: «**أتزوجت؟**» فقلت: نعم، فقال: «**أبكرا، أم ثيبا؟**» فقلت: بل ثيب، قال: «**فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك**» قلت: إن لي أخوات، فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن، وتمشطهن، وتقوم عليهن، قال: «**أما إنك قادم، فإذا قدمت فالكيس الكيس**»، ثم قال: «**أتبيع جملك؟**» قلت: نعم، فاشتراه مني بأوقية، ثم قدم رسول الله ﷺ، وقدمت بالغداة، فجئت المسجد، فوجدته على باب المسجد، فقال: «**الآن حين قدمت**» قلت: نعم، قال: فدع جملك، وادخل فصل ركعتين، قال: فدخلت فصليت، ثم رجعت، فأمر بلالا أن يزن لي أوقية، فوزن لي بلال، فأرجح في الميزان، قال: فانطلقت، فلما وليت، قال: «**ادع لي جابرا**»، فدعيت، فقلت: الآن يرد علي الجمل، ولم يكن شيء أبغض إلي منه، فقال: «**خذ جملك ولك ثمنه**» [١٢٤١]

١٢٤٠ أبو داود: الطهارة، ٧٨/ ١٩٨؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٤٤/ ١٤٨٦٥؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢١٩؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٩٧.

١٢٤١ البخاري: الجهاد، ٤٩، البيوع، ٣٤/ ٢٠٩٧؛ مسلم: الرضاع، ١٦/ ٧١٥، المساقاة، ١٠٩.

يقول جابر رضي الله عنه:

«كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشترى مني بعيرا، فجعل لي ظهره حتى أقدم المدينة، فلما قدمت أتيته بالبعير، فدفعته إليه، وأمر لي بالثمن، ثم انصرفت، فإذا رسول الله ﷺ قد لحقني، قال: قلت: لعله قد بدا له، قال: فلما أتيته، دفع إلي البعير، وقال: «هو لك» ، فمررت برجل من اليهود، فأخبرته، قال: فجعل يعجب، قال: فقال: اشترى منك البعير، ودفع إليك الثمن، ووهبه لك؟ قال: قلت: نعم» [١٢٤٢]

لقد أثرت رقة الرسول الله ﷺ السامية، وكرمه وجوده، ولطفه الذي لا مثيل له بالمسلمين كثيرًا، وذلك إلى درجة أنهم أطلقوا على الليلة التي وقعت فيها حادثة البعير تسمية «ليلة البعير».

بدر الصغرى «٤ ذي القعدة / نيسان ٦٢٦»

وفقـًا للتواعد الذي جرى يوم معركة أحد كان المشركون والمسلمون سوف يلتقون في مواجهة أخرى بعد سنة من ذلك اليوم، وبناءً على هذا الموعد الذي ضُرب بين المشركين والمسلمين خرج أبو سفيان على رأس جيشه حتى وصل إلى ناحية الظهران، إلا أن الرعب دبّ في قلبه مجددًا واضطر للتراجع، ولكن لما ثقل عليه أن يُخدش غروره وكبرياؤه أرسل رجلًا إلى المدينة، وأراد أن يشيع هذا الرجل في المدينة بأن أبا سفيان قد خرج على رأس جيش عظيم لملاقاة المسلمين، فيُدخل بذلك الخوف في قلوب المؤمنين فلا يخرجوا للقتال.

ولما وصل الخبر إلى المدينة كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أتم تجهيزات القتال في وقت سابق، وحتى إنه كان قد أصدر أمر الخروج لملاقاة المشركين، وبسبب علم المخبر بخوف أبي وتراجعه، أخذ يبذل كل ما لديه من الحيل والأساليب في سبيل إخافة المسلمين من المعركة المحتملة من أجل الحيلولة دون خروجهم، وأخذ يضيف إلى الأكاذيب التي أوصاه بها أبو سفيان أكاذيبـًا أخرى من لدن نفسه، ويقول للمسلمين محذرًا وناصحـًا بأنهم إن خرجوا لقتال المشركين خارج المدينة فسوف يلقون عاقبة وخيمة ومدمرة، ونتيجة للجهود التي بذلها هذا الرجل والمنافقون في نشر الذعر بين المسلمين سرى الخوف

١٢٤٢ أحمد: مسند، ٣، ٣٠٣/ ١٤٢٥١.

إلى قلوب بعضهم وبدؤوا يميلون إلى عدم الرغبة في الخروج إلى هذه الغزوة، وأمام هذا الوضع الجديد الذي طرأ على المسلمين، قال رسول الله ﷺ:

«**والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد!**» وبعد ذلك تلطف الله بالمؤمنين وأنزل على قلوبهم السكينة والثبات.[١٢٤٣]

وفي نهاية الأمر خرج جيش المسلمين حتى وصل إلى بدر. إلا أنه لم يكن للعدو من أثر، ولم يصادفوا سوى سوق كان قد أقيم هناك. وأمام هذه الحالة لم يبق أمام المسلمين من عمل سوى ممارسة التجارة، وبعد بقاء رسول الله ﷺ لثمانية أيام في بدر منتظرًا قدوم أبي سفيان وجيشه، قفل عائدًا إلى المدينة مع الأرباح التي جنوها من التجارة دون أن يتعرض لأي شر.[١٢٤٤]

وقد أثنى الله تعالى على جسارة المؤمنين وشجاعتهم في القرآن الكريم، حيث قال:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[١٢٤٥]

ووفقـًا للرواية التي جاءت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها نبينا محمد ﷺ حين قالوا:

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾

وبناءً على ذلك ازداد إيمان المؤمنين، وقالوا جميعـًا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، وقدموا بذلك نموذجـًا رائعـًا في تسليم الأمر لله تعالى.[١٢٤٦]

١٢٤٣ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٥٩؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٨٦ - ٣٨٧.

١٢٤٤ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٢١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٥٩؛ الواقدي: المغازي، ١، ٣٨٤ - ٣٨٩.

١٢٤٥ آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤.

١٢٤٦ انظر. البخاري: التفسير، ٣/ ١٣.

السنة الخامسة للهجرة

إسلام سلمان الفارسي ووصوله إلى الحرية

لقد روى سلمان الفارسي ﵁ – وكان رقيقـًا لأحد يهود المدينة – لابن عباس ﵁ قصة إسلامه المليئة بالعبر والعظات، حيث قال:

«كنت رجلًا فارسيـًا من أهل أصفهان، من أهل قرية يقال لها «جَيْ »، وكان أبي دِهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيتي كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار –أي خادمها– الذي يوقدها لا يتركها تخبوا ساعة، وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يومـًا، فقال لي:

– يا بني! إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي:

– ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس؛ لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت في نفسي: «هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه». فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم:

– أين أصل هذا الدين؟ قالوا:

– بالشام. ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله. فلما جئته، قال لي:

– أي بني.. أين كنتَ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟

قلت له:

- أي أبتي! مررت بناس يصلون في كنيسة لهم. فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

فقال أبي:

- أي بني.. ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه.

قلت:

- كلا! والله إنه خير من ديننا!

فخافني فجعل في رجلي قيدًا ثم حبسني في بيته. وبعثت إلى النصارى، فقلت لهم:

- إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم. فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم.

فقلت:

- إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم.

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت:

- من أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا:

- الأسقف في الكنيسة، فجئته فقلت:

- إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك.

فقال الأسقف:

- فادخل الكنيسة!

فدخلت معه، وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين. حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم:

- إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا.

فقالوا لي:

– وما علمك بذلك؟

قلت لهم:

– أنا أدلكم على كنزه! قالوا:

– فدلنا عليه. فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا، فلما رأوه قالوا:

– والله لا ندفنه أبدًا، وصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه، فأحببته حبًا لم أحبه من قبله، وأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له:

– يا فلان! إني كنت معك وأحببتك حبًا لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ﷻ، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

فقال لي:

– أي بني! والله ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، فهو على ماكنت عليه، فالحقْ به!

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له:

– يا فلان! إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره، فقال لي:

– أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له:

– يا فلان! إن فلانًا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ﷻ ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وتأمرني؟

فقال:

– أي بني والله ما أعلم رجلًا على مثل ما كنّا عليه إلا رجلًا بنصيبين وهو فلان فَالْحق به.

فلما مات وغيب، لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي، قال:

- فأقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبثت أن نزل به الموت فلما حضر، قلت له:

- يا فلان! إن فلانـًا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي؟ وتأمرني؟ قال:

- أي بني، والله ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلًا بعمورية، فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب، لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري، فقال:

- أقم عندي. فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم. واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله ﷻ، فلما حضر قلت له:

- يا فلان! إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ فقال:

- أي بني! والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى. يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مرَّ بي نفر من بني كلب تجار، فقلت لهم:

- تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي؟ قالوا:

- نعم. فأعطيتهم البقر والغنيمات، وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني على رجل من اليهود عبدًا، فمكثت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي.

فبينما أنا عنده في وادي القرى، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها، وبعث الله رسوله محمدًا ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عتق أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال:

- يا فلان! قاتل الله بني قيلة - يعني الأنصار- والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

فلما سمعتها أخذتني العرواء - يعني الرعدة- حتى ظننت سأسقط على سيدي، ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال:

- مالك ولهذا؟ أقبل على عملك!

فقلت:

- لا شيء! إنما أردت أن أستثبت عما قال، وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه، فقلت له:

- إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة! وهذا شيءٌ كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه، فقال الرسول ﷺ لأصحابه:

- كلوا! وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: «هذه واحدة» ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئًا، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به فقلت:

- إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها! فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: «هاتان اثنتان».

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، وقد تبع جنازة رجل من أصحابه، عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم «خاتم النبوة» الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدرت عرف أني أستثبت في شيء، فألقى ردائه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت على رسول الله أقبِّله وأبكي، فقال لي سيد الخلق رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- تحوَّل! فتحولت وجلست بين يديه. ثم قال سلمان رضي الله عنه لابن عباس رضي الله عنه:

- يا ابن عباس! فقصصت عليه حديثي كما حدثتك، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع الرسول ﷺ بدرًا وأحدًا.

لقد قضى سلمان الفارسي رضي الله عنه جل مطلع حياته في رحلة بحث عن الحقيقة، حتى وصل إلى رسول الله ﷺ، وبعد ذلك كانت أمنيته الوحيدة هي البقاء بجانب رسول الله ﷺ، والقيام

بأموره، وإطاعته في كل شيء، ولذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام الذي رأى حالة الشوق هذه بادية عليه، قال له ذات يوم:

– كاتب يا سلمان! فكاتب سلمان ﷺ سيده على ثلاثمائة نخلة يحييها له بالفقير، وبأربعين أوقية ذهبًا. فقال الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام لأصحابه:

– أعينوا أخاكم! فأعانوه بالنخل، الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشر، والرجل بعشر يعني الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمع له ثلاثمائة ودية، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام:

– اذهب يا سلمان ففقر ـ احفر ـ لها! فإذا فرغت فأتني فأكون أنا أضعها بيدي.

ويقول سلمان ﷺ:

ففقرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج النبي ﷺ إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله بيده، فوالذي نفسي بيده ما ماتت منها ودية واحدة، وقد أثمرت الوديات في سنتها، وأُكل من ثمرها. فأديت النخل وبقي علي المال.

فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال:

– ما فعل الفارسي المكاتب؟

فدُعيت له، ولما جئته، قال رسول الله ﷺ:

– يا سلمان! خذ هذه فأدي بها ما عليك!

فقلت:

– وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟

فأخذها رسول الله ﷺ بيده فقلبها على لسانه، ثم قال:

– خذها! فإن الله سيؤدي بها عنك!

فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، ولو وزنت بجبل أحد لوزنته، فأوفيتهم حقهم وعتقت.

وبعدما تخلص سلمان ﷺ من العبودية شهد مع رسول الله ﷺ معركة الخندق حرًا، ثم لم يفته أي مشهد من المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام. [١٢٤٧]

١٢٤٧ انظر: أحمد: مسند، ٥، ٤٤١ – ٤٤٤/ ٢٣٧٣٧؛ ابن هشام: السيرة، ١، ٢٣٣ – ٢٤٢.

لقد صار سلمان ﵁ نموذجًا جميلًا وفريدًا من نوعه بكل أحواله وتقلباته، ومركز جذب لكل من حوله من المسلمين، لدرجة أن الأنصار والمهاجرين كانوا يتنازعون على نسبته إليهم فيقولون: سلمان منا. وبسبب ذلك قال نور الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

- **سلمان منا آل البيت.**

وبهذا القول كافأ النبي عليه الصلاة والسلام لطف الصحابة بأجمل مكافأة.[١٢٤٨]

لقد أصبح هذا الصحابي المبارك ﵁ شخصية مثالية يحتذي بها كل المؤمنون لما قدمه طوال مسيرة حياته من السلوكيات والمواقف التي بلغت في جمالها قمة الروعة والتي عكست جماليات الأخلاق الإسلامية الكريمة.

ثم إن من أحد الأمثلة التي تظهر فضله وتفوقه، الحادثة الآتية:

لما كثرت الفتوحات وتوسعت الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية لتحكم بلادًا كثيرة، تم تعيين سلمان الفارسي ﵁ الذي كان في وقت مضى مجرد عبد لدى يهودي لا شأن له ولا ذكر، تم تعيينه واليًا على منطقة المدائن كلها. وفي تلك الأيام قدم رجل ينتسب إلى قبيلة بني تيم من الشام إلى المدائن، ومعه حمل من التين. وقد كان سلمان الفارسي ﵁ يرتدي على جسمه عباءة رثّة في غاية التواضع، فلم يكن ذاك الرجل الشامي يعرف سلمانًا ﵁، ولما رأى حالته، قال له:

- تعال احمل!

وهو لا يعرف سلمان، فحمل سلمان ﵁ فرآه الناس فعرفوه، فقالوا:

- هذا الأمير!

فقال الرجل:

- لم أعرفك! وأراد أن يأخذ عنه الحمل، فقال له سلمان ﵁:

- لا! حتى أبلغ منزلك.[١٢٤٩]

١٢٤٨ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٤١.

١٢٤٩ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٨٨.

رفع حكم التبني

لقد أهدت السيدة خديجة إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قبل بعثته رقيقها زيدًا، وقد أعتقه رسول الله ﷺ، إلا أن زيدًا ﵁ لم يرد الذهاب إلى أبيه وعائلته، وإنما فضّل البقاء بجانب النبي عليه الصلاة والسلام، فتبناه رسول الله ﷺ.

ولشدة محبة رسول الله ﷺ لزيد ﵁ فقد زوّجه في أول الأمر بأم أيمن الجارية التي كان قد أعتقها سابقًا، وبعد ذلك زوجه زينب بنت جحش ابنة عمته، وعلى الرغم من عدم رضا السيدة زينب بهذا الزواج في بداية الأمر بسبب عدم التوافق التام بينها وبين زيد، إلا أنها بناءً على رغبة رسول الله ﷺ، وما تقتضيه الآيات الكريمة الآتية:

﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [١٢٥٠]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [١٢٥١]

قبلت بهذا الزواج، إلا أن قلبها لم يألف زيدًا بشكل من الأشكال، ووصل زواجها بعد مدة من الزمن إلى نقطة لم يعد الاستمرار فيه ممكنًا، وكان زيد ﵁ يشتكي منها على الدوام، حتى إنه لما جاء إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه معاناته، قال له النبي ﷺ:

- **أمسك عليك زوجك، واتقِّ الله!** .[١٢٥٢]

مع أن النبي ﷺ كان يعلم في هذه الأثناء بأن زينب ﵂ سوف تكون زوجه بناء على الوحي الإلهي الذي ينزل عليه، إلا أنه كان يصبر وينتظر خشية أن يستغلّ المنافقون هذه المسألة ويحدثوا بين الناس صخبًا واضطرابًا بقولهم: «إن محمدًا قد طلق امرأة ابنه منه ليتزوجها بنفسه». لأنه وفقًا للأعراف التي كانت سائدة في ذلك العصر كان الولد المتبنى ينسب إلى الذي تبناه، ويناديه الناس باسمه، ويُعامل معاملة الولد بالنسب تمامًا، حتى إنه يرث من تبناه. وفي نهاية الأمر وقع الطلاق بين زيد وزوجته زينب ﵂، ونزل وحي جديد من السماء، فجاء القرار الإلهي ليأمر النبي ﷺ بالزواج من السيدة زينب من جهة، ومن جهة

١٢٥٠ الحجرات: ١٣.

١٢٥١ الاحزاب: ٣٦.

١٢٥٢ أحمد: مسند، ١٩، ٤٩٢/ ١٢٥١١.

أخرى يضع حدًّا لمسألة التبني التي هي عادة جاهلية ويحرمها بشكل نهائي، وذلك بالتطبيق العملي عن طريق النبي ﷺ بالذات، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا﴾ [١٢٥٣]

كانت أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها التي تزوجت من النبي ﷺ بناءً على الأمر الإلهي تكثر من شكر الله تعالى، وتقول:

– زوجني الله من فوق سبع سماوات.[١٢٥٤]

ولكن المنافقين استغلوا هذه الحادثة بسوء حتى صارت حديث مجالسهم، وسببًا في نشر مختلف الشائعات والأكاذيب. فأعلنوا بكل جهالة ونفاق اعتراضهم وتنديدهم بهذا الزواج، ورفضهم إياه بقولهم:

– تزوج امرأة ابنه!

فجاء الرد الإلهي في القرآن الكريم بقول الله تبارك وتعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [١٢٥٥]

وخلاصة الأمر، هي أن عادة التبني التي كانت متبعة ومنتشرة بكثرة منذ العصر الجاهلي أُلغيت تمامًا بهذه الحادثة.

إن ادعاء المنكرين والمنافقين في هذا العصر بأن «النبي عليه الصلاة والسلام إنما تزوج من السيدة زينب رضي الله عنها لإعجابه وافتتانه بجمالها» ما هو إلا لوثة من لوثات الجاهلية ومحض افتراء، وذلك لأن السيدة زينب رضي الله عنها كانت ابنة عمة النبي ﷺ وكان يعرفها ويراها

١٢٥٣ الأحزاب: ٣٧.

١٢٥٤ الترمذي: التفسير، ٣٣ / ٣٢١٣.

١٢٥٥ الأحزاب: ٤٠.

قبل تزويجها من زيد ﷺ، ولو كان لدى الرسول عليه الصلاة والسلام مثل هذه الرغبة أو الميل تجاهها لتزوجها قبل زيد ﷺ، ولكانت السيدة زينب ﷺ قد قبلت بهذا الزواج بكل رضا وطيب خاطر.

إن أصحاب الفكر الضحل والسطحي الذين لا يفهمون ولا يدركون معنى الزواج إلا من ناحية الشهوة المادية فقط، عاجزون عن إدراك حقيقة وحكمة زواج النبي عليه الصلاة والسلام، إن الأحكام الحمقاء والبعيدة عن الإنصاف التي يطلقها أولئك الذين امتلأت أذهانهم وقلوبهم بالميول والشهوات النفسية عبارة عن انعكاس لعوالم الظلام التي استحكمت في داخلهم، وذلك لأن نبينا الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم قد قضى أربعـًا وعشرين سنة الأولى من فترة شبابه وحيويته التي تكون في العادة من أفضل سنوات الحياة الزوجية، قضاها مع زوجته الوحيدة السيدة خديجة أم المؤمنين ﷺ، وأما حالات الزواج التي حصلت فيما بعد فإنما كانت بناءً على تحقيق مجموعة من الغايات والمقاصد الإسلامية، والسياسية، والاجتماعية، وأغلب هؤلاء الزوجات كن أكبر منه سنـًا، وإما مطلقات، أو أرامل، وكانت أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ هي الزوجة الوحيدة التي تزوجها رسول الله عليه الصلاة والسلام صغيرة وبكرًا، والحكمة التي كانت وراء هذا الزواج هي من أجل ضمان بيان المسائل الفقهية المتعلقة بأمور النساء، وإثباتها، وبالفعل تمكنت أم المؤمنين ﷺ بذكائها اللامع وفراستها القوية من فهم واستيعاب المسائل الخاصة بالنساء بصورة متكاملة، وبقيت لسنوات طويلة بعد انتقال النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ترشد وتعلم نساء المؤمنين، وشكلت الأحكام التي وصلتنا عن طريقها أحد الأسس السليمة والراسخة والمهمة لقسم من الأحكام الشرعية، وقد انتشر أغلب علم الفقه بين النساء عن طريقها إذ كانت أحد فقهاء الصحابة السبعة الذين تميزوا في مجال الفقه والفتوى.

فلو كان زواج سيد الخلق عليه الصلاة والسلام بسبب الشهوة كما يدعي أهل الأهواء، لما قضى فخر الكائنات زهرة شبابه وأهم فترة نشاط في حياته مع امرأة ثيبة تكبره بخمسة عشر عامـًا، وذات أولاد، إن المقاصد العلوية والسامية، والحكم الدقيقة الباهرة التي تكمن خلف حالات زواج الرسول ﷺ لا يمكن أن يفهمها ويقدرها حق قدرها إلا أصحاب المنطق الإيماني السليم، وأهل العرفان والوجدان.

فرض الحجاب

لم تكن لدى العرب قبل الإسلام عادة الستر أو الحجاب، واستمرت الحالة على هذا المنوال كأمر طبيعي في السنوات الأولى للإسلام، إلا أنه بموجب مبدأ التدرج في الأحكام – الذي تعرضنا له سابقًا في مبحث تحريم الخمر والميسر – يتبين أن هذه الحالة ما كانت لتستمر على ما هي عليها، وفي نهاية الأمر نزلت آية الحجاب وارتفع معها موقع ومقام المرأة، إذ حافظت لها على شرفها وكرامتها، وعلا شأنها في المجتمع، وأصبحت المرأة رمزًا للعفة، واكتسبت بذلك هوية جديدة من الوقار والعزة.

ومن جهة أخرى، فإن الحكم المتعلق بالستر لم يكن مقتصرًا على النساء فحسب، وإنما امتدّ ليشمل الرجال أيضًا، أي إن الأمر الوارد في هذا الشأن شامل لجميع المؤمنين رجالًا ونساءً، حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...﴾[١٢٥٦]

إن في حجاب المرأة حماية للأنوثة التي تتمتع بها، وإن المرأة بتسترها وارتدائها الحجاب الشرعي تعطي لمن حولها إحساسًا بلطافتها ورقتها، وتكسب احترامًا كبيرًا، أما في الحالة المعاكسة حيث تتخلى عن سترها فإنها تصبح مجرد وسيلة شهوانية تحرك الرغبات النفسية لدى الناس من حولها، وهذا الأمر يدني من شخصيتها وقيمتها ويفقدها كرامتها، وتعرض وقار الأمومة للضعف.

إن النقطة الهامة التي ينبغي الإشارة إليها في هذا المجال هي أن هناك فرقًا نفسيًا بين المرأة والرجل يعود إلى طبيعتهما الخَلقية. وهذا الفرق بدوره نابع من الفرق في مهمة الرجل والمرأة التي أقامهما الله تعالى عليها، والخصوصية المرتبطة بها. ولأجل ذلك، فإن شكل الستر المأمور به بالنسبة للمرأة يختلف عن شكل الستر لدى الرجل، لأن المرأة تمتلك وفقًا لطبيعتها التي خُلقت عليها خاصية الجاذبية، فعندما تبتعد عن الستر والحجاب، وتعري نفسها أمام المجتمع فإنها تفقد الكثير من رزانتها ولطافتها، وتتعرض

١٢٥٦ النور: ٣٠ – ٣١.

بذلك وظيفة الأمومة وخاصية حفظ النسل للخطر والضرر، ومن هذا المنطلق فقد تم من خلال أمر الحجاب تخصيص جاذبية المرأة لزوجها فقط دون غيره، لأنه يوجد ميل فطريٌّ ثابت لا يتغير لدى المرأة والرجل تجاه بعضهما البعض، وذلك من أجل دوام النسل البشري على وجه الأرض، وإذا لم يُراعَ الأمرُ الإلهي بالستر والحجاب فإن هذا الميل كما أنه سيؤدي إلى تجاوز الحدود الإلهية، فإنه كذلك سيتسبب بانحطاط أخلاقي خطير تنتج عنه كوارث اجتماعية لا تحمد عقباها، ولذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾[١٢٥٧]

ثم إن إحدى التوجيهات التي تتضمنها الآية الكريمة هي «لا تشرعوا أبواب الزنا من خلال عدم مراعاة الستر، ولا تدعوا لذلك مجالًا بحال من الأحوال»، وهذا حكم مطلق، وإذا ما تم التدقيق في مسألة الحجاب نجد أن الإسلام أمر بالحجاب والستر حتى بالنسبة للنساء اللاتي لا يثير ظاهرهن الشهوة والجاذبية نحوهن، أي لا يمكن القول بأنه «ليس من فرق بين أن تكشف هذه المرأة عن رأسها، وذراعها، وقدمها، وبين أن تستر ذلك، فهي بالأصل غير ملفتة للنظر». حيث إن أساس الأمر بالحجاب والستر هنا هو المحافظة على وقار وقيمة الأنوثة.

إن الإسلام الذي يقرر أحكامه بما يتوافق مع الفطرة الإنسانية السليمة، يأخذ في اعتباره أيضًا موجبات الأنوثة والذكورة. ولذلك فقد لعن النبي ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء.[١٢٥٨] ومن أجل الابتعاد عن هذه المخاطر ينبغي على النساء الحرص على حضور مجالس النساء الصالحات، لأن الإنسان يتأثر بأخلاق من يعاشرهم ويجالسهم ويتحلى بأحوالهم، وهذه قاعدة معروفة في علم النفس لا يمكن إنكارها، فعندما تختلط المرأة بالرجال في حياة الشارع، فإنها تفقد مشاعر الأنوثة وخصائصها الجميلة.

وقد تم حظر تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال في مجال اللباس، حيث لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل.[١٢٥٩] لأنه من الواجب على الطرفين الرجال والنساء المحافظة على شرف الذكورة والأنوثة لديهم.

١٢٥٧ الإسراء: ٣٢.

١٢٥٨ انظر. البخاري: اللباس، ٦١؛ ابن ماجة، النكاح، ٢٢/ ١٩٠٤.

١٢٥٩ انظر. أبو داود: اللباس، ٢٨ / ٤٠٩٨.

إضافة إلى ذلك فإن تقليد أحد الجنسين للجنس الآخر في الملبس والمظهر يتسبب في إفساد الشخصية والشكل، حيث ثبت بأن من يرتدون لباس الجنس الآخر ـ لأي سبب من الأسباب ـ بدل الطراز الخاص بجنسهم فإنه مع مرور الوقت يتغير سلوكهم وتصرفاتهم بما يتماشى مع الجنس الآخر الذي ارتدى طراز لباسه، وهذا الأمر فيه إفساد للفطرة الإنسانية السليمة.

غزوة المريسيع «شعبان – رمضان ٥ / كانون الثاني – شباط ٦٢٧»

ويطلق على هذه الغزوة أيضـًا اسم «عزوة بني المصطلق». لقد بدأ بنو المصطلق – بناءً على تحريض مشركي مكة وخداعهم لهم – بتجهيز جيش جرار من أجل الهجوم على المدينة المنورة، ولما سمع رسول الله ﷺ بخبر بني المصطلق وما هم مقدمون عليه، سار إليهم على رأس جيش قوامه سبعمائة مجاهد، ولما وصل رسول الله ﷺ إليهم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي فيهم:

«**قولوا لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم**» إلا أن بني المصطلق رفضوا عرض رسول الله ﷺ، وأُطلق أول سهم أيضـًا من واحد ضمن صفوفهم.[١٢٦٠]

فأغار المسلمون على عدوهم غارة شديدة عند رأس ماء المريسيع فألحقوا بهم هزيمة نكراء، وقتل من جيش العدو اثنا عشر شخصـًا، واستشهد من المسلمين رجل واحد.

وانتهت هذه الحرب باغتنام أموال كثيرة، وأسر عدد كبير من جيش العدو، وكان من بين الأسرى جويرية ابنة زعيم القبيلة.

وقد تم البدء بإطلاق سراح الأسرى مقابل فدية يفتدون بها أنفسهم، فأما جويرية فكانت قد وقعت في حصّة ثابت بن قيس، وجاءت إلى رسول الله ﷺ تراجعه من أجل فدية تحريرها من الأسر، وفي هذه الأثناء قدم أبوها أيضـًا إلى رسول الله ﷺ، حيث كان يتحدث عن حسبه ونسبه يريد بذلك حماية ابنته من الرقّ والمحافظة على شرفه، وقدم بعض الجمال التي كان قد اصطحبها معه من أجل الفدية، وقال:

– هذه الجمال فدية لابنتي، فأطلقوا سراحها! فسأله رسول الله عليه الصلاة والسلام سؤالًا لم يكن ليخطر له على بال، قائلًا له:

١٢٦٠ انظر. الواقدي: المغازي، ١، ٤٠٧.

- فأين البعيران اللّذان غيبتهما بالعقيق، في شعب كذا وكذا؟

فدُهش الحارث الذي كان قد خبّأ جملين في الوادي ولا يعلم بهما غيره، وقال:

- فوالله ما اطلع على ذلك غيري!

فأسلم الحارث لما رأى هذه المعجزة الربانية واهتدى إلى الحق، وأسلم معه وجهاء من قومه.[١٢٦١]

وبناءً على ذلك سأل رسول الله ﷺ عن رأي جويرية، فلما علم أنها تريد البقاء بجانبه دفع بنفسه فديتها، وأطلق سراحها.[١٢٦٢] فلما أصبحت جويرية حرة طليقة دخلت الإسلام بمحض إرادتها، وبعد ذلك نالت شرف الزواج من خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ، هذا الزواج الذي كان مظهرًا من مظاهر لطف الله تعالى بها، وبذلك فقد تحققت الرؤيا التي كانت قد رأتها في وقت سابق، حيث إن تفضيلها البقاء بجانب رسول الله ﷺ على الرغم من إمكانية تخليصها من الأسر بدفع الفدية من قبل أبيها، كان لهذا السبب.

فلما سمع صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام بأمر زواجه من جويرية قالوا:

- أصهار رسول الله عليه الصلاة والسلام ما ينبغي أن يكونوا أسرى!

فأرسلوا ما في أيديهم من الأسرى فأعتقوهم من غير فدية، وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ حول هذا الأمر:

- فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها؛ أُعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق.[١٢٦٣]

وكما يتبين من هذه العبارة أن زواج النبي عليه الصلاة والسلام من أم المؤمنين جويرية ﵂ كان بناءً على تحقيق غاية سياسية بحتة، وليس بسبب رغبة نفسية، وما يؤكد ذلك قول الله تعالى عن الرسول عليه الصلاة والسلام:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١٢٦٤]

١٢٦١ انظر. ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٤٠.

١٢٦٢ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١١٨.

١٢٦٣ أبو داود: العتق، ٢ / ٣٩٣١.

١٢٦٤ النجم: ٣ – ٤.

إذ في هاتين الآيتين تأكيد بأن كل ما يقع في قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام إنما يكون تحقيقًا للإرادة الإلهية، حيث إن بعد هذا الزواج نال أسرى بني المصطلق حريتهم، والأهم من ذلك أن جميع القوم دخلوا الإسلام.



التيمم

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ:

«خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا:

- ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال:

- حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي.

فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، حيث يقول:

﴿...وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ...﴾ [١٢٦٥]

فقال أسيد بن الحضير رضي الله عنه:

- ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته.[١٢٦٦]

وقال أسيد بن حضير لعائشة رضي الله عنها:

- جزاك الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيرًا».[١٢٦٧]

١٢٦٥ المائدة: ٦.

١٢٦٦ البخاري: التيمم، ١/ ٣٣٤، أصحاب النبي، ٥، ٣٠/ ٣٦٧٢؛ مسلم: التيمم، ١٠٨/ ٣٦٧

١٢٦٧ البخاري: التيمم، ١/ ٣٣٦.

حادثة الإفك

وفي طريق العودة من غزوة المريسيع، كانت زوجة النبي ﷺ الطاهرة النقية عائشة أم المؤمنين[١٢٦٨] قد ابتعدت قليلًا عن المكان الذي نزل فيه الجيش من أجل حاجة لها، ولما عادت وجدت أن الجيش قد سبقها ورحل منذ مدة. إذ إن آية الحجاب كانت نازلة في تلك الفترة، وكانت أمهات المؤمنين لدى خروجهن مع الجيش يجلسن في هودج موضوع على ظهر البعير، ولهذا السبب لما تحرك الجيش ظن المسلمون أن أم المؤمنين عائشة ﵂ ما زالت في هودجها على ظهر البعير.

ورأت أم المؤمنين ﵂ أنها لو سارت ولحقت بالجيش فربما تضلّ الطريق وتضيع في البراري، فرجحت أن تبقى في مكانها تنتظر لعلّ أحدًا يأتي في طلبها إذا ما علموا بعدم وجودها في هودجها مع الجيش، وغفت عيناها في نوم خفيف، وفي أثناء ذلك جاء صفوان بن المعطل ﵁ والذي كان مكلفـًا بالسير خلف القافلة من أجل جمع المتخلفين عن ركبها، فرأى السيدة عائشة ﵂، فقرأ آية:

﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١٢٦٩]

لكي يُسمع السيدة عائشة ويُشعرها بوجوده هناك.

فسمعت أم المؤمنين ﵂ الصوت وأفاقت من غفوتها، فأناخ صفوان ﵁ بعيره دون أن ينبس ببنت شفة، وركبت أم المؤمنين ﵂ على ظهره، وسارا في الطريق حتى أدركا الجيش وقت الظهيرة، فلما رأى المنافقون هذه الحالة اعتبروها فرصة ثمينة لا تعوّض قد وقعت بين أيديهم، وأخذت ألسنتهم كما في كل مرة تلوك بالشائعات وأقبح الافتراءات، وقالوا:

- والله ما نجت عائشة منه، ولا هو نجا من عائشة.

حتى إن رأس النفاق عبد الله بن أبي، ذهب أبعد من ذلك، وقال للمؤمنين ساخرًا مستهزئـًا:

- امرأة نبيكم باتت مع رجلٍ حتى أصبحت، ثم جاء يقودها...

١٢٦٨ كان النبي عليه الصلاة والسلام كلما خرج إلى غزوة اصطحب معه إحدى زوجاته يختارها بإجراء القرعة بينهن. وفي هذه الغزوة وقعت القرعة على أم المؤمنين عائشة ﵂، فاصطحبها معه.

١٢٦٩ البقرة: ١٥٦.

وشاعت الفتنة في لحظات بين الجيش بأسره، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمنتهى الحسرة والألم والمرارة:

- والله ما رمينا بهذا في الجاهلية!

وأما الصحابي صفوان رضي الله عنه فقد أخذه حزن عميق، وهو من الصحابة الأجلاء، والذي قال عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- والله إن علمت عليه سوءًا قط!

وأما النبي عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم فكان النصيب الأعظم من الحزن والألم والكدر الأعظم قد نزل على قلبه المبارك. فقد كان يغلق على نفسه الباب كثيرًا، وقد اعتزل الناس فلا يخرج للقائهم إلا نادرًا، وقد سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن أمر الإفك وحقق فيه، فلم يكن هناك أدنى دليل على إدانة أم المؤمنين رضي الله عنها، ولكن أفواه المنافين لا تُغلق دون الأقاويل والأكاذيب.

وكان آخر من سمع بالحادثة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها. وما إن سمعت بهذا الافتراء المريع حتى أصابها الوهن والانهيار، واعتراها ألم وحزن يفوق الوصف، فاستأذنت من رسول الله ﷺ وذهب إلى بيت أبيها تستقصي أخبارًا عن الحادثة. ولما سمعت بتفاصيل الافتراءات والشائعات التي تدور حولها، ذبلت واصفرت كورقة خريف تهاوت ساقطة على أرضها.

وفي هذه الأثناء أراد نبي الله ﷺ التحدث مع السيدة عائشة رضي الله عنها حول الحادثة. فذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، وقال لزوجته المباركة:

- يا عائشة! فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله.

فنظرت أم المؤمنين رضي الله عنها التي أحست بروحها المرهف الناعم أن الافتراءات قد أثّرت في سيد الخلق عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، نظرت إلى أبيها وأمها، والحزن والأسى باديان على نظرتها البريئة، فلما رأت صمتهما اغروقت عيناها بدموع ندية، وقالت:

- إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وفي تلك الأيام قالت أم أيوب لزوجها أبي أيوب الأنصاري ﵁: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.[١٢٧٠]

ولم يبق لتبيان حقيقة المسألة إلا الوحي الإلهي، ولم يمض وقت طويل حتى أنزل الله تعالى آيات كريمة تتعلق بهذه الحادثة المفتراة، وتبين بجلاء أن كل الإشاعات التي دارت على الألسنة ما هي إلا افتراءات المنافقين ومكائدهم.

وبهذا البيان الإلهي تحققت أهداف متعددة جليلة، إذ من جهة أظهر براءة أم المؤمنين السيدة عائشة وأثبت عفتها وطهارتها، ومن جهة أخرى فضح المنافقين وضرب باتهاماتهم وافتراءاتهم في وجوههم وأخبرهم بالخزي والعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، ومن جهة ثالثة أيقظ الغافلين الذين أداروا هذه الافتراءات على ألسنتهم من غفلتهم.

فيقول الله تبارك وتعالى في الآيات المتعلقة بهذه الحادثة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ. لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

١٢٧٠ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٤٧؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٣٤.

وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٢٧١]

وبعد هذه الحقائق السماوية الجليلة قال الرسول الله عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والابتسامة تعلو وجهه الشريف:

- **أبشري يا عائشة! أما والله فقد برّأك!**

وبعد تبرئة أم المؤمنين وتنزيهها عن الافتراءات التي ألصقت بها، قالت:

- والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى.

وقالت لأبيها أبي بكر رضي الله عنه الذي أشار إليها بالقيام إلى رسول الله ﷺ وشكره على البراءة التي نزلت عليه معبرة بشيء من الخجل عن كدرها وانكسارها:

- لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله!

فتبسم رسول الله عليه الصلاة والسلام من قولها وموقفها هذا، ووصلت هذه الضائقة والمحنة الشديدة إلى نهايتها بلطف من الله تعالى ورحمته الواسعة.[١٢٧٢]

لقد كانت المرأة المفترى عليها زوجةَ النبي عليه الصلاة والسلام وأم المؤمنين، وابنة أقرب وأعزّ رجل على رسول الله ﷺ، وفي الوقت ذاته كانت أطهر وأنقى وأشرف نساء الأمة وأكثرهن عفة والتزامًا، إن هذه الحادثة وحدها كافية لإظهار قوة التحمّل التي أبداها الأنبياء والرسل تجاه الابتلاءات والمصائب التي تعرضوا لها، وإن هذه الحادثة تُعد إلى يوم القيامة خير مواساة للمظلومين الذين يتعرضون للافتراءات والأكاذيب.

على الرغم من كل هذه الحقائق العلمية والتاريخية، وبيان القرآن الكريم الذي وصف هذه الحادثة بـ «الإفك المبين» و «البهتان العظيم»، مما يؤكد بشكل قطعي لا يدع مجالًا للشكّ أبدًا براءة أم المؤمنين وتنزهها عن هذه التهمة الشنيعة، نجد أن طائفة من الناس بعد واقعة الجمل لا تزال مستمرة بكل جهالة في ترديد هذه التهمة على ألسنتها تجاه أطهر

١٢٧١ النور: ١١ – ٢١.

١٢٧٢ البخاري: الشهادات، ١٥، ٣٠، الجهاد، ٦٤، المغازي، ١١، ٣٤؛ مسلم: التوبة، ٥٦/ ٢٧٧٠؛ أحمد: مسند، ٦، ٦٠، ١٩٥.

نساء الأرض. فأي دليل آخر يحتاج أرباب الغفلة هؤلاء لكي يتنبهوا من غفلتهم بعد كل الاثباتات التي قُدمت؟

لقد عوقب المجرمون الذين تسببوا بحادثة الإفك، بسبب قذفهم لسيدة طاهرة عفيفة وبريئة بجريمة الزنا. فتم جلد كل واحد من المفترين ثمانين جلدة.[١٢٧٣]

وفقـًا للرواية التي جاءت عن ابن عباس ﵄ أن الله تعالى برأ أربعة من عباده مما أُسند إليهم من التهم، وهم:

١. يوسف ﵇: بُرئ على لسان شاهد من أهل المرأة التي افترت عليه.[١٢٧٤]

٢. موسى ﵇: بُرئ من قول اليهود.[١٢٧٥]

٣. مريم عليها السلام: بُرئت بكلام المولود الذي في حضنها.[١٢٧٦]

٤. أم المؤمنين عائشة ﵂ فقد نزلت تبرئتها بآيات عظيمات من القرآن الكريم والتي سوف تُتلى إلى يوم القيامة، وإن هذه التبرئة التي وصلت إلى هذه الدرجة العالية من التأكيد والبلاغة التي لم يُرى لها مثيل إنما كان القصد منها أيضـًا إظهار الله تعالى لمدى علو ورفعة المقام والمكانة التي خص بها نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.[١٢٧٧]

إن تأخر الوحي لفترة طويلة في هذه الفترة الحرجة والمضطربة إنما كانت الغاية منه؛ أولًا: تأكيد الصفة البشرية لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى جانب كونه رسولًا ونبيـًا، ثانيـًا: إثبات أن الوحي لم يكن حالة متولدة عن مشاعره النفسية الداخلية، ثالثـًا: اختبار مدى إخلاص المسلمين وثباتهم في مثل هذه الحالات الصعبة.

لقد كان أبو بكر الصديق ﵁ قد تعهد بالإنفاق من ماله الخاص على أحد الفقراء وهو المعروف باسم مسطح، ولما رأى أبو بكر ﵁ أن مسطحـًا واحدٌ من الذين شاركوا في حادثة الإفك وافترى على أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂، أقسم أنه لن ينفق عليه وعلى

١٢٧٣ أحمد: مسند، ٦، ٣٥.

١٢٧٤ انظر: يوسف، ٢٦ – ٢٩.

١٢٧٥ انظر: الاحزاب، ٦٩.

١٢٧٦ انظر: مريم، ٢٩ – ٣٣.

١٢٧٧ الزمخشري: ٤، ١٢١.

عائلته بعد ذلك أبدًا، ولما انقطع الإنفاق عن مسطح وعائلته وقعوا في ضائقة شديدة وصعبت أحوال معيشتهم، فأنزل الله تعالى بعد قطع الإنفاق هذه الآيات الكريمة:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٢٧٨]

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٢٧٩]

إن هذه الكلمات الإلهية المباركة تشكل أبرز مثال على رحمة الله تعالى الواسعة بعباده، ومن جهة أخرى فإنها تبين لأهل الفضل أحد السبل التي ترتقي بهم إلى أعلى المراتب.

وبعد نزول الآيات الكريمة قال أبو بكر ﷺ: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي!

فدفع كفارة يمينه، ورجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدا.[١٢٨٠]

أي إن أبا بكر ﷺ لم يمنع النفقة والمساعدة حتى عن الرجل الذي افترى على ابنته البريئة الطاهرة، وهذا مثال بارز على فضل ذلك الصحابي الجليل الذي لا يُشق له غبار.

هم الأعداء، فاحذروهم

إن الأوهام والأحقاد التي أظهرها المنافقون في غزوة المُريسيع، لم تكن مقتصرة على حادثة الإفك فحسب. إذ إن رأس المنافقين عبد الله بن أبي استغل جدالًا وخلافًا حصل بين رجلين من المهاجرين والأنصار، وقال لمن حوله قاصدًا به المهاجرين:

– أرأيتم فعلتهم هذه؟ دخلوا بلادنا فتعالوا علينا، وتنكروا لنا، واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فكان من بين الذين سمعوا قوله الصحابي المؤمن والصالح زيد بن الأرقم فرد عليه قائلًا:

– بل ذليل القوم أنت! فقد أعز الله نبيه محمدًا ﷺ!

١٢٧٨ النور: ٢٢.

١٢٧٩ البقرة: ٢٢٤.

١٢٨٠ البخاري: المغازي، ٣٤/ ٤١٤١؛ مسلم: التوبة، ٥٦/ ٢٧٧٠؛ الطبري: التفسير، ٢، ٥٤٦.

ولما وصل الخبر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام غير المنافقون أقوالهم وأقسموا أنهم لم يتفوهوا بمثل هذا الكلام. وكذبوا زيدًا ﷺ، فتأثر زيد تأثرًا شديدًا مما حصل، وأما عمر بن الخطاب ﷺ فقد استأذن من رسول الله عليه الصلاة والسلام أن تُضرب أعناق المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي، إلا أن النبي ﷺ قال بحكمة بالغة:

- **فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدًا يقتل أصحابه! لا! ولكن ناد يا عمر: الرحيل!.**

وعلى إثر ذلك خرج المسلمون في طريقهم راحلين إلى المدينة المنورة، وفي ذلك اليوم واصل النبي ﷺ السير في النهار والليل كله دون توقف، ولما أحل الصباح وبدأت حرارة الشمس بالارتفاع نزل المسلمون للاستراحة، ومن شدة التعب والنعاس استلقى الناس في أماكنهم وغرقوا في نوم عميق، وقد كان النبي ﷺ يريد بذلك منع المسلمين من الانشغال بمقولة عبد الله بن أبي.[١٢٨١] إن هذه السياسة الدقيقة التي اتبعها الرسول ﷺ في هذا الموقف تظهر وتؤكد معرفته العميقة بطبيعة تكوين الإنسان.

وبعد مدة نزلت آيات تبين حال المنافقين، حيث يقول الله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ. وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٢٨٢]

١٢٨١ انظر: ابن كثير: التفسير، ٨، ١٥٣؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٣٥ – ٣٣٦.

١٢٨٢ المنافقون: ١ – ٨.

فلما نزلت سورة «المنافقون» نادى رسول الله ﷺ على زيد بن الأرقم ﷺ، فقرأ عليه هذه الآيات، وقال له:

- **إن الله قد صدقك يا زيد!** [١٢٨٣]

ثم أمسك بأذن زيد وقال:

- **هذا الذي أوفى الله بأذنه.**[١٢٨٤]

ومن الحكمة الإلهية أنه كان لعبد الله بن أبي ولد اسمه عبد الله، وكان مؤمنًا صادقًا، شديد التعلق برسول الله ﷺ.

وكان يحزن كثيرًا لما يفعله أبوه، ولا يستطيع الصبر عليه، ولما زاد الحنق والكدر في قلبه إلى درجة كبيرة بسبب الأحداث الأخيرة جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال له:

- يا رسول الله! لو شئت قتلت أبي!

فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- **بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا!**

فتوجه عبد الله إلى أبيه الذي كان يسير مع جيش المسلمين، وأمسك بزمام بعيره، وصرخ به قائلًا:

- والله لا أدعك أبدًا حتى تقول: إن العزة والقوة لله تعالى ولرسوله ﷺ!

دُهش رأس النفاق واضطرب، ولم يستطع تحمل هذه الإهانة التي تلقاها من ابنه على مرأى الناس، ونالت من كبريائه، فقال له:

- أأنت تمنعني من دخول المدينة من بين هؤلاء القوم؟

فقال ابنه بقوة وجلد إيماني عظيم:

- لا أدعك اليوم حتى تعلم من الذليل ومن العزيز بين هؤلاء القوم، وإن لم تعترف بالحق فسأضرب رأسك...

١٢٨٣ البخاري: التفسير، ٦٣ / ٤٩٠٠؛ مسلم: صفات المنافقين، ١.

١٢٨٤ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٣٦.

وهنا وقف المنافق الخائن عاجزًا وكأن يده قد غُلت إلى عنقه، ولما أدرك جدية ابنه في كلامه وتيقنه من أنه سوف يقدم على ما يقول سرت رعشة قوية من الخوف والفزع داخله، واضطر إلى النطق بالحقيقة وقول:

- أشهد أن العزة والقوة لله ولرسوله، وللمؤمنين.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لعبد الله:

- **جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا!**

وأمره بالإذن لأبيه بدخول المدينة.[١٢٨٥]

لقد كان الصحابة الكرام هائمين بمحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، شديدي الغيرة عليه حيث لم يرضوا أن يلحق به مثقال ذرة من الضرر أو الأذى، ولو بالكلام، وكان يستثيرهم ويخرجهم عن طورهم أدنى نظرة غير طبيعية، أو عدم احترام تجاه الرسول الكريم ﷺ، فهم مستعدون لوقف المعتدي عند حده ولو اقتضى الأمر قتله حتى وإن كان المعتدي أبوهم.

غزوة الخندق: «٥ شوال – ذو القعدة / آذار ٦٢٧»

تُعد غزوة الخندق واحدة من أشد الحروب وأقسى المعارك التي أعلنها المشركون على المسلمين، حيث حُضرت هذه المعركة وشُنت بهدف اجتثاث دولة الإسلام الناشئة في المدينة وإفناء المسلمين من الوجود، ومحو آثارهم وذكرهم من التاريخ.

كان بعض وجهاء يهود بني النضير الذين أُجلوا من المدينة المنورة قد لجؤوا إلى خيبر، وكانت نيران الحقد والانتقام من المسلمين تتأجج مثل البركان في قلوبهم، وعرضوا على قريش الدخول في حلف من أجل الثأر من المسلمين، حتى بلغ بهم الأمر أن قالوا لقريش بأن عبادة الأصنام التي يعكفون عليها أفضل وأسمى من الإسلام، وعبدوا معهم تلك الأصنام. وعلى إثر ذلك أنزل الله تعالى آيات قرآنية يصور فيها حالتهم هذه، إذ يقول:

١٢٨٥ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٣٤ – ٣٣٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦٥؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩، ٣١٧ – ٣١٨؛ الزمخشري: ٦، ١١٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[١٢٨٦]

فتحرك المشركون الذين كانوا في الأساس يبحثون عن مثل هذه الفرصة، تحركوا على الفور. ووجد المشركون الكثير من الحلفاء مستفيدين في ذلك من تجرؤ القبائل العربية الأخرى وتشجعها لعدم تمكن المسلمين من تحقيق نصر جدي في معركة أحد، ونجحوا بتشكيل جيش كبير يتجاوز عدد مقاتليه العشرة آلاف.[١٢٨٧]

فلما وصل خبر أمر المشركين إلى رسول الله ﷺ أخذ يستشير أصحابه، ووعدهم بالعون والإمداد الإلهي إن هم لم يعصوا أوامر الله تعالى، وتحملوا المشاق والمصاعب في سبيل الله تعالى. وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله.

سأل رسول الله ﷺ أصحابه الكرام واستشارهم في الخروج من المدينة ومواجهة العدو في معركة مباشرة، أو البقاء في المدينة والتحصن بها، فقال سلمان الفارسي ﷺ:

- يا رسول الله! إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا.

وأُعجب المسلمون بكلام سلمان ﷺ الذي أيد توصية رسول الله ﷺ.[١٢٨٨]

وفي نفس الوقت تذكر الصحابة الكرام رغبة النبي ﷺ يوم أحد، إذ أراد البقاء في المدينة والدفاع عنها وعدم الخروج منها، وهكذا فقد اتُخذ قرار بحفر خندق حول المدينة المنورة.

لقد كانت المدينة مفتوحة من جهة واحدة وكان الخطر الأكبر يتهددها من هذه الجهة، وأما الجهات الأخرى فكانت محاطة بالأبنية المتداخلة والتي تبدو وكأنها قلعة تحمي بأسوارها المدينة، إضافة إلى أنها كانت محاطة بأشجار النخيل الكثيفة والتي لا يمكن العبور خلالها، فقرر النبي ﷺ حفر الخندق في الجهة المفتوحة على الأعداء، وخط النبي ﷺ الخندق من أجم الشيخين طرف بني حارثة، حتى بلغ المذاد ثم قطعه أربعين ذراعـًا بين كل عشرة أشخاص.[١٢٨٩]

١٢٨٦ النساء: ٥١ – ٥٢. انظر: الواحدي: أسباب النزول، ١٦٠.

١٢٨٧ انظر: الواقدي: المغازي، ٢، ٤٤٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦٦.

١٢٨٨ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٣١؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٤٥.

١٢٨٩ الطبري: التاريخ، ٢، ٥٦٨؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ١، ٤٨٢.

واشترك رسول الله ﷺ في حفر الخندق بنفسه مع أصحابه الكرام. حتى إنه من شدة انهماكه بالحفر وإصراره على المتابعة دون انقطاع كان يضطر إلى شد الحجر إلى بطنه الشريف لكي يسكت الألم الذي ينتابه عندما يشعر بالجوع الشديد.[١٢٩٠]

ولم يكن يتوانى سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام حتى في هذه الحالة عن شكر ربه وحمده.

يقول البراء بن عازب ﷺ:

لما كان يوم الأحزاب،[١٢٩١] وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته - وهو ينقل من التراب - يرتجز بكلمات ابن رواحة، فيقول:

«**والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا**» ورفع بها صوته: «**أبينا أبينا**»[١٢٩٢]

لقد كان الصحابة الكرام في تلك الأوقات يعانون من شدة وضائقة عظيمة لدرجة أنهم لم يكونوا يقدرون على إشباع بطونهم. ويصف أنس ﷺ هذه الحالة بقوله:

كان الصحابة يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة. - هي الشحم والزيت وكل ما يؤتدم به، متغير الرائحة، فاسد الطعم، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن - توضع بين يدي القوم، والقوم جياع.[١٢٩٣]

لقد كان جميع المسلمين كبارهم وصغارهم يشتركون في حفر الخندق، وكان من بين هؤلاء الصغار زيد بن ثابت حيث كان يبلغ من العمر آنذاك خمسة عشر عامًا، وقد غلبه النعاس ذات مرة هناك فرقد، وتركه المسلمون نائمًا بجوار الخندق وانصرفوا، فمر به عمارة بن حزم فأخذ سلاحه وهو لا يشعر وخبأه في مكان ما، حتى استفاق زيد من رقاده ففزع لفقد سلاحه، ولما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، دعا زيدًا إليه فقال له:

١٢٩٠ البخاري: المغازي، ٢٩.

١٢٩١ لقد أطلُق على غزوة الخندق اسم الاحزاب أيضـًا، وذلك بسبب تحزب مختلف القبائل واجتماعها بعضها مع بعض في مواجهة المسلمين.

١٢٩٢ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١٠٤؛ مسلم: ١٢٥/ ١٨٠٣

١٢٩٣ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١٠٠.

«**يا أبا رقاد، نمت حتى ذهب سلاحك!**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**من له علم بسلاح هذا الغلام؟**»، فقال عمارة بن حزم: أنا يا رسول الله، وهو عندي. فقال: «**فرده عليه**»، ونهى رسول الله ﷺ أن يروع المسلم أو يؤخذ متاعه لاعبا جادا .[١٢٩٤]

البشارة في الخندق

صادف الصحابة الكرام خلال حفر الخندق صخرة عظيمة وصلبة عجزوا عن كسرها وحالت دون إتمامهم حفر الخندق فأخبروا رسول الله ﷺ بأمرها، فأخذ سيد الخلق عليه الصلاة والسلام مطرقة حادة بيده الشريفة، فسمى باسم الله وضرب تلك الصخرة ثلاث ضربات، فانتثر منها في الهواء ما يشبه الرمل الناعم.[١٢٩٥] ومع مع كل ضربة كان النبي ﷺ يبشر المسلمين ببشارة، فقد أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه رأى في الضربة قصور الشام وقد أعطي مفاتحها، وفي الضربة الثانية رأى قصور المدائن بفارس وأُعطي مفاتحها، وفي الضربة الثالثة رأى قصور اليمن وأعطي مفاتحها، ومن خلال هذه البشارات التي دلّت على إعلاء كلمة الله الذي سوف يتحقق في هذه البلدان، غرست في قلوب المسلمين بذور الأمل والتفاؤل بالنصر المستقبلي.[١٢٩٦] ولقد بشر الله تعالى بزوال الباطل وإزهاقه كليـًا في المستقبل القريب، ورسم خريطة هداية شاملة للعالم بأسره تشير بشكل قطعي إلى وقوع أحداث متسلسلة غير متوقعة ولا متصوّرة من قبل البشر.

ولما وصف النبي ﷺ لسلمان الفارسي رضي الله عنه قصر كسرى الأبيض الذي يقع في المدائن، قال سلمان رضي الله عنه: صدقت! والذي بعثك بالحق إن هذه لصفته، وأشهد أنك لرسول الله!.

فقال رسول الله ﷺ:

«**هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان! لتُفتحن الشام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحد، ولتُفتحن اليمن! وليُفتحن هذا المشرق، ويُقتل كسرى بعده**».

يقول سلمان رضي الله عنه: فكل هذا قد رأيت!. [١٢٩٧]

١٢٩٤ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٤٨.

١٢٩٥ البخاري: المغازي. ٢٩.

١٢٩٦ انظر. أحمد: مسند، ٤، ٣٠٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٨٣، ٨٤.

١٢٩٧ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٥٠.

ولما فُتحت هذه البلدان واحدة بعد الأخرى، كان أبو هريرة ﵁ يقول:

«افتحوا ما بدا لكم! فو الذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدًا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك»[١٢٩٨]

لقد شكلت هذه البشارات التي بشر بها النبي عليه الصلاة والسلام قوة دفع معنوية كبيرة للمسلمين من أجل تحمل المصاعب والمشقات التي سوف يتعرضون لها بكل ثبات ورحابة صدر، وإن إخبار المسلمين مقدمًا بنتيجة المعركة التي سوف تنتهي لصالحهم وتؤدي إلى هزيمة الأعداء قد زاد من صبر ورباطة جأش قلوبهم الممتلئة بالإيمان، وذلك لأن الخندق كان محنة أليمة وشاقة تفوق التحمل بسبب مواجهة المسلمين لمختلف أنواع المعاناة والمصاعب من القلق، والتعب، والجوع، والبرد، والظلام، وإضافة إلى ذلك فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يضع الآخرة كهدف أساسي أمام أصحابه الكرام، ويبين لهم بأن كل المتاعب والحرمان والآلام التي يعانون منها في الحياة الدنيا لا قيمة لها مقابل الحياة الأبدية المقبلين عليها، وذلك بقولهم:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة»[١٢٩٩]

طعام جابر الذي طُرحت فيه البركة

يقول جابر ﵁:

إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «**أنا نازل**». ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب، فعاد كثيبا أهيل، أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي عليه الصلاة والسلام والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «**كم هو**» فذكرت له، قال: «**كثير طيب، قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي**»، فقال: «**قوموا**»

١٢٩٨ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٣٥.

١٢٩٩ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١٠٠؛ مسلم: المساجد، ١٢٩/ ١٨٠٥ .

فقام المهاجرون، والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال:

«**كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»[١٣٠٠]

فكان ذلك من إحدى معجزات رسول لله ﷺ حيث أشبع ـ بإذن الله تعالى ـ الطعام القليل ألف شخص، بل وزاد الطعام حتى وُزع منه على الجوار.

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ينفق كل الأموال التي تقع بين يديه في سبيل الله تعالى، ولذلك لم يكن ثمة فائض من المال في بيته، ولم يكن يخبر أحدًا من الصحابة عندما تكون به حاجة لكيلا يكون حملًا على أحد، ولكن الصحابة الكرام كانوا يتتبعون حال النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا، وإذا ما شعروا بأن له حاجة ما فإنهم كانوا يسارعون إلى تلبيته دون طلب منه. وعندما كانوا يحسون بضعف في صوته بسبب الجوع فما كان منهم إلا أن يأخذوه إلى بيوتهم ويضعوا له أطيب ما لديهم من الطعام.[١٣٠١] وكانوا إذا رأوا شحوبـًا في وجهه يسرعون إلى البحث عن شيءٍ من الطعام ليقدموه له، فإن لم يعثروا على شيءٍ يلجؤون إلى العمل في سقاية الإبل مقابل تمرات ليجلبوها له.

فهكذا كانت مواقف الصحابة مع رسول الله ﷺ، فعن عثمة الجهني، قال:

«خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلقيه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إنه ليسوءني الذي أرى بوجهك، وعما هو؟ قال: فنظر النبي ﷺ لوجه الرجل ساعة، ثم قال: «**الجوع**». فخرج الرجل يعدو، أو شبيها بالعدو، حتى أتى بيته، فالتمس عندهم الطعام فلم يجد شيئا، فخرج إلى بني قريظة فأجر نفسه على كل دلو ينزعها بتمرة، حتى جمع حفنة أو كفا من تمر، ثم رجع بالتمر حتى وجد النبي ﷺ في مجلسه لم يرم فوضعه بين يديه وقال: كل أي رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «من أين لك هذا التمر؟». فأخبره الخبر، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إني لأظنك تحب الله ورسوله**». قال: أجل. والذي بعثك بالحق، لأنت أحب إلي من نفسي، وولدي، وأهلي، ومالي، قال:

١٣٠٠ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١٠١؛ مسلم: الأشربة، ١٤١/ ٢٠٣٩؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٥٢.

١٣٠١ انظر. البخاري: الأطعمة، ٦؛ مسلم: الأشربة، ١٤٢.

«أما لا فاصطبر للفاقة، وأعد للبلاء تجفافا؛ فوالذي بعثني بالحق، لهما إلى من يحبني أسرع من هبوط الماء من رأس الجبل إلى أسفله»[١٣٠٢]

مشاقُّ غزوة الخندق

كان الفصل شتاءً، وكان المشركون قد حاصروا المدينة، إلا أنهم تفاجؤوا بالخنادق المحفورة أمامهم والتي لا يمكنهم اجتيازها، فلم يتمكنوا من دخول المدينة.

لما جاء المشركون واتخذوا مواقعهم، استخلف النبي عليه الصلاة والسلام ابن أم مكتوم على المدينة وخرج على الفور إلى الخندق على رأس ثلاثة آلاف من المجاهدين المؤمنين. فجعل ظهره إلى جبل سلع واتخذ موقعه عند سفح الجبل. وأمر بالذراري والنساء فجعلوا بالقلاع والحصون.[١٣٠٣] وأعاد من لم يتم الخامسة عشرة سنة من عمره إلى أهله في القلاع، وأذن لمن أتم الخامسة عشرة سنة من الصحابة بالبقاء مع الجيش، أمثال ابن عمر، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب رضي الله عنهم أجمعين.[١٣٠٤]

وفي هذه الأثناء أعلن يهود بني قريظة العصيان على رسول الله ﷺ، ونقضوا المعاهدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وبذلك فقد نقضوا معاهدتهم للمرة الثانية، وصارت هذه هي خيانتهم الثانية، فأصبح المسلمون بين نارين، وبعث اليهود برسول إلى زعيم المشركين أبي سفيان، فقالوا له:

- اثبتوا أنتم! وسوف نهاجم المسلمين من الخلف، ونبيدهم عن بكرة أبيهم![١٣٠٥]

ثقلت هذه الخيانة الشنيعة على رسول الله عليه الصلاة والسلام لدرجة كبيرة، إلا أنه كان دائمًا في حالة تسليم وتوكل على لله سبحانه وتعالى، ولذلك قال في هذه المرحلة الحرجة:

- **حسبنا الله ونعم الوكيل!**.[١٣٠٦]

١٣٠٢ الهيثمي: مجمع الزوائد، ١، ٣١٣/ ١٨٨٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣، ٥٤.

١٣٠٣ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٣٥.

١٣٠٤ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٥٣.

١٣٠٥ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٣٦٨.

١٣٠٦ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٥٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦٧.

ومن ثم قال:

– **من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟**

فقال الزبير بن العوام رضي الله عنه:

– أنا يا رسول الله! فذهب على فرس، فجاء بخبرهم، ولما ضاقت الأحوال وتعاظم خطرها أرسل النبي عليه الصلاة والسلام زبيرًا عدة مرات ليأتيه بخبر عن اليهود، وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام معبرًا عن استحسانه ورضاه عما قام به الزبير من الخدمات الجليلة:

– **لكل نبي حواري، وإن حواري الزبير**.[١٣٠٧]

وبعد ذلك أرسل النبي عليه الصلاة والسلام وفدًا إلى اليهود، وأوصى هذا الوفد بقوله:

– **انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقـًا فالحنوا لي لحنـًا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.**

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم.[١٣٠٨]

فقام النبي عليه الصلاة والسلام – تحسّبـًا لأي هجوم قد يقع عليهم ولأجل المحافظة على المدينة – بتشكيل قوة مؤلفة من خمسمائة مجاهد لحراسة المدينة، فجعل سلمة بن أسلم على رأس مائتي مقاتل، وأمر زيدًا رضي الله عنه على ثلاثمائة منهم. وكانت مهمة هؤلاء حراسة المدينة، والقيام بدوريات في أحيائها مع رفع أصواتهم بالتكبير.[١٣٠٩]

وقد كان المسلمون في خوف وخشية من هجوم اليهود خلال الليل كله، فإذا انقضى وأصبح الصباح دون مباغتتهم من اليهود اطمأنوا وأمنوا، ويقول أبو بكر رضي الله عنه:

«لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أُوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين، حمدت الله عز وجل»[١٣١٠]

١٣٠٧ أحمد: مسند، ٣، ٣١٤/ ١٤٩٣٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣، ٣٦.

١٣٠٨ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٣٧.

١٣٠٩ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦٧.

١٣١٠ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٦٠.

وقالت أم المؤمنين أم سلمة ﵂:

«قد شهدت مع رسول الله ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف ـ المريسيع، وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحنين ـ لم يكن من ذلك شيءٌ أتعب لرسول الله ﷺ، ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري ، والمدينة تحرس حتى الصباح، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفا، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا» [١٣١١]

ومن الجانب الآخر كان المشركون يكثفون من غاراتهم على أطراف الخندق، وتحدث في أوقات الليل اشتباكات وقتال شديد بين الطرفين ويتراشقون بالسهام، وحتى إنه في بعض الأحيان كانت تستهدف خيمة الرسول عليه الصلاة والسلام بالسهام.

وذات يوم هجم المشركون بقوة على مكان يتواجد فيه رسول الله ﷺ، وفي ذلك اليوم لم يجد النبي ﷺ والصحابة الكرام فرصة ومجالًا لأداء الصلاة، فلما حلّ المساء وانسحبت الجيوش إلى مواقعها أمر النبي ﷺ بلالًا برفع الأذان، وأمر بالإقامة لكل صلاة فرض، فصلى الظهر، والعصر، والمغرب قضاءً. فحزن النبي ﷺ بسبب هذه الحادثة حزنًا شديدًا، ودعا على المشركين الذين حالوا دون أدائه للصلاة التي «كانت قرة عينه فيها»، بقوله:

«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[١٣١٢]

البطولات التي ظهرت في غزوة الخندق

لقد كان الجميع كبارًا وصغارًا يقومون بمهامهم في المعركة، وكان النبي ﷺ يحرس بنفسه الأماكن الضيقة من الخندق.[١٣١٣]

تقول أم المؤمنين أم سلمة ﵂:

«كنت مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله. وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر شديد، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء الله أن يصلي في قبته، ثم

١٣١١ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٦٧.

١٣١٢ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١١١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٦٨ – ٦٩؛ ابن كثير: البداية، ٤، ١١٢.

١٣١٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٦٣ – ٤٦٤.

خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: «**هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، من لهم؟**» ثم نادى: «**يا عباد بن بشر**». فقال عباد: لبيك! قال: «**أمعك أحد؟**» قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك. قال:

«**فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرة. اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم، لا يغلبهم غيرك!**»

فخرج عباد بن بشر رضي الله عنه في أصحابه. فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق.

وقد نذر بهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنبل، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلي... يرحم الله عباد بن بشر فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله عليه الصلاة والسلام يحرسها أبدًا» [١٣١٤]

وفي هذه الأثناء كانت عمة النبي عليه الصلاة والسلام صفية رضي الله عنها في حصن يقال له فارع مع نساء وصغار المسلمين، ومعهم حسان بن ثابت رضي الله عنه، فجاءت مجموعة مؤلفة من عشرة مقاتلين من اليهود وجعلت ترمي الحصن بالسهام وتحاول اختراقه إلى الداخل، وكان أحدهم يطوف حول الحصن باحثًا عن أي منفذ يخترق منه إلى النساء والأطفال، وفي هذه اللحظات كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام في حالة حرب واشتباك مع جيش العدو في الخندق، وليس لهم خبر بما يحدث حول الحصن.

فلما رأت صفية رضي الله عنها أن لا نجاة لهم، وليس هناك من يدافع عمن حولها سواها فوضعت على رأسها ثوبًا وأحكمت رباطه، ثم أخذت بيدها خشبة ونزلت إلى أسفل الحصن، ففتحت الباب واقتربت بهدوء من خلف اليهودي الذي يجوب حول الحصن فضربته ضربة شدخت رأسه فقتلته، فلما رأت بقية المجموعة مقتل صاحبهم دبّ الخوف والرعب في قلوبهم فتفرقوا وهربوا جميعًا، وهم يقولون:

- قد علمنا أنَّ محمدًا لم يكن ليترك أهله خلوفًا ليس معهم أحد.[١٣١٥]

١٣١٤ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٦٤.

١٣١٥ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ١٣٣ - ١٣٤؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٦٢.

وتنقل لنا أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ أيضـًا مشاهد من شوق الصحابة الكرام للقتال والجهاد في سبيل الله، حيث تقول:

«خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي يعني حس الأرض، فالتفت فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه، فجلست إلى الأرض، فمرّ سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد. وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم. فمرّ وهو يرتجز شعرًا يثير حماس الناس ويشجعهم على الجهاد، ويحبب إليهم الموت عند دنو الأجل، فقالت له أمه:

اِلحق يا بني! قد والله أخرت عن رسول الله ﷺ!

فقلت لأم سعد:

– يا أم سعد لوددت أن درع سعد أسبغ مما هي، وخفت عليه من أن يصيبه في ذراعه.

فقالت أم سعد:

– إن الله نافذ حكمه! وقد أصيب سعد ﵁ ذلك اليوم» [١٣١٦]

ولما أدرك سعد أن جرحه غائر وقاتل، دعا ربه سبحانه وتعالى بقوله:

«اللهم، إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئـًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أقاتل من قوم كذبوا رسول الله ﷺ، وآذوه وأخرجوه! وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنا وعنهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة!»[١٣١٧]

وما إن فرغ سعد ﵁ من دعاءه حتى توقف نزف جرحه، ولم تسقط بعدها قطرة دم واحدة.[١٣١٨]

فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بنقل سعد ﵁ إلى المسجد ونصب خيمة له فيه، وكان القصد من ذلك الإكثار من زيارته عليه الصلاة والسلام له، والبقاء بقربه.[١٣١٩]

١٣١٦ أحمد: مسند، ٦، ١٤١/ ٢٥٠٩٧؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٤٤.

١٣١٧ الواقدي: المغازي، ٢، ٥٢٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٢٣؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٢٧٧.

١٣١٨ انظر: الترمذي: السير، ٢٩ / ١٥٨٢؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٥٠.

١٣١٩ البخاري: المغازي، ٣٠.

لم يتمكن من تجاوز الخنادق العميقة إلا القليل من المشركين، وكان أحد هؤلاء عمرو بن عبد ودّ، وكان عمرو من أشهر فرسان العرب وأشجعهم جميعًا في القتال والنزال. فخرج له علي بن أبي طالب ﷺ وتمكن من قتله بإذن الله تعالى، وكانت عاقبة الآخرين الذين عبروا الخندق كعاقبة عمرو.

كانت المعركة المستمرة فيما يبدو أنها ستطول كثيرًا، وأخذت الأحوال تضيق على المسلمين وتتجه نحو مزيد من المصاعب حتى إنهم صاروا يتساءلون عن الوقت الذي سوف يأتي فيه العون الإلهي، ويصور الله تعالى حالتهم هذه في آيات كريمة من كتابه العزيز، حيث يقول:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٣٢٠]

وقال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[١٣٢١]

١٣٢٠ الأحزاب: ١٠ – ١٦.

١٣٢١ الأحزاب: ٢٢.

الحرب خدعة

لقد قاوم المسلمون بكل ما أوتوا من قوة، فقام نعيم بن مسعود ﷺ – وكان من وجهاء قبيلة غطفان الذين دخلوا الإسلام – بناءً على قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**الحرب خدعة** »[١٣٢٢] بالعمل على الإيقاع بين المشركين وبني قريظة وإحداث الشقاق بينهم، ونجح في مسعاه، فاختلفت القبائل المحاصرة للمدينة فيما بينها ودخلت الفرقة بينهم، وكان الجميع في حالة خوف من بعضهم، وفي نهاية الأمر انطلت حيل نعيم على اليهود وانسحبوا إلى قلاعهم وحصونهم. فبقي في الميدان من الأعداء المشركون فقط، وخلال مرور الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام بامتحان عصيب بحصارهم الخانق من قبل المشركين وحلفائهم حيث «بلغت القلوب الحناجر»، أنزل الله تعالى قوله:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[١٣٢٣]

فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء وتضرع إلى ربه داعيـًا:

«**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[١٣٢٤]

وما إن فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من دعائه حتى علت الابتسامة وعلامات الانفراج والانشراح محياه بتحقق المدد والعون الإلهي له، حيث تشكلت عاصفة هوجاء شديدة وبدأت تزلزل صفوف الأعداء وتفرق جمعهم، وتخللت هذه العاصفة زوبعة عظيمة تقتلع كل شيءٍ تمر عليه فحملت معها غبارَ وأتربة وادي المدينة وضربت بها وجوه المشركين وملأت أعينهم حتى عجزوا عن رؤية ما حولهم، واقتلعت خيامهم، ونثرت أوانيهم، وأخمدت نيرانهم، وأفزعت جمالهم وخيولهم فهاجت واضطربت.[١٣٢٥]

١٣٢٢ البخاري: الجهاد، ١٥٧؛ مسلم: الجهاد، ١٧.

١٣٢٣ البقرة: ٢١٤. انظر. الطبري: التفسير، ٢، ٤٦٤.

١٣٢٤ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١١٥؛ مسلم: الجهاد، ٢١/ ١٧٤٢.

١٣٢٥ انظر. ابن سعد: الطبقات، ٢، ٧١.

فتشتت المشركون الطغاة الذين جاءتهم الكارثة السماوية، والعذاب الإلهي وساءت أحوالهم، حتى إن أبا سفيان الذي كان أكثرهم حرصًا وتشوقًا إلى هذه الحرب، فقد صوابه ووقف عاجزًا مكتوف اليدين أمام هذا العذاب الإلهي، وقال لجنوده:

- يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله فجلس عليه ثم ضربه وانطلق في طريقه قافلًا إلى مكة.[١٣٢٦]

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى المدد على المسلمين وأيدهم بنصره، حيث يقول في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[١٣٢٧]

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[١٣٢٨]

لقد ترك المشركون – بعد أن مُنوا بشر هزيمة – خلفهم الكثير من الخيل والجمال، وأدوات الحرب، والمؤن. وقد أعانت هذه الأموال والأرزاق أهل المدينة المنورة ورفعت عنهم الضيق والمجاعة التي كانوا يعانون منها في تلك الفترة. وبعد هذا الإحسان الإلهي والنصر المؤزر قال رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام:

«**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**»[١٣٢٩]

وهكذا أصبح وفقًا لكلام النبي عليه الصلاة والسلام بإمكان المسلمين مهاجمة أعدائهم، وليس الوقوف موقف المدافع فقط، لأن المشركين قد انكسرت شوكتهم، وقُضي على غرورهم وكبريائهم تمامًا، وصارت قلوب جميع المؤمنين تردد وتترنم بكلمات الرسول عليه الصلاة والسلام «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا!**».

١٣٢٦ انظر. ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٥١.

١٣٢٧ الأحزاب: ٩.

١٣٢٨ الأحزاب: ٢٥.

١٣٢٩ البخاري: المغازي، ٢٩/ ٤١١٠.

غزوة بني قريظة «٢٣ ذي القعدة / ١٥ نيسان ٦٢٧»

عاد المسلمون منتصرين في معركة الخندق، ورجع المشركون بالخسران المبين. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:

لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: **فإلى أين؟** قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم»[١٣٣٠]

وذلك لأن بني قريظة كما اليهود الذين سبقوهم لم يراعوا - بأفعالهم التي أقدموا عليها خلال الحرب - العهد الذي بينهم وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام، فارتكبوا الخيانة في أحلك وأصعب الأحوال التي كان يمر بها المسلمون. بينما كان من الواجب عليهم حسب بنود المعاهدة أن يواجهوا المشركين الذين يهاجمون المدينة ويدافعوا عنها إلى جانب المسلمين. ولكنهم فعلوا عكس ذلك تمامًا، إذ إنهم لم يكفُّوا عند كل محنة وفرصة سانحة عن الخيانة والطعن في ظهور المسلمين. وهكذا فإنهم كانوا يسوقون أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة والخسران.

فجمع النبي عليه الصلاة والسلام على الفور أصحابه الكرام، وسار إلى بني قريظة، حتى إنه قال لأصحابه:

«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» [١٣٣١]

فتحرك قبل أن تجتمع اليهود ويستعدوا للمواجهة.

لما رأى اليهود علي بن أبي طالب رضي الله عنه على رأس فرقة مؤلفة من عشرة مقاتلين، فعوضًا عن إظهار ندمهم على ما اقترفت أيديهم في معركة الخندق فقد تمادوا في غيهم وتمردهم أكثر وتكلموا بقالة السوء بحق رسول الله عليه الصلاة والسلام.[١٣٣٢] إلا أنهم لما أبصروا بعد لحظات أمامهم جيشًا عظيمًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف مجاهد يسابقون إلى الموت في سبيل الله وعلى رأس هذا الجيش رسول الله ﷺ أصابهم الذهول، فخرسوا وكأن ألسنتهم قد وُضعت عليها الأقفال، فأنكروا ما قالوه لمهابتهم وخشيتهم من رسول الله ﷺ.

١٣٣٠ البخاري: المغازي، ٣٠/ ٤١١٧ / ٤١٢٢

١٣٣١ البخاري: المغازي، ٣٠/ ٤١١٩.

١٣٣٢ انظر. الواقدي: المغازي، ٢، ٤٩٩.

فقال أسيد بن حضير ﷺ: يا أعداء الله، لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعا. إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر.

قالوا: يا ابن الحضير، نحن مواليكم دون الخزرج! وخاروا

وقال: لا عهد بيني وبينكم ولا إل.[١٣٣٣]

وقبل أن يبدأ النبي ﷺ بقتال اليهود اقترب من بوابة حصنهم ودعاهم إلى الإسلام. إلا أنهم رفضوا الأمر.[١٣٣٤]

ولما طال الحصار وأحس اليهود بأن الأمور تضيق عليهم كثيرًا، قال أحد قادتهم وهو كعب بن أسد:

يا معشر اليهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثة فخذوا أيهما شئتم!.

فقالوا: وما هي؟

قال كعب: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل وإنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم!

فقال اليهود: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره!

قال كعب: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالًا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدنّ النساء والأبناء!

فرفضوا، فعرض عليهم الهجوم على المسلمين ليلة السبت فرفضوا أيضـًا، ولم يقبلوا بأي من اقتراحاته الثلاثة.[١٣٣٥] لأن الله تعالى قد بثّ في قلوبهم الرعب.

وأسلم ثلاثة من شباب اليهود لما رأوه من مطابقة صفات النبي عليه الصلاة والسلام لتلك الأوصاف التي أُخبروا بها من علماء اليهود، وغادروا القلعة تحت جنح الظلام وجاؤوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.[١٣٣٦]

١٣٣٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٤٩٩.

١٣٣٤ انظر: عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٢١٦، ٣٧٠.

١٣٣٥ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٥٤.

١٣٣٦ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٥٦.

فاضطر اليهود في ذلك اليوم إلى الاستسلام لرسول الله ﷺ دون قيد أو شرط، ولأن يهود بني قريظة كانوا في جوار قبيلة أوس، فقد أرسلوا إلى النبي ﷺ عارضين عليه أن يحكم فيهم كبير القبيلة وهو سعد ﵁. فأطاع سعد أمر رسول الله ﷺ بكل شوق ومحبة على الرغم من الجرح الذي كان قد أصيب به في الخندق، وجاء إلى اليهود، لأن سعدًا ﵁ لما أصيب في الخندق دعا ربه قائلًا: يا رب! لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة!

وبناء على مطالبة اليهود بتحكيمه فقد قرر سعد ﵁ أن تُحكم فيهم شريعة موسى ﵇.[١٣٣٧] فوافق رسول الله ﷺ على حكمه، وقال:

- **يا سعد! لقد حكمت فيهم بحكم الله –الملك–**.[١٣٣٨]

لقد قُبل دعاء سعد ﵁ الذي دعاه بإخلاص من صميم قلبه، حيث إنه بعد أن قضى بالحكم على اليهود الخائنين الذين طعنوا المؤمنين في ظهورهم نزف جرحه من جديد، وبعد فترة من الزمن سلم ذلك العاشق للنبي عليه الصلاة والسلام روحه الطاهرة إلى بارئها ليرتقي شهيدًا وينال الرحمة الإلهية.[١٣٣٩]

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام عند وفاته:

«**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» [١٣٤٠]

لما حمل الناس نعش سعد ﵁ على أكتافهم شعروا بخفة وزنه لدرجة كبيرة، على الرغم من أنه كان جسيمًا ضخم البنية بدينًا، وقد بين الرسول ﷺ سبب ذلك بقوله:

«**إن له حملة غيركم! والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروحه واهتز له العرش!**» [١٣٤١]

وبقي النبي ﷺ يسبح الله تعالى طويلًا بعد الصلاة على جنازة سعد ﵁، ووضعه في قبره، ودفنه تحت التراب. وشارك الصحابة الكرام أيضًا رسول الله ﷺ وسبحوا معه. وثم

١٣٣٧ إن عقوبة الفعل الذي اقترفه اليهود كانت بحسب شريعة التوراة قتل كل من يحمل بيده السيف، ووضع اليد على الأموال، وأسر النساء والأطفال. (انظر. العهد القديم: التثنية، ٢٠ / ١٠ – ١٥).

١٣٣٨ البخاري: المغازي، ٣٠/ ٣٠٤٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٢٦.

١٣٣٩ انظر. ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٧١.

١٣٤٠ البخاري: مناقب الأنصار، ١٢/ ٣٨٠٣؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٢٤/ ٢٤٦٦.

١٣٤١ ابن هشام: السيرة، ٣، ٢٧١؛ الترمذي: المناقب، ٥٠ / ٣٨٤٨.

كبر الرسول عليه الصلاة والسلام وتابعه الصحابة في التكبير. وبعد ذلك سأل الصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقالوا: يا رسول الله لم سبحت، وكبرت؟

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه»[١٣٤٢]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لو نجا أحد من فتنة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضم ضمة ثم رخي عنه»[١٣٤٣]

يقول أنس رضي الله عنه:

أهدي للنبي ﷺ جبة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال النبي ﷺ:

«والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [١٣٤٤]

لقد بين القرآن أن الانتصار الذي وُفق إليه المسلمون في غزوة الخندق إنما كان باللطف والإحسان الإلهي، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[١٣٤٥]

١٣٤٢ أحمد: مسند، ٣، ٣٦٠ / ١٤٨٧٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٥١٧

١٣٤٣ الطبراني: المعجم الكبير، ١٠، ٣٣٤/ ١٠٨٢٧.

١٣٤٤ البخاري: بدء الخلق، ٨/ ٣٢٤٨؛ مسلم الفضائل، ١٢٦/ ٢٤٦٨.

١٣٤٥ الاحزاب: ٢٦ – ٢٧.

السنة السادسة للهجرة

مفتاح الفتوحات: صلح الحديبية

رحلة الشوق إلى الكعبة المشرفة

دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى زيارة الكعبة والطواف حولها بناءً على رؤيا رآها في منامه.[١٣٤٦] فتحرك النبي عليه الصلاة والسلام مع ألف وأربعمائة[١٣٤٧] من أصحابه الكرام الذين لبوا دعوته وخرجوا في طريقهم قاصدين مكة، وذلك يوم الاثنين الأول من شهر ذي القعدة للعام السادس للهجرة، ولأنهم خرجوا معتمرين لا محاربين لم يأخذوا معهم سوى سلاح المسافر العادي، واصطحبوا معهم سبعين من الإبل هديًا للكعبة.[١٣٤٨]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ متسائلًا:

أتخشى يا رسول الله علينا من أبي سفيان بن حرب وأصحابه، ولم نأخذ للحرب عدتها؟

فقال رسول الله ﷺ:

«ما أدري! ولست أحب أن أحمل السلاح معتمرًا!» [١٣٤٩]

ولما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى ميقات «ذي الخليفة» أحرم هناك ونوى نية العمرة، واتبعه الصحابة الكرام أيضًا. وبدأ المسلمون بنداء التلبية، وكانت القلوب تتحرق شوقًا للقاء الكعبة المشرفة في أقرب لحظة ممكنة، فكان المؤمنون يقتربون منها خطوة بخطوة ويملؤهم الوجد والحماس الروحي.

١٣٤٦ الواقدي: المغازي، ٢، ٥٧٢.

١٣٤٧ جاء في رواية ابن سعد، الجزء الثاني، ٩٥: أن هذا العدد زاد فيها بعد بانضمام الأعراب إلى الرحلة على طريق سيرها فوصل إلى ألف وخمسمائة، وحتى إلى ألف وسبعمائة.

١٣٤٨ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٩٥.

١٣٤٩ الواقدي: المغازي، ٢، ٥٧٣.

إلا أن المشركين الذين علموا بخبر خروج المسلمين إلى مكة أظهروا قلقًا وانزعاجًا قويًا تجاه هذا الأمر، فاجتمع زعماء قريش واتخذوا قرارًا يقضي بعدم السماح للمؤمنين بدخول مكة، فجُهزت على عجل قوة مؤلفة من مائتي مقاتل وخرجت من مكة بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة لملاقاة المسلمين.

وصل رسول الله ﷺ إلى موقع الثنية، وكان يمكن من هناك النزول إلى المكان الذي يتواجد فيه أهل قريش، ولكن ناقة رسول الله ﷺ القصواء بركت فيه، فقال النبي ﷺ:

- **حل حلّ.**

فقال ااناس:

- خلأت القصواء، خلأت القصواء!

فقال النبي ﷺ:

- **ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل.**

ثم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- **والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها!**

ثم زجر الناقة فوثبت، فعدل رسول الله ﷺ عن طريق قريش حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال البئر يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي زعيم قبيلة خزاعة في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة، نصح رسول الله عليه الصلاة والسلام من أهل تهامة، فقال:

- إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ:

- **إنا لم نجِئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر على الناس، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينقذن الله أمره.**

فقال بديل:

– سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشًا، فحدثهم بما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فقام عروة بن مسعود فقال:

– أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آتيه.

– قالوا:

– ائته! فأتاه عروة، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، فلما رجع عروة إلى أصحابه قال لهم:

– أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.[١٣٥٠]

فقال رجل من بني كنانة:

– دعوني آتيه!

فقالوا له:

– ائته! فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ:

– هذا فلان! وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له. فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال:

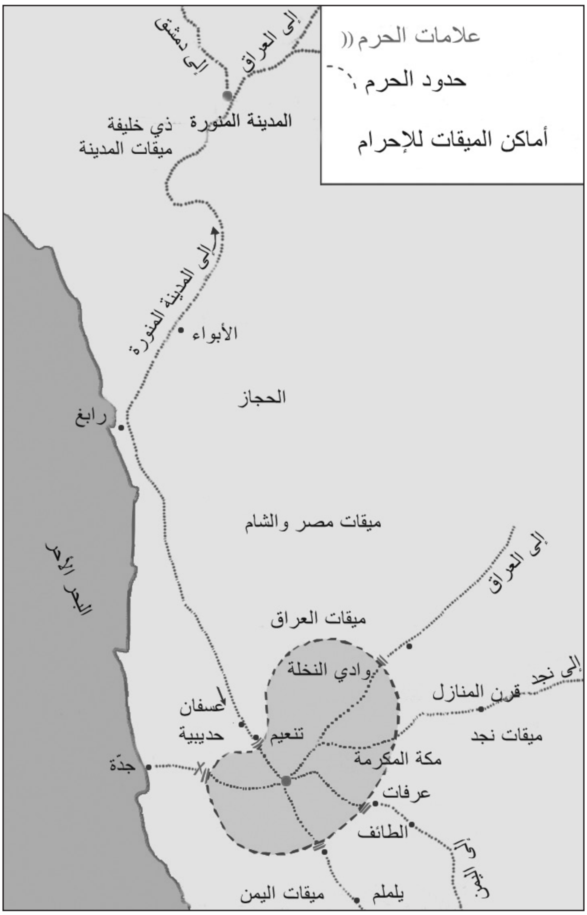
– سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت!.[١٣٥١]

١٣٥٠ لقد اضطر الكاتب المستشرق توماس كارليل للاعتراف بهذه الحقيقة بقوله: لم يلق امبراطور من الأباطرة الذين يرتدون التيجان على رؤوسهم احترامًا وتقديرًا بقدر ما لقيه محمد عليه الصلاة والسلام الذي كان يلبس رداءً مرقعًا بيده.

١٣٥١ البخاري: الشروط، ١٥/ ٢٧٣١؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٣ – ١٨٩٢٨/٣٢٤.

إلا أن المشركين لم يلتفتوا لنصح هؤلاء المبعوثين، فجهزوا فرقة من أجل الهجوم على المسلمين، وعلى الرغم من وقوع أفراد هذه الفرقة أسرى بيد المسلمين إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بإطلاق سراحهم وذلك ليدلل للمشركين بأن الحرب ليست نيته، وإنما يقصد بمقدمه أداء مناسك العمرة والرجوع إلى المدينة.[١٣٥٢]

لقد كانت خيمة النبي عليه الصلاة والسلام مبنية في الحديبية بمكان يقع خارج الحرم المكي، إلا أن النبي ﷺ أثناء إقامته هناك كان يذهب إلى مكان داخل الحرم المكي ويؤدي صلاته فيه.[١٣٥٣] لأن صلاة في المسجد الحرام أفضل من غيرها بألف مرة.[١٣٥٤]



١٣٥٢ مسلم: الجهاد، ١٣٢، ١٣٣.

١٣٥٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٦١٤؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٦.

١٣٥٤ انظر. ابن ماجه: الإقامة، ١٩٥.

بيعة الرضوان: البيعة التي رضي الله عنها

في هذه الأثناء جاء مبعوثون آخرون من المشركين وعادوا إلى مكة. ولأنه لم يتم التوصل إلى نتيجة قطعية بشأن أية معاهدة أو صلح مع أحد من هؤلاء، فأمر النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه بالذهاب إلى مكة من أجل اللقاء بالمشركين وحل المسألة معهم، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، وعندما تأخر عن العودة إلى رسول الله ﷺ شاع بين الناس بأنه قد قُتل على يد المشركين، فبدأ التوتر يسود بين المسلمين والمشركين إثر هذه الشائعة. وعلى الفور جمع رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه لاحتمال مقتل رسوله الخاص وممثله الذي بعث به إلى مكة، وقال لهم:

- **لا نبرح حتى نناجز القوم!** [١٣٥٥]

وبعد ذلك دعا أصحابه إلى البيعة للتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى. فاجتمع المؤمنون جميعًا رجالًا ونساءً، وجعل كل واحد منهم يبايع الرسول ﷺ بقوله:

- يا رسول الله! أبايعك على ما في نفسك! [١٣٥٦]

فوعد المؤمنون أن يقاتلوا في سبيل الله تعالى حتى الموت، وبايعوا رسول الله ﷺ وهو يضعون أيديهم واحدًا بعد الآخر في يد رسول الله ﷺ الشريفة، وبعد أن انتهى الجميع من مبايعة النبي عليه الصلاة والسلام، أمسك رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأخرى، وقال:

- **هذه لعثمان!**.[١٣٥٧] وهذا بيان عملي من رسول الله عليه الصلاة والسلام لاعتماده ومحبته لعثمان رضي الله عنه

وتُسمى هذه البيعة التي تمت تحت الشجرة بـ«**بيعة الرضوان**»، أو بـ «**بيعة الحديبية**». وفي ذلك اليوم بايع جميع الصحابة الكرام إلا منافقًا واحدًا، وقد أصبحت هذه البيعة التي أقدم عليها الصحابة سببًا لنيلهم رضا الله عز وجل، حيث قال عنهم في كتابه العزيز:

١٣٥٥ انظر: أحمد: مسند، ٤، ٣٢٤/ ١٨٩١٠؛ ابن هشام، السيرة، ٢، ٣١٥.

١٣٥٦ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٠٣.

١٣٥٧ البخاري: أصحاب النبي، ٧/ ٣٦٩٨.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١٣٥٨]

ذات يوم قال النبي ﷺ عند أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها:

- **لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد ممن بايع تحتها!**

قالت حفصة رضي الله عنها:

- بلى، يا رسول الله فانتهرها، فقالت:
- كيف ذاك؟ والله تعالى يقول:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾[١٣٥٩]

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: قد قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[١٣٦٠]

فقد بين النبي ﷺ في التعقيب على «إِلَّا وَارِدُهَا» أن المقصود به المرور فوق الصراط المضروب قرب جهنم، وليس دخول جهنم.[١٣٦١]

يقول جابر رضي الله عنه:

«عطش الناس يوم الحديبية والنبي عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «**ما لكم؟**» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[١٣٦٢]

١٣٥٨ الفتح: ١٨.

١٣٥٩ مريم: ٧١.

١٣٦٠ مريم: ٧٢.

١٣٦١ مسلم: فضائل الصحابة، ١٦٣/ ٢٤٩٦.

١٣٦٢ البخاري: المناقب، ٢٥ ٣٥٧٦.

صلح الحديبية: مرحلة الدعوة الجديدة

لما علم المشركون بأمر بيعة الرضوان حيث بايع المؤمنون رسول الله ﷺ على أرواحهم، أصابهم اضطراب وهلع شديد، فأدركوا أن الأمر قد صار أكثر جدية وحزمـًا، وأخذ الخوف والرعب بمجامع قلوبهم. فاتخذوا على الفور قرارهم بالصلح وبعثوا بسهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ من أجل عرض الصلح عليه، فلما رأى النبي ﷺ سهيلًا تفاءل بالخير من اسمه الذي يتضمن معنى التسهيل أيضـًا، وقال:

- **لقد سهل لكم من أمركم.**

وتصرف النبي عليه الصلاة والسلام وفقـًا للأمر الإلهي المتمثل في الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾[١٣٦٣]

لقد كانت غاية المشركين الأولى هي عدم تمكين المسلمين من أداء العمرة في تلك السنة. وإلى جانب ذلك فقد كانت لديهم مجموعة من الشروط الأخرى والتي تبدو في ظاهرها قاسية وثقيلة على المسلمين. وبعد أخذٍ وردٍّ ونقاش طويل تم الاتفاق على شروط الصلح بين الجانبين.

وقد أوكل النبي ﷺ مهمة كتابة شروط الصلح والمعاهدة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقال له رسول الله ﷺ:

- **اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.**

فقال سهيل بن عمرو:

- لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم،

فقال له رسول الله ﷺ:

- **اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.**

فقال سهيل بن عمرو:

- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو.

١٣٦٣ الأنفال: ٦١.

فاشتد غضب الصحابة الكرام الذين قد بايعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى التضحية بأرواحهم، وازداد حنقهم على سهيل والمشركين، ولما أمر النبي ﷺ عليـًا بمحو صيغة «محمد رسول الله» قال علي رضي الله عنه:

- والله ما كنت لأمحو اسمك يا رسول الله!

وحينها قال النبي عليه الصلاة والسلام لسهيل:

- **والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني**.

ثم طلب أن يدلوه على مكان عبارة «محمد رسول الله»، فمحاها بيده المباركة، وأمر بكتابة «محمد بن عبد الله».

وقد وقع النبي ﷺ ذلك اليوم على وثيقة أو معاهدة الصلح لحكم جليلة كثيرة.

ونورد هنا بعض شروط المعاهدة:

١ . مدة المعاهدة عشرة أعوام.

٢ . أن يرجع المسلمون ذلك العام بغير عمرة، ويقضون عمرتهم من العام المقبل، وأن يقضي المسلمون بمكة ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بسلاح المسافر، ويخرج المشركون من مكة فلا يلتقون مع المسلمين.

٣ . أن من جاء من قريش إلى النبي ﷺ مسلمـًا بغير إذن وليه يرده عليهم، ومن جاء قريشـًا من المسلمين لا ترده.

٤ . أنه من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه.

وما إن اتفق الطرفان على شروط الصلح، وتم الانتهاء من كتابة تلك الشروط في صحيفة حتى أطل عليهم أبو جندل ابن ممثل قريش في معاهدة الصلح سهيل بن عمرو، يسير إليهم من بعيد ببطء والسلاسل في رجليه قد أثقلت عليه مشيته، يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام. لقد كان أبو جندل رضي الله عنه قد تعرض لتعذيب وتنكيل شديد على يد المشركين بسبب إسلامه، فاستغل أول فرصة سنحت له فهرب من بين أيديهم ولجأ إلى صفوف المسلمين، فطلب سهيل أن يكون أول من يعاد ويسلم إليهم ممن جاءهم مسلمـًا ابنُه، بموجب بنود المعاهدة التي وُقعت للتو، وضرب وجه أبي جندل رضي الله عنه بالعصا

التي كانت بيده، فرجا نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام الذي كان يتابع المشهد ببالغ الحزن والألم لحال أبي جندل، رجا من سهيل أن يبقي أبا جندل خارج المعاهدة ويهديه إليه، ولكن هذا المشرك الذي تجاوزت قساوة قلبه الحجارة في قسوتها لم يستجب إلى رجاء سيد الخلق عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم. وبينما أبو جندل ﵁ يُسلم إلى المشركين مجددًا كانت صرخاته وتوسلاته بطلب العون من المسلمين تشق عنان السماء من الألم والأسى، فقال بحزن عميق:

- أتلقونني إلى لهيب نيران الظلم والعذاب من جديد؟

وما إن أكمل سؤاله حتى تمزقت قلوب المسلمين من شدة الحزن والكدر، ولم يتحملوا هذا المشهد المريع الذي يعاينوه أمامهم فانفجروا بالبكاء وأخذت الدموع تنهمر من أعينهم. وفي هذه اللحظات الكئيبة قال رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم مخاطبـًا أبا جندل الجريح:

- **يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.**

وثم كرر نبي الرحمة ﷺ مطلبه من سهيل بقوله:

- **يا سهيل لا تفعل ذلك، وأهدني إياه.**

إلا أن سهيلًا رفض مجددًا، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

- **فخذه في جوارك!** ولكن سهيلًا لم يرض بذلك أيضـًا.

فلما رأى حويطب ومكرز اللذان كانا مع سهيل من ممثلي قريش إصرار الرسول ﷺ وتمسكه بحماية أبي جندل، قالا له:

- يا محمد! نحن نجيره لك، فأدخلاه فُسطاطـًا فأجاراه وكفّ أبوه عنه.

وبذلك اطمأن رسول الله ﷺ ولو قليلًا، وعاد إلى المدينة.

لقد غضب عمر بن الخطاب ﵁ ذلك اليوم غضبـًا شديدًا حيث لم يعد يطيق غرور وعناد المشركين، وأخذ قلبه يغلي بالحماس والغيرة الإيمانية حتى لم يكد يتمالك نفسه، وكذلك الصحابة الآخرون - ما عدا أبي بكر ﵁ - لم تكن حالهم تختلف كثيرًا عن حال عمر ﵁،

وأمام إبداء عمر بن الخطاب ﷺ لاعتراضه على هذه المعاهدة التي بدت في ظاهرها هزيمة للمسلمين على الرغم من أنه أمر نبوي، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

– **إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري!**

مشيرًا بذلك إلى أن ما أقدم عليه إنما هو بوحي إلهي.[١٣٦٤]

وبعد انتهاء تنظيم المعاهدة، وعندما كان سهيل عائدًا ومعه ابنه إلى مكة والفرح يغمره، قال رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام:

– **قوموا فانحروا، ثم احلقوا!**

فما قام منهم رجل لتنفيذ أمر رسول الله ﷺ، لقد كانوا غارقين في الحزن والهم بين ضباب المسألة التي لم يتمكنوا من فك لغزها ومعرفة سرها. فكرر النبي ﷺ أمره لهم ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد أيضًا، لم يكن هذا التصرف منهم عصيانًا على أوامر الرسول ﷺ، وإنما كان ما يزال لديهم بصيص أمل من أجل إبطال المعاهدة الجديدة وإلغائها، وذلك نتيجة لتحرق قلوبهم شوقًا إلى زيارة الكعبة المشرفة والطواف بها. حيث إن كل واحد منهم كان قبل يوم واحد قد بايع رسول ﷺ وأقسم له على السمع والطاعة، بقوله:

– **يا رسول الله! أبايعك على ما في نفسك!**

فحزن رسول الله ﷺ كثيرًا لهذا الموقف الذي اتخذه الصحابة الكرام، ودخل بهذا الكدر على أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، فذكر لها ما لقي من الناس، فواسته أم سلمة ﷺ وقالت:

– يا نبي الله! أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بُدنك، وتدعو حلاقك فيحلقك. فإنهم وإن كانوا محزونين لثقل ما ألَمَّ بهم، فلسوف يتبعونك. فاعذرهم!

فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ما أشارت به عليه أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، فنحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الصحابة ذلك أدركوا بأنه لن يتغير شيءٌ مما ورد في المعاهدة، فقاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا. تقول أم سلمة ﷺ والتي كانت تشاهد ما يحدث أمامها:

١٣٦٤ انظر: البخاري: الشروط، ١٥ / ٢٧٣١؛ مسلم: الجهاد، ٩٠ – ٩٧؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٥/ ١٨١٠، ٣١، ٢٤٣/ ١٨٩٢٨؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٦٧؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٠٨.

- فما هذا إلا أن رأوه نحر فتواثبوا إلى الهدي فازدحموا عليه حتى خشيت أن يغمّ بعضهم بعضًا.[١٣٦٥]

وبعد أن نحر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام البدن وحلقوا رؤوسهم، أرسل الله تعالى زوبعة فحملت شعرهم وقذفت به إلى داخل الحرم، فاعتبر الصحابة هذا الأمر علامة تدل على قبول عمرتهم.[١٣٦٦] وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك نحو المدينة.

غشي المسلمين خوفٌ شديد بسبب ما أبدوه من الاعتراض وعدم الرضا عن معاهدة الصلح التي جرت مع المشركين نتيجة لعدم إدراكهم الحكمة الكامنة فيها منذ اللحظات الأولى، وأخذهم التفكير بأن الله تعالى سوف ينزل فيهم وحيًا ويهلكهم جميعـًا، وفي تلك الأثناء نزلت سورة الفتح. حيث يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[١٣٦٧]

ويصف مجمع بن جارية ﷺ حالة الخوف والرهبة التي مر بها الصحابة الكرام أثناء نزول سورة الفتح، فيقول:

«شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفا على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم سورة الفتح»[١٣٦٨]

يقول عمر بن الخطاب ﷺ:

«ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي النافلة وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا»[١٣٦٩]

١٣٦٥ البخاري: الشروط، ١٥/ ٢٧٣١؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٦، ٣٣١/ ١٨٩٢٨؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦١٣.

١٣٦٦ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٠٤؛ الحلبي: ٢، ٧١٣.

١٣٦٧ الفتح: ١ - ٣.

١٣٦٨ أبو داود: الجهاد، ٩٧/ ٢٧٣٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٠٥.

١٣٦٩ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٥/ ١٨١٠؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٠٧.

إن سورة الفتح تبشر المؤمنين بأبواب النصر التي فتحت مع صلح الحديبية. حيث إنه لم يمض وقت طويل حتى بدأت تلك البشارات بالتحقق واحدة تلو الأخرى. فقد كانت القبائل المجاورة تعتبر أن هذه الرحلة التي خرج فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام من أجل زيارة الكعبة هي «رحلة من غير عودة». إلا أنهم لما رأوا عودة النبي ﷺ سالمـًا دون أن يتعرض لأدنى ضرر، جاؤوا مسرعين قلقين يقدمون اعتذارهم ويعبرون عن ندمهم للنبي ﷺ. وقد بين الله تبارك وتعالى حالتهم هذه في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا. وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[١٣٧٠]

إن القرارات التي اُتخذت في معاهدة صلح الحديبية كانت تبدو في ظاهرها ضد المسلمين. واستمر الأمر على هذا النحو حتى نزول سورة الفتح، فتبينت البشارات والحكم الجليلة التي تنطوي عليها هذه المعاهدة. وفيما بعد أدرك الناس أن هذه العودة التي كانت تبدو للوهلة الأولى هزيمة وقهرًا لهم، إنما كانت نصرًا مؤزرًا وفتحـًا مبينـًا... ويقول الله تبارك وتعالى عن مثل هذه الحالة:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٣٧١]

وإن هذه الحادثة المجملة التي واجه النبي عليه الصلاة والسلام في شرحها وبيانها للناس صعوبة بالغة، لم تتوضح إلا بعد سنتين من خلال النصر الكبير الذي حققه المسلون. حيث إنه في فترة الصلح الذي تم بهذه المعاهدة نال كثير من الناس شرف دخول الإسلام، وتجاوز عدد المسلمين الذين أسلموا خلال هاتين السنتين عدد المسلمين جميعـًا إلى زمن توقيع الصلح.

١٣٧٠ الفتح: ١٢ – ١٣.
١٣٧١ البقرة: ٢١٦.

قد نجد بأن المسلمين لم يتمكنوا من أداء مناسك العمرة في هذا العام، واضطروا للصبر مدة من الزمن على هذه الشروط الثقيلة والقاسية بحقهم. إلا أن المكاسب والانتصارات العظيمة التي سوف تأتي بعد هذه الفترة كانت أكبر وأجل. وذلك لأن وجود الإسلام قد ترسخ بشكل قوي وعرف على نطاق واسع من خلال هذه المعاهدة، إذ إن المسلمين سوف يزورن الكعبة في العام المقبل، ولسوف يدخل من يريد من القبائل العربية تحت حماية المسلمين، وهذا الأمر معناه أن قريشـًا تفقد نفوذها بالتدريج، وبالتالي يمكن السير في الدعوة الإسلامية بكل يسر وسهولة.

والخلاصة، إنَّ نبي الرحمة سيدَنا محمدًا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وكأنه بهذا السلوك كان يعطي إشارات ورسائل سرية للناس الذين قد يدخلون في الإسلام حديثـًا من أهل مكة أو من بين القبائل العربية، ويحببهم بالإسلام، حيث ظهرت ثمار هذا السلوك في المستقبل بشكل واضح وجلي.

الفتح المبين: بركة الهداية المضاعفة

إن المشركين بنظرتهم السطحية وفرحهم بشروط صلح الحديبية لم يدركوا أنهم بعملهم هذا قد رفعوا القيود والعوائق التي وضعوها أمام المسلمين سابقـًا، وأنهم جعلوا المسلمين أيضـًا في موقع متفوق عليهم. وأما عدم قبول واستساغة الصحابة لشروط المعاهدة التي رأوا فيها هزيمة لهم فقد ضاعفت من الحجب أمام أعين المشركين، إذ سارعوا دونما أدنى ترددٍ إلى التوقيع على الشروط التي اعتبروها فوزًا لهم نتيجة أدائهم المصاحب بالتوفيق، إلا أن حقيقية هذا الصلح بقيت سرًا منغلقـًا أمام أعين المؤمنين حتى بدأت تتكشف بالتدريج عندما وضعت لائحة الشروط موضع التنفيذ.

لقد كان رسول الله ﷺ الذين يعلم منذ البدايات بالثمار المباركة للصلح، كان شديد الحرص على تطبيق وتنفيذ شروط معاهدة الحديبية، ولم يكن يتوانى أيضـًا عن الاستفادة من ثغراتها، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام رد طلب المشركين بشأن استعادة بعض النسوة المؤمنات من أهل مكة واللائي لجأن إلى المدينة المنورة، وذلك لأن شروط المعاهدة كانت تشمل الرجال فقط دون النساء، وكان هناك أمر إلهي أيضـًا بعدم تسليم هؤلاء النسوة المؤمنات، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١٣٧٢]

وفي هذه الأثناء كان قد لجأ إلى المدينة رجل من أهل مكة مسلمًا يدعى بأبي بصير. إلا أن النبي ﷺ اضطر إلى تسليمه للمشركين بناء على شروط معاهدة الصلح، ولكن أبا بصير لم يستطع للوهلة الأولى استيعاب تصرف النبي عليه الصلاة والسلام فقال مستغربًا:

- يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

فقال له رسول الله ﷺ مواسيًا له:

- **يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا.**

فكرر ابو بصير قوله:

- يا رسول الله، تردني إلى المشركين؟

فقال له رسول الله ﷺ:

- **انطلق يا أبا بصير، فإن الله سيجعل لك مخرجا.**

وبعد هذه الكلمات لم ينبس أبو بصير ببنت شفة وخضع راضيًا لحكم رسول الله ﷺ، ففكر بحال عموم المسلمين واستسلم للمشركين، إلا أنه لم يكن ذاهبًا إلى مكة، وإنما كان يُجر إلى الموت المحتم. ولأنه كان يدرك هذه الحقيقة فقد استغل في الطريق فرصة سنحت له فهاجم آسريه مدافعًا عن نفسه للنجاة منهم، فقتل أحدهما وهو خنيس، وأما الآخر فقد فر منه. فأخذ أبو بصير لباس خنيس، وأشياءه، وسيفه وجاء بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

١٣٧٢ الممتحنة: ١٠. انظر. البخاري: الشروط، ١٥؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٣١ - ٦٣٢.

– خمّسه يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ:

– **إني إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك.**[١٣٧٣]

وجاء المشرك الذي فر من أبي بصير أيضـًا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وطلب منه تسليم أبي بصير من جديد. فقال أبو بصير هذه المرة:

– يا رسول الله! وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أُفتن وتبغيت بي أن أكذب بالحق.

وبعد ذلك خرج من المدينة وقد أدرك بفراسته الحكمة الكامنة في عبارات رسول الله ﷺ التي قالها له. فاستقر في مكان يقال له العيص يقع على ساحل البحر بين مكة والشام، وبعد مدة قصيرة أصبح ذلك الموقع مكانـًا للجوء الهاربين من قبضة المشركين كأرض محايدة، ولم يمض وقت طويل حتى وصل عدد المسلمين في هذا المكان الذي لجأ إليه أبو جندل أيضـًا بعد أن أفلت من يد المشركين، وصل عددهم إلى ثلاثمائة رجل، وأصبح طريق تجارة أهل مكة إلى الشام في خطر كبير، فوقف مشركو مكة عاجزين أمام هذه الحالة الجديدة واضطروا إلى الطلب من رسول الله ﷺ إلغاء البند المتعلق باللاجئين في المعاهدة، بمعنى أنهم توسلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن يقبل الذين يسلمون ويهربون من مكة في المدينة المنورة. وبذلك فإن إحدى المواد أو البنود التي كانت ضد المؤمنين صارت لصالحهم، وخلال وقت قصير.[١٣٧٤]

أرسل النبي ﷺ بكتاب إلى أبي بصير وجماعته، إلا أن أبا بصير كان على فراش الموت، فقرأ الكتاب، ثم سلم روحه الطاهرة إلى بارئها وما زال الكتاب في يده، فقام أبو جندل بدفنه في المكان الذي توفي فيه، وبنى بجانب قبره مسجدًا، ثم جاء أبو جندل والمؤمنون الذين معه إلى المدينة، وشارك مع النبي ﷺ في الكثير من الغزوات والمعارك.[١٣٧٥]

١٣٧٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٢٥ – ٦٢٧؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٢٣.

١٣٧٤ انظر. البخاري: الشروط، ١٥؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٧٢.

١٣٧٥ انظر. الواقدي: المغازي، ٢، ٦٢٩.

إن الصلح الذي تحقق في الحديبية صار حدًا فاصلًا من أجل تسريع تبليغ الإسلام في البلاد، وذلك لأن الله تبارك وتعالى قد وصف ذلك بـ «الفتح المبين».[١٣٧٦]

لما أخبر النبي ﷺ بأن صلح الحديبية فتح عظيم، قال أحد الصحابة:

– ما هذا بفتح! لقد صدونا عن البيت، وصُد هدينا، وأعاد رسول الله ﷺ اثنين من المسلمين لجؤوا إلينا وسلمهم للمشركين!

ولما وصل هذا الكلام إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، بيّن من أي الجوانب يكون هذا الصلح فتحـًا عظيمـًا، فقال:

– **«بئس الكلام! بل هو أعظم الفتح لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية اى الصلح والتجئوا إليكم فى الامان وقد رأوا منكم ما كرهوا وظفر كم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح ...»**[١٣٧٧]

ويقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه معبرًا عن رأيه وقناعته بصلح الحديبية:

«ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذٍ قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه عز وجل، والعباد يعجلون، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله تعالى»[١٣٧٨]

إن من أولى النتائج الإيجابية لمعاهدة الحديبية الانتشار السريع للإسلام. ففي فترة السلم هذه تحققت إمكانات وفُتحت آفاق جديدة وواسعة لتبليغ الإسلام إلى الناس. وبذلك فقد بدأ المسلمون الاجتماع بالمشركين وقراءة القرآن الكريم على مسامعهم، والتحدث إليهم علانية عن الإسلام وبيان أحكامه لهم، وكذلك صار بإمكان المسلمين الذين يخفون إسلامهم أن يستعلنوا بإيمانهم وإسلامهم دون خوف أو رقيب.[١٣٧٩]

بينما لم يكن قبل هذا الصلح بإمكان الطرفين اللقاء بعضهم مع بعض بهذه الدرجة من السهولة والارتياح. وأما بعد الصلح والسلام فقد كان المشركون يأتون إلى المدينة بكل حرية، وكذلك كان المسلمون يذهبون إلى مكة بكل حرية وكان بإمكانهم اللقاء

١٣٧٦ انظر: الفتح: ١.

١٣٧٧ الحلبي: روح البيان، ٢، ٧١٥.

١٣٧٨ الواقدي: المغازي، ٢، ٦١٠؛ الحلبي: ٢، ٧٢١.

١٣٧٩ انظر: ابن قيم: ٣، ٣٠٩ – ٣١٠.

هناك بعائلاتهم، وأقربائهم وغيرهم من الناس والتحدث إليهم والجلوس معهم. وقد صار المشركون يستمعون إلى ما كان يتحدث لهم به المسلمون عن أحوال وسلوك النبي ﷺ، وأخلاقه الكريمة، وسبيله المستقيم، وبذلك فقد بدأت قلوب المشركين تلين، وتميل نحو الإسلام، وأما الأعراب الذين يسكنون الصحاري فقد كانوا ينتظرون من أجل الدخول إلى الإسلام إيمان وإسلام مشركي قريش. وخلال فترة الصلح هذه أسلم كثير من وجهاء المشركين ودهاتهم، أمثال؛ عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة.[١٣٨٠]

لقد ذهب دعاة الإسلام وسفراؤه إلى مختلف الأماكن في جو من الأمان والطمأنينة، وأمكنهم دعوة الناس إلى الإسلام وبيانه لهم بمختلف الوسائل دون أن تكون هناك عوائق تمنعهم من القيام بمهمتهم المقدسة. فتضاعف عدد الذين أسلموا في هذه الفترة أضعافـًا مضاعفة.

يلخص الإمام الزهري نتائج صلح الحديبية على ضوء الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في هذا المجال، فيقول:

«ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضـًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، لم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئـًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين ـ بعد الحديبية ـ مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ويقول ابن هشام مضيفـًا على هذا الكلام:

«والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف. وفي رواية أخرى انضم إليه في طريق ألفان فكان عدد المسلمين اثنا عشر ألفـًا»[١٣٨١]

١٣٨٠ انظر. الواقدي: المغازي، ٢، ٦٢٤.

١٣٨١ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ١٧٠؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٧٢.

السنة السابعة للهجرة

دعوة الملوك إلى الإسلام

لقد بدأ رسول الله عليه الصلاة والسلام - المبعوث رحمة للعالمين أجمع - بعد معاهدة الحديبية بدعوة جميع البلدان التي أمكنه إيصال رسالته إليها إلى الإسلام، وذلك لأن الأمر الإلهي كان يقتضي ذلك، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾[١٣٨٢]

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾[١٣٨٣]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٣٨٤]

وكانت دعوة الرسول ﷺ دول العالم إلى الإسلام عن طريق الرسائل المكتوبة، ومن أشهر هذه الكتب والرسائل سبع أو ثمانية كتب، حيث كان النبي ﷺ يُحمل كل رسالة إلى أحد أصحابه المنتجبين ويبعثه بها إلى وجهته. ولما أراد رسول الله ﷺ كتابة الرسائل إلى ملوك ورؤساء الدول قال له أصحابه:

- يا رسول الله! إنهم لن يقرؤوا هذه الكتب إن لم تكن مختومة بخاتم. وبناءً على ذلك أمر رسول الله ﷺ بصنع خاتم من الفضة، وأمر أن تنقش عليه الكلمات الآتية «الله ـ رسول ـ محمد» كل كلمة على شكل سطر منفصل، واستخدم هذا الخاتم في ختم كتبه.[١٣٨٥]

١٣٨٢ الأعراف: ١٥٨.

١٣٨٣ المائدة: ٦٧.

١٣٨٤ سبأ: ٢٨.

١٣٨٥ انظر. البخاري: العلم، ٧/ ٦٥؛ مسلم: اللباس، ٥٧، ٥٨/ ٢٠٩٢؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٥٨.

لقد كانت الكتابة على الخاتم تشكل صيغة «محمد رسول الله»، إلا أنه جعل لفظ الجلالة في الأعلى تعظيمـًا لله تعالى، وجعل كلمة الرسول في الوسط، وثم اسم «محمد» في السطر الأخير.

حمل كتابَ رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى هرقل امبراطور الروم الصحابيُّ الكريم دحية الكلبي ﷺ. وقد وصل كتاب النبي ﷺ الذي يدعو إلى الإسلام إلى يد هرقل امبراطور الروم أثناء وجوده في سوريا حيث كان في طريق عودته من معركة النصر الذي حققه على الفرس، فبدلًا من أن ينزعج هرقل من الكتاب الذي أثار فضوله، فقد أمر بإحضار أناس ممن ينتمون إلى تلك البلاد التي جاء منها الكتاب من أجل أن يستقصي عن حال صاحبه، ويستطلع ماهية هذا الدين الذي يدعو إليه.

وفي تلك الأثناء كانت قد توجهت قافلة تجارية لقريش إلى بلاد الشام وتتضمن تجارًا يُعدون من ألدّ خصوم وأعداء النبي عليه الصلاة والسلام وعلى رأسهم أبو سفيان، وكانوا في هذا الوقت في حالة هدنة مع رسول الله ﷺ. فصادفهم رجال الامبراطور في الشام واقتادوهم إلى بلاطه. وكان هرقل ورجاله في إيلياء، أي في بيت المقدس، فدعاهم هرقل إلى مجلسه حيث يتواجد إلى جانبه وجهاء الروم وكبار رجال الدولة، وأمر بإحضار ترجمان. فقال هرقل لهم عن طريق الترجمان:

- أيكم أقرب نسبـًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان:

- أنا أقربهم إليه نسبـًا.

فقال هرقل:

- أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه:

- قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه!

ويقول أبو سفيان:

- فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذبـًا لكذبت عنه. وينقل لنا ما جرى بعد ذلك فيقول:

- ثم كان أول ما سألني عنه هرقل أن قال:
- كيف نسبه فيكم؟. قلت:
- هو فينا ذو نسب! .قال هرقل:
- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟. قلت:
- لا. فقال:
- فهل كان من آبائه وأجداده من ملك؟. قلت:
- لا. فقال هرقل:
- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟. فقلت:
- بل ضعفاؤهم. قال:
- أيزيدون أم ينقصون؟. قلت:
- بل يزيدون. فقال:
- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟. قلت:
- لا. قال:
- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟. قلت:
- لا. قال:
- فهل يغدر؟. قلت:
- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. فقال هرقل:
- فهل قاتلتموه؟. قلت:
- نعم. فقال:
- فكيف كان قتالكم إياه؟. قلت:
- الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال:
- ماذا يأمركم؟. قلت:
- يقول لنا: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم من عبادة الأوثان، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان:

- قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه وأجداده من ملك، فذكرت أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله!

وسألتك: أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟، فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دولًا، ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة.

وسألتك: بماذا يأمركم؟، فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وهذه صفة النبي.

فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي بعث به دحية الكلبي رضي الله عنه إلى عظيم بصرى، فدفعه الرجل الذي جاء به إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه:

- **بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.** و:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١٣٨٦]

قال أبو سفيان:

– فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخرجنا من مجلسه، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا:

– لقد أَمِر أَمْر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك نبي الأصفر ـ أي هرقل، فما زلت موقنًا بأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

فاستدعى هرقل عظماء الروم ووجهاءهم وكبار رجال الدولة إلى مجلسه، فعقد فيه معهم اجتماعًا، ثم أمر بأبواب البلاط فغلقت، ثم اطلع فقال:

– يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، أمر أن يُردوا إليه فقال وقد بدل حقيقة ما أراده:

– إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له ورضوا عنه.[١٣٨٧]

بينما أدرك هرقل امبراطور الروم حقيقة نعمة الإسلام التي جاءت فتمثلت أمامه وشاهدها بنفسه، فقد أضاع هذه الفرصة وخسر دولة وسعادة أبدية نتيجة ترجيحه المنافع الدنيوية واغتراره بها.

وأما الكتاب المرسل إلى كسرى فارس فقد أخذه الصحابي عبد الله بن حذافة، إلا أن كسرى لم يتصرف مثل هرقل، إذ إنه غضب غضبًا شديدًا لورود اسم النبي ﷺ في الكتاب قبل اسمه فمزّق ذلك الكتاب المبارك إربًا إربًا، وأهان رسولَ رسولِ الله إهانة كبيرة.

لقد خاطب عبد الله رضي الله عنه كسرى ورجال بلاطه بقوله:

١٣٨٦ آل عمران: ٦٤.

١٣٨٧ البخاري: بدء الوحي، ١، ٥ – ٦، الإيمان، ٣٧، الشهادات، ٢٨، الجهاد، ١٠٢؛ مسلم: الجهاد، ٧٤/ ١٧٧٣؛ أحمد: مسند، ١، ٢٦٢/ ٢٣٧٠.

- يا معشر الفرس! إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب ولا تملك من الأرض إلا ما في أيديكم، وما لا تملكون منها أكثر.

أي كسرى: لقد ملك قبلك ملوك أهل دنيا، وأهل آخرة. فأخذ أهل الآخرة بحظهم من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة فاختلفوا في سعي الدنيا، واستووا في عدل الآخرة، وقد صغر هذا الأمر عندك أنا أتيناك به وقد والله جاءك من حيث خفت، وما تصغيرك إياه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي يخرجك منه. فقال كسرى:

- لي ملك هنيء لا أخشى أن أُغلب عليه ولا أُشارك فيه.[١٣٨٨]

ثم أمر رجاله بإخراج عبد الله بن حذافة ﵁ من مجلسه.

وما إن خرج عبد الله ﵁ من مجلس كسرى حتى ركب دابته وخرج متوجهًا إلى المدينة المنورة. وقال في نفسه:

«والله ما أبالي على أي حال أكون ـ الموت أو الحياة ـ بعد أن أديت كتاب رسول الله ﷺ»[١٣٨٩]

وللصحابي الجليل عبد الله بن حذافة ﵁ – فيما بعد – قصة مليئة بالعبر تُظهر فضله وشجاعته وصلابة إيمانه التي لا نظير لهما، حيث:

أرسل عمر بن الخطاب ﵁ جيشًا إلى قيصرية بالشام لمحاربة الروم، وكان عبد الله بن حذافة ﵁ من ضمن هذا الجيش، ووقع عبد الله في يد الروم أسيرًا، فجاؤوا به إلى ملكهم وأخبروه: بأن هذا من أصحاب محمد.

فأمر الملك بحبس عبد الله ﵁ في بيت، ومنع عنه الطعام والشراب لعدة أيام، وبعد ذلك أرسل إليه مائدة من الخمر ولحم الخنزير. وأمر بمراقبته، فبقي عبد الله ﵁ ثلاثة أيام دون أن يأكل من اللحم أو يشرب من الخمر شيئًا، فقالوا للملك:

- لقد مالت عنقه كثيرًا، وإن لم يُخرج من البيت فموته محقق!

فأمر الملك بإحضاره إليه، وسأله:

- ما الذي منعك من الطعام والشراب؟

١٣٨٨ السهيلي: الروض الأنف، ٦، ٥٨٩ – ٥٩٠.

١٣٨٩ أحمد: مسند، ١، ٣٠٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦٠، ٤، ١٨٩؛ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٦٣ – ٦؛ حميد الله: الوثائق، ص، ١٤٠.

فقال عبد الله ﵁:

- بالرغم من أن الضرورة تحل لي الأكل والشرب من ذلك الطعام، إلا أني لم أرد أن تفرح متشفيـًا بي وبالإسلام!

وأمام هذا الموقف الثابت قال له الملك:

- هل لك أن تتنصَّر وأشركك في أمري وأقاسمك ملكي وسلطاني، وأزوجك ابنتي؟.

فقال له عبد الله ﵁:

- لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال الملك:

- إذًا أقتلك!

قال عبد الله ﵁:

- أنت وذاك!

فأمر به فصلب، ثم أمر رماته أن يرموه قريبـًا من يديه ورجليه لإدخال الخوف والرعب إلى قلبه، وهو يعرض عليه التنصر. إلا أن الصحابي الجليل لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، وهو يأبى ما يُعرض عليه.

فقال الملك:

- إما أن تتنصر أو ألقيك في قدر ماء مغلي!

فلما أبى عبد الله مفارقة دينه أمر الملك أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب ثم دعا بقِدر عظيمة وصب فيها الزيت أو الماء ورفعت على النار حتى غلت، ثم دعا بأسير من أسارى المسلمين، وعرض عليه التنصر ومفارقة دينه، فلما أبى الأسير المسلم ذلك أمر أن يلقى به في القدر، فألقي فيها، وعبد الله ﵁ ينظر إليه، فإذا لحمه يتفتت وإذا عظامه تبدو عارية.

ثم التفت الملك إلى عبد الله بن حذافة ودعاه إلى النصرانية.. فكان أشد إباءً لها. فأمر به الملك أن يلقى في القدر، فلما ذهب به إليها بكى ﵁، فظن الملك أنه تراجع عن موقفه

وغير رأيه، فأمر الملك بإحضاره إليه وعرض عليه النصرانية مرة أخرى، فأبى عبد الله ﷺ ورد عرضه بأشد من قبل. فعجب الملك من موقفه، وسأله:

- فما أبكاك إذًا؟

أجاب عبد الله بن حذافة ﷺ بهذا الجواب الذي ينم عن الثبات الإيماني:

- لا ترى أني بكيت جزعًا مما تريد أن تصنع بي! ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله. وقلت لنفسي: إنك تحمل روحًا واحدة وسوف يُلقى بك إلى القدر فتموت في لحظة واحدة في سبيل الله. فكنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعر في بدني ثم تسلط عليّ فتفعل بي هذا فأكون في سبيل الله تعالى.

فأعجب الملك من قوة صبر وثبات عبد الله ورسوخ إيمانه، وأحب أن يطلقه. فقال:

- هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك؟

قال عبد الله ﷺ:

- وتخلي عن جميع أسارى المسلمين؟

قال الملك:

- وعن جميع أسارى المسلمين.

فقال عبد الله:

- الآن أفعل!

يقول عبد الله ﷺ:

- فقلت في نفسي؛ عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلي عني وعن أسارى المسلمين! لا أبالي!

فدنا منه وقبل رأسه فدفع إليه الأسارى، فأخلي ذلك اليوم عن ثمانين أسيرًا من المسلمين، فقدم بهم على عمر فأخبر عمر خبره. فقال عمر ﷺ:

- حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ! فقام عمر ﷺ فقبل رأسه.[١٣٩٠]

١٣٩٠ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٣، ٢١٢ - ٢١٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢، ١٤ - ١٥.

فهذا هو الصحابي الجليل الذي نال شرف حمل كتاب رسول الله ﷺ الذي يتضمن الدعوة إلى الإسلام وذلك إلى كسرى فارس، ووقف بجسارة إيمانية قوية أمام كسرى، والجلادون يحيطون به من كل جانب لا يحتاجون إلا إلى إشارة من ملكهم ليفتكوا به ويطيحوا برأسه عن جسده، فوقف شامخًا أمام الملك ورجاله يدعوهم إلى الإسلام ليتم مهمة التبليغ التي جاء من أجلها.

ولما أخبر رسول الله ﷺ بتمزيق كسرى لكتابه ورده دعوة الإسلام لم يزد عليه الصلاة والسلام على قوله:

- **اللهم مزق ملكه!**.[١٣٩١]

وقد تحققت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام في عهد الخلفاء الراشدين، حيث أصبحت بلاد كسرى بتمامها في أيدي المسلمين.

لقد كتب كسرى إلى نائبه على اليمن باذان أن ابعث إلى هذا الرجل ـ أي رسول الله ﷺ ـ بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فبعث باذان رجلين فجاءا إلى رسول الله ﷺ. فبينا له الأمر وسلماه الكتاب. فلما قُرئ كتاب باذان تبسم النبي عليه الصلاة والسلام، ودعا الرسولين إلى الإسلام. فقال رسولا باذان للنبي ﷺ:

- فإن كنت لا تذهب معنا فاكتب إلى الوالي باذان ردًا على كتابه! فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام بناءً على الوحي الإلهي الذي نزل عليه:

- **إن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا، من ليلة كذا وكذا من الليل، فقتله.**

فاندهش الرسولان وفزعا، فقالا:

- أفنكتب عنك هذا، ونخبر الوالي باذان؟

فقال رسول الله ﷺ:

- **نعم! أخبراه ذاك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء!**

فخرج الرسولان من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر فقال باذان:

١٣٩١ البخاري: العلم، ٧؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٣، ٢١٢.

والله ما هذا بكلام ملك! وإني لأرى الرجل نبيًا كما يقول! وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا!. ثم التفت إلى الرسولين فسألهما:

– أخبروني كيف رأيتموه؟. فقالا:

– ما رأينا ملكًا أهيب منه، لا يخاف شيئًا، آمنًا لا يُحرس، ولا يرفع أصحابه أصواتهم عنده.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان والذي يحتوي على خبر مقتل كسرى وجد أن الوقت بدقائقه مطابق لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام. فقال الوالي باذان عن رسول الله ﷺ:

– إن هذا الرجل لنبي بعثه الله إلى الناس!

فأسلمَ، وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن.[1392]

لقد كان النجاشي ملك الحبشة أحسن الملوك استقبالًا لكتاب النبي ﷺ ولرسوله، فقد كان الكتاب الذي أوصله إليه الصحابي عمرو بن أمية رضي الله عنه يتضمن إلى جانب دعوته إلى الإسلام معلومات مختصرة عن مريم العذراء وعيسى عليه السلام. لقد فتح هذا الكتاب للنجاشي الذي كان قد اطلع على معلومات ولو قليلة عن الإسلام من المهاجرين المسلمين الأوائل الذين جاؤوا إليه وأبدى استحسانًا بحق الإسلام، فتح له هذا الكتاب أجنحة يحلق بها إلى آفاق الإيمان. فنطق بالشهادتين أمام جعفر رضي الله عنه الابن الأكبر لأبي طالب الذي كان في مجلسه في تلك الأثناء، ودخل الإسلام. وثم جهز بناءً على رغبة رسول الله ﷺ سفينتين وأرسل على متنهما المهاجرين المسلمين الذين كانوا في بلاده إلى النبي ﷺ، وكذلك فإنه بعث إلى رسول الله ﷺ كتابًا يعلمه فيه بإيمانه ودخوله الإسلام. وتضمن هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. فقد بلغني كتابك يا رسول الله! فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى

١٣٩٢ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦٠؛ أبو نعيم: دلائل النبوة، ٢، ٣٤٩ – ٣٥٠؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ٢، ٣٥ – ٣٧؛ ابن كثير: السيرة، ٣، ٥١٠.

ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا ومصدقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك يا نبي الله! بابني أربحا بن الأصحم بن أبجر، فاني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله فاني أشهد أن ما تقول حق. عليك السلام يا رسول الله!» [١٣٩٣]

عن حاطب بن أبي بلتعة، قال:

– بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية قال: فحييته بكتاب رسول الله ﷺ. وكان الكتاب هو:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم! وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [١٣٩٤]

فلما قرئ كتاب رسول الله ﷺ ، قال المقوقس، وكان قد جمع بطارقته حوله:

– إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني.

قلت:

– هلمّ!

فقال المقوقس:

أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت:

– بلى! هو رسول الله.

قال:

– فما له حيث كان هكذا، لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟

١٣٩٣ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٥٩؛ ابن قيم: ٣، ٦٨٩؛ حميد الله: الوثائق، ص، ١٠٠، ١٠٤ – ١٠٥.

١٣٩٤ آل عمران: ٦٤.

فقلت له:

- عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟

فلم يجد المقوقس ما يقوله، وبعد لحظات من الصمت أعاد كلامه! فأعدت كلامي، فسكت من جديد، ثم قال:

- لقد أحسنت! أنت حكيم قد جاء من عند حكيم.

فقلت للمقوقس بعد ذلك:

- إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذ الله ذلك الفرعون نكال الآخرة والأولى فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك.

فقال المقوقس:

- إن لنا دينا لم ندعه إلا لما هو خير منه!

فقلت:

- الإسلام خير من الدين الذي تدين به، وإننا ندعوك إلى الدين الذي اختاره الله تعالى لجميع الناس، إن هذا النبي قد دعا الناس جميعـًا فكان أشدهم عليه إنكارًا قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما السلام إلا كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبي أدرك قومـًا فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي محمد ﷺ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس:

- إني قد نظرت في أمر دين هذا النبي، فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، من إخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حُق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبـًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

- بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك! أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك!

ولم يزد على هذا، ولم يسلم، ونبهني ألا أخبر أحدًا من الأقباط شيئًا مما حدث بيننا.[١٣٩٥]

وكما يتبين مما تقدم فقد استقبل المقوقس دعوة رسول الله ﷺ استقبالًا حسنًا، فقد كان يعلم بأنه سوف يظهر نبي في ذلك الزمن، ولكنه كان يظن بأن هذا النبي سوف يخرج من الشام، وقد صار هذا الظن حجابًا حال دون اتباعه الحقيقة الساطعة، ونتيجة ذلك لم يؤمن المقوقس، إلا أنه بعث بهدايا مختلفة مع رسول النبي ﷺ، حيث كان من ضمنها بغلة للركوب، وجاريتان أختان هما: «السيدة مارية وأختها سيرين»

وخلال طريق العودة إلى المدينة أخذ حاطب رضي الله عنه يشرح للأختين الإسلام ويبينه لهما، ويحثهما على اعتناقه، فنالتا شرف الإيمان وأسلمتا.[١٣٩٦] وبذلك فقد أدركتا الحقيقة الأبدية حتى قبل وصولهما إلى المدينة. فلما وصل حاطب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وأخبره بكلام المقوقس، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **ضنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه!**.[١٣٩٧]

وتزوج النبي ﷺ مارية القبطية، وهي التي ولدت له إبراهيم، وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. وقد ظهرت الكثير من الفوائد السياسية لهذا الزواج الذي أقدم عليه رسول الله ﷺ بأمر الله عز وجل. فقد أحدث هذا الأمر الكثير من التأثيرات الإيجابية على أهل مصر، إذ إنه في السنوات اللاحقة لما وقعت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين لم يقف المصريون بجانبهم وإنما تركوهم وحدهم، وأدى ذلك إلى تفوق المسلمين وانتصارهم.

وقد قال رسول الله ﷺ -الذي كان النموذج المثالي في حسن معاملة ذوي القربى- لأصحابه الكرام:

١٣٩٥ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٦٦ - ٢٦٧؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦٠ - ٢٦١؛ ابن حجر: الإصابة، ٣، ٥٣٠ - ٥٣١؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٤، ٣٩٦؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ٢، ٣٧.

١٣٩٦ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٢١٢.

١٣٩٧ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦٠ - ٢٦١؛ دياربكري: تاريخ الخميس، ٢، ٣٨.

«إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها. فإن لهم ذمة ورحمًا. أو قال: ذمة وصهرًا» [١٣٩٨]

ومن المعلوم أن نسب رسول الله ﷺ يعود إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام، ولأن والدة سيدنا إسماعيل عليه السلام السيدة هاجر كانت مصرية فلذلك يُعد المصريون بمثابة أقرباء النبي ﷺ. وأما المصاهرة فتأتي عن طريق أم المؤمنين السيدة مارية القبطية رضي الله عنها.[١٣٩٩]

وأما الحارث ملك الغساسنة في سوريا فقد تصرف بطريقة وقحة ومهينة تجاه كتاب رسول الله ﷺ الذي جاء به شجاع بن وهب رضي الله عنه. حتى إنه طلب الإذن من امبراطور الروم من أجل السير إلى المسلمين ومحاربتهم، إلا أن الامبراطور رد طلبه.[١٤٠٠]

وملك اليمامة هوذة بن علي لم يقبل الدعوة الإلهية أيضًا ورد كتاب رسول الله ﷺ الذي جاء به الصحابي سليط بن عمير رضي الله عنه. وبعد مدة قصيرة مات على الكفر.[١٤٠١]

لقد كان النبي ﷺ يعطي توجيهات مهمة لرسله الذين يحملون كتب الدعوة إلى الملوك وذلك بشأن الأمور التي يجب عليهم الانتباه إليها وأخذها بعين الاعتبار. فمثلًا؛ لقد بعث النبي ﷺ كتابًا إلى بعض رجال حمير، ولما أرسل عياشًا رضي الله عنه بالكتاب أوصاه بقوله له:

«إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلًا حتى تصبح، ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين، وسل الله النجاح والقبول، واستعذ بالله، وخذ كتابي بيمينك وأدفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون!...».

يقول عياش رضي الله عنه: «فخرجت وفعلت ما أمرني به رسول الله ﷺ، فقبلوا الإسلام، وتحققت الأحداث التالية كما أخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام» [١٤٠٢]

١٣٩٨ مسلم: فضائل الصحابة، ٢٢٦ - ٢٢٧/ ٢٥٤٣؛ أحمد: مسند، ٣٥، ٤٠٩/ ٢١٥٢٠.

١٣٩٩ ابن هشام: السيرة، ١، ٤.

١٤٠٠ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦١.

١٤٠١ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٦٢.

١٤٠٢ ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق، ٢٠، ٥٧؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٨٢ - ٢٨٣.

لقد شكلت هذه الدعوات الخطوات الأولى لانتشار الإسلام في أنحاء العالم انطلاقًا من المدينة المنورة، وإلى جانب هذا فإن الإسلام الذي انطلقت شرارته الأولى من شبه الجزيرة العربية أخذ يتابع انتشاره أكثر فأكثر مع كل يوم جديد، وذلك لأن الأسس السليمة والراسخة للانتصارات والفتوحات العظيمة قد وضعها النبي ﷺ بيديه المباركتين بالذات.



١	دحية بن خليفة	هرقل عظيم الروم	القدس	لم يقبل الإسلام
٢	عبد الله بن حذافة	كسرى ملك الفرس	المدائن	مزّق رسالة الرسول
٣	عمرو بن أمية	النجاشي ملك الحبشة	الحبشة	قبل الإسلام
٤	حاطب بن أبي بلتعة	المقوقس ملك الإسكندرية	مصر	لم يقبل الإسلام
٥	العلاء بن الحضرمي	المنذر بن ساوى ملك البحرين	البحرين	أصبح مسلم
٦	سليط بن عمرو	ملك اليمامة	اليمامه	طالب بالنبوة
٧	شجاع بن وهب	الحارث ملك الغساسنة.	حوران	هدد بمهاجمة المدينة
٨	المهاجر ابن أمية	الحارث الحميري	اليمن	أصبح مسلم
٩	عمرو بن العاص	الجلندي ملك عُمان	عمان	أصبح مسلم

سحر اليهود للنبي ﷺ

جاء من بقي بالمدينة من رؤساء اليهود المنافقين إلى لبيد بن الأعصم اليهودي، وكان ساحرًا ماهرًا قد علمت اليهود أنه أعلمهم بالسحر والسموم، فقالوا له:

يا أبا الأعصم! أنت أسحرنا وأعلمنا بحيل السحر، وقد سحرنا محمدًا فسحره منا الرجالُ والنساء فلم نصنع شيئًا، وأنت ترى أثره فينا وخلافه ديننا ومن قتل منا وأجلى، ونحن نجعل لك على ذلك جعلًا على أن تسحره لنا سحرًا ينكؤه! فجعلوا له ثلاثة دنانير ـ ذهبًا ـ على أن يسحر نور الكون سيدنا رسول الله ﷺ.

فأخذ لبيد يبحث عن سبيل يحصل من خلاله على شعرات من شعر رسول الله ﷺ، ولما نجح في الحصول على الشعرات عقد فيها عقدًا وتفل فيها، وجعل هذه العقد في جب نخل يابس. ثم جاء بها حتى وضعها تحت حجر سلم أحد الآبار، وبعد السحر الذي عمله لبيد مرض رسول الله ﷺ، وضعف نظره، واستمر مرضه عدة أيام، حتى انقطع عن الطعام والشراب.

فأعلم الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بمن عمل السحر، وكيفية عمله، والمكان الذي خُبئ فيه. فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام علي وعمار رضي الله عنهما إلى بئر في الذروان، فكان ماء البئر قد تحول لونه إلى لون الحناء، وأصبحت رؤوس أشجار النخيل المجاورة مثل رأس الشيطان، فقام علي وعمار بنزح ماء البئر، وحولا حجر السلم جانبًا فوجدا السحر.

وفي هذه الأثناء نزل جبريل عليه السلام بسورتي الفلق والناس على رسول الله ﷺ. وكان كلما قُرئت آية حُلت عقدة من عقد السحر، ولما حُلت العقدة الأخيرة تفتح وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام مثل الوردة التي تحررت من عقدتها، فبدأ يأكل الطعام ويشرب الماء، ثم أمر رسول الله ﷺ بردم بئر الذروان، ولم ير النبي عليه الصلاة والسلام وجه لبيد الذي عمل هذا السحر ولم يعاتبه على هذا العمل، ولم يأمر لا بقتل لبيد ولا بقتل أحد من قبيلة زريق اليهودية التي ينتسب إليها لبيد.[١٤٠٣]

١٤٠٣ انظر. ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٩٧؛ البخاري: الطب، ٤٧؛ مسلم: السلام، ٤٣؛ النسائي: التحريم، ٢٠؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٦٧، ٥، ٥٧؛ العيني: ٢١، ٢٨٢

قال النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم:

«**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال:

«**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**» [١٤٠٤]

ويقول رسول الله ﷺ في أحاديث شريفة أخرى:

«**من عقد عقدة، ثم نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر، فقد أشرك...**» [١٤٠٥]

«**من أتى عرافًا**[١٤٠٦] **فسأله عن شيءٍ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[١٤٠٧]

فتح خيبر: الضربة النهائية لفساد وخيانة اليهود

«صفر – ربيع الأول ٧ / حزيران – تموز ٦٢٨»

بعد عقد معاهدة الحديبية بين المسلمين ومشركي مكة بدت جبهة المسلمين ضعيفة ظاهريًا، وبناءً على ذلك عمل المنافقون على التحرك ضد المسلمين مستغلين هذا الضعف الظاهري وانضم إليهم في ذلك يهود خيبر أيضًا، وبعد مدة من الزمن انضمت إليهم القبائل اليهودية التي أجليت من المدينة، فجعلت من المكان الذي لجأت إليه في خيبر مركزًا لفساد كبير عن طريق تحريض وإثارة سكان تلك المنطقة، وقد تعهد اليهود لقبيلة غطفان بدفع نصف محصول سنة مقابل تحرك غطفان معهم ضد المسلمين، ولما قبلت قبيلة غطفان وانضمت إليهم انتقل الجميع إلى العمل على تنفيذ وتحقيق نواياهم الخبيثة على أرض الواقع. ووضعوا خطة من أجل تسيير جيش إلى المدينة المنورة.[١٤٠٨]

وأمام هذا التصرف المعادي الذي صدر عن اليهود أرسل النبي عليه الصلاة والسلام الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ إلى خيبر من أجل الصلح والسلام، إلا أنه لما رد

١٤٠٤ البخاري: الوصايا، ٢٣/ ٢٧٦٦؛ مسلم: الإيمان، ١٤٥/ ٨٩.

١٤٠٥ النسائي: التحريم، ١٩/ ٤٠٧٩.

١٤٠٦ العراف: هو من جملة أنواع الكهان قال ابن الأثير العراف المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به . والعراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما

١٤٠٧ مسلم: السلام، ١٢٥/ ٢٢٣٠.

١٤٠٨ انظر. الواقدي: المغازي، ٢، ٥٣٠ – ٥٣١، ٥٦٦، ٦٤٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٩٢.

اليهود طلب رسول الله ﷺ بعقد اتفاق السلام، أعلن عليه الصلاة والسلام لأصحابه أمر الخروج إلى غزوة خيبر، بقوله:

«لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد»[١٤٠٩]

لأنه لم يعد هناك مفر من الحرب، ومن جهة أخرى كانت المدينة تقع بين خيبر ومكة، وإذا ما حدثت أية معركة بين المسلمين والمشركين، فسيكون المسلمون عرضة لخطر كبير، إذ لا يُؤمن أن يهاجمهم يهود خيبر من الخلف.

فلما سمع الصحابة الكرام ﵃ أمر رسول الله ﷺ سارعوا إلى الإجابة، والتفوا حوله. وبينما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو أصحابه إلى الجهاد من جهة، فإنه من جهة أخرى كان لا يقبل في هذا الجيش إلا من اشترك في في الحديبية. لأن خيانات المنافقين الذين تسللوا بين صفوف المسلمين في الغزوات الأخيرة بقصد الحصول على الغنائم كانت قاسية جدًا على جيش الإيمان، وفي هذه المرة أيضًا كان أولئك الأشخاص أنفسهم يودون الاشتراك في هذه الغزوة علهم ينالون نصيبًا من ثروات أغنياء اليهود العظيمة. ولأجل ذلك فقد رُد طلب الاشتراك في هذه الغزوة لمن لم يكن مشاركًا في الحديبية، وكان أمر الله تبارك وتعالى في الأساس يقتضي ذلك، إذ يقول ﷻ:

﴿...قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا...﴾[١٤١٠]

إن تحضيرات المسلمين من أجل الخروج إلى خيبر أقلقت يهود المدينة الذين كانوا في معاهدة من النبي ﷺ، وقضت مضاجعهم. إذ إنهم أدركوا بأن النبي ﷺ سوف ينتصر على يهود خيبر كما انتصر سابقًا على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. وفي هذه الأثناء أخذ اليهود يطالبون المسلمين بحقوقهم وأموالهم المترتبة في ذمة المسلمين، حيث لم يبق يهودي في ذلك الوقت له دين كثير أو قليل في ذمة المسلمين إلا قام يطالب بأدائه، ويلح في مطلبه. وإن الحادثة التي سوف نوردها فيما يأتي توضح هذه الحالة بجلاء، كما أنها تبين مدى حرص النبي ﷺ في الحفاظ على حقوق العباد:

كان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله الأسلمي ﵁ خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله. فطالبه اليهودي أبو الشحم بدينه ولما لزمه وغلبه في المطالبة، قال له عبد الله ﵁:

١٤٠٩ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٩٢، ١٠٦.

١٤١٠ الفتح: ١٥.

– أجلني! فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، فإن الله ﷻ قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها. يا أبا الشحم! إنا نخرج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال.

فقال أبو الشحم حسدًا وبغيـًا:

– تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل.

فقال ابن أبي حدرد رضي الله عنه:

– أي عدو الله! تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا؟ والله لأرفعنك إلى رسول الله!

فأمسك عبد الله باليهودي وجاء به إلى النبي ﷺ فقال:

– يا رسول الله! ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي؟ وأخبره بما قال أبو الشحم. فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئـًا، إلا أنه كان يحرك شفتيه بشيء ولم يسمعه أحد.

فقال اليهودي:

– يا أبا القاسم! هذا قد ظلمني وحبسني بحقي وأخذ طعامي.

قال رسول الله ﷺ لعبد الله:

– **أعطه حقه!**

قال عبد الله فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها. فقال عبد الله رضي الله عنه:

– والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها!

فأمره النبي عليه الصلاة والسلام مرة أخرى بقوله:

– **أعطه حقه!**

قال عبد الله:

– والذي نفسي بيده ما أقدر عليها! قد أخبرته أنك تبعثنا إِلَى خيبر، فأرجوا أن تغنمنا شيئـًا فأرجع فأقضيه.

فقال رسول الله ﷺ:

– **فأعطه حقه!**

فخرج ابن أَبِي حدرد إِلَى السوق وعلى رأسه عصابة، وهو متزر ببردة، فنزع العمامة من رأسه فاتزر بها، ونزع البردة، فقال لليهودي:

– اشتر مني هذه البردة!. فباعها منه بأربعة دراهم، وتدبر عبد الله ﷺ أمر الدرهم الباقي ودفع دين اليهودي وأبرأ ذمته.[١٤١١]

ولما سار النبي ﷺ بجيشه إلى خيبر، لجأ إلى الله تعالى كما هو شأنه في كل غزوة، ودعا بهذا الدعاء:

«اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله الرحمن الرحيم»[١٤١٢]

وخلال مسير الجيش بدأ المسلمون جميعـًا معـًا وبصوت مرتفع بالتكبير:

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله!. فقال رسول الله ﷺ:

«اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» [١٤١٣]

وصل النبي ﷺ إلى خيبر ليلًا، وانتظر هناك، وذلك لأن الرسول ﷺ لم يكن من عادته مهاجمة العدو في الليل، وإنما كان ينتظر حتى يحل الصباح. ولما أصبح الصباح خرج اليهود إلى أعمالهم وهم يحملون الفؤوس، والمجاريف، فلما أبصروا النبي ﷺ ومعه جيش المسلمين، صاحوا: محمد! محمد والخميس ـأي الجيش ـ معه! فأدبروا هربـًا، ودخلوا إلى حصونهم. فقال رسول الله ﷺ:

«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم،{فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} [الصافات: ١٧٧]**»**. قالها ثلاثـًا.[١٤١٤]

ثم أقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام بجيشه، حتى نزل بواد يقال له الرجيع، فجعل مقره بين اليهود وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، إذ كانوا حلفاء لليهود ضد رسول الله ﷺ. فتحركت غطفان وخرجوا ليظاهروا اليهود ويقدموا لهم العون، فلما

١٤١١ أحمد: مسند، ٣، ٤٢٣/ ١٥٤٨٩؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٣٤ – ٦٣٥.

١٤١٢ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٧٩؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٤٢؛ ابن كثير: السيرة، ٣، ٣٤٨.

١٤١٣ البخاري: الدعوات، ٥٠، ٦٧/ ٦٣٨٤، المغازي، ٨٧/ ٤٢٠٥؛ مسلم: الذكر، ٤٤/ ٢٧٠٤.

١٤١٤ البخاري: المغازي، ٣٨/ ٤١٩٧؛ مسلم: الجهاد، ١٢٠/ ١٣٦٥؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٨٠.

رأوا النبي عليه الصلاة والسلام وجيشه أمامهم دب الرعب والخوف في قلوبهم ورجعوا إلى ديارهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين يهود خيبر. وهكذا بقي اليهود من غير ظهير، فاضطروا إلى القتال وحدهم، فدخلوا إلى حصونهم وأغلقوا على أنفسهم الأبواب.

وأثناء الحصار جاء إلى اليهود رجل يحدثهم بأشياء كذبًا بغية تحريضهم على القتال. فقال رسول الله ﷺ:

«إن اليهود جاءهم الشيطان فقال لهم: إن محمدًا يقاتلكم على أموالكم، نادوهم قولوا: لا إله إلا الله ثم قد أحرزتم بذلك أموالكم ودماءكم وحسابكم على الله، فنادوهم بذلك. فنادت اليهود: إنا لا نفعل ولا نترك عهد موسى والتوراة بيننا» [١٤١٥]

استمر الحصار لأيام. وكانت مؤن المسلمين على وشك النفاد، فاشتدت أحوال الحرب والقتال كثيرًا. وقد كان المسلمون يتعرضون لمختلف أنواع الشدائد والضيق، حيث يسقط منهم الشهداء والجرحى. إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يتوانى عن استغلال كل فرصة سانحة في دعوة الناس إلى الإسلام وإلى الله تبارك وتعالى.

لم يكن رسول الله عليه الصلاة والسلام يستصغر أو يستحقر أحدًا في ميدان دعوته الناس إلى الإسلام. وإن ما حدث خلال فتح خيبر كان مثالـًا بارزًا على هذا الأمر. حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام بقي يعرض الإسلام طويلًا على أحد العبيد من رعاة اليهود ويدعوه إليه، حتى وفقه الله تعالى إلى هداية هذا العبد الضعيف.[١٤١٦]

وقد حدثت الواقعة كما يلي:

كان يسار أجيرًا لرجل من وجهاء اليهود يرعى له أغنامه، وذات يوم خلال حصار خيبر خرج بالأغنام يرعى بها خارج الحصون فالتقى بالنبي ﷺ. وبعد مدة من مجالسته لرسول الله ﷺ، ودعوته إلى الإسلام، قبل الدعوة ودخل الإسلام. فجعل رسول الله ﷺ اسمه «أسلم». وبعد إسلامه سأل رسول الله ﷺ عن شأن الأغنام، فقال:

- يا رسول الله! إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **اضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربها!**

١٤١٥ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٥٣.

١٤١٦ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩٨.

فأخذ أسلم حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال:

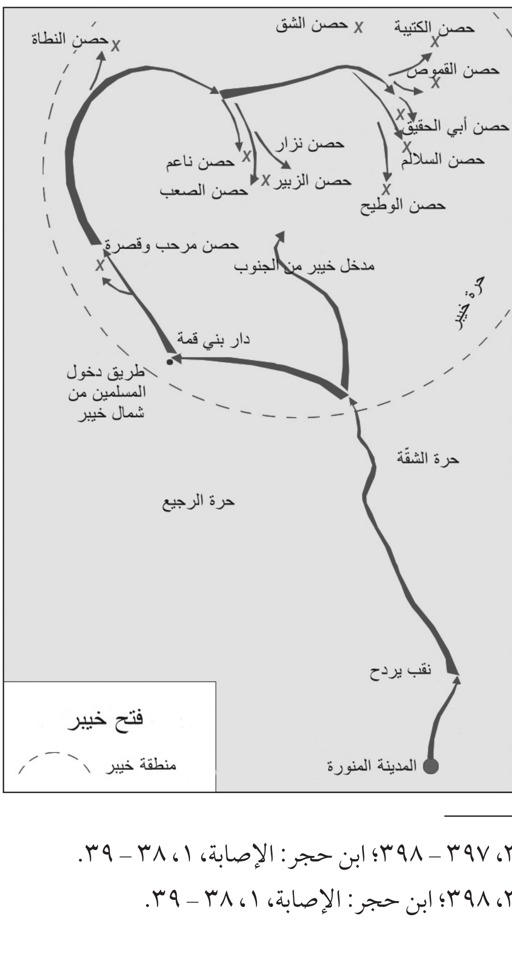
- ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبدًا. فخرجت مجتمعة، كأن سائقًا يسوقها، حتى دخلت الحصن. ثم تقدم أسلم إلى ذلك الحصن ليقاتل إلى جانب المسلمين.[١٤١٧]

وشارك أسلم رضي الله عنه مع المسلمين في الجهاد، وسريعًا ما استشهد في سبيل الله، إذ أصابه حجر فقتله، فجيء به إلى رسول الله ﷺ، فالتفت إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا:

- يا رسول الله! لم أعرضت عنه؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- **إن معه الآن زوجتيه من الحور العين.**[١٤١٨]



١٤١٧ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩٧ – ٣٩٨؛ ابن حجر: الإصابة، ١، ٣٨ – ٣٩.

١٤١٨ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩٨؛ ابن حجر: الإصابة، ١، ٣٨ – ٣٩.

لقد أصاب الناس يوم خيبر شدة وجهد عظيم، ولما عادوا من الهجوم كانوا في حالة من التعب والإرهاق الشديدين، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

– **لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله. يفتح الله على يديه!**

فبات الناس يتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدا الصحابة إلى رسول الله ﷺ، كلهم يرجو ويمني نفسه أن يُعطى الراية. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

– ما أحببت الإمارة قط إلا يومئذ. فتساورت لها رجاء أن أُدعى لها.

قال فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فجاء علي رضي الله عنه يمسك به بعض أصحابه لرمد شديد كان يعاني منه في عينيه، فكان لا يرى من شدة رمد عينيه حتى مكان وطء أقدامه. فلما رأى رسول الله ﷺ حالة عليّ رضي الله عنه بصق في عينيه ودعا له، فبرأ أسد الله علي رضي الله عنه بإذن الله تعالى حتى كأن لم يكن به وجع، ثم بعد ذلك ألبسه النبي ﷺ الدرع، وأعطاه الراية، وقال له:

– **امش يا علي! ولا تلتفت! حتى يفتح الله عليك!**

فسار عليّ رضي الله عنه شيئًا ثم وقف ولم يلتفت. فصرخ:

– يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟

فقال رسول الله ﷺ:

– **قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم. إلا بحقها. وحسابهم على الله. انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام! وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم.**[١٤١٩]

وقتل في ذلك اليوم أشهر مقاتلي اليهود، وفتحت خيبر. لقد كانت لخيبر ثمانية حصون، وسُلم حصنان من هذه الحصون الثمانية دون قتال. وبذلك تحققت المعجزة النبوية. وقتل من اليهود في هذه الحرب ثلاثة وتسعون يهوديًا، وأما المسلمون فقد استشهد منهم خمسة عشر صحابيًا رضي الله عنهم أجمعين.

١٤١٩ البخاري: أصحاب النبي، ٩/ ٣٧٠١؛ مسلم: فضائل الصحابة،٣٢/ ٢٤٠٢، ٣٣/ ٢٤٠٥، ٣٤/ ٢٤٠٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ١٥١.

يقول أبو هريرة ﵁:

شهدنا مع رسول الله ﷺ، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**»، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلت له إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات، فقال النبي ﷺ: «**إلى النار**»، قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**»، ثم أمر بلالا ﵁، فنادى بالناس:

«**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[١٤٢٠]

وبعد نصر خيبر طلب اليهود البقاء في أراضيهم كشركاء. ولذلك لم يجلي النبي عليه الصلاة والسلام جميع اليهود من خيبر. إذ قبل النبي عليه الصلاة والسلام ـ على شرط الإجلاء في الوقت الذي يريده ـ بقاء اليهود كشركاء في أراضيهم والعمل على زراعتها واستنباتها ومن ثم دفع نصف الإنتاج إلى المسلمين. وقد بقي هؤلاء اليهود في أراضيهم على هذه الحالة حتى عهد خلافة عمر بن الخطاب ﵁.[١٤٢١]

كان عبد الله بن رواحة ﵁ يذهب إليهم كل عام، فيقدر المحاصيل الناتجة في ذلك العام ويأخذ منهم ما يعادل قيمة نصفها ثم يعود، لقد كان اليهود ينزعجون من دقة وحرص عبد الله ﵁ في عملية التقدير، حتى إنهم عرضوا عليه رشوة من أجل التغاضي عن بعض الحسابات لمصلحتهم، فقال لهم عبد الله بن رواحة ﵁:

– يا معشر اليهود! والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها!

فقال اليهود:

– بهذا قامت السماوات والأرض.[١٤٢٢]

١٤٢٠ البخاري: الجهاد، ١٨٢/ ٣٠٦٢، المغازي، ٣٨/ ٤٢٠٣، القدر، ٥/ ٦٦٠٦؛ مسلم: الإيمان، ١٧٨/ ١١١.

١٤٢١ مسلم: المساقاة، ٥؛ أبو داود: الخراج، ٢٣ – ٢٤ / ٣٠٠٧.

١٤٢٢ الموطأ: المساقاة، ٢.

الحساسية بشأن حقوق العباد

لقد قُسمت الغنائم التي حصل عليها المسلمون في خيبر بين جميع الذين شاركوا في الحديبية، سواء من كان منهم في خيبر أم لم يكن، وذلك لأن الله ﷻ كان قد وعد الذين خرجوا إلى الحديبية بغنائم خيبر في الآية العشرين من سورة الفتح.[١٤٢٣]

يقول عمر بن الخطاب ﵁: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابه النبي ﷺ. فقالوا: فلان شهيد. فلان شهيد! حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد! فقال رسول الله ﷺ:

«كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها - أو عباءة ...يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس، أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»، قال: فخرجت فناديت. [١٤٢٤]

فمع أن الشهادة التي تُعد إحدى أعلى المقامات والرتب التي ينالها المسلم في الدنيا والآخرة، وتكفر عن الشهيد الكثير من الذنوب والخطايا، إلا أنها لا ترفع عن الشهيد خيانته للأموال العامة وأكله حقوق العباد. ولهذا السبب فقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الصحابي الذي قيل له بأنه سقط شهيدًا في المعركة بأنه يحترق في نار جهنم وذلك لأنه أخذ عباءة من أموال الغنائم قبل تقسيمها، وبذلك فقد علّم الأمة بأن الخيانة في الأموال العامة، وأكل حقوق العباد من الذنوب التي لا تُغفر.

كان للنبي ﷺ عبد يقال له مدعم يقوم على خدمته، ، أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر، حتى أصاب ذلك العبد،، فقال الناس: هنيئا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ:

«بل، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا»

فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ:

«شراك - أو شراكان - من نار»[١٤٢٥]

١٤٢٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٨٤.

١٤٢٤ مسلم: الإيمان، ١٨٢/ ١١٤.

١٤٢٥ البخاري: الأيمان، ٣٣/ ٤٢٣٤؛ مسلم: الإيمان، ١٨٣/ ١١٥.

جاء رجل يوم فتح خيبر إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله لقد ربحت ربحا ما ربح اليوم مثله أحد من أهل هذا الوادي قال:

«ويحك، وما ربحت؟»

قال: ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاث مائة أوقية. فقال رسول الله ﷺ:

«أنا أنبئك بخير رجل ربح».

قال: ما هو يا رسول الله؟ قال:

«ركعتين بعد الصلاة»[١٤٢٦]

لما أخذ المهاجرون نصيبهم من الأموال والنخيل التي أُخرجت لهم من غنائم خيبر تحسنت أحوالهم المادية، وصاروا في بحبوحة من العيش. وبناءً على ذلك فقد أعاد رسول الله ﷺ إلى الأنصار أشجار وبساتين النخيل التي كانوا أهدوها إلى المهاجرين، أو وضعوها تحت تصرفهم من أجل استثمارها والاستفادة من ثمارها.[١٤٢٧]

قدوم قبيلة دوس إلى المدينة

في هذه الأثناء جاء وفد من قبيلة دوس إلى المدينة المنورة، وعلى رأس هذا الوفد طفيل بن عمرو الذي كان قد جاء سابقـًا إلى مكة المكرمة، والتقى بالنبي ﷺ ثم دخل الإسلام، ثم استأذن من النبي ﷺ فرجع إلى قبيلته ودعاهم إلى الإسلام. وكان أولَ من استجاب لدعوته أبو هريرة رضي الله عنه.[١٤٢٨] ثم بعد ذلك أخذ عدد المسلمين بالازدياد حتى وصل إلى سبعين أو ثمانين شخصـًا، وهاجر هؤلاء من بلدهم في أيام غزوة خيبر قادمين إلى المدينة المنورة، واتجهوا من المدينة إلى خيبر، فوصلوا إلى رسول الله ﷺ واشتركوا معه في الجهاد.

خلال طريق هجرتهم إلى المدينة كان أبو هريرة رضي الله عنه يشعر بضيق ونفاد صبر شديدين، إذ إنه كان يتحرق شوقـًا إلى لقاء رسول الله عليه الصلاة والسلام. ويقول:

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجت![١٤٢٩]

١٤٢٦ أبو داود: الجهاد، ١٦٨ / ٢٧٨٥.

١٤٢٧ ابن قيم: زاد، المعاد، ٣، ٣٥٩.

١٤٢٨ ابن حجر: الإصابة، ٢، ٢٢٦.

١٤٢٩ البخاري: المغازي، ٧٥/ ٤٣٩٣؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٣٦.

ولما وصل أبو هريرة ﷺ مع الدوسيين إلى خيبر وجدوا أن النبي ﷺ قد فتح خيبر.[١٤٣٠] فلما رأى رسول الله ﷺ أبا هريرة، سأله: «**ممن أنت**»؟ قال: من دوس. قال:

«**ما كنت أرى أن في دوس أحدا فيه خير**»[١٤٣١]

وأعطى النبي عليه الصلاة والسلام للدوسيين نصيبـًا من غنائم خيبر.[١٤٣٢]

عودة المهاجرين من الحبشة

وخلال إتمام فتح خيبر عادت قافلة مهاجري الحبشة المؤلفة من ستة عشر نفرًا بقيادة جعفر ﷺ، عادت إلى المدينة. ولما علم من كانوا بالقافلة بخبر خروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى خيبر تابعوا طريقهم ولحقوا برسول الله عليه الصلاة والسلام في خيبر. فلما أبصر رسول الله ﷺ جعفرًا ﷺ تلقاه وقبَّل جبهته، وقال:

«**ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟**»[١٤٣٣]

ووصل إلى خيبر مع مهاجري الحبشة جماعة من الأشعريين من قبائل اليمن. وكان من بين هؤلاء أبو موسى الأشعري ﷺ، حيث يقول:

«بلغنا مخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام ونحن باليمن. فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوانِ لي، أنا أصغرهما، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم. وكنا إما ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلًا من قومي فركبنا سفينة. فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة. فوافقنا جعفر بن أبي طالب ﷺ وأصحابه عنده.

فقال جعفر ﷺ:

– إن رسول الله عليه الصلاة والسلام بعثنا ههنا، وأمرنا بالإقامة. فأقيموا معنا!

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعـًا، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر. فأسهم لنا»[١٤٣٤]

١٤٣٠ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٣٢٨.

١٤٣١ الترمذي: المناقب، ٤٦ / ٣٨٣٨.

١٤٣٢ ابن سعد: الطبقات، ١، ٣٥٣.

١٤٣٣ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤١٤.

١٤٣٤ البخاري: المغازي، ٣٨/ ٣١٣٦؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٦٩/ ٢٥٠٢.

محاولة اليهود تسميم النبي ﷺ

على الرغم من المعاملة الإنسانية الراقية التي لقيها اليهود على أيدي المسلمين إلا أنهم لم ينتهوا عن مكائدهم وخبثهم وغدرهم. فاتخذوا في السر قرارًا لوضع خطة محكمة من أجل قتل النبي ﷺ. إن هؤلاء الضالين الأشرار في الوقت الذي لم يكونوا قد تخلصوا بعد من عواقب جرائمهم السابقة، نقضوا عهدهم من جديد من خلال هذه الخيانة البشعة التي راحوا يحيكوا نسجها بحق النبي ﷺ الذي عفا عنهم وسامحهم، ولم يجلهم من أرضهم مثل بقية القبائل اليهودية الأخرى.

ومن أجل تنفيذ غدرهم وخيانتهم الخسيسة قامت زينب ابنة الحارث أحد زعماء اليهود بدعوة النبي ﷺ مع أصحابه إلى طعام. فحضرت شاة مشوية وجعلت السم في كل أطرافها. وعلمت أن النبي ﷺ يحب الذراع من الشاة، فجعلت فيها السم أكثر. وما كاد رسول الله ﷺ أن يضع اللقمة الأولى في فمه حتى رماها وقال لأصحابه:

- **إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، أمسكوا !**

إلا أن الصحابي بشر بن براء كان قد وضع قطعة من اللحم في فمه وابتلعها قبل أن يبدأ النبي ﷺ بالطعام ويحذرهم منه، وأما بقية الصحابة فلم يمد أحد منهم يده إلى تلك الشاة.

ولم يمض وقت طويل حتى تم الإمساك بتلك المرأة وأُتي بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال لها رسول الله ﷺ: **أنت سممتِ هذه الشاة؟**

قالت زينب: من أخبرك أني سممتها؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **إن هذه الذراع أخبرتني.**

فقالت زينب: نعم! أنا سممتها، فاعترفت بفعلتها.

فقال: ما حملك على ذلك؟

قالت: لقد قتلت أبي، وعمي، وزوجي! وبلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكـًا استرحنا منه، وإن كان نبيـًا فستخبره الشاة بما صنعتُ!

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **ما كان الله ليسلطكِ على ذاك!**

فمن جهة اعترفت المرأة بذنبها وجرمها، ومن جهة أخرى آمنت متأثرة بالمعجزة التي شاهدتها بأم عينها وندمت على فعلتها، وطلبت العفو والصفح من النبي ﷺ.

فعفى رسول الله عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمة للعالمين عمن تعمد محاولة قتله. إلا أن ورثة بشر ﵁ الذي توفي تحت تأثير السم طالبوا بالقصاص من قاتله، وتنفيذًا لحكم القصاص أسقيت زينب بنت الحارث السمّ فماتت قصاصًا.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بفصد ما بين كتفيه من أجل التخلص من آثار السم.[١٤٣٥]

وقد قيل أنّ وفاة رسول الله ﷺ التي حدثت بعد ثلاث سنوات إنما كانت بسبب مرضه من هذا السم.[١٤٣٦]

مسألة المتعة

وخلال فتح خيبر تم تحريم «**زواج المتعة**» أي الزواج المؤقت، والذي لم يكن قد جاء فيه نهي قبل ذلك. يقول علي كرم الله وجهه:

«إن النبي ﷺ نهى عن المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية، زمن خيبر» [١٤٣٧]

زواج المتعة: هو ارتباط الرجل بامرأة والاستمتاع بها مدة معينة، لقاء أجر معين. وهو شكل من أشكال النكاح الذي كان سائدًا في العصر الجاهلي، وينتهي زواج المتعة بانتهاء المدة التي تم تحديدها في بداية العقد، وليس في نكاح المتعة الحقوق المتوجبة في الزواج العادي الدائم، مثل التوارث، والنفقة، والعدة. ولذلك حرم زواج المتعة اعتبارًا من فتح خيبر بكثير من الأحاديث النبوية الشريفة. ومن هذه الأحاديث الرواية الآتية:

«**يا أيها الناس، إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا**»[١٤٣٨]

عندما كان النبي ﷺ في غزوة تبوك نزل بالجيش للاستراحة في مكان يقال له ثنية الوداع. فرأى هناك نساءً يبكين، فسأل عن سبب بكائهن، فقيل له: أن هؤلاء نساء المتعة! فقال ﷺ:

١٤٣٥ البخاري: الجزية، ٧/ ٣١٦٩؛ مسلم: السلام، ٤٥/ ٢١٩٠؛ ابن هشام: السيرة،، ٣٩٠؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٧٨ – ٦٧٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٥٣/ ١٤٠٩٢.

١٤٣٦ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٤٢ / ٤٩٦٦.

١٤٣٧ البخاري: المغازي، ٣٨، النكاح، ٣١/ ٥١١٥، الذبائح، ٢٨، الحيل، ٣؛ مسلم: النكاح، ٢٩ – ٣٢؛ الموطأ: النكاح، ٤١؛ النسائي: النكاح، ٧١.

١٤٣٨ مسلم: النكاح، ٢١/ ١٤٠٦؛ ابن ماجه: النكاح، ٤٤/ ١٩٦٢؛ الدارمي: النكاح، ١٦؛ أحمد: مسند، ٣، ٤٠٦.

«**إنها** ـ المتعة ـ **كانت لمن لم يجد فلما أنزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت!**»[١٤٣٩]

وبناءً على ذلك فإن المرأة التي تُنكح عن طريق المتعة ليست بالزوجة، ولا بالجارية، وقد أجمع علماء أهل السنة والجماعة على تحريم المتعة، وأنها زنا.

يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شيئه، حتى إذا نزلت الآية:

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[١٤٤٠]

قال ابن عباس رضي الله عنه: «فكل فرج سوى هذين فهو حرام»[١٤٤١]

ونورد هنا بعض الآثار الكارثية للمتعة على المجتمع، والتي منها:

١. ضياع وتشتت الأطفال. إذ إن الأطفال الذين يولدون من هذا الزواج يكبرون من غير أب، ولذلك فإنهم يحرمون من التربية مثلهم مثل أولاد الزنا. وإن الفتيات اللاتي يلدن من هذا الزواج يصبحن عرضة أكثر لهذه الحالة الكارثية.

٢. من المحتمل جدًا للمرأة التي تعقد نكاح المتعة مع رجل ما، أن تلتقي دون معرفة منها بابن ذلك الرجل وتعقد معه أيضًا نكاح متعة، أو نكاحًا مؤبدًا لتؤسس معه عائلة، ومن المحتمل أيضًا أن يلتقي الرجل الذي يعقد نكاح المتعة مع النساء أن يلتقي في المستقبل ودون علمه بابنته، أو ابنة بنته، أو ابنة ابنه، أو ابنة أخته... أي يمكن أن يلتقي بنساء محرمة عليه حرمة أبدية فيتزوج بهن أو يعقد معهن نكاح المتعة من غير معرفته لهن. ولا يخفى على أحد أن هذه الحالة واحدة من أكبر المحظورات الشرعية والإنسانية، وقد حدثت أمثلة كثيرة على هذه الحالة خلال التاريخ.

٣. لا يمكن تقسيم ميراث من عقد نكاح المتعة لمرات عديدة سواء كان رجلًا أو امرأة. وذلك لأنه لا يمكن معرفة عدد ورثة هذا الشخص، ولا أسماؤهم، ولا أماكن إقامتهم.

١٤٣٩ الدارقطني: السنن، ٣، ٢٥٩/ ٣٦٤٥؛ ابن بلبان: ٦، ١٧٨.

١٤٤٠ المؤمنون: ٥ – ٦.

١٤٤١ الترمذي: النكاح، ٢٩ / ١١٢٢.

كما تبين لنا فإن الآثار السلبية التي يرتبها نكاح المتعة على المجتمع وخيمة جدًا. فما هو إلا خلط للأنساب وتضيع لها. ومن جهة أخرى فإن المرأة التي تمارس المتعة ينهار لديها الجانب الروحي والعاطفي، لأن إيجار النفس من أكبر الوقائع التي تهين وتحطم كرامة الإنسان، ومن هذا المنطلق فإن المتعة تُعتبر فتنة للعرض والشرف. إذ هل يقبل أحد ما على الرغم من فساده وانحطاطه أن تمارس ابنته أو أمه المتعة؟

وهذا وحده كاف لإظهار مدى فجاعة وكارثية المتعة.

على طريق العودة من خيبر

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح خيبر ممثلًا له إلى أرض فدك التي تبعد عن المدينة مسير يومين. وضُمت تلك الأراضي إلى الدولة الإسلامية الناشئة من غير قتال.

وبعد ذلك تمت محاصرة وادي القرى الذي يعد تجمعـًا مركزيـًا وصغيرًا لليهود يقع على طريق العودة من خيبر، ودام الحصار يومـًا واحدًا ثم فتحه المسلمون ودخلوه، وتُرك أهل المكان في أراضيهم كشركاء مثل يهود خيبر.

وأما يهود تيماء فقد عقدوا اتفاقـًا مع النبي ﷺ على أن يدفعوا ما يتوجب عليهم من الجزية والخراج، وبذلك بقي هؤلاء في بلادهم وأصبحت أراضيهم ملكـًا لهم، وكانت قبائل اليهود الموجودة في هذا المكان قد تحالفت سابقـًا مع يهود خيبر وعقدوا العزم على مهاجمة المدينة المنورة.[١٤٤٢]

وبفتح خيبر وما حولها أصبح الطريق ممهدًا أمام المسلمين من أجل السير لفتح مكة. وذلك لأن هزيمة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ومؤخرًا يهود خيبر قد أخافت الناس، وأدخلت الفزع في قلوبهم تجاه المسلمين، ولم يعد لدى أحد من ريب في نجاح النبي عليه الصلاة والسلام وانتشار دعوته في الأصقاع، وذلك لأن ألسنة الناس كانت تلهج بغنى وثروات يهود الحجاز وبقوتهم وبشجاعتهم، وتروي بطولاتهم كالأساطير. إذ كان اليهود أصحاب الحصون الشامخة التي لا يمكن اقتحامها ولا النفاذ إليها دون إذنهم، وأصحاب بساتين واسعة من النخيل التي تجود عليهم بالموارد المادية الكبيرة. فكانت لديهم القوة والقدرة التي تمكنهم من حماية أنفسهم وصد العرب مجتمعين. إلا أنهم عندما

١٤٤٢ انظر. ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩١؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٠٧، ٧١١.

حوصروا من قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام واستسلموا له، رأى جميع الناس كيف أن شجاعتهم وبطولاتهم ذهبت أدراج الرياح، وكيف قبلوا بالشروط القاسية والثقيلة التي حُملوها. ولهذا السبب كانت الرياح تهب لصالح المسلمين بالتأكيد.[١٤٤٣]

وبالإضافة إلى ذلك، فقد تزوج النبي عليه الصلاة والسلام خلال فتح خيبر بأم المؤمنين صفية رضي الله عنها بعد مقتل زوجها في هذه الحرب.[١٤٤٤]

لقد كانت السيدة صفية رضي الله عنها قد تزوجت قبل مسير النبي ﷺ إلى خيبر بعدة أيام من أحد وجهاء اليهود. ورأت ليلة زفافها حلمـًا بأن قمرًا يأتي من جهة المدينة فيقع في حضنها، فلما روت هذا الحلم لزوجها، غضب زوجها وقال لها:

– إنك لتمدين عنقك إلى أن تكوني عند ملك العرب! ثم لطمها لطمة على وجهها فازرقت أطراف عينيها. ولما قُتل زوجها، وتزوجت من النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يزال أثر تلك اللطمة على وجهها، فلما سألها نور الكون عليه الصلاة والسلام عن ذلك، قصت السيدة صفية رضي الله عنها عليه الحادثة. فبين رسول الله عليه الصلاة والسلام لها الإسلام، ثم قال لها:

«إن أقمت على دينك لم أكرهك، وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك».

قالت: أختار الله ورسوله والإسلام. فأعتقني النبي ﷺ وتزوجني وجعل عتقي مهري.[١٤٤٥]

وصار زواج النبي ﷺ من صفية ابنة أحد وجهاء اليهود وزعمائهم وسيلة للتقارب مع يهود خيبر، والتخفيف من العداوة القائمة بينهم وبين المسلمين، وكذلك وسيلة لتطوير علاقات الود والتفاهم بينهم. لقد كانت السيدة صفية رضي الله عنها وكأنها ممثلة لليهود في بيت الرسول ﷺ. وتُظهر قربها منهم حتى كان ذلك سببـًا للشكوى منها.

ذات يوم ذهبت جارية صفية رضي الله عنها في زمن الخلافة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، تشتكي إليه من أم المؤمنين صفية، فقالت له:

– يا أمير المؤمنين! إن صفية تحب السبت وتصلُ اليهود.

فبعث عمر بن رضي الله عنه إليها رجلًا فسألها عن ذلك، فقالت:

١٤٤٣ انظر: الواقدي: المغازي، ٢، ٧٢٩ – ٧٣١؛ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٣٤.

١٤٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٢١ – ١٢٦.

١٤٤٥ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٧٤، ٧٠٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٨، ١٢٣؛ أحمد: مسند، ٣، ١٣٨.

– أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة. وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا، فأنا أصلها.

ثم بعد ذلك التفتت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها إلى الجارية وسألتها:

– ما حملك على هذا؟

قالت الجارية:

– الشيطان.

فكان رد أم المؤمنين رضي الله عنها في قمة الروعة، وخير مثال على تحليها بالأخلاق الإسلامية الحميدة، إذ قالت لمن اتهمها في دينها وافترى عليها:

– اذهبي، فأنت حرة! [١٤٤٦]

عمرة القضاء «ذي القعدة ٧ / آذار ٦٢٩»

لقد سميت هذه العمرة بـ «عمرة القضاء»لأنها أديت بدلًا عن العمرة التي لم يتمكن المسلمون من أدائها في العام السابق بسبب منعهم من دخول مكة.

فحان موعد العمرة بعد مرور عام على معاهدة صلح الحديبية، حيث كان من ضمن بنود الصلح السماح للمسلمين بأداء العمرة في العام المقبل. ولما دخل شهر ذي القعدة من العام السابع للهجرة، أمر رسول الله ﷺ جميع من شارك في الحديبية بالتجهز من أجل الخروج إلى العمرة. وأخبر الناس أيضًا بأمر التجهز للخروج، فقال الأعراب الذين كانوا قد جاؤوا من أطراف المدينة:

– يا رسول الله! والله ما لنا من زاد وما لنا مَن يطعمنا!

فأمر نور الكون سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا. فقال أهل المدينة:

– يا رسول الله! بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئًا؟

قال فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

١٤٤٦ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٣٤٧.

- **بما كان. ولو بشق تمرة ولو بمِشقص يحمل به أحدكم في سبيل الله.**[١٤٤٧]

فتوجه النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة لأداء العمرة في ألفين من أصحابه الكرام. وحمل رسول الله ﷺ معه السلاح، والدروع، والرماح، وقاد مائة فرس.

فقال الصحابة الكرام:

- يا رسول الله! حملت السلاح وقد شرطوا علينا أن لا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر السيوف في القرب!

فقال رسول الله ﷺ:

- **إنا لا ندخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قريبًا منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبًا منا.**

ثم أرسل السلاح مع مائتين من أصحابه إلى موقع بطن يأجج الذي يبعد عن مكة ثلاثة أميال تقريبًا.[١٤٤٨]

خلال الطريق إلى مكة مر المسلمون بالأبواء، فتوقف النبي ﷺ هناك فاستأذن من ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه. فلما زار القبر أخذ يسويه ويصلحه بيديه الشريفتين وبكى من شدة تأثره وشوقه. ولما رآه المسلمون في حالة البكاء والحزن لم يتمالكوا أنفسهم وأخذت الدموع تنهمر من مآقيهم. ولما سئل النبي ﷺ عن سبب ذلك، قال:

- **أدركتني رحمتها فبكيت.**[١٤٤٩]

ووفقًا لبنود معاهدة صلح الحديبية خرج المشركون من مكة وتركوها للمسلمين مدة ثلاثة أيام، واتجهوا إلى شعب الجبال وأخذوا يراقبون المسلمين من بعيد وكلهم فضول لمعرفة ما سيفعلونه، فأخذ المسلمون عندما أبصروا الكعبة التي لم يروها منذ سبع سنوات، أخذوا بنداء التلبية معًا وبكل حماس وشوق:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

١٤٤٧ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٣١ – ٧٣٢.

١٤٤٨ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٣١ – ٧٣٤.

١٤٤٩ ابن سعد: الطبقات، ١، ١١٦ – ١١٧.

ووفقـًا للرواية التي جاءت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما قدم النبي ﷺ مكة، استقبلته أغلمة بني عبد المطلب، فحمل رسول الله ﷺ واحدًا بين يديه على دابته وآخر خلفه.[١٤٥٠]

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط. ويمشوا ما بين الركنين، ليرى المشركون – وقد غمزوا من ضعف المسلمين بسبب حمى المدينة – جلدهم وقوتهم.[١٤٥١] وقال عليه الصلاة والسلام:

«رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة!» [١٤٥٢]

على الرغم من أن قطع مسافة ما يزيد عن أربعمائة كيلومتر تفصل المدينة المنورة عن مكة في ظروف وأحوال ذلك الزمان، يُعد رحلة في غاية الصعوبة والمشقة، ويُفترض بمن قام بهذه الرحلة أن يكون في غاية التعب والإرهاق، إلا أن المسلمين الذين قطعوا هذه المسافة لم يتوانوا عن تلبية نداء رسول الله ﷺ وحثه إياهم على الجلد وإظهار القوة والنشاط، فأدوا عمرتهم بصورة تنم عن الهيبة والوقار. حتى إنهم أدوا الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، والسعي بين الصفا والمروة هرولة.

ومن جهة أخرى، فقد كان المشركون يراقبون المسلمين من أعالي التلال والجبال التي خرجوا إليها، فلو أنهم لاحظوا على المسلمين شيئـًا من أمارات الإرهاق، أو التعب لكان من الممكن أن يفكروا بأمور سيئة تجاههم. إلا أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الإصابة بالحيرة والدهشة تجاه حيوية المسلمين ونشاطهم الكبير، فقالوا:

- هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم! هؤلاء أجلد من كذا وكذا..[١٤٥٣]

وإضافة إلى ذلك، فبينما كان خروج بلال الحبشي رضي الله عنه ذاك اليوم إلى ظهر الكعبة ورفعه الأذان المحمدي يثلج صدور المؤمنين ويبث في قلوبهم البهجة والسرور، فقد كان يغرق المشركين في حسرتهم وغيظهم.

ولما كان الصحابة الكرام يطوفون بالكعبة مع رسول الله ﷺ، أخذ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يقرأ الشعر في الطواف ويترنم به. فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

١٤٥٠ البخاري: العمرة، ١٣، اللباس، ٩٩.

١٤٥١ البخاري: الحج، ٥٥؛ مسلم: الحج، ٢٤٠؛ أحمد: مسند، ١، ٣٠٥ – ٣٠٦.

١٤٥٢ ابن هشام: السيرة،، ٤٢٤ – ٤٢٥.

١٤٥٣ مسلم: الحج، ١٢٦٦/٢٤٠.

– يا ابن رواحة! ألا تتوقف عن قول الشعر في حضرة رسول الله ﷺ وفي حرم الله تعالى!؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

– يا عمر، إني أسمع! والذي نفسي بيده إن كلماته أمضى على المشركين من السهام، إيهـًا يا ابن رواحة أكمل!

فأسكت عمر، ثم قال لعبد الله رضي الله عنه، قل:

– لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

ولما بدأ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بقول ذلك أخذ المسلمون جميعـًا بترديده معه.[١٤٥٤]

وبعد انقضاء ثلاثة أيام، توجه المسلمون من مكة عائدين إلى المدينة المنورة، وكان في سيماهم نور ولطافة مختلفة. حيث إنهم قد حققوا زيارتهم الأولى للكعبة المشرفة بعد طول غياب، وتحققت رؤيا رسول الله عليه الصلاة والسلام التي بشر بها قبل سنة أمام أعينهم. لقد كان الله تعالى الذي حقق هذا الأمر قد بشر إلى جانب الإشارة إلى فتح خيبر بقرب فتح مكة أيضـًا، وقد بين ذلك في القرآن الكريم بقوله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[١٤٥٥]

لقد تركت عمرة القضاء التي أداها النبي ﷺ مع أصحابه الكرام تأثيرًا كبيرًا على أهل مكة. إذ لم يمض وقت طويل حتى آمن كثير من وجهاء قريش وانضموا إلى قافلة المؤمنين السابقين، وذلك أمثال؛ خالد بن الوليد الذي سوف يفتح سوريا فيما بعد، وعثمان بن طلحة الذي سوف يفتح مصر عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

بينما كان النبي ﷺ يخرج من مكة لحقت به أُمَامة بنت حمزة رضي الله عنها، ونادته قائلة:

– يا عم يا عم! فتناولها عليّ رضي الله عنه، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة:

١٤٥٤ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٣٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٢٢ – ١٢٣.

١٤٥٥ الفتح: ٢٧ – ٢٨.

– دونك ابنة عمك احمليها! فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر رضي الله عنهم أجمعين، فقال علي:

– أنا أحق بها، وهي ابنة عمي!

وقال جعفر رضي الله عنه:

– ابنة عمي وخالتها تحتي!

وقال زيد رضي الله عنه:

– ابنة أخي! ـ لأن النبي ﷺ كان قد آخى بين زيد وحمزة رضي الله عنهما.

فقضى النبي ﷺ بأمامة رضي الله عنها لخالتها، وقال:

– **الخالة بمنزلة الأم**، وقال لعلي رضي الله عنه:

– **أنت مني وأنا منك!**

وقال لجعفر رضي الله عنه:

– **أشبهت خلقي وخلقي!**

وقال لزيد رضي الله عنه:

– **أنت أخونا ومولانا**، وبذلك أرضى الجميع بلفة كريمة إلى كل منهم.[١٤٥٦]

١٤٥٦ البخاري: المغازي، ٤٣/ ٤٢٥١، الصلح، ٣/ ٢٦٩٩؛ مسلم: الجهاد، ٩٠.

السنة الثامنة للهجرة

وفاة السيدة زينب رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ

لما أُحضرت السيدة زينب رضي الله عنها من مكة إلى المدينة مرضت بسبب وقوعها عن ظهر الناقة في الحادثة التي ذكرناها سابقًا، ولم تتعافَ بعدها من ذلك المرض. فتوفيت في بداية السنة الثامنة للهجرة، وتولت غسل جثمانها الطاهر كل من أم أيمن، وأم عطية الأنصارية، ومن أمهات المؤمنين السيدة سودة وأم سلمة رضي الله عنهن أجمعين، وفي هذه الأثناء جاء إليهن النبي ﷺ، وقال لهن:

«ابدأوا بميامنها ومواضع الوضوء، واغسلنها ثلاثًا، أو خمسًا، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتن فآذنني!»

فضفرن شعر زينب رضي الله عنها ثلاثة ضفائر، فجعلت الضفيرة الأولى والثانية على طرفيها، وأما الثالثة فكانت في الجانب الأمامي منها وألقيت خلفها. ولم انتهت النسوة من غسلها، وأخبرن النبي عليه الصلاة والسلام، ألقى إليهن بإزاره وقال لهن:

- **أشعرنها إياه!.**[١٤٥٧]

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ صلاة الجنازة، نزل إلى قبرها والحزن والأسى باد على وجهه المبارك، فبقي فيه قليلًا ثم خرج مسرورًا، وقال:

«كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمّه، ففعل وهون عليها»[١٤٥٨]

١٤٥٧ البخاري: الجنائز، ٩/١٢٥٣، ١٣/ ١٢٥٤، ١٧/ ١٢٥٥؛ مسلم: الجنائز، ٣٦/ ٩٣٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٣٤ – ٣٦. أي اجعلنه شعارا لها وهو الثوب الذي يلي الجسد سمي شعارا لأنه يلي شعر الجسد والحكمة في إشعارها به تبريكها به.

١٤٥٨ ابن الاثير: أُسد الغابة، ٧، ١٣١/ ٦٩٦٤/ ٢٢٧٣.

غزوة مؤتة: الأسطورة التي خطها ثلة من الصحابة

«جيش الأمراء» «جمادى الأولى ٨ / آب – أيلول ٦٢٩»

لقد كان السفراء الذين يرسلهم رسول الله ﷺ بكتبه إلى الملوك والرؤساء يعودون بسلام إلى المدينة المنورة، إذ حتى ولو أن بعضهم كان يتعرض للإهانة أو الاحتقار لدى عدد من الملوك إلا أن الأمر لم يكن ليصل إلى درجة القتل وإزهاق الروح، وذلك عملًا بالقاعدة التي كانت سائدة بين ملوك وولاة ذلك الزمان وهي «عدم تعرض الرسول للموت». ولكن هذا الأمر لم ينطبق على الحارث بن عمير رضي الله عنه الذي بُعث بكتاب النبي ﷺ إلى أمير بصرى، إذ لما وصل الحارث رضي الله عنه إلى مؤتة قطع عليه الطريق شرحبيل بن عمرو أحد أمراء الغساسنة وسأله عن وجهة سفره. ولما أخبره الحارث رضي الله عنه بأنه رسولُ النبي ﷺ بادر شرحبيل الظالم إلى قتله بكل وحشية ودم بارد مخترقًا بذلك قاعدة «عدم التعرض للرسل والسفراء»، ليرتقي الحارث شهيدًا إلى ربه عز وجل.[١٤٥٩]

لقد حزن النبي عليه الصلاة والسلام لاستشهاد الحارث رضي الله عنه بهذه الصورة. وسارع على الفور إلى تجهيز جيش قوامه ثلاثة آلاف مجاهد، حيث إن هذا التصرف إلى جانب أنه يشكل اعتداءً صارخًا على الإسلام، فإنه يحمل أيضًا معنى الاستخفاف بالمسلمين. وإن لم تتم مجابهة هذا الفعل الشنيع فإنه قد يؤدي إلى إضعاف اعتبار وصورة الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة في أعين أعدائها، وبالتالي سيترتب على ذلك نتائج كارثية في المستقبل.

وبناءً على الغاية السامية للإسلام المتمثلة بإزالة سائر الفوارق الطبقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، فقد أمَّر رسول الله ﷺ على هذا الجيش مولاه زيد رضي الله عنه الذي كان قد أعتقه من الرق في وقت سابق. ثم وجه للجيش تعليماته قائلًا:

– **زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فليجعلوه عليهم.**

فلما سمع أحد اليهود كلام رسول الله ﷺ فسره بأنه بمثابة إعلان الموت لهؤلاء الأمراء، ثم جاء إلى زيد رضي الله عنه فقال له:

١٤٥٩ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٥٥؛ ابن قيم: زاد المعاد، ٣، ٣٨١.

– اعهد! فإنك لا ترجع أبدًا إن كان محمد نبيًا! لأن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا الرجل على القوم فقالوا إن أصيب فلان ففلان، فلو سموا مائة أصيبوا جميعًا، ولم يعودوا. وإن كان اليهودي قد أراد بقوله هذا إدخال الخوف في قلب الصحابي إلا أن زيدًا رضي الله عنه لم يتزحزح قيد أنملة، بل أدخل الفرح في قلبه عوضًا عن الخوف.[١٤٦٠]

لم يكن ذاك اليهودي يعلم بأن زيد بن حارثة رضي الله عنه كما كل أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يتحرقون شوقًا إلى نيل الشهادة في سبيل الله تعالى.

وبعد أن أنهى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه تجهيزاته للخروج، وجاء فودع رسول الله ﷺ الذي سيبقى في شوق وحنين شديد إلى وجهه المزهر المبارك، قال:

– يا رسول الله! مرني بشيءٍ أحفظه عنك.

فقال رسول الله ﷺ:

– **إنك قادم غدًا بلدًا، السجود به قليل فأكثر السجود.**

قال عبد الله رضي الله عنه:

– زدني يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ:

– **اذكر الله! فإنه عون لك على ما تطلب!** [١٤٦١]

رافق النبي عليه الصلاة والسلام جيش المسلمين إلى خارج المدينة حتى موقع ثنية الوداع وهو يدعو لهم بالتوفيق والنصر على الأعداء، وثم أرسلهم إلى لقاء العدو. وأمرهم بالسير حتى يبلغوا المكان الذي قُتل فيه الحارث رضي الله عنه، فإذا وصلوه دعوا الناس هناك إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم مستعينين بالله تعالى.[١٤٦٢]

فلما سمع شرحبيل بخبر تحرك جيش المسلمين إليه، عمل بمساعدة ملك الروم على تجهيز جيش كبير قوامه مائة ألف مقاتل. وجاءت قوة أخرى من نصارى العرب مؤلفة من مائة مقاتل أيضًا وانضمت إليهم.

١٤٦٠ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٣٨؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٥٥؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٤، ٣٦١.

١٤٦١ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٥٨.

١٤٦٢ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٢٨.

ولم يعلم جيش المسلمين بحجم جيش العدو الكبير إلا عندما دخلوا إلى أراضي سوريا، فأخذ المسلمون يتشاورون فيما بينهم حول هذا الأمر الذي لم يكن متوقعًا، فرأى أكثرهم إرسال خبر بهذه المسألة المستجدة إلى النبي ﷺ، وثم انتظار وصول تعليماته والتصرف وفقها، وذلك لأن القوتان كانتا غير متكافئتين على الإطلاق، إلى درجة عدم إمكانية إجراء المقارنة بينهما، إذ لم يشهد التاريخ مثل هذه الحالة. وكاد الناس أن يتفقوا على إرسال الخبر إلى رسول الله ﷺ، إلا أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال:

- يا قوم! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة!

وبناءً على كلام ابن رواحة رضي الله عنه اتخذ المسلمون قرار الحرب وانطلقوا إلى العدو.

يقول زيد بن أرقم رضي الله عنه:

«كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أديتني وحملت رحلـي مسيرة أربع بعد الحســاء

فشأنك أنعـــم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهي الثواء

وردك كـل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء

هنالك لا أبالــي طلع بعل ولا نخل أسافلهـــا رواء

فلما سمعتهن منه بكيت. فخفقني بالدرة، وقال:

- ما عليك يا لكع أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل! فأستريح من الدنيا ونصبها، وهمومها، وأحزانها، وأحداثها.

ثم نزل نزلة من الليل فصلى ركعتين، وعاقبهما دعاءً طويلًا، ثم قال:

- هي إن شاء الله تعالى الشهادة!»[١٤٦٣]

١٤٦٣ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٣١ - ٤٣٢؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٥٩؛ ابن كثير: البداية، ٦، ٤١٨.

وفي مؤتة هاجم جيش الإسلام القليل العدد بقيادة زيد ﷺ صفوف جيش العدو في طرفة عين. لقد كان هؤلاء الأبطال الذين وهبوا قلوبهم للتوحيد قد وهبوا في هذه اللحظات الإيمانية المقدسة أرواحهم أيضـًا في سبيل الله تعالى. وفي إحدى لحظات احتدام المعركة واشتداد القتال ارتقى قرة عين رسول الله ﷺ وأحد السابقين الثمانية في مكة إلى الإسلام قائد جيش المسلمين زيد بن حارثة ﷺ، ارتقى شهيدًا في سبيل ربه بطعنة رمح غادرة من العدو.

فأخذ الراية على الفور جعفر ﷺ بموجب أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام. فغشي هو الآخر صفوف الأعداء ببطولة أسطورية، وفقد ذراعيه بضربات السيوف المتلاحقة التي كانت تنهال عليه من العدو. وعمل على رفع الراية من خلال ضمها إلى صدره بالجزء الباقي من ذراعيه لكيلا تسقط راية رسول الله عليه الصلاة والسلام على الأرض. وبعد مدة نال هو الآخر شرف الشهادة في سبيل الله. لقد كان جعفر ﷺ متماهيـًا بمحبة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. وهكذا فإنه وُفق إلى التضحية بروحه في هذا السبيل لينال الرضا الإلهي.

انتقلت الراية هذه المرة إلى عبد الله بن رواحة ﷺ، فتناولها بحماس وشوق لا يقل عن أصحابه الشهداء وأخذ يضرب في صفوف العدو كموج البحر العاتي. ولكيلا يشغل نفسه بشيءٍ أوصى من حوله قائلًا:

- اشهدوا! بأني أترك سائر أموالي في المدينة لبيت المال!

ثم قاتل العدو ببطولة حتى نال الشهادة. ولدى استشهاد عبد الله بن رواحة أيضـًا، أخذ الراية خالد بن الوليد ﷺ الذي كان قد أسلم حديثـًا وشارك للمرة الأولى في معركة مع جيش المسلمين، فتابع القتال في مواجهة العدو. لقد أبدت هذه الثلة القليلة من الصحابة مقاومة بطولية لا نظير لها في مواجهة جيش جرار مثل أسراب الجراد.

وفي هذه الأثناء كان النبي عليه الصلاة والسلام على منبر مسجده ينقل كل صفحات القتال والأحداث التي تجري على أرض المعركة إلى أصحابه الكرام لحظة بلحظة. حيث كانت ساحة المعركة تترآى أمام عينيه.

لقد كان يعلم الصحابة الكرام حالات الاستشهاد التي تأتي متلاحقة بحزن وكدر، وذلك بقوله:

- **أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت، وحبب إليه الدنيا فقال زيد: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إليّ الدنيا! فمضى قدمًا حتى استشهد. استغفروا له فقد دخل الجنة وهو شهيد.**

وقال رسول الله ﷺ:

- **ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت، ومناه الدنيا فقال جعفر: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا! ثم مضى قُدُمًا حتى استشهد، وأشهد أنه شهيد.**[١٤٦٤]

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

- **استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة شهيدًا وهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء في الجنة.**

وتابع رسول الله ﷺ حديثه قائلًا:

- **ثم أخذ الراية بعد جعفر عبد الله بن رواحة.**

ثم صمت رسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون أو يكره الله ورسوله، ثم قال:

- **أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال عبد الله:**

أقسمت يـــا نفس لتنزلنَّـــــه   لتنزلـــنَّ أو لتُكرهنــــــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنَّه   مالـــي أراك تكرهين الجنَّه
قد طال مـــا قد كنت مطمئنَّه   هـــل أنت إلا نطفة في شنَّه
يا نفس! إلا تقتلـــي تموتـــي   هذا حمام الموت قد صليتِ
ومـــــا تمنيت فقد أُعطيت   إن تفعلـــي فعلهما هُديتِ

١٤٦٤ يقول ابن عمر رضي الله عنه: «كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين، بين طعنة ورمية، ليس منها شيء في دبره. يعني في ظهره». (البخاري: المغازي، ٤٤) لما استشهد جعفر رضي الله عنه كان له من العمر ثلاث وثلاثون سنة (ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٣٤) وهذا يعني أنه لما هاجر إلى الحبشة وحضر بين يدي النجاشي فأظهر تلك الشجاعة، والغزارة في العلم والحكمة، كان فتى في عمر السابعة عشرة سنة.

وفي هذه جرحت إحدى أصابع عبد الله بن رواحة ﵁، فنزل عبد الله عن ظهر فرسه، فوضع إصبعه تحت قدمه، ثم قال شعرًا:

هل أنتِ إلا إصبع دميتِ   وفي سبيل الله ما لقيتِ

ثم شد يده بسرعة فاقتلع إصبعه من مكان الإصابة، ثم تابع القتال بعد ذلك. فقد كان من جهة يجاهد الجهاد الأصغر في مواجهة العدو، ومن جهة أخرى يجاهد نفسه الجهاد الأكبر، ويقول لها:

- يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة، -امرأته-، فهي طالق، وإلى فلان وفلان، -غلمان له-، فهم أحرار، وإلى معجف، -حائط له-، فهو لله ولرسوله..

تابع رسول الله ﷺ نقل مشاهد المعركة للصحابة من حوله:

- **ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدًا، فاستشهد ثم دخل الجنة معترضـًا، استغفروا له.**

فشق على الأنصار دخوله الجنة معترضـًا، فقالوا:

- يا رسول الله ما اعتراضه؟. فقال رسول الله ﷺ:

- **لما أصابته الجراح نكل، فعاتب نفسه فتشجع، واستشهد ودخل الجنة.**

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

- **لقد رفعوا إلي في الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه.**

فقالوا:

- مم هذا؟ .

فقال رسول الله ﷺ:

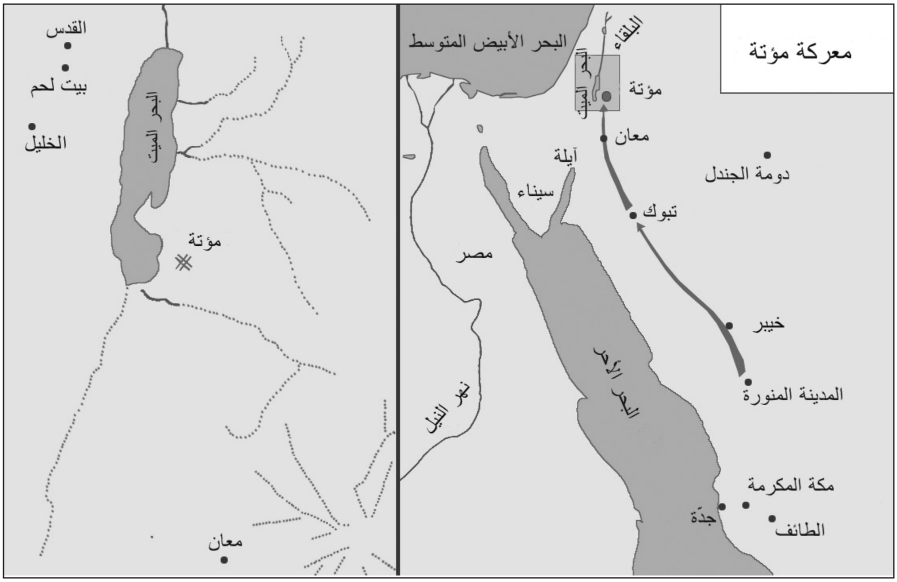
- **مضيا** ـ أي زيد وجعفر ـ **وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى!**

فسري عن الأنصار باستشهاد عبد الله ﵁ ودخوله الجنة، ودخل الفرح إلى قلوبهم. وبينما كان رسول الله ﷺ ينقل هذه المشاهد والأحداث الأليمة التي تجري بحق المسلمين كان الحزن يزداد شيئـًا فشيئـًا في قلبه، حتى بدأت الدموع تنهمر من عينيه المباركتين وتتساقط من على خده كحبات اللؤلؤ. ثم قال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك:

- **أخذ الراية سيف من سيوف الله ـ يعني خالد بن الوليد ـ قد فتح الله عليهم.**[١٤٦٥]

ثم رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء متوجهـًا إلى ربه بعينيه الدامعتين، فقال:

- **اللهم هو سيف من سيوفك، فانصره.** [١٤٦٦]



دراية خالد بن الوليد في القيادة

لقد أدار خالد بن الوليد ﷺ المعركة ذلك اليوم بصورة رائعة حتى حلول المساء وتراجعت صفوف الجيشين. وفي الليل غير خطة المعركة وترتيباتها بشكل كامل. إذ جعل المجاهدين الذين كانوا على ميمنة الجيش في ميسرتها، وأعاد الذين كانوا في المقدمة إلى المؤخرة، وجاء بمن كانوا في المؤخرة إلى المقدمة. وفي اليوم التالي تفاجأ العدو بهذا التغيير الذي طرأ على تكتيك جيش المسلمين، وعجبوا منه. ولما رأوا في مواجهتهم وجوهـًا جديدة ظنوا بأن هناك إمدادًا وصل إلى جيش المسلمين، فدخل تردد وتخبط عظيم في صفوفهم. واستغل سيف الله خالد بن الوليد ﷺ هذا التردد الذي بدا في صفوف

١٤٦٥ البخاري: المغازي، ٤٤؛ أحمد: مسند، ٥، ٢٩٩، ٣، ١١؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٣٣ - ٤٣٦؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٦٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٦، ٥٣٠؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٣، ٢٣٧؛ ابن كثير: البداية، ٦، ٤٢٨؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٤، ٣٦٨-٣٦٩.

١٤٦٦ أحمد: مسند، ٥، ٢٩٩/ ٢٢٥٥١/ ٢٢٥٦٦.

العدو خير استغلال، وانقض عليهم بجيشه انقضاضـًا شديدًا. فعجز العدو عن التماسك أمام هذا السيل الإيماني الجارف الذي طغى عليهم، إذ ما كانوا يتوقعون مثل هذه الهجمة القوية، وبدأت تظهر عليهم أمارات الهزيمة والتفرق، وفي نهاية الأمر لم يجدوا بُدًا من التراجع والانسحاب.

إن خالد بن الوليد ﵁ الذي كسر في يديه ذلك اليوم تسعة سيوف،[١٤٦٧] لم يضيع تلك الفرصة دون استغلال، إذ تراجع بجيشه إلى الخلف دون أن يُشعر العدو بذلك. لقد صارت هذه المناورة السياسية الحركة الثانية التي تثبت دهاءه العسكري. وهكذا انسحب الجيشان من المعركة دون أن يتعرض أحدهما للهزيمة، وعاد خالد بن الوليد ﵁ بالجيش دون أن يعرضه لمزيد من الخسائر. لقد كانت حصيلة الشهداء من المعركة التي استمرت سبعة أيام أربعة عشر شهيدًا. وأما قتلى العدو فقد كانوا كثيرين، وقد عاد جيش المسلمين بقليل من الغنائم أيضـًا.[١٤٦٨]

لما عاد الجيش قال النبي عليه الصلاة والسلام للناس:

- **انفروا فأمدوا إخوانكم، ولا يتخلفن أحد!**

فنفر الناس جميعـًا على الرغم من الحر الشديد واجتمعوا عند رسول الله ﷺ، فركب النبي عليه الصلاة والسلام دابته وخرج بالناس لاستقبال المجاهدين، فلما تبعهم الأطفال قال رسول الله ﷺ:

- **خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر!**

فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه.[١٤٦٩]

لقد أثنى رسول الله ﷺ على نجاح خالد بن الوليد ﵁ في إدارة المعركة، وقال للناس الذي وصفوا المجاهدين بـ: «الفرّار»:

- **ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله ﷻ!**.[١٤٧٠]

١٤٦٧ قال خالد بن الوليد ﵁: «لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية» (البخاري: المغازي، ٤٤/ ٤٢٦٦)

١٤٦٨ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٦٤، ٧٦٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٤٠٧.

١٤٦٩ أحمد: مسند، ٥، ٢٩٩/ ٢٢٥٥١/ ٢٢٥٦٦؛ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٤٤؛ ابن هشام: السيرة، ٢، ٣٨٢.

١٤٧٠ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٣٨؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٦٥.

وذلك لأن المسلمين بعددهم القليل أبدوا مقاومة بطولية وأظهروا قوة جبارة في مواجهة جيشٍ جرار يفوقهم بأضعاف مضاعفة، وشكلوا تهديدًا كبيرًا لهم. وقد تجلت هذه الحقيقة في بيان الله تعالى، حيث يقول:

﴿...كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١٤٧١]

لقد صارت معركة مؤتة المعركة الأولى التي يخوضها المسلمون ضد النصارى من أهل الكتاب، ولقد تمكنت شرارة الإيمان المتقدة في قلوب ثلاثة آلاف مجاهد من مجابهة قوة باطلة قوامها مائة أو مائتا ألف مقاتل، ووضْعِ حدٍّ لها.

تقول أسماء بنت عميس امرأة جعفر رضي الله عنها:

«أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتاني رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولقد هَنَأْتُ ـ يعني دبغت ـ أربعين إهابًا من أدم، وعجنت عجيني، وأخذت بَنِيَّ فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل عليّ رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال:

– **يا أسماء! أين بنو جعفر؟**

فجئت بهم إليه فضمّهم وشمّهم، ثم ذَرفت عيناه فبكى فقلت:

– بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لمَ تبكي؟ ولمَ تضم أبنائي وكأنهم يتامى؟ لعله بلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟

فقال رسول الله ﷺ:

– **نعم! اليوم استشهدوا!**

فقمت أصيح فاجتمع إليّ النساء. فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وقال لها:

– **اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم.**

فكان يأتي الطعام إلى آل جعفر رضي الله عنه لمدة ثلاثة أيام. ولم يأت النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت جعفر رضي الله عنه مدة ثلاثة أيام، حيث تركهم لشأنهم، ثم أتاهم فقال لهم:

١٤٧١ البقرة: ٢٤٩.

- **لا تبكوا على أخي بعد اليوم! ادعوا لي ابني أخي!**

يقول عبد الله بن جعفر ﵁:

- فجيء بنا كأنا أفرخ طير، فأخذنا إلى بيته، وقال:
- **ادعوا إلي الحلاق!**

فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا. ثم أخذ بيدي فأشالها فقال:

- **اللهم اخلف جعفرًا في أهله خيرًا! وبارك لعبد الله في صفقة يمينه!** قالها ثلاث مرار.

فجاءت أمنا فذكرت لها الأمر وجعلت تفرح له. فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام:

- **العيلة تخافين عليهم؟ وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»** [١٤٧٢]

ينقل لنا عبد الله بن جعفر ﵁ هذه الذكرى الجميلة التي تبين مدى قربه من النبي عليه الصلاة والسلام واهتمامه ﷺ به، فيقول:

«لو رأيتني وقثم وعبيد الله ابني عباس ﵃ ونحن صبيان نلعب إذ مر النبي عليه الصلاة والسلام على دابة فقال:

- **ارفعوا هذا إلي!**

فحملني أمامه، وقال لقثم:

- **ارفعوا هذا إليّ!**

فجعله وراءه. وكان عبيد الله أحب إلى عباس من قثم فما استحى رسول الله ﷺ من عمه أن حمل قثمًا وتركه، ثم مسح على رأسي ثلاثًا وقال كلما مسح:

- **اللهم اخلف جعفرًا!.**

يقول الذي روى عن عبد الله هذه الحادثة: قلت لعبد الله بن جعفر ﵁:

- ما فعل قثم؟ قال:
- استشهد. قلت:
- الله ورسوله أعلم بالخير» [١٤٧٣]

١٤٧٢ أحمد: مسند، ١، ٢٠٤ – ٢٠٥/ ١٧٥٠؛ أبو داود: الترجل، ١٣ / ٤١٩٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٤٣٦؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٦٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٣٧.

١٤٧٣ أحمد: مسند، ١، ٢٠٥/ ١٧٥٠؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٦٥٥ / ٦٤١١؛ ابن حجر: الإصابة، ٤، ٣٧.

فتح مكة: جاء الحق وزهق الباطل

«٢٠ رمضان ٨ / ١٠ كانون الثاني ٦٣٠»

لقد كانت مدة الصلح وفقًا لمعاهدة الحديبية عشر سنوات. إلا أن المشركين كانوا يومًا بعد يوم يضيقون ذرعًا من انتشار الإسلام في سائر شبه الجزيرة العربية. ولذلك فقد بدؤوا رويدًا رويدًا الإخلال ببنود معاهدة الصلح. وبمرور الوقت زادوا من إظهار استخفافهم ببنود الصلح والتجرؤ على الإخلال بها. ولم تكن قد مضت على معاهدة الحديبية مدة سبعة عشر أو ثمانية عشر شهرًا حتى عمل المشركون على تحريض قبيلة بني بكر المرتبطة بهم ضد المسلمين من بني خزاعة فغزوهم. واشترك بعض المشركين بأنفسهم في هذا الاعتداء الإجرامي.[١٤٧٤]

لما تعرضت قبيلة خزاعة المرتبطة بالنبي عليه الصلاة والسلام لغزو البكريين وحلفائهم من مشركي مكة كان بنو خزاعة في الصلاة، فباغتهم الغزاة المجرمون في صلاتهم، فمنهم من كان في حالة السجود، ومنهم في الركوع، ومنهم في حالة القيام، فقتلوهم شر قتلة، وعلى الرغم من التجاء بعضهم إلى منطقة الحرم لم يسلموا من القتل والتنكيل، إذ أخلت قريش وبني بكر بالحرم واستمروا في جريمتهم وإبادتهم لهؤلاء الأبرياء. نُقل خبر الجريمة النكراء في الحال إلى رسول الله ﷺ.[١٤٧٥]

بينما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستمع إلى تفاصيل هذا الخبر المؤلم من فم عمرو بن سالم الخزاعي رضي الله عنه، كانت الدموع تنهمر متلألئة من عينيه المباركتين تبلل وجنتيه المنورتين. وخيم حزن عميق على سلطان الأنبياء عليه الصلاة والسلام من هذه الفاجعة المريعة التي حلت بمسلمي بني خزاعة، فقال مواسيًا صاحبه عمرو بن سالم الذي أُدمي قلبه بهذه الحادثة:

«**نُصرتَ يا عمرو بن سالم!**» [١٤٧٦]

وعلى الرغم من كل شيءٍ فقد أخذ النبي ﷺ المعاهدة الموقعة بينه وبين المشركين بعين الاعتبار، وأرسل في البدء رسولًا إلى أهل مكة للبحث في موضوع الاعتداء الذي

١٤٧٤ ابن هشام: السيرة، ٤، ٤؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٥، ٦.

١٤٧٥ ابن هشام: السيرة، ٤، ١١؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٨٣.

١٤٧٦ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٢؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٨٤ – ٧٨٥.

ارتكبوه بحق بني خزاعة، لأنهم قد أخلّوا بمعاهدة الحديبية بشكل صارخ، ووضعهم أمام ثلاثة خيارات هي: إما أن يدفعوا دية قتلى بني خزاعة، أو إخراج قبيلة بني بكر من حمايتهم وجوارهم، أو إنهاء معاهدة الحديبية إذا لم يقبلوا بأحد الخيارين السابقين.

فرفض المشركون الذي كانت تغلي قلوبهم بالحقد والبغضاء الخيارين الأوليين، وقبلوا بالخيار الثالث ألا وهو فسخ المعاهدة رسميًا.[١٤٧٧] وفي الحقيقة كان هذا الأمر بمثابة دعوة للمسلمين إلى فتح مكة.

ولما عاد المشركون إلى وعيهم وأدركوا الخطأ الجسيم الذي أقدموا عليه كان الوقت قد فات، وكانت المعاهدة قد فُسخت من الجانبين. ولكي يتدارك المشركون الأمر فقد توجه زعيم قريش أبو سفيان والندم يأكل كبده إلى المدينة، وفي هذه الأثناء نزل الوحي على رسول الله ﷺ يعلمه بأمر أبي سفيان، فأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه الكرام بخروج أبي سفيان من مكة وقدومه إلى المدينة.[١٤٧٨] ولكن بسبب أجواء الحزن والحداد التي خيمت على المدينة نتيجة تلك الجريمة النكراء فإن أحدًا لم يلتفت إلى أبي سفيان. وعلى الرغم من أن أم حبيبة ﵂ زوج النبي عليه الصلاة والسلام هي ابنة أبي سفيان فقد سحبت الفراش من تحت أبيها عندما جاء إلى بيتها وأراد الجلوس عليه، فأُصيب أبو سفيان بحالة من الذهول لهذا التصرف من ابنته، وقال بحيرة ودهشة:

- يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟

فأجابته أم حبيبة ﵂ وهي المتفانية في حب رسول الله ﷺ:

- بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ!

فلما سمع أبو سفيان هذا الرد الحازم نهض من مجلسه، وقال:

- والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر!

فقالت أم حبيبة ﵂ مذكرة أباها بأفضلية الإيمان على كل شيء:

- لا! إن الله شرفني بالإسلام.[١٤٧٩]

١٤٧٧ الواقدي: المغازي، ٢، ٧٨٧.

١٤٧٨ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٢.

١٤٧٩ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٢ – ١٣.

فاضطر أبو سفيان أمام رفض الجميع لقاءه - وعلى رأسهم رسول الله ﷺ - للعودة إلى مكة خائبًا، وبينما كان ينقل إلى المشركين الذين تحلقوا حوله خيبتَه وعدم نجاحه إلى تجديد الصلح مع المسلمين، لم يتمكن من إخفاء دهشته وحيرته من أمر المسلمين، حيث قال:

- جئتكم من عند قوم قلوبهم على قلب واحد، والله ما تركت منهم صغيرًا ولا كبيرًا، ولا أنثى ولا ذكرًا، إلا كلمته، فلم أنجح منهم شيئًا!.[١٤٨٠]

وفي هذه الأثناء أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز للسير إلى مكة. فبعث إلى القبائل القريبة من المدينة من أجل الحضور إليها والانضمام إلى صفوف المسلمين، وأما القبائل البعيدة عن المدينة فقد أرسل إليهم يأمرهم بالتجهز والانتظار ريثما يصل إليهم جيش المسلمين فينضموا إليه في الطريق. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يتحرك بسرية تامة، ولكيلا يشتبه العدو بالتحركات المحمومة التي تجري في المدينة وليحافظ على سريتها التامة فقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام مجموعة إلى نواحي الشام، ووضع المناطق المحيطة بالمدينة تحت سيطرة ورقابة محكمة. لقد كان حريصًا جدًا على فتح مكة من دون أن إراقة أية نقطة دم، ومن أجل ذلك فقد اتخذ تدابير كثيرة.

فأولى الخطوات والتدابير التي اتخذها أن أمر أصحابه الكرام بالتجهز للمسير من المدينة دون أن يخبرهم بالوجهة التي سوف يتوجهون إليها، فأبقى نيته في التوجه إلى مكة سرًا.[١٤٨١] حتى إنه لم يخبر بوجهته أقرب أصحابه إليه وصاحب سره أبا بكر الصديق ﷺ، ولما سأل أبو بكر ابنته السيدة عائشة ﷺ وزوجة النبي عليه الصلاة والسلام عن وجهة الجيش، قالت:

- لا والله ما أدري. لعله يريد السير إلى بني سُليم، أو بني ثقيف، أو بني هوازن!.[١٤٨٢]

وخرج النبي ﷺ في طريقه إلى مكة دون أن يتمكن أهلها من أخذ تدابيرهم للقتال وذلك بهدف تحقيق فتح مكة صلحًا دون قتال، ولم يدع مجالًا لنقل خبر خروجه إلى مكة من قبل الجواسيس أو غيرهم، ثم دعا قائلًا:

١٤٨٠ عبد الرزاق: ٥، ٣٧٥.

١٤٨١ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٣٤.

١٤٨٢ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٤.

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها، اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة» [١٤٨٣]

ولما تحرك النبي ﷺ من المدينة أخذ يمر على القبائل التي تقع في جهات معاكسة للطريق إلى مكة لكي يزيد من تشتيت انتباه قريش وتحويل نظرهم عنه، وعمل على تنفيذ التفافات كثيرة في طريقه مما زاد من غموض هدفه ومقصده الأساسي. وإن الأمر الذي أصدره النبي ﷺ إلى المجاهدين بإشعال كل منهم نارًا في الليل عند وصولهم إلى مكان قريب من مكة لإظهار كثرة العدد وبالتالي إحداث تأثير نفسي ومعنوي على أهل مكة، إنما كان لتحقيق الغاية نفسها والتي ذكرناها آنفًا والمتمثلة بفتح مكة صلحًا وسلمًا.[١٤٨٤]

ومن أجل الغاية ذاتها، لم يحرم الرسول ﷺ عندما وصل إلى ميقات ذي الحليفة، وبذلك استمر في الحفاظ على سرية وجهته الأصلية.[١٤٨٥]

ولما تحققت للنبي عليه الصلاة والسلام مصادر السلطة والقوة، وأصبح لديه جيش مهاب الجانب لم يستخدم ذلك في قتل الناس وفتح البلدان، وإنما استخدم تلك القوة والجيش في فتح قلوب الناس، وتوجيهها نحو الله تعالى، واستخدمها في إيصالهم إلى الهداية والسعادة الحقيقية. وذلك لأنه كان والمبعوث إلى العالمين بالرحمة والهداية.

وقد بين الله تعالى هذه المفاهيم التي يلتزم بها المسلمون في الحرب والسلم، حيث يقول في كتابه الكريم:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [١٤٨٦]

لقد التزم جميع الصحابة الكرام بسرية هذا التحرك، ما عدا أحد الذين شهدوا بدرًا وهو حاطب بن أبي بلتعة ﵁ والذي أرسل مع امرأة بكتاب إلى أهل مكة يُعلمهم فيه بسير رسول الله ﷺ. فنزل الوحي على رسول الله ﷺ وأخبره بأمر الكتاب، فأمر النبي ﷺ كلًا من علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين باللحاق بتلك

١٤٨٣ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٤؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٥، ٩-١١؛ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٨٢.

١٤٨٤ حميد الله: ١، ٢٦٤ - ٢٦٥.

١٤٨٥ نبي بوظ كورت: دائرة المعارف الإسلامية، (رئاسة الشؤون الدينية)، «مكة»، ٢٨، ٥٥٧.

١٤٨٦ الحج: ٤١.

المرأة وإحضار الكتاب إليه، وأطلعهم على مكانها. فأدرك هؤلاء الصحابة الكرام تلك المرأة في المكان الذي وصفه لهم رسول الله ﷺ، فأخذوا منها الكتاب وجاؤوا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام. وقد ورد في الكتاب:

«أما بعد: يا معشر قريش! فإن رسول الله ـ ﷺ ـ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله، لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده، فخذوا حذركم»[١٤٨٧]

وهذه العبارات في الأصل لم تكن تتضمن ما يناقض الحقيقة، وليس فيها خيانة للمسلمين، وإنما مجمل المسألة هو إفشاء أمر كان من الواجب الاحتفاظ بسريته. ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام أمر في الحال بإحضار حاطب بن أبي بلتعة، وسأله:

- **يا حاطب! ما حملك على ما صنعت؟**

فقال حاطب الذي شهد بدرًا والندم بادٍ على وجهه:

- يا رسول الله! والله ما بي ألا أكون مؤمنـًا بالله ورسوله ﷺ، وإنما أردت أن يكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضـًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال نبي الرحمة عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

- **صدق، ولا تقولوا له إلا خيرًا.**

وعفا عنه. فقال عمر رضي الله عنه:

- دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق.

فقال رسول الله ﷺ مذكرًا بفضل من شهدوا بدرًا وعفو الله تعالى عنهم:

- **أليس من أهل بدر؟، لعل الله اطلع إلى أهل بدر؟ اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم !.**

فدمعت عينا عمر رضي الله عنه، وقال: الله ورسوله أعلم.[١٤٨٨]

١٤٨٧ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٧٨.

١٤٨٨ البخاري: المغازي، ٩/ ٣٩٨٣؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٦١/ ٢٤٩٤.

وإلى جانب ذلك فقد نزلت آيات كريمة على رسول الله ﷺ تدعو المسلمين جميعًا وعلى رأسهم حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى ضرورة عدم موالاة المشركين والأعداء، ومد يد العون والصداقة إليهم، فبلغها النبي عليه الصلاة والسلام لحاطب وأصحابه أجمعين. وهذه الآيات هي قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ. لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١٤٨٩]

وبهذه الآيات الكريم تم منع المسلمين من إقامة علاقات الموالاة والصداقة مع الكفار سواء العلاقات الأسرية، أو المالية. حيث إن كنعان بن نبي الله نوح عليه السلام قد غرق وهلك بسبب وجوده في صف الذين رفضوا الإيمان. والأمر نفسه انطبق على امرأة لوط عليه السلام حيث إنها فسقت بسبب مخالطتها للفساق والفجرة، وتعرضت للغضب والعقاب الإلهي. إذ إن قربهم المادي والجسدي من أحد الأنبياء لم يفدهم ولم يغن عنهم شيئًا.

في الثالث من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة خرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة على رأس جيش الإيمان العظيم. أفطر النبي عليه الصلاة والسلام في الطريق لأنه خارج إلى الجهاد، وأمر أصحابه الكرام بالإفطار أيضًا.[١٤٩٠]

ولما وصل الجيش إلى مكان يقال له الجحفة التقى بالعباس رضي الله عنه. كان العباس رضي الله عنه قد أسلم في وقت سابق وبقي في مكة مستترًا بإسلامه، وكان كل مدة من الزمن يرسل بتقارير إلى النبي ﷺ يبين له فيها حالة قريش في مكة. ومن الأسباب الأخرى التي حملته على البقاء

١٤٨٩ الممتحنة: ١ – ٣.

١٤٩٠ البخاري: المغازي، ٤٧.

في مكة قيامه بوظيفة سقاية الحجيج التي كانت في عهدته. وفي نهاية الأمر قرر بأنه قد حان وقت الرحيل، فخرج مع أهله وعياله مهاجرًا إلى المدينة المنورة.[١٤٩١] فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام سُر به كثيرًا وقال:

«**أنت آخر المهاجرين كما أنني آخر الأنبياء!**»[١٤٩٢]

يترجم الشاعر محمد عاكف أرصوي بشكل جميل الإحساس الرائع بالمسؤولية لدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ خلال توليه إدارة شؤون الناس، فيقول:

إن عدا ذئب في ضفاف دجلة على خروف! يأتي إلى عمر فيسأله العدل الإلهي!
إن بقي شيخ أو امرأة من غير معيل فعمر المسؤول! إن أُكل مال اليتيم فعمر المسؤول!
إن هاجر بائس لضيق حاله! فعمر يتحمل وزره ولا أحد غيره!
إن سالت نقطة دم على الأرض غدرًا! فإنها تفيض إلى عمر سيلًا فتغرقه!
عمر يسمع انكسار كل قلب؛ وعمر موجود في كل ما تم!

إن الرحلة العظيمة المتوجهة لفتح مكة خطت صفحة عظيمة في الرقي والإنسانية والتي سوف تصبح عبرة للبشرية جمعاء. وكانت هذه اللوحة الجليلة أثرًا من آثار مبدأ النظر إلى الخلق بنظر الخالق الذي التزم به الرسول الكريم ﷺ وأصحابه الغرّ الميامين. كان جيش النبي عليه الصلاة والسلام يسير مثل السيل الجارف، وكانت القبائل في أطراف شبه الجزيرة العربية الأربعة التي أسلمت حديثًا تلتحق بجيش الإسلام قافلة بعد أخرى. أما وادي ضيم فكان يشهد مشهدًا من مشاهد الحشر. وبينما كان سيد العالمين عليه الصلاة والسلام يتحرك بجيشه العظيم من موقع العرج متوجهًا في طريقه إلى الطلوب رأى في الطريق كلبة وقد أخذت صغارها إلى حضنها ترضعهم، فأمر في الحال أحد أصحابه وهو جعيل بن سراقة بأن يحرس تلك الكلبة وصغارها لئلا يعرض لها أحد أو يفزعها.

لقد لقيت كلبة ضعيفة وصغارها لفتة إنسانية كريمة من سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام وحُذِّر من أجلها جيش الإسلام العظيم الذي يسير بحماس الفتح لكيلا تفزع هي وصغارها.[١٤٩٣]

١٤٩١ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٨.
١٤٩٢ ابن الأثير: أسد الغابة، ٣، ١٦٣؛ عليّ المتقي: كنز العمال، ١١، ٦٩٩.
١٤٩٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٠٤.

فما أعجبه من مشهد! فهل يا ترى شهد تاريخ البشرية سابقًا مثل هذه اللوحة التي تفيض بالرحمة والإنسانية؟[١٤٩٤]

إن النبي عليه الصلاة والسلام حتى وهو في خضم انشغاله بحادثة عظيمة مثل فتح مكة والتي تُعدُّ من الناحية التاريخية نقطة تحول كبيرة في تاريخ البشرية لم يتوانَ إطلاقًا عن الاهتمام بمسألة صغيرة قد تُعد من الفرعيات الثانوية مقارنة بالحدث الأكبر الذي يجري بجانبها، وشعر بنفسه مسؤولًا عن كلبة ضعيفة وصغارها. يمكن أن نأخذ من هذه الحادثة درسًا آخر في غاية الأهمية، وهو الإحساس بالمسؤولية من قبل من يتولون مواقع إدارة شؤون الناس، حيث ينبغي على هؤلاء أن يدركوا بأنهم مسؤولين عن كل ما يتعلق بشؤون من يتولون إدارتهم حتى عن أدق التفاصيل والفرعيات الحياتية، وينبغي عليهم أيضًا أن يكونوا متيقظين على الدوام لمواجهة الأحداث المحتملة.[١٤٩٥]

في تلك الأثناء لم يكن أهل مكة على علم بشيءٍ من تلك الأحداث التي تجري خارج مكة. ولما علموا أن جيش المسلمين قد نزل في وادي مر الظهران الذي يقع على مسافة قريبة من مدينتهم مكة ورأوا النيران الكثيفة التي أمر الرسول ﷺ أصحابه بإيقادها وقد شكلت منظرًا مهيبًا أصابهم الهلع والفزع. وفقدوا صوابهم.

اصطحب أبو سفيان صاحبيه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء وخرجوا من مكة يلتمسون خبر المسلمين وما يحدث حولهم. ولما أبصروا آلاف النيران التي أوقدها الجنود المسلمون أصابهم الذهول. وصاروا يضربون أخماسًا بأسداس، ويخمّنون من أي القبائل

١٤٩٤ هذا هو الإسلام. إلا أننا نجد في عصرنا الحاضر بعض أعداء الدين الإسلامي يقرنون هذا الإسلام السمح والمليء بالرحمة بكلمة الإرهاب التي تُعد إحدى مصائب الإنسانية في وقتنا الحاضر. بينما الإرهاب والفوضى مؤسسة على قسوة القلب وانعدام الرحمة، ولا يحتاج من يقوم بمثل هذه الأفعال بالأساس تلك المشاعر السامية كالأخلاق مثلًا. أما الإسلام فإنه من يوم ولادته وإلى الوقت الحاضر كان ضد الإرهاب والتطرف والفوضى، واتخذ على الدوام رعاية حقوق جميع الكائنات من الإنسان سواء كان مؤمنًا أو كافرًا، والحيوانات والجمادات أساسًا له. وقد قضى رسول الله ﷺ فترة النبوة التي استمرت ثلاثًا وعشرين سنة وهو يكافح ويجاهد ضد الإرهاب والظلم.

١٤٩٥ عندما يكون عمر الخليفة فمن غيره المسؤول؟ ماذا يفعل عمر يا إلهي، فالبشر بين ظالم وجهول! يقول محمد لعمر: يا عمر! يا عمر! كيف حملت كل هذا على ظهرك؟

هؤلاء القوم، إلا أنه لم يخطر ببالهم على الإطلاق أن يكون أولئك القوم الذين خيّموا هناك أمام نظرهم هم النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام. ولأن مكة كانت محاصرة من قبل المسلمين وتحت مراقبة شديدة من جميع أطرافها، فقد تم سريعًا اكتشاف أمر أبي سفيان وصاحبيه، فأُلقي القبض عليهم وأُحضروا بين يدي رسول الله ﷺ.[١٤٩٦]

بينما كان عمر بن الخطاب ﷺ يطوف حول رسول الله ﷺ من أجل قتل أبي سفيان، كان العباس ﷺ يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام العفو عنه. فخاطب رسول الله ﷺ الذي كان بدهاء سياسي منقطع النظير يتبع تكتيكًا حربيًا رائعًا، خاطب عمه بقوله:

- **يا عباس! احبس أبا سفيان بمضيق الوادي إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها!.**

كان هذا الأمر تحضيرًا لأبي سفيان زعيم قريش لحالة معنوية ونفسية سوف تحمله على منع المشركين من القيام بمحاولات فاشلة لصد المسلمين. وبذلك تُحقن الدماء، وتُحفظ الأرواح من الإزهاق.

أخذ العباس ﷺ أبا سفيان إلى حيث أشار عليه النبي ﷺ. وفي تلك اللحظات كان جيش المسلمين آخذ بالتحرك، حيث يتقدم فرقة فرقة. وكانت تعلو من كل فرقة أصداء «الله أكبر» التي تخرج من جوف القلوب المؤمنة لترتفع إلى عرش الرحمن.

انبهرت عينا أبي سفيان من هذا المشهد العظيم. ولما مرت فرقة النبي ﷺ لم يتمكن أبو سفيان من إخفاء دهشته وحيرته، فقال:

- يا عباس! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا!

فقال العباس ﷺ:

- لا. إنَها ليست ملكًا وإنما النبوة...

قال أبو سفيان:

- فنعم إذن!.[١٤٩٧]

ثم غادرا المكان وجاءا إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فقال له سيد العالمين:

١٤٩٦ البخاري: المغازي، ٤٨.

١٤٩٧ البخاري: المغازي، ٤٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦، ١٦٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٣٥؛ ابن الأثير: الكامل، ٢، ٢٤٢؛ عليّ المتقي: كنز العمال، ١٠، ٥٠٩؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨١٨.

- **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأْنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟**

وبعد قليل من التفكير نطق أبو سفيان بكلمة التوحيد. إلا أنه لم يكن قد نطق بالجملة التي تتضمن الإقرار بالنبوة وتصديق رسول الله ﷺ. فسأله النبي ﷺ مرة أخرى:

- **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟**.[١٤٩٨]

فعلى الرغم من طلب أبي سفيان مهلة من أجل التفكير وإعادة النظر في أمر نفسه إلا أنه بنصح العباس له ووعظه نطق بالشهادتين كاملة. وبعد ذلك جعل رسول الله ﷺ لأبي سفيان مكرمة من أجل تأليف قلبه للإسلام وتقوية إيمانه، حيث ذكر بيت أبي سفيان بين جملة الأماكن التي يأمن فيها أهل مكة على أنفسهم إن هم لجؤوا إليها عندما يدخل جيش المسلمين إلى مكة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[١٤٩٩]

ولما عاد أبو سفيان إلى مكة، أعطى النبيُّ ﷺ تعليماته الأخيرة لأصحابه الكرام، فخاطبهم قائلًا:

- لا تقاتلوا إلا من بدأكم بقتال!.[١٥٠٠]

١٤٩٨ يقول الله تعالى في كتابه الكريم
﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢)
يتبين من هذه الآية الكريمة بجلاء أن الإيمان بالله تعالى وطاعته وحده غير كافٍ لإيمان المرء. ولذلك فإن من يؤمن بالله وحد ويطيعه، أو يؤمن بالرسول وحده ويطيعه يكون وفقًا لوصف الآية الكريمة غير محب لله تعالى وكافرا. لأن الأمر المهم في الإيمان ليس اتباع الإنسان لإدراكه الذي يتصف بالعجز والنقصان، وإنما المهم هو الإيمان وفقًا للأمر والإرادة الإلهية.
وعلى ذلك، فبينما جعل الله تعالى الإيمان برسوله أحد أركان الدين، وجعل ذكر المؤمنين له في تشهدهم وطاعته شرطًا لإيمانهم، نجد في عصرنا الحالي أن بعض الغافلين على الرغم من البيان الإلهي القاضي بضرورة طاعة رسوله الكريم يعملون نتيجة لإدراكهم الضحل وضيق أفقهم العلمي والإيمانيّ على تحييد السنة النبوية بقولهم «علينا اتباع القرآن الكريم والاكتفاء به»، إن هذه الكلمات تدل أو تعبر في الظاهر عن الارتباط بالقرآن الكريم، إلا أنها في الحقيقة تعبر عن عكسها تمامًا إذ تدل إما على جهالة مطبقة، أو على خبث وخيانة عظيمة.

١٤٩٩ أبو داود: الخراج، ٢٤ – ٢٥ / ٣٠٢١ – ٣٠٢٢؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٦٤ – ١٦٦.

١٥٠٠ ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٨.

وبعد ذلك أصدر رسول الله ﷺ أمره إلى جيش الإسلام بالتحرك بعد أن وزعه على أربع أجنحة. وهكذا امتلأت مكة من جهاتها الأربعة بأصداء التكبير التي أخذت تضج بها صفوف جيش المسلمين.

فالنبي عليه الصلاة والسلام الذي خرج قبل ثمان سنوات حزينًا كئيبًا من مكة بناقتين وثلاثة أشخاص يعود اليوم بلطف الله تعالى وإحسانه على رأس قوة عظيمة ومباركة تتألف من عشرة آلاف مجاهد ويدخل إلى بلدته المباركة بهيبة ووقار. إن الرجل المظلوم الذي أُخرج من وطنه ذاك اليوم، كان هو الفاتح المظفر الذي يفتح وطنه اليوم. إلا أنه لم يغترَّ بهذا النصر العظيم إذ دخل مدينته وهو ساجد على ظهر ناقته، أي إنه كان يدخل مكة وهو شاكر بحاله ولسانه لله تعالى الذي أنعم عليه بهذه النعمة الكبيرة. كان ينحني برأسه تواضعًا لله تعالى حتى إن أطراف لحيته لتلامس سرج ناقته، وهو يكرر قوله باستمرار:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة...»[١٥٠١]

لم تكن حالة الصحابة الكرام الذين تخلقوا بالأخلاق النبوية تختلف أيضًا عن حال رسول الله ﷺ.

لم يلق جيش الإسلام أية مقاومة تُذكر لدى دخوله مكة، إذ إنه ببركة التكتيك الذي اتُبع مع أبي سفيان، وبذله جهودًا جبارة في حث أهل مكة على عدم مواجهة المسلمين وقتالهم تحققت نتائج عظيمة ومذهلة، فلم يتجاسر أحد من المشركين في مكة على الخروج لمواجهة جيش الإسلام.

فكما ذكرنا لم يحدث قتال إلا في الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد ﷺ، حيث حدث اشتباك صغير، وما لبث أن خمد وتوقف سريعًا.

بدأ النبي عليه الصلاة والسلام بقراءة سورة الفتح وتوجه مع أصحابه الكرام نحو الكعبة المشرفة. وبعد أن طاف حول الكعبة دون أن ينزل عن ظهر ناقته، بدأ يتلو قول الله تعالى:

١٥٠١ البخاري: الرقاق، ١/ ٦٤١٣؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٢٤.

لقد كان النبي ﷺ يردد على الدوام خلال كل سنين حياته هذه الكلمات التي تبين مدى أهمية الآخرة مقارنة بالحياة الدنيا. وقد ثبت في روايات كثيرة أنه ﷺ قال هذه الكلمات أثناء بناء المسجد النبوي، وحفر الخندق، ولدى دخول مكة يوم الفتح، وعندما رأى جموع المؤمنين الغفير يوم عرفة في حجة الوداع. (البخاري: الجهاد، ٣٣، ١١٠، مناقب الأنصار، ٩، المغازي، ٢٩؛ مسلم: الجهاد، ١٢٦؛ الترمذي: المناقب، ٥٥)

﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾[١٥٠٢]

ويحطم بنفسه الأصنام الموضوعة حول الكعبة عن طريق ضربها بعود كان بيده.[١٥٠٣]

ولما رأى رسول الله ﷺ التصاوير في بيت الله تعالى لم يدخله، حيث أمر في البدء بإزالتها، فسارع الصحابة الكرام إلى تنفيذ أمر النبي عليه الصلاة والسلام.

فلما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام داخل البيت العتيق تصاوير لسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقد وضع في أيديهما الأزلام، قال:

«قاتلهم الله، أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط»[١٥٠٤]

يقول أحد الأولياء الصالحين قُدس سره عن وجوب امتناننا لرسول الله ﷺ الذي تصدى وتحمل ألوانًا من الآلام والمعاناة ما لا يتصوره خيال خلال سنين حياته كلها، وكسرَ الأصنام الباطلة التي كان يعكف الناس على تقديسها وعبادتها، فيقول:

«أيها المسلم الذي تعيش في هذا الزمان! لولا همة رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم وسعيه وجهده في تحطيم تلك الأصنام، لكنت اليوم أيضًا مثل أجدادك السابقين عاكفًا على عبادتها، وضالًا عن الهدى»

لقد استمر المسلمون يوم فتح مكة متيقظين طيلة الليل حتى الصباح وهم يطوفون حول الكعبة، ويكبرون ويهللون. فقال أبو سفيان لامرأته هند وهو يتابع هذا الأمر:

- أترين هذا من الله؟

قالت هند:

- نعم، هذا من الله.

ثم أصبح أبو سفيان، فغدا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- قلت لهند: أتري هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله.

فقال أبو سفيان:

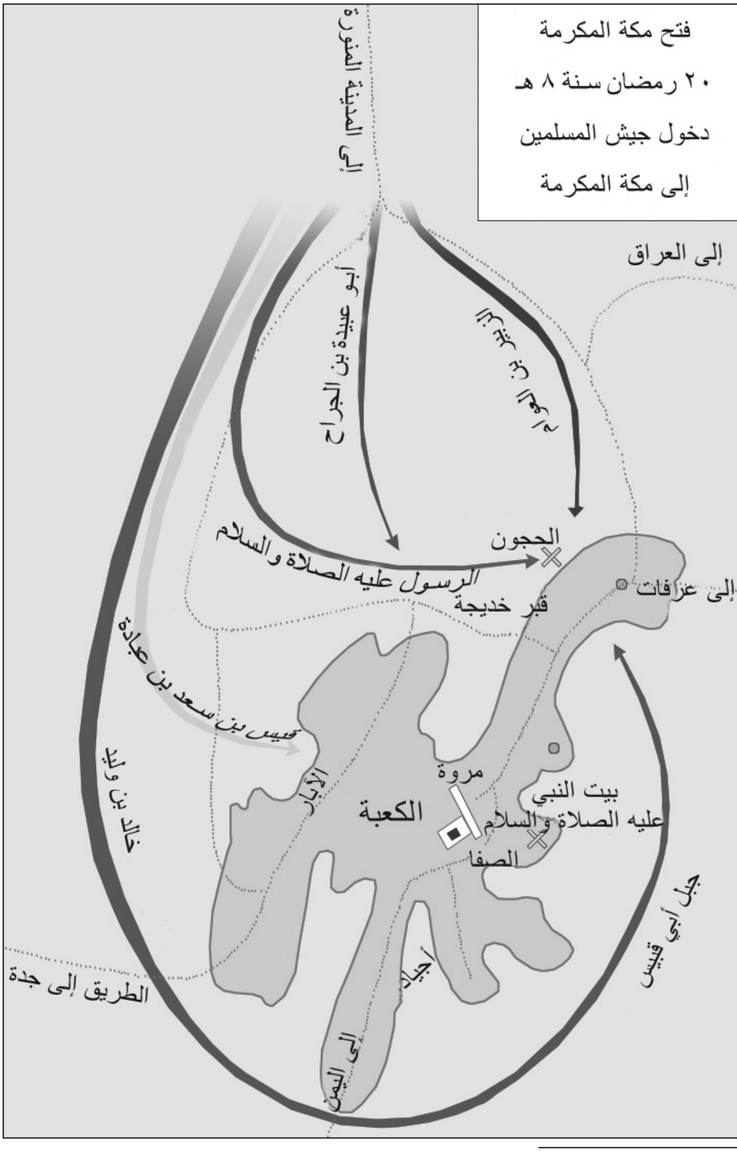
١٥٠٢ الإسراء: ٨١.

١٥٠٣ البخاري: المغازي، ٤٨؛ مسلم: الجهاد، ٨٧؛ الواقدي، ٢، ٨٣١ – ٨٣٢.

١٥٠٤ البخاري: الأنبياء، ٨/ ٣٣٥٢، الحج، ٥٤/ ١٦٠١، المغازي، ٤٨/ ٤٢٨٨.

– أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يُحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند.[١٥٠٥]

وبعد فتح مكة كان أهل مكة يأخذون أطفالهم إلى رسول الله ﷺ، فيمسح بيده على رؤوسهم ويدعو لهم.[١٥٠٦]



١٥٠٥ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٩٦.

١٥٠٦ أحمد: مسند، ٤، ٣٢.

عيد العفو

كان المسجد الحرام قد امتلأ بأهل مكة، إذ كانوا ينتظرون الحكم الذي سوف يصدر بحقهم، فخطب رسول الله ﷺ خطبته المشهورة التي لم تقتصر على أهل مكة وإنما كانت شاملة للإنسانية جمعاء، حيث قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش:

إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١٥٠٧]

لقد فتحت مكة المكرمة ذراعيها بهذا الفتح الروحاني لأصحابها الحقيقيين الذين ضحّوا بالغالي والنفيس، وهي محاطة بهالة من العفو، والصلح، والأمن، والهداية، وكان هذا الأمر إحدى بشارات الحديبية. وبهذا الفتح المبين وضع حد نهائي للحنين والحسرة الممزوجة بأصناف لا حصر لها من القلق، والألم والظلم، والمعاناة التي كانت تعتصر صدور المؤمنين تجاه مكة. فانقلبت سنوات الحزن والكدر إلى فرح وسرور، وكان التعبير عن شكر هذه النعمة الكبيرة هو العفو العظيم الذي لم يشهد له التاريخ مثيلًا والذي أصدره نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام بحق أهل مكة، حيث خاطبهم قائلًا:

- **يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟**

فقالوا:

- خيرًا! أخ كريم وابن أخ كريم!

١٥٠٧ الحجرات: ١٣. ابن ماجه: الديات، ٥/ ٢٦٢٨؛ أحمد: مسند، ٢، ١١/ ٢٣٤٩٣؛ الترمذي: التفسير، ٤٩/ ٣٢٧٠.

فقال رسول الله ﷺ:

- **فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:**
﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١٥٠٨]
اذهبوا فأنتم الطلقاء!

وقال في خطبة أخرى:

- **اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله فيه قريشًا.**

ونتيجة لهذا العفو وهذه المعاملة الإنسانية العظيمة اهتدى إلى طريق الحق ودخل الإسلام حتى أولئك الذين كانوا قد بالغوا في ظلم المسلمين واعتدوا على أموالهم وأرواحهم قبل الفتح. لقد أوقع الله تعالى مشركي قريش بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل رقابهم تنحني تذللًا أمامه. فعفا عنهم النبي عليه الصلاة والسلام وأطلق سراحهم، ولهذا السبب أطلق على أهل مكة اسم «الطلقاء.[١٥٠٩]

لقد كان هدف فخر الكائنات ﷺ وأمنيته الكبرى أن يدخل جميع الناس إلى الإسلام وأن لا يبقى خارجه حتى فرد واحد. إذ على الرغم من النصر المؤزر الذي حققه بفتح مكة، وتجمع مصادر السلطة والقوة بين يديه والضعف الشديد الذي أصاب أعداءه الذين مارسوا عليه في وقت مضى أشد أنواع العذاب والظلم والقهر، وطردوه من وطنه لم يسعَ بل حتى لم يفكر بالانتقام والثأر من هؤلاء القوم، وإنما أعلن العفو العام عنهم والذي يُعد مظهرًا عظيمًا لمبدأ النظر إلى العباد بنظرة الحق سبحانه وتعالى إلى المخلوقات.

لقد كانت مكة التي لم تشهد منذ سنوات سوى الاستهزاء، والسخرية، والقهر، والظلم، والعداوة، كانت تعيش ذلك اليوم تجليات المحبة والرحمة التي تفوق الوصف احتفالًا بعيد العفو الكبير الذي صدر عن المصطفى ﷺ. إلا أنه في هذه اللحظات الرحمانية تسلل رجل يُدعى فضالة إلى جانب النبي ﷺ وهو يضمر الشر والقتل لسيد العالمين عليه الصلاة والسلام ليفسد هذا الجمال الذي يعيشه الناس. فلم يبدِ النبي ﷺ الذي اطلع على نيته أي قلق أو غضب، وإنما خفض له جناح الشفقة والرحمة، وقال لفضالة:

١٥٠٨ يوسف: ٩٢.

١٥٠٩ انظر. ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٢؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٤٢ - ١٤٣.

- **فضالة أنت؟**

قال فضالة:

- نعم! أنا فضالة.

فقال رسول الله ﷺ:

- **ما كنت تحدّث به نفسك؟!.**

قال فضالة:

- لا شيء، كنت أذكر اللَّه تعالى.

فضحك رسول اللَّه ﷺ، وقال:

- **أستغفر اللَّه لك.**

ثم وضع يده على صدره، فسكن قلب فضالة الذي كان قبل لحظات غارقًا في الحقد ونية قتل النبي عليه الصلاة والسلام، وامتلأ بنور الإيمان، وكما يقول هو عن نفسه:

- والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه.[١٥١٠]

كان أبو سفيان بن حرب جالسًا في المسجد وهو مستغرق في التفكير. فلما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام والمسلمون يسيرون خلفه قال في نفسه:

- لو جمعت لمحمد جمعًا وعاودت القتال؟

فإنه ليحدث نفسه بذلك، إذ جاء رسول الله ﷺ فوقف عند رأسه، فضرب بين كتفيه وقال له:

- **إذًا يخزيك الله!**

فرفع أبو سفيان رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال:

- **ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة.**

فقال:

- أتوب إلى الله، وأستغفر الله مما تفوهت به!.[١٥١١]

١٥١٠ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٧؛ ابن كثير: السيرة، ٣، ٥٨٣؛ ابن حجر: الإصابة، ٥، ٢٨٥/ ٧٠٠٩.

١٥١١ ابن كثير: البداية، ٤، ٢٩٦.

لقد آمنت يوم الفتح هند بنت عتبة التي مثلت بجثة عم النبي ﷺ حمزة ﷺ في غزوة أحد وأخرجت كبده فلاكته بأسنانها وقد سميت بآكلة الأكباد، وعلى الرغم من ذلك شملها عفو رسول الله ﷺ عندما جاءت إليه مسلمةً. إذ كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمها ولكن سامحها إكرامـًا وإجلالًا لكلمة التوحيد التي نطقت بها.[١٥١٢]

لقد كان عكرمة بن جهل من ألد أعداء الإسلام، ومن الذين أهدر النبي ﷺ دمهم، فهرب يوم فتح مكة إلى اليمن. ثم جاءت به امرأته – التي كانت قد أسلمت إلى النبي ﷺ – مسلمـًا. فأحسن رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين استقبال عكرمة، وعفا عنه، وقال له:

«مرحبـًا بالراكب المهاجر!» [١٥١٣]

وكان من أعداء الإسلام اللدودين حبار بن الأسود. حيث إنه عمد إلى ضرب السيدة زينب بنت الرسول الله ﷺ برمحه وهي على ظهر الناقة فسطت أرضـًا وذلك عندما كانت في طريقها للهجرة من مكة إلى المدينة. وكانت زينب ﷺ حاملًا يومها فأجهضت الجنين نتيجة سقوطها وأُصيبت بجرح ونزف شديد، وكان هذا الجرح الذي أصابها سببـًا في وفاتها فيما بعد. لقد ارتكب حبار الكثير من الأعمال الإجرامية الأخرى المماثلة لهذا الفعل الشنيع. وبعد فتح مكة لاذ حبار بالفرار دون أن يقبض عليه، وذات يوم بينما كان النبي ﷺ جالسـًا مع أصحابه في المدينة المنورة جاءه حبار وأعلمه بإسلامه، فعفا عنه النبي ﷺ وتجاوز عن ماضيه، ومنع الناس من التعرض له أو الإساءة إليه بشيءٍ.[١٥١٤] لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١٥١٥]

لقد كان النبي ﷺ قرآنـًا يمشي على الأرض، حيث تتجلى فيه الأخلاق القرآنية بأجمل صورها. فلم يكن يتردد أبدًا في العفو من أعماق قلبه عن كل من أساء إليه مهما بلغت قسوة وفداحة الإساءة. إلا أنه ما كان ليهدأ له بال أو تقرَّ له عين إذا ما تعرض أحد للظلم أو أُخذ شيءٌ من حق العامة حتى يرفع الظلم، ويحق الحق.

١٥١٢ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٥٠.

١٥١٣ الحاكم: المستدرك، ٣، ٢٧١ / ٥٠٥٩؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٥١ – ٨٥٢.

١٥١٤ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٥٧ – ٨٥٨.

١٥١٥ الأعراف: ١٩٩.

ولذلك فإلى جانب العفو الفريد من نوعه الذي صدر في مكة، فقد أعطى النبي ﷺ أوامره بناء على مصلحة الأمة بقتل بعض الخونة من المشركين الذين لا يُرجى إصلاحهم أينما وجدوا.[١٥١٦]

لم تؤخذ غنائم يوم فتح مكة.[١٥١٧] ولكي يلبي النبي عليه الصلاة والسلام الاحتياجات الضرورية لجيش الإسلام الذي يمر بحالة بالغة الصعوبة فقد استقرض بعض الأموال من أغنياء مكة واستعار دروعـًا. وأوفى قروضهم فيما بعد بتمامها من أموال الغنائم التي غنمها المسلمون في هوازن، وقال:

«**بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء!**»[١٥١٨]

بينما كان أهل مكة يحتفلون بعفو رسول الله ﷺ الذي أصبح نموذجـًا يُحتذى للبشرية جمعاء، وفي أجواء من البهجة والسرور دخل وقت الظهر. فأمر رسول الله ﷺ بلالًا رضي الله عنه برفع أذان الظهر. فتذكر بلال الحبشي رضي الله عنه تلك الأيام التي كان فيها عبدًا ضعيفـًا يتعرض لأشد أنواع الظلم والتعذيب ما لا يتصوره عقل وهو يئن من الألم ويقول «أحد، أحد». ولكن ها قد زال الظلم وأصبح الآن حرًا مجاهدًا مع جيش الإيمان يقف شامخـًا في مكة. فشكر الله تعالى وصعد إلى ظهر الكعبة، وبدأ برفع نغمات الأذان التي تذيب القلوب بصوته الجميل العذب. لقد كان يرفع أذانـًا يخرج من صميم قلبه فتتردد أصداؤه في أجواز السماء وفضاءات جبال مكة. فتبتسم له السماوات، وتبتهج له الأرض. لقد كان الأذان المحمدي الذي رُفع ذلك اليوم ذكرى أبدية لجميع المؤمنين. فقال بعض المشركين الذين أبصروا هذا المشهد الفريد:

– وا أسفاه! لم نبلغ حتى شأن الأرقاء! انظروا! إلى أين وصلوا، وأين بقينا نحن؟ فكانوا بذلك يتحسرون على أفعالهم السابقة، وغفلتهم عن الحقيقة إلى تلك اللحظات.

١٥١٦ أبو داود: الجهاد، ١١٧ / ٢٦٨٣؛ النسائي: تحريم الدم، ١٤.

١٥١٧ أبو داود: الخراج، ٢٤ – ٢٥ / ٣٠٢٣.

١٥١٨ النسائي: البيوع، ٤٧/ ٤٦٨٣؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٦٣.

بيعة أهل مكة

بعد أداء صلاة الظهر خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى جبل الصفا. وأخذ بيعة أهل مكة، تقدم في البدء الرجال فبايعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام على «الإسلام والجهاد». ثم بايعته النساء.[١٥١٩] وقد قال الله تبارك وتعالى عن بيعة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٥٢٠]

لقد تمت بيعة النساء بوضع أيديهن في إناء مملوء بالماء كان رسول الله ﷺ قد وضع يده فيه، إذ لم تحدث بيعة النساء بمصافحة النبي عليه الصلاة والسلام لهن أبدًا.

تقول أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها:

أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من الأنصار بايعنه على الإسلام فقلن:

– يا رسول الله! نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئـًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف.

فقال رسول الله ﷺ:

– **فيما استطعتن وأطقتن!**

فقلن أمام هذا الكلام المفعم بالشفقة والرحمة:

– الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا هلم نبايعك يا رسول الله!

فأرادت النساء البيعة بالمصافحة. إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

– **إني لا أصافح النساء! إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة.**[١٥٢١]

١٥١٩ البخاري: المغازي، ٥٣؛ أحمد: مسند، ٣، ٤١٥.

١٥٢٠ الممتحنة: ١٢.

١٥٢١ الموطأ: البيعة، ٢؛ الترمذي: السير، ٣٧ / ١٥٩٧ ؛ أحمد: مسند، ٤٤، ٥٥٩/ ٢٧٠٠٩.

أدوا الأمانات إلى أهلها!

لما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة جلس في زاوية من زوايا المسجد الحرام، وجلس حوله المهاجرون. فأمر رسول الله ﷺ بلالًا ؓ أن يذهب إلى عثمان بن طلحة فيُحضر مفتاح الكعبة. فذهب بلال ؓ إلى عثمان ؓ، وقال له:

- إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتيه بمفتاح الكعبة!

فقال عثمان ؓ:

- نعم!

فخرج إلى أمه سلافة بنت سعد بن سهيل الأنصارية، ورجع بلال إلى رسول الله ﷺ، والمفتاح يومئذ عندها، فقال عثمان لأمه:

- يا أمه أعطني المفتاح! فإن رسول الله ﷺ أرسل إلي، وأمرني أن آتي به إليه.

فقالت له أمه:

- أعيذك بالله أن تكون الذي يذهب بمأثرة قومه على يديك! لئن أخذه منكم فلن يعيده إليكم أبدًا!

وبعد محاورة عثمان ؓ لأمه تمكن من أخذه منها، فأحضره إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

- إني أعطيه لك أمانة لله تعالى!

إذ كان يخشى من عدم إعادة المفتاح إليه.[١٥٢٢]

فناوله إياه، فلما ناوله فتح الكعبة، وأمر رسول الله ﷺ بالكعبة فغلقت عليه، فمكث فيها ما شاء الله، وصلى فيها ركعتين.[١٥٢٣]

ثم خرج رسول الله ﷺ من الكعبة، وبعد أن ألقى خطبة الفتح، سأل عن عثمان بقوله:

- **أين عثمان؟**

فقام عثمان بن طلحة ؓ. فقرأ رسول الله ﷺ الآية الآتية:

١٥٢٢ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٣٣؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٧٧.

١٥٢٣ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٣٧.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[١٥٢٤]

ثم قال:

- **خذوها يا بني أبي طلحة! تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم! يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا بالمعروف... اليوم يوم بر ووفاء.** [١٥٢٥]

كما يتبين من هذه الحادثة فإن إعادة الأمانات إلى أهلها مسألة في غاية الأهمية والخطورة. وذلك لأنه عندما تُعطى الأمانات إلى أصحابها تسود حالة من الطمأنينة والراحة سواء لدى الفرد، أو في العائلة، أو داخل الدولة بشكل عام، فالأمانات مرتبطة بجميع نواحي الحياة، وأما إن ضاعت الأمانات فإن المصائب والكوارث تحل على المجتمع. حتى تسقط الدول والامبراطوريات، والتاريخ مليء بأمثلة من هذا القبيل يضيق المجال عن ذكرها.

ويشير النبي ﷺ إلى أهمية وخطورة الأمانة في حديث شريف، حيث يقول:

«**فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» [١٥٢٦]

والخلاصة؛ أن ضياع الأمانات وعدم أدائها لأهلها يُعد واحدة من أهم علامات يوم القيامة.

لقد طلب العباس رضي الله عنه الذي كان بيده السقاية، من النبي عليه الصلاة والسلام أن يجمع له معها الحجابة أيضـًا. فقال له النبي ﷺ:

«أعطيكم السقاية ترزؤكم ولا ترزءونها!»

وأمره بالاستمرار في القيام بوظيفة سقاية الحجيج.

وكان للعباس رضي الله عنه كرم عنب بالطائف، فيحمل زبيبه إلى مكة فينبذ في الجاهلية والإسلام بما زمزم ويسقي الحجيج منها. واستمر على هذا العمل أبناؤه وأحفاده من بعده.[١٥٢٧]

١٥٢٤ النساء: ٥٨.

١٥٢٥ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣١ - ٣٢؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٧٧ - ٨٣٨؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٣٧.

١٥٢٦ البخاري: العلم، ٢/ ٥٩، الرقاق، ٣٨/ ٦٤٩٦؛ أحمد: مسند، ٢، ٣٦١/ ٨٧٢٩.

١٥٢٧ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٨٦/ ٥٧١٠؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٢؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٣٨.

في اليوم الثاني للفتح وقف رسول الله ﷺ بين الناس بعد صلاة الظهر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس! إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة!... إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليهم رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يختلى شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما يودى وإما يقاد!»

فقال العباس ﷺ: إلا الإذخر، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا!

فقال رسول الله ﷺ: «**إلا الإذخر!**»[١٥٢٨]

ومن هذه المشاهد التي حدثت يوم فتح مكة تلك التي قدمها الصحابة الكرام والذين أصبحت قلوبهم نجومًا تتلألأ في السماء:

فبينما كان رسول الله ﷺ جالسًا في المسجد الحرام، جاءه أبو بكر الصديق ﷺ وقد أحضر معه والده أبو قحافة. فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام، قال له:

«هلا تركت الشيخ في بيته حتى أجيئه»

فقال: يمشي هو إليك يا رسول الله، أحق من أن تمشي إليه، فأجلسه بين يديه، ثم مسح رسول الله ﷺ صدره، وقال: «**أسلم تسلم**» فأسلم أبو قحافة وشهد شهادة الحق.[١٥٢٩]

١٥٢٨ البخاري: اللقطة، ٧/ ٢٤٣٤، المغازي، ٥٣/ ٤٣١٣/ الديات، ٨/ ٦٨٨٠؛ أحمد: مسند، ٤، ٣١ - ٣٢، ٢، ٢٣٨.
الإذخر: نبتة ذات أوراق عريضة ولها رائحة طيبة تنبت في مكة المكرمة. وكما أنها تُستخدم كطعام للبهائم، فإنها تُستخدم في البيوت وللقبور لرائحتها الطيبة. وقد اعتبر علماء الفقه الإسلامي أن الأشجار والنباتات التي لا يجوز اقتلاعها في منطقة الحرم هي تلك التي تنمو بنفسها. واختلفوا حول جواز اقتلاع أو قطع الأشجار والنباتات التي يزرعها الإنسان، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز ذلك، وقد قال العلماء بجواز قطع عود المسواك، والأوراق، والفاكهة بشر عدم إلحاق الضرر بأشجارها. ورأى علماء الفقه جواز قطع الأشجار أو النباتات الخضراء في الحرم المدني عند الحاجة. فكما أن النبي ﷺ قد رخص في حالات الضرورة قطع بعض النباتات في الحرم المكي عندما طُلب منه الإذن بذلك، فقد أذن بذلك بشكل أوسع في الحرم المدني باعتبار أن المدينة منطقة زراعية. وكذلك ترك الصيد خارج المدينة أمرًا مباحًا (انظر. حمدي دوندورن: الموسوعة الإسلامية الشاملة، «الحرم»)

١٥٢٩ الحاكم: المستدرك، ٣، ٤٨/ ٤٣٦٣؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٧٤/ ١٠٢٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٥، ٤٥١.

ولما مد أبو قحافة ﷺ يده إلى يد رسول الله ﷺ المباركة لكي يبايعه، لم يتمالك عاشق النبي عليه الصلاة والسلام أبو بكر الصديق ﷺ نفسه، فأخذ يبكي. ولما سأله رسول الله ﷺ بتعجب عن سبب بكائه، قال أبو بكر ﷺ والدموع تنهمر من عينيه:

- يا رسول الله! لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحًا مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك! يا رسول الله.[١٥٣٠]

فهذا مشهد من مشاهد من تخلق بأخلاق النبي الكريم ذي الشأن الرفيع وتفانى بحبه وعشقه فأصبح نجمة تتلألأ في السماء يشار إليها بالبنان، ولا يمل الناظر من التمتع برؤيتها... فيا ترى كم مرة يمكن أن يعيد التاريخ مثل هذه المشاهد من المحبة، والاحترام والعشق الروحي لسيد الإنسانية!.

الوفاء النادر

لقد مكث رسول الله ﷺ في مكة بعد فتحها مدة خمسة عشر يومًا. وفي هذه الأثناء كان بعض الأنصار يشعرون بالقلق حول أمر عودة النبي عليه الصلاة والسلام مرة أخرى إلى المدينة، وأخذوا يتساءلون هل يعود إلى المدينة أم أنه سوف يفضل البقاء في وطنه الأصلي الذي ولد وتربى فيه بعد أن مكنه الله تعالى من فتحه وساد فيه الأمن والسلام؟

أحس النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان يدعو ويناجي ربه على جبل الصفا بقلق الأنصار الكرام. فبعد أن أنهى دعاءه جاء إليهم، وسألهم:

«**يا معشر الأنصار**»

قالوا: لبيك يا رسول الله، قال:

«**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟**»

قالوا: قد كان ذاك، قال مظهرًا نموذجًا نادرًا من الوفاء والإخلاص لا نجد له مثيلًا:

«**كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم**»

وبهذه الكلمات المتلألئة كالجواهر النفيسة زال قلق الأنصار، ودخل السرور إلى قلوبهم.[١٥٣١]

١٥٣٠ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٧٤/ ١٠٢٤٤.

١٥٣١ مسلم: الجهاد، ٨٤، ٨٦/ ١٧٨٠؛ أحمد: مسند، ٢، ٥٣٨.

وبعد فتح مكة زاد الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام من تسبيحه لله تعالى، وشكره وحمده، حيث بدأ يكثر في صلاته، وخاصة أثناء الركوع والسجود من قول:

«سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه».

ولما سألت أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ عن سبب ذلك، قال النبي ﷺ:

«أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها. إذا جاء نصر الله والفتح. فتح مكة»[١٥٣٢]

إذًا فقد أُمر النبي عليه الصلاة والسلام بزيادة التسبيح والاستغفار عندما أتاه النصر الذي وُعد به في سورة النصر، وعند رؤيته الناس يدخلون الإسلام أفواجـًا أفواجـًا.

لقد قال بعض المفسرين أن كلمة «النصر» الواردة في سورة النصر إشارة إلى تفوق المسلمين على جميع العرب، وكلمة «الفتح» الواردة في نفس السورة أيضـًا إشارة إلى فتح مكة. وقد سمى ابن عباس ﵁ هذا الفتح بـ «فتح الفتوح»، لأن الفتح الذي تحقق للنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين معه لم يكن عبارة عن استرجاع مدينة من يد العدو والسيطرة عليها، وإنما معنى هذا الفتح السيطرة على المسجد الحرام والدخول إلى الكعبة المشرفة. ويشير في الوقت عينه أيضـًا إلى فتح القلوب أمام دين الله تعالى، وكذلك فتح باب الإسلام أمام الإنسانية جمعاء. أي إن دخول النبي ﷺ ذلك اليوم إلى مكة كان فتحـًا للقلوب أكثر مما يُعد فتحـًا للمدينة. ولذلك اعتبر فتح مكة على رأس قائمة الفتوحات الإسلامية. فقد بدأ الانتشار المادي والمعنوي الذي حصل سريعـًا في سائر مناطق شبه الجزيرة العربية وشتى بقاع العالم، بدأ بفتح مكة، وذلك لأن جميع القبائل كانت تراقب عن كثب فتح مكة من أجل اتخاذ القرار بالدخول إلى الإسلام، إذ كانوا يقولون:

«اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق»[١٥٣٣]

وجاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه لما فتح النبي ﷺ مكة، قالت العرب:

«طالما أن الله تعالى حمى أهل مكة من أصحاب الفيل، وغلبهم محمد – ﷺ – إذًا فلن تصل إليه يدكم أبدًا» ودخلوا إلى دين الله ﷻ أفواجـًا أفواجـًا.[١٥٣٤]

١٥٣٢ مسلم: الصلاة، ٢٢٠/ ٤٨٤.

١٥٣٣ البخاري: المغازي، ٥٣/ ٤٣٠٢.

١٥٣٤ ألماليلي: ٩، ٦٢٣٦ – ٦٢٣٨.

غزوة حنين «١١ شوال ٨ / ١ شباط ٦٣٠»

لم يتوقف النبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة عند تحطيم الأصنام التي كانت تعج بها الكعبة فحسب، وإنما نظم فرقًا من المجاهدين وأرسلهم إلى مختلف الأنحاء من أجل تحطيم الأحجار والأصنام الشركية التي لا تنفع ولا تضر. أي بدأ حملة تطهير توحيدية.[١٥٣٥] إلا أن هذا الوضع الجديد لم يرق لقبيلة هوازن التي كانت تقطن حنين، وبني ثقيف الذين يسكنون في الطائف. فاتخذوا قرارًا بمهاجمة المسلمين ومقاتلتهم، وجهزوا جيشًا كبيرًا من أجل ذلك. ولأنهم اعتبروا هذه الحرب مسألة بقاء أو فناء فقد أخرجوا معهم كل أهليهم وأموالهم.[١٥٣٦]

ولما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ جهز جيشه وأضاف إليه ألفي مقاتل من مكة ثم سار إليهم. و كان من أعظم تجليات الأقدار الإلهية وجود أبي سفيان في صفوف هذا الجيش، أبو سفيان الذي ظل لسنين طويلة يحارب المسلمين باسم الشرك ويذيقهم شتى أنواع القهر وينزل بهم الويلات. يقاتل اليوم في سبيل نصر الإسلام والمسلمين. حتى إنه اشترك في هذا الجيش ما يقارب الثمانين من مشركي مكة.[١٥٣٧]

١٥٣٥ الواقدي: المغازي، ٣، ٨٧٣.
لما عاد خالد بن الوليد ﷺ بعد أن كسر صنم العزى، أرسله رسول الله ﷺ على رأس فرق مؤلفة من ثلاثمائة وخمسين مقاتلًا إلى قبيلة بني جذيمة من أجل دعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى. فلما ذهب إليهم خالد ﷺ ارتكب خطًا كبيرًا في حقهم إذ قتل منهم ثلاثين رجلًا. ولما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ حزن كثيرًا، فرفع يديه إلى السماء، وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**». وكرر قوله مرتين. ثم أعطى مالًا لعلي بن أبي طالب ﷺ وأرسله إلى بني جذيمة ليدفع لهم دية قتلاهم. فخرج علي ﷺ حتى جاءهم، فودى لهم ما أصاب خالد، ودفع لهم مالهم، حتى أنه أدى لهم ميلغة الكلب ـ أي الإناء الذي يشرب فيه الكلب. فلما لم يبق لهم شيءٌ يطلبونه زاد مع علي ﷺ بقية من المال، فتركه لبني وجذيمة تضمينًا لهم عما قد يكون أصابه خالد مما لا يعلمونه من الضرر. ثم انصرف عنهم. فلما عاد علي رشي الله عنه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره بما فعله، قال النبي ﷺ: «**أصبت يا علي**».(البخاري: المغازي، ٥٨، الأحكام، ٣٥؛ النسائي: أدب القضاة، ١٦؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٥٣ – ٥٧؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٨٧٥ – ٨٨٤).
إن هذه الحادثة تظهر بأن النبي ﷺ كان صاحب أفق واسع في الشفقة والرحمة، وتبين بأنه كان ينظر إلى المخلوقات بنظرة الخالق ﷻ. إن رعاية حقوق المخلوقات التي شملت حتى الكلاب إذ عوض عن الآنية المتحطمة التي تُسقى فيها الكلاب الماء، إن هذه الرعاية تمثل لنا نموذجًا ومثلًا في قمة الروعة والجمال.

١٥٣٦ ابن هشام: السيرة، ٤، ٦٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٥٠.

١٥٣٧ ابن هشام: السيرة، ٤، ٦٨؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٨٩٠.

لقد كان الجيش الإسلامي في منتهى الكمال والمثالية من جميع النواحي. وأخذ يتقدم باعتزاز وهيبة تخطف الأبصار. فالكل كان يعتقد بأن شبه الجزيرة العربية لم تشهد حتى الحين مثل هذا الجيش الجرار والمجهز بكامل العدة والعتاد. وقد تسببت هذه الحالة في إحساس الصحابة الكرام بشيءٍ من الزهو والعجب في قلبهم، ودفعتهم للقول:

- لن نغلب اليوم من قلة، فجيش كهذا الجيش لا يُغلب! واستصغروا بذلك شأن العدو، وأخذوا يربطون النصر بالتفوق المادي في العدة والعتاد. فتسبب هذا الغرور والعجب الآني بامتحان المسلمين في أمر غاية الأهمية والحكمة.

فبينما كانت مقدمة جيش المسلمين تتقدم ثابتة الخطى واثقة النفس في طريق ضيق إلى حنين، فإذ بها فجأة تقع في كمين مع أشد لحظات ظلام الفجر. فحدثت زعزعة وفوضى عارمة في صفوف المسلمين. ووقفوا مشدوهين أمام سهام العدو التي تمطرهم بغزارة. وبدأت علامات التفرق والانهيار والخوف والاضطراب تطل برأسها. ولما وقع الأمر نفسه على مؤخرة الجيش أيضًا انهارت صفوف المسلمين وتراجعت إلى الوراء. وأخذت قبائل هوازن وثقيف تلاحقهم.

ومن بين كل هذا الجيش الكبير كان رسولُ الله ﷺ هو الوحيدَ الذي بقي ثابتًا ولم يتزحزح عن موقفه في ظل هذه الفوضى العارمة والخوف المريع، وسار ببسالة نحو العدو يحث دابته لاختراق صفوفه، لقد قدم النبي ﷺ ذلك اليوم نموذجًا أسطوريًا لا مثيل له في الشجاعة والإقدام. حتى إن عمه العباس وأبا سفيان بن الحارث رضي الله عنهما كانا يمسكان بزمام دابته يحاولان منعه من التقدم في صفوف العدو خوفًا على حياته.[١٥٣٨]

ومن جهة أخرى كان تخبط جيش المسلمين مستمرًا أمام هجمات الأعداء المتلاحقة، وأخذ كفار هوازن يرفعون أصواتهم ويقولون: ألا بطل السحر اليوم!. وآخرون يقولون:لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!. وأخذ بعض أهل مكة ممن لم يستقر الإيمان في قلوبهم بعد يُشيع بين الناس مقالة: مات محمد ﷺ، إن العرب لترجع إلى دينها القديم!

وبينما كانت صفوف جيش المسلمين تتزلزل بهذه الأحداث الجسام، كان النبي ﷺ سليمًا معافىً على دابته يقاوم بكل شجاعة جيش العدو غير مبالٍ بالحياة وزخرفها. وكان ينادي على أصحابه بحالة إيمانية ملؤها التسليم والتوكل على الله تعالى:

١٥٣٨ مسلم: الجهاد، ٧٦.

– **إلي أيها الناس، هلموا إلي أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله!**

ثم أشار إلى عمه العباس رضي الله عنه أن ينادي في الناس، وكان العباس رجلًا صيّتًا. فنادى العباس رضي الله عنه بصوت عالٍ:

– يا أصحاب بيعة العقبة! يا أصحاب بيعة الرضوان! ها هو رسول الله ﷺ!

فلما سمع الصحابة النداء أسرعوا إلى رسول الله ﷺ وتجمعوا حوله يهتفون: لبيك، لبيك! وهكذا بدأ المؤمنون – الذين تفرقوا عن رسول الله ﷺ مثل سرب من الفراشات عصفت بها ريح شديدة – يلتفون حوله كما تنجذب الفراشات للنور، اجتمع الصحابة حول الرسول ﷺ من جديد وبدأت قلوبهم تنفض الرعب الذي داخلها ليستقر مكانه الشجاعة والبسالة مرة أخرى. ورويدًا رويدًا تجمعت صفوف المسلمين وانتظمت بلطف من الله تعالى وإحسان. ثم رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء متضرعـًا إلى ربه عز وجل:

– **اللهم نزل نصرك!**

ومثلما فعل رسول الله ﷺ يوم بدر فقد أخذ بيده قبضة من تراب من الأرض، ثم رمى بها صفوف العدو ووجوههم، وهو يقول:

– **شاهت الوجوه.**[١٥٣٩]

فأصبحت الكَرَّة هذه المرة لجيش المسلمين، فما إن اكتملت الصفوف حتى هجموا على العدو هجمة خاطفة وسريعة، فلم تمض لحظات حتى فتكوا بصفوفهم وأنزلوا بهم هزيمة منكرة، وأخذ الأعداء يفرون ولا يلوون على شيءٍ.

لم يستشهد من المسلمين سوى أربعة شهداء، أما المشركون فقد بلغ عدد قتلاهم سبعين قتيلًا. فلما انهزم العدو هذه الهزيمة المنكرة وقع كل ما جلبوه معهم من الأموال والذراري غنيمة في يد المسلمين. فكانت الغنائم من الكثرة لا تُعد ولا تحصى.[١٥٤٠]

مما لا شك فيه أن هذه الحالة كانت من ألطاف الله تعالى ومكرماته الجليلة التي تكرم بها على المؤمنين. وذلك لأنهم في البدء كانوا في وضع المنهزم والمنكسر تمامـًا إلا أنهم ما لبثوا في النهاية أن نالوا النصر المؤزر بفضل شجاعة وثبات رسول الله ﷺ وتضرعه بإخلاص إلى الحق عز وجل. وقد بين الله عز وجل هذه الحقيقة في القرآن الكريم، حيث قال:

١٥٣٩ مسلم: الجهاد، ٧٦ – ٨١/ ١٧٧٦؛ أحمد: مسند، ٣، ١٥٧، ٥، ٢٨٦/ ١٥٠٢٧؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٧٢.

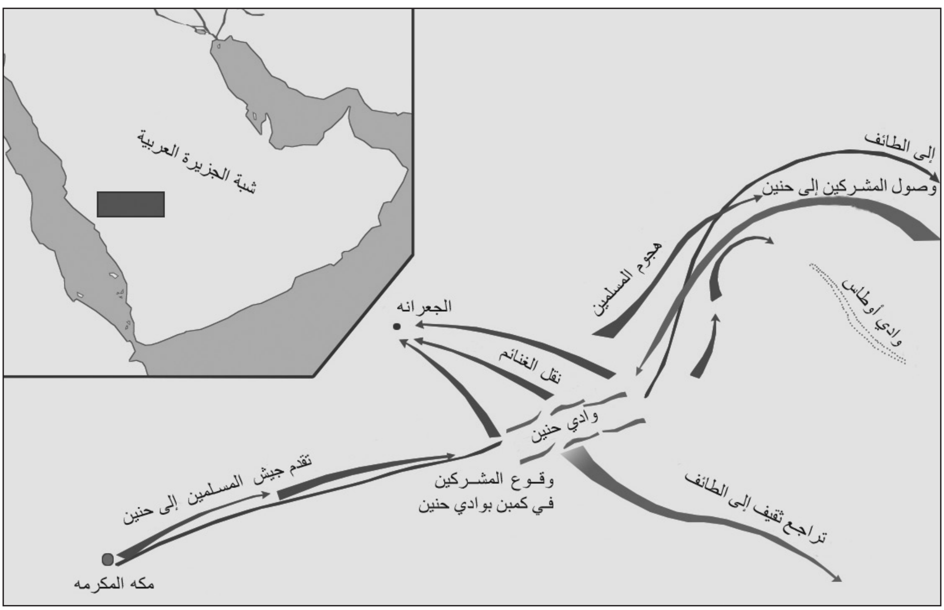
١٥٤٠ ابن هشام: السيرة، ٤، ٧٩.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[١٥٤١]

وقد أقر المشركون ذلك اليوم – ممن آمن فيما بعد – بالعون الذي أمد الله به المؤمنين في تلك المعركة، حيث كانوا يعجبون من بسالة من لقوه من المقاتلين وشجاعتهم المنقطعة النظير.[١٥٤٢]

فرّ قسم من جيوش هوازن المنهزمة إلى الطائف، وذهب قسم آخر إلى نخلة، واتجه قسم أيضـًا إلى الأوطاس فأقاموا هناك مخيمـًا ومقرًا.

أمر الرسول ﷺ بملاحقة فلول جيش الأعداء المنهزم إلى حيث توجهت، وأمر بترحيل الأسرى والغنائم إلى الجعرانة. وبعد ذلك أرسل أبو عامر عم أبي موسى الأشعري ﷺ على رأس قوة إلى وادي الأوطاس، وتوجه بنفسه مع جيش المسلمين إلى الطائف.



١٥٤١ التوبة: ٢٥ – ٢٦.

١٥٤٢ أحمد: مسند، ٥، ٢٨٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٨٢ – ١٨٣؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٧٩.

غزوة الأوطاس «شوال ٨ / شباط ٦٣٠»

لم يتولَّ النبي عليه الصلاة والسلام قيادة الجيش في هذه الغزوة بسبب مسيره على رأس جيش المسلمين إلى الطائف، ولذلك فقد أمَّر أبا عامر ﵁، وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة خلال المعركة، كما قُتل أيضًا قائد جيش العدو.

ولما أصيب عامر ﵁ وأدرك أن جرحه عميق ولن ينجو من الموت قال لابن أخيه أبي موسى:

- يا ابن أخي! أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي!

فتولى القيادة أبو موسى ﵁ بعد استشهاد عمه، وحال بذلك دون تفرق جيش المسلمين، فأدار المعركة بحنكة واقتدار، وانتهت بهزيمة العدو ورفع راية الإسلام في الأوطاس. ولما عاد إلى رسول الله ﷺ أخبره باستشهاد عمه وبوصيته التي أوصى بها. فطلب النبي عليه الصلاة والسلام ماءً فتوضأ، ثم رفع يديه داعيًا بقوله:

«اللهم اغفر لأبي عامر! اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس!»

يقول أبو موسى: فقلت: ولي فاستغفر، فقال:

«اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا» [١٥٤٣]

حصار الطائف «شوال ٨ / شباط ٦٣٠»

الطائف هي إحدى مدن منطقة الحجاز التي تتميز بجمالها وروعتها، لها قلعة منيعة ومحكمة أقيمت على رأس إحدى تلالها. ولهذا السبب فقد مر الحصار الذي ضربه رسول الله ﷺ حولها بصعوبة بالغة.

لم يكن هذا الحصار ثأرًا أو انتقامًا لما لقيه النبي عليه الصلاة والسلام من ظلم على يد أهل الطائف في وقت مضى، وإنما كان استمرارًا للمعركة التي وقعت في حنين. وذلك لأن الذين انهزموا من حنين قد دخلوا إلى قلعة الطائف بما فيهم رئيسهم الشاب مالك بن عوف. وكانوا يحضرون مع بني ثقيف لمعركة دفاعية جديدة.

لقد طُبقت في الحصار تكتيكات عسكرية كثيرة، واستخدمت فيها وسائط حربية جديدة. إلا أن قلعة الطائف كانت حصينة جدًا لا تنكسر أمام كل هذه الهجمات المتتابعة.

١٥٤٣ البخاري: المغازي، ٥٥/ ٤٣٢٣؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩١٦.

ومن جهة أخرى لم يتمكن المسلمون من استدراج العدو إلى خارج القلعة. حتى إنه لما طلب خالد بن الوليد ﵁ منهم إرسال مقاتل للنزال، ردوا عليه بقولهم:

- ليس في قلعتنا من يقوى على مواجهتك! فلم يخرجوا له حتى رجلًا واحدًا.

وأمام هذا الوضع المستعصي قال النبي ﷺ:

- **هم ثعلبٌ في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك!**

مشيرًا بذلك إلى عدم وقوع ضرر منهم إن رفع الحصار. وفي ذلك أبلغ دليل أنه لم يكن معتديـًا وإنما كان نبي رحمة ودعوة. فقد كان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يكون وسيلة لهداية أهل الطائف كما كان لأهل مكة. ومما يؤكد ذلك أنه فك الحصار بعد مرور وقت قصير. فهدفه لم يكن التجويع ولا التشفي أو الانتقام.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحـًا وبيانـًا، أنه لما طلب الصحابة الكرام من النبي ﷺ الدعاء على أهل الطائف من بني ثقيف لما ألحقوه من أذىً بالمسلمين خلال الحصار، لم يستجب رسول الله ﷺ لطلبهم، بل رفع يديه إلى السماء داعيـًا لهم بالهداية، حيث قال:

- **اللهم اهد ثقيفـًا، وائت بهم!**

ثم ارتحل عن المكان. وبفضل هذا الدعاء وبركته لم يمض وقت طويل حتى جاء بنو ثقيف إلى رسول الرحمة والهداية عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم معلنين إسلامهم.[١٥٤٤]

فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يدعُ على هؤلاء القوم على الرغم من إساءتهم إليه قبل الهجرة عندما لجأ إليهم فأذاقوه أشد أنواع الأذى والظلم وسلطوا عليه صبيانهم وسفاءهم وأدموه بالحجارة من فرق رأسه حتى أخمص قدميه، وكان ﷺ يتمنى بكل شوق وإخلاص هدايتهم إلى سواء السبيل. حيث إنه سُر سرورًا عظيمـًا لما جاءه القوم مسلمين بعد سنة، فأحسن ضيافتهم وأكرم مثواهم.

لقد وعد النبي عليه الصلاة والسلام أثناء ذلك الحصار من كان داخل أسوار القلعة من العبيد بالحرية إن هم نزلوا إليه وأعلنوا إسلامهم، فهرب كثير من العبيد من بين صفوف العدو وجاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام مختارين الإسلام وطريق الهداية.[١٥٤٥]

١٥٤٤ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٣٤؛ الترمذي: المناقب، ٧٣ / ٣٩٤٢؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٣٧.

١٥٤٥ البخاري: المغازي، ٥٦.

يقول أبو زُرعة ﷺ:

«لما رحل النبي عليه الصلاة والسلام من منازل قرن يوم غزوة الطائف، وأراد أن يركب راحلته القصواء وطئت له على يديها، والزمام في يدي مطوي، فركب رسول الله ﷺ على الرحل وناولته الزمام ودرت من خلفه فركبت، فخلف الناقة بالسوط يحثها على السير، وكلما ضرب الناقة أصابني، فالتفت إلي وقال:

«**أصابك السوط؟**»

فقلت: نعم! بأبي وأمي أنت يا رسول الله ﷺ.

فلما نزل الجعرانة إذا ربضة ـ قطيع ـ من الغنم ناحيةً من الغنائم، فسأل عنها صاحب الغنم فخبره عنها بشيءٍ لا أحفظه، ثم صاح:

«**أين أبو زُرعة؟**»

فقلت: ها أنا ذا رسول الله ﷺ!

فقال لي:

«**خذ هذه الغنم بالذي أصابك من السوط أمس**».

فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس من الغنم. فتأثلت بها مالًا، وكان أكثر مالي من هذه الغنم» [١٥٤٦]

إن الاهتمام والحرص الشديد الذي أظهره النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الحادثة بشأن حق العباد يعرض الطبيعة السمحة لهذا الدين الذي ينير العصور على مر التاريخ.

تقسيم الغنائم

بعد أن رفع رسول الله ﷺ الحصار المضروب حول الطائف توجه مع جيش المسلمين إلى الجعرانة التي جُمعت فيها الغنائم والأسرى. وكان في هذه الأثناء قد وصل إلى المكان أيضًا أبو موسى الأشعري ﷺ عائدًا من غزوة الأوطاس التي حقق فيها نصرًا مؤزرًا على فلول المشركين الذين هربوا إليها من معركة حنين، لقد هزم الجيش الإسلامي جميع أعدائه، وجاء دور تقسيم الغنائم وتوزيعها. حيث غنم المسلمون أثناء حصار الطائف

١٥٤٦ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٣٩.

عشرين ألف رأس من الإبل، وأربعين ألفـًا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، إضافة إلى ستة آلاف أسير.[١٥٤٧]

وقبل البدء بتقسيم الغنائم قال رسول الله ﷺ:

«أدُّوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة» [١٥٤٨]

وفي هذه الأثناء وصل خبر إلى النبي ﷺ بأن أخته في الرضاعة شيماء بنت حليمة السعدية من بين الأسرى. فأمر النبي ﷺ في الحال بإحضارها، فلما حضرت أفرد لها رداءه وأجلسها عليه. فأظهر لأخته من الرضاعة وفاءً نادرًا، وعاملها معاملة ملؤها الشفقة والرحمة والإحسان. فاستعاد معها ذكريات الأيام الماضية التي قضاها في بادية بني سعد واغرورقت عيناه بالدموع، وسألها عن أمها وأبيها، فأخبرته شيماء بوفاتهما قبل مدة من الزمن. وسألها أيضـًا عن أقربائها وأهل عشيرتها. ثم قال لها:

«إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟»

فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي.

ثم أسلمت رضي الله عنها. فمتعها رسول الله ﷺ وأرسل معها إبلًا وأغنامـًا للأحياء من أقربائها. كما أنه أعطاها غلامـًا له يقال له مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما الأخرى.[١٥٤٩]

وبعد ذلك أجل النبي عليه الصلاة والسلام تقسيم أموال الغنائم بعض الوقت. فاشتكى بعضٌ من ضعيفي التسليم لله تعالى والذين لم يفهموا الحكمة من هذا التأجيل، وتململوا من ذلك. وبدأ الأعراب يلحون في طلبهم بتقسيم الغنائم. حتى اضطروه إلى شجرة سمرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال:

«أعطوني ردائي! فلو كان عدد هذه العضاة نعمـًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا، ولا كذوبـًا، ولا جبانـًا»[١٥٥٠]

وخلال تقسيم النبي عليه الصلاة والسلام للغنائم احتشد الناس حوله وتزاحموا عليه حتى بالغوا في مضايقته، فقال رسول الله ﷺ «مشيرًا إلى أحد الأنبياء قبله»:

١٥٤٧ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٥٢.

١٥٤٨ الموطأ: الجهاد، ٢٢؛ أحمد: مسند، ٥، ٣١٦؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٤٣.

١٥٤٩ ابن هشام: السيرة، ٤، ٩١ – ٩٢؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩١٣.

١٥٥٠ البخاري: الجهاد، ٣١٤٨/٢٤.

«إن عبدًا من عباد الله بعثه الله إلى قومه فضربوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن جبهته ويقول: رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون»[١٥٥١]

ولم تُدرَك الحكمة من تأخير النبي ﷺ تقسيم الغنائم والتمهل فيه إلا في اليوم العاشر من وجوده في الجعرانة. حيث جاء إلى رسول الله ﷺ وفد من قبيلة هوازن التي انهزمت في الحرب، وأعلموه بإسلامهم، وبناءً على ذلك أخذوا يطلبون إعادة أسراهم وأموالهم التي غنمها المسلمون في المعركة. وفي هذه الأثناء قام رجل من بني سعد فقال:

– يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

فقال رسول الله ﷺ:

– **معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم!**

وكان أنظرهم لمدة عشرة أيام. فاختار الوفد السبي. وفي اليوم التالي جمع النبي ﷺ أصحابه وعرض عليهم الأمر. وأعلمهم بأنه قد تنازل عما يكون في نصيبه من الأسرى، ثم قال عليه الصلاة والسلام:

– **أما بعد، فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل!**

إن السبب الذي حمل النبي ﷺ على مراجعة أصحابه هو أن الأسرى كانوا من حقهم.

فلما رأى الصحابة الكرام ما فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام من عفوه، وحضه إياهم على أن يفعلوا ذلك، فقالوا بكل طيب خاطر وهم يأملون أن ينالوا نصيبـًا من الفضل الذي ناله رسول الله ﷺ:

– قد طيبنا ذلك يا رسول الله!.[١٥٥٢]

١٥٥١ أحمد: مسند، ١، ٤٥٦/ ٤٣٦٦؛ مسلم: الجهاد، ١٠٥/ ١٧٩٢.

١٥٥٢ البخاري: المغازي، ٥٤/ ٤٣١٨؛ أحمد: مسند، ٣١، ٢٣٠/ ١٨٩١٤؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٣٤ – ١٣٥.

وهكذا فقد أُعيد ذلك اليوم إلى هوازن آلاف من أسرى الحرب دون أي مقابل. ولم يكن التاريخ البشري قد شهد مثل هذا المشهد المهيب من قبل، إذ ها هو رسول الله ﷺ من خلال أخلاقه الفريدة والتي سرت إلى أمته يطلق في لحظة واحدة ودون أي مقابل أو منفعة دنيوية سراح ستة آلاف أسير من العدو لكي يعودوا إلى ذويهم وأهليهم أحرارًا.

إن هذا العفو الكريم مظهر من مظاهر الوفاء الذي لا نظير له في حق ذوي وأهل مرضعته، وهو في الوقت نفسه درس بالغ الروعة في الفضيلة وحسن الخلق مع الأعداء. في حين نجد أن البشر في مثل هذه اللحظات من القوة والظفر لا يذكرون إحسان أحد، فيتحول الوفاء في حياة الناس في غالب الأحوال إلى مجرد كلمة ترد بين صفحات معاجم اللغة.

ونتيجة لهذه الفضيلة النادرة دخلت قبيلة هوازن عن بكرة أبيها إلى الإسلام، حتى إن رئيس القبيلة الذي كان قد بقي في الطائف في ذلك الوقت لما سمع بهذه الحالة أُصيب بالذهول والدهشة من غرابة الأمر، وسارع إلى تلبية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إياه إلى الإسلام، لينال شرفه، فأهداه رسول الله ﷺ مائة رأس من الإبل، ونصبه من جديد رئيسًا على قبيلته.[١٥٥٣]

إن الدرس الذي يُستنتج من هذه الحادثة هو أن أفضل التبليغ ما يكون عن طريق التخلق بالأخلاق الحسنة. وإضافة إلى ذلك يتبين من هذه الحادثة أهمية علم السياسة الذي يُطبق بحكمة وفراسة، ومدى بركة وإيجابية النتائج التي تترتب عليه.

وتشير كذلك بطريقة غير مباشرة إلى مدى الأضرار والنتائج السلبية التي نحصدها عندما نغيب العقل والحكمة عن تصرفاتنا وتعاملنا مع الناس.

لقد قسم النبي ﷺ الغنائم كما أمر الله تعالى. حيث جُعلت الغنائم على خمس حصص، فأعطي المقاتلون أربع حصص، وأما الحصة الخامسة فقد جُعلت في بيت المال، أي ما يعرف اليوم بخزينة الدولة. وأما التصرف ببيت المال فهو من حق رسول الله ﷺ إذ يصرف منه في الوجوه التي يراها، وقبل توزيع الغنائم أخذ النبي ﷺ شعرات من ناقة كانت أمامه، وقال لأصحابه:

١٥٥٣ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٣٧ - ١٣٨.

«والذي نفسي بيده، ما لي مما أفاء الله عليكم. ولا مثل هذه، إلا الخمس والخمس مردود عليكم»[١٥٥٤]

لقد أعطى النبي ﷺ أكثر الخمس الذي جُعل من نصيبه بموجب البيان الإلهي للمؤلفة قلوبهم. ويقول حكيم بن حزام رضي الله عنه حول هذا الأمر:

«سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها، ثم سألته مائة من الابل فأعطانيها، ثم سألته مائة من الابل فأعطانيها، ثم قال رسول الله ﷺ:

- **يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى.**

فقلت:

- والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا.

فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا رضي الله عنه ليعطيه العطاء من الغنائم فيأبى أن يقبل منه شيئًا. ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال عمر رضي الله عنه:

- يا معشر المسلمين، إني أعرض عليه حقه، الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه.

فلم يرزأ حكيم رضي الله عنه أحدًا من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي رحمه الله»[١٥٥٥]

وكان صفوان بن أمية ممن حضروا غزوة حنين، وعلى الرغم من بقائه على شركه إلا أنه بقي ثابتًا مع النبي عليه الصلاة والسلام في معركة حنين والطائف ولم يفارقه. وقد كان صفوان بجانب النبي ﷺ عندما أخذ يطوف على الغنائم المتجمعة في الجِعرانة ويتصفحها، ولما جاء على شِعب مما أفاء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوءة أُعجب صفوان بها، وجعل رسول الله ﷺ ينظر إليه بطرف عينه. فقال له:

- **أعجبك يا أبا وهب هذا الشِّعب؟**

فقال صفوان: نعم!

قال الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام:

- **هو لك وما فيه!**

١٥٥٤ الموطأ: الجهاد، ٢٢؛ أحمد: مسند، ٥، ٣١٦/ ٢٢٧١٨.

١٥٥٥ البخاري: الوصايا، ٩/ ٢٧٥٠؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٤٥.

فلم يتمالك صفوان نفسه أمام هذا السخاء العجيب، فقال:

– أشهد ما طابت بهذا نفس أحدٍ قط إلا نبي، وأشهد أنك رسول الله.

فنطق صفوان بالشهادة ونال شرف الإسلام.[١٥٥٦]

وفيما بعد لما عاد صفوان ﷺ إلى قريش، قال:

– أي قوم! أسلموا. فوالله! إن محمدًا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر.[١٥٥٧]

وقد أجزل النبي ﷺ في العطاء مثل ذلك لما يقارب الأربعين من المؤلفة قلوبهم. مثل؛ أبي سفيان، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعباس بن مرداس، ومالك بن عوف.[١٥٥٨]

كان عباس بن مرداس شاعرًا من شعراء العرب، ولما أعطى النبي عليه الصلاة والسلام ما أعطى من الغنائم للمؤلفة قلوبهم كان من جملتهم بن مرداس، فاستقلَّ عطاءه، وقال شعرًا يعاتب فيه النبي عليه الصلاة والسلام ويشكوه قلة ما أعطاه إياه مقارنة بعطايا بقية أصحابه. فلما سمع رسول الله ﷺ شعره ناداه، وقال له:

– **لأقطعن لسانك!**

وقال لبلال:

– **إذا أمرتك أن تقطع لسانه فأعطه حلة.**

ثم قال:

– **يا بلال اذهب به فاقطع لسانه!**

فأخذ بلال بيده ليذهب به فجعل عباس يصرخ ويستغيث قائلًا:

– يا رسول الله أيقطع لساني؟ يا معشر المهاجرين أيقطع لساني؟ يا للمهاجرين أيقطع لساني؟

وبلال يجره، فلما أكثر عباس من الصراخ والاستنجاد قال له بلال ﷺ:

– إنما أمرني أن أكسوك حلة أقطع بها لسانك.

فذهب به فأعطاه حلة. وزاد له رسول الله ﷺ من نصيبه إلى مائة ناقة.[١٥٥٩]

١٥٥٦ الواقدي: المغازي، ٢، ٨٥٤ – ٨٥٥.

١٥٥٧ مسلم: الفضائل، ٥٧ – ٥٨.

١٥٥٨ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٤٤ – ٩٤٧.

١٥٥٩ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٧٣/ ٤٥٠؛ مسلم: الزكاة، ١٣٧/ ١٠٦٠.

وفي هذه الأثناء قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

– يا رسول الله! أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري ـ يعني أنه أفقر منهم وأشد حاجة، إذ كان أولئك القوم من الأغنياء ـ!

فقال رسول الله ﷺ:

– **أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها من مثل عيينة والأقرع ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه!**.[١٥٦٠]

إن الفهم الخاطئ لحكمة إكثار العطاء للمؤلفة قلوبهم من أموال الغنائم فتح الباب أمام تسرب اللغط والقيل والقال بين صفوف الصحابة الكرام، حتى بلغ الأمر برجل من بني تميم كان يُدعى ذو الحويصرة أن يتجاوز حده ويتجرأ على القول:

– يا رسول الله! اعدل!

فقال رسول الله ﷺ:

– **ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل**.[١٥٦١]

فلم يمض وقت طويل حتى أنزل الله تبارك وتعالى قوله:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[١٥٦٢]

لقد بينت هذه الآية الكريمة أنَّ تقسيم رسول الله ﷺ للغنائم إنما هو تقسيم إلهي جاء من لدن رب العالمين، وكذلك بينت الفرق بين القلوب الغافلة والقلوب السليمة.

لقد كان أغلب الذين اشتكوا من طريقة التقسيم واعترضوا عليها من الأنصار، وعلى كل الأحوال إن هذا التصرف الدال على الكرم والسخاء الجميل الذي أقدم عليه الرسول ﷺ لم يكن من عموم أموال الغنائم، وإنما كان من الخُمس الذي يعود حق التصرف فيه

١٥٦٠ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٤٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٤٦؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٤٨.

١٥٦١ مسلم: الزكاة، ١٤٨/ ١٠٦٤.

١٥٦٢ التوبة: ٥٨ – ٥٩.

وتوزيعه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحده دون غيره، إلا أن ذلك لم يمنع من تحرك مشاعر الغيرة لدى بعض شباب الأنصار.[١٥٦٣] ومن أجل قطع الطريق أمام هذه الاعتراضات التي ظهرت بين صفوف الصحابة ومنع الأمر من التفاقم، جمع النبي ﷺ الأنصار. فقعد لهم اجتماعًا خاصًا بهم دون أن يدعو إليه غيرهم، فذكرهم بالنعم الكثيرة والجليلة التي أحسن الله تعالى بها عليهم من أجل أن يدركوا جوانب المسألة والحكمة الأساسية منها، فخطب فيهم قائلًا:

- **يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي، ألم تكونوا ضلالًا فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألم آتكم عالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**

وفي كل مرة يسألهم النبي عليه الصلاة والسلام يقول الأنصار:

- بلى يا رسول الله! الله أمن وأفضل!

ثم تابع رسول الله ﷺ حديثه الجياش بالعاطفة:

- **أما والله، لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك!**

- **أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا؟ تألفت قوما ليسلموا؟ ووكلتكم إلى إسلامكم؟**

- **ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ في رحالكم؟**

فبينما كان النبي ﷺ يهمس بكلماته الرقيقة هذه في قلوبهم، انفجرت مآقيهم بالدموع، وبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا:

- قد رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، فاصنع يا رسول الله ﷺ ما شئت في أوسع الحل.

فبكى رسول الله ﷺ مع القوم أيضًا. وأثنى النبي عليه الصلاة والسلام على سلوك الأنصار وعلى هذا التسليم الكامل لله ولرسوله الذي أظهروه، وقال لهم:

١٥٦٣ كامل ميراث: ترجمة التجريد، ١٠، ٣٤١.

– **فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا؛ لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.**

وبعد هذا الاجتماع الفياض بالمشاعر الإنسانية والإيمانية المخلصة خرج الأنصار على قول واحد، وهو: «رضينا بالله وبرسوله». وأدركوا بفضل كلمات رسول الله ﷺ الحقيقة التي أخطؤوا في فهمها.[١٥٦٤]

هناك الكثير من العبر والدروس التي يمكن أن نستنتجها من هذا السلوك المثالي الذي تصرف به الرسول ﷺ. فالإنسان بطبيعته يُستمال بالإحسان والمعاملة الطيبة، فإن كان عدوًا تُزال من قلبه العداوة والبغضاء، وإن كان إنسانًا عاديًا يزداد قربه من المحسن، وإن كان قريبًا تزداد محبته.

والخلاصة؛ لقد ظهر في تقسيم هذه الغنائم بشكل جلي أحد تجليات الأسوة الحسنة التي هي من أعظم صفة اتصف بها رسول الله ﷺ.

وبعد أن أقام النبي عليه الصلاة والسلام في الجعرانة مدة عشرة أيام، غادر المكان مُحرمًا من أجل أداء مناسك العمرة.[١٥٦٥] ولذلك اعتبر من الأفضل لأهل مكة الذين يودون أداء العمرة الإحرام من الجعرانة.

جزاء قتل مسلم

كان النبي عليه الصلاة والسلام قبل خروجه من المدينة إلى مكة قد أرسل أبا قتادة رضي الله عنه على رأس قوة من المسلمين إلى بعض أطراف نجد، وذلك من أجل تضليل المشركين وإخفاء وجهته الأساسية. ولما وصلت هذه الفرقة إلى مكان يقال له «بطن أضم»، لقيهم رجل يُدعى عامر بن الأضبط. فألقى عامر على المسلمين السلام وأعلن إسلامه. إلا أن رجلًا ممن كانوا مع أبي قتادة يدُعى محلم بن جثامة وبسبب خلاف سابق بينه وبين عامر اتهمه بالنفاق وأنه أسلم خوفًا من القتل فعدا عليه وقتله، ثم أخذ ما كان معه غنيمة له.

١٥٦٤ البخاري: المغازي، ٥٦/ ٤٣٣٠/ ٤٣٣٣/ ٤٣٣٧؛ مسلم: الزكاة، ١٣٥/ ١٠٥٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ١٠، ٣١/ ١٦٤٧٥ ؛ أحمد: مسند، ١٨، ٢٥٣/ ١١٧٣٠.

١٥٦٥ البخاري: العمرة، ٣؛ الترمذي: الحج، ٩٢ / ٩٣٥.

ولما عاد أبو قتادة رضي الله عنه مع فرقته من نجد، أدرك النبي عليه الصلاة والسلام في وادي حنين، فوجده قد أنهى للتو صلاة الظهر وحوله الصحابة الكرام جالسون تحت ظل شجرة. ولما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بالحادثة التي جرت معه، نزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[١٥٦٦]

وفي تلك الأثناء جاء أقرباء عامر بن الأضبط إلى رسول الله ﷺ رافعين إليه شكواهم بحق محلم بن جثامة. وبعد محاكمة طويلة جرت في محضر النبي عليه الصلاة والسلام، رضي القوم بأخذ دية عامر، بعد أن كان اعترافـًا صريحـًا من محلم بإقدامه على فعلته عن قصد. ولذلك كان قتله لإنسان مسلم ودون أي وجه حق جرمـًا لا يمكن التغاضي عنه أو العفو عنه. إذ لو ظهر في هذا المجال أدنى قدر من المسامحة أو التساهل فسوف تنتشر مثل هذه الجرائم في المجتمع ولن يتمكن أحد بعد ذلك من الوقوف في وجهها أو الحد منها. ولهذا السبب فقد غضب النبي عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمة للعالمين من محلم لفظاعة وعظمة الجرم الذي اقترفته يداه.[١٥٦٧]

يقول الشاعر كمال أديب كوركجو أوغلو الذي تأثر بهذه الحادثة محذرًا الأمة من مختلف أنواع الأعمال والتصرفات التي تحرمهم من رضا رسول الله ﷺ عنهم:

يا حسرتاه على من يُحرم من تقديره وثنائه

فقد باء بالخسران في الدنيا والآخرة!

فغادر محلم وقد تعرض لغضب النبي ﷺ، فدخل بيته ولزمه. فما مكث محلم إلا سبعة أيام حتى وافته المنية. ولما دفنه أهله لم تقبل الأرض جسده فلفظته من القبر، ولما أعادوا دفنه مرة ثانية لفظته الأرض مجددًا، وكلما دفنوه تلفظه الأرض، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وهم في حيرة من أمرهم، فعرضوا عليه الأمر. فقال النبي ﷺ:

١٥٦٦ النساء: ٩٤.

١٥٦٧ انظر: أبو داود: الديات، ٣/ ٤٥٠٣؛ أحمد: مسند، ٥، ١١٢/ ٢٣٨٧٩؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٠٤.

«إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة، لا إله إلا الله»[١٥٦٨]

لقد تصرف النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الطريقة مبالغة في تحذير الناس من مثل هذه الأفعال الشنيعة، وليظهر للناس مدى حرمة وعظمة شأن «لا إله إلا الله»، ومدى عِظَم وقبح الإساءة إلى إنسان مسلم، أو قتله في سبيل تحقيق منفعة دنيوية زائلة.

إن هذه الحادثة تدل على وجوب اعتبار كل من نطق بكلمة التوحيد مسلمًا والتعامل معه على هذا الأساس. وبالتالي يحرم سوء الظن بإيمان من ينطق بالشهادتين، ما لم يصدر منه تصرف أو قول ظاهر وقطعي يدل على كفره.

وتدل هذه الحالة على أنه من الواجب على المسلمين الأخذ بظاهر الأمور والأحوال لدى إصدار الأحكام بحق الناس. وذلك لأنه إن لم نأمن من احتمال وقوع بعض الأخطاء عند الحكم على ظواهر الناس الجلية الواضحة، فكيف سنأمن من ارتكاب الأخطاء عندما نحكم عليهم استنادًا إلى أحوالهم الخفية التي يستحيل إثباتها، اللهم إلا إذا صرح بها الإنسان بنفسه! ففي مثل هذه الحالات سوف يلجأ من يحكم على الناس إلى قناعاته ووجهات نظره الشخصية التي يكوّنها تجاه إنسان ما عندما يريد الحكم عليه، ومثل هذه القناعات الشخصية غالبا ما تقود الإنسان إلى مظالم كثيرة، لأن القناعة الشخصية تتبع مزاج الإنسان المتغير الذي لا يخضع لأي معيار ثابت.

ومن أحد الأسباب الأخرى لإقرار مبدأ الحكم وفق ظاهر حال الناس هو سد الطريق أمام بعض الناس الذين يرتكبون الأخطاء والذنوب متعللين بمقولة «انظر إلى قلبي ولا تنظر إلى عملي». فهذه الحيلة التي يتذرع بها الناس كثيرًا في وقتنا الحاضر قد تم القضاء عليها من خلال المبدأ الذي أقره الإسلام، وطبقه النبي عليه الصلاة والسلام في الحياة العملية، فالحكم على الظاهر والله يتولى السرائر.

إن الحكم وفق ظاهر الحال وإن بدا أنه يتضمن خللًا لما يمنحه للمنافقين من إمكانية إخفاء أسرارهم وحالات نفاقهم مدة من الزمن من خلال الأعمال الصالحة التي يظهرونها، إلا أنه مع ذلك يمنع من الوقوع في كثير من المحظورات الخطيرة التي قد تتولد من تطبيق العدالة عن طريق الاعتماد على الأدلة الظنية.

١٥٦٨ ابن ماجه: الفتن، ١/ ٣٩٣٠؛ أحمد: مسند، ٥، ١١٢؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٠٢؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩١٩.

تعيين والي مكة ومعلمها

لقد عين النبي عليه الصلاة والسلام قبل مغادرته مكة المكرمة عتاب بن أسيد ﷺ واليـًا عليها، وذلك من أجل إدارة شؤون المدينة، وتنظيم أعمال المسلمين أثناء الحج. وكان عتاب بن أسيد ﷺ قد تم استخلافه على مكة أيضـًا عندما خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى غزوة حنين.[١٥٦٩]

لقد كان عتاب ﷺ له من العمر عشرون عامـًا لما تم تعيينه واليـًا.[١٥٧٠] بينما كان في مكة من هو أكبر منه سنـًا من أصحاب الفضل. ونستنتج من هذه الحادثة أن المناصب يجب أن تُسند إلى من هم أهل لها من حيث الفضل والقدرة، أي تعطى للصالحين من أصحاب العلم والدراية، والفضيلة، والتقوى، والورع.

وفي نفس السياق، إذا ما نظرنا إلى سير الإسلام الذي وصلنا جيلًا بعد جيل، نجد أن أكثر الصحابة الذين قاموا بالمهام العظيمة كانوا من الشباب مثل عتاب بن أسيد ﷺ. فمثلًا؛ كان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ﷺ من أكثر الصحابة رواية للحديث، وكان لهما من العمر ثلاثة عشر عامـًا عندما توفي النبي عليه الصلاة والسلام، وأيضـًا أنس بن مالك، وابن مسعود، وأم المؤمنين السيدة عائشة التي قامت بدور مهم في تعليم النساء أمور الإسلام كانوا في الثامنة عشر عامـًا من عمرهم عند وفاة رسول الله ﷺ. والأمر نفسه في بيعة العقبة الأولى والثانية حيث كان الشباب يشكلون النسبة الأكبر فيهما. وكذلك كان أغلب شهداء بئر معونة الذين استشهدوا في سبيل القيام بتبليغ الإسلام من الشباب. وهذه الحالة تشكل دليلًا على أهمية وضرورة إيلاء اهتمام كبير للشباب الذين سوف يُحمّلون أعباء جليلة في مستقبل الإسلام، وكذلك بذل جهد فائق في تربيتهم وتعليمهم.

لقد كان رسول الله ﷺ يريد للمسلمين الذين أسلموا حديثـًا تعلم القرآن الكريم، وسنته الشريفة بأسرع وقت ممكن. ولهذا السبب فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعهد بالقادمين إليه ممن أعلنوا الإسلام إلى أصحابه الكرام لعدة أيام وكأنه يخضعهم

١٥٦٩ ابن هشام: السيرة، ٤، ٦٩، ١٤٨.

١٥٧٠ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٣، ٥٥٦.

إلى دورات مكثفة في تعليم الإسلام. وفي كل صباح عندما يأتي هؤلاء إليه يطلع على ما تعلموه من الصحابة، فإن رأى فيما تعلموه نقصًا أرسلهم إلى صحابة آخرين، وهدفه من ذلك أن يتعلم الناس الإسلام على وجهه الصحيح والسليم.

ومن دلائل هذا الاهتمام والحساسية الدقيقة لدى النبي عليه الصلاة والسلام أنه خلف في مكة كلًا من معاذ بن جبل، [١٥٧١] وأبي موسى الأشعري[١٥٧٢] رضي الله عنهما من أجل أن يعلموا أهل مكة الفقه والقرآن الكريم. وهذه الحالة تشكل دليلًا قاطعًا على وجوب اهتمامنا كثيرًا بمسألة التربية والتعليم الإسلامي.

١٥٧١ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٤٨ – ١٤٩؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٣٠٣/ ٥١٨١.

١٥٧٢ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٥٩.

السنة التاسعة للهجرة

سيف اللسان

أرسل النبي ﷺ عيينة رضي الله عنه على رأس قوة من المسلمين إلى بني تميم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة. فأغار عيينة رضي الله عنه على بني تميم على حين غرة فهزمهم، وأسر منهم وأصاب غنائم كثيرة من أموالهم، ثم عاد بالأسرى والغنائم إلى المدينة المنورة.[١٥٧٣]

فشكل أشراف بني تميم وفدًا كبيرًا واصطحبوا معهم شعراءهم ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ لإنقاذ أسراهم. فنزلوا في مسجد رسول الله ﷺ ينتظرون مقدمه، فلما تأخر عليهم النبي ﷺ ضاقوا ذرعًا، ونفد صبرهم، فأخذوا يصرخون وينادون دون أي احترام:

- اخرج إلينا يا محمد!

فآذى ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم، ونزل في ذلك قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١٥٧٤]

وبعد أن صلى نور الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم صلاة الظهر، جلس في فناء المسجد. فقال له بنو تميم:

- يا محمد جئناك بشاعرنا وخطيبنا، لنشاعرك ونفاخرك!

فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام:

- **ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أُمرنا! ولكن هاتوا!**.[١٥٧٥]

فقام رجل من بني تميم فخطب خطبة بليغة. فأشار النبي ﷺ إلى الصحابي ثابت بن قيس رضي الله عنه خطيب رسول الله ﷺ ليرد عليه، فقام ثابت فحمد الله تعالى وأثنا عليه وألقى خطبة حول عظمة الخالق عز وجل ونبوة رسول الله ﷺ، فغلب خطيبَ بني تميم.

١٥٧٣ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٦٠.

١٥٧٤ الحجرات: ٤. ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٢٣، ٢٣٣.

١٥٧٥ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٢٠٨/١٢٨.

ثم قام أحد شعراء بني تميم وهو الزبرقان بن بدر ينشد شعرًا، فرد عليه شاعر الإسلام المشهور حسان بن ثابت ﵁، حيث ارتجل قصيدة في غاية البلاغة والتأثير عن شرف الإسلام، وعلو شأنه ورفعة مقامه.

لقد كان تفوق الصحابة في الشعر والخطابة نابعًا من ارتباطهم القلبي بالقرآن الكريم، الكتاب الإلهي المعجز ببلاغته وفصاحته. إضافة إلى التنشئة والتربية الرائعة التي تلقوها على يد أبلغ وأفصح البشر لسانـًا وبيانـًا، والذي أوتي «جوامع الكلم» سيدنا محمد ﷺ.

ويصف أحد الشعراء هذا الفيض الذي ينعكس من النبي ﷺ على من حوله، فيقول:

من يراه لحظة يصبح وردة مزهرة!

ومن يسمع حديثه يصير بلبلًا مغردًا!

ولذلك قال شاعر بني تميم الأقرع بن حابس الذي أدرك هذه الحقيقة:

- وأبي! إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا!

فلما فرغ القوم أسلموا، ومنحهم النبي ﷺ هدايا وجوائز وأحسن إليهم.[١٥٧٦]

وفي تلك الأثناء حدث جدال بسيط بين أبي بكر وعمر ﵄ فتعالت أصواتهما في حضرة النبي ﷺ، فنزل بسبب ذلك قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١٥٧٧]

فما كان عمر ﵁ - بعد هذه الآية - يُسمع رسول الله ﷺ لشدة ما يخفض من صوته في حضوره تأدبًا بين يديه، حتى كان النبي ﷺ كثيرًا ما يستفهمه ويستعيده الكلام.[١٥٧٨]

وكان سائر الصحابة رضوان الله عليهم يُكنون لرسول الله ﷺ مشاعر خالصة من الاحترام والتعظيم. ولا يألون جهدًا في التأدب بين يديه عليه الصلاة والسلام. حتى إن

١٥٧٦ ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٣٢.

١٥٧٧ الحجرات: ١ - ٢.

١٥٧٨ البخاري: المغازي، ٦٨.

أحد الصحابة ممن كان يتمتع بصوت رخيم وجهوري لما سمع الآية الكريمة اعترته خشية عظيمة من أن يكون قد تسبب صوته أمام النبي عليه الصلاة والسلام بإحباط عمله، فدخل بيته وأغلق على نفسه الباب وهو مهموم محزون. فلم يهدأ له بال إلى أن واساه النبي عليه الصلاة والسلام وطمأنه.[١٥٧٩]

ولم يكن الصحابة الكرام لما يجلسون مع النبي عليه الصلاة والسلام على مائدة طعام واحدة يمدون أيديهم إلى الطعام قبله.[١٥٨٠] وعندما كانوا يريدون الاستئذان عليه في بيته فإنهم يطرقون بابه برؤوس أصابعهم، ويحرصون على الابتعاد عن كل ما من شأنه التسبب بإقلاق راحته وإزعاجه.[١٥٨١] وكانوا إذا تحدثوا عنه يبالغون في الانتباه لما يصدر عنهم من الكلام، ويشبهون الرسول ﷺ بالشمس والقمر.[١٥٨٢] ولدى رواية أحاديثه الشريفة كانوا يظهرون الدقة وبالغ الاحترام والتعظيم، فكانت تتغير ألوانهم عند رواية الحديث، ويسيل العرق على جباههم، وتفيض عيونهم بالدمع.[١٥٨٣] وكانوا إذا ما سمعوا أصوات ضرب المعاول أو طرق المسامير أو ما شابه ذلك من البيوت المجاورة للمسجد النبوي يسارعون إلى إرسال من ينبّه أصحاب البيوت بقولهم: «لا تزعجوا رسول الله عليه الصلاة والسلام». حتى إن بعضهم كان يأخذ أبواب بيته خارج المدينة فيصلحها هناك.[١٥٨٤]

كان كعب بن زهير من الشعراء الذين أعلنوا الحرب على الإسلام في السابق، وقد أُهدر دمه وأُمر بقتله حيثما وجد بسبب ما نظمها ضد الإسلام من قصائد الهجاء، إلا أن أخاه بجير الذي كان قد دخل الإسلام كتب إليه قصيدة نصحه فيها، وأعلمه بالعاقبة المحزنة والوخيمة التي سوف يلقاها إن هو استمر في النهج الذي يسير عليه. فلما سمع كعب ذلك أصابه القلق والاضطراب فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بدلالة أحد الصحابة الكرام، وبايعه دون أن يذكر اسمه. وجثا على ركبتيه، ثم قال:

١٥٧٩ البخاري: التفسير، ٤٩ / ١.

١٥٨٠ أبو داود: الأطعمة، ١٥ / ٣٧٦٦.

١٥٨١ البخاري: الأدب المفرد، ص، ٣١٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٤٠.

١٥٨٢ مسلم: الفضائل، ١٠٩.

١٥٨٣ ابن سعد: الطبقات، ٣، ١٥٦؛ ابن ماجه: المقدمة، ٣٨؛ الدارمي: المقدمة، ٢٨.

١٥٨٤ القسطلاني: ٢، ٣٨٦.

– يا رسول الله! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

– فلما قال النبي ﷺ: **نعم**. قال بكل سرور:

– أنا يا رسول الله! كعب بن زهير!.[١٥٨٥]

وتعبيرًا عن شكره وامتنانه لهذا العفو الذي أصدره النبي ﷺ بحقه بدأ بإلقاء قصيدته الشهيرة «بانت سعاد»، والتي كان قد نظمها قبل حضوره بين يدي رسول الله ﷺ. فزاد سرور النبي ﷺ بإسلام كعب بن زهير حتى خلع بردته الشريفة عن كتفه المبارك وألبسها كعبًا ﷺ. وبذلك أُطلق على القصيدة التي نظمها كعب ﷺ اسم «قصيدة البردة«إشارة إلى بردة رسول الله ﷺ التي ألبسها كعبًا.

وبعد وفاة كعب بن زهير ﷺ اشترى معاوية بن أبي سفيان ﷺ هذه البردة الشريفة. وصار يتوارثها الخلفاء والسلاطين إلى أن وصلت إلينا، إذ إنها في الوقت الحالي محفوظة في قصر طوب قابي في اسطنبول.

وثمة قصيدة أخرى مشهورة باسم «قصيدة البردة»، وهي القصيدة التي نظمها الإمام البوصيري رحمه الله تعالى.[١٥٨٦] إلا أن الاسم الحقيقي لهذه القصيدة هو «قصيدة البُرءة». والبرءة تأتي بمعنى الشفاء من المرض، إذ إن الإمام البوصيري شُفي من الشلل ببركة هذه القصيدة التي نظمها في مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام توسلًا به من أجل الشفاء من مرضه، فسميت القصيدة بـ «قصيدة البُرءة«. وفيما يلي الحادثة التي جرت مع الإمام البوصيري:

أصيب الإمام البوصيري رحمه الله تعالى ذات يوم بالفالج «وهو الشلل النصفي». فكتب قصيدة البرءة وأخذ يقرأها ويتوسل ويتضرع إلى الله تعالى سائلًا الشفاء من مرضه. وفي الليلة التي أنهى فيها نظم القصيدة وأكثر من إنشادها والتوسل بها رأى رسول الله ﷺ في الرؤيا فقرأ عليه هذه القصيدة. فأعجبت القصيدة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فمسح بيده المباركة على المكان الذي أصيب بالفالج من جسد الإمام البوصيري رحمه

١٥٨٥ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٥٢؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٦٧٥ / ٦٤٨٠؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٣٩٣.

١٥٨٦ محمد بن سعيد البوصيري، شاعر صوفي مصري عاش في العصر المملوكي «٦٠٨ / ١٢١١– ٦٩٤/ ١٢٩٦». (إبراهيم شنر: قصيدة البردة، وقصيدة البرءة، وقصيدة الماء، ص، ٣٢، ٦٠)

الله. فلما نهض الإمام من نومه لم يشاهد أي أثر للمرض على جسمه وأخذ يمشي سليمًا معافى، فشكر الله تعالى على الشفاء وحمده. وفي الصباح بينما كان متجهًا إلى المسجد وتغمره مشاعر الشكر والسرور التقى بالولي الكبير وصاحب الكشوف الشيخ أبو الرجاء. فقال له الشيخ أبو الرجاء:

- يا إمام! ألا تقرأ علي القصيدة التي مدحت فيها فخر العالمين ﷺ؟

قال الإمام البوصيري:

- إن لي قصائد كثيرة. فعن أيها تسأل؟

فقال الشيخ أبو الرجاء:

- أريد القصيدة التي قرأتها الليلة على رسول الله ﷺ! لأني رأيت رسول الله ﷺ قد سُر كثيرًا عندما قرأت عليه هذه القصيدة!

فسأل الإمام البوصيري والحيرة والدهشة تعلو وجهه:

- من أين علمتم بالأمر، وما أخبرت أحدًا بأمر القصيدة التي نظمتُها، ولا بأمر الرؤيا التي رأيتها الليلة؟

فأجاب الشيخ أبو الرجاء بقوله:

- يا إمام! كنت أنا أيضًا هناك! وقرأ عليه مطلع القصيدة:

أمن تذكر جيران بذي سلم،

مزجت دمعا جرى من مقلة بدمٍ.[١٥٨٧]

ووفقًا لما جاء في الرواية، فإن النبي عليه الصلاة والسلام كان أثناء قراءة هذه القصيدة يحرك جسمه المبارك وهو يتبسم سرورًا بها وكأنه الخمائل تهدهدها النسمات الرقيقة.

ولهذا استمر الناس حتى عصرنا الحاضر في قراءة هذه القصيدة ضمن أصول معينة توسلًا واستشفاعًا بالنبي عليه الصلاة والسلام، فيتم التوسل بمدح الرسول ﷺ إلى الله ﷻ والالتجاء إليه استشفاءً للمرضى.[١٥٨٨]

١٥٨٧ سلم: اسم لمكان بالمدينة المنورة ذي أشجار، وكان النبي ﷺ يجلس فيه بين الحين والآخر مع أصحابه الكرام.

١٥٨٨ أنظر: إيلخان أرموطجي أوغلي، قصيدة البردة، قونيا، ١٩٨٣، ص، ٨ – ١١.

تبينوا من نبأ الفاسق!

في السنة التاسعة للهجرة أرسل النبي ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق من أجل جمع أموال الزكاة. فخرج جمع غفير من أبناء القبيلة لاستقباله، فلما رأى الوليد الجمع الذي اجتمع لاستقباله دخل الخوف منهم في قلبه، وظن بأنهم قد اجتمعوا لقتله بسبب خلاف سابق بينه وبينهم في زمن الجاهلية. فقفل الوليد عائدًا إلى المدينة المنورة وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بخبر القوم على غير الحقيقة، وافترى عليهم، حيث قال:

- يا رسول الله! إنهم ارتدوا عن دينهم، وامتنعوا عن دفع الزكاة، وكاد القوم أن يقتلوني.

فجهز النبي ﷺ وحدة عسكرية من المجاهدين من أجل إرسالها إلى بني المصطلق. فلما سمع بنو المصطلق بالخبر، توجه الجمع الذي اجتمع من أجل استقبال الوليد بن عقبة إلى المدينة في الحال. فالتقوا في المدينة بالكتيبة التي كانت قد تجهزت للخروج إليهم، فأطلعوهم على حقيقة الأمر. وفي هذه الأثناء أنزل الله ﷻ الوحي على رسول الله ﷺ يحذر المؤمنين التسرع في الحكم على الشيء قبل التحقق منه، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[١٥٨٩]

وبعث رسول الله ﷺ معهم عَبّاد بن بشر رضي الله عنه يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن، فلم يَعْدُ ما أمره رسول الله ﷺ ولم يضيع حقـًا، وأقام عندهم عشرًا يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ راضيـًا.[١٥٩٠]

قد ينتشر أحيانًا خبر كاذب يشيعه بين الناس إنسان فاسق، فتتناقله ألسنة صادقة بعفوية وسذاجة دون تدقيق أو تحقيق، فيتسببون بالأذى والمشاكل من حيث لا يعلمون. فلذلك

١٥٨٩ الحجرات: ٦ – ٧.

١٥٩٠ أحمد: مسند، ٤، ٢٧٩؛ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٤٠ – ٣٤١؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٦١.

ينبغي أن نعلم بأنه من موجبات التحلي بالمسؤولية الالتزام بالتأني والتمحيص في الأنباء التي يتلقاها المرء وعدم الإسراع إلى تصديقها ونشرها حتى وإن كان راويها وناقلها غير فاسق. لأن الخبر وإن كان صحيحًا ولا يترتب عليه محظور، فلا يُؤمن أن يسوق ناقله أو ناشره إلى التعدي على حقوق العباد والوقوع في خطيئة الغيبة التي تُعد من كبائر الذنوب. ولهذا السبب ينبغي دائما أخذ الحيطة والحذر تجاه المرويات السلبية التي تتناقلها الألسنة.

غزوة تبوك: الامتحان الإيماني الكبير

«رجب ٩ / تشرين الأول – تشرين الثاني ٦٣٠»

تبوك؛ اسم لمدينة تقع بين الشام والمدينة المنورة، والغزوة التي خرج فيها المسلمون إليها كانت الغزوة الأخيرة التي اشترك فيها رسول الله ﷺ. وهذه الغزوة كانت بمثابة امتداد لمعركة مؤتة، حيث إن امبراطور الروم بسبب التأثير الذي أحدثته عليه معركة مؤتة كان ينوي الاستيلاء على سائر شبه الجزيرة العربية بأسرع وقت ممكن قبل توسع المسلمين وازدياد قوتهم ونفوذهم. وأراد استخدام نصارى العرب أيضًا في تحقيق هدفه المنشود. ولم يلق في هذا الأمر كثير عناء، إذ إن الغساسنة المرشحين لهذا الدور كانوا جاهزين لمثل هذه العملية في وقت سابق وينتظرون الفرصة السانحة. وبينما كان الوضع يسير على هذا النحو داخل الامبراطورية الرومانية، وتجري التحضيرات على قدم وساق، انتقل الخبر إلى المدينة المنورة عن طريق القوافل التجارية القادمة إليها، حيث أخبر التجارُ المسلمينَ في المدينة بأن العدو يتحضر لحرب كبيرة، وأنهم سوف ينفذون هجومًا مباغتًا على المدينة.

وبناء على ذلك أعلن النبي عليه الصلاة والسلام النفير العام. كان رسول الله ﷺ إلى تلك اللحظة يحيط كل تحركاته العسكرية بسرية تامة، ويحتاط كثيرًا حتى لا يطَّلع العدو على شيء منها. إلا أن الحالة كانت مختلفة تمامًا في غزوة تبوك. وذلك لأسباب، حيث إن الزمن كان في أشد أيام فصل الصيف حرارة، والعدو يمتلك قوة هائلة، والمكان الذي يقصده بعيد جدًا. وعلاوة على ذلك كان المسلمون يعانون من ضائقة شديدة من الناحية الاقتصادية بسبب القحط والجفاف الذي ضرب المدينة ذلك العام.[١٥٩١]

١٥٩١ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٦٥؛ البخاري: التفسير، ٦٦ / ٢.

وعاد المنافقون – وقد وجدوا في كل ما ذكرناه فرصة نادرة – إلى مكائدهم وفتنهم السابقة، ونهضوا ينشطون في سبيل تثبيط همم المسلمين والحط من روحهم المعنوية. فكان رأس المنافقين عبد الله بن أبي يقول:

يحسب محمد أن قتال بني الأصفر ـ يقصد الروم ـ اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين في الحبال!

وبدأ بعض المنافقين بقولون: أيكون الخروج في هذا الحر؟

فجاء الرد الإلهي عليهم في قول الله تبارك وتعالى:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[١٥٩٢]

وقدم بعض الأعراب أعذارًا إلى النبي ﷺ من أجل عدم الخروج في هذه الغزوة، فأذن لهم. ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٥٩٣]

وبعد ذلك وضع الله ﷻ معيارًا واضحًا للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، حيث قال:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١٥٩٤]

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١٥٩٥]

١٥٩٢ التوبة، ٨١.

١٥٩٣ التوبة: ٩٠. الواقدي: المغازي، ٣، ٩٩٣ – ٩٩٦؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٦٥.

١٥٩٤ التوبة: ٤٢.

١٥٩٥ التوبة: ٤٤ – ٤٥.

وحين لم يقم المنافقون بأي تحضيرات من أجل هذه الغزوة، كشف ذلك نيتهم المسبقة بعدم الخروج مع المؤمنين فيها. ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً...﴾[١٥٩٦]

وهكذا فلقد كان انفضاح أمر المنافقين في هذا اليوم، وعدم انضماهم إلى جيش المسلمين لطفـًا إلهيـًا بحق المؤمنين. إذ إن عبد الله بن أبي قد تصرف في هذه الغزوة كما تصرف في غزوة أحد عندما عاد منها. ويقول الله تبارك وتعالى في هذا الشأن:

﴿...وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[١٥٩٧]

فلو خرج المنافقون – بعد كل ما أظهروه من خبث وسوء طوية – إلى هذ المعركة فإنهم سيشيعون الفوضى العارمة بين صفوف المسلمين ويلحقون بهم أشد الضرر، إذ إنهم كانوا سيفسدون على جيش المسلمين طمأنينتهم ويحبطون معنوياتهم من خلال إشاعة الفتن، ونشر الأكاذيب والافتراءات، وكأنَّ كلًا منهم قد تحول إلى وباء يبث الاضطراب في أجساد المؤمنين. فحال اللطف الإلهي بالمؤمنين دون انضمام المنافقين إلى جيشهم، وأنقذ الصحابة من فتنتهم وتثبيطهم وخذلانهم.

لقد كان المنافقون يقدمون أعذارًا متنوعة طالبين الإذن بالبقاء وعدم الخروج إلى المعركة. وقد بالغوا في الأعذار التي قدموها، حتى وصل ببعضهم أن اعتذر عن الخروج بسبب خوفه على نفسه من الافتتان بفتيات الروم إن رآهن أمام عينيه. وبذلك كانوا يعملون جهد طاقتهم على إخفاء نفاقهم الذي لم يعد خافيـًا على أحد. إلا أن الله تعالى قد فضح أحوالهم هذه أيضـًا، حيث قال في كتابه العزيز:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١٥٩٨]

وكان الله ﷻ من جهة يهدد المنافقين بالعذاب الأليم، ومن جهة أخرى يحذر من وقع من المؤمنين تحت تأثير المنافقين ويوقظهم من غفلتهم، حيث قال الله تبارك وتعالى:

١٥٩٦ التوبة: ٤٦.

١٥٩٧ التوبة: ٤٦ – ٤٧.

١٥٩٨ التوبة: ٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٥٩٩]

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١٦٠٠]

وبهذه التحذيرات الربانية انبعثت الحيوية من جديد بين صفوف المؤمنين. فحل الثبات بدل التردد. والنفير المليء بالحماس والإقدام بدل التخاذل والإحباط. لأن الجهاد كان فرض عين في حال تعرض الدولة الإسلامية إلى هجوم العدو، وكان كل مؤمن مكلفـًا بأداء هذه الفريضة المقدسة. وأما غير المكلفين بهذه الفريضة والمعذورون في عدم خروجهم إلى الجهاد، فقد بينهم الله تعالى في كتابه العزيز، حيث قال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٦٠١]

ووفقـًا للآية الكريمة فإن الله ﷻ اشترط على من أُعذروا في الخروج إلى هذه الغزوة – حتى لا يقعوا في الإثم – أن لا يثيروا الفتن في البلاد، ولا ينشروا الافتراءات والأنباء الكاذبة، وأن يعينوا عوائل الذين خرجوا إلى الجهاد، ويعملوا صالحـًا. ولكن الله تعالى ترك الباب مفتوحـًا لمن أحب من هؤلاء الالتحاق بالجيش رغم عذره شرط أن لا يشكل انضمامهم حملًا عليه، وأن لا يعيق تحركه.

وأثناء استكمال الاستعدادات والتحضيرات اللازمة لهذه الغزوة كان يحيط بالصحابة الكرام حماس يفوق الوصف سرورًا بخروجهم إلى هذه المعركة التي يمكن أن تتيح لهم فرصة التضحية بأرواحهم في سبيل الله تعالى ورسوله ﷺ. وفي غمرة هذا الحماس والبهجة التي كانت سائدة بين الصحابة الكرام، كان هناك سبعة فقراء منهم لا يجدون ما

١٥٩٩ التوبة: ٣٨ – ٣٩.

١٦٠٠ التوبة: ٤١.

١٦٠١ التوبة: ٩١.

يركبونه للخروج معهم والاشتراك في القيام بواجب الجهاد المقدس. بينما كان غالبية المجاهدين سوف يتناوبون على ركوب الدواب، حيث يتناوب كل اثنان من الصحابة، أو حتى ثلاثة على ركوب دابة واحدة. إلا أنه كان يوجد بين الصحابة من الفقراء من يتوق بصدق إلى الاشتراك في هذه الغزوة ونيل شرف صحبة النبي الصلاة والسلام فيها، لكنه لا يستطيع حتى الحصول على دابة يركبها ولو بالتناوب مع غيره. فجاؤوا إلى النبي الصلاة والسلام يشكون إليه حالهم. ولما سمعوا الرد بأنه «لا أجد ما أحملكم عليه»أجهشوا بالبكاء. فلقيت هذه الدموع التي ذُرفت في سبيل الله تعالى القبول الإلهي، فأنزل الله ﷻ قوله:

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[١٦٠٢]

ولما عاد عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهما - وهما ممن كانوا مظهرًا للالتفات الإلهي في الآية الكريمة المذكورة آنفـًا - لما عادا من عند رسول الله ﷺ وهما يبكيان، سألهما ابن يامين:

- وما يبكيكما؟

قالا:

- جئنا إلى رسول الله ﷺ ليحملنا، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما ننفق به على الخروج، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام!

فأعطاهما ابن يامين دابة يخرجان بها مع الجيش، وزود كل رجل منهما بشيءٍ من التمر. وأعطى العباس رضي الله عنه دابة لاثنين من هؤلاء الذين سُموا بالبكائين لشدة بكائهم، وأعطى عثمان بن عفان رضي الله عنه دابة لثلاثة منهم.[١٦٠٣] وفيما بعد أمّن النبي عليه الصلاة والسلام بعض الدواب لقسم من ذوي الحاجة والفقراء.[١٦٠٤] فنال هؤلاء الصحابة الذين ثقل عليهم فراق النبي عليه الصلاة والسلام وامتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى على الرغم من إعفائهم من الخروج، نالوا في النهاية شرف ونعمة الانضمام إلى هذه الغزوة.

١٦٠٢ التوبة: ٩٢.

١٦٠٣ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٧٢؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٩٤.

١٦٠٤ البخاري: المغازي، ٧٨.

فهذا واحد من الأمثلة الكثيرة التي تفوق الحصر، والتي تظهر بناء الصحابة الكرام القلبي والروحي، وإقدامهم على التضحية بأموالهم وأرواحهم في سبيل الحق ﷻ.

ونورد فيما يأتي ذكرى من ذكريات تبوك المليئة بالعبر، حيث يقول واثلة بن الأسقع ﷺ:

«كان رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فخرجت إلى أهلي فأقبلت، وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ، فطفقت في المدينة أنادي ألا من يحمل رجلا له سهمه؟ فنادى شيخ من الأنصار قال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة وطعامه معنا. قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله تعالى. قال: فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا، فأصابني قلائص فسقتهن حتى أتيته، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات فقال: ما أرى قلائصك إلا كراما. قال: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك. قال: خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهمك أردنا» [١٦٠٥]

لقد كانت هذه الغزوة بما فيها من مواقف وعِبَر تدوّن صفحات رائعة من المسارعة إلى التضحية بالأموال والأنفس في سبيل الفوز بالسعادة الأبدية، ولتشكل نماذج خالدة للأمة المحمدية إلى يوم القيامة. لقد كان الصحابة الكرام يتزاحمون حول النبي ﷺ ويتسابقون في خدمته مثل فراشات تتسابق إلى ضوء السراج وتدور في فلكه، ويناودنه بعبارات تدل على استعدادهم للتضحية بأغلى ما يملكون في سبيل الله ورسوله، بقولهم:

«بأمي، وأبي، ونفسي أنت يا رسول الله!».

لقد استمر الصحابة الكرام بهذا الشوق والحماس إلى نهاية حياتهم، فها هو ابن أم مكتوم ﷺ يختار أن يكون من المتقين الذين ذكرهم الله في الآية التي أوردناها سابقـًا، فينضم إلى جيش المسلمين في معركة القادسية على الرغم من فقد عينيه، حتى إنه حمل راية المسلمين في المعركة.

فبتأثير المواعظ والتحذيرات التي وردت في الآيات الكريمة تم تجهيز جيش إسلامي عظيم خلال فترة قصيرة جدًا. لقد كان عدد المجاهدين يزيد عن ثلاثين ألفـًا.[١٦٠٦] أعطى رسول الله ﷺ راية بني مالك بن النجار إلى عمارة بن حمزة. ولما رأى بعد ذلك زيد بن ثابت ﷺ أخذ الراية من عمارة وأعطاها لزيد. فقال عمارة ﷺ:

١٦٠٥ أبو داود: الجهاد، ١١٣ / ٢٦٧٦.

١٦٠٦ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٠٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٦٦.

يا رسول الله! لعلك وجدت علي؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لا والله! ولكن قدموا القرآن! وكان أكثر أخذًا للقرآن منك، والقرآن يُقدم، وإن كان عبدًا أسود مجدعـًا»

وأمر في الأوس والخزرج أن يحمل رايتهم أكثرهم أخذًا للقرآن الكريم، وبناء على ذلك؛ كان أبو زيد يحمل راية بني عمرو بن عوف، وكان معاذ بن جبل ﷺ يحمل راية بني سلمة.[١٦٠٧]

حملة الإنفاق

قبل الخروج بالجيش إلى المعركة، دعا النبي ﷺ الصحابة الكرام إلى حملة واسعة للإنفاق من أجل تأمين احتياجات الجيش. في حين كانت المدينة المنورة ترزح تحت ظروف اقتصادية قاسية نتيجة الجدب الذي حل بها ذلك العام. ولكن على الرغم من ذلك فقد نحَّى الصحابة الكرام بكل عزيمة وإيمان كل الأفكار التي تدور حول المنافع الدنيوية المؤقتة والفانية جانبـًا، ودخلوا في سباق عظيم في التضحية والإنفاق. فجاء أبو بكر الصديق ﷺ بكل ماله ووضعه بين يدي رسول الله ﷺ. فلما قال النبي ﷺ:

- **ما نفعني مالٌ قط، ما نفعني مال أبي بكر!**

فبكى أبو بكر ﷺ وسالت دموعه، وقال:

- هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله!؟.[١٦٠٨]

فأثبت أبو بكر ﷺ بقاله وحاله بأنه قد نذر نفسه وماله لرسول الله ﷺ، وصار فانيـًا فيه.

ولما سأله النبي عليه الصلاة والسلام:

- **يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟**

فقال أبو بكر ﷺ بوجد إيماني كبير:

- أبقيت لهم الله ورسوله!.[١٦٠٩]

لقد كان عمر بن الخطاب ﷺ قد جاء إلى رسول الله ﷺ بنصف ماله. وكان يعتقد بأنه قد سبق أبا بكر ﷺ في مسألة الإنفاق. إلا أنه لم يلحق به هذه المرة أيضـًا.

١٦٠٧ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٠٣.

١٦٠٨ ابن ماجه: المقدمة، ١١/ ٩٤.

١٦٠٩ الترمذي: المناقب، ١٦/ ٣٦٧٥.

وأما عثمان بن عفان ﷺ فقد أهدى جيش المسلمين ثلاثمائة بعير بكامل تجهيزاتها، إضافة إلى تقديمه ألف دينار. فقال النبي عليه الصلاة والسلام عن عثمان ﷺ:

«ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه!»[١٦١٠]

وإضافة إلى ذلك فقد أنفقت عائلة عثمان ﷺ أيضـًا سائر مجوهراتها في سبيل الله تعالى. وكذلك فعل جميع الصحابيات، حيث حملن كل ما لديهن من المجوهرات وأشياء الزينة وجئن بها إلى رسول الله ﷺ.[١٦١١] حتى إن فتاة مؤمنة صغيرة في الحادية عشرة من عمرها أرادت أن تتبرع بقرط لها كان قد وضع في أذنها وهي صغيرة، فلما لم تتمكن من خلعه، شدته من شحمة أذنها من فرط حماسها فمزقت شحمتها، وجاءت بالقرط إلى النبي عليه الصلاة والسلام فوضعته أمامه وما زال أثر الدم عليه.

وأما فقراء الصحابة الذين لم يجدوا ما ينفقونه في سبيل الله، فقد كانت تغلي بين جوانحهم مشاعر رغبة جارفة في التضحية بأرواحهم وما يملكون من المال القليل. وكان من هؤلاء الصحابة أبو عقيل ﷺ، حيث ظل يعمل مدة ليلة كاملة فكسب من عمله صاعين من تمر، فأعطى صاعـًا لأهله، وأهدى الصاع الآخر لجيش المسلمين. فقال النبي ﷺ:

«بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت!»

ثم أمر النبي ﷺ أن يوضع ما جاء به أبو عقيل ﷺ بين الأموال التي قدمها المسلمون.

وأخذ المنافقون يتكلمون في مثل هذه العمل الذي أقدم عليه أبو عقيل ﷺ، ويقولون بأنه لم يفعل ذلك إلا رياءً.[١٦١٢]

يقول عقبة بن عمرو ﷺ:

«لما نزلت آية الصدقة،[١٦١٣] كنا نحامل ـ أي نحمل الأشيال على ظهورنا فنكسب المال ونتصدق به في سبيل الله، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا ـ أي المنافقون: مراءٍ. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزل قول الله تعالى:

١٦١٠ الترمذي: المناقب، ١٨ / ٣٧٠٠؛ أحمد: مسند، ٥، ٦٣.

١٦١١ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٩٢.

١٦١٢ الطبري: التفسير، ١٠، ٢٥١.

١٦١٣ آية الصدقة على الأغلب هي الآية / ١٠٣ / من التوبة التي نزلت بخصوص غزوة تبوك:
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾».[١٦١٤]

ووفقـًا للروايات المختلفة التي وردت بشأن الحادثة فإن الصحابي الذي أتى بالمال الكثير وتبرع به لصالح جيش المسلمين كان عبد الرحمن بن عوف ﵁، وأما الصحابي الذي جاء بصاع من تمر فكان أبو عقيل ﵁.

ومن فقراء المسلمين الذين كانوا يتحرقون شوقـًا إلى الانضمام للجيش والجهاد في سبيل الله علبة بن زيد ﵁. فخرج من الليل، فصلى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى وقال:

– اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغَّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال، أو جسد، أو عرض!

ثم أصبح مع الناس في اليوم التالي، فقال رسول الله ﷺ:

– **أين المتصدق هذه الليلة؟**

فلم يقم أحد، ثم قال:

– **أين المتصدق فليقم؟**

فقام إليه علبة ﵁ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ:

– **أبشر فو الذى نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة.**[١٦١٥]

كان المنافقون ما يزالون يحيكون مكائدهم بحق المسلمين ويبذلون جهودهم من أجل التأثير على ضعفاء الإيمان منهم وثنيهم عن الخروج مع جيش المسلمين إلى القتال. وقد اتخذ هؤلاء من بيت أحد اليهود والذي يُدعى باسم سويلم مركزًا لنشاطهم وتحركاتهم. فلما وصل خبر الأمر إلى رسول الله ﷺ بعث إليهم طلحة ﵁ مع عدد من المسلمين فهدموا بيت سويلم. فتفرق المنافقون ولم يجرؤوا بعد ذلك على ارتكاب مثل هذه الأعمال التحريضية.[١٦١٦]

١٦١٤ التوبة: ٧٩. البخاري: الزكاة، ١٠/ ١٤١٥؛ مسلم: الزكاة، ٧٢/ ١٠١٨.

١٦١٥ ابن كثير: السيرة، ٤، ٩؛ ابن حجر: الإصابة، ٢، ٥٠؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٩٤.

١٦١٦ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٧١.

ومن جهة أخرى، فإن الآيات التحذيرية التي نزلت بشأن أعمال وتحركات المنافقين أدخلت الخوف من عذاب الله تعالى في قلوب المؤمنين، فسارع جميعهم إلى الاشتراك في الغزوة. فبدت المدينة المنورة خالية تمامًا من أهلها. إلا أن هذه الحالة لم تكن إيجابية من جوانب عديدة، إذ إن الحرب قد تطول كثيرًا، وإن الأحداث والمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها مركز الدولة في هذه الأثناء قد تشكل خطرًا على وجودها، ومن المحتمل أن لا تقوى بعد ذلك على الوقوف على قدمها مجددًا. كما أن الدين يتعرض للضعف، وتضمحل فرص تأمين موارد المؤن للجيش. وبالإضافة إلى ذلك، فإن انعدام وجود طبقة من أصحاب العقول والفكر السليم الذين يحافظون على وجود الأمم يتسبب بسقوط الدولة وانهيارها. ولذلك ومن أجل سد الطريق أمام حدوث مثل هذه المخاطر، فقد أنزل الله تعالى الوحي يبين فيه معيار الخروج إلى المعارك والغزوات، حيث قال في كتابه العزيز:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١٦١٧]

وبموجب هذا الأمر الإلهي فقد ترك رسول الله ﷺ كلًا من علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهما في المدينة المنورة من أجل تأمين الجبهة الخلفية لجيش المسلمين والحفاظ على سلامة الدولة.

ساعة العسرة

وفي نهاية الأمر وعلى الرغم من كل المصاعب والشدائد التي كان يمر بها المسلمون فقد تحرك الجيش محاطـًا بهالة من الإشراق والعظمة. إلا أن الجيش كان يظهر قدرًا كبيرًا من التحمل والصبر على مشقات كثيرة. لأن الظروف المحيطة به كانت في غاية الصعوبة والضيق. ثم إن الأسباب التي صعّبت من أمر هذه الغزوة هي باختصار:

١. الجفاف الشديد الذي أصاب البلاد ذلك العام.

٢. طول الطريق ووعورته الشديدة لكونه صحراءً لا تساعد على المسير مشيًا.

١٦١٧ التوبة: ١٢٢.

٣. كون الوقت كان موسم الحصاد وجني ثمار الأشجار.

٤. الحرارة الشديدة.

٥. النظر إلى كثرة جيش الروم العددي وتكوّن اعتقاد لدى الناس بقوته الفائقة.

ولهذه الأسباب والظروف الصعبة فقد أُطلق على هذه الغزوة تسمية «غزوة العسرة»، وعلى الجيش «جيش العسرة»، وسميت الأيام التي سار فيها الجيش إلى المعركة «ساعة العسرة».

وبعد تحرك الجيش بمدة من الزمن خرج سيدنا علي رضي الله عنه بسبب فتن المنافقين ولغطهم في إثر رسول الله حتى أدركه، واستأذنه في الانضمام إلى صفوف المجاهدين، حيث قال:

– يا نبي الله! زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني! فأذن لي بالخروج.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

– **كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي.**[١٦١٨]

فلما سمع علي رضي الله عنه قول النبي عليه الصلاة والسلام بحقه والمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها عنده عاد إلى عمله في المدينة المنورة بكل رضا وسرور.

لقد كان الجيش قد سلك إلى المعركة طريقًا طويلًا. وبعد مسير الجيش بقليل وصل إليه الصحابي أبو ذر الغفاري رضي الله عنه الذي كان قد تأخر عنهم قليلًا لضعف دابته عن مجاراة الجيش، مما اضطره في نهاية الأمر إلى تركها واللحاق بالجيش سيرًا على الأقدام. فلما رآه رسول الله عليه الصلاة والسلام على هذه الحالة تبسم، وقال:

– **رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.**

وكانت هذه الكلمات التي تستشف سجاف الغيب معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام إذ بعد فترة من الزمن تحقق ما أخبر به، حيث عاش أبو ذر رضي الله عنه وحيدًا، ومات وحيدًا.[١٦١٩]

١٦١٨ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٧٤؛ البخاري: المغازي، ٧٨/ ٤٤١٦؛ مسلم: فضائل الصحابة، ٣١-٣٢/ ٢٤٠٤؛ ابن كثير: السيرة، ٤، ٩.

١٦١٩ ابن هشام: السيرة، ٢، ٥٢٤؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٥٢/ ٤٣٧٣، الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٠٠.

لقد كان الجيش الإسلامي يُمضي رحلته بصورة بالغة الصعوبة، حيث كان الحر شديدًا، وعدد الدواب قليلًا مما يضطر الصحابة إلى التناوب عليها، فكل اثنان أو ثلاثة منهم يتناوب على ركوب دابة واحدة، الأمر الذي يزيد من المشقة التي يعانونها بالأساس. وكان هناك نقص في الطعام والماء، حيث يتقاسم كل اثنان تمرة بينهما، ويعانون من مصاعب كثيرة في سبيل الحصول على الماء، فكانوا خلال الوضوء يضطرون إلى غسل كل عضو من أعضائهم مرة واحدة، وأُمروا بالمسح على الخفين الذي يكون للمقيم ليوم واحد، وللمسافر ثلاثة أيام.[١٦٢٠] وفي أحد الأوقات دعا النبي ﷺ ربه سبحانه وتعالى فنزل المطر على المكان الذي يتواجد فيه جيش المسلمين دون ما حوله.[١٦٢١]

ولما مر جيش الإسلام بمكان الحِجر حيث أهلك الله تعالى فيه قوم ثمود، قال رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام:

«**إن هذا وادي النفر!**»[١٦٢٢]

ثم قال:

«**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين**»

ثم قنع رأسه وأسرع السير، حتى أجاز الوادي. وعلى الرغم من حرص النبي عليه الصلاة والسلام على عدم الإسراف إلا أنه أمر بالماء الذي أخذ من ذلك المكان فأريق، وبالعجين الذي عُجن من مائه فرمي به للإبل.[١٦٢٣]

لأن الغضب أو اللعنة إذا نزلت في مكان لم تفارقه آثارها إلى يوم القيامة. ولذلك فإن أمر الرسول ﷺ بالإسراع عندما وصل إلى مكان الحجر كان خشية التعرض لآثار هذه اللعنة التي نزلت على أهل هذا المكان بما اقترفوه فيها المعاصي والآثام.[١٦٢٤]

١٦٢٠ ابن ماجه: الطهارة، ٤٥؛ أحمد: مسند، ٦، ٢٧.

١٦٢١ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٧٧.

١٦٢٢ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٠٨.

١٦٢٣ البخاري: الأنبياء، ١٧/ ٤٤١٩، التفسير، ١٥ / ٢؛ مسلم: الزهد: ٣٩/ ٢٩٨٠.

١٦٢٤ من أحد الأمثلة التي تدل على انعكاس الأحوال على الأشياء ما عثر عليه العالم الياباني ماسارو أموتو أثناء أبحاثه التي أجراها على البلورات المائية المتجمدة، فقد عثر على بلورات كريستالية ذات أشكال سداسية قد تشكلت بصورة منتظمة وجمالية، و لها مناظر خلابة ودقيقة الصنع تسحر الإنسان، وهي تتموضع في مياه ينابيع طبيعية لم تمسها يد الإنسان. فملأ إنائين من هذه المياه وأجرى عليهما اختبارًا. فهمس على أحدهما

وفي الليلة التي قضاها المسلمون في مكان الحجر، قال النبي ﷺ:

«ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله»

فهبت ريح شديدة، فلم يقم أحد إلا رجلين، فأما أحدهما فقد خرج لحاجته وإنه خُنق على مذهبه، وأما الآخر فذهب في طلب بعيره فطرحته الريح بجبل طيء.[١٦٢٥]

ولما أصبح المسلمون على مقربة من تبوك مسير يوم، تعرّض جيش الإسلام مرة أخرى لعطش شديد. حيث يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال:

«إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي»

ولما وصلنا إلى تبوك كان الماء قليلًا، فغرف الناس بأيديهم من العين قليلًا قليلًا. حتى اجتمع شيء. وغسل رسول الله ﷺ فيه يده ووجهه. ثم أعاده فيها. وغرز في العين ثلاثة عصي على رؤوسها حديد، فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس منه. ثم قال لي رسول الله ﷺ:

«يوشك، يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا!»[١٦٢٦]

بكلمات الحب، والشفقة، وقرأ عبارات تتضمن الدعاء والامتنان. وقرأ على الآخر كلمات سيئة وبذيئة، وكرر بصورة خاصة لفظ الشيطان. وقد لاحظ أن الإناء الأول قد حافظ على جمالية البلورات الطبيعية دون أن يفقد شيئًا من رونقها، وأما الآخر فقد تفتت بلوراته الكريستالية، وفقدت خصائصها الجمالية وفسدت أشكالها. وفي التجربة نفسها كان قد عرّض المياه لنغمات موسيقية هادئة وجميلة، ولألحان شاذة ومزعجة فبدت لها ردات فعل مختلفة.

ولكي يدعم ماسارو أموتو الحقيقة التي توصل إليها ويتثبت منها أكثر نقل الاختبار إلى جرتين وأجراه على الأرز المطهي. وكتب على ورقة كلمة تدل على الشكر فوضعها في إحدى الجرتين، وكتب على ورقة كلمة تدل على الحمق فوضعها في الجرة الأخرى، وظل يعيد قراءة الكلمتين على الجرتين لمدة شهر. فاكتشف أن الجرة التي ألقى فيها كلمة الشكر وأعاد قراءتها عليها قد حافظت على بياض الأرز وحالتها الأصلية، وأما الأرز في الجرة الأخرى فكانت قد اسودت وانبعثت منها رائحة كريهة. (صفوت سنيح: سر البلورات المائية، تدفق، كانون الأول ٢٠٠٢، العدد ٢٨٧؛ عاكف دنيز: الخطوة الأولى، شباط، ٢٠٠٣)

١٦٢٥ البخاري: الزكاة، ٥٤؛ مسلم: الفضائل، ١١/ ١٣٩٢ ؛ أحمد: مسند، ٣٩، ١٦/ ٢٣٦٠٤.

١٦٢٦ مسلم: الفضائل، ١٠/ ٧٠٦؛ أحمد: مسند، ٥، ٢٣٨.

ولشدة الجوع الذي عانى منه الصحابة الكرام في غزوة تبوك قالوا لرسول الله ﷺ:

– يا رسول الله! لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا**».

فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

– يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم. فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيءٌ يسير. فدعا النبي ﷺ بالبركة. ثم قال: «**خذوا في أوعيتكم**».

فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ:

«**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة**»[١٦٢٧]

على الرغم من إقامة المسلمين معسكرهم في تبوك إلا أنه لم تظهر من الأعداء أية حركة مشبوهة تجاههم. وذلك لأنه لما رأت قبائل العرب من النصارى هذا الجيش الإسلامي الكبير أمام عينيها تذكرت المواقف البطولية التي أظهرها الجيش الإيماني المكون من ثلاثة آلاف مقاتل والذين سبق أن واجهوهم في معركة مؤتة فثبطت عزيمتهم وأخذوا يهابون من خوض غمار هذه المعركة الجديدة. وأما البيزنطيون فكانوا قد تخلوا عن فكرة الاستيلاء على شبه الجزيرة العربية منذ وقت مضى، إذ إن الامبراطور الروماني كان مشغولاً في تلك الأثناء في حمص بالمسائل الداخلية لمملكته. وبذلك تبين بأن أخبار نية الاستيلاء على شبه الجزيرة العربية ما هي إلا من مبالغات قبائل غسان النصرانية.

وقد اكتسب الإسلام والمسلمون بهذه الغزوة عزة وقوة عظيمة. إذ إنهم أمّنوا الحدود الشمالية للجزيرة العربية وجعلوها تحت سيطرتهم تمامًا. وقد طلب حاكم أيلة، وأهل جرباء وأذرح، ويهود مكنا، من النبي عليه الصلاة والسلام الأمان مقابل دفع الجزية،

١٦٢٧ مسلم: الإيمان، ٤٥/ ٢٧.

ودخلوا بذلك في حماية المسلمين. وهاجم خالد بن الوليد ﷺ مع أربعمائة وستة وعشرين من المجاهدين المسلمين دومة الجندل فأمسك بالملك النصراني أكيدر وجاء به إلى رسول الله ﷺ. وأُعطي الأمان أيضـًا مقابل دفع الجزية.[١٦٢٨]

أقام جيش الإسلام في تبوك مدة عشرين يومـًا. ولم يرد النبي ﷺ التقدم أكثر من ذلك، فقد تم تحقيق الغاية المنشودة من خلال زرع الخوف لدى دولة الروم، إذ لم تجرؤ على إظهار العداء والخروج في وجه المسلمين. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت سوريا في تلك الأيام تتعرض لموجة وباء الطاعون، ولأن الطاعون مرض قاتل ومعدٍ فقد قال النبي ﷺ:

«إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[١٦٢٩]

وبعد ذلك استشار الرسول ﷺ أصحابه واتخذ قرارًا بالعودة إلى المدينة المنورة.

وفي هذه الأثناء وصل أبو خيثمة ﷺ إلى الجيش. فأبو خيثمة كان قد بقي سابقـًا في المدينة ولم يخرج مع الجيش بسبب صعوبة الغزوة وظروفها. وذات يوم حارٍّ أعدت امرأته مائدة عامرة بأصناف الطعام والشراب تحت عريش بيته، ورشت الماء في الأنحاء للتخفيف من حرارة الجو، ثم دعت زوجها أبا خيثمة إلى تلك المائدة. فلما أبصر أبو خيثمة هذا المنظر تذكر حال رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام الذين خرجوا إلى الجهاد في هذا الحر اللاهب، فرقَّ قلبه وقال في نفسه:

«رسول الله عليه الصلاة والسلام في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم! ما هذا بالنَّصَف!».

فأصابته الندامة على ما فعل، ولم يمد يده إلى المائدة، فنهض من مجلسه وخرج في طريقه يلحق برسول الله عليه الصلاة والسلام وبالمسلمين. أدرك أبو خيثمة جيش المسلمين في تبوك وانضم إليهم، وسُر النبي عليه الصلاة والسلام لرؤيته، وقال:

«**أَوْلَى لك يا أبا خيثمة!**» ثم عفا عنه ودعا له بالخير.[١٦٣٠]

١٦٢٨ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٨٠ – ١٨٢؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ٢٧٦ – ٢٧٧؛ أحمد: مسند، ٥، ٤٢٥.

١٦٢٩ البخاري: الطب، ٣٠/ ٥٧٢٨.

١٦٣٠ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٧٤؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٩٨.

إن الله ﷻ لا يكلف عباده بشيءٍ فوق طاقتهم. ولكن يحاسبهم عما يستطيعون القيام به من الأعمال. وإن فعل أبي خيثمة يعد من طبيعة دفع بدل القدرة.

إن هذه الأحداث تُعد نصائح حية لنا، فهي وسيلة تذكرنا دائما بما نملكه من إمكانات مادية ومعنوية يمكننا توظيفها في سبيل الله تعالى، وتذكرنا كذلك بالمسؤوليات الملقاة على عواتقنا كمؤمنين.

ألقى النبي عليه الصلاة والسلام في تبوك خطبة مستندًا إلى شجرة نخل. فبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال:

«أيها الناس! أما بعد: ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس! إن من خير الناس رجلًا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلًا فاجرًا جريئًا يقرأ كتاب الله ولا يدعو إلى شيء منه.

اعلموا! فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، [١٦٣١] **وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء وأشرف القتل قتل الشهداء. وأعمى الضلالة الضلاةُ بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتُّبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من السفلى، وما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، وشر الأمور المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة.**

ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزرًا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرًا؛ ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما ألقي في القلب اليقين والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنم، والسُّكْر كيٌّ من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره والشقي من شقي في بطن أمه.

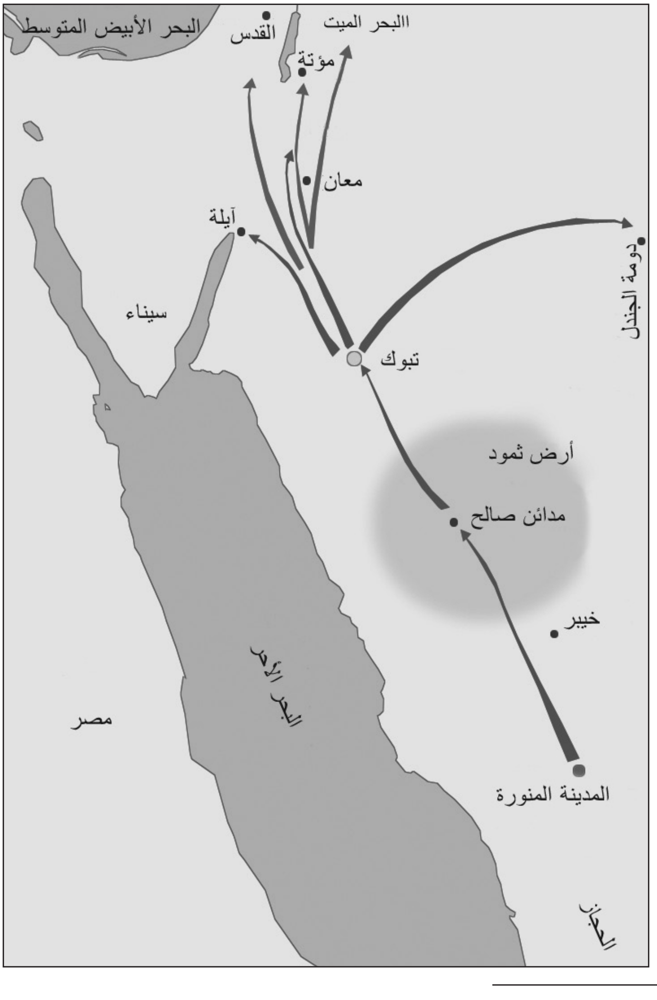
١٦٣١ يتكون أكثر من ثلث القرآن الكريم من القصص. يبين الله ﷻ أهمية القصص القرآني، ويأمرنا بالتفكر حول الحقائق التي بينها فيها، وأخذ العبر الضرورية منها ثم مقارنتها بالأحوال التي نعيشها من أجل تفادي النتائج السلبية التي كانت تترتب على السلوكيات المنحرفة للأمم السابقة. حيث يقول الله تعالى ﷻ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣)

وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع؛ والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، والربا ربا الكذب. وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتل المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله وحرمة ماله كحرمة دمه.

ومن يتألَّ على الله يكذبه، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يتبع السمعة يسمع الله به، ومن يصبر يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله.

اللهم اغفر لي ولأمتي! اللهم اغفر لي ولأمتي! اللهم اغفر لي ولأمتي! أستغفر الله لي ولكم!»[١٦٣٢]



١٦٣٢ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠١٦ - ١٠١٧؛ أحمد: مسند، ٣، ٣٧/ ١١٣١٩؛ ابن كثير: البداية، ٥، ١٣ - ١٤.

شهيد تبوك

لقد استشهد في تبوك صحابي واحد فقط، وهو الصحابي عبد الله المزني ﵁ الذي تشرف بشرف الإسلام وهجر قبيلته المشركة. لم يكن والده الذي توفي قد ترك له شيئًا من المال، فكفله عمه الغني فرباه وجعله صاحب أموال كثيرة. ولما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة المنورة أراد عبد الله الدخول في الإسلام إلا أن عمه المشرك لم يوافق على ذلك. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وعاد إلى المدينة، قال عبد الله لعمه:

- يا عم، قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمدًا، فائذن لي في الإسلام.

فقال عمه:

- والله لئن اتبعت محمدًا لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك، حتى ثوبيك!

فأخذ عمه كل ما أعطاه حتى جرده من إزاره الذي يلبسه. فأتى عبد الله ﵁ إلى أمه وليس لديه شيءٌ من الثياب، فقطعت له أمه بجادًا ـ والبجاد: الكساء الغليظ الجافي ـ لها إلى نصفين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر. وكان عبد الله ﵁ قد اتخذ قراره في الذهاب إلى المدينة المنورة واللقاء برسول الله ﷺ، ووضع نصب عينيه كل المصاعب والعوائق التي يمكن أن تظهر في طريقه إلى تحقيق ما هو مقبل عليه، فلم يتحمل الانتظار مزيدًا من الوقت، حيث تسلل من بين قومه الذين ضيقوا عليه الخناق وخرج سرًا في طريقه إلى هدفه المنشود. وبعد رحلة طويلة وشاقة وصل إلى المدينة المنورة وهو في حالة يرثى لها، حيث كان يعاني من الجوع والعطش، وقد أدميت يداه وقدماه. كان الحماس والشوق يأخذ من عبد الله ﵁ كل مأخذ، إلا أنه خطر له للحظات بأنه لن يستطيع الحضور بين يدي رسول الله بهذا الذي يرتديه على جسده. ولكنه لم يقر له قرار ولم يهدأ له بال لشدة شوقه إلى لقاء رسول الله ﷺ، فتوجه من فوره إلى المسجد النبوي وسط النظرات المليئة بالاستغراب والدهشة التي تحيط به من الناس حوله. فاضطجع في المسجد ونام حتى وقت السحر. ثم جاء رسول الله ﷺ فصلى صلاة الصبح. وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح، فرأى عبد الله. فأخذه رسول الله ﷺ الذي كان ملجأ للمحرومين، والمضطهدين والمظلومين، أخذه في حضنه بكل شفقة ومحبة، ولما علم بأن اسمه عبد العزى، قال له:

- **أنت عبد الله ذو البجادين! ثم قال انزل مني قريبًا، وائتني على الدوام.**

فكان عبد الله ﵁ يسكن في الصفة، ويتعلم القرآن، وقد قرأ كثيرًا من سور القرآن وحفظها.

إن هذا الصحابي المبارك الذي ارتبط بعشق برسول الله ﷺ كان يسير من جهاد إلى جهاد بجانب النبي ﷺ، وكان يتحرق شوقًا ورغبة إلى التضحية بروحه والاستشهاد في سبيل الله تعالى. ولما خرج المسلمون إلى غزوة تبوك ألحّ على رسول الله ﷺ كي يدعو له بنيل الشهادة في هذه الغزوة. حيث قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

– **اللهم إني أحرم دمه على الكفار!**

فقال عبد الله رضي الله عنه:

– يا رسول الله! ليس أردت هذا!

قال النبي ﷺ:

– **إنك إذا خرجت غازيًا في سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، ووقصتك دابتك فأنت شهيد، لا تبال بأية كان!.**

وبالفعل فقد تحققت شهادته بشكل معجز كما أخبر به النبي ﷺ. إذ ذات ليلة بينما كان الجيش منشغلًا بتجهيزات العودة من تبوك إلى المدينة، كان نعش الصحابي المبارك عبد الله رضي الله عنه يُحمل تحت ضوء مشعل بلال على يدي خير الخلق ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي كان ينظر إلى ذلك المشهد بغبطة:

«ذات ليلة مظلمة رأيت ضوءًا في ناحية من الميدان الذي نزل فيه الجيش، وسمعت جلبة قادمة من هناك. فنهضت من مجلسي أنظر ما يجري، وإذا بي أرى رسول الله ﷺ، وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما يحملون نعش عبد الله ذي البجادين. فجاؤوا إلى مكان، وحفروا فيه قبرًا، ونزل رسول الله ﷺ إلى ذاك القبر، وإذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجهزان النعش لإنزاله إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فقال رسول الله ﷺ:

– **أدنيا إلي أخاكما!**

وبعد أن تناوله النبي ﷺ من يدهما وهيأه لشقه قال:

– **اللهم إني قد أمسيت عنه راضيًا فارض عنه!**

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يا ليتني كنت صاحب اللحد!»[١٦٣٣]

١٦٣٣ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٨٣؛ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠١٣ – ١٠١٤؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٣، ٢٢٧.

خيانة المنافقين ومسجد الضرار

خلال البدء برحلة العودة من تبوك وضعت جماعة من المنافقين خطة من أجل قتل النبي عليه الصلاة والسلام في واد ضيق. فوصل خبر الخطة إلى رسول الله ﷺ، وأرسل إليهم حذيفة بن اليمان، فلما وصل حذيفة ﷺ إليهم صرخ بهم قائلاً:

- يا أعداء الله! تراجعوا! فتفرق المنافقون.[١٦٣٤]

إلا أن النبي ﷺ كان على موعد مع شَرَك ثانٍ من أشراك المنافقين. عندما ترسخت جذور الإسلام في المدينة ومكة المكرمة غادرها فاسق نصراني من الخزرج يدعى بأبي عامر، ولجأ إلى الروم، وكان لا يفتأ يحرض المنافقين على رسول الله عليه الصلاة والسلام وعلى المسلمين. وكان قد أنشأ مسجدًا في الجهة السفلى من مسجد قباء كنقطة اتصال مع بؤرة الفساد هناك. وهو مسجد الضرار المشهور...

وقد وجهوا دعوة إلى رسول الله ﷺ قبل غزوة تبوك للحضور إلى هذا المسجد وذلك من أجل تنفيذ مخططهم الخبيث الذي أجمعوا عليه. ولما قال لهم النبي ﷺ:

«**إني على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه**».

أخذوا ينتظرون عودة جيش المسلمين من غزوتهم.

وخلال طريق العودة، لما وصل النبي ﷺ إلى مسافة قريبة من المدينة، أتاه جبريل ﷺ، فأخبره بأن هذا المسجد الذي بني هو في الظاهر مسجد إلا أنه في الحقيقة بؤرة للفساد والفتنة. وبذلك لم يبلغ المنافقون مبتغاهم من هذا الشَرَك الذي نصبوه لرسول الله ﷺ وللمسلمين جميعًا، ذلك الشرك الذي استخدموا فيه المسجد ضد المسجد، والدين ضد الدين. حيث إن الله سبحانه وتعالى بين هذه الحقيقة بصورة واضحة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[١٦٣٥]

١٦٣٤ أحمد: مسند، ٥، ٤٥٣.

١٦٣٥ التوبة: ١٠٧ – ١٠٨.

وبهذا الفعل لم تعد المسألة نفاقًا فحسب، وإنما تعدى الأمر إلى حياكة المؤامرات وإلحاق الضرر بالنبي عليه الصلاة والسلام وبالمسلمين. ولذلك كان من الضروري إزاحة القناع عن وجوه المنافقين، وهدم البيت الذي بنوه وادعوا بأنه مسجدًا زورًا وبهتانًا.

فتحرك النبي ﷺ بموجب الأمر الإلهي الذي أتاه، وما إن وصل إلى المدينة حتى سارع إلى هدم مسجد الضرار.[١٦٣٦]

جهاد النفس الحقيقي

إن غزوة تبوك التي كانت آخر غزوة يشترك فيها رسول الله ﷺ، كانت غزوة قاسية ومليئة بالصعوبات والمشقات. حيث قطع جيش المسلمين مسافة ألف كيلو متر ذهابًا وإيابًا. ولما دنوا من المدينة كانت ملامح وجوههم قد تغيرت وعادوا بوجوه غير التي ذهبوا بها. حيث التصقت جلودهم بعظامهم، وتداخلت لحاهم مع شعورهم. فكان جهادهم هذا بالنفس والمال وظن بعضهم أن هذا الجهاد الوحيد والأكبر. لكن تغافلوا على إن جهاد النفس الحقيقي هو تزكية القلب وتربيته الروحية. فالغاية هي الارتقاء بأخلاق الإنسان وتهيئته من الناحية الروحية للوصول به إلى حالة «الإنسان الكامل». وسبيل ذلك هو الارتقاء على سلم التوحيد والوصول إلى الكمال من خلال عقل متشرب بالحقائق الإلهية، وقلب مزين بالإيمان والأخلاق الكريمة، وحالة وسلوك متوج بروحانية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وبقدوم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة خرج الناس جميعًا يستقبلونه بمشاعر ملؤها الشوق والمحبة. وامتلأت الطرقات بالأطفال الذين خرجوا لاستقبال نور الكائنات عليه الصلاة والسلام في ثنية الوداع. فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال:

«ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع»[١٦٣٧]

١٦٣٦ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٨٥؛ ابن كثير: تفسير سورة التوبة، ٤، ١٨٦.

١٦٣٧ البخاري: الجهاد، ١٩٦/ ٣٠٨٣.

الثلاثة الذين خُلِّفُوا

لقد كان هناك ثلاث مجموعات من الرجال الذين مكثوا في المدينة ولم يشتركوا في غزوة تبوك، وهي:

١. **المعذرون**: وهم الذين أشارت إليهم الآيات التي أوردناها سابقًا، فعلى الرغم من رغبتهم في الاشتراك بالغزوة إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لظروفهم الخاصة، وقال النبي عليه الصلاة والسلام عنهم للصحابة الذين معه في جيش الإسلام:

«إن أقواما بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر»[١٦٣٨]

٢. **المنافقون**: وهم الذين لم يشتركوا في هذه الغزوة لأسباب عديدة إلى جانب أن اعتقدوا بأن النبي ﷺ لن يعود من هذه الغزوة. ولما رأوا أن رسول الله ﷺ قد عاد سليمًا معافًا لم يصبه أي مكروه، وقد حقق نصرًا مؤزرًا، هرعوا إليه معتذرين ومتذرعين بمختلف الأعذار والأسباب الواهية والكاذبة. وأنزل الله تعالى بحق هؤلاء المنافقين الذين يبلغ عددهم الثمانين منافقًا، قوله:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[١٦٣٩]

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١٦٤٠]

وبناءً على هذه الآيات الكريمة فضح المنافقون في المجتمع الإسلامي وجُردوا من أقنعتهم، ووصفوا «بالرجس» ولم يُعدوا بعد ذلك من المسلمين. وبالإضافة إلى ذلك فقد منعوا من مختلف أعمال الجهاد من أجل الإسلام.

١٦٣٨ البخاري: الجهاد، ٨٥/ ٢٨٣٩، المغازي، ٨١؛ مسلم: الإمارة، ١٥٩/ ١٩١١.

١٦٣٩ التوبة: ٥٦ – ٥٧.

١٦٤٠ التوبة: ٩٤ – ٩٥.

٣. **غير المعذورين**: وينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: هم الذين لم يشتركوا في الغزوة مع المسلمين دون عذر وليسوا من المنافقين. إلا أن هؤلاء سريعًا ما أدركوا خطأهم وذلك قبل عودة النبي عليه الصلاة والسلام من تبوك، وندموا ندمًا شديدًا على فعلتهم. ولكي يعاقبوا أنفسهم على هذا الخطأ الجسيم الذي ارتكبوه، ربطوا أنفسهم إلى أعمدة المسجد، وأقسموا أنهم لن يحلوا وثاقهم حتى يأتي رسول الله ﷺ ويحلها لهم. ولما عاد النبي عليه الصلاة والسلام من الغزوة، وعلم بحالهم، قال:

«والله لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو يعذرهم، وقد تخلفوا عني ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم»

فنزل قول الله تعالى:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٦٤١]

وبعد نزول هذه الآية الكريمة فك النبي عليه الصلاة والسلام وثاق الصحابة الذين ربطوا أنفسهم إلى عمود المسجد ندمًا على ما فعلوه.

القسم الثاني: هم أيضًا من الذين لم يشتركوا مع المسلمين في الغزوة دون أي عذر ولكنهم ليسوا من المنافقين، وهم ثلاثة من الصحابة: الشاعر كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فهؤلاء الصحابة الثلاثة لم يكذبوا مثل المنافقين. إذ إنهم بينوا للنبي ﷺ عدم رغبتهم في الاشتراك مع المسلمين في هذه الغزوة دون تقديم أي عذر. وقد أصابهم ندام شديد على ما فعلوه وجاؤوا إلى النبي ﷺ طالبين منه العفو والصفح.

لكن النبي عليه الصلاة والسلام لشدة حرصه ومراعاته للأوامر الإلهية، لم يعف عن الصحابة الثلاثة. حتى إنه لم يكن يرد عليهم السلام قبل نزول الوحي الإلهي الذي يبين أمرهم، وتبعه سائر الصحابة الكرام في تصرفه تجاه هؤلاء الثلاثة.

كان هؤلاء الصحابة الثلاثة قد اشتركوا في كل الغزوات والمعارك، وحتى إن اثنين منهم وهما مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية كانوا ممن حضروا بدرًا. ولأجل ذلك فقد ضاقت

١٦٤١ التوبة: ١٠٢. الطبري: تفسير، ١١، ٦٥٢-٦٥٤.

الدنيا على قلوبهم وأوحشت الأرض في وجوههم لما وجدوه من إعراض رسول الله ﷺ عنهم جزاء ما اقترفوه بتخلفهم عن غزوة تبوك. حتى إن نساءهم بدين عليهم غريبات وكأنهن أجنبيات عنهم. فكانوا يبكون الليل والنهار كأنهم شمعات تذوب من مس النار. نعم؛ إنهم ارتكبوا خطأً، إلا أنهم لم يفارقوا الإخلاص، والصدق، والاستقامة، والتسليم، ولم يتوانوا عن إعلان الندامة والتوبة. وهكذا مر خمسون يومًا وهم على هذه الحالة، وفي نهاية الأمر جاءت المكافأة على صدق كلامهم، وإخلاص توبتهم، وصارت الآية الكريمة الآتية مظهرًا للعفو الإلهي عنهم، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١٦٤٢]

فبشر النبي عليه الصلاة والسلام كعب بن مالك رضي الله عنه بقوله:

«**أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!**»

وأراد كعب بن مالك رضي الله عنه أن يشكر الله تبارك وتعالى على هذا العفو والتوبة، فقال:

- يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله!

فقال له رسول الله ﷺ:

«**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**».

عندها قال كعب بن مالك:

- فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما لقيت!.

ويقول كعب رضي الله عنه:

«فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا ـ حين أنزل الوحي ـ شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى:

﴿... فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ...﴾».[١٦٤٣]

١٦٤٢ التوبة: ١١٨.

١٦٤٣ التوبة: ٩٥. البخاري: المغازي، ٧٩ / ٤٤١٨، الوصايا، ١٦، الجهاد، ١٠٣؛ مسلم: التوبة، ٥٣/ ٢٧٦٩.

إن هؤلاء الصحابة الثلاثة على الرغم من اشتراكهم مع النبي عليه الصلاة والسلام في كل الغزوات، إلا أنهم مع ذلك تعرضوا لمثل هذا العقاب القاسي لمجرد تخلفهم عن غزوة واحدة. إن هذه الحادثة تُعد بمثابة تحذير شديد للمتخلفين من غير عذر عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمتخلفين عن القيام بالجهاد من أجل التوحيد في سبيل الله تعالى.

إنها حقـًا لمسألة في غاية العبرة والغرابة، إذ إن الإنسان الذي حاز على صفة الصحبة مع رسول الله ﷺ، واشترك في كافة المعارك والغزوات وعلى رأسها معركة بدر، وقابل فيها الموت وجهـًا لوجه، ثم تخلف عن غزوة واحدة كغزوة تبوك التي كانت من غير قتال، يتعرض بسبب ذلك لهذه المعاملة البالغة القسوة! إن هذه المسألة لتحمل دلالة مخيفة لمن كان له قلب وعقل سليم، إلى جانب ما تحويه من دروس وعبر بليغة. كم هو محزن عندما نعلم علم اليقين بأنه من الضروري، بل الواجب في زماننا كما في كل الأزمنة الكفاح والنضال في شتى الميادين من أجل نصرة الإسلام، ثم ننظر إلى أحوال معظم المسلمين الذين من المفترض فيهم أن يهبوا للقيام بهذا الواجب المقدس، فنجد ولأسباب مختلفة التثاقل والإهمال، واللامبالاة في هذا المجال! إن كان أمثال هؤلاء المجاهدين الذين شاهدوا بدرًا قد دفعوا هذا الثمن الباهظ لإهمالهم الواجب الذي نتكلم عنه مرة واحدة، فكيف سوف تكون أحوال أناس مثلنا حيث بلغنا في الإهمال واللامبالاة مبلغـًا عظيمـًا؟ وكم من الجهد يلزمنا بذله حتى نكون مع الصادقين وفقـًا للأمر الإلهي؟!

إن الله تعالى يأمر المؤمنين على الدوام بمصاحبة عباده الصادقين والأخيار، وذلك ليكونوا دائمـًا عرضة للمؤثرات الإيجابية، وفي حماية من المؤثرات السلبية. وأمر الله تعالى بمعاشرة الصادقين في إيمانهم وعهودهم، والمرتبطين بالدين الحق في كافة شؤونهم، وحث على القرب منهم، وعدم مفارقتهم بحال من الأحوال. فهذه المسألة في غاية الأهمية من أجل التخلص من قسوة القلب، وجفاف المشاعر الوجدانية، والأهم من كل ذلك النجاة من عذاب الله تعالى وغضبه. ويبين أحد الشعراء فضل وفائدة صحبة الصادقين، فيقول:

إن الشوكة التي تكون وحيدة تُقطع وترمى بعيدًا،
ولكنها تُسقى بالماء عندما تكون مع الزهور...

إن حصول هذا الأمر في غزوة تبوك المليئة بالمشقة له دلالة كبيرة. وهي أن صحبة الصادقين لا تكون فقط في زمان الراحة والسعة، وإنما تجب ملازمتهم أيضًا عند تعرضهم لمختلف الصعوبات والمشقات، وعندما يخرجون إلى الجهاد في سبيل الله تعالى. ومن الواجب على المؤمن اقتفاء أثر الصادقين عندما يواجهون بصدورهم الصعاب، ويخوضون في ميادين الكفاح والنضال، والحرص على عدم التأخر عنهم أو مفارقتهم.

لقد تم التركيز بشكل كبير في سورة التوبة – التي نزلت عمومًا بحق غزوة تبوك – على أهمية الجهاد في سبيل الله تعالى بالنفس وبالمال. وذلك لأن الجهاد بالنفس والمال يُعد من أكبر الأدلة على صدق المسلمين في دينهم. وفي الوقت ذاته فإن هذا الجهاد يُظهر الفرق الواضح بين المؤمن والمنافق. حيث يقول الله ﷻ عن المؤمنين المجاهدين:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١٦٤٤]

والأمر المهم الآخر هو؛ إن النفاق والمنافقين من أكبر المخاطر على المسلمين في كل عصر من العصور، وإن غزوة تبوك وسورة التوبة قد بينت هذه الخطورة بصورة جلية لا لُبس فيها، وحذرت المسلمين منها أيما تحذير.

ويُستنتج من ساعة العسرة أنه ينبغي على المسلم ألا يميل أبدًا إلى الدعة، وألا يبحث عن الملذات والمتع الدنيوية، وإنما عليه مواجهة كل الصعوبات التي تواجهه في طريقه، ولا يتراجع عن التقدم في سبيل الله تعالى.

خزائن السماوات والأرض لله تعالى

إن الله سبحانه وتعالى نصر دينه على الرغم من كل مكائد الكافرين وجهودهم للقضاء عليه، فهذا النصر وعد إلهي من الحق سبحانه وتعالى لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين السائرين على نهجه بكل تصميم وإخلاص. فالله تعالى منجز وعده لعباده المؤمنين ولو كره الكافرون. حيث يقول الله تبارك وتعالى:

١٦٤٤ التوبة: ١١١.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[١٦٤٥]

وبالفعل، إذا ما أمعنا النظر في التاريخ الإنساني عبر مختلف العصور، سوف نجد هذه الحقيقة جلية ظاهرة لا تخفى عن كل ذي عقل وبصيرة. فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي كان يبذلها الكافرون والمشركون على مر العصور من أجل إضعاف المسلمين من الناحية الاقتصادية وإنهاء قوتهم، كان الله سبحانه وتعالى يُفرج عن المؤمنين كرباتهم وضيق معيشتهم، إذ كان يستنفر جيوشه المادية والمعنوية التي كانت تنصر المؤمنين في زمن قصير جدًا، وتلحق أنكر الهزائم بالكافرين. وما ذاك إلا لأن خزائن السماوات والأرض كلها بيد الحق سبحانه وتعالى يسيرها كيفما شاء.

وإذا ما نظرنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أن المؤمنين قد نجحوا في تحقيق انتصارات ساحقة وباهرة بقوة قليلة العدد والعدة على أعتى وأقوى جيوش العالم في ذلك الوقت، وكل ذلك بسبب عون الله تعالى وإمداده لهم. وإن وقائع بدر، ومؤتة، والأندلس، وملاذكرد بعض من الأمثلة على الانتصارات العديدة التي تؤكد تلكم الحقيقة. ومن جهة أخرى فإن الدولة العثمانية العلية التي وضعت بصمتها الواضحة في ميدان «إعلاء كلمة الله»في مختلف أنحاء العالم تأسست بفضل أربعين فارس مؤمن.

إن ذلك يبين بشكل جلي لا لبس فيه أن المؤمنين إنما يحققون النجاح والنصر بفضل عامل الإخلاص. فمن حُرم الإخلاص حُرم القوة، ومن لاذ بالإخلاص فلا يمكن أن ينهزم. ولذلك، فليفعل أعداء المسلمين ما بدا لهم أن يفعلوه، فإنهم في النهاية لن يضروا المسلمين في شيءٍ. وذلك لأن الله تبارك وتعالى قد أخبرنا بالعناية الإلهية التي تحيط بالمؤمنين في كتابه العزيز، حيث قال:

﴿...وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[١٦٤٦]

وإن عصر السعادة والتاريخ الإسلامي بشكل عام خير شاهد على تجليات هذه الآية الكريمة التي لا تعد ولا تحصى.

١٦٤٥ المنافقون: ٧.

١٦٤٦ آل عمران: ١٢٠.

لا خير في دين ليس لا عبادة فيه!

لما أتم النبي ﷺ الفتح الذي أراده وقفل عائدًا إلى المدينة المنورة، تبعه رئيس الطائف عروة بن مسعود ودخل الإسلام. ثم عاد إلى الطائف وبدأ يدعو قومه إلى الإسلام. إلا أن قومه الذين أساؤوا للنبي ﷺ لما جاء يبلغهم الإسلام وآذوه وأهانوه، فعلوا ماهو أشد وأقسى تجاه عروة أيضـًا. فأمطروه بسهامهم التي نالت من جسده المبارك حتى استشهد رضي الله عنه.[١٦٤٧]

وبناء على ذلك، فقد أمر النبي ﷺ رئيس هوازن مالك رضي الله عنه الذي أسلم وأبقاه النبي ﷺ على منصبه، أمره بالضغط على أهل الطائف. فأخذ مالك رضي الله عنه يشن عليهم غارات بين الحين والآخر، الأمر الذي أدى إلى محاصرتهم داخل حصونهم، ولم تعد لديهم الجرأة على الخروج منها، ولما ضاقت بهم الأحوال كثيرًا، وأصابهم الإرهاق والتعب، أرسلوا وفدًا من وجهاء القوم إلى المدينة المنورة للقاء النبي ﷺ والبحث معه في أمر الحصار.[١٦٤٨]

ولكي يستميل رسول الله ﷺ قلوب وفد ثقيف استضافهم في المسجد النبوي.[١٦٤٩] وكان أعضاء الوفد يتابعون عن كثب الأحداث التي تجري في المسجد، حيث كانوا يستمعون إلى القرآن الكريم الذي يتلى في الليل والنهار، ويراقبون صفوف المسلمين التي تتراص مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة، ويشاهدون الصحابة الكرام يقومون في الليل بين يدي الله تعالى خاشعين في صلاة التهجد.[١٦٥٠]

فأخبر وقد ثقيف النبي ﷺ بأنهم يدخلون في طاعته بشرط إعفائهم من الصلاة. فرد رسول الله ﷺ عرضهم هذا بقوله لهم:

«لا خير في دين ليس فيه ركوع ـ أي صلاة-»[١٦٥١]

فأقدم أهل الطائف هذه المرة على أمر في غاية الحماقة، إذ طلبوا من النبي ﷺ إبقاء الأصنام المسماة بـ «اللات» في أماكنها مدة ثلاث سنوات. فلما رُفض مطلبهم، قالوا: «فلتبقَ لدينا مدة شهر»، إلا أن هذا العرض أيضـًا قوبل بالرفض. فلم يجدوا بُدًا من الإيمان

١٦٤٧ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٩٤؛ الحاكم: المستدرك، ٣، ٧١٣ / ٦٥٧٩.

١٦٤٨ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٣٨، ١٩٥.

١٦٤٩ أحمد: مسند، ٤، ٢١٨.

١٦٥٠ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٦٥.

١٦٥١ أبو داود: الخراج، ٢٥ - ٢٦ / ٣٠٢٦.

الكامل. وطلبوا أخيرًا إعفاءهم من تحطيم صنم اللات بأيديهم. فلم يصر النبي ﷺ عليهم بهدم اللات بأنفسهم، وإنما أرسل من أجل تنفيذ ذلك أبا سفيان والمغيرة.[١٦٥٢] ومن الغرائب التي حصلت حين تهديم الصنم، خروج نساء قبيلة من البيوت وحدادهن وبكائهن على الصنم. إلا أنهن لما تعلمن سمو الإسلام، وتشبّعن بأخلاقه وعقيدته القويمة صرن مسلمات خالصات مخلصات، ولم يبق لهذه الأصنام في قلوبهم رسم ولا اسم.

وبذلك يكون دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لأهل الطائف بالهداية وهم الذين ظلموه وأساؤوا إليه في السنة التاسعة للبعثة قد اُستجيب وتحقق على أرض الواقع.

وتم تعليم ممثلي ثقيف فرائض الإسلام وأحكامه. وأمرهم فخر الكائنات ﷺ بصيام الأيام المتبقية من شهر رمضان. وكان بلال الحبشي رضي الله عنه يأخذ لهم طعام السحور والإفطار.[١٦٥٣]

لقد كان النبي ﷺ يذهب إلى الوفود القادمة إليه كلما سنحت له الفرصة ليلًا أو نهارًا، ويجلس إليهم، ويتحدث معهم مطولًا في أمورهم وقضاياهم.[١٦٥٤] والأمر نفسه جرى مع وفد ثقيف، وذات مرة كان النبي عليه الصلاة والسلام كعادته يقابل وفد ثقيف بعد صلاة العشاء، فطال حديثهم كثيرًا ورسول الله ﷺ واقف على قدميه، فاضطر بين الحين والآخر لشدة تعبه أن يراوح بين قدميه الشريفتين.[١٦٥٥]

يقول أوس بن حذيفة وهو أحد أعضاء وفد ثقيف:

كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ من ثقيف وأسلموا، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا ولا نبرح حتى يحدثنا... فمكث عندنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. فلما أقبل، قلنا:

– ما أمكثك عنا يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ:

– **طرأ على حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه.**

١٦٥٢ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٩٧؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٦٧ – ٩٦٨.

١٦٥٣ الواقدي: المغازي، ٣، ٩٦٨.

١٦٥٤ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنا معهما». (الترمذي: الصلاة، ١٢ / ١٦٩)

١٦٥٥ أبو داود: قراءة القرآن، ٩ / ١٣٩٣.

قال فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قلنا:

– كيف تحزبون القرآن؟ قالوا:

– نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يُختم.[١٦٥٦]

لقد كان الصحابة الكرام يولون أهمية كبيرة للقرآن الكريم باعتباره كلام الحق سبحانه وتعالى، وأمانة رسول الله ﷺ أيضـًا. فكانوا إلى جانب قراءتهم له في صلواتهم، يكثرون من تلاوته في أسفارهم، وغزواتهم، واجتماعاتهم، وفي صلاة التهجد من الليل. فلم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يشبعون من تلاوة القرآن الكريم، ولم يكونوا يفوتون يومـًا واحدًا دون الاستمتاع بتلاوته.[١٦٥٧] وكانوا ﷻ يبدؤون يومهم بالقرآن الكريم، ويوصون من يشتكي من ألم في عينيه بالنظر إلى المصحف الشريف. حتى إن عثمان بن عفان ﷺ أتلف مصحفين من كثرة قراءته للقرآن الكريم.[١٦٥٨]

لقد كان من أكثر الأشخاص ولعًا بالقرآن الكريم واشتياقـًا لتعلمه من بين أعضاء وفد ثقيف عثمان بن أبي العاص الذي بايع رسول الله ﷺ سرًا وأسلم قبل أصحابه من أعضاء الوفد. ولأنه كان أصغرهم سنـًا فقد تركوه عند دوابهم وأمتعتهم لحراستها وخدمتها. ولما يعود إليه أعضاء الوفد وقت حرارة الظهيرة ويستسلموا للنوم، كان عثمان ﷺ يأتي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ويسأله عن أمور الدين، ويستمع منه إلى تلاوة القرآن الكريم، ويتعلمه. وهكذا قرأ على رسول الله ﷺ بعض السور وحفظها.

ولما كان عثمان ﷺ يجد النبي عليه الصلاة والسلام مشغولًا في بعض أموره، يذهب إما إلى أبي بكر أو إلى أبي بن كعب ﷺ فيسألهما، ويقرأ عليهما القرآن الكريم. فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُسر به ويحبه. ولما أراد وفد ثقيف العودة إلى بلادهم، قالوا:

– يا رسول الله أمّر علينا رجلًا منا! فأمَّر رسول الله عليه الصلاة والسلام عليهم عثمان بن أبي العاص ﷺ وهو أصغرهم لما رأى فيه من حرصه على الإسلام.[١٦٥٩]

١٦٥٦ أحمد: مسند، ٤، ٩/ ١٦١٦٦؛ ابن ماجه: الصلاة، ١٧٨.

١٦٥٧ ابن سعد: الطبقات، ٣، ٧٥ – ٧٦.

١٦٥٨ الكتاني: ٢، ١٩٧.

١٦٥٩ ابن هشام: السيرة، ٤، ١٨٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٥، ٥٠٨؛ أحمد: مسند، ٤، ٢١٨.

الأحداث الأخرى التي وقعت بعد العودة من تبوك

كان للنبي عليه الصلاة والسلام ولد من مارية القبطية ﵂ اسمه إبراهيم. وبعدة العودة من تبوك أصيب إبراهيم بمرض، ومات منه بعد مدة قصيرة.

حزن النبي عليه الصلاة والسلام حزنـًا شديدًا لموته. فأخذت دموع الرحمة تنهمر من عينيه المباركتين بحرقة الفراق والرضا بقضاء الله تعالى، وقال:

«إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[١٦٦٠]

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه بإحضار حجر فجعله ناحية الرأس من القبر. وبذلك تم تمييز قبر إبراهيم بعلامة فارقة. ورُش على قبره الماء، فكان بذلك أول مرة يرش فيها الماء على قبر.[١٦٦١]

وفي هذه الأثناء كُسفت الشمس. فربط بعض الصحابة الكرام كسوف الشمس بوفاة إبراهيم وكان هذا من عادات الجاهلية قبل الإسلام. فصلى النبي عليه الصلاة والسلام ركعتين خلال حادثة الكسوف، وبين خطأ اعتقادهم، فقال:

«إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم كسوف أحدهما فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم» [١٦٦٢]

وفي شهر رجب توفي نجاشي الحبشة. وعلى الرغم من المسافات الشاسعة والبحار التي تفصل المدينة المنورة عن الحبشة، فقد أخبر النبي ﷺ أصحابه ذلك الصباح بوفاة النجاشي، وقال لهم:

١٦٦٠ البخاري: الجنائز، ٤٤/ ١٣٠٣؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٣٨.

١٦٦١ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٤٤؛ ابن عبد البر: ١، ٥٩.

١٦٦٢ النسائي: الكسوف، ١٤/ ١٥٠٢؛ أحمد: مسند، ٣٤، ٣٠/ ٢٠٣٩٠.

وفي وقتنا الحاضر نجد الناس في بعض المناطق أو البلدان لدى كسوف الشمس أو خسوف القمر يقومون بتصرفات خاطئة وباطلة مثل قرع الطبول، وإطلاق الأعيرة النارية بدلًا من اللجوء إلى الدعاء وذكر الله تعالى، وإقامة الصلاة. إن هذه البدعة أو الخرافة التي تسربت إلى عقول وعقائد الناس لا علاقة لها ألبتة بالإسلام. وكذلك فإن التشاؤم من نعيق البوم وذرف الدموع تصرفات ناشئة عن الأفكار والخرافات الباطلة نفسها.

«**إن أخـًا لكم قد مات. فقوموا فصلوا عليه!**»

فقال الصحابة: ومن هو يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ:

«**مات اليوم عبدٌ لله صالح. أصحمة الحبشي! استغفروا لأخيكم!**»

ثم صلى على جنازته صلاة الغائب.[١٦٦٣]

وفي شهر شعبان انتقلت إلى رحمة الله تعالى ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وزوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه السيدة أم كلثوم رضي الله عنها.[١٦٦٤]

و في شهر ذي القعدة أي بعد غزوة تبوك بشهرين انتهت حياة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، تلك الحياة التي كانت تضج بنشر الفتن والفساد بين الناس. وبوفاته اهتز عرش النفاق وتهاوت أركانه، فتاب أغلب من بقي من المنافقين وتحولوا إلى مسلمين حقيقيين صادقين.

ولما مات عبد الله جاء ابنه بناءً على وصيته إلى النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه، واستغفر له. فأعطاه قميصه، وقال: «**إذا فرغت منه فآذنا**».فلما فرغ آذنه به، فجاء ليصلي عليه، فجذبه عمر فقال رضي الله عنه: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين. فقال عليه الصلاة والسلام:

«**إنما خيرني الله فقال:﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة: ٨٠]

فنزل قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] .[١٦٦٥]

١٦٦٣ مسلم: الجنائز، ٦٢ – ٦٨ / ٩٥١/ ٩٥٢/ ٩٥٣؛ أحمد: مسند، ٣، ٣١٩، ٤، ٧.

١٦٦٤ ابن سعد: الطبقات، ٨، ٣٨.

١٦٦٥ البخاري: تفسير، ٨٩/ ٤٦٧٢؛ الجنائز، ٢٣/ ١٢٦٩، اللباس، ٨/ ٥٧٩٦؛ مسلم: فضائل الصحابة، ٢٥/ ٢٤٠٠

عام الوفود

لقد فتحت مكة، وتم النصر في حنين، وجاء أهل الطائف بعد مضي عام على الحصار إلى رسول الله ﷺ مسلمين، وخلال ذلك تكللت غزوة تبوك بالنجاح. فأعز الله الإسلام ولم يعد هناك أي عائق أمام الإسلام في سائر شبه الجزيرة العربية.

وبذلك، بدأت القبائل العربية التي أصبح بإمكانها التعرف بشكل مباشر على سمو الإسلام ورفعته، عظمته، بدأت بإرسال الوفود إلى رسول الله ﷺ وتقديم الولاء له. وكانت هذه الوفود التي قدمت من مختلف البلدان، من اليمن، وحضرموت، والبحرين، وعمان، والشام، وبلاد فارس، كانت إما تعلن إسلامها، أو تخبر النبي عليه الصلاة والسلام بدخولها الإسلام في وقت سابق. ثم كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم معلمين ومرشدين إلى بلادهم لكي يعلموا الناس أمور دينهم.

ومن أبرز وأجمل الأمثلة عن الوفود التي كانت تأتي إلى النبي ﷺ فتتعلم منه، ثم تعود إلى قبائلها فتبين لهم أمر الإسلام، ذلك الوفد الذي جاء إلى رسول الله ﷺ من بني تجيب. حيث جاء وفد مؤلف من عشرة أشخاص، وجلبوا معهم زكاة أموالهم أيضًا. وقد سُر النبي ﷺ كثيرًا لأمر هذا الوفد. فقال لهم:

«**مرحبًا بكم!**». وأكرم منزلهم وحباهم، وأمر بلالًا أن يحسن ضيافتهم. ثم قال وفد بني تجيب: يا رسول الله! سقنا إليك حق الله في أموالنا. فقال رسول الله ﷺ:

«**ردوها فاقسموها على فقرائكم**»

قالوا: يا رسول الله! ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله؛ ما وفد مِن العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تُجيب. فقال رسول الله ﷺ:

«**إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان!**»

وسأل الوفد رسول الله ﷺ عن أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ بهم رغبة وسرورًا، فأقاموا أيامًا عند النبي ﷺ، ولم يطيلوا اللبث، فلما أرادوا الانصراف قيل لهم: ما يدعوكم إلى العجلة في الرحيل؟ فقالوا: نرجع إلى مَن وراءنا من قومنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه، وما رد علينا. ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه، فأرسل إليهم بلالًا، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيزُ به الوفود.[١٦٦٦]

١٦٦٦ ابن سعد: الطبقات، ١، ٣٢٣؛ ابن قيم: زاد المعاد، ٣، ٦٥٠ – ٦٥١.

كان النبي عليه الصلاة والسلام يطلب من الوفود البقاء في المدينة مدة من الزمن، فيُشرف بنفسه على تعليمهم القرآن الكريم، وأساسيات أمور الدين، ويشاهد تطبيقهم لما تعلموه. فمثلًا؛ لما جاء وفد عبد القيس، طلب رسول الله عليه الصلاة والسلام من الأنصار أن يستضيفوهم، ويقوموا بإكرامهم والاهتمام بهم. وأوصاهم أن يتعلموا في هذه الفترة المعلومات الضرورية عن الدين، وأن يحفظوا من السور القرآنية ما يمكِّنهم من أداء الصلاة بها. وفي الصباح كان يطمئن على أحوالهم، ويسألهم عن إقامتهم لدى الأنصار، وهل ثمة ما يشتكون منه. فكان أعضاء الوفد يعبرون عن امتنانهم وشكرهم لحسن ضيافة الأنصار لهم. ثم بعد ذلك وزع رسول الله عليه الصلاة والسلام أعضاء الوفد على بيوت الصحابة، بحيث أرسل إلى كل بيت واحدًا أو اثنين منهم، وذلك بهدف تعلم أمور الدين بسهولة ويسر أكبر. وقد سرَّ النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا بما بذله الصحابة الكرام من جهد في تعليم الوفد، ومن عزيمة بني عبد القيس على التعلم، فاختبر حفظ كل واحد منهم فردًا فردًا للتحيات، والفاتحة، والسور القرآنية الأخرى التي تعلموها.[١٦٦٧]

وهكذا أخذ الإسلام بمرور الأيام ينتشر في سائر شبه الجزيرة العربية. حيث كان الناس يأتون أفواجـًا أفواجـًا فيدخلون في الإسلام. وكانت المدينة تعج بالحركة والنشاط، إذ كانت كل يوم تستقبل عشرات الضيوف. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستقبل هؤلاء الضيوف على أحسن ما يكون الاستقبال، ويتحدث إليهم ويجالس كلًا منهم على حسب حالته، وسلوكه وعاداته وأعرافه، ويسألهم عن أحوال بلدانهم ويطَّلع على شؤونها، ويستمع بكل رحابة صدر إلى مطالبهم وأسئلتهم ويجيبهم عليها بوجه سَمْحٍ مشرق، ويقضي حاجاتهم إن كانت لهم حاجة، فيعمل بذلك على نقش نور الإسلام وصفائه في قلوبهم كما ينقش الفنان المبدع أجمل لوحاته.[١٦٦٨]

لقد خلفت الآلام والمعاناة السابقة مكانها إحسانـًا ولطفـًا وبركة. وقد خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام – ومن خلاله المؤمنين الذين تشربوا وعُجنوا بهذه المعاناة والألم – ليقابلوا هذه النعمة وهذا الفتح العظيم بالشكر والطاعة، بقوله:

١٦٦٧ أحمد: مسند، ٣، ٤٠٢.

١٦٦٨ انظر: النسائي: العمرة، ٥.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[١٦٦٩]

وقد أطلق على العام التاسع بعد الهجرة اسم «عام الوفود» بسبب الانتشار السريع للإسلام في سائر شبه الجزيرة العربية، وقدوم وفود القبائل إلى المدينة المنورة أفواجـًا أفواجـًا من أجل تعلم الدين المبين.

فريضة الحج

كانت مراسم الحج حتى السنة التاسعة للهجرة تُؤدى وفقـًا للحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، مع الكثير من الممارسات الخاطئة التي تم خلطها بها من قبل المشركين. وأما في هذ العام فقد أرسل النبي ﷺ قافلة مؤلفة من ثلاثمائة شخص من المسلمين إلى مكة لأداء مناسك الحج الإسلامي، وأمَّر عليهم أبا بكر الصديق رضي الله عنه لتعليمهم كيفية أداء هذه المناسك. وأخبرهم بأنه سوف يحج في السنة العاشرة. وأرسل معهم عشرين جملًا من أجل الأضاحي ووضع على رقابها علامة للدلالة عليها.

ولما خرج أبو بكر رضي الله عنه بالقافلة في طريقه إلى مكة نزلت الآيات الأولى من سور التوبة «براءة». وبذلك جاء الأمر الإلهي بتطهير بيت الله من المشركين كما طُهر قبلًا من الأصنام والأوثان. لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن أحد يتدخل بأمر أداء المشركين لعباداتهم في الكعبة. لكن عبادات المشركين في الكعبة المشرفة كانت تخالف دين التوحيد بما فيها من تصفيق وصفير وعري ومخالفة للأخلاق الكريمة وإساءة للآخرين، وهكذا فإن آيات سورة براءة التي نزلت في هذه الأثناء، وضعت حدًا نهائيـًا لكل الممارسات المسيئة إلى التوحيد والتي تجري في الكعبة. حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ. وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

١٦٦٩ النصر: ١ – ٣.

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[١٦٧٠]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١٦٧١]

فأرسل النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه إلى مكة خلف أبي بكر رضي الله عنه ليصدع بهذه الآيات على الناس.

وفي اليوم الأول لعيد الأضحى وقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب جمرة العقبة فألقى خطبة وأدى المهمة التي أوكلها إليه رسول الله ﷺ. وبعد أن تلا الآيات المحددة من السورة، بين للناس الأمور الأربعة التي زوده بها رسول الله ﷺ نوردها فيما يأتي:

١. **لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة.**

٣. **ولا يطوف بالبيت عريان.**

٣. **ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.**

٤. **ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته.**

إذًا، فلن يأت بعد هذا العام أحد من المشركين للحج، ولن يطوف بالكعبة أحد عريانـًا.

وبعد هذا العام استفاق آخر المشركين من شركهم الذي أودى بهم إلى التهلكة والخسران، فتداركوا أنفسهم في النهاية، واختاروا الإيمان.

وبعد هذا العام طُهرت الكعبة المشرفة من رجس المشركين كما طُهرت في السابق من الأصنام، وأصبحت جاهزة لاستقبال النبي عليه الصلاة والسلام في العادم القادم من أجل أداء الحج الكبير.[١٦٧٢]

١٦٧٠ التوبة: ١ – ٤.

١٦٧١ التوبة: ٢٨.

١٦٧٢ ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٠١؛ الترمذي: الحج، ٤٤ / ٨٧١؛ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٧٧.

السنة العاشرة للهجرة

إسلام عدي بن حاتم

لقد كان حاتم الطائي الذي طبقت شهرته الآفاق، وضرب به المثل في الكرم والسخاء، والذي تناقلت الألسن سيرته الأسطورية في شبه الجزيرة العربية ينتسب إلى قبيلة طي، وكان ابنه عدي من بعده كبير قومه، وذا شرف رفيع، وصاحب فصاحة وحكمة وخطابة نادرة، واشتهر كأبيه بالفضيلة والمروءة والكرم. ولما بعث رسول الله ﷺ في السنة التاسعة للهجرة بعلي بن أبي طالب كرّم الله وجه إلى قبيلة طيء ليهدم صنمهم «الفلس» كان عدي قد هرب إلى الشام. وجيء بأخته سفانة أسيرة إلى المدينة المنورة.

فأطلق النبي ﷺ سراح سفانة، وأعطاها دابة للركوب، وكساها لباسًا، وزادًا لطريق سفرها ثم أرفقها ببعض قومها من ذوي الأمانة والمروءة، ثم أرسلها إلى الشام.

يقول عدي بن حاتم:

«كانت سفانة امرأة حازمة ذات رأي، فسألتها:

- ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت لي:

- أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكًا فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت، فالرأي لك. قال: قلت:

- والله إن هذا الرأي. والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبًا لم يضرني، وإن كان صادقًا علمت. فاتبعته! فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، فذكر قربهم منه فعرفت أنه ليس ملك كسرى، ولا قيصر.! فدخلت عليه، فسلمت عليه، فقال:

- **من الرجل؟** فقلت:

- عدي بن حاتم.

فقام رسول الله ﷺ، فأمسك بيدي وانطلق بي إلى بيته. فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، وقضى لها حاجتها.

قلت في نفسي:

– والله ما هذا بملك! ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل في بيته، تناول وسادة في أدم محشوة ليفـًا، فقذفها إلي، فقال:

– **اجلس على هذه!**. قلت:

– بل أنت فاجلس عليها!. فقال رسول الله ﷺ:

– **بل أنت!**. فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض. قلت في نفسي:

– والله ما هذا بأمر ملك!. ثم قال لي رسول الله ﷺ:

– **يا عدي بن حاتم!** أسلم تسلم ثلاثـًا. فقلت:

– إني على دين. فقال:

– **أنا أعلم بدينك منك!** فقلت:

– أنت أعلم بديني مني؟. فقال رسول الله ﷺ:

– **نعم! ألم تك ركوسيا.**[١٦٧٣] **وأنت تأكل مرباع قومك؟**. قلت:

– بلى. فقال النبي ﷺ:

– **فإن هذا لا يحل لك في دينك!**

فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها واستحييت من رسول الله ﷺ. وقلت:

– أجل والله! وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل على غيره. ثم قال رسول الله ﷺ:

– **أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام. تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب، وما ترى من حاجتهم، وما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم. أتعرف الحيرة؟**.قلت:

– لم أرها وقد سمعت بها.

فقال رسول الله ﷺ:

– **فوالذي نفسي بيده ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد. وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز!**. قلت:

١٦٧٣ الرنكوسية: هي دين يخلط بين النصرانية والصابئة.

- كسرى بن هرمز؟ فقال:
- **نعم كسرى بن هرمز!** ثم قال:
- **فإن طالت بك الحياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه!**

فلما أسلمت فرأيت وجه رسول الله ﷺ استبشر من السرور، وأمر أن أنزل ضيفًا على بيت من بيوت الأنصار. فبدأت أذهب إلى بيته صباح مساء، ولم أكن أفوِّت على نفسي صلاة لكيلا أكون بعيدًا عنه ولما كنت أشتاق إليه!.

ثم يقول عدي بن حاتم رضي الله عنه:

فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله! وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها»[١٦٧٤]

وقد تحقق الأمر الآخر الذي أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، ففي عهد الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أرسل عامل الزكاة بالأموال إلى بلدان إفريقيا. إلا أن العامل عاد إلى عمر بن عبد العزيز بالمال دون أن يوزع منه شيئًا. لأنه لم يجد من يأخذ أموال الزكاة. فعمد عمر بن عبد العزيز إلى هذه الأموال فاشترى بها عددا كبيرًا من الأرقاء ثم حررهم.[١٦٧٥]

حجة الوداع: الحج الأول والأخير لنور الكون عليه الصلاة والسلام

إن الحج الذي أداه النبي ﷺ بعد نزول فرضية الحج هو ما يعرف بـ «**حجة الوداع**»، وكانت هذه الحجة هي الوحيدة التي يؤديها رسول الله ﷺ. فلما ودع الرسول ﷺ الناس في هذا الحج قالوا بأن هذا «حج الوداع»، وشاع هذا الاسم واشتهر بين الناس.[١٦٧٦] وأما النبي ﷺ فكان يتحدث عن هذه الحج باسم «**حجة الإسلام**».[١٦٧٧]

١٦٧٤ البخاري: المناقب، ٢٥/ ٣٥٩٥؛ أحمد: مسند، ٤، ٢٥٧، ٣٧٧ – ٣٧٩/ ١٨٢٦٠؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٤٦؛ ابن كثير: البداية، ٥، ٦٢.

١٦٧٥ انظر. البوطي: ص، ٤٣٤.

١٦٧٦ البخاري: الحج، ١٣٢.

١٦٧٧ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٣٧.

لقد دعي جميع الناس من قبل رسول الله ﷺ إلى هذا الحج الذي جاء في ذروة قوة سلطة وحاكمية الإسلام على بلاد شبه الجزيرة العربية التي أسلمت عن بكرة أبيها، وذلك في العام العاشر للهجرة النبوية. فاستجاب لهذه الدعوة كل من امتلأ قلوبه بمحبة وعشق الله تعالى ورسوله ﷺ. ولما وصل خبر الدعوة إلى القبائل في أطراف الجزيرة العربية، تدفق الناس إلى المدينة من كل الجهات كالسيل الجارف. وإن أعداد الذين انضموا إلى قافلة الحج في طريق سيرها كانت أكبر بكثير. فالناس منتشرون وسائرون على مد البصر لا تُرى لهم نهاية. وقد بلغت أعداد المؤمنين الذين سارعوا إلى المجيء لأداء الحج مع النبي ﷺ ما يزيد عن المائة وعشرين ألف حاج. فجميعهم كانوا على قلب وحالة واحدة، ويقدمون بذلك مشهدًا خلابًا وساميًا يفوق الوصف والخيال.

وبعد أن بين النبي ﷺ للحشد العظيم أحكام الحج والإحرام باقتضاب تحرك في طريقه متجهـًا إلى بيت الله الحرام. وأخذ رسول الله ﷺ معه مائة جمل لتقديمها أضاحي في الحج، وكان طيلة الطريق يتحدث للمسلمين عن الحج ومسائله، وقد بين للناس في الخطبة التي ألقاها واجباتِ الحج، وسننه. ولما وصل إلى ذي الحليفة قال للمسلمين في وادي العقيق:

«**أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة**» [١٦٧٨]

فصلى هناك ركعتي إحرام. وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وسبح وكبر، دعا قائلًا:

«**اللهم حجةً لا رياء فيها ولا سمعة**»[١٦٧٩]

وأحرم في ذي الحليفة، ثم بدأ بالتلبية:

«**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»[١٦٨٠]

وبعد ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة، فليفعل، ومن أراد أن يهل بحج فليهل، ومن أراد أن يهل بعمرة، فليهل**» [١٦٨١]

١٦٧٨ البخاري: الحج، ١٦/ ١٥٣٤.

١٦٧٩ ابن ماجه: المناسك، ٤/ ٢٨٩٠.

١٦٨٠ البخاري: الحج، ٢٦/ ١٥٤٩.

١٦٨١ مسلم: الحج، ١١١- ١١٤/ ١٢١١؛ ابن ماجه: المناسك، ٤٨/ ٣٠٠٠.

وبعد أن دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام في الإحرام وبدأ بالتلبية، ﷺ، قال:

«جاءني جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها من شعار الحج» [١٦٨٢]

فكانت الأرض والسموات تضج بأصوات التلبية تصدح بها حناجر المؤمنين، وكانت السكينة والخشوع تسود كل مكان.

وخلال مسير المسلمين إلى الحج كان النبي عليه الصلاة والسلام يؤم الناس بالصلاة حيث يدركهم وقتها. وفيما بعد بنيت في هذه الأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ مساجد كمظهر من مظاهر الوفاء والمحبة والتأسي.[١٦٨٣]

ولما رأى النبي ﷺ بيت الله الحرام رفع يديه إلى السماء، وقال:

«اللهم زد هذا البيت تشريفـًا وتعظيمـًا وتكريمـًا ومهابة، وزد من عظَّمه ممن حجه واعتمره تشريفـًا وتكريمـًا ومهابة وتعظيمـًا وبِرًّا»[١٦٨٤]

فمرر النبي ﷺ طرف ردائه من تحت إبطه الأيمن وجعله على كتفه الأيسر، وترك ذراعه الأيمن عاريـًا دون غطاء، ثم دخل بهذه الصورة إلى الحرم حتى وصل إلى ركن الحجر الأسود فاستلمه. وامتلأت عيناه في هذه اللحظات بالدموع، فقبَّل الحجر الأسود، ووضع يده عليه ثم مسح على وجهه، وقال:

«اللهم إيمانـًا بك وتصديقـًا بكتابك، واتباعـًا سنة نبيك»[١٦٨٥]

أدى النبي ﷺ الأشواط الثلاثة الأولى للطواف رملًا. وكان إذا وصل إلى موازاة الركن اليماني والحجر الأسود، يقرأ قول الله تعالى:

﴿...رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٦٨٦]

وبعد أن أنهى رسول الله ﷺ هذا القسم من الطواف قبّل الحجر الأسود، ثم وضع يديه عليه ومسح بهما وجهه المبارك. ثم مر بين الناس بسرعة حتى جاء إلى مقام إبراهيم ﷺ،

١٦٨٢ ابن ماجه: المناسك، ١٦/ ٢٩٢٣.

١٦٨٣ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٧٣.

١٦٨٤ ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٧٣؛ الواقدي: المغازي، ٣، ٢٠٩٧.

١٦٨٥ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٤٠/ ٥٤٧٠/ ٥٤٧١.

١٦٨٦ البقرة: ٢٠١.

فجعل المقام بينه وبين بيت الله وصلى ركعتين. ثم عاد واستلم الحجر الأسود، وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«يا عمر! إنك رجل قوي. لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر»[١٦٨٧]

وبعد ذلك خرج النبي ﷺ من الكعبة من باب بني مخزوم واتجه إلى جبل الصفا، ولما اقترب من هناك قرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾[١٦٨٨]

وقال:

«نبدأ بما بدأ الله تعالى به»

ثم ذهب إلى هناك لكي يبدأ بالسعي من الصفا. ولما رأى بيت الله نظر إليه ثم هلل وكبر، وقال ثلاث أو سبع مرات:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[١٦٨٩]

ثم نزل من الصفا ماشيـًا إلى جبل مروة. وكان النبي ﷺ إذا ما وصل إلى وسط وادي السعي أسرع خطاه، وإذا تجاوزه عاد إلى سيره الطبيعي. ويدعو في هذه الأثناء بقوله:

«رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم»[١٦٩٠]

١٦٨٧ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٤١/ ٥٤٧٦؛ أحمد: مسند، ١، ٢٨/ ١٩٠.
لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستلم الحجر الأسود من بعيد حتى لا يؤذي أحدًا. إن هذا الأمر من المسائل الحساسة والهامة التي ينبغي أن يتوقف عندها الحجيج في وقتنا الحاضر. فلا ينبغي للمسلم أن يحبط ثواب حجه من خلال إلحاقه الأذى بالمؤمنين أثناء أدائه مناسك الحج. فعليه أن يكون في غاية الحيطة والحذر من مزاحمة الحجاج وإيذائهم وهو ينفذ وصية رسول الله ﷺ باستلام الحجر الأسود أو الاقتراب من الكعبة المشرفة. أتى عمر رضي الله عنه ذات مرة إلى الحجر الأسود فقبله، وقال: «إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك» (البخاري: الحج، ٥٠/ ١٥٩٧؛ مسلم: الحج، ٢٥١)

١٦٨٨ البقرة: ١٥٨.

١٦٨٩ ابن ماجه: المناسك، ٨٤/ ٣٠٧٤.

١٦٩٠ الواقدي: المغازي، ٣، ١٠٩٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٣، ٢٤٨/ ١٧٣٧١.

ولما وصل النبي ﷺ إلى جبل المروة فعل ما فعله في الصفا تمامـًا. فسعا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، حيث أتمها في المروة.

أقام النبي ﷺ في مكة أربعة أيام. وفي اليوم الخامس بعد أن أدى طواف «**التروية**» حول بيت الله ركب ناقته، وذهب إلى منى، فبقي فيها حتى صلى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، وانتظر حتى إشراق الشمس. وفي صباح اليوم التاسع لشهر ذي الحجة توجه إلى عرفة. واستمر في التلبية ابتداءً من منى حتى وصل إلى عرفة.

كان النبي ﷺ يعلِّم أمته كيفية القيام بشعائر الحج بنفسه، وبعد أن أنهى كل أعماله وقف في المكان الذي يقع فيه اليوم مسجد نميرة على دابته، وألقى خطبته الشهيرة «**خطبة الوداع**»، فقال:

«**أيها الناس**: اسمعوا قولي! فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا أبدًا!

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة بلدكم هذا.

وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم! فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض! ألا وإني فرطكم على الحوض أنظركم، وإني مكاثر بكم الأمم، فلا تسودوا وجهي!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها! وكلُّ ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين. ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون! قضى الله أنه لا ربا، وإنَّ أول ربا أبدأ به، ربا عمي العباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع، دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

أما بعد: **أيها الناس**: فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم!

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يُضَل به الذين كفروا يحلونه عامـًا، ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد

استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: **أيها الناس،** فإن لكم على نسائكم حقـًا، ولهن عليكم حقـًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئـًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا، ولا يحل لامرأة تأخذ من بيت زوجها إلا بإذن زوجها. فاعقلوا أيها الناس قولي.

واتقوا الله في ملك أيمانكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون! ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم! وإن جاؤوا بفعل تكرهونه فاعفوا عنهم! ولا تؤذوهم فإنهم عباد الله.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم!

أيها الناس: ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده!

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية،[١٦٩١] ولا يجوز وصية في أكثر من ثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

أيها الناس:

١٦٩١ كانت الوصية قبل آية الميراث فرضـًا. وبعد نزول آيات المواريث بُينت كل الحقوق المتعلقة بالميراث، فأُلغيت فرضية الوصية. إلا أن المورث يستطيع أن يوصي ضمن حدود ثلث أمواله.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ...﴾[١٦٩٢]

أيها الناس: فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم.

أيها الناس: إياكم والغلو في الدين! فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين. خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في مقامي هذا! ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه.

وهنا سأل الرسول ﷺ أصحابه الحاضرين الذين يتجاوز عددهم المائة ألف:

- **أيها الناس!** إنكم ستُسألون عني، فماذا أنتم قائلون؟

فقال الصحابة جميعهم:

- نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ووفيت وأديت الذي عليك كله!

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام:

ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟

ثم رفع يديه إلى السماء فقال:

اللهم أشهد عليهم! اللهم أشهد عليهم! اللهم اشهد عليهم!»[١٦٩٣]

إن خطبة الوداع تُعد تنظيمـًا للعلاقات البشرية، وخلاصة للأحكام الإسلامية، وتُعتبر في الوقت نفسه بمثابة «إعلان حقوق الإنسان«. حيث إن الفيلسوف الفرنسي «لا فاييت«الذي يُعد أحد منظري وواضعي الأسس الفكرية للثورة الفرنسية الكبرى في عام / ١٧٨٩ /، قام قبل إصدار «إعلان حقوق الإنسان» بالبحث والتحقيق في كافة الأنظمة الحقوقية التي

١٦٩٢ التوبة: ٣٧.

١٦٩٣ مسلم: الحج، ١٤٧؛ أبو داود: المناسك، ٥٦؛ ابن ماجه: المناسك، ٧٦، ٨٤؛ أحمد: مسند، ٥، ٣٠؛ ابن هشام: السيرة، ٤، ٢٧٥؛ حميد الله: الوثائق، ص، ٣٦٠.

شهدتها البشرية، ومن جملتها التشريع الإسلامي، ولما اطلع على مبادئ العدالة والإنسانية التي أعلنها النبي ﷺ في خطبة الوداع والتي كانت مشاعل وضاءة للعالم بأسره، قال:

- يا محمد يا عظيم الشأن! إنك قد وصلت مستوى رفيعًا من العدالة لم يستطع أحد إلى يومنا هذا بلوغه، ولن يبلغه أحد في المستقبل أيضًا![١٦٩٤]

لقد بين النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الخطبة الأحكام التي يجب على الناس العلم بها، والتي لا يُعذر أحد بالجهل بها. وقد عمل على نشر هذه الأحكام بين سائر الناس من خلال الجمع الغفير الذي كان حاضرًا ويستمع إلى الخطبة.

وبعد خطبة الوداع رفع بلال الحبشي ﷺ الأذان، فجمع رسول الله ﷺ صلاتي الظهر والعصر معًا، حيث صلى في البدء صلاة الظهر، ثم أمر بالإقامة فصلى فرض العصر. وبعد الصلاة ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء واتجه إلى مكان وقفة عرفة على ظهر جبل الرحمة. فجعل صدر القصواء إلى الصخور واتجه ناحية القبلة. ووقف هناك حتى غابت الشمس وذهب اصفرارها.

وخلال الوقفة أمسك النبي ﷺ بإحدى يديه زمام الناقة، ورفع الأخرى إلى السماء، فدعا دعاءً طويلًا عبر فيه عن عبوديته ومحبته وشوقه لله تعالى. ونورد فيما يأتي قسمًا من هذا الدعاء:

«اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيرًا مما نقول!

اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي!

اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر!

اللهم إني أعوذ بك من شر ما يجيء به الريح!

اللهم اجعل في بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي قلبي نورًا!

اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري!

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك!

اللهم اهدني واعف عني!

١٦٩٤ كامل ميراث: ترجمة التجريد الصريح، ٩، ٢٨٩. Kâmil Mîras، Tecrid - i Sarih Tercemesi

اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف المضطر، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسمه، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك شقيًا، وكن بي رؤوفًا رحيمًا، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين!»[١٦٩٥]

ونورد من الأدعية التي دعا بها السلف الصالح في عرفة ما يأتي:

إلهي! من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي!

إلهي! أخرست المعاصي لساني فما لي وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل!

إلهي! إني أعلم أن ذنوبي لم تُبقِ لي عندك جاهًا، ولا للاعتذار وجهًا، ولكنك أكرم الأكرمين!

إلهي إن لم أكن أهلًا أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني! ورحمتك وسعت كل شيءٍ وأنا شيءٌ!

إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظامًا، ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم!

إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك، فإلى من يفزع المذنبون!

إلهي إن كنت لا تقبل إلا العاملين فمن للمقصرين!

إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه، فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه!

اللهم إليك خرجنا، وبفنائك أنخنا، وإياك أملنا، وما عندك طلبنا، ولإحسانك تعرضنا، ورحمتك رجونا، ومن عذابك أشفقنا، وإليك بأثقال الذنوب هربنا، ولبيتك الحرام حججنا!

يا من يملك حوائج السائلين! ويعلم ضمائر الصامتين! يا من ليس معه رب يُدعى، ويا من ليس فوقه خالق يخشى، ويا من ليس له وزير يؤتى، ولا حاجب يرشى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جودًا وكرمًا! وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلًا وإحسانًا! اللهم إنك جعلت لكل ضيف قِرى، ونحن أضيافك! فاجعل قرانا منك الجنة![١٦٩٦]

١٦٩٥ مسلم: الرقاق ٩٦/ ٢٧٣٩؛ الترمذي: الدعوات، ٨٨/ ٣٥٢٠؛ ابن كثير: البداية، ٥، ١٦٦ – ١٦٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ٢٥٢/ ٥٥٤٩؛ ابن قيم: زاد المعاد، ٢، ٢٣٧.

١٦٩٦ الغزالي: الإحياء، ١، ٣٣٧ – ٣٣٨؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٢، ٢٥ – ٢٦.

ولما كان النبي ﷺ واقفًا في عرفة، جاء إليه بعض الناس من أهل نجد، وسألوه: يا رسول الله! كيف الحج؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«الحج عرفة، فمن جاء قبل صلاة الفجر، ليلة جمع، فقد تم حجه، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين، فلا إثم عليه، ومن تأخر، فلا إثم عليه»[١٦٩٧]

اليوم أكملت لكم دينكم

وأثناء وقوف النبي عليه الصلاة والسلام في عرفة ولدى غياب الشمس نزلت الآية الكريمة التي تخبره والمسلمين باكتمال الدين. حيث قال الله تعالى:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[١٦٩٨]

وما إن سمع أبو بكر الصديق ﷺ هذه الآية الكريمة حتى فهم كل شيءٍ بفراسته الثاقبة. إذ إنه لمس عمق معنى «أتممت عليكم نعمتي»، وبدأ يشعر بقرب وقوع الحادثة التي سوف تأتي بعد بلوغ الدين إلى مرحلة الكمال.

لقد كانت هذه الآية الكريمة في نظر أهل الفراسة بمثابة إخبار بقرب ارتحال النبي ﷺ. حيث إن الله ﷻ سوف يدعو في المستقبل القريب جدًا حبيبه نور الكائنات إلى العالم الأبدي الخالد. فامتلأت عينا أبي بكر ﷺ بالدمع، وبدأ يجهش بالبكاء من آلام الفراق التي سيطرت على قلبه، بينما الناس من حوله لم يشعروا بشيءٍ بعد.[١٦٩٩]

لأن الأمانة المقدسة التي جاءت خلال ثلاث وعشرين سنة كان يتم إيداعها كرحمة أبدية لدى الأمة إلى يوم القيامة.

وبعد تمام غياب الشمس، أردف رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ﷺ خلفه على ناقته، وتوجه من عرفة إلى المزدلفة. وفي مزدلفة صلى صلاتي المغرب والعشاء جمعًا في وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين، حيث صلى في البداية صلاة المغرب، ثم أتبعها بصلاة

١٦٩٧ ابن ماجه: المناسك، ٥٧/ ٣٠١٥.

١٦٩٨ المائدة: ٣. الترمذي: التفسير، ٥ / ٣٠٤٣.

١٦٩٩ المالِلي: لسان القرآن ودين الحق، ٣، ١٥٦٩. Hak Dini Kuran dili.

العشاء. وبقي النبي ﷺ في مزدلفة حتى بزوغ الفجر. ولم ينتقل من وقفة مزدلفة حتى انقشع الظلام بشكل كبير وظهر بياض النهار، وكان في هذه الأثناء مستمرًا بالتلبية والدعاء.

جمع رسول الله عليه الصلاة والسلام في مزدلفة الحصيات التي سوف يرمي بها في منى. تحرك من مزدلفة قبل شروق الشمس، وأمر أصحابه بجمع الحصيات التي سيرمونها في الجمرات.[١٧٠٠] وأخبرهم بحجمها وكيفية رميها.

المكان الذي تجلى فيه غضب الله

عندما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى ممر ببطن محسر الذي يقع بين منى ومزدلفة أسرع في سيره. فتعجب الصحابة الكرام من ذلك، وسألوه عن سبب إسراعه، فقال:

- **لأن الله أهلك فيه أصحاب الفيل!**.[١٧٠١]

ولذلك لا يسن في الحج الوقوف بهذا المكان.

إن تجليات الرحمة والغضب الإلهي تنعكس في بعض الأحيان حتى على الجمادات. ولذلك ينبغي على المسلم ملازمة الأماكن التي تكون مظهرًا لتجليات الرحمة الإلهية، مثل؛ الكعبة المشرفة، والمساجد، ومجالس الصالحين وغيرها. وبالمقابل عليه تجنب الأماكن التي ارتكبت فيها المعاصي والآثام، وتعرضت بذلك للغضب الإلهي.

إن الجمادات أيضًا خاضعة لقانون الجذب والانجذاب. ولذلك فإن جذع النخلة المليء بالمشاعر النورانية الذي كان يخطب الرسول في الناس عنده بدأ يئنّ ويبكي لمّا تحول النبي ﷺ عنه وصار يخطب على المنبر.[١٧٠٢] وقد بلغت الروايات التي نقلت هذه الحادثة مبلغ التواتر.

ويقول أحد الأولياء الصالحين في هذا الخصوص:

«إن الهواء، والتراب، والماء، والنار عبيد من عباد الله تعالى، وتسير في طاعته. إنها بالنسبة لي ولك كائنات لا روح فيها، ولكنها أمام الله سبحانه وتعالى ذات أرواح».

١٧٠٠ الجمرات: تأتي بمعان كثيرة؛ وفي الحج تعني مكان رمي الجمرات أو الحجارة. وإن الجمرة الكبرى، والوسطى، والصغرى تعني رمي حجارة صغيرة في زمن مخصوص، ومكان مخصوص، وبعدد مخصوص.

١٧٠١ النووي: شرح مسلم، ١٨، ١١١؛ ابن قيم: ٢، ٢٥٥ – ٢٥٦.

١٧٠٢ البخاري: المناقب، ٢٥، البيوع، ٣٢.

بعد أن مر النبي عليه الصلاة والسلام من وادي محسر، وصل إلى الجمرة الكبرى، أي جمرة العقبة. ورمى جمرات العقبة بعد شروق الشمس من يوم النحر. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يمسك الجمرات بأصبعيه السبابة والإبهام، وبينما كان يرمي بها واحدة تلو الأخرى، تزاحم الناس في رمي جمراتهم وبدأت الجمرات تتساقط عليهم. فقال رسول الله ﷺ:

«يا أيها الناس لا يقتلنَّ بعضُكم بعضًا! وإذا رميتم الجمار فارموا بمثل حصى الخذف»[١٧٠٣]

ويتحدث قدامة بن عبد الله رضي الله عنه عن حالة النبي ﷺ خلال لحظات رمي الجمرات، فيقول:

«رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر، على ناقة له صهباء، لا ضرب ولا طرد، ولا إليك إليك!»[١٧٠٤]

نحر رسول الله ﷺ بيده المباركة ثلاثة وستين جملًا على عدد سنوات عمره، وبعدها أعطى السكين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فنحر البقية الباقية من الأضاحي. وأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بأخذ قليل من اللحم من كل أضحية. فوضع هذا اللحم في قدر وتم طهيه، فأكل هو وعليّ من ذلك اللحم، ثم أمر فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام عليًا بتوزيع ما بقي من اللحم، والجلود على الفقراء.

وبعد أن ذبح النبي ﷺ الأضاحي نادى على حلاقه فحلق شعره. ونهى النساء عن الحلق، فقال:

«ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير» [١٧٠٥]

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة. نحر نسكه وحلق. ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه. ثم ناوله الشق الأيسر. فقال «**احلق**» فحلقه. فأعطاه أبا طلحة. فقال:

«اقسمه بين الناس!»[١٧٠٦]

١٧٠٣ أحمد: مسند، ٦، ٣٧٩/ ٢٧١٣٢.

١٧٠٤ ابن ماجه: المناسك، ٦٦/ ٣٠٣٥.

١٧٠٥ الدارمي: المناسك، ٦٣/ ١٩٤٦.

١٧٠٦ مسلم: الحج، ٣٢٣ – ٣٢٦/ ١٣٠٥؛ البخاري: الوضوء، ٣٣.

ولما حلق رسول الله ﷺ شعر ناصيته، قال خالد بن الوليد رضي الله عنه:

«يا رسول الله! ناصيتك لا تُؤثر بها عليّ أحدًا! فداك أبي وأمي![١٧٠٧] ولما أُعطي الشعر صار يمسح به عينيه، ثم وضعه في مقدمة قلنسوته، وبذلك لم يدخل معركة أو مواجهة إلا خرج منها منتصرًا، وكان يقول رضي الله عنه:

- فما وجهت في وجه إلا فتح لي!»[١٧٠٨]

ركب رسول الله عليه الصلاة والسلام ناقته قبل ظهر اليوم الأول لعيد الأضحى المبارك واتجه إلى بيت الله لأداء طواف الإفاضة. وبعد أن أنهى الطواف حول البيت صلى صلاة الظهر، ثم ذهب إلى بئر زمزم، وعاد في المساء من ذلك اليوم إلى منى، حيث قضى ليالي أيام التشريق في منى. ولم يتوقف في هذه الليالي عن زيارة بيت الله ثم العودة مجددًا.

وفي اليوم الأول والثاني من أيام التشريق التي أعقبت عيد الأضحى المبارك، سار النبي عليه الصلاة والسلام مشيًا على الأقدام وذلك وقت ميل الشمس إلى الغروب، حتى

١٧٠٧ وفي هذه الأثناء كان أبو بكر رضي الله عنه يفكر بأفعال خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم أحد، والخندق، والحديبية، وينظر إلى حالته التي هو عليها الآن بدهشة وتعجب. (ابن سعد: الطبقات، ٢، ١٧٤)

١٧٠٨ الواقدي: المغازي، ٣، ١١٠٨؛ ابن الأثير: أُسد الغابة، ٢، ١١١.

وينقل لنا حكمت أتان باي مثالًا حيًا عن التبرك بشعر النبي ﷺ ولحيته، فيقول: «في عام / ١٩٨٣ / سمعت من أوفلو علي يوجل أفندي هذه الحادثة، حيث قال: كنت إمامًا وخطيبًا في مسجد سولوفا المركزي. فجاءني إمام قرية مجاورة وقال لي: يا شيخي! لقد مرت عليّ حادثة، ولم أتمكن من تفسيرها أو فهمها، وهي: ذات يوم جاءني جمع من الناس من القرية المجاورة للقرية التي أعمل فيها إمامًا، وأحضروا معهم كتبًا، وقالوا: يا شيخنا! لقد توفي والدنا، وترك لنا هذه الكتب، إلا أننا لا نستطيع قراءة هذه الكتب. فأنت شيخ وإمام، ويمكنك الاستفادة منها، وإننا نهديها لك. فأخذت الكتب، وبعد أن ألقيت عليها نظرة سريعة، أخذتها إلى جانب موقد متقد ومضيء، ثم بدأت أتصفح هذه الكتب بتمهل. وبالتدقيق والتفتيش فيها وجدت كتابات، ومظروفات تعود إلى الشيخ المتوفي صاحب هذه الكتب. ولكونها كتابات خاصة جمعتها ورميتها في الموقد. وفجأة سمعت صوت نار يلقى عليها ماء فانكفأت النار، وانطفأ الموقد المتقد. ففزعت من المشهد وخرجت من البيت خائفًا مرعوبًا. ولم أعد إلى البيت إلا والخوف يحيط بي من كل جانب. ويتابع عليّ أفندي:

قلت لذلك الشيخ: كان في تلك المظروفات لحية النبي عليه الصلاة والسلام الشريفة. وفيما بعد لما التقيت ذات يوم بذلك الإمام قال لي:يا شيخ! كيف عرفت أن بداخل تلك المظروفات شعرات اللحية الشريفة للمصطفى ﷺ؟ فلقد جاءني بعد تلك الحادثة الأشخاص الذين أهدوا إليّ الكتب، وقالوا:يا إمام! لم نكن نعلم أن بداخل تلك المظروفات التي كانت بين الكتب شعرات اللحية الشريفة، فهل تعيدها إلينا؟

وصل إلى الجمرة الأولى التي تقع بعد مسجد منى. وفي اليوم الأخير من أيام التشريق وبعد رمي الجمرة الثالثة اتجه بعد الظهر من منى إلى المحصب.[١٧٠٩] ولما تفرق المسلمون من محصب وتوجهوا للمغادرة، قال رسول الله ﷺ:

«لا ينفرنَّ أحدٌ حتى يكون آخر عهده بالبيت»[١٧١٠]

وقبل صلاة الفجر من رابع ذي الحجة أُعلن أمر الخروج إلى الطواف حول بيت الله الحرام. فاتجه الناس إلى بيت الله، وطافوا «طواف الوداع». وفي هذه الأثناء جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وطلب الإذن من أجل البقاء في مكة. فلم يأذن له، وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثـًا!» [١٧١١]

كان النبي عليه الصلاة والسلام يُبدي احترامـًا عظيمـًا للحرم الشريف. وكان إذا أراد طعامـًا أو قضاء حاجة له يخرج من الحرم، ويذهب إلى مكان بعيد عنه. ولم يكن يقيم بمكة مدة طويلة لكيلا يتسرب إلى قلبه أي شعور بالملل، أو يقصر في إظهار الاحترام والتعظيم. وذلك لأن الإقامة في بلد بعيد عن مكة المكرمة والارتباط روحيـًا ببيت الله تعالى خير من البقاء قريبًا منها والإحساس بأن هذه البلدة كأي بلدة أخرى، ووذلك لما يصاب به الإنسان عندئذ من اللامبالاة وقلة التحفظ والاحترام لطول مدة الإقامة والاعتياد على المكان، ولما يعتريه من الاشتياق إلى بلده الأم.

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ والمسلمون طواف الوداع عادوا إلى المدينة المنورة.[١٧١٢]

ولأن الله ﷻ قد أتم نعمته، وأكمل دينه، فكان قد حان موعد الفراق والوصل العظيم.

١٧٠٩ المحصب: مكان يقع بين مكة ومنى، وهو أقرب إلى منى من مكة. وقد كان المشركون الذين اتحدوا فيما بينهم على كفرهم، اتخذوا قرار المقاطعة التي طبقوها بحق النبي عليه الصلاة والسلام في هذا المكان. ولما جاء النبي عليه الصلاة والسلام استذكر تلك الأيام. (البخاري: الحج، ٤٥)

١٧١٠ مسلم: الحج، ٣٧٩/ ١٣٢٧؛ الدارمي: المناسك، ٨٥/ ١٩٧٤.

١٧١١ الترمذي: الحج، ٩٧/ ٩٤٩؛ أحمد: مسند، ٤، ٣٣٩/ ١٨٩٨٥/ ٢٠٥٢٥.

١٧١٢ البخاري: الحج، ٢١، ٧٠، ١٢٨؛ مسلم: الحج، ١٤٧؛ ابن ماجه: المناسك، ٨٤.

السنة الحادية عشرة للهجرة

الوصل والوداع الكبير:

الرحلة السامية إلى الرفيق الأعلى

بعد حجة الوداع أصيب سيدنا محمد المصطفى المبعوث رحمة للعالمين والذي يمثل الحلقة الأولى والأخيرة في سلسلة الأنبياء، وسيد الكونين، ورسول الثقلين، وإمام الحرمين، ونور الكون، أصيب بحمى شديدة.

لقد كان هذا المرض الذي سوف يفرقه عن أمته، وينقله إلى الرفيق الأعلى الذي تمنى لقاءه طيلة عمره، كان مرض الموت. وبطبيعة الحال فإن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد أدرك قرب أجله بنزول سورة «النصر»، وكان يتجهز بناءً على ذلك لرحلته النهائية. فقد كان في حالة وداع إيحائي للأموات والأحياء معًا. حيث إنه قبل مرضه بيوم واحد كان قد قال:

- **إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع!**

ثم ذهب إلى مقبرة المدينة التي تُسمى «جنة البقيع»، فخاطبهم بقوله:

- **السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه، مما أصبح فيه الناس...**

ثم استغفر لهم وانصرف.[١٧١٣]

وبعد عودته من المقبرة صعد إلى منبره وخطب في أصحابه وكأنه يودعهم، حيث قال:

«إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلكوا، كما هلك من كان قبلكم» [١٧١٤]

وبعد أن نزل رسول الله ﷺ عن منبره أصابته حالة من الوهن فأخذه الصحابة الكرام إلى بيته، وهو متعب. ويومًا بعد يوم صار المرض يشتد عليه أكثر. ولما ثقل عليه المرض كثيرًا

١٧١٣ أحمد: مسند، ٣، ٤٨٩؛ الدرامي، المقدمة، ١، ٢١٥/ ٧٩.

١٧١٤ البخاري: الجنائز، ٧٣/ ١٣٤٤؛ مسلم: الفضائل، ٣٠-٣١/ ٢٢٩٦.

استأذن عليه الصلاة والسلام الذي كان مثال اللطف والرقة، استأذن من أزواجه الكريمات أمهات المؤمنين أن يمرض في بيت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.[١٧١٥]

لم يكن النبي ﷺ قد مر إلى ذلك اليوم بمرض بهذه الشدة والثقل. وبالأصل فإن الحياة الطاهرة والنظيفة التي عاشها عليه الصلاة والسلام، كانت حياة لا مثيل لها في اكتساب المناعة القوية ضد الأمراض. إلا أن مهمة النبوة[١٧١٦] التي استمرت ثلاثًا وعشرين سنة والتي تُعد من أسمى المهمات وأكثرها مشقة وتفوق طاقة البشر، قد أتعبت كاهله، وفي الوقت نفسه فإن مختلف أنواع الأذى والإساءات التي تلقاها منذ البداية على أيدي الأعداء قد أنهكت جسده المبارك. وكل ذلك قد فتح المجال لإمكانية إصابته بالمرض.

ومن جهة أخرى، فإن هذا المرض سوف يكون وسيلة لنيله أعلى المقامات والدرجات. فقد كان لحادثة التسمم التي وقعت في خيبر أثر كبير في هذا المرض أيضًا. حيث إن النبي ﷺ في أحد الأوقات التي اشتد عليه المرض قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[١٧١٧]

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[١٧١٨] في إشارة إلى آثار ذلك السم.

وبذلك فقد توفي النبي عليه الصلاة والسلام شهيدًا بسبب هذا السم، فالله سبحانه وتعالى الذي شرفه بالنبوة والرسالة، قد شرفه بالشهادة أيضًا.[١٧١٩]

١٧١٥ البخاري: الطب، ٢٢؛ أحمد: مسند، ٦، ٣٤، ٣٨؛ البلاذري: ١، ٥٤٥.

١٧١٦ خلال نزول الوحي كان جسم النبي ﷺ يزداد ثقلًا. فمثلًا إذا كان على ظهر ناقته كانت تضطر الدابة إلى البروك على الأرض، وإذا ما حاولت النهوض كانت أرجلها تتمايل من الثقل، وكأنها على وشك الكسر. (أحمد: مسند، ٢، ١٧٦، ٦، ٤٤٥؛ ابن سعد: الطبقات، ١، ١٩٧)

يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه:

«أني قاعد إلى جنب النبي ﷺ يومًا، إذ أوحي إليه، وغشيته السكينة ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة. فلا والله ما وجدت شيئًا قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ» (أحمد: مسند، ٥، ١٩٠-١٩١)

١٧١٧ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٤٤٢٨.

١٧١٨ مسلم: السلام، ٤٥/ ٢١٩٠.

١٧١٩ ابن هشام: السيرة، ٣، ٣٩٠؛ الواقدي: المغازي، ٢، ٦٧٨ - ٦٧٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٦، ١٥٣.

وكان لشدة ما يعانيه النبي ﷺ من حرارة الحمى يتصبب العرق منه تصببًا، وإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه حين أتى إلى زيارة النبي عليه الصلاة والسلام لم يتمالك نفسه أن يقول:

- يا رسول الله! ما أشدها ـ يعني حرارة الحمى ـ عليك!

حيث يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

- دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف. فقلت:

- يا رسول الله ما أشدها عليك!

فقال رسول الله ﷺ:

- **إنا كذلك** ـ الأنبياء ـ **يُضاعف لنا البلاء، ويُضاعف لنا الأجر.**

قلت:

- يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟. قال:

- **الأنبياء!**. قلت:

- يا رسول الله، ثم من؟

قال رسول الله ﷺ:

- **ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء.**[١٧٢٠]

وفي الأيام الأخيرة اشتد عليه المرض بدرجة كبيرة حتى إنه لم يعد قادرًا على الخروج إلى صلاة الجماعة. وقد أوصى أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يؤم بالناس في صلاة الجماعة بدلًا منه. وفي إحدى الأوقات شعر النبي عليه الصلاة والسلام بتحسن في صحته فجاء إلى المسجد حتى صعد المنبر، ونصح أصحابه رضوان الله عليهم، حيث قال:

«**إن عبدًا عُرضت عليه الدنيا وزينتها، فاختار الآخرة!**»

فلم يفطن لها أحد من القوم. إلا أبا بكر رضي الله عنه حيث شعر بقلبه الرقيق والحساس بأن هذه الكلمات ما هي إلا خطاب وداع من الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام. فخيّم عليه حزن شديد، ورق قلبه، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه. فقال أبو بكر رضي الله عنه:

١٧٢٠ ابن ماجه: الفتن، ٢٣/ ٤٠٢٤.

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! بل نفديك بأموالنا، وأنفسنا، وأولادنا!

فكما ذكرنا بأنه لم يستطع أحد من الحاضرين إدراك إحساس رسول الله عليه الصلاة والسلام العميق سوى أبي بكر الصديق ﷺ. لأن أبا بكر ﷺ هو من وُصِف في الآية الكريمة «بثاني اثنين» حين كان صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام في غار ثور، فهو الوحيد القادر على فهم وإدراك مشاعر وأحاسيس رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولما رأى الصحابة الكرام بكاء صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام الصديق ﷺ، قال بعضهم لبعض بدهشة:

«انظروا إلى هذا الشيخ! يخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام عن عبدٍ خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا!؟» [١٧٢١]

بينما أبو بكر ﷺ كان قد استشف الوداع الكبير بقلبه الرقيق والحساس، وأخذ يئن مثل نايٍ يشتكي من ألم الفراق. إلا أنه لما ازداد المرض اشتدادًا على النبي ﷺ بدأ بقية الصحابة يلمسون قرب الفراق الكبير وأخذت الدموع تنهمر من أعينهم. فتحولت مجالس المهاجرين والأنصار إلى مآتم حداد. ولما قال من حول النبي ﷺ:

- يا رسول الله! لو أنك تسأل الله الشفاء! إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان دائمـًا ما يدعو ربه ويسأله الصحة والعافية، لم يدع هذه المرة.

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ:

كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث في يديه ويمسح بهما جسمه. فلما اشتد عليه المرض الذي توفى فيه كنت أقرأ عليه بهما وأنفث في يدي وأمسح على جسمه بيدي رجاء بركتها، وجعلت أعوِّذه بدعاء كان جبريل ﷺ يعيذه به ويدعو له به إذا مرض، فذهبت أقول:

- أذهب الباس رب الناس، بيدك الشفاء، لا شافي إلا أنت، اشف شفاء لا يغادر سقما!

فقال رسول الله ﷺ:

«ارفعي عني! فإنما كان ينفعني في المدة!» [١٧٢٢]

١٧٢١ البخاري: الصلاة، ٨٠؛ أحمد: مسند، ١٨، ٣٦٩/ ١١٨٦٣؛ الحاكم: المستدرك، ٤، ٣١٤/ ٧٧٥٦.

١٧٢٢ أحمد: مسند، ٦، ٢٦٠ - ٢٦١/ ٢٦٢٤٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢١٠.

وتتابع أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ حديثها، فتقول:

«كن أزواج النبي ﷺ عنده، لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي، ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئا، فلما رآها رحب بها، فقال: «**مرحبا بابنتي**» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديدا، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار، ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ، سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سره، قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك، بما لي عليك من الحق، لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ، فقالت: أما الآن، فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني:

«**أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك**»

قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال:

«**يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة**»

قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت»[١٧٢٣]

وخلال المرض تمكن رسول الله ﷺ من أداء بعض الصلوات مع المسلمين وذلك في الأوقات التي تخفّ عنه الحمى. وفي إحدى هذه الصلوات قال لأصحابه الكرام الذين خيّم الحزن على قلوبهم لإحساسهم بقرب ارتحال رسول الله ﷺ عنهم:

«يا أيها الناس:

بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم! هل خُلد نبي قبلي فيمن بُعث إليه فأُخَلَّدَ فيكم؟!

ألا إني لاحقٌ بربي وإنكم لاحقون بي! وإن الأمور تجري بإذن الله.

ألا وإني فرطكم! وإن موعدكم على الحوض!

أيها الناس:

من أراد أن يلتقي بي على الحوض غدًا فليكفف يده ولسانه إلا لما ينبغي!

١٧٢٣ البخاري: الاستئذان، ٨٣/ ٦٢٨٥؛ مسلم: ٩٨-٩٩/ ٢٤٥٠.

أيها الناس:

إن الذنوب تبدل النعم.وكما تكونوا يولَّ عليكم!

والذي نفسي بيده إني لأنظر إلى الحوض من مقامي هذا!

فأجهش أبو بكر رضي الله عنه بالبكاء، فنظر إليه رسول الله ﷺ، وقال:

- لا تبك يا أبا بكر! ثم قال:

أيها الناس:

إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد، غير خوخة أبي بكر!.[١٧٢٤]

أيها الناس! ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم! أيما رجل كنت أصبت من بشره شيئًا فهذا بشري فليقتص! فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه! ومن كنت أخذت منه مالًا فهذا مالي فليستقد منه!

اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة!.[١٧٢٥]

اللهم! أيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورًا وزكاة وقربة تقربه بها منه يوم القيامة!»[١٧٢٦]

وبذلك فإن النبي ﷺ كان وكأنه يستسمح من الناس حقوقهم. وبعد هذه الكلمات عاد إلى بيته وهو شديد التعب والإرهاق، ولم يستطع بعدها الخروج إلى الصلاة. إلا مرة واحدة، حين شعر بتحسن في صحته قليلًا فخرج وصلى خلف أبي بكر رضي الله عنه.

وفي صباح يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، شعر النبي ﷺ مرة أخرى بأن الحمى قد خفت قليلًا على جسمه، إلا أنه لم تكن لديه الطاقة الكافية التي تمكنه من الخروج إلى صلاة الجماعة. وبناءً على ذلك فقد أزاح ستار بيته وأخذ ينظر إلى جموع

١٧٢٤ البخاري: الصلاة، ٨٠/ ٤٦٧؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٢٧؛ أحمد: مسند، ٤، ٢٥٢/ ٢٤٣٢.

١٧٢٥ مسلم: البر، ٨٩/ ٢٦٠١؛ أحمد: مسند، ٣، ٤٠٠/ ١٥٢٩٤.

١٧٢٦ البخاري: الدعوات، ٣٤؛ مسلم: البر، ٩٥/ ٢٦٠٣؛ الدارمي: المقدمة، ١٤؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٥؛ الطبري: التاريخ، ٣، ١٩١؛ الحلبي: ٤٦٣ - ٤٦٤.

المسلمين وهم يصلون صلاة الفجر خلف أبي بكر الصديق ﷺ. لقد كان الصحابة الكرام متراصي الصفوف في صلاتهم، فسُر النبي ﷺ من حالتهم التي بدوا عليها في صلاة الجماعة، وتبسم راضيًا عنهم. فمن جهة كان النبي عليه الصلاة والسلام يعاني من وطأة الحمى الشديدة التي أثقلت كاهله، ومن جهة أخرى كان يعيش مشاعر الرضا والسعادة سرورًا بأدائه للمهمة الإلهية التي كلفه الله تعالى بها، ولأنه يغادر الدنيا وقد ترك أصحابه متماسكة متحابين متكاتفين يحملون راية الإسلام من بعده.[١٧٢٧]

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ التي تنقل هذه الواقعة:

«فتبسم رسول الله عليه الصلاة والسلام سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم. وما رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام أحسن هيئة منه تلك الساعة»[١٧٢٨]

لقد أعطى الله ﷻ الرسول الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ما لم يعطه نبيًا قبله. إذ إن النبي ﷺ رأى نجاح دعوته وتوفيقها وهو ما يزال على قيد الحياة.

فقد طُهرت الجزيرة العربية من الشرك، وكُسرت الأصنام بأيدي من كانوا يعبدونها بالذات وأزيلت نهائيًا، ومن كانوا يئدون بناتهم ويدفنونهن أحياء فقد ارتقوا إلى قمة الشفقة والرحمة. لأن رسول الله ﷺ كان خير معلم ومربٍ على الإطلاق، حيث بلغ في تربية الإنسان قمة الرقي والإنسانية حتى جعل الإنسان المسلم يبدو كمعجزة بين الخلق.

وفي ذلك الصباح أمر رسول الله ﷺ الجيش الذي سبق أن جهزه، وتأخر عن المسير بسبب مرضه، أمره بالتحرك والخروج نحو هدفه. وقال لأسامة بن زيد ﷺ الذي جعله أمير ذلك الجيش:

- **يا أسامة! سر على اسم الله وبركته، فأغر صباحًا**...[١٧٢٩]

وفي ذلك اليوم أمر النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة ﷺ بتوزيع الستة أو السبعة دنانير التي كانت لديها صدقة على الفقراء. وبعد مرور مدة سأل عن تلك الدنانير، ولما علم بأن عائشة ﷺ قد نسيت إخراجها للفقراء لانشغالها بمرضه، طلب الدنانير فأخذها في كفه. فقال:

«ما ظن محمد بالله لو لقي الله وهذه عنده؟ أنفقيها»

١٧٢٧ البخاري: المغازي، ٨٣، الأذان، ٤٦؛ مسلم: الصلاة، ٩٨؛ النسائي: الجنائز، ٧.

١٧٢٨ ابن هشام: السيرة، ٤، ٣٣١.

١٧٢٩ الواقدي: المغازي، المغازي، ٣، ١١٢٠.

ثم وزع تلك الدنانير على خمسة بيوت من فقراء الأنصار. فقرَّت عينه بعد توزيعها ونام نومـًا هادئـًا هنيئـًا.[١٧٣٠]

فهذا هو الإنفاق غير المنقطع...

وفي ذلك اليوم خاطب النبي عليه الصلاة والسلام أهل بيته قائلًا:

«أيها الناس! إن الفتن مقبلة عليكم كقطع الليل المظلم! أيها الناس! والله لا تمسكون عليّ بشيءٍ، إني لا أحل إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله! يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمّة رسول الله، اعملا لما عند الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئـًا!»[١٧٣١]

وفي ذلك اليوم قال رسول الله ﷺ:

«أيها الناس، الله الله في الصلاة، الله الله في الصلاة! واستوصوا بالنساء خيرًا! واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم! ألبسوا ظهورهم، وأشبعوا بطونهم، وألينوا لهم القول!»[١٧٣٢]

وفي ذلك اليوم استخدم السواك بلهفة.

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂:

«استن رسول الله عليه الصلاة والسلام بالسواك كأحسن ما كان مستنـًا به»[١٧٣٣]

ذات مرة كان بجانب النبي عليه الصلاة والسلام إناء ماء صغير. وكان فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ بين الحين والآخر يغمس يده في ذلك الإناء ثم يمسح به وجهه، ويقول:

«لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[١٧٣٤]

وفي ذلك اليوم كان النبي عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى ربه ﷻ بهذا الدعاء:

١٧٣٠ أحمد: مسند، ٦، ١٠٤/ ٢٥٤٩٢؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٣٧ – ٢٣٨.

يقول الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى تعليقـًا على هذه الواقعة: إن كان حبيب رب العالمين، وخير المرسلين رسول الله ﷺ الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر هذا شأنه، فكيف يكون حال من في رقابهم دماء المسلمين، وفي ذممهم الأموال الحرام، وكيف يقابلون ربهم يوم القيامة؟! (القسطلاني: ٢، ٤٨٠ – ٤٨١)

١٧٣١ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٦؛ البخاري: المناقب، ١٣ – ١٤؛ مسلم: الإيمان، ٣٤٨ – ٣٥٣.

١٧٣٢ أبو داود: الأدب، ١٢٣ – ١٢٤؛ ابن ماجه: الوصايا، ١/ ٢٦٩٧؛ علي المتقي: كنز العمال، ٩، ٧٥/ ٢٥٢٣٣.

١٧٣٣ البخاري: المغازي، ٨٣؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٦١.

١٧٣٤ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٤٤٤٩.

«**اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى!**»[١٧٣٥]

وفي ذلك واسى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها بقوله:

«**لا تبكِ يا بُنية! قولي إذا ما مت: إنا لله وإنا إليه راجعون! فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة**» [١٧٣٦]

وقرأ رسول الله ﷺ الآية التي نزلت في أصعب وأحرج الظروف التي مرّ بها المسلمون يوم أحد عندما سمعوا بخبرٍ يقول: «مات محمد»، فأخطرت الآية وحذرت الصحابة الذين هاموا على وجوههم لدى سماعهم هذا الخبر. حيث يقول الله تعالى:

﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[١٧٣٧]

وفي ذلك اليوم جاء إلى رسول الله ﷺ سفير الوحي جبريل عليه السلام، وقال:

«السلام عليك يا رسول الله! هذا آخر مواطئي الأرض، إنما كنتَ حاجتي من الدنيا!» [١٧٣٨]

وفي ذلك اليوم رأى رسول الله ﷺ تجلي كلماته التي تحدث بها في وقت سابق، حيث قال:

«**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة، ثم يحيا، أو يخير...**»[١٧٣٩]

وفي ذلك اليوم جاء إلى رسول الله ﷺ ملك الموت عزرائيل عليه السلام، واستأذن بالدخول عليه. وبعد أن أُذن له بالدخول، دخل ووقف بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال:

– يا رسول الله، يا أحمد! إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها!

قال رسول الله ﷺ:

– **وتفعل يا ملك الموت؟**

١٧٣٥ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٤٤٤٠؛ أحمد: مسند، ٦، ١٢٦/ ٢٥٩٤٧؛ الترمذي: الدعوات، ٩٥/ ٣٤٩٦.

١٧٣٦ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٣١٢؛ علي المتقي: كنز العمال، ١١، ٤٦٨/ ٣٢١٩٧.

١٧٣٧ آل عمران: ١٤٤.

١٧٣٨ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٩.

١٧٣٩ البخاري: المغازي، ٨٣، ٨٤/ ٤٤٣٧؛ أحمد: مسند، ٦، ٨٩/ ٢٤٥٨٣.

قال ملك الموت:

- بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني!

فقال جبريل عليه السلام الذي كان بجانبهم:

- يا أحمد! إن الله قد اشتاق إليك!

وفي تلك اللحظات قال رسول الله ﷺ لملك الموت الذي يستأذن منه:

- **امض يا ملك الموت لما أُمرت به!**»[١٧٤٠]

وبعد ذلك غمس رسول الله ﷺ يده المباركة في إناء الماء الذي بجانبه، فبلل يده بالماء ثم مسح وجهه الشريف، وصار يردد كلمة التوحيد بوجد وشوق، وبينما هو يمر من باب الوصل لحياته المليئة بالشوق والعشق الإلهي كان يقول:

- **اللهم! الرفيق الأعلى! الرفيق الأعلى!**

فسلم روحه الطاهرة لبارئها وخالقها الحق سبحانه وتعالى. فسقطت يده المباركة التي كان يبلل بها وجهه الشريف في إناء الماء الذي بجانبه!.[١٧٤١]

فتجلت بذلك الحقيقة التي أخبرت بها الآية الكريمة قبل سنوات، حيث قال الحق ﷻ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾[١٧٤٢]

اللهم صل، وسلم، وبارك على سيدنا محمد المصطفى ﷺ وآله وأصحابه أجمعين!

وما إن سلم سيد الخلق ورسول الرحمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام روحه الطيبة الطاهرة حتى سالت دموع أهل بيته حزنـًا وألمـًا على فراق أحب وأعز الخلق.

وفي هذه الأثناء بينما هم في غمرة الحزن إذ جاء صوت يعزيهم ويواسيهم دون أن يروا صاحبه، أو يعرفوا مصدره، فيقول:

«السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته!»

١٧٤٠ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٩؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٣٤ - ٣٥؛ علي المتقي: كنز العمال، ٧، ٢٥١/ ١٨٧٨٥.

١٧٤١ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٤٤٦٣.

١٧٤٢ الزمر: ٣٠.

وبعد أن رد أهل البيت السلام، سُمع ذلك الصوت مرة أخرى ينادي:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١٧٤٣]

«إن في الله عزاءً عن كل مصيبة، وخلفـًا من كل هالك، ودركـًا من كل ما فات، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، إنما الـمُصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [١٧٤٤]

يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«سمع ذلك الصوت جميعُ أهل البيت، وكل من كان في مسجد النبي، ومن في الطريق» [١٧٤٥]

وقد أخبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن صاحب الصوت هو الخضر عليه السلام.[١٧٤٦]

لقد أصاب سيدة نساء أهل الجنة السيدة فاطمة رضي الله عنها حزن شديد على وفاة أبيها نبي الرحمة سيدنا محمد ﷺ. حتى إنه ينسب إليها هذه الأبيات في رثاء النبي ﷺ:

ماذا على من شم تربة أحمد....... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صُبَّت عليّ مصائب لـو أنها....... صبت على الأيام صرن لياليا.[١٧٤٧]

ولم تُر فاطمة رضي الله عنها في حياتها بعد النبي ﷺ والتي استمرت ستة أشهر، ضاحكة أبدًا.[١٧٤٨]

بعد عودة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ونتيجة للمرض الشديد الذي ألـمّ به والذي استمر ثلاثة عشر يومـًا فُتحت له آفاق الجمال، وأبواب السماء، فالتحق الحبيب المصطفى بالرفيق الأعلى الله تعالى ذو الجلال والإكرام، وذلك في يوم الاثنين الثامن من حزيران لعام / ٦٣٢ م /، والثاني عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة للهجرة.

لقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يشعرون بأن شيئـًا خفيـًا يئن تحت ضوء الشمس التي تشرق وتغيب دون تغير. وبعد ذلك اليوم لم يتمكن بلال الحبشي من رفع

١٧٤٣ آل عمران: ١٨٥.

١٧٤٤ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٩ علي المتقي: كنز العمال، ٧، ٢٥١/ ١٨٧٨٥.

١٧٤٥ البلاذري: ١، ٥٦٤.

١٧٤٦ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٦٠.

١٧٤٧ الديار بكري: ٢، ١٧٣.

١٧٤٨ كامل ميراس: ترجمة التجريدالصريح، ١١، ٢٥ – ٢٦.

الأذان ثانية، بينما كان صوته العذب الجميل فيما مضى يطبق آفاق السماء. وكلما ألح عليه الصحابة الكرام ليرفع الأذان، كان ينفجر باكيًا عندما لا يجد رسول الله عليه الصلاة والسلام في المحراب، فينقطع صوته ولا يتمكن من الأذان. ولكي يعمل على إطفاء نيران الشوق التي كانت تلتهب في داخله خرج من المدينة المنورة وذهب بعيدًا عنها إلى الشام. وذات يوم رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام في منامه. فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام معاتبـًا:

- ما هذا الجفاء والفراق يا بلال! ألم يحن الوقت لزيارتي؟

فاستيقظ بلال ﷺ من نومه محزونـًا مهمومـًا، وخرج في الحال متجهـًا إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي ﷺ. وبينما كان يبكي عند قبر سيد خلق الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ويمرغ وجهه وجبينه بترابه، جاء حفيدا صاحب القبر الشريف وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين. فبدأ بلال ﷺ يمسح بيده على صدرهما ويقبلهما. فقالا له:

- يا بلال! إنا نريد سماع الأذان بصوتك الجميل!

وألحّا عليه في الطلب فاستجاب بلال ﷺ لهما وبدأ برفع الأذان. وفي تلك الأثناء اهتزت المدينة لصوته. ولما وصل إلى «أشهد أن محمدًا رسول الله»تقاطر كل من في المدينة على الطريق المؤدي إلى المسجد النبوي رجالًا ونساءً ظانين بأن فخر الكائنات رسول الله عليه الصلاة والسلام قد بُعث إلى الحياة من جديد. ولم تشهد المدينة بكاءً للناس مثل بكاء ذلك اليوم بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام.[١٧٤٩]

يقول أنس بن مالك ﷺ:

«شهدت يوم دخل المدينة رسول الله ﷺ مع أبي بكر ﷺ، فما رأيت يومـًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه، وشهدته يوم مات فما رأيت يومـًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه عليه الصلاة والسلام»

«لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، ما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»[١٧٥٠]

١٧٤٩ ابن الأثير: أُسد الغابة، ١، ٢٤٤ – ٢٤٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١، ٣٥٧ – ٣٥٨.

١٧٥٠ أحمد: مسند،٣،٢٢١،٢٦٨،٢٨٧/ ١٣٨٣٠/ ١٤٠٦٣؛الترمذي:المناقب،١/ ٣٦١٨؛الدارمي:المقدمة،١٤/ ٨٩.

إن كل المصائب والبلايا بعد هذه المصيبة هينة على المسلمين، حيث يقول رسول الله ﷺ:

«لِيُعَزِّ المسلمين في مصائبهم، المصيبة بي» [١٧٥١]

وقد قال رسول الله ﷺ:

«حياتي خير لكم، تحدثون ونحدث لكم! ووفاتي خير لكم تُعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»[١٧٥٢]

وفقًا للرواية التي جاءت عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان في اللحظات الأخيرة من حياته في حالة تسبيح، وتنزيه، وتوبة، وحمد لله تعالى، إذ كان يقول:

«سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه»[١٧٥٣]

كان يوجد بين كتفي النبي عليه الصلاة والسلام خاتم النبوة وهو علامة إلهية تدل على صدق نبوته ورسالته. وقد كان كثير من الصحابة الكرام يتوقون شوقًا إلى تقبيل هذ الخاتم. ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى لم يطرأ أي تغير على وجهه المشرق المبارك، إذ بقي على إشراقه ونورانيته، فصار الصحابة الكرام يشكون بوفاته وانتقاله إلى العالم الآخر. وبناء على ذلك أخذت إحدى قريبات النبي عليه الصلاة والسلام وهي أسماء بنت عميس رضي الله عنها تبحث عن خاتم النبوة بين كتفيه. فلم تجده، إذ كان قد اختفى، فعلم الناس بانتقاله إلى الدار العقبى انتقالاً لا ريب فيه.[١٧٥٤]

ولما توفي رسول الله ﷺ لم يترك خلفه شيئًا من أموال الدنيا، لا درهمًا ولا دينارًا، ولا رقيقًا. فلم يبق إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، والأرض التي أوقفها لأبناء السبيل، وهي أرض فدك التي في خيبر.[١٧٥٥]

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء. وقد صلى عليه الناس صلاة الجنازة فرادى وليس جماعة، إذ لم يؤمهم أحد في الصلاة. أما دفنه؛ فقد قال بعض الصحابة:

١٧٥١ الموطأ: الجنائز، ٤١؛ الدارمي: المقدمة، ١٤؛ علي المتقي: كنز العمال، ١٥، ٦٥٨/ ٤٢٦١١.

١٧٥٢ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٢٤/ ١٤٢٥٠؛ علي المتقي: كنز العمال، ١١، ٤٠٧/ ٣١٩٠٣..

١٧٥٣ البخاري: الأذان، ١٢٣، ١٣٩؛ مسلم: الصلاة، ٢١٨ – ٢٢٠؛ أحمد: مسند، ١، ٣٩٢؛ ابن سعد: ٢، ١٩٢.

١٧٥٤ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٧٢؛ ابن كثير: البداية، ٥، ٢٣١.

١٧٥٥ البخاري: المغازي، ٨٣.

ندفنه بجانب المنبر، وقال البعض الآخر: بل ندفنه في مقبرة البقيع. فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه**».

وبناءً على ذلك قام الصحابة بحفر القبر هناك.[١٧٥٦] ولما أقبل الصحابة على غسل النبي عليه الصلاة والسلام أرادوا نزع قميصه. فسمعوا فجأة صوتـًا يقول: «لا تنزعوا القميص». فغسلوه وقميصه على جسمه.[١٧٥٧]

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

نعى إلينا حبيبنا ونبينا بأبي هو ونفسي له الفداء قبل موته بشهر. فقلنا: يا رسول الله! فمن يصلي عليك منا؟ فبكينا وبكى، وقال:

«**مهلًا غفر الله لكم! وجزاكم عن نبيكم خيرًا! إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، فاخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي خليلي وجليسي جبريل عليه السلام، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده، ثم الملائكة صلى الله عليهم بأجمعها. ثم ادخلوا عليّ فوجـًا فوجـًا، فصلوا علي وسلموا تسليمـًا، ولا تؤذوني بباكية ولا صارخة ولا رانة، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد ذلك، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من إخواني فأقرئوه مني السلام، ومن دخل معكم في دينكم بعدي فإني أشهدكم أني أقرئه السلام عليه وعلى كل من تابعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة**»[١٧٥٨]

ففعل الصحابة الكرام كما أمرهم به النبي ﷺ. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«ألا يقوم عليه أحد لعله يؤم؟ هو إمامكم حيـًا وميتـًا!»

فكان يدخل الناس رسلًا رسلًا فيصلون عليه صفـًا صفـًا ليس لهم إمام ويكبرون، وعليّ قائم بحيال رسول الله، عليه الصلاة والسلام، يقول:

١٧٥٦ يقول القاضي عياض: «لا خلاف في أن المكان الذي فيه قبر النبي ﷺ خير وأفضل مكان على وجه الأرض». (الشفاء: ٢، ٩٦)

ويعبر الإمام البوصيري عن مشاعره، فيقول في قصيدة البردة:

لا طيبَ يعدلُ تُربـًا ضم أعظُمَــهُ... طوبى لمنتشق منه وملتثــم.

١٧٥٧ الموطأ: الجنائز، ٢٧؛ أحمد: مسند، ٦، ٢٦٧؛ علي المتقي: كنز العمال، ٧، ٢٧٣/ ١٨٨٥٤.

١٧٥٨ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٢٥؛ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٥٦ – ٢٥٧.

«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته! اللهم نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته! اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل الله إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه! فيقول الناس: آمين آمين!»[١٧٥٩]

فما أسعد تلك الأرض التي تحتضن خير خلق الله تعالى بين جنباتها. ويعبر الشاعر عن ذلك بشكل جميل، حيث يقول:

هو الرسول المجتبى، والمبعوث رحمة للعالمين

والأرض التي تفتخر على الأفلاك باحتضان ثراه

بعد أن اكتمل الدين، وصُدق النبي ﷺ على أداء التبليغ من قبل الصحابة بالذات، وأشهد الله تعالى على ذلك، دُعي رسول الله ﷺ إلى العالم الأبدي الخالد. وإن نور الكون عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ينتظر أمته في المحشر، وعلى الصراط، والحوض.

أشرقت الأنوار بولادة النبي ﷺ يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وشرفه الله تعالى بالنبوة والرسالة في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول. يقول أبو قتادة رضي الله عنه:

سئل رسول الله ﷺ عن صوم الاثنين؟ فقال:

«ذاك يوم ولدت فيه. ويومٌ بعثت ـ أو أنزل علي فيه-»[١٧٦٠]

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول دخل إلى المدينة المنورة التي وضعت فيها الأسس الأولى للدولة الإسلامية التي سوف تستمر إلى يوم القيامة. وأيضًا في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول انتقل إلى عالم الآخرة. وهو الآن في دار العقبى ينتظر بشوق وشفقة أمته التي شهد لها بالخيرية ليشفع لهم.

يصور عزيز محمود هداي الذي حُرم من رؤية رسول الله عليه الصلاة والسلام بانتقاله من الدنيا إلى عالم الآخرة، يصور خيانة الدنيا في أبيات له، حيث يقول:

«من يرجو منكِ الوفاء أيتها الدنيا! ألست الدنيا الكاذبة المخادعة؟ ألستِ من أخذ منا محمدًا المصطفى؟».

١٧٥٩ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٩١.

١٧٦٠ مسلم: الصيام، ١٩٧ – ١٩٨/ ١١٦٢.

الحزن الذي خيم على الكائنات

لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام بكت السيدة فاطمة رضي الله عنها بكاءً شديدًا، وقالت:

«يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه.يا أبتاه، مَن جنة الفردوس مأواه.يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه».

ولما دُفن رسول الله ﷺ قالت لأنس رضي الله عنه:

«يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثُّوا على رسول الله عليه الصلاة والسلام التراب!؟»[١٧٦١]

فلم يستطع أنس رضي الله عنه الرد على هذا السؤال تأدبًا مع ابنة سيد خلق الله، ولكن لسان حاله كان يقول:

«لا يا فاطمة! لم تطب أنفسنا وقلوبنا، ولكننا أقْدمنا على هذا الفعل مضطرين، امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ»[١٧٦٢]

وبدأ المسلمون بالنحيب والبكاء في المسجد على وفاة رسول الله ﷺ. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يرفع سيفه:

- لا أسمعن أحدًا يقول: إن محمدًا قد مات! فمن قال: أنه قد مات قطعت رأسه بسيفي! إنه لم يمت ولكن إنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى عليه السلام!

فما زال عمر رضي الله عنه يتكلم حتى أزبد شدقاه.

فلما سمع أبو بكر رضي الله عنه بالخبر المؤلم والمحزن، ركب فرسه وجاء إلى المدينة. فمضى حتى دخل بيت النبي عليه الصلاة والسلام الذي توفي فيه وهو في بيت عائشة، فكشف عن وجهه، وأكبّ عليه، فقبل جبهته وهو يبكي، ثم قال:

- والله مات رسول الله ﷺ! إنا لله وإنا إليه راجعون، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! والله لا يجمع الله عليك الموتتين، لقد متّ الموتة التي لا تموت بعدها!

ثم أتاه من قِبَل رأسه فحدر فاه وقبل جبهته، وقال: واصفياه!

ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته وقال: واخليلاه!. ثم قال:طبت حيًا وميتًا!

فغطى وجه رسول الله ﷺ، وخرج إلى الناس في المسجد وعمر ما يزال يكلمهم أن رسول الله ﷺ لم يمت وإنما ذهب إلى لقاء ربه كما ذهب موسى عليه السلام، فقال أبو بكر رضي الله عنه:

١٧٦١ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٤٤٦٢؛ الدارمي: المقدمة، ١٤.

١٧٦٢ كامل ميراس: ترجمة التجريد الصريح، ١١، ٢٥.

اجلس يا عمر! فأبى عمر ﵁ أن يجلس، فكلمه أبو بكر ﵁ مرتين أو ثلاثـًا، فلما أبى عمر أن يجلس. قام أبو بكر ﵁ فتشهد، وقال:

- أما بعد:

إن النبي ﷺ قد أنبأكم بموته وهو بين ظهرانيكم، إنه مات، وإنكم لميتون، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت! قال الله ﷻ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١٧٦٣]

فلما سمع الناس هذه الآية الكريمة تيقنوا بأن النبي ﷺ قد مات. وتلقى الناس الآية من أبي بكر ﵁ وكأنهم لم يسمعوا بنزولها من قَبْل لشدة وطأة الخبر عليهم ودهشتهم.

يقول عمر بن الخطاب ﵁:

- إنها لفي كتاب الله ما شعرت أنها في كتاب الله ﷻ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض.[١٧٦٤]

ولما تحقق عمر ﵁ من موت النبي ﷺ بقول أبي بكر ﵁، ورجع إلى قوله، أكبّ على رسول الله ﷺ فقبل جبينه وهو يبكي، وقال:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا اتخذت منبرًا لتسمعهم، فحنّ الجذع لفراقك، حتى جعلت يدك عليه سكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم!

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾[١٧٦٥]

١٧٦٣ آل عمران: ١٤٤.

١٧٦٤ ابن سعد: الطبقات، ٢، ٢٦٦ – ٢٧٢؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥، ٤٣٦؛ البخاري: المغازي، ٨٣/ ٣٦٦٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٣٢.

١٧٦٥ النساء: ٨٠.

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ...﴾[١٧٦٦]

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده، أنَّ أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يُعذبون، يقولون:

﴿...يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾[١٧٦٧]

تقول أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها:

«بينا نحن مجتمعون نبكي لم ننم ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نواسي أنفسنا برؤيته على السرير، إذا سمعنا صوت الكرازين ـ حفاري القبر ـ في السحر. فصحنا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر «أشهد أن محمدًا رسول الله» وبكى وانتحب، فزادنا حزنـًا، وعالج الناس الدخول إلى قبره فغُلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به عليه الصلاة والسلام»[١٧٦٨]

لقد كان فراق النبي عليه الصلاة والسلام ثقيلًا جدًا على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. لأنهم كانوا يحبونه أكثر من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ولذلك كان من الصحابة من لا يريد عينه التي لم تعد ترى الرسول عليه الصلاة والسلام، وأذنه التي لن تسمع صوته، والحياة التي لا يحيا فيها عليه الصلاة والسلام وذلك من شدة حبهم له وتعلقهم به. وقد بين رسول الله ﷺ أحوال هؤلاء الصحابة في وقت سابق في حديث شريف، حيث قال:

«**والذي نفس محمد في يده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم**»[١٧٦٩]

وقد أمضى هؤلاء حياتهم وهم في انتظار ذلك اليوم الذي سيكونون فيه مع النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى أمل أن يروه مرة أخرى.

١٧٦٦ الأحزاب: ٧.

١٧٦٧ الأحزاب: ٦٦. القسطلاني: ٢، ٤٩٢.

١٧٦٨ ابن كثير: البداية، ٥، ٢٥٦.

١٧٦٩ مسلم: الفضائل، ١٤٢/ ٢٣٦٤؛ البخاري: المناقب، ٢٥.

يقول عثمان بن عفان ﵁:

«إن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ حين توفي النبي عليه الصلاة والسلام حزنوا عليه حتى كاد بعضهم يوسوس! وكنت منهم. فبينا أنا جالس في ظل أطم من الآطام مر علي عمر ﵁، فسلم عليّ فلم أشعر أنه مر ولا سلم. فانطلق عمر ﵁ حتى دخل على أبي بكر ﵁، فقال له: ما يعجبك أني مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام! وأقبل هو وأبو بكر ﵄ في ولاية أبي بكر حتى سلما عليّ جميعًا، ثم قال أبو بكر: جاءني أخوك عمر فذكر أنه مر عليك فسلم فلم ترد عليه السلام، فما الذي حملك على ذلك؟ قلت: ما فعلت! فقال عمر ﵁: بلى والله لقد فعلت! قلت: والله ما شعرت أنك مررت ولا سلمت! فقال أبو بكر ﵁: صدق عثمان»[١٧٧٠]

يقول أنس ﵁:

«بعد وفاة النبي ﷺ قال أبو بكر لعمر ﵄: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان النبي ﷺ يزورها. فلما انتهيا إليها ورأتهما أم أيمن بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ!. فقالت أم أيمن ﵂: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ. ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معها»[١٧٧١]

خرج عمر بن الخطاب ﵁ ليلة يحرس، فرأى مصباحًا في بيت فدنا فإذا عجوز تطرق شعرًا لها لتغزله ـ أي تنقشه بقدح ـ وهي تقول:

على محمدٍ صلاة الأبرار
صلى عليك المصطفون الأخيار
قد كنت قوامًا بكيَّ الأسحار
يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي عليه الصلاة والسلام.

فجلس عمر بن ﵁ يبكي، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها، فقالت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب. قالت: ما لي ولعمر؟ وما يأتي بعمر في هذه الساعة؟ قال: افتحي،

١٧٧٠ أحمد: مسند، ١، ٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ١، ١٤/ ١.

١٧٧١ مسلم: فضائل الصحابة، ١٠٣/ ٢٤٥٤.

رحمك الله، فلا بأس عليك. ففتحت له، فدخل، فقال:ردي عليّ الكلمات التي قلتِ آنفـًا، فردتها عليه. فلما بلغت آخره، قال:أسألك أن تدخليني معكما! فقالت: وعمر، فاغفر له يا غفار. فرضي ورجع رضي الله عنه وأرضاه.[١٧٧٢]

قال أنس رضي الله عنه:

«ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي رسول الله عليه الصلاة والسلام»[١٧٧٣]

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إذا تحدثوا عن النبي عليه الصلاة والسلام يستخدمون عبارات وكلمات تدل على مدى حبهم وعشقهم واشتياقهم لرسول الله ﷺ، كما في الحديث الذي ذكرناه لأنس رضي الله عنه، وذلك من قبيل «حبيبي»، و «خليلي».[١٧٧٤]

وقد كان الصحابة الكرام يظهرون محبتهم وارتباطهم الوثيق برسول الله ﷺ من خلال الإكثار من ذكره في أحاديثهم والصلاة عليه. ولكن تذكر النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يقتصر على مجرد الصلاة عليه فحسب، وإنما كانوا يتذكرونه دائمـًا من خلال السير على نهجه المبارك، واتباع سنته، ومدارسة أحاديثه الشريفة فيما بينهم.

يقول أبو ذر رضي الله عنه:

«لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمـًا. وما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بين لكم»[١٧٧٥]

ولذلك فإن محبة النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من أي شخص وأي شيءٍ في الدنيا، وتقديم أوامره ونواهيه على الرغبات الخاصة، واتباع أقواله وأفعاله واجب ديني على جميع المسلمين.

١٧٧٢ عليّ المتقي: ١٢، ٥٦٢ / ٣٥٧٦٢.

١٧٧٣ ابن سعد: الطبقات، ٧، ٢٠.

١٧٧٤ البخاري: التهجد، ٣٣، الصوم، ٦٠؛ مسلم: المسافرين، ٨٥؛ ابن ماجه: الصدقات، ١٠؛ الدارمي: الصوم، ٣٨؛ أحمد: مسند، ٥، ١٥٩؛ ابن سعد: الطبقات، ٤، ٢٢٩.

١٧٧٥ أحمد: مسند، ٥، ١٥٣، ١٦٢ / ٢١٣٦١؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٢٦٣/ ١٣٩٧١.

الأسوة الحسنة

إن الإنسان هو الكائن الوحيد من بين جميع المخلوقات الذي وهبه الله تعالى نصيبـًا من صفات أسمائه الحسنى. وإلى جانب ذلك فقد زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بخصيصة الميل النفسي إلى الفسوق والتقوى وفقـًا لما يستوجبه الامتحان الإلهي؛ إذ خلقه على طبيعة تمكّنه من سلوك طريق الخير أو الشر بإرادته الحرة.

وانطلاقـًا من ذلك فإن غاية الدين هي تخليص الإنسان من صفاته السلبية وشهواته النفسية الدونية التي تحط من قدر إنسانيته، وتعزيز صفاته النورانية لديه لانتشاله من براثن الحيوانية والارتقاء به إلى قمة الإنسانية السامية. إلا أنه لتحقيق هذه الغاية يحتاج الإنسان إلى أسوة حسنة ومثلٍ أعلى يعيش معه على أرض الواقع لكي يقتدي به ويقتفي أثره للوصول إلى تلك المرحلة المتقدمة من السمو والرفعة. وإن من حِكَم إرسال الأنبياء والرسل أن يكونوا شخصيات مثالية خالية من العيوب والأخطاء تشكل مثلًا أعلى وقدوة حسنة يقتدي بها الناس في أقوالهم وأفعالهم تحقيقـًا لتلك الغاية التي أشرنا إليها آنفـًا. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[١٧٧٦]

وقد جعل الله سبحانه وتعالى رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام بهذه الكيفية، ووصل به إلى قمة الكمال ليكون قدوة و أسوة حسنة يتبعه الناس في حياته وبعد مماته. ولأجل ذلك قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١٧٧٧]

١٧٧٦ النساء: ٦٤.

١٧٧٧ الأحزاب: ٢١.

إن الإنسان الوحيد في التاريخ البشري كله الذي جرى تثيبت وتدوين أحداث حياته كاملة بأدق تفاصيلها وتفرعاتها هو سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم. إذ كان يتم تدوين سائر أفعاله، وأقواله، ومشاعره لحظة بلحظة لتشكل لوحة شرف ونقطة مضيئة في التاريخ البشري. فحياته المباركة مثال ونموذج حي وفريد لكل الأجيال إلى يوم القيامة. يقول الله تعالى عن النبي عليه الصلاة والسلام في كتابه الكريم في سورة القلم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٧٧٨]

إن سيرة رسول الله ﷺ وشخصيته المباركة بكل مظاهرها التي يتسطيع العقل البشري استيعابها تشكل مرتبة القمة في منظومة السلوكيات والتصرفات البشرية. وذلك لأن الله ﷻ قد جعل هذا الكائن المبارك أسوة حسنة للإنسانية جمعاء. ولذلك فإن الله تعالى قد بدأ بإعداده منذ مرحلة الطفولة اليتيمة التي تُعد أدنى مراحل العجز والضعف، ثم مرورًا بجميع مراحل الحياة وأطوارها إلى أن وصل به إلى أعلى نقطة فيها من حيث القوة والقدرة، إذ رفعه إلى مرتبة النبوة ورئاسة الدولة التي تُعد أعلى مناصب ومواقع البشر. وذلك حتى يتمكن الناس في أي موقع أو طور من أطوار الحياة البشرية كانوا، أن يتمكنوا من اتخاذ هذه التصرفات والأفعال الكاملة نموذجًا ومثلًا أعلى لهم، ثم يعملوا على اتباعها أو تنفيذها بقدر استطاعتهم. وإن هذا الاقتداء يتحقق بقدر المحبة والارتباط اللذين يشعر بهما الإنسان تجاه الرسول عليه الصلاة والسلام.

إن الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة في القيادة الدينية، وقدوة في رئاسة الدولة، وقدوة لمن دخلوا في رابطة المحبة الإلهية، وكذلك قدوة في التواضع والشكر على النعم الكثيرة التي يتلطف بها الله تعالى على المرء.

والنبي ﷺ نموذج وقدوة في الصبر وتسليم الأمر لله تعالى في الظروف والمواقف الصعبة والحرجة. وهو قدوة في الجود والكرم، وعفة النفس عند المغانم، وقدوة كذلك في الشفقة والرحمة التي يتمتع بها تجاه أهل بيته. وقدوة في الإشفاق والرحمة بالضعفاء، والمشردين، والرقيق. وقدوة في العفو والصفح عن العصاة والمجرمين:

فيا أيها الإنسان! إن كنت غنيًا وصاحب ثروة؛ ففكر بتواضع وكرم ذلك النبي رفيع الشأن

١٧٧٨ القلم: ٤.

الذي حكم سائر شبه الجزيرة العربية، واستمال إليه كافة الأطياف والقبائل العربية بالمحبة!

وإن كنت واحدًا من الضعفاء؛ فتذكر حياة النبي ﷺ التي عاشها في مكة تحت سلطة وإدارة المشركين الظالمين، والمغتصبين لسائر الحقوق! واتخذها قدوة.

وإن كنت فاتحـًا منتصرًا؛ فخذ عبرة من حياة نبي الجرأة والشجاعة الذي اختطف النصر من أعدائه في بدر وحنين!

ولا سمح الله، إن كنت من المغلوبين؛ فتذكر النبي المتوكل الذي كان يصول ويجول بشجاعة وجسارة منقطعة النظير بين أصحابه الذين سقطوا على الأرض شهداء أو جرحى في معركة أحد!

وإن كنت معلمـًا؛ ففكر بالنبي الذي كان ينقل فيوضات قلبه الرقيق، والحساس، والمرهف إلى أصحاب الصفة في المسجد النبوي، ويعلمهم الأوامر الإلهية!

وإن كنت طالبـًا؛ فتخيل أمام عينيك النبي الجالس أمام الأمين جبريل عليه السلام وهو يتلقى منه الوحي الإلهي!

وإن كنت واعظـًا أو مرشدًا أمينـًا؛ فاستمع إلى النبي الذي أوتي جوامع الكلم وهو يتخول أصحابه بالموعظة! وأصغِ السمع والفؤاد إلى صوته العذب الجميل!

وإن كنت تريد رفع راية الحق، والدفاع عنه وتبليغه؛ وإن لم يكن لك معين في هذا الأمر فانظر إلى حياة النبي الذي صدع في مكة بالحق في وجه الظالمين، ودعاهم إلى الهداية بالرغم من أنه كان محرومـًا من سائر أنواع العون والمساعدة!

وإن هزمت العدو وكسرت شوكته، وقهرت عناده وتمكنت منه، وأزهقت الباطل وأعلنت الحق؛ فاجعل نُصب عينيك حال النبي وهو يدخل مكة يوم الفتح، إذ على الرغم من أنه كان قائدًا منتصرًا مظفرًا ذلك اليوم، إلا أنه كان في غاية التواضع والشكر لله تعالى، فدخل على ظهر ناقته منحني الرأس تذللا لله تعالى وتواضعًا أمام فتح الفتوح!

وإن كنت صاحب حقل، وتريد إدارة أعماله على خير ما يرام؛ فاتخذ من النبي مثلًا أعلى وهو الذي بعد أن أصبح مالكـًا لأراضي بني النضير، وخيبر، وفدك، جلب خير الرجال الذين يصلحون هذه الأراضي ويديرون أعمالها على أكمل وجه!

وإن كنت يتيمـًا؛ ففكر باليتيم النوراني، يتيم عبد الله وآمنة الصغير وفلذة كبدهما!

وإن كنت فتى يافعًا؛ فتمعن بالحياة النزيهة لذاك الشاب المرشح للنبوة والذي عمل راعيًا في مكة لتأمين لقمة عيشه بشرف!

وإن كنت شابًا تود بناء مسكن وعائلة روحانية؛ فانتبه إلى الحياة العائلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ووصاياه في هذا الشأن! ولتكن التقوى أساس اختيارك، لتنال سعادة الدارين في الدنيا والآخرة!

وإن كنت تاجرًا تبيع وتشتري وتفاوضل الوفود التجارية؛ فانظر إلى أحوال أرفع رجال القافلة التجارية الخارجة إلى الشام خلقًا ونزاهة!

وإن كنت قاضيًا وحاكمًا؛ ففكر بحكمه العادل بشأن وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة عندما كادت قبائل مكة تتقاتل فيما بينها!

وتوجه بعينيك عبر التاريخ وانظر إلى ذاك النبي في المدينة المنورة الذي كان يجلس في المسجد النبوي فيأتيه الفقير والغني والشريف والوضيع والسيد والعبد فيساوي بينهم في المجلس والتعامل، ويحكم بينهم بأعدل الأحكام!

وإن كنت زوجًا؛ فتمعن مليًا في السيرة العطرة والمطهرة للنبي المبارك زوج السيدة خديجة والسيدة عائشة، وفي شفقته ومشاعره الرقيقة، ومعاملته العادلة بين سائر الزوجات!

وإن كنت أبًا لأطفال؛ فانظر إلى تصرفات وأحوال أبي فاطمة الزهراء، وجد الحسن والحسين مع أولاده وأحفاده!

فيا أيها الإنسان! مهما كانت ظروفك، وصفتك، وأحوالك فليكن محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام مرشدك الكامل، ومثلك الأعلى في سائر أعمالك وأوقاتك وأحوالك...

فهو المرشد الذي تستطيع من خلال سننه تقويم كل اعوجاج، وإصلاح أمورك الفاسدة، وتصحيح مسار أعمالك المنحرفة عن سكتها... وتستطيع من خلال نوره وتوجيهه التخلص من متاهات وعوائق الحياة لتبلغ السعادة الحقيقة!

وإن كنت تريد الانعتاق من تعلقك وانغماسك في المادة لتعيش حياة روحانية صافية؛ فعليك بالذين رباهم وأدبهم سيد العالمين عليه الصلاة والسلام من أمثال بلال، وياسر، وثوبان! فالزم جانبهم، واصدق لتكون صاحب قلب مرهف، ورقيق، وروحاني. ولا تنس بأنَّ الناس في الجاهلية إنما كسبوا الصدق والاستقامة لأنهم اهتدوا بإرشاد رسول الله ﷺ

ثم التفوا حوله كفراشات تجتمع حول ضياء السراج. حتى إن قطمير ـ كلب ـ أصحاب الكهف قد نال لطفـًا وإحسانـًا كبيرًا بسبب استظلاله بمحبة الصادقين. وبالمقابل فإن امرأة نوح عليه السلام وابنه قد تعرضوا للغضب والمقت الإلهي نتيجة مخالطتهم ومجالستهم للفاسقين والظالمين. فهم وأمثالهم قد غرقوا في سراديب النفس وأهوائها، فانتهى بهم الأمر إلى الهلاك مع القوم الظالمين.

إذًا فاجهد أيها الإنسان على أن تملأ تقويم العمر بصحبة عشاق رسول الله ﷺ الصادقين والصالحين، وبمجالسة ومخالطة أهل الذكر والمخلصين، حتى لا تكون من الغافلين الشاردين عن سبيل الحق سبحانه وتعالى!

واعلم بأن سيرة سيد العالمين إنما كانت بستانـًا يتزين بمختلف أشكال الزهور الندية الجميلة، والعطرة.

وإن بنيته الجسمية كانت في غاية الروعة والجمال وتشكل استثناءً مثل بنيته الروحية الاستثنائية والكاملة، فلم يكن لهما مثيل أبدًا. وبسبب هذا التقدير العلوي لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام، قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١٧٧٩]

إن هاتين الآيتين الكريمتين تدعوان جميع المؤمنين إلى التزام منتهى الأدب تجاه النبي ﷺ.

وهكذا، فعلى الرغم من أنَّ سائر الأنبياء والرسل خوطبوا في القرآن الكريم بأسمائهم الشخصية، إلا أن النبي المصطفى ﷺ لم يخاطب في القرآن الكريم بـ «يا محمد»، وإنما كان يُخاطب دائمـًا بـ «يا أيها النبي، ويا أيها الرسول». ولذلك فقد قال الله تعالى:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾[١٧٨٠]

من أجل أن يلتزم جميع المؤمنين بالأدب مع رسول الله ﷺ.

١٧٧٩ الحجرات: ١ – ٢.

١٧٨٠ النور: ٦٣.

إن هذه الآية الكريمة تبين للأمة جمعاء أنه ليس من اللائق بها أن تذكر رسول الله ﷺ أو تخاطبه باسمه الشخصي، وإنما ينبغي ذكره بكل إجلال واحترام وإضافة ألقاب العلو والرفعة إلى اسمه الشريف. ولذلك ينبغي ذكر رسول الله ﷺ ومخاطبته بصفات كريمة مثل النبي، والرسول، ورسول الله، وحبيب الله، وفخر الكائنات، والرسول الأكرم، وما شابه ذلك.

وإضافة إلى ذلك فقد أوجب البيان الإلهي في الآية / ٥٦ / من سورة الأحزاب على كل من يسمع أو يذكر اسم النبي ﷺ أن يصلي ويسلم عليه. إن كل ما أمر الله تعالى به أو طلبه من المؤمنين هو من الآداب التي ينبغي على كافة الأمة الالتزام بها تجاه الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام. يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١٧٨١]

فلم يكن النبي عليه الصلاة والسلام معلمـًا للقرآن باللفظ والتلاوة فحسب، وإنما كان في الوقت عينه مثالًا حيـًا يطبق القرآن في سائر نواحي حياته، إذ كان قرآنـًا يمشي على الأرض. جاء في رواية عن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال في الحديث الشريف:

«**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**» [١٧٨٢]

إن كل الكتب والآثار الإسلامية التي أُلفت منذ ما يزيد عن / ١٤٠٠/ عام وإلى الآن إنما كانت من أجل تفسير كتاب واحد وهو القرآن الكريم، وبيان جوانب شخصية وسلوك إنسان واحد وهو النبي ﷺ. ولقد أقسم الله تعالى بحياة الرسول ﷺ بقوله: **﴿لَعَمْرُكَ﴾**[١٧٨٣]

وهو الإنسان الوحيد الذي أقسم الله تبارك وتعالى بحياته.

إن الاقتراب من الحقيقة المحمدية يمكن تحقيقه من خلال الاعتماد على المحبة والعشق أكثر من العقل. وإن كل الأسرار والألغاز يمكن حلها بالحقيقة المحمدية. وهذا بدوره يمكن تحقيقه من خلال نيل نصيب من الاقتداء برسول الله ﷺ الذي هو «**الأسوة الحسنة**» للمؤمنين، وبالابتعاد عن الشهوات والأهواء الدنيوية والنفسية، وبالوصول إلى أسرار

١٧٨١ الأحزاب: ٥٦.

١٧٨٢ الموطأ: حسن الخلق، ٨.

١٧٨٣ الحجر: ٧٢.

العبادة، والعبودية، والمعرفة. عندما يبدأ الإنسان بنيل نصيبٍ من الروحانية المحمدية، فإنه يصبح في حالة من الرقة واللطافة، وتتبدى فيه أسرار وأنوار، وحقائق التجليات الإلهية.

من المؤكد أن أسرار القرآن الكريم إنما تنكشف وتنجلي بأسرار القلب الذي انغمس في روحانية رسول الله ﷺ. وذلك لأن الله تعالى قد حثنا في كثير من الآيات القرآنية على اتباع الرسول ﷺ الذي يُعد وحده «أسوتنا الحسنة». حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١٧٨٤]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[١٧٨٥]

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[١٧٨٦]

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١٧٨٧]

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[١٧٨٨]

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٧٨٩]

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[١٧٩٠]

١٧٨٤ الحشر: ٧.

١٧٨٥ محمد: ٣٣.

١٧٨٦ النساء: ٦٩.

١٧٨٧ آل عمران: ٣١ – ٣٢.

١٧٨٨ النور: ٥٢.

١٧٨٩ التوبة: ٧١.

١٧٩٠ النساء: ٨٠.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[١٧٩١]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١٧٩٢]

من المؤكد أن المؤمن عندما يلمس في داخله المحبة الصادقة والعواطف الجياشة تجاه رسول الله ﷺ، ويُطهر روحه من جميع الصور والمظاهر النفسانية، فإنه يكون قد سلك طريق محبة رسول الله ﷺ وبدأ بأخذ نصيب من شخصيته المثالية.

لقد ظهر رجال من الأمة كانوا جنود القلب بما أخذوا من نصيب من شخصية رسول الله ﷺ المباركة وبما تفانوا في محبته، فقدموا نماذج بالغة الروعة في محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، تلك النماذج التي سوف تستمر إلى يوم القيامة. إنهم كانوا قد وجدوا الحياة في حقيقة رسول الله ﷺ.

ونذكر من هؤلاء الأولياء:

سيدي أحمد يسوي بطل العشق والوجد العظيم في سبيل الفناء في رسول الله ﷺ، وكان يُعد واحدًا من العباد والزهاد. فعندما بلغ هذا العابد الثالثة والستين عامًا من عمره حفر في الأرض ما يشبه القبر وجعله مكانًا قضى فيه بقية حياته، وأدى فيه عباداته، حيث قال:

«حرام عليّ بعد هذه السنّ – الذي مات فيه رسول الله ﷺ – السير على وجه الأرض».

وقد سمي المكان الذي عاش فيه تبركًا بـ «حضرة تركستان».

ومنهم أويس القرني رحمه الله تعالى؛ فلما سمع أويس القرني بخبر كسر سن رسول الله ﷺ يوم أحد، لم يعلم أي السن قد كسر، فعمد إلى أسنانه يكسرها بكل فرح وسرور وكأنها ليست بأسنانه، وذلك ليتشبه برسول الله ﷺ ويفنى فيه.[١٧٩٣]

١٧٩١ التوبة: ٦٣.

١٧٩٢ الأنفال: ٤٦.

١٧٩٣ فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، ص٢٣.

ومنهم الإمام مالك ﵁، فقد عاش في وجد القرب والفناء في رسول الله عليه الصلاة والسلام. حتى إنه لم يركب افي المدينة المنورة على ظهر دابة قط، ولم يقض حاجة داخل الحرم المدني أبدًا، وعندما تولى إمامة الروضة الشريفة كان يخفض صوته فيتحدث همسًا. ولما تكلم الخليفة أبو جعفر المنصور ذات مرة بصوت مرتفع أمامه، قال له الإمام:

– يا خليفة المسلمين! اخفض صوتك! فإن التحذير الإلهي قد نزل في حق أناس أكثر منك فضلًا! ثم تلا الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١٧٩٤]

وذات مرة تعرض الإمام مالك ﵁ للظلم على يد والي المدينة، فسامحه وأحله من حقه، ثم قال:

«إني لأستحي أن أقف يوم الحشر مدعيًا بحقٍ على حفيد من أحفاد رسول الله ﷺ»

كانت السلطانة الوالدة بزمي عالم تردد قولها:

محمد كائن من المحبة، فما تنفع المحبة من غير محمد؟

وجعلت غذاءها الروحي محبة رسول الله ﷺ.

ويعبر عاشق يونس عن احتراقه وذوبانه بمحبة النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول:

ليتني أبحث فأجد أثره،

فأمرّغ وجهي بتراب أثره،

آمل أن يجعل الحق سبحانه وتعالى رؤيته من نصيبي،

فيا محمد! إن روحي تتوق إليك...

١٧٩٤ الحجرات: ٢.

خرج الشاعر نابي في عام / ١٦٧٨م / في رحلة الحج مع رجال الدولة. فلما اقتربت القافلة من المدينة المنورة لم يتمكن الشاعر من النوم إذ جفاه النوم من شدة هياجه وحماسه. فرأى أثناء نوم الناس أن أحد الأعيان قد مد في غفلة منه، رجله اتجاه المدينة. فتأثر نابي من هذا المشهد كثيرًا، فبدأ بكتابة أبيات في ذلك.

ولما دنت القافلة من المدينة المنورة في وقت صلاة الفجر، سمع نابي الأبيات التي كتبها تقرأ من على منارة المسجد النبوي:

«التزموا الأدب في هذا المكان، فإنه مقام حبيب الله النبي محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام وبلدته»

«يا نابي! ادخل المقام مراعيًا مبادئ الأدب! فإن هذا مقام مبارك حيث تطوف فيه الملائكة كالفراش، وحيث قبَّل جميع الأنبياء عتبته بتأدب!»

فاهتاجت مشاعر نابي تجاه هذه الواقعة، فبحث في الحال عن المؤذن حتى وجده، فسأله:

- ممن سمعت وأخذت هذه الأبيات، وكيف تعلمتها؟

فقال المؤذن:

- جاءنا رسول الله ﷺ هذه الليلة في الرؤيا، فقال:

- إن شاعرًا من أمتي قادم إلى زيارتي يدعى نابي. وإن هذا الرجل تملؤه المحبة والشوق إلي. ولهذا العشق استقبلوه بقراءة شعره على منارة المدينة!

ونحن نفذنا الأمر النبوي.

فبدأ نابي بالبكاء، وأخذ يقول وهو يجهش بالبكاء:

- إذًا؛ فقد قال النبي ﷺ عني: «من أمتي!» إذًا فإن شمس العالَمين يعتبرني من أمته!

كان سليمان جلبي ممن نظم مولد النبي ﷺ شعرًا، وفي مولده هذا وصف النبي بالنور ووصف الشمس بالفراشة التي تدور حوله، بقوله:

«من هذا النور العجيب الذي صارت الشمس فراشته»

ويريد بقوله أن الشمس تطوف حول الرسول ﷺ كالفراشات التي تحوم حول الضوء، يريد به أنه حتى الجمادات تهيم عشقًا بالنبي عليه الصلاة والسلام.

لقد كان السلطان سليمان القانوني يتوسل إلى النبي عليه الصلاة والسلام بقوله:

أنت اليوم نور الكون وكذا محبوب الباري

فلا تطرد العشاق من بابك ولو لآن

يقول علي بن أبي طالب ﵁:

«كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل، ولا شجر، إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله!»[١٧٩٥]

ومن مظاهر محبة الجمادات للنبي عليه الصلاة والسلام وعشقها له، الحادثة الآتية التي يرويها ابن عمر، ﵄ قال:

كنا مع رسول الله ﷺ، في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: «**أين تريد؟**» قال: إلى أهلي قال:

«**هل لك في خير؟**»

قال: وما هو؟ قال:

«**تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله**»

فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «**هذه السلمة-الشجرة-**» فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خدا حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا، فشهدت ثلاثا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن اتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت، فكنت معك.[١٧٩٦]

لم تكن الجمادات وحدها من تحبه وتطيعه، وإنما كانت حتى الحيوانات والمخلوقات الأخرى تعرف رسول الله عليه الصلاة والسلام وتطيعه، ويروي جابر بن عبد الله ﵁ حادثة تتعلق بما فيه، إذ يقول:

١٧٩٥ الترمذي: المناقب، ٦/ ٣٦٢٦.

١٧٩٦ الدارمي: المقدمة، ١، ١٦٦/ ١٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٢٩٢/ ١٤٠٨٥.

«أقبلنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه. فذكروا ذلك للنبي ﷺ فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعير فجاء واضعًا مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه. فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«هاتوا خطاما»

فخطمه ودفعه إلى صاحبه، ثم التفت، فقال:

«ما بين السماء إلى الأرض أحد إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس» [١٧٩٧]

وهنا لابد أن نتوقف ونفكر مليًا بأنه؛ إن كانت الجمادات والحيوانات في هذه الحالة من المحبة السامية، فنحن إلى أي مدى نسلم أمرنا لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وكم من التضحيات بذلناها في سبيله؟!

كم نحتاج إلى روحانية رسول الله عليه الصلاة والسلام وخاصة في هذه الأيام العصيبة التي تعصف بنا وبالأمة الإسلامية جمعاء! إذ إننا في زمن عاصف كما عبر عنه أحد الشعراء في ندائه لرسول الله ﷺ، حيث يقول:

«انهض يا سيد العالمين؛ فإن القيامة قد أتت علينا!»[١٧٩٨]

إن صلواتنا وتسليمنا عليه ومحبتنا له تشكل منبع مواساة كبيرة بالنسبة لنا..

إن المؤمنين الصادقين ذوي الأرواح الشفافة والقلوب الرقيقة يعدون الفناء في رسول الله لبلوغ الحقيقة المحمدية أكبر نعمة في الدنيا، وبذلك فقد غرقوا في اللذات الإلهية غائبين عن كل ما حولهم من المغريات والشهوات النفسية الزائلة.

إن تلك الخصائص الرفيعة في الخلق والتي حاولنا استجلاءها بكلماتنا المحدودة، هي قطرات ندى نور الخلق عليه الصلاة والسلام التي تقاطرت إلى إدراكنا وفهمنا. إن سر تحقيق الوصول إلى الله ﷻ، والاقتراب من كتاب الله، وسنة نور الكون سيدنا محمد

١٧٩٧ أحمد: مسند، ٣، ٣١٠/ ١٤٣٣٣؛ الدارمي: المقدمة، ١، ١٦٩/ ١٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ٧/ ١٤١٦٤.

١٧٩٨ يقول المفكر الغربي برنارد شو الذي يبين هذه الحقيقة: «إن المشاكل التي تكاثرت وتراكمت فوق بعضها في عصرنا الحاضر، نحتاج من أجل حلها بكل سلامة ويسر إلى محمد ﷺ»

رسول الله ﷺ أي التخلق بأخلاقه الرفيعة بقلب مخلص هو تنمية مشاعر المحبة تجاه كل ما يحبه الله ورسوله، وتنمية مشاعر الكره تجاه كل ما يكرهه الله ورسوله. فالفرق بين الأمرين شاسع كالفرق بين أعلى العليين وأسفل السافلين. وإن السائق الأساسي الذي يحمل الإنسان على الاستفادة من مشاعر رسول الله عليه الصلاة والسلام هو محبته، وعكس ذلك هو الكره.

إن المؤمنين الذين اتخذوا من رسول الله ﷺ أسوة حسنة لهم على مرّ التاريخ، بلغوا ذروة الحياة الإيمانية العليا، وعملوا على الارتقاء بمبادئ الفطرة السليمة وإنضاجها والسير عليها حتى أصبحوا بذلك مشاعل نور للإنسانية جمعاء.

وأخيرًا نقول إن مؤلفًا عاجزًا أمام تناول الحقيقة المحمدية بكل جوانبها لا يسعه إلا أن يلجأ في بيانها إلى إدراكه وفهمه، وفي إطار الكلمات المحدودة التي يستخدمها.

وإننا نعترف بأن هذا الأثر البسيط الذي سوف يصل بإذن الله إلى من نعرف ومن لا نعرف، إما بين دفتي كتاب وإما على شكل كلام وصوت، ما هو إلا بضع قطرات من محيط عظيم لا شطآن له. وها هي هذه العبارات قد انتهت أمام باب صمت عميق لا قرار له...

يا رب! نسألك بكرمك أن تجعل هذا البحث الذي تجرأنا على الخوض فيه وبيان محتواه بالإمكانات المحدودة لكلماتنا، أن تجعله وسيلة لنيل رحمتك وبركتك، وأن تجعل لنا نصيبًا من الحقيقة المحمدية! واجعلنا يا رب ممن ينالون يوم القيامة الشفاعة العظمى للرسول ﷺ جوهر المحبة ونبعها!

آمين

الخاتمة

من الطبيعي أن نجد في الإسلام القواعد والمبادئ الأساسية لسائر العلوم الناظمة لحياة وسلوك البشر، مثل علم الأخلاق، والقانون، والاقتصاد، وذلك لأن الإسلام له نظرة شاملة للعالم بأسره، ولكل نواحي الحياة. ومن الضروري أن تحتوي هذه القواعد كل المسائل والقضايا من أبسطها إلى أعقدها، ومن أكثرها تشخيصًا إلى أكثرها تجردًا. وعلى الرغم من أن قسمًا من هذه المبادئ الإسلامية التي تتعلق بسائر الناس تُعتبر مسائل دنيوية وبسيطة يمكن فهمها من قبل جميع الناس، إلا أن هناك بعض المبادئ تُعتبر حقائق تحتوي على مفاهيم علوية عميقة تُعجز حتى أصحاب المستويات العالية في الفكر والفهم. ولا حاجة إلى تناول هذه المسائل والتعرض للصعوبات التي يحتويها البحث فيها.

إن هذا العمل ـ أي الخوض في الحقائق المجردة ـ يعد من جهة بمثابة الإقدام على مغامرة تسلق السفوح المتعرجة الخطرة والتعرض للعطش في المرتفعات الشاهقة. من المؤكد أن كثيرًا من الناس من أصحاب العلم، والفكر، واللغة لم يتوانوا عن التصدي لدراسة هذه الحقائق المجردة والمعقدة ومحاولة فهمها وبيان كنهها، إلا أنهم لم يُوفقوا في الوصول إلى معانيها وماهيتها بشكل كامل.

ومن جهة أخرى، فإن هذه المسائل وإن كانت تتجاوز في كثير من جوانبها حدود الطاقات البشرية، إلا أن هناك قاعدة أساسية في التشريع الإسلامي، مفادها: «إن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله». وبناء على ذلك، أيها القراء الأعزاء: فقد أخذت هذه القاعدة بعين الاعتبار وخضت في هذا البحث، وكلي رجاء أن تعذروني إن رأيتم نقصًا أو غموضًا في الشرح والفهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإني أقول، إن الإدراك والمحاكمة البشرية تجري وفقًا للتأثيرات والانطباعات التي نأخذها من هذا العالم. وانطلاقًا من ذلك، فإنه كما ليس بالإمكان بيان وشرح الحقائق المجردة التي يستحيل مشاهدتها بالمعنى المطلق، دون الوقوع في الزلل أو

النقص في البيان، فكذلك يستحيل بيان وشرح حقيقة فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام الذي يُعد معجزة في الخلق، وكذلك تستحيل الإحاطة بجوهر القرآن الكريم الذي يُعد التجلي الكامل للأسماء الإلهية وذلك بالاعتماد على الطاقة البشرية المحدودة. وهكذا فإن تصوير ووصف الوارد بشأن الجنة، وجهنم وأمثالهما من الأمور الغيبية التي لا يعلم كيفيتها وماهيتها الأصلية إلا الله تعالى ما هو إلا عبارات تلائم الفهم والإدراك البشري.

إن محاولة العقل والقلب السليم شرح وبيان الحقائق الغيبية في الإسلام محاولة صحيحة، ولكنها في الوقت نفسه ناقصة. فهي صحيحة؛ لأنه هذا هو المقدور عليه من بيانها وفهمها وفقًا للانطباعات والقواعد التي تستقى من هذا العالم. وهي ناقصة؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا للغاية بين كيفية تلك الحقائق التي نتوصل إليها بقياسها على أشباهها من الأمور المُشاهدة في هذا العالم ونعتقد بأنها هي الكيفية الأصلية، وبين كيفيتها الأصلية التي هي عليها بالفعل.

ولذلك فإننا بحاجة في معرض فهم مثل هذه الحقائق إلى وساطات أخرى مجهزة بإدراك وفهم مختلف، وإمكانات تؤهلها للقيام ببيانها. فمثلاً؛ «رؤية الله تعالى» التي سوف تحدث للمؤمنين في الآخرة، فيا تُرى أليس التعبير عن الكيفية بكلمة «رؤية» ناقصًا؟ إنه نقص عاجز، ولكنه ضرورة من أجل التوضيح والبيان.

ولهذا يقال بأن الحقيقة واسعة مثل محيط عظيم، وليس بإمكان الإنسان استيعابها بقدرٍ يزيد على ما يُغرف من هذا المحيط بإناء صغير! فكما أنه لا يمكن صب ماء محيط عظيم في كأس واحد، فكذلك يُعتبر اللسان كأسًا، والعقل كأسًا، والعين فيما يتعلق بالرؤية كأسًا. إلخ، وكلها عاجزة أمام استيعاب الحقيقة بكل جوانبها!

وقد صور البيان الإلهي في القرآن الكريم عجز البشر عن إدراك وفهم عظمته، وذلك في قول الله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[١٧٩٩]

ينبغي التفكير مليـًا؛ ما هو حجم الإنسان أمام عظمة وملك الله اللامتناهي؟

١٧٩٩ الكهف: ١٠٩.

ومن ناحية أخرى، فإنه ليس من الوارد والمنطقي أن تُخضع الحقيقة للحدود والتحجيم لأجل ضعف الإدراك والفهم!

وكذلك فإن كل كلمة قد حُملت بمعنى يمكن أن تدل على محتوى أو شيءٍ معين حسب إدراك الذي ينطق ويتحدث بها. فمثلًا الذين يستخدمون كلمات أو ألفاظ مثل الله، الكائنات، الروح في أقوالهم أو كتاباتهم يمكن أن يتعمقوا بها بقدر أفهامهم وإدراكهم لها. ويقاس على ذلك القراء الذين يتلقون مثل هذه الكلمات والكتابات والحقائق.

إن اسم النبي عليه الصلاة والسلام المبارك يحتوي على قسم من تلك المفاهيم العميقة التي تتجاوز الخيال. فنرجو من الله تعالى ونتضرع إليه أن يعفو عن عجزنا في نقل محتويات اسم نبيه المبارك بالشكل الأمثل، وعن قصور قرائنا الأعزاء في تلقي ما نقلناه إليهم، ونأمل أن يشملنا جميعـًا برحمته الواسعة.

وعلى ذلك، فإني أجد نفسي مضطرًا للعودة مجددًا إلى الصمت، تلك المهارة ذات الإمكانات والقدرات الواسعة والفريدة في استيعاب الحقيقة، وأن أضع نقطة النهاية هنا.

وليس لنا مفر ولا حل سوى الالتفات إلى روحانية فخر الكائنات سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، والالتحاف بها! وإن الملاذ الوحيد لكل اليائسين والعاجزين هو الله تعالى. فنقول:

«المدد يا الله!»

دخيلك يا رسول الله!

تم بحمد الله

المراجع

١. عظمة القرآن، عبد القادر عطا، بيروت ١٩٨٤.

٢. المصنف، عبد الرزاق بن همام، ١- ١١، بيروت ١٩٧٠.

٣. كشف الخفاء، العجلوني، إسماعيل بن محمَّد، ١ – ٢، بيروت.

٤. المسند، أحمد بن حنبل، ١- ٦، اسطنبول ١٩٩٢؛ كتاب الزهد.

٥. أ. ه. فيديارثي ـ ي. علي: محمَّد في النصوص المقدسة الصحيحة، ترجمة، كمال قاراطاش، اسطنبول ١٩٩٧.

٦. كنز العمال، علي المتقي، ١- ١٦، بيروت ١٩٨٥.

٧. شمائل النبي، علي ياردم، اسطنبول ١٩٩٨.

٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله، ١- ٣٠، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٩. القاموس، عاصم أفندي، ١- ٤، اسطنبول ١٣٠٥.

١٠. موسوعة الشؤون الدينية، عصري جوبوكجو، مادة «إبراهيم«، جزء، ٢١، اسطنبول ٢٠٠.

١١. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، أبو محمَّد بدر الدين محمود بن أحمد، ١- ٢٥، بيروت، إدارة الطبعة المنيرية.

١٢. أنساب الأشراف، البلاذري، أبو العباس أحمد بن الحسين، مصر، ١٩٥٩.

١٣. السنن الكبرى، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ١- ١٠، دار الفكر، شعب الإيمان، ١. بيروت ١٩٩٠؛ دلائل النُّبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ١- ٧، تعليق: عبد المتقي العاجي، بيروت ١٩٨٥؛ كتاب الزهد الكبير، بيروت ١٩٩٦.

١٤. الجامع الصحيح، البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل، ١- ٨، اسطنبول ١٩٩٢؛ الأدب المفرد، بيروت ١٩٨٩؛ التاريخ الكبير، ١-، حيدر أباد ١٩٥٨؛ التاريخ الصغير، ١- ٢، القاهرة ١٩٧٧.

١٥. من روائع القرآن، البوطي، محمَّد سعيد رمضان البوطي، بيروت ١٩٩٦.

١٦. السنن، الدارقطني، أبو الحسن عليّ بن عمر، ١- ٤، بيروت ١٩٨٦.

١٧. سنن الدارمي، الدارمي، أبو محمَّد عبد الله بن عبد الرحمن، ١- ٢، اسطنبول ١٩٩٢.

١٨. الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، ١- ٦، بيروت ١٩٨٦.

١٩. تاريخ الخميس، ديار بكري، حسين بن محمَّد، ١- ٢، بيروت.

٢٠. سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ١- ٥، اسطنبول ١٩٩٢.

٢١. حلية الأولياء، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، ١- ١٠، بيروت ١٩٦٧؛ دلائل النُّبوَّة، حيدر أباد، ١٣٦٩.

٢٢. لغة القرآن الدين الحق، ألماليلي م. حمدي يازار، ١- ١٠، اسطنبول ١٩٧١.

٢٣. تذكرة الأولياء، فريد الدين عطار، طهران ١٣٧٢.

٢٤. فؤاد غُونل، مادة «حراء»، جزء، ١٨، اسطنبول ١٩٩٨.

٢٥. إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمَّد بن محمَّد، ١- ٦، بيروت ١٩٩٠.

٢٦. مكتوبات مولانا خالد البغدادي، اسطنبول ١٩٩٣؛ رسالة الرابطة، «مولانا صفي الدين، عليّ بن حسين، رشحات، اسطنبول؛ الديوان، «ترجمة، صدر الدين يوكسل»، اسطنبول ١٩٧٧.

٢٧. المستدرك، الحاكم، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله النيسابوري، ١- ٥، بيروت ١٩٩٠.

٢٨. إنسان العيون، الحلبي، أبو فرج عليّ بن إبراهيم: ١- ٣، مصر ١٩٦٤.

٢٩. غزوات النبي ﷺ، حميد الله، محمَّد، ترجمة، صالح توغ، اسطنبول ١٩٩١؛ الوثائق السياسية، بيروت ١٩٨٥؛ نبي الإسلام، ١- ١١، اسطنبول ١٩٩٥.

٣٠. القانون الإسلامي المقارن، خير الدين كارامان، ١، ٣، اسطنبول ١٩٩٦.

٣١. مجمع الزوائد، الهيثمي، الحافظ نور الدين عليّ بن أبي بكر، ١- ١٠، بيروت ١٩٨٨.

٣٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمَّد، ١ – ٤، القاهرة؛ الدرر في اختيار المغازي والسير، تحقيق، شوقي ضيف، القاهرة ١٩٦٦.

٣٣. الفتوحات المكيَّة، ابن عربي، أبو عبد الله محي الدين محمَّد بن علي، ١ – ١٤، تحقيق، عثمان إسماعيل يحيى، إبراهيم مدكور، القاهرة ١٩٧٢ – ١٩٩٢؛ شرح وترجمة فصوص الحكم، ١ – ٤، أحمد عوني قونوق، مصطفى طهرلي، سلجوق أر آيدن، اسطنبول ١٩٨٧ – ١٩٩٢.

٣٤. تاريخ دمشق، ابن عساكر، أبو قاسم عليّ بن حسن، بيروت، بدون تاريخ.

٣٥. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، ١ – ١٢، بيروت ١٩٨٧.

٣٦. المصنف، ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمَّد، ١ – ٧، حيدر أباد ١٩٧٦.

٣٧. النهاية، ابن الأثير، أبو السعادة المبارك بن محمَّد، ١ – ٥، القاهرة.

٣٨. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، أبو الحسن عليّ بن محمَّد، ١ – ٢٣، بيروت ١٩٧٩ – ١٩٨٢؛ أُسد الغابة، ١ – ٧، القاهرة ١٩٧٠.

٣٩. كتاب المحبر، ابن حبيب ، أبو جعفر محمد بن حبيب، حيدر أباد، ١٩٤٢.

٤٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، ١ – ٢٨، دار الفكر، فؤاد عبد الباقي نشري؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ١ – ٤، بيروت ١٣٢٨؛ المطالب العالية، ١ – ٤، الكويت ١٩٧٣.

٤١. تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمَّد، ١ – ٧، مؤسسة الجمال، بيروت ١٩٧٩.

٤٢. صحيح ابن حبان، ابن حبان، أبو حاتم البستي، ١ – ٢٨، بيروت ١٩٩٣.

٤٣. السيرة النبوية، ابن هشام، أبو محمَّد عبد الملك بن هشام، ١ – ٤، دار الفكر، بيروت ١٩٣٧.

٤٤. صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة، أبو بكر محمَّد بن إسحاق، ١ – ٤، بيروت ١٩٧٠.

٤٥. سيرة ابن إسحاق، «كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي»، ابن إسحاق، محمَّد بن إسحاق بن ياسر، قونية ١٩٨١.

٤٦. زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، محمَّد أبي بكر، ١ – ٦، بيروت ١٩٩٥.

٤٧. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، ١- ٥، بيروت، ١٩٨٨؛ البداية والنهاية، ١- ٢٥، القاهرة ١٩٩٣؛ السيرة النبوية، ١- ٤، القاهرة ١٩٦٦.

٤٨. سنن ابن ماجه، ابن ماجه، أبو عبد الله محمَّد بن يزيد القزويني، ١- ٢، اسطنبول ١٩٩٢.

٤٩. الطبقات الكبرى، ابن سعد، ١- ١١، بيروت، دار الصدر.

٥٠. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيِّد النَّاس، تحقيق، محمَّد العيد الخطراوي ومحي الدين مستو، ١- ٢، بيروت ١٩٩٢.

٥١. موسوعة الحديث، إبراهيم جانان، ١- ١٨، اسطنبول.

٥٢. الموطأ، الإمام مالك بن أنس، ١- ٢، اسطنبول ١٩٩٢.

٥٣. موسوعة الشؤون الدينية، إسماعيل جراح أوغلو، مادة «الغرانيق»، جزء، ١٣، اسطنبول ١٩٩٦.

٥٤. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى، ١- ٢، اسطنبول.

٥٥. ترجمة وشرح تجريد الصريح «مختصر صحيح البخاري»، كامل ميراس، ١-١٣، أنقرة ١٩٧٢.

٥٦. المواهب اللدنية، القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمَّد: ١- ٢، مصر ١٢٨١؛ ترجمة المواهب اللدنية، ١- ٢؛ ترجمة الشاعر عبد الباقي، تورغوت أولوصوي، اسطنبول ١٩٨٤.

٥٧. نظام الحكومة النبوية «التراتيب الإدارية»، الكتاني، محمَّد عبد الحي، ١- ٢، بيروت ١٩٩٦.

٥٨. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد، ١- ٢٠، بيروت ١٩٨٥.

٥٩. التوراة والإنجيل والقرآن في نظر العلم، موريس بوكاي، ترجمة، محمَّد عليّ سونمز، أنقرة ١٩٩٨.

٦٠. تاريخ مكَّة المكرَّمة قديماً وحديثاً، محمَّد إلياس عبد الغني، المدينة المنورة ٢٠٠١.

٦١. مدخل إلى التَّوحيد، ترجمة فصل الخطاب، محمَّد بارسا، ترجمة، عليّ خسرو أوغلو، اسطنبول ١٩٨٨.

٦٢. تاريخ الإسلام، مصطفى عاصم كوكسال، ١- ١٨، اسطنبول ١٩٨٧.

٦٣. رسالة البسلمة، مصطفى بن خليل الزغراوي، «صدر الأثر المعروف باسم البرهان المتقين ترجمة حديث الأربعين لمصطفى جمعي»، اسطنبول ١٢٩٨.

٦٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، محمَّد عبد الرؤوف، ١ – ٦، بيروت ١٩٩٤.

٦٥. الجامع الصحيح، مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري، «تح، محمَّد فؤاد عبد الباقي»، ١ – ٣، اسطنبول ١٩٩٢.

٦٦. سنن النسائي، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، ١ – ٨، اسطنبول ١٩٩٢.

٦٧. رياض الصالحين، النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، «ترجمة وشرح: ياشار قان دمير، إسماعيل لطفي جاكان، راشد كوجوك»، ١ – ٨، اسطنبول ١٩٩٧؛ شرح صحيح مسلم، ١ – ١٨، مصر ١٩٨١.

٦٨. الكليات، عثمان نوري طوب باش، منشورات الأرقم.

٩٦. «التفسير الكبير»، الرازي، فخر الدين محمَّد بن عمر، مفاتيح الغيب، ١ – ٣٢، بيروت ١٩٩٠.

٧٠. سيِّدنا محمَّد في الكتب السماوية، مجلة كلية الإلهيات في جامعة أولو داغ، رمزي قايا، العدد، ٦، ١٩٩٤.

٧١. جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، كليات الحديث الكبير، الروداني، أبو عبد الله شمس الدين بن محمَّد بن سليمان، ١ – ٥، تر، نعيم أردوغان، تخريج، يوسف أوزبك، اسطنبول.

٧٢. الكليات، صادق ضانا، منشورات الأرقم.

٧٣. فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، بيروت ١٤٢٠.

٧٤. الجامع الصغير، السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، ١ – ٢، مصر ١٣٠٦؛ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، بيروت ١٩٨٧.

٧٥. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله:، ١ – ٤، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، بيروت ١٩٧٨.

٧٦. ترجمة المثنوي، شفيق جان، ١ – ٦، اسطنبول ١٩٩٧.

٧٧. مجلة العلوم الدينية، «التبشير والمبشرون المسيحيون»، شيناسي كوندوز، مجلد ٣٨، العدد ٢، ٢٠٠٢.

٧٨. المعجم الكبير، الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، ١ – ٢٥، بيروت ١٩٨٣.

٧٩. الرياض النضرة، الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمَّد، بيروت ١٩٩٦.

٨٠. جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمَّد بن جرير، ١– ٣٠، بيروت ١٩٩٥؛ التاريخ، ١– ١١، مصر.

٨١. تاريخ العبادة في الإسلام، طاهر المولوي، أنقرة ١٩٩٨؛ لغة الأدب، الإعداد للنشر، كمال أديب كورجو أوغلو، مكتبة أندرون، اسطنبول ١٩٧٣.

٨٢. سنن الترمذي، الترمذي، أبو عيسى محمَّد بن عيسى، ١– ٥، اسطنبول ١٩٩٢؛ الشمائل المحمَّدية، بيروت ١٩٦٨.

٨٣. أسباب نزول القرآن، الواحدي، الإمام أبو الحسن عليّ بن أحمد، تحقيق، كمال بسيوني زغلول، بيروت ١٩٩٠.

٨٤. المغازي، الواقدي، أبو عبد الله محمَّد بن عمر، ١– ٣، بيروت ١٩٨٩؛ مصر ١٩٤٨.

٨٥. تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، ١– ٢، بيروت ١٩٩٢.

٨٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد، ١– ٢٣، بيروت ١٩٨٦– ١٩٨٨.

٨٧. نبينا، زكائي كونرابا، اسطنبول ١٩٨٧.

٨٨. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمَّد، ١– ٦، تحقيق، محمَّد مصري عامر، القاهرة ١٩٨٨.

٨٩. مناهل العرفان، الزرقاني، محمَّد عبد العظيم، ١– ٢، بيروت ١٩٨٨.

٩٠. أبو الحسن علاء الدين الأمير علي بن بلبان: الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ١ – ٠١، تحقيق، كمال يوسف الحوت، بيروت ٧٨٩١.

٩١. السمهودي: وفاء الوفاء، ١ – ٤، بيروت ٧٩٩١؛ ١ – ٢، مصر ٦٢٣١.

٩٢. شاه ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، بيروت ٠٩٩١.

٩٣. الكاشاني، أبو بكر علاء الدين بن مسعود: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ١ – ٧، بيروت ٢٨٩١.

٩٤. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم.

المراجع باللغة التركية

1. Âsım EfendiKamus, I-IV, İstanbul, 1305.
2. Elmalılı, M. Hamdi Yazır, Hak Dini Kur'an Dili, 110-, İstanbul 1971.
3. Hâlid-i Bağdâdî, Mektubat-ı Mevlana Halid, İstanbul, 1993; Risaletu'r-Rabita, İstanbul, 1291 /1874; Divan (Trc. Sadreddin Yüksel), İstanbul, 1977.
4. Hamîdullâh, Muhammed, Hz. Peygamber'in Savaşları, trc: Sâlih Tuğ, İstanbul 1991; İslam Peygamberi, I-II, İstanbul 1995.
5. H. İbrâhim Şener, Kaside-i Burde Kaside-i Bur'e ve Su Kasidesi, İzmir, 1995.
6. İbrâhim Cânan, Hadis Ansiklopedisi, 118-, İstanbul, ts.
7. İlhan Armutçuoğlu, Kasîde-i Bürde, Konya, 1983.
8. Kâmil Miras, Sahîh-i Buhârî Muhtasarı Tecrîd-i Sarîh Tercümesi ve Şerhi, 113-, Ankara 1972.
9. Mehmet Z. Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozluğu, 13-, İstanbul19711972-.
10. Mustafa Asım Köksal, İslam Tarihi, I-XVIII, İstanbul 1987.
11. M. Akif Deniz, İlk Adım, Şubat, 2003.
12. Nebi Bozkurt, DİA, " Mekke " md. Ankara 2003.
13. Nevevî, Ebû Zekeriyyâ Yahyâ bin Şeref, Riyâzü's-Sâlihîn (tercüme ve şerh: Yaşar Kandemir, İsmâîl Lütfi Çakan, Râşit Küçük), I-VIII, İstanbul 1997.

14. Osman Nûri Topbaş, Külliyyât, Erkam Yayınları.

15. Ramazanoğlu Mahmud Sâmî, Uhud Gazvesi, İstanbul 1984.

16. Sâdık Dânâ, Külliyyât, Erkam Yayınları.

17. Safvet Senih, “ Su Kristallerinin Sırrı ” , Sızıntı, Aralık 2002, sayı 287.

18. Şefik Can, Mesnevî Tercümesi, 16-, İstanbul 1997.

19. Tâhiru’l-Mevlevî, Edebiyat Lügati, haz. Kemâl Edib Kürkçüoğlu, Enderun Kitabevi, İstanbul 1973.

20. Zekâi Konrapa, Peygamberimiz, İstanbul 1987.

فهرس

مقدمة ٧

تمهيد / ١١

أهمِّية السيرة النبوية في فهم الإسلام وتطبيقه العملي....................................١١
حكمة اختيار شبه الجزيرة مهداً الإسلام ١٩
أم القرى : مكَّة المكرَّمة ٢٢
تاريخ مكَّة وقدسيتها ٢٨
حادثة الفيل...٣٤
سيِّدنا إبراهيم عليه السلام والحنيفية ٣٧

القسم الأول/ ٤١

سيِّدنا محمَّد ﷺ قبل النُّبوَّة

ولادة النبي ﷺ وطفولته ٤٣
النور المحمَّدي ٤٣
النسب النبوي الشَّريف ٤٦
زواج والد النبي ﷺ عبد الله من أمه آمنة ٤٧
وفاة عبد الله والد النبي ﷺ ٥٠
الأخبار والحوادث المبشرة بظهور النبيِّ ﷺ ٥٠
التشريفُ العلويُّ والأحوالُ الخارقةُ التي وقعَت خلالَه.................................٥٩
أسماء النبي ﷺ ٦٢
تسليمه ﷺ إلى مرضعة ٦٣
حادثة شق الصدر الأولى ٦٩
رحلته إلى المدينة ووفاة أمه ٧٠
رعاية جده عبد المطَّلب له ٧١

رعاية عمه أبي طالب ٧٣
حادثة شق الصدر الثانية : وملء قلب النبي بالرحمة، والشفقة.......... ٧٥
فترة شباب النبي ﷺ ٧٦
نشأة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام تحت الرعاية الإلهيَّة ٧٦
رعي النبي ﷺ للغنم ٧٨
رحلاته مع عمه أبي طالب ٧٩
التقاؤه ببحيرا الراهب، وإثباتات بحيرا ٨٠
حلف الفضول ٨٤
الحياة التجارية للنبيِّ ﷺ ٨٦
تبشير الراهب نسطورا ٨٩
زواجه ﷺ من السيِّدة خديجة رضي الله عنها.......... ٨٩
زواج الرَّسول ﷺ بأكثر من امرأة والحكمة من ذلك.......... ٩١
تحرير النبي ﷺ لزيد بن حارثة وتبنيه.......... ٩٩
ضم النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى بيته.......... ١٠٠
أولاد النبي ﷺ ١٠١
التحكيم في الكعبة ١٠٢
خطبة قس بن ساعدة ١٠٤
الاختلاء في غار حراء ١٠٦
تحليل فترة طفولته وشبابه ١١٠

القسم الثاني/ ١١٣

فترة النُّبوَّة في مكَّة

بداية الوحي: الرُّؤيا الصادقة ١١٥
السنوات الثلاث الأولى للبعثة ١١٧
فترة الدعوة سرّاً ١١٧

أول الوحي وانقطاعه لمدة من الزمن ١١٧
حقيقة الوحي، وأشكال مجيئه ١٢٣
النُّبوَّة والرسالة ١٣٣
صفات الأنبياء عليهم السلام ١٣٥
الطبيعة البشرية للنبيِّ ﷺ ١٤٨
أمية النبي ﷺ والحكمة منها ١٥١
حلية الشريفة ١٥٣
عودة الوحي ١٦١
أول المسلمين ١٦٢
دار الأرقم : المركز التربوي والتعليمي الأوَّل للمسلمين........................ ١٧١
السنة الرابعة للبعثة ١٧٣
فاصدع بما تُؤمر : وأنذر عشيرتك الأقربين ١٧٣
دعوة النبي ﷺ قريشاً إلى الإسلام على الصفا ١٧٦
أهمِّية التبليغ وأسلوبه ١٨٢
تبليغ الدعوة ١٩٣
مواقف أبي لهب وامرأته تجاه النبي ﷺ ١٩٥
جهود أهل مكَّة للتحالف ١٩٧
إعجاز القرآن الكريم ، وتأثيره على المستمعين إليه ٢٠٣
مواقف المشركين من القرآن الكريم ٢١٤
الاتهامات الموجهة إلى الرَّسول ﷺ والقرآن الكريم ٢٢٠
فترة الأذى والتعذيب ٢٢٤
تلقين المسلمين دروساً في الصبر والثبات ٢٣٣
السنة الخامسة للبعثة ٢٣٧
هجرة الحبشة ٢٣٧

قصة الغرانيق ٢٣٩
هجرة الحبشة الثانية ٢٤١
السنة السادسة للبعثة ٢٤٤
طلب قريش من النجاشي إعادة المهاجرين المسلمين........ ٢٤٤
إسلام سيِّدنا حمزة رضي الله عنه ٢٤٩
إسلام سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٥٤
السنة السابعة والثامنة والتاسعة للبعثة ٢٥٩
سنوات المقاطعة........ ٢٥٩
سياسة المشركون في عزل المسلمين........ ٢٥٩
انتهاء المقاطعة والحصار ٢٦٣
حادثة انشقاق القمر ٢٦٦
استمرار الرَّسول ﷺ بالتبليغ في كل أحواله ٢٦٨
السنة العاشرة للبعثة ٢٧١
عام الحزن : وفاة السيِّدة خديجة، وأبي طالب ٢٧١
رحلة الطائف ٢٧٤
تعازي من الرحمة والرحمانية التي لا نظير له ٢٧٦
استماع الجن إلى القرآن الكريم منَ النَّبيِّ ﷺ وإيمانهم به ٢٧٧
لقاؤه بمختلف القبائل ودعوتهم إلى الإسلام ٢٨١
زواج الرَّسول ﷺ من السيِّدة سودة ٢٨٦
السنة الحادية عشرة للبعثة ٢٨٨
لقاء العقبة ٢٨٨
حادثة شق الصدر الثالثة : التحضير للمعراج ٢٨٩
التكريم اللامحدود من المحبوب للحبيب : المعراج ٢٩٠
بعض الحكم لِحادثة المعراج ٣٠١

انعكاسات المعراج ٣٠٣
السنة الثانية عشرة للبعثة ٣٠٧
بيعة العقبة الأولى ٣٠٧
تعيين مصعب بن عمير معلماً وفتح المدينة بالقرآن الكريم (السنة ١٢ للبعثة) ٣٠٨
السنة الثالثة عشرة للبعثة ٣١١
بيعة العقبة الثانية ٣١١
الملاذ الأخير للأنبياء: الإذن بالهجرة إلى المدينة ٣١٧
خطة المشركون للاغتيال ٣٢٠
الرحلة الشاقة ٣٢٥
المسافر العزيز المُنتظر ٣٣٧
المسجد الذي أُسس على التقوى : مسجد قباء ٣٤٠
صلاة الجمعة الأولى في وادي رانُوناء ٣٤٣
الانتظار الحماسي والمثير في المدينة ٣٤٤
تحليل الفترة المكيَّة ٥٣٠
خصائص الآيات المكيَّة ٥٣٣

القسم الثالث/ ٣٥٣

فترة النُّبوَّة في المَدينة المُنَوّرة

السنة الأولى للهجرة ٣٥٥
أيام النبي ﷺ الأولى في المدينة المنورة ٣٥٥
صاحب البيت: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ٣٥٧
خدمة أنس بن مالك رضي الله عنه للنبي ﷺ ٣٥٩
عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار : المؤاخاة ٣٦١
فضل المهاجرين والأنصار ٣٦٤
مدينة النبي ووثيقة المدينة ٣٧٤

إعلان المدينة حرمًا آمنًا ٣٧٩
تنظيم سوق المدينة والحياة التجارية فيها ٣٨٠
بناء المسجد النبوي وغرف السعادة ٣٨٤
الحث على صلاة الجماعة ٣٩١
الأذان الأول ٣٩٥
أصحاب الصفة : مدرسة العلم والعرفان ٣٩٧
زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ ٤٠٢
أحوال المدينة ٤٠٣
الإذن بالقتال ٤٠٧
الجهاد في سبيل الله ﷻ ٤٠٩
بعض السرايا ٤١٦
السنة الثانية للهجرة ٤١٩
بعض الغزوات وسرية بطن نخلة ٤١٩
تحويل القبلة ٤٢٢
الصيام، وصدقة الفطر، والزكاة ٤٢٥
الاعتكاف ٤٣٣
غزوة بدر الكبرى ٤٣٥
الإمداد بالملائكة ٤٤٩
أسود بدر ٤٥٢
العودة من بدر ٤٥٦
معاملة الأسرى ٤٥٧
حكم الغنائم ٤٦٦
مرتبة الشهادة ٤٦٧
إحضار السيدة زينب بنت النبي ﷺ إلى المدينة ٤٧٢
اليهود وغزوة بني قينقاع ٤٧٤

غزوة سويق ٤٧٨
زواج علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء ﵄ ٤٧٨
أهل البيت ومحبتهم ٤٨٢
السنة الثالثة للهجرة ٤٨٥
غزوة أحد : المعركة المليئة بالعبر والعظات ٤٨٥
عشق الصحابة للشهادة ٤٨٧
سيد الشهداء حمزة ﵁ ٤٩٢
سعد بن الربيع : الصحابي الذي أغلق دونه أبواب المعذرة ٥٠٢
شهداء أحد ٥٠٢
أحد جبل يحبنا ونحبه ٥٠٩
الحكم المستنتجة من غزوة أحد ٥١٠
حمراء الأسد ٥١٢
مسألة الميراث ٥١٤
السنة الرابعة للهجرة ٥١٨
وقعة الرجيع ٥١٨
موقعة بئر معونة ٥٢٢
خطة بني النضير الخائنة ٥٢٤
تحريم الخمر والميسر ٥٢٩
ذات الرقاع ٥٣٢
بدر الصغرى ٥٣٧
السنة الخامسة للهجرة ٥٣٩
إسلام سلمان الفارسي ووصوله إلى الحرية ٥٣٩
رفع حكم التبني ٥٤٦
فرض الحجاب ٥٤٩

غزوة المريسيع ٥٥١
التيمم ٥٥٤
حادثة الإفك ٥٥٥
هم الأعداء، فاحذروهم ٥٦٠
غزوة الخندق: حيث المصائب والآلام المتلاحقة التي تفوق حد التحمل ٥٦٣
البشارة في الخندق ٥٦٦
طعام جابر الذي طُرحت فيه البركة ٥٦٧
مشاقُّ غزوة الخندق ٥٦٩
البطولات التي ظهرت في غزوة الخندق ٥٧١
الحرب خدعة ٥٧٥
غزوة بني قريظة ٥٧٧
السنة السادسة للهجرة ٥٨١
مفتاح الفتوحات: صلح الحديبية: رحلة الشوق إلى الكعبة المشرفة ٥٨١
بيعة الرضوان: البيعة التي رضي الله عنها ٥٨٥
صلح الحديبية: مرحلة الدعوة الجديدة ٥٨٧
الفتح المبين : بركة الهداية المضاعفة ٥٩٣
السنة السابعة للهجرة ٥٩٨
دعوة الملوك إلى الإسلام ٥٩٨
سحر اليهود للنبي ﷺ ٦١٣
فتح خيبر : الضربة النهائية لفساد وخيانة اليهود ٦١٤
الحساسية بشأن حقوق العباد ٦٢٢
قدوم قبيلة دوس إلى المدينة ٦٢٣
عودة المهاجرين من الجبشة ٦٢٤
محاولة اليهود تسميم النبي ﷺ ٦٢٥

مسألة المتعة ٦٢٦
على طريق العودة من خيبر ٦٢٨
عمرة القضاء ٦٣٠
السنة الثامنة للهجرة ٦٣٥
وفاة السيدة زينب ﵂ ابنة الرسول ﷺ ٦٣٥
غزوة مؤتة: الأسطورة التي خطها ثلة من الصحابة ٦٣٦
دراية خالد بن الوليد في القيادة ٦٤٢
فتح مكة: جاء الحق وزهق الباطل ٦٤٦
عيد العفو ٦٥٩
بيعة أهل مكة ٦٦٤
أدوا الأمانات إلى أهلها! ٦٦٥
الوفاء النادر ٦٦٨
غزوة حنين ٦٧٠
غزوة الأوطاس ٦٧٤
حصار الطائف ٦٧٤
تقسيم الغنائم ٦٧٦
جزاء قتل المسلم ٦٨٤
تعيين والي مكة ومعلمها ٦٨٧
السنة التاسعة للهجرة ٦٨٩
سيف اللسان ٦٨٩
تبينوا من نبأ الفاسق ٦٩٤
غزوة تبوك: الامتحان الإيماني الكبير ٦٩٥
حملة الإنفاق ٧٠١
ساعة العسرة ٧٠٤

شهيد تبوك ٧١٢
خيانة المنافقين ومسجد الضرار ٧١٤
جهاد النفس الحقيقي ٧١٥
الثلاثة الذين خلفوا ٧١٦
خزائن السماوات والأرض لله تعالى ٧٢٠
لا خير في دين ليس لا عبادة فيه! ٧٢٢
الأحداث الأخرى التي وقعت بعد العودة من تبوك ٧٢٥
عام الوفود ٧٢٧
فريضة الحج ٧٢٩
السنة العاشرة للهجرة ٧٣١
إسلام عدي بن حاتم ٧٣١
حجة الوداع: الحج الأول والأخير لنور الكون ﷺ ٧٣٣
اليوم أكملت لكم دينكم ٧٤٢
المكان الذي تجلى فيه غضب الله ٧٤٣
السنة الحادية عشرة للهجرة ٧٤٧
الوصل والوداع الكبير: الرحلة السامية إلى الرفيق الأعلى ٧٤٧
الحزن الذي خيم على الكائنات ٧٦٢
الأسوة الحسنة ٧٦٧
الخاتمة ٧٨٠
المراجع ٧٨٣